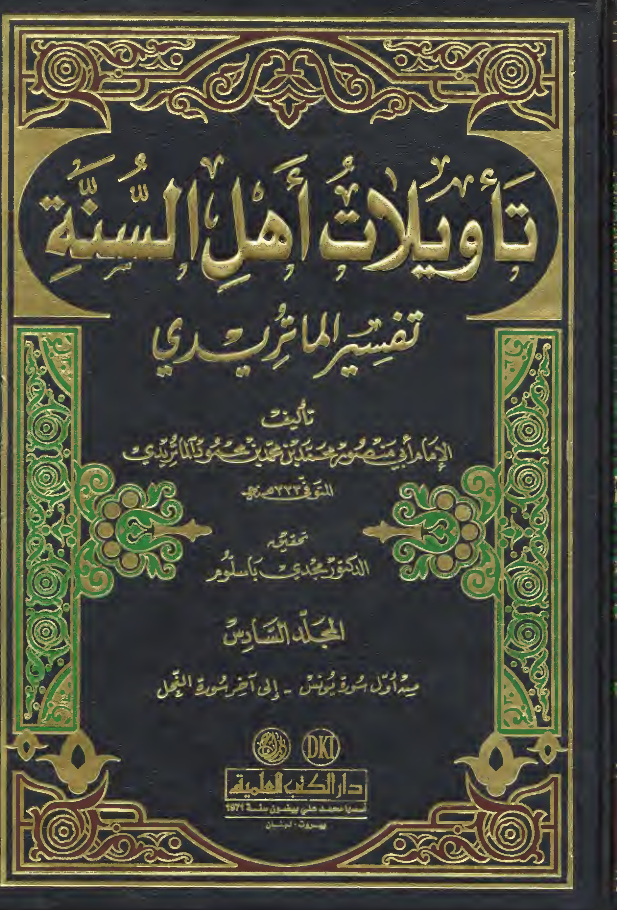
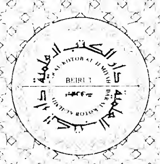


الماتريدي
تأويلات أهل السنة
أهل
أول يونس
آخر النحل
٦
دار الكتب العلمية
بيروت









تأويلات أهل السنة

تفسير الماتريدي

تأليف

الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي

المتوفى ٣٣٣هـ

تحقيق

الدكتور مجدي باسلوم

الجزء السادس

المحتوى:

من أول سورة يونس - إلى آخر سورة النحل

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الادارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (٩٦١ ١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
هاتف: [illegible] - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١ - رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الكتاب: تأويلات أهل السنة

TAʾWĪLĀT AHL AS-SUNNAH

المؤلف: أبو منصور الماتريدي

المحقق: د. مجدي باسلوم

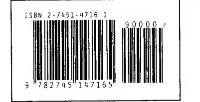
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 6230

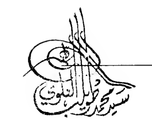
سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4716-1



سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السورة التى فيها ذكر يونس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: قد ذكرنا الوجه في الحروف المقطعات في صدر الكتاب.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: قال بعضهم: الحكيم هو الله، كأنه قال: ذلك الكتاب آيات الله.

وقال بعضهم: الحكيم هو صفة القرآن.

والكتاب يحتمل وجهين:

يحتمل أنه سماه حكيمًا فعيلا بمعنى أنه محكم، وجائز تسمية المفعول باسم الفعيل؛ نحو: قتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح ونحو ذلك، فيه الحلال والحرام، والأمر والنهى، أو محكم متقن مبرأ من الباطل والكذب والاختلاف، وهو ما وصفه تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ...﴾ الآية [فصلت: ٤٢].

والثاني: حكيمًا لما أن من تأمل فيه ونظر وفهم ما أودع فيه وأدرج، صار حكيمًا وهو ما وصفه وسماه مجيدًا، أي: من تأمله ونظر فيه صار مجيدًا شريفًا.

والحكيم هو المصيب في الحقيقة إن كان صفة القرآن أو صفة الله، فإن كان صفة لله، فهو حكيم واضع كل شيء موضعه، وإن كان صفة للقرآن فهو كذلك أيضًا واضع كل شيء موضعه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ﴾: يحتمل آيات الكتاب المعروف، ويحتمل الحجج والبراهين، أي: حجج الكتاب وبراهينه أو أعلامه، وقد تقدم ذكر الآيات في غير موضع، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل [أي قد عجبوا][1] أن أوحينا إلى رجل منهم.

---

(١) في ب: أن تتعجبوا.

ويحتمل: أيعجبون أن أوحينا إلى رجل منهم على الاستئناف، كانوا يعجبون من ثلاث: من إنزال القرآن على رجل منهم يعجز الخلائق عن إتيان مثله، ويعجبون من الوحي إلى رجل منهم وإرساله رسولا من بين الكل أو من البشر؛ كقوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]؛ وكقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا...﴾ [ص: ٨]، وكانوا يعجبون من البعث؛ كقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ الآية [ق: ٣].

ثم يحتمل قوله: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البشر، أي: لا تعجبوا أن أوحينا إلى رجل من البشر؛ فإن الإيحاء إلى من هو من البشر أبلغ في الحجاج وأقطع للعذر، وأقرب إلى الرأفة والرحمة؛ لأن البشر يعرفون خروج ما هو خارج عن طوق البشر ووسعهم، ولا يعرفون ذلك من غير جوهرهم وغير جنسهم، ويألف كل جنس بجنسه وكل جوهر بجوهره، ولا يألف غير جوهره ولا غير جنسه، فإذا كان ما وصفنا كان بعث الرسول من جنس المبعوث إليهم وجوهرهم أبلغ في الحجاج وأقطع للعذر، وأقرب إلى الرأفة والرحمة.

ويحتمل قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من الأميين، أي: لا يعجبون[١] أن أوحينا إلى رجل منهم، أي: أمي فإن ذلك أبلغ في التعريف والحجاج؛ لأنه بعث أميًّا لم يعرفوه بدراسة الكتب المتقدمة أو تلاوة شيء منها، ولا عرفوه اختلف إلى أحد منهم في تعليم كتبهم، ولا عرف أنه كتب شيئًا ولا[٢] خط خطا قط، ثم أخبر عما في كتبهم على موافقة ما فيها، وكانت كتبهم بغير لسانه؛ دل أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى؛ فذلك أبلغ في إثبات الرسالة والحجاج، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: قال بعضهم: الإنذار يكون في كل مكروه مرهوب، والبشارة في كل محبوب مرغوب.

وقال بعضهم: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الكفار بالنار.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثم اختلفوا في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: قال بعضهم: إن لهم الجنة عند ربهم.

وقيل: إن لهم الأعمال الصالحة يقدمون عليها[٣].

---

(١) في ب: تعجبوا.
(٢) في أ: أو.
(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٢٧-٥٢٨) (١٧٥٤٥) عن مجاهد، و(١٧٥٤٦) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٣٥) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

وقيل: قدم صدق: محمد ﷺ يشفع لهم عند ربهم[١].

[وقيل: إن لهم الجنة عند ربهم][٢].

وقيل: إن لهم [ثواب أعمالهم][٣] الصالحة التي قدموها بين أيديهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: سلف خير أو سلف وعْد وعِد لهم بذلك وكأن أصله من القدم.

قال أبو عوسجة: يقال في الكلام: لفلان عندي قدم صدق ويد صدق، أي: نعمة قد أسلفها إلىّ.

وقال القتبي[٤]: قدم صدق: يعني عملا صالحًا قدموه.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: سبق لهم السعادة في الذكر الأول[٥].

من قال: قدم صدق هو الشفاعة، فالقدم كناية عن الشفاعة والصدق، أي واقعة.

ومن قال: وعدوا ثواب أعمالهم أي تقدم لهم وعد حق وصدق.

ويحتمل ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: ثبتت قدمهم لا تزل، على ما وصف من ثبوت قدم المؤمنين والقرار فيه، وتزل قدم الكافرين؛ كقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾: ومن قرأ[٦] ﴿لسِحْرٌ﴾ عنى هذا القرآن.

ومن قرأ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بالألف عنى به النبي.

ثم السحر هو الذي يتراءى في الظاهر أنه حق وهو في الحقيقة باطل لا شيء، ثم هو يأخذ الأبصار ويأخذ العقول.

فأما الذي يأخذ الأبصار فهو ما يتراءى الشيء على غير ما هو في الحقيقة، والذي

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٥٢٨) (١٧٥٥٥و١٧٥٥٦) عن قتادة والحسن البصري، و(١٧٥٥٧) عن ابن زيد. وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٣٦) وعزاه لأبي الشيخ عن بكار بن مالك، ولأبي الشيخ عن الحسن، ولابن مردويه عن علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري، ولابن جرير عن زيد بن أسلم.

(٢) سقط في ب.

(٣) في أ: الأعمال.

(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (١٩٤).

(٥) أخرجه ابن جرير (٦/٥٢٨) (١٧٥٥٤)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٣٥) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٦) قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لسحر﴾ والباقون: ﴿لساحر﴾، فـ (هذا) يجوز أن يكون إشارة للقرآن، وأن يكون إشارة للرسول على القراءة الأولى، ولكن لا بد من تأويل على قولنا: هو إشارة للرسول، أي: ذو سحر، أو جعلوه إياه مبالغة، وعلى القراءة الثانية فالإشارة للرسول - عليه الصلاة والسلام - فقط. ينظر: السبعة ص (٣٢٢)، والحجة للقراء السبعة (٤/٢٥١)، حجة القراءات ص (٣٢٧)، إعراب القراءات (١/ ٢٦٠)، إتحاف الفضلاء (٢/١٠٣)، اللباب (١٠/٢٥٧).

بأخذ العقول هو أن يذهب بعقله فيصير مجنونًا.

وقال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي: مجنونًا، لكن هؤلاء لم يريدوا بقولهم: ﴿لسِحْر مبين﴾: السحر الذي يأخذ العقول، ولكن أرادوا السحر الذي يأخذ الأبصار؛ يقولون: إنه وإن كان أخذ الأبصار في الظاهر فهو لا شيء في الحقيقة، ولكن في قولهم: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ دليل أنهم عجزوا عن رده، وعرفوا أنه حق، ولكن هم أرادوا التمويه على الناس؛ كقول فرعون لسحرته حين آمنوا برب موسى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] أراد أن يموه على الناس؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]: إن القوم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، ويتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله؛ يقول: إن ربكم الله الذي يستحق العبادة والألوهية هو الذي خلقكم وخلق السموات والأرض لا الذي تعبدونه[(١)].

(١) لما حكى عن الكفار تعجبهم من الوحي والبعثة والرسالة، أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة بالعقاب، وهذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين آخرين:

أحدهما: إثبات أن لهذا العالم إلهًا قادرًا قاهرًا، نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف.

والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة؛ حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عن حصولهما، فلذلك ذكر ما يدل على تحقيق هذين الأمرين.

فأما إثبات الإله، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وأما إثبات المعاد، فبقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤] فهذا ترتيب في غاية الحسن.

فإن قيل: كلمة «الذى» وضعت للإشارة إلى شيء معروف عند السامع، كما إذا قيل لك: من زيد؟ فتقول: الذي أبوه منطلق، فهذا التعريف إنما يحسن لو كان «أبوه منطلق» أمره معلومًا عند السامع، فهاهنا لما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يوجب أن يكون ذلك أمرًا معلومًا عند السامع، والعرب ما كانوا عالمين بذلك، فكيف يحسن هذا التعريف؟

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾: قد تقدم ذكره في صدر الكتاب.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: وهو - أيضًا - على الأول: إن الذي يستحق صرف العبادة إليه وتوجيه الشكر إليه هو الذي يدبر الأمر في مصالح الخلق في جر المنافع إليهم ودفع المضار عنهم، لا الذين لا يملكون المنافع إلى أنفسهم أو دفع المضار عنهم، فضلا [عن] أن يملكوا أجرها إلى من يعبدهم أو دفع المضار عنهم.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي بقضيه[1]، والتدبير والقضاء واحد.

وقال بعضهم: ﴿يُدَبِّرُ﴾: يقدر، وهو ما ذكرنا التدبير والتقدير سواء.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: الشفيع هو ذو المنزلة والقدر عند الذي يشفع إليه، لا أحد في الشاهد يشفع لآخر إلى آخر إلا بعد أن يكون الشفيع عند الذي يشفع إليه ذا منزلة وقدر، فإذا كان كذلك فمع ذلك أيضًا لا يشفع إلا من بعد ما أذن له بالشفاعة لمن جاء بالتوحيد.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ يقول: ذلكم الذي يستحق العبادة هو ربكم، الذي خلقكم وخلق السموات والأرض ودبر أموركم، فاعبدوه ولا تعبدوا الذي لا يملك شيئًا من ذلك.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أنه هو المستحق للعبادة، وهو المستوجب للشكر، لا الذين تعبدون أنتم. أو أن يقول: أفلا تذكرون أن الذي خلقكم وخلق السموات والأرض هو ربكم، وهو مدبر أمور الخلائق في مصالحهم ما يرجع إلى مصالحهم في دنياهم ودينهم، لا الذي يعبدون من دون الله، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: إليه مرجع الخلائق كلهم في جميع

= فالجواب: أن هذا كان مشهورًا عند اليهود والنصارى؛ لأنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل، والعرب كانوا يخالطونهم، فالظاهر أنهم كانوا سمعوه منهم؛ فلهذا حسن هذا التعريف.

فإن قيل: ما الفائدة في بيان الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض، مع أنه - تعالى - قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر؟

فالجواب على قول أهل السنة: أنه تعالى يحسن منه كل ما أراد، ولا يعلل شيء من أفعاله بشيء من الحكمة والمصالح، وأما على قول المعتزلة - وهو أن أفعاله تعالى مشتملة على المصالح والحكمة - فقال القاضي: لا يبعد أن يكون خلق الله السموات والأرض في هذه المدة المخصوصة، أدخل في الاعتبار في حق بعض المكلفين، ثم قال: فإن قيل: فمن المعتبر؟ ثم أجاب فقال: أما المعتبر فهو أنه لا بد من مكلف أو غير مكلف خلقه الله تعالى قبل خلقه السموات والأرض، وإلا لكان خلقهما عبثًا. ينظر اللباب (١٠/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٣٠) (١٧٥٥٨ - ١٧٥٦٢) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٣٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

الأوقات، لكنه خص ذلك اليوم بالمرجع إليه لما أن الخلائق كلهم يعلمون يومئذ أنهم راجعون إليه؛ وكذلك قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] هم بارزون له في الدنيا والآخرة، لكنهم يومئذ يعرفون ويقرون بالبروز له.

وكذلك: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] الملك لله في الدنيا والآخرة وفي الأوقات جميعا، لكنه خص ذلك اليوم لما لا ينازع في الملك في ذلك اليوم، [ويقرون بالملك له في ذلك اليوم][١] وفي الدنيا من قد نازع في ملكه.

هذا - والله أعلم - وجه التخصيص لذلك اليوم بالملك، وإن كان الملك في الدارين جميعًا فعلى ذلك المرجع، أو سمى البعث رجوعًا إليه؛ لما المقصود من إنشائه البعث، فسماه بذلك لما ذكرنا؛ لأنه لو لم يكن المقصود من إنشائه إياهم سوى الإنشاء والإفناء، كان خلقه إياهم عبثًا وباطلا؛ كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

يحتمل ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: البعث الذي ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيده. ويحتمل ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ من الثواب والعقاب في الآخرة؛ الثواب للمحسن منهم والعقاب للمسيء.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: عرفتم أنه هو الذي براكم والخلق جميعًا، فكذلك هو يعيدكم بعد إفنائكم؛ إذ بدء الشيء على غير مثال أشد عندكم من إعادته على مثال؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: إعادة الشيء أهون عندكم من بدئه.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

قيل[٢]: بالعدل، لكن ما يجزيهم، إنما يجزيهم إفضالًا وإحسانًا لا استيجابًا واستحقاقًا.

ثم يحتمل قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وجوهًا:

أحدها: أنه يجزي المحسنين جزاء الإحسان، والمسيء جزاء الإساءة، ويفصل بين [العدو والولي][٣] في الآخرة في الجزاء، ويجعل للولي علامة وأثرًا يعرف بهما من العدو؛ إذ لم يفصل في الدنيا بين الأولياء والأعداء في الرزق وما يساق إليهم من النعيم،

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (١٧٥٦٧).

(٣) في أ: الولي والعدو.

ولا يجعل علامة يعرف بها الولي من العدو وجعل في الآخرة ذلك حتى يعرف هذا من هذا، فهذا العدل الذي ذكرنا يشبه[١] أن يكون هو ذلك.

ويحتمل ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ الوزن، أي: يجزيهم بالوزن على تعديل النوع بالنوع لا على القدر، أي: يجزي بالحسنة قدرًا لا يزيد على ذلك، ولكن يجزي للخير خيرًا وللحسنة حسنة وللسيئة سيئة.

ويحتمل قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الروم: ٤٥] بالعدل، أي: يجزي الذين عملوا بالعدل لم يجوروا فيه ولا جاوزوا الحد الذي حد لهم، ولكن عملوا بالعدل فيه، ويشبه أن يكون على تقديم العدل ليجزي الذين آمنوا بالعدل، أي: لا يعذبهم في النار إذا آمنوا، ثم الذين عملوا الصالحات يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، والله أعلم بالصواب ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: يجزيهم في الآخرة بما أقسطوا في الدنيا وعدلوا، فيكون القسط على هذا التأويل نعتًا لهم.

وإن كان ما ذكر من القسط راجعًا إلى الله ووصفًا له فهو يخرج على وجوه:

أحدها: يجزي فريقًا من المؤمنين بالعدل، يجزي لإحسانهم جزاء الإحسان، [ولإساءتهم جزاء الإساءة؛ فيكون جزاء بالعدل، ويجزي فريقًا آخر منهم بالفضل والإحسان: يجزي بحسناتهم جزاء الحسنة،][٢] ويكفر عن سيئاتهم؛ وهو كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ الآية [الأحقاف: ١٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية [النساء: ٤٨، ١١٦].

والثاني: يجزيهم بالفضل؛ إذ العدل هو وضع الشيء موضعه، أي: يضع الفضل في أهله لا يضعه في غير أهله، ووضع الفضل في أهل الإيمان عدل، إذ هم أهل له - والله أعلم - وهو كقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

والثالث: العدل الذي هو مقابل الإحسان وهو الفضل لا العدل الذي هو ضد الجور؛ كقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٢٩]، لا يحتمل أن يقول: لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء في العدل الذي هو ضد الجور [لأن] في مثل هذا يستطيعون أن يعدلوا بينهم؛ فعلى ذلك قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الروم: ٤٥] بالعدل الذي هو مقابل الإحسان وهو الفضل؛ إذ للفضل درجات، وأصله

---

(١) في أ: ليشبه.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

أن جزاء الآخرة كله إفضال وإحسان وإنعام لا استحقاق واستيجاب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

قيل[١]: الحميم: [هو][٢] الشراب الذي انتهى حره غايته.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ذكر في الشمس الضياء وفي القمر النور فهو - والله أعلم - لأن الليل مظلم يظهر نور القمر فيه ويغلب على ظلمة الليل ويقهرها، وأما النهار فهو مبصر على ما ذكر - عز وجل-: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] جعل فيه النور، فلو جعل الشمس في النور خاصة، لكان لا يظهر نور الشمس ولا غلب نورها على نور النهار[٣]، ويغلبه ويقهره ليظهر المنافع التي [جعل فيها ولو كان نورًا مثله لم يظهر نور هذا من هذا ولم يوصل إلى المنافع التى][٤] جعلت فيها للخلق، وهو ما ذكر أنه مد الظل، وأخبر أنه لو شاء لجعله ساكنًا ولو كان ساكنًا ممتدًّا على ما جعل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] لكان لا يعرف الظل، ثم أخبر أنه جعل الشمس دليلا عليه ليعرف بها الظل، فتنسخ الشمس ذلك [الظل] الممدود شيئًا بعد شيء، فصارت الشمس بها يعرف الظل وبها يظهر فضل ذلك الضياء الذي في الشمس كان به يعرف نورها من نور النهار وبه يوصل إلى منافع الشمس، ولو كان نورًا لكان لا يعرف ولا يظهر؛ إذ لا يغلب أحدهما صاحبه - والله أعلم - ولا يعرف آية الشمس من آية النهار، ثم جعل آية الشمس غالبة على جميع الآيات حتى لا تبصر النجوم بالنهار أصلا والقمر وإن كان نوره يرى بجلاء[٥]، فإن نور الشمس قد يغلبه ويقهره حتى لا يظهر أبدًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

يشبه أن يكون التقدير الذي ذكر لهما جميعًا ويعرف الحساب وعدد السنين لهما جميعًا، وكذلك ذكر في حرف حفصة: ﴿وقدرهما منازل﴾، وجائز أن يكون جعل الشمس بالذي يعرف بها أوقات الصلوات والأزمنة من الشتاء والصيف لا يعرف ذلك بالقمر، وجعل في القمر معرفة الشهور والسنين، وفي الشمس معرفة أوقات الصلوات

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٦/ ٥٣١) والبغوي (٢/ ٣٤٤).

(٢) سقط في أ.

(٣) زاد في أ: فكانت تذهب المنافع التي جعل فيها للخلق، وجعل عز وجل بلطفه فيها ليظهر نورها على نور النهار.

(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٥) في أ: بحال.

والأزمنة، لا يعرف بها الشهور والسنون إلا بعد جهد؛ وبالقمر لا تعرف أوقات الصلوات والأزمنة، جعل الله تعالى في الشمس منفعتين: منفعة التقلب ومعرفة الأزمنة، ومعرفة[١] نضج الأشياء وينعها، وفي القمر منفعتين أيضًا: أحدهما: معرفة حساب الأيام والشهور والسنين، ومعرفة[٢] نضج الإنزال والأشياء.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ليس أن يعرف هذا بهما ولا يعرف غيره، بل يعرف ما ذكر وأشياء كثيرة.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

قال أبو بكر الأصم والكيساني: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه دلالة معرفته. وقال قائلون: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه [دلالة معرفة][٣] الشهادة له على الخلق، وهي شهادة الوحدانية والألوهية.

وقال بعضهم: ما خلق الله ذلك إلا بالأمر الكائن لا محالة وهو البعث.

ويحتمل قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة، لم يخلق ذلك عبثًا باطلا؛ وهو كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكن بحكمة.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قيل: نبين أو نصرفها لقوم ينتفعون بعلمهم، إنما ذكر الآيات فيما ذكر لقوم يعقلون ولقوم يتفكرون ولقوم يفقهون الآيات التي ينتفعون بها ويعقلون الشيء، إنما يكون للشيء الذي ينتفع به لا للذي لا ينتفع به.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

إن في اختلاف الليل والنهار آية البعث ودلالة تدبير صانعهما، أما دلالة البعث فهي أن كل واحد منهما إذا جاء ذهب الآخر وفني حتى لا يبقى له الأثر، ثم يتجددان ويحدثان على ذلك أمرهما، ويتلف كل واحد منهما صاحبه حتى لا يبقى له الأثر، فمن قدر على ما ذكرنا قدر على بعثهم وإنشائهم بعد الموت بعدما صاروا ترابًا، وأما دلالة التدبير فهو جريانهما [وسيرهما][٤] على سنن واحد وتقدير واحد من غير تغيير يقع فيهما أو تفاوت أو

---

(١) في أ: ومنفعة.
(٢) في أ: ومنفعة.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في أ.

نقصان يقع فيهما أو زيادة وإن كان أحدهما يدخل في الآخر، دل على ما ذكرنا أنهما يجريان ويختلفان على شيء واحد وجريان واحد؛ أن فيهما تدبيرًا غير ذاتي وعلمًا أزليًّا وأنه واحد؛ إذ لو كان التدبير فيهما لعدد لكانا مختلفين ولا يجريان على قدر واحد من غير تفاوت فيهما أو نقصان أو زيادة، دل أنه واحد، وبالله التوفيق.

وفي ذلك دلالة وحدانية منشئهما وخالقهما؛ لأنه أنشأهما وبينهما من البعد ما بينهما من البعد، وجعل منافع أحدهما متصلة بمنافع الآخر على بعد ما بينهما، دل أن منشئهما واحد؛ إذ لو كان فعل عدد منع كل منهم فعله عن الوصول بالآخر على ما هو فعل ملوك الأرض.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾. مخالفة الله ويتقون جميع الشرور والمساوي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾.

قال قائلون: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ من الرجاء، أي: لا يرجون ما وعد للخلق من الثواب، ولا يرغبون فيما يرجى ويطمع من الرغائب.

وقال بعضهم[١]: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يخافون لقاءنا، فما من خوف إلا وفيه رجاء، [وما من رجاء إلا وفيه خوف][٢]؛ لأن الخوف الذي لا رجاء فيه هو يأس[٣]، والرجاء الذي لا خوف فيه أمن، لكن الغالب في الحسنات والخيرات الرجاء وفيه خوف، والغالب في السيئات والشرور الخوف وفيه أدنى الرجاء، وهو ما ذكرنا في الشكر والصبر أنهما واحد؛ لأن الصبر هو كف النفس عن الشهوات واللذات[٤]، والشكر هو استعمالها في الخيرات، فإذا كفها عن الشهوات استعملها في الخيرات؛ لذلك قلنا: إنهما في الحقيقة واحد؛ ولأن الشكر هو القبول وكذلك الصبر أيضًا، غير أن الشكر في قبول النعم والصبر في قبول البلايا والمصائب - والله أعلم - يصير كأنه قال: إن الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٦/ ٥٣٣)، والبغوي (٢/ ٣٤٤).
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: إياس.
(٤) في أ: واللهوات.

أي: اختاروا المقام فيما عملوا لها كأنهم يقيمون فيها أبدا.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من ردهم الآيات وكفرهم بها.

وقوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: سروا بها وآثروا ثواب محاسن الدنيا على ثواب الآخرة. والثاني: رضاهم بالدنيا والطمأنينة فيها منعهم عن التفكير والنظر في أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾.

يحتمل وجوهًا: يحتمل: يهديهم ربهم بإيمانهم في الدنيا طريق الجنة في الآخرة، وهو يعني ما ذكر في القصة أن المؤمن إذا أخرج من القبر يصور له عمله في صورة حسنة.

والثاني: يهديهم [ربهم][(١)] بإيمانهم، [أي: يهديهم ربهم بإيمانهم][(٢)] فيصيرون مهتدين بهدايته إياهم ويشبه يهديهم ربهم بإيمانهم أي يدعوهم إلى الخيرات في الدنيا بإيمانهم، والله أعلم.

فهذا على المعتزلة؛ لأنهم يمتنعون عن تسمية صاحب الكبيرة مؤمنًا ومعه إيمان، فيلزمهم أن يمتنعوا عما وعد له وإن كان معه إيمان، فإذا ذكر له الوعد مع هذا ألزمهم[(٣)] أن يسموه مؤمنًا لما معه من الإيمان.

وقوله - عز وجل-: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. يقول أهل التأويل: من تحت أهل الجنة، وقد ذكرنا هذا.

وقوله - عز وجل-: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ . قال قائلون: قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دعوى الإيمان؛ أي: يدعون في الآخرة من الإيمان والتوحيد لله والتنزيه له كما ادعوا في الدنيا وحدانية الله ونزهوه.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

هو حرف تنزيه وتبرئة الرب عن الأشباه وجميع الآفات التي وصفته المشبهة الملحدة بها، فهذا يدل أن ما خرج مخرج الدعوى فإنه لا يختلف باختلاف الدور.

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: لزمهم.

وقال عامة أهل التأويل[١]: هو من الدعاء لا من الدعوى، يقولون: إنهم إذا اشتهوا طعامًا أو شرابًا وتمنوا شيئًا فيدعونه بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيؤتون ما تمنوا واشتهوا؛ لما ذكر أنه لا تنقطع اللذات في الجنة، ولو كان ما يقولون لكان فيه انقطاع اللذات والشهوات، إلا أن يقال: إنهم يلهمون شهوات وأماني فيشتهون، وقال الله - عز وجل -: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١] ولا نعلم ما أراد به.

وقوله - عز وجل -: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يخرج على وجوه:

أحدها: يخبر أنه ليس على أهل الجنة من العبادات شيء سوى التوحيد وهو كلمة التوحيد.

والثاني: يقولون ذلك لعظيم ما رأوا من النعيم وعجيب ما عاينوا.

والثالث: شكرًا لما أعطاهم من ألوان النعيم والأطعمة.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

قال أهل التأويل[٢]: إن الملائكة يأتون[٣] بما اشتهوا ويسلمون عليهم ويردون السلام على الملائكة؛ فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، فإذا طعموا وفرغوا قالوا عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو قول ابن عباس وغيره من أهل التأويل، ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ والسلام[٤] الذي لا عيب فيه ولا مطعن، أي كلام بعضهم لبعض منزه منقى من جميع العيوب والمطاعن؛ كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [الواقعة: ٢٥] الآية، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ونحوه.

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال أهل التأويل[٥]: يقولون على أثر فراغهم من الطعام والشراب ذلك.

وقال الحسن: إن الله رضي عن عباده بالشكر لما أنعم عليهم في الدنيا والآخرة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي دعواهم في الآخرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كما كان دعواهم في الدنيا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٦/ ٥٣٥) والبغوي (٢/ ٣٤٥).

(٢) قاله ابن جريج، أخرجه ابن جرير (١٧٥٧٨) وابن المنذر وأبو الشيخ عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٥٣٩).

(٣) زاد في أ: من ألوان النعيم.

(٤) في أ: والكلام.

(٥) هذا القول هو تمام قول ابن جريج السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

كأن الآية على الإخبار كأنه قال: ولو يعجل الله للناس الشر إذا استعجلوه كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه - لقضي إليهم أجلهم؛ لأنه ليس يذكر في ظاهر الآية استعجالهم الشر إنما يذكر تعجيله، ولكن فيه ما ذكر من الإضمار إضمار الاستعجال، ومنه ما ذكر في غير آية من القرآن استعجالهم العذاب؛ كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ١]، وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك، كانوا يستعجلون العذاب استعجال تضرع، فيقول: لو عجل لهم العذاب إذا استعجلوه كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه - لقضي أجلهم، يقول: لهلكوا أو فنوا، هذا التأويل في أهل الكفر خاصة عند استعجالهم العذاب استعجال تضرع وسؤال، ويشبه أن يكون هذا في جملة الخلق على غير تصريح سؤال، ولكن عند ارتكابهم الشر بقوله: لو يعجل الله للناس الشر باكتسابهم الشر وبارتكابهم إياه [وقت اكتسابهم، كما يعجل لهم الخير][(١)] وقت اكتسابهم الخير - لقضي إليهم أجلهم، أي: لو عجل لهم جزاء شرهم وقت اكتسابهم الشر، كما يعجل لهم جزاء خيرهم، لكان ما ذكر ما يستوجبون بارتكابهم الشر وقت فعلهم إياه لقضي إليهم أجلهم، لكنه لم يعجل لهم ذلك وأخره إلى المدة التي جعل لآجالهم.

ويمكن وجه آخر: وهو ما يدعو بعضهم على بعض باللعن والخزي، يقول الرجل عند شدة الغضب: اللهم العن فلانا، اللهم أخزه، ونحو ذلك من الدعوات، يقول: لو عجل لهم هذا كما يعجل لهم عند دعاء بعضهم لبعض بالرحمة والسعة - لقضي إليهم أجلهم؛ لهلكوا وفنوا، ويكون ذلك انقضاء أجلهم، ويكون ذلك على وجوه ثلاثة.

أحدها: استعجال سؤال وتضرع، الذي ذكرنا.

والثاني: بأفعالهم وارتكابهم الشر وقت ارتكابهم.

والثالث: الأسباب التي بها يرتكبون ويفعلون.

وقوله: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يحتمل: لقضي [أجلهم قبل المدة التي جعل لهم.

---

(١) سقط في أ.

والثاني: لقضي أجلهم؛ أي: يجعل أجلهم ذلك، ففيه دلالة ألَّا يهلك أحد قبل أجله و][1] لا يقدم ولا يؤخر، فهو ما ذكر: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

هو ما ذكرنا أن من حكمه ألا يعاقب. أحدًا من الكفرة في [الدنيا بصنيعه][2] الذي صنع، وقد يعجل لهم جزاء خيراتهم في الدنيا؛ كما ساق إليهم من أنواع النعم، ولكن من حكمه أن يؤخر عقوبتهم إلى يوم القيامة؛ فذلك تأويله، والله أعلم.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نتركهم يترددون في أعمالهم، [وجرمهم إلى][3] الوقت الذي وعد لهم العذاب، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: قال بعض أهل التأويل: إن جميع ما ذُكر في القرآن الإنسان فالمراد منه الكافر[4]؛ من ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ - ٢] ونحوه، لكن هذا لا نعلم أنه أراد به الكافر، فلئن كان ما ذكروا فإن أهل الإيمان يدخلون في هذا[5] الخطاب، إذا كان منهم ما يكون من الكفرة؛ لأن من أهل الإيمان من يقبل على الدعاء والتضرع إلى الله عند مس الحاجة والشدة، فإذا انجلى ذلك وانكشف عنه ترك ذلك الدعاء الذي كان دعا، وذلك التضرع الذي كان يتضرع إليه، فدخل في ذلك[6].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) في أ: الكفر بصنعه.
(٣) في أ: وأخبر أنهم إلى.
(٤) ذكره ابن عادل في اللباب (١٠/ ٢٧٨).
(٥) في ب: ذلك.
(٦) وقيل: المراد بالإنسان: الجنس، وهذه الأحوال بالنسبة إلى المجموع، أي: منهم من يدعو مستلقيا، ومنهم من يدعو قائمًا، أو يراد به شخص واحد، جمع بين هذه الأحوال الثلاثة بحسب الأوقات ، فيدعو في وقت على هذه الحال، وفي وقت على أخرى، والصحيح أن المراد بـ (الإنسان) الجنس، وقال آخرون: كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان فالمراد به: الكافر. وهذا باطل؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٦، ٧] لا شبهة في أن المؤمن داخل، وكذا قوله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، وقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٩] والحق: أن اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام، إن حصل معهود سابق، صرف إليه، وإن لم يحصل معهود سابق، حمل على الاستغراق؛ صونًا له عن الإجمال والتعطيل. ينظر اللباب (١٠/ ٢٧٨).

ثم قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾: ليس على إرادة حقيقة الجنب والقعود والقيام، ولكن على الدعاء في كل حال، أي: يدعونه في كل حال؛ لما عرفوا أن الذين كانوا يعبدون من دون الله لا يملكون دفع ما حل بهم من الشدائد والمضار - أقبلوا على الله بالتضرع والدعاء إليه في كشف ذلك عنهم(١).

ثم أخبر عن سفههم وشدة تعنتهم وعودهم إلى الحال التي كانوا من قبل فقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾: يقول - والله أعلم -: مر كأن لم يدعنا قد نسينا في الرخاء كأن لم يعرفنا [واستمر على ترك الدعاء في الرخاء، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ عرفنا ما كانوا يعملون والإسراف هو العدوان](٢) والتعدي عن الحد الذي جعل له وهو وضع الأموال والأنفس في الموضع الذي لا ينتفعون بها في عبادة الأصنام وغيرها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: فإن قيل: قد أهلك من قد ظلم ومن لم يظلم، فما يعلم من أهلك من الظلمة أنه إنما أهلكهم لظلمهم، أو أهلك لصلاح من لم يظلم.

قيل: إنه أهلك الظلمة إهلاك استئصال وعقوبة، وأهلك من لم يظلم لا إهلاك عقوبة واستئصال، إنما هو إهلاك بآجالهم التي جعل لهم.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: إنما أهلك أولئك بسؤالهم الذي سألوا سؤال تعنت رسلهم الآيات، فإذا جاءوا بتلك الآيات كذبوها، فأهلكوا عند ذلك، فأنتم يا أهل مكة إذا سألتم رسولكم الآية ثم

---

(١) وفي كيفية النظم وجهان:
الأول: أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا، لهلك وقضي عليه، فبين في هذه الآية ما يدل على ضعفه، ونهاية عجزه؛ ليكون ذلك مؤكدًا لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات.
الثاني: أنه -تعالى- حكى عنهم: أنهم يستعجلون نزول العذاب، فبين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الاستعجال؛ لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يؤذيه، فإنه يتضرع في إزالته عنه؛ فدل على أنه ليس صادقًا في هذا الطلب. ينظر اللباب (١٠/ ٢٧٧).

(٢) سقط في أ.

كذبتموها، يعذبكم كما عذب أولئك؛ إذ من حكمه الإهلاك على أثر السؤال، كأنه ينهى أهل مكة عن سؤال الآيات، فإن على إثره الإهلاك إذا لم يقبلوها.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتمل البينات التي تبين ما يؤتى وما يتقى، وقد ذكرناها في غير موضع.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾: يخبر رسوله أنهم وإن سألوك الآيات فإذا جئت بها فإنهم لا يؤمنون، يعني: أهل مكة.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: كل مجرم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

يحتمل قوله: ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: جعل أنفسكم خلف أنفس أولئك الذين لم يهلكهم، يخرج هذا مخرج تذكير النعمة والامتنان والرحمة، يذكرهم أنه لو شاء أهلك الكل، فلا يكون هؤلاء خلف أولئك، ولكن بفضله ورحمته أبقاكم.

ويحتمل قوله: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [أولئك في المحنة والعبادة أي: جعل عليكم من المحنة والعبادة كما كان على آبائكم من المحنة والعبادة.

ويشبه أن يكون قوله جعلناكم خلائف][١] الذين لم يظلموا، فكيف لا تتبعونهم؛ لأن الذين ظلموا قد أهلكتهم، فأنتم خلائف أولئك الذين لم يظلموا ولم يكذبوا الرسل، فكيف لا تتبعونهم كأنهم ادعوا أن آباءهم كانوا على ما هم عليه، وأنهم على مذاهب آبائهم، يقول: جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم، أي: لست أنا بأول رسول أرسلت إليكم، بل لم يزل الله [يرسل رسلًا][٢] في الأمم، فكان فيهم لهم أتباع يتبعون رسلهم إلى ما يدعونهم إليه ويجيبونهم، فاتبعوني أنتم يا أهل مكة فيما دعيتم إليه.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: لم يزل الله تعالى عالمًا بما كان ويكون منهم من المعصية والطاعة، ولكن ليعلمهم عصاة ومطيعين؛ لأن المعصية إنما تكون بعد ما يكون النهي والطاعة إنما تكون بالأمر فيبتليكم فيعلمكم عصاة كما علم أنه يكون منكم معصية ويعلمكم مطيعين كما علم أنه يكون منكم الطاعة، وقد ذكرنا أمثال هذا فيما تقدم، والله أعلم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في أ: ينزل رسولًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: البينات قد ذكرنا في غير موضع، والبينات هي التي تبين أنها آيات نزلت من عند الله لم يخترعها أحد من الخلق(١).

وقد ذكرنا قوله - أيضًا-: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾: يشبه أن يكون قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ألا ترى أنه قال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾، إنما أجابهم في التبديل؛ دل أن السؤال كان سؤال تبديل، ولكن كانوا يسألون سؤال استهزاء وتكذيب.

ثم اختلف أهل التأويل في التبديل الذي سألوا.

قال بعضهم: سألوا أن يبدل ويجعل مكان آية العذاب آية الرحمة أو(٢) يبدل أحكامه(٣).

ويحتمل قوله: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي: بدل أحكامه واترك رسمه.

ويحتمل ما ذكرنا أنهم سألوا أن يتلو مكان آية العذاب آية الرحمة، ومكان ما فيه سب آلهتهم مدحها ونحو ذلك، والله أعلم.

---

(١) روي عن ابن عباس: أن خمسة من الكفار كانوا يستهزءون بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وبالقرآن: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله - تعالى - كل واحد منهم بطريق، كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

وقال مقاتل: هم خمسة: عبد الله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هشام، قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات، والعزى، ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزله الله، فقل أنت من عند نفسك، أو بدِّله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان حرام حلالاً، وحلال حرامًا.

ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٤٧)، وينظر: اللباب (١٠/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) في أ: لو.

(٣) ذكره بمعناه ابن جرير (٦/ ٥٤٠)، وكذا البغوي في تفسيره (٢/ ٣٤٧).

ونحن لا نعلم ما أراد بالتبديل تبديل الأحكام أو تبديل الرسم والنظم، إنما نعلم ذلك بالسماع(١).

ثم أخبر أنه لا يقول ولا يتبع إلا ما يوحى إليه ويؤمر به بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ إن تركت تبليغ ما أمرت بالتبليغ إليكم، وهكذا كل من عرف ربه خافه إن عصاه وخالف أمره ونهيه، ومن لم يعرف ربه لم يخفه إن عصاه وخالف.

وقوله: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾: سؤالهم سؤال تعنت واستهزاء؛ لأنه لا منفعة لهم لو أتى بغيره وبدله سوى ما في هذا ولو جاز لهم هذا السؤال جاز ذلك في كل ما أتى به واحدًا بعد واحد، فذلك مما لا ينقطع أبدًا ولا غاية ولا نهاية فهو سؤال تعنت واستهزاء.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾: هو صلة ما تقدم من قوله حيث قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ قد ذكرنا أن هذا يحتمل وجهين:

---

(١) فإن قيل: إذا بدل هذا القرآن فقد أتى بغير هذا القرآن، وإذا كان كذلك، كان كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر، ومما يدل على أن كل واحد منهما عين الآخر: أنه - عليه الصلاة والسلام - اقتصر على الجواب بنفي أحدهما، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ؛ فيكون الترديد فيه والتخيير باطلًا.

فالجواب: أن أحد الأمرين غير الآخر، فالإتيان بكتاب آخر، لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه، يكون إتيانًا بقرآن آخر، وأما إذا أتى بهذا القرآن، إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مَدْحها، ومكان آية رحمةٍ آيةَ عذاب، كان هذا تبديلاً، أو نقول: الإتيان بقرآن غير هذا، هو أن يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب، والتبديل: هو أن يغير هذا الكتاب، مع بقاء هذا الكتاب.

وقوله: إنه اكتفى في الجواب بنفي أحد القسمين، قلنا: إن الجواب المذكور على أحد القسمين، هو عين الجواب عن القسم الثاني، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - بين أنه لا يجوز أن يبدله من تلقاء نفسه؛ لأنه وارد من الله -تعالى - ولا يقدر على مثله، كما لا يقدر على مثله سائر العرب؛ لأن ذلك كان متقررًا عندهم لما تحداهم بالإتيان بمثله.

واعلم أن التماسهم لهذا يحتمل أن يكون سخرية واستهزاء، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل الجد، ويكون غرضهم: أنه إن فعل ذلك، علموا كذبه في قوله: إن هذا القرآن منزل عليه من عند الله، ويحتمل أن يكون التماسهم كتابًا آخر؛ لأن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم، والطعن في طرائقهم، فطلبوا كتابًا آخر ليس فيه ذلك، أو يكونوا قد جوزوا كون القرآن من عند الله، لكنهم التمسوا منه نسخ هذا القرآن، وتبديله بقرآن آخر.

ينظر اللباب (١٠/ ٢٨٢).

يحتمل أنهم سألوه أن يبدل أحكامه على ترك رسمه ونظمه.

ويحتمل قوله: ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي: ارفع رسمه ونظمه وأحكامه، كأنهم ادعوا على رسول الله ﷺ اختراع هذا القرآن من نفسه واختلاقه من عنده، فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تأويله - والله أعلم-: لو شاء الله ألا يظهر دينه فيكم ولا [ألزمكم حجته][(١)] ولا بعثني إليكم رسولا، ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ و ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم به.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أعلمكم ما فيه من الأحكام، أو يقول: لو شاء الله لم يوح إلي، ولا أمرني بتبليغ ما أوحي إلي إليكم، ولا بالدعاء إلى ما أمرني أن أدعوكم إليه.

وفي قوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [دلالة أن الله إن شاء شيئًا كان وما لم يشأ لم يكن لأنه أخبر أنه لو شاء ما تلوته عليكم][(٢)] فلو لم يشأ أن يتلوه ما تلاه؛ دل أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وذلك يرد على المعتزلة قولهم: شاء الله أن يؤمن الخلائق كلهم لكنهم لم يؤمنوا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فقد لبثت فيكم عمرا من قبله فلم أدع ما أدعى للحال، ولا تلوت ما أتلو، أفلا تعقلون أنى لم أخترع هذا من نفسي، ولكن وحي أوحي إلى؟! إذ لو كان اختراعًا مني لكان ذلك مني فيما مضى من الوقت وكنت لابسًا فيكم، فإذ لم يكن مني ذلك أفلا تعقلون أني لم أخترع من نفسي؟!

يحتمل هذا الكلام وجوهًا:

أحدها: أنهم لما ادعوا عليه الاختراع من عنده قال: إني قد لبثت فيكم من قبله، أي: [من][(٣)] قبل أن يوحى هذا إلي، فلم تروني خططت بيميني، ولا اختلفت إلى أحد في التعلم والدراسة، فكيف أخترع من عندي؛ إذ التأليف[(٤)] لا يلتئم ولا يتم إلا بأسباب تتقدم؟!

والثاني: فقد لبثت عمرا سنين لم تعرفوني ولا رأيتموني كذبت قط، فكيف أفتري على الله تعالى وأخترع القرآن من عند نفسي؟! ألا ترى أنه قال على إثر هذه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) في أ: ألزمه حجة.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: والتأليف.

﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا.

والثالث: يحتمل قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ فلم أسمع أحدًا ادعى البعث، ولا أقام حجة عليه، وأنا قد ادعيت البعث وأقمت على ذلك حجة، أفلا تعقلون هذا أني لم أخترع من عند نفسي؟!

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: يشبه أن هذا صلة[١] قوله: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي كيف تطلبون مني إتيان غيره وتبديل أحكامه وقد تعرفون قبح الكذب وفحشه فكيف تسألونني الافتراء على الله وتكذيب آياته؟

ويحتمل أن يكون صلة ما ادعوا عليه[٢] أنه افتراه من [عند][٣] نفسه؛ يقول: إنكم لم تأخذوني بكذب قط، وقد لبثت فيكم عمرا فكيف تنسبوني إلى الكذب على الله، وقد عرفتم قبح الكذب على الله وفحشه؟!

ويحتمل على الابتداء ثم قد ذكرنا أن قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام، فجوابه ما قاله أهل التأويل: لا أحد أبين ظلما ولا أفحش ممن افترى على الله كذبًا؛ لا أن تفسيره ما قالوه، وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: الافتراء على الله تكذيب بآياته، وتكذيب آياته افتراء على الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

---

(١) قال القرطبي: هذا استفهام بمعنى الجحد، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب، وبدل وأضاف شيئًا إليه مما لم ينزل، والمعنى: أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولما أقمت الدليل على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو وحي من الله - تعالى - وجب أن يقال: إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم. والمقصود: نفي الكذب عن نفسه.
ينظر تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٥).

(٢) في أ: إليه.

(٣) سقط في ب.

ما لا يضرهم لو تركوا عبادته ولا ينفعهم إن عبدوه.

والثاني: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما لا يملكون الضرر بهم، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [١] أي: ولا يملكون جر النفع إليهم يسفههم في عبادتهم من لا يملك بهم دفع الضرر، ولا يملك جر النفع، وتركهم عبادة من به يكون جميع منافعهم وعذابهم، ومنه يكون كل خوف وضرّ، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: يحتمل هذا القول منهم تقليدا لآبائهم؛ كقولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ظنوا أن آباءهم لما تركوا وما هم عليه لم يعذبوا - أنهم على الحق، وأن الله قد رضي بذلك، أو قالوا ذلك لما لم يروا أنفسهم أهلا لعبادة الله والقيام بخدمته، وقد يكون مثل هذا في ملوك الأرض أن كل أحد لا يرى نفسه يصلح لخدمة الملك، فيخدم من دونه المتصلين به رجاء أن يكون من خدمه شفيعا له عند الملك؛ فعلى ذلك هؤلاء طمعوا أن عبادتهم هؤلاء تقربهم إلى الله زلفى، ويكونون لهم شفعاء عند الله، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: أتنبئون الله [أي أتخبرون الله][٢] بما لا يعلم، أي: تعلمون أنه عالم، أي: أتعلمون من تَعْلَمون[٣] أنه يعلم ما ذكر وأنتم لا تعلمون ذلك، وقد تعلمون أنه لو كان كذلك لكان هو أعلم به منكم.

والثاني: أن تقولوا ما لا يعلم، أي: يعلم أنه ليس كما تقولون كقول الناس: ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، أي: ما شاء ألا يكون لا يكون[٤].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: كلمة جعلت لإجلال الله عما يحتمله غيره من الأشكال والأضداد، ومن العيوب والآفات، وهو في هذا الموضع يتوجه إلى وجهين إذ كانوا يعبدون ما ذكر ويقولون: هم شفعاؤنا عند الله، فيقول: سبحانه أن يجعل لأمثال أولئك

---

(١) زاد في ب: لو تركوا عبادته.

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ: يعلمون.

(٤) والمعنى: أتُعلمون الله بالأصنام، التي لا تعلم شيئًا في السموات ولا في الأرض. وإذا ثبت أنها لا تعلم، فكيف تشفع؟! والشافع لا بد وأن يعرف المشفوع عنده، والمشفوع له؛ هكذا أعربه أبو حيان، فجعل «ما» عبارة عن الأصنام، لا عن الشفاعة، و«ما» في ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: «الذي» أي: عن شركائهم الذين يشركونهم به في العبادة، أو مصدرية، أي: عن إشراكهم به غيرهم. وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي - هنا: ﴿عَمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفي النحل موضعان.
ينظر اللباب (١٠/ ٢٨٦).

شفاعة عنده؛ إذ الشفيع يكون من له منزلة وقدر عند من يشفع[١] له، والمنزلة تكون [للعبيد بما يتعبدهم][٢]، فيقومون بتوفير ما يحتمل وسعهم من العبادة، فأما من لا يحتمل التعبد فهو بعيد عما ذكر يعني سبحانه أن يجعل الشفاعة لمن ذكر دون الأنبياء والرسل، وهم قد أخبروا أنها لا تملك ضرا ولا نفعًا، وفي الشفاعة ذلك.

والثاني: أن يكون عما أشركوا في العبادة، فسبحانه عن أن يكون معه معبود أو يأذن لأحد بعبادة غيره، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم[٣]: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: أهل مكة كانوا كلهم أهل شرك عبّاد الأصنام والأوثان، لم يكن فيهم اليهودية ولا النصرانية ولا شيء من اختلاف المذاهب، فلما بعث محمد ﷺ اختلفوا: فمنهم من آمن به وصدقه وأخلص دينه لله، ومنهم من عاند وكابر في تكذيبه بعد أن عرف أنه رسول الله ومنهم من شك فيه، ومنهم من لم ينظر في أمره قط ولا تفكر فيه؛ فصاروا أربع فرق.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، بالفطرة، أي: كانوا جميعًا على الفطرة، وفي فطرة كل [أحد][٤] الشهادة على وحدانية الله تعالى وألوهيته؛ كقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠] في خلقة كل أحد الشهادة لله بالوحدانية له والألوهية فاختلفوا: فمنهم من كان على تلك الفطرة، ومنهم من كذب واختار الكفر، وهو ما روي: «كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه يهودانه وينصرانه»[٥].

أخبر أنهم على الفطرة لو تركوا على ذلك، لكن أبويه يمنعانه عن الكون عليها.

وقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كان الخلائق جملة أمم؛ كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: ٣٨] كأنه يعاتب هذه الأمة يقول: إن الأمم مع اختلاف جواهرها وأجناسها كانوا خاضعين لله مخلصين له،

---

(١) في أ: ينتفع.

(٢) في أ: للعبد بما يتبعه هم.

(٣) ينظر: اللباب (١٠/٢٨٨).

(٤) سقط في أ.

(٥) أخرجه البخاري (٣/٦١٦) كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) ومسلم (٤/٢٠٤٨) كتاب القدر، باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة» وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨/٢٢) عن أبي هريرة.

فأنتم أيها الناس أمة من تلك الأمم، فكيف اختلفتم وأشركتم غيره في ألوهيته وربوبيته، مع ما ركب فيكم من العقول[١] والتمييز بين ما هو حكمة وما[٢] هو سفه، وقد فضلكم على غيرها من الأمم في خلق ما خلق في السموات وما في الأرض لكم، وسخر لكم ذلك كله ما لم يفعل ذلك بغيرنا من الأمم؟!

ومنهم من قال من أهل التأويل في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: زمن نوح: نوح ومن دخل معه في السفينة كانوا على دين واحد، فاختلفوا بعدما خرجوا[٣].

ومنهم من قال: آدم فاختلف أولاده[٤].

ومنهم من قال: زمن إبراهيم[٥]. لكنا لا نشهد كيف كان الأمر، فلا نعلم إلا بخبر عن الله تعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: لولا أن من حكمه ألا يعذب هذه الأمة عند تكذيبهم الآيات إذا سألوها وإلا لأهلكها كما أهلك الأمم الخالية بتكذيبهم الآيات عند السؤال، ولكن أخر تعذيب هذه الأمة إلى يوم القيامة.

والثاني: سبقت من ربك ألا يستأصل هذه الأمة عند تكذيبهم الرسل والعناد لهم أحد التأويلين في ترك استئصالهم، والآخر في تأخير العذاب عنهم إلى وقت.

وقوله: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ببيان يضطرهم إلى القبول.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: جوابه - والله أعلم - ما ذكر: لولا كلمة سبقت من ربك ألا يعذب هذه الأمة بتكذيبهم الآيات عند سؤالها، وإلا لعذبتم أنتم كما عذبت الأمم الخالية بتكذيبهم الآيات عند السؤال.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: أي: إنكم تعلمون أن علم الغيب لله، وقد أنزل من الآيات ما يبين ويدل على رسالتي.

---

(١) في أ: القول.
(٢) في ب: وبين ما.
(٣) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ١٣٩) ونسبه للضحاك، وكذا ابن عادل في اللباب (١٠/ ٢٨٧).
(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (٦/ ٥٤٣) (١٧٦٠٤ و١٧٦٠٥ و١٧٦٠٦) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٢) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد، ولابن أبي حاتم عن السدى.
(٥) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ١٣٩) ونسبه لابن عباس، وكذا ابن عادل في اللباب (١٠/ ٢٨٧).

وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ قيل: انتظروا هلاكي إني منتظر هلاككم؛ لأنهم كانوا يوعدونه الهلاك.

وقيل: انتظروا مواعيد الشيطان إني منتظر مواعيد الله، وهو حرف وعيد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾: قال أهل التأويل: ﴿أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة إذا أصابهم سعة وفرح ونجاة مما يخافون عادوا إلى ما كانوا من التكذيب وعبادة الأصنام، ولكن أهل مكة وغيرهم أنهم إذا أيسوا عما يعبدون من الأصنام والأوثان، فزعوا إلى الله ويخلصون له الدين؛ كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا . . .﴾ الآية [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ . . .﴾ الآية [الروم: ٣٣]، وغير ذلك من الآيات مما يكثر عددها، كانت عادتهم الفزع إلى الله عند إصابتهم الشدائد والبلايا؛ لعلمهم أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لا يدفعون عنهم ذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾: المكر في الآيات تكذيبها وردها، فيشبه أن تكون الآية هاهنا محمدا، كان هو من أول أمره[1] إلى آخره آية، فمكروا به لما هموا بقتله غير مرة؛ كقوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]، ويحتمل سائر الآيات والحجج مكروا فيها، أي: كذبوها وردوها.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾: المكر الأخذ من غير أن يعلم هو به، يقول: الله أسرع أخذًا يأخذكم وأنتم لا تعلمون به، ولا تقدرون أن تأخذوا رسول الله وتمكروا به إلا وهو يعلم بذلك، فهو أسرع أخذا منكم.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾: فهم الحفظة.

---

(١) في ب: الأمر.

ويحتمل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أسرع لجزاء المكر منكم، أو أسرع أخذًا من حيث لا تعلمون أنتم.

وقال بعض أهل اللغة: المكر بالآيات هو الرد والجحود لها.

وقال بعضهم: استهزاء بها؛ فهو واحد، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: اختلف فيه:

قال: بعضهم: قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي: هو الذي سخر لكم ما به تسيرون في البر[1] والبحر، وهو الدواب والسفن التي يقطع بها البراري والبحار، وهو كقوله: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

وقيل: قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: سخر لكم البر والبحر وهما مكانا الخوف والهلاك، أي: حفظكم فيهما حتى قضيتم فيهما حوائجكم، وليس في وسع الخلق حفظ البراري والبحار عما فيهما من الأهوال، فتولى الله بفضله حفظ السائرين فيهما، حتى قضوا فيهما حوائجهم؛ وهو كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ...﴾ [النحل: ١٤] إلى آخر ما ذكر من أنواع المنافع، فلولا أن الله سخر لهم ذلك وحفظهم فيه، وإلا لم يكن في وسعهم القيام بذلك وحفظ أنفسهم فيه من الأهوال التي فيه، يذكرهم نعمه ومننه التي أنعمها عليهم ليوجهوا شكر نعمه إليه.

ثم قوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يحتمل يخلق وينشئ سيركم في البر والبحر؛ وهو كقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ ...﴾ الآية [سبأ: ١٨]، والتقدير هو التخليق والمقدر المخلوق، ففيه دلالة خلق أفعال الخلق؛ لأن السير هو فعل الخلق أضافه إلى نفسه؛ دل أنه منشئ فعلهم، والله أعلم.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لم [يرد][2] به البر والبحر نفسه، ولكنه أراد تذكير نعمه عليهم في كل حال وكل وقت ليشكروا له في كل حال؛ وهو كقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] لم يرد به البر والبحر أنفسهما، ولكن أراد المكان الذي فيه المياه والمكان الذي لا مياه فيه، أي: ظهر الفساد في الأماكن كلها؛ فعلى ذلك الأول يذكرهم نعمه التي أنعمها عليهم في الأماكن كلها والأحوال جميعًا، والله أعلم.

---

(١) في أ: البحر.

(٢) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: ركبتم الفلك، ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ أي: تجري بهم السفن بريح طيبة.

يخبر أن السفن ليست تجري في البحار بجريان الماء؛ لأن ماءها [راكد][١] في الظاهر، ولكن الريح هي التي تجريها وتسيرها؛ وكذلك الأمواج التي تكون فيها ليست لشدة جريان الماء، ولكن الريح هي التي تهيج [الأمواج وتزعجها لا بنفس الماء ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ قيل: فرحوا بها: سروا بها. ويحتمل فرحوا بها، أي: بطروا بها وأشروا.

وقوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾][٢]، أخبر أن من الريح ما هي طيبة تجرى بها السفن، ومنها ما هي عاصفة قاصفة تكسر وتفرق السفن وتهلك أهلها؛ ليعلم أن الأشياء تصلح تارة وتفسد تارة لا لأنفسها، ولكن لحفظ الحدود فيها، وكذلك النار تحرق مرة وتفسد ومرة تصلح وذلك لحفظ الحدود فيها، وكذلك الماء مرة يصلح ومرة يفسد، وذلك إذا حفظ فيه الحد أصلح، وإن لم يحفظ أفسده، وإلا لا يحتمل الشيء الواحد لنفسه يصلح مرة ويفسد تارة، ولكن لحفظ الحدود فيه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ قيل: أيقنوا أنهم مهلكون، ولكن الإيقان بالشيء الذي يصيب به في حادث الأوقات إنما يكون بالخبر لأنه لا يدرى لعل الله يصرف ذلك عنهم، فلا يقع به الإيقان، ولكن جعل غالب الظن فيه في كثير من الأشياء كالإيقان به ألا ترى أن الله أباح الميتة في حال الضرورة لغالب الظن؛ إذ قد يجوز ألا يهلك بذلك، وكذلك ما أبيح للمكره بالقتل أن يجري كلمة الكفر على لسانه لغالب الظن، وإلا ليس يعلم بالإحاطة أنه يقتله لا محالة، لكن جعل لغالب الظن في بعض المواضع حكم اليقين والإحاطة فعلى ذلك قولهم أيقنوا أنهم أحيط بهم لغالب الظن.

وقوله - عز وجل- ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أنهم لما أيسوا عن الأصنام التي عبدوها في دفع ما حل بهم عنهم، فزعوا إلى الله، وأخلصوا الدعاء له، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، ثم أخبر عن سفههم بعودهم إلى ما كانوا من قبل، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، وهكذا كانت عادتهم كانوا يفزعون إلى الله عند خوف الهلاك والإياس عن آلهتهم التي عبدوها، ويخلصون الدعاء له، فإذا كشف ذلك الكرب عنهم ودفع، عادوا إلى ما كانوا من قبل.

والبغي في الأرض هو الفساد فيها.

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتمل قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: بعضكم على بعض.

ويحتمل: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: حاصل بغيكم يرجع على أنفسكم.

والبغي هو الظلم؛ فإن كان التأويل: من أنفسكم بعضكم على بعض؛ فيكون الوعيد في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ما قد ذكرنا، وهو حرف وعيد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية قيل: في ضرب مثل الحياة الدنيا بالزرع الذي ذكر وجوه[(١)].

قال بعضهم: قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في سرعة فنائها وانقطاعها ووجوب[(٢)] زوالها مثل ذلك الزرع الذي ذكر [في سرعة هلاكه وانقطاعه وزواله عن صاحبه. أو أن يقال: إنما مثل الحياة الدنيا فيما يسر به ويبتهج مثل صاحب الزرع الذي ذكر][(٣)] فيما سر به وابتهج، ثم كان ما ذكر: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

وقال بعضهم[(٤)]: إنما مثل الحياة الدنيا للحياة الدنيا فيما ينفقون فيها، مثل صاحب الزرع الذي ذكر ينفق عليه لما يأمل من المنافع ويطمع منه ثم كان ما ذكر ولو علم في الابتداء أن أمر زرعه يئول ويصير إلى ما صار لكان لا ينفق؛ فعلى ذلك صاحب الحياة الدنيا لو علم أن عاقبة أمر نفقته تصير حسرة عليه وندامة ما أنفق، كما أن صاحب الزرع

---

(١) قال الزمخشري: هذا من التشبية المركب، شُبِّهَتْ حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطامًا بعدما التفَّ وتكاثف، وزين الأرض بخضرته، ورونقه. والتشبيه المركب في اصطلاح البيانيين: إما أن يكون طرفاه مركبين، أي: تشبيه مركب بمركب؛ كقول بشار بن برد:

كـأن مُـثَـارَ الـنَّـقْـع فـوق رءوسـنـا ... وأسـيـافَـنـا ليلٌ تَهـاوَى كـواكـبـه

وذلك أنه يشبه الهيئة الحاصلة من هُوِيِّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار، متفرقة في جوانب شيء مظلم، بليل سقطت كواكبه. وإما أن يكون طرفاه مختلفين بالإفراد والتركيب. ينظر: الكشاف (٢/ ٣٤٠).

(٢) في أ: ووجبة.

(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٤) ينظر اللباب في علوم الكتاب (١٠/ ٣٠٢).

الذي ذكر وبلغ المبلغ الذي ذكر لو علم أن عاقبته كما كان ما أنفق عليه، أو لو علم أنه لا ينتفع به ما أنفق تلك النفقة، أي: لو علم أن سروره وابتهاجه به لا يبقى ولا يدوم إلى آخره ما تكلف ذلك، أو لو علم أنها تزول عنه وتنقطع عن تلك السرعة ما أنفق ذلك وما تكلف الذي تكلف.

ويحتمل ضرب مثل الحياة الدنيا بما ذكر من النبات وجهين:

أحدهما: يخبر عن سرعة زوالها وانقطاعها كالنبات [الذي ذكر أنه يتسارع إلى الزوال والانقطاع لما يصيبه من الآفة فعلى ذلك الدنيا.

والثاني يخبر عن تغيرها وانقلاب أمرها كالنبات][1] الذي يتغير في أدنى مدة ووقت.

وقوله - عز وجل-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ قيل: حسنها، وازينت وحسنت فأنبتت من ألوان النبات.

وقال أبو عوسجة: زخرفها: زينتها من النبت، و﴿حَصِيدًا﴾ أي: محصودا كما يحصد الحصاد، والحصاد: الزرع، ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: لم تعش، [والمغاني هي][2] المواضع التي يعيش فيها الناس، قال: وواحد المغاني مغنى.

وقال القتبي[3]: وأصل الزخرف الذهب؛ يقال للنقش والذهبة وكل شيء زين: زخرف، وقال: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ والمغاني: المنازل واحدها مغنى.

وقال بعضهم: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: لم تنعم.

وقيل: لم تعمر.

وقال بعضهم: هو من الغِنَى، أي: كأن لم تكن غنيا بالأمس، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي: ظن أهل الدنيا فيما ينفقون أنهم قادرون على تلك النفقة، كما ظن صاحب الزرع أنه قادر على ذلك الزرع.

وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ قيل: عذابنا سمي أمرًا؛ لأنه بأمره أتاه، وفيه أنه لم يأته عن غفلة وسهو، ولكن عن علم وأمر؛ عظة لهم وتنبيهًا؛ ألا ترى أنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كأن الآيات في هذا الموضع المواعظ، أي: فيما ذكر من ضرب مثل الحياة الدنيا بالنبات والزرع الذي ذكر عظة وتنبيه لمن تفكر فيه، والله أعلم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في أ: والثاني هو.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ اختلف فيه؛ قيل: الجنة، والسلام: الله أضافها إلى نفسه[1]؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فأضاف الجنة إلى السلام إن كان دار السلام هي الجنة، فهو - والله أعلم - لأن المساجد هي أمكنة يقام فيها القرب، والجنة هي مكان اللذة وقضاء الشهوة، فأضافها إلى السلام لما يسلم أهلها عن جميع الآفات، والمساجد خصت بالإضافة إلى الله تعالى؛ لأنها أمكنة يقام فيها القرب.

وقال بعضهم: دار السلام: الإسلام.

ثم يحتمل كل واحد من التأويلين وجهين بما سمى الإسلام دار السلام والجنة، كذلك سمى الإسلام دار السلام؛ لأنه يأمن ويسلم كل من دخل فيه عن جميع الأهوال والآفات التي تكون.

والثاني: سمى [الإسلام دار السلام][2] أضافه إلى نفسه؛ كقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ ...﴾ الآية [الزمر: ٢٢]، أخبر أنه على نور من ربه؛ فعلى ذلك إضافة الإسلام إليه[3].

ومن قال: دار السلام الجنة سمى دار السلام؛ لأن كل من دخل الجنة سلم وأمن عن الأهوال كلها والآفات جميعًا.

والثاني: دار: الجنة، والسلام: الله أضاف إليه؛ لأنها دار أوليائه، وقد تضاف إلى الله على إرادة أوليائه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٨) (١٧٦١٩، ١٧٦٢٠) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٥) وعزاه لأبي نعيم والدمياطي في معجمه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في ب: السلام الدار الإسلام.

(٣) قال المبرد: (وصف بالسلام، أي: لا يقدر على السلام إلا هو، والسلام: عبارة عن تخليص العاجزين عن الآفات، وهو المنتصف للمظلومين من الظالمين)، وعلى هذا التقدير: «السلام» مصدر «سلم».

وقيل: سميت الجنة دار السلام؛ لأن من دخلها سلم من الآفات، وقيل: المراد بالسلام: التحية؛ لأنه - تعالى - يسلم على أهلها، قال - تعالى -: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، والملائكة يسلمون عليهم أيضًا، قال -تعالى-: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ . سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾، وهم يحيون بعضهم بعضًا بالسلام، قال -تعالى-: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾. ينظر اللباب (١٠/ ٣٠٣).

وروى في بعض الأخبار عن أبي قلابة أن النبي ﷺ قال: «قيل لي لتنم عينك، وليعقل قلبك، ولتسمع أذنك فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني، ثم قيل لي: سيد بنى دارًا وجعل مأدبة وأرسل داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ»[١].

إن ثبت هذا الخبر ففيه أن الدار الإسلام على ما قاله بعض أهل التأويل وفي خبر آخر عن جابر بن عبد الله قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، قال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، قال: اسمع سمعت أذنك، وأعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا ثم بنى فيها بنيانًا فأتمه، ثم جعل فيها المأدبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، ومن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»[٢].

هذا يدل - أيضًا - إن ثبت أن الدار التي ذكر في الآية هو الإسلام، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ...﴾ الآية: ذكر الاستثناء في الهداية، ولم يذكر في الدعاء؛ ليعلم [أن][٣] لا كل من يدعو إلى دار السلام يهديه، وإنما [يهدي به][٤] من يعلم منه أنه يختار الهدى وذلك على القدرية.

ثم الهدى على وجوه ثلاثة.

أحدها: الدعاء كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

والثاني: هو البيان كقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يعني القرآن.

والثالث: التوفيق والعصمة إذا وفق اهتدى، والهدى هاهنا التوفيق.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: اختلف فيه؛ قال بعضهم: للذين أحسنوا في الدنيا لهم الحسنى في الآخرة جزاء ذلك الإحسان وهي الجنة، سمى الجنة

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٥٤٨) (١٧٦٢١)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤٦) وعزاه لابن مردويه عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/٥٤٩) (١٧٦٢٤)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٠)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤٦) وزاد نسبته للحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله.

(٣) سقط في ب.

(٤) في أ: يهديه.

الحسنى؛ لأنها جزاء الإحسان، كما سمى النار السوءى؛ كقوله: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠] لأنها جزاء السوء؛ كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قيل: المحبة في قلوب العباد يحبه كل محسن، وهيبة له في قلوب الناس يهابه كل أحد على غير سلطان له ولا يد.

وقال قائلون: قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: مثل تلك الحسنة وزيادة التضعيف، حتى تكون عشرا وسبعمائة وما شاء الله، يدل على ذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال قائلون: [قوله][١]: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الرؤية[٢]: رؤية الرب والنظر[٣]؛ كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

وقال قائلون: الزيادة قبول[٤] حسناته مع ما فيها من الخلط بالسيئات، يقبل حسناته بفضله. وإن كانت تشوبها السيئات ورضاه عنه[٥]، وذلك طريقه الفضل والإحسان؛ إذ قد سبق من الله تعالى إليه من النعم ما لا يقدر القيام على وفاء نعمة منها طول عمره.

---

(١) سقط في ب.

(٢) وقال ابن عباس: للذين ذكروا كلمة لا إله إلا الله، فأما الحسنى: فهي الجنة، وأما الزيادة: فقال أبو بكر الصديق، وحذيفة، وأبو موسى، وعبادة بن الصامت: هي النظر إلى وجه الله الكريم. وبه قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والضحاك، والسدي.

أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٥٤٩-٥٥٠) عن أبي بكر الصديق وعامر بن سعد وحذيفة وأبي موسى والحسن وعكرمة، وذكره البغوي في تفسيره (٢/٣٥١) عن هؤلاء، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٤٨) عن أبي بكر وحذيفة وأبي موسى وعامر بن سعد وقتادة والضحاك، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبي الشيخ والدارقطني في «الرؤية» وابن منده في «الرد على الجهمية» وابن مردويه، والآجري والبيهقي كلاهما في «الرؤية» عن أبي بكر الصديق. وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والآجري والبيهقي عن حذيفة، وعزاه إلى هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والبيهقي عن أبي موسى، وعزاه إلى ابن جرير والدارقطني عن عامر بن سعد.

وعزاه إلى الدارقطني عن الضحاك.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/٥٤٩-٥٥١) عن كل من: أبي بكر الصديق (١٧٦٢٥، ١٧٦٢٦، ١٧٦٤٢)، وعامر بن سعد (١٧٦٢٧، ١٧٦٢٨)، وحذيفة (١٧٦٢٩)، وأبي إسحاق (١٧٦٣٠)، وأبي موسى الأشعري (١٧٦٣١و١٧٦٣٢) موقوفًا، (١٧٦٣٣) مرفوعًا، وعبد الرحمن بن أبي السبيلي (١٧٦٣٤، ١٧٦٣٥، ١٧٦٣٦، ١٧٦٣٧، ١٧٦٣٨)، والحسن البصري (١٧٦٣٩). وصهيب الرومي (١٧٦٤١) مرفوعًا، وقتادة (١٧٦٤٤ ، ١٧٦٤٥)، وكعب بن عجرة (١٧٦٤٦) مرفوعًا، وعبد الرحمن بن سابط (١٧٦٤٧)، وأبي بن كعب (١٧٦٤٨) مرفوعًا.

(٤) في ب: هو قبول.

(٥) في أ: منه.

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب»[(١)].

فلا ندري ما الزيادة التي ذكرها عز وجل في الآية إلا بالخبر عن الله.

وقال قائلون: الحسنى ما تقدره العقول وتدركها وتصورها الأوهام، وأما الزيادة فهي التي لا تقدرها العقول ولا تدركها ولا تصورها الأوهام؛ كقوله ﷺ: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(٢)].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قيل: لا يغشى وجوههم الغبار والريح[(٣)] على ما وصف وجوه أهل النار، وهو قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤١]، ولكن على ما وصف وجوه أهل الجنة بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩]، وذلك - والله أعلم - آثار إحسانهم التي أحسنوا في الدنيا، ولما لم يروا النعم التي كانت لهم من سواه ولم يصرفوا شكرها إلى غيره، والغبرة والقترة التي ذكر لأهل النار هي آثار السيئات التي عملوها في الدنيا من عبادتهم دون الله وصرفهم شكر النعم إلى غيره ونحو ذلك من صنيعهم الذي صنعوا في الدنيا، والله أعلم.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾: جزاء سيئة[(٤)] مما يوجبه الحكمة أن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٥٢) (١٧٦٤٩و ١٧٦٥٠ و ١٧٦٥١) وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٨) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في «الرؤية» من طريق الحكم بن عتيبة عن علي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤) وأطرافه في (٤٧٧٩ - ٤٧٨٠ - ٧٤٩٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢/ ٢٨٢٤).

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥١)، وكذا الرازي (١٧/ ٦٤). وفي أ: لا يغشى وجوههم النار والوهج.

(٤) والفرق بين الحسنات والسيئات: أنه إذا زاد في الحسنات يكون تفضلًا، وذلك حسن، وفيه ترغيب في الطاعة، وأما الزيادة على قدر الاستحقاق على السيئات، فهو ظلم، والله منزه عنه، ثم قال:

يجزي بمثلها، وأما جزاء الإحسان والخير طريق وجوبه [الإفضال والإحسان ليس طريق وجوبه][١] الحكمة، إذ سبق من الله، إلى كل أحد من النعم ما ليس في وسعه القيام بمكافأة واحدة منها عمره وإن طال واجتهد كل جهده، فضلا أن يستوجب قبله جزاء ما كان منه من الخيرات.

وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: هو ما ذكرنا من آثار السيئات التي عملوها في الدنيا ذلا وهوانًا لهم ﴿مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، وذلك أنهم - والله أعلم - كانوا يعبدون الأصنام رجاء أن يكونوا [لهم شفعاء][٢] عند الله، فأخبر أن ليس لهم من عذاب الله مانع يمنع ذلك عنهم؛ كقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ قيل: ألبست[٣] وأعطيت قطعًا مثقلا ومخففا قطعا، قيل: القطع بالتثقيل هو جمع القطعة، والقطع بالتخفيف جزء من الليل، يقال: سرنا بقطع من الليل، أي: بجزء من الليل، وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي: بجزء منه، والله أعلم.

ثم شبه وجوههم بظلمة الليل، ولم يشبه بسواد الوجوه على ما يكون من سواد الوجوه في الدنيا؛ فذلك - والله أعلم - أن سواد الوجوه على ما يكون في الدنيا لا يبلغ من القبح غايته؛ إذ قد يرغب من كان جنسه ونوعه في ذلك ويحسن ذلك عنده، فإذا كانت الرغبة قد تقع لبعضهم في بعض لم يبلغ في القبح نهايته[٤]، وأما ظلمة الليل: فإن الطباع تنفر عنها، ولا تقع الرغبة فيها بحال؛ لذلك شبه وجوه أهل النار بها، والله أعلم.

= ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وتحقير ﴿مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لهم عاصم من الله في الدنيا، ولا في الآخرة، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: ألبست وجوههم، ﴿قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ والمراد: سواد الوجه.

وقال حكماء الإسلام: المراد من هذا السواد: سواد لجهل، وظلمة الضلالة؛ فإن العلم طبعه طبع النور، والجهل طبعه طبع الظلمة.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾: الكفار؛ لأن سواد الوجه من علامات الكفر؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

وقال القاضي: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ عام يتناول الكافر والفاسق. وأجيب: بأن الصيغة وإن كانت عامة، إلا أن الدلائل التي ذكرناها مخصصة، ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ينظر اللباب (١٠/ ٣١٣).

(١) سقط في أ.

(٢) في ب: شفعاء لهم.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥١)، وكذا ابن عادل في اللباب (١٠/ ٣١٣).

(٤) في أ: غايته.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: قال أهل التأويل: يعني العابد والمعبود الذين عبدوا دونه، ولكن نحشر الخلائق جميعًا.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ هذا الحرف هو حرف وعيد؛ يقال: مكانك أنت، كذا وإن كان هذا الحرف يجوز أن يستعمل في الكرامات وبر بعضهم بعضا، ولكن إنما يعرف ذا من ذا بالمقدمات، فما تقدم هاهنا يدل أنه لم يرد به الكرامة، ولكن أراد به الوعيد، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ قيل[1]: فرقنا بينهم [وميزنا بينهم][2]، أي: بين العابد والمعبود.

ثم يحتمل التفريق بينهم وجوهًا:

أحدها: فرقنا بينهم في الحساب مما عمل ومما صحب.

والثاني: يحتمل فرقنا بينهم لما طمعوا بعبادتهم إياها والشفاعة أن يكونوا لهم شفعاء عند الله، ففرق بينهم في الشفاعة. ويحتمل فرقنا بينهم فيما ضل عنهم ما كانوا يفترون، فصار ما عبدوا ترابا وهم في النار.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾: يحتمل قوله: شركاؤهم: سماهم شركاء وإن لم يكونوا [شركاء في الحقيقة][3] لما عندهم أنهم شركاء؛ كما سمى الأصنام آلهة لما عندهم أنها آلهة.

والثاني: ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ لما أشركوها في العبادة فهم شركاؤهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: ينطق الله تعالى [يوم القيامة هذه الأصنام][4] وإن لم يكن في خلقتها النطق في الدنيا؛ كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ...﴾ الآية [النور: ٢٤]، أنطقهم ليشهدوا عليهم.

وقوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: يحتمل الملائكة أن يكونوا هم الذين أنكروا؛ لأن منهم من يعبد الملائكة، أنكروا أن يكونوا يعبدونهم؛ لأن العبادة لآخر إنما تكون عبادة إذا كان من المعبود أمر بها، وكانت عبادتهم الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الآمر لهم بالعبادة

(١) ذكره ابن جرير (٦/ ٥٥٥)، وكذا البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٢)، وابن عادل في اللباب (١٠/ ٣١٥).
(٢) سقط في أ.
(٣) في ب: في الحقيقة شركاء.
(٤) في ب: هذه الأصنام يوم القيامة.

للأصنام؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحد يقصد قصد عبادة الشيطان، لكنه لما كان الآمر لهم بالعبادة للأصنام صار كأنهم عبدوه، وإن لم يقصدوه بها ويحتمل ما ذكر من الإنكار من الأصنام.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كفى الله القاضي والحاكم بيننا وبينكم أنا لم نأمركم بعبادتنا، وهو العالم بأنا كنا بعبادتكم إيانا غافلين.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٍ﴾ قيل: عند ذلك، وقيل: يومئذ أي يوم القيامة.

وقوله: ﴿تَبۡلُواْ﴾ أو ﴿تتلوا﴾ بالباء والتاء[1]، قيل: تقرأ في الصحف: «ما كتب من أعمالهم» وتبلو بالباء من الابتلاء، يقال: بلوته وابتليته واحد، وخبرته واختبرته أيضًا، وقيل: ﴿تَبۡلُواْ﴾ تجد وتعلم كل نفس ما قدمت من الأعمال [وقيل: تجزى كل نفس بما عملت.

وقيل: ﴿تتلوا﴾ بالتاء أيضًا: تتبع، كل نفس ما قدمت من الأعمال][2] والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قيل: ملكهم الحق لأن غيره من الآلهة التي عبدوها قد بطل عنهم وضل في الآخرة.

---

(١) وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي-: ﴿تَتۡلُواْ﴾ بتاءين منقوطتين من فوق، أي: تطلب وتتبع ما أسلفته من أعمالها، ومن هذا قوله:

إن المريب يتبع المريبا ... كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

أي: يتبعه ويتطلبه.

ويجوز أن يكون من التلاوة المتعارفة، أي: تقرأ كل نفس ما عملته مسطرًا في صحف الحفظة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا . ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقرأ الباقون: ﴿تَبۡلُواْ﴾ من البلاء، وهو الاختبار، أي: تعرف عملها: أخير هو أم شر.

وقرأ عاصم في رواية: ﴿نبلو﴾ بالنون والباء الموحدة، أي: نختبر نحن، و﴿كُلَّ﴾ منصوب على المفعول به، وقوله: ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ على هذه القراءة يحتمل أن يكون في محل نصب، على إسقاط الخافض، أي: بما أسلفت، فلما سقط الخافض انتصب مجروره؛ كقوله:

تمرون الديارَ ولم تَعُوجُوا ... كلامُكُمُ عَلَيَّ إذَنْ حَرَامُ

ويحتمل أن يكون منصوبًا على البدل من «كل نفس» ويكون من بدل الاشتمال. ويجوز أن يكون «نبلو» من البلاء، وهو العذاب. أي: نعذبها بسبب ما أسلفت، و«ما» يجوز أن تكون موصولة اسمية، أو حرفية، أو نكرة موصوفة، والعائد محذوف على التقدير الأول. والآخِر، دون الثاني على المشهور.

ينظر: السبعة ص(٣٢٥)، الحجة (٤/ ٢٧١)، حجة القراءات ص (٣٣١)، إعراب القراءات (١/ ٢٦٧)، إتحاف فضلاء البشر (٢/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

ويحتمل: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: حق ما تجد كل نفس ما قدمت من أعمالها، أو حق أن تقرأ كل نفس ما عملت وضل عنهم ما كانوا يفترون من العبادة للأصنام وقول الكفر، وقوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ يحتمل وجهين؛ أي: ردوا إلى ما أعدّ لهم مولاهم الحق، والثاني أي: ردوا إلى أمر مولاهم الحق، لا إلى أمر الأصنام التي كانوا يعبدونها.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ . . .﴾ الآية: يحاجهم يعني: أهل مكة فى التوحيد [والربوبية وكأن هذه السورة نزلت في محاجة أهل مكة في التوحيد][١] لأنها مكية.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [٢] يحتمل وجهين؛ أي: من ينزل لكم الرزق من السماء، ومن يستخرج لكم الرزق من الأرض. والثاني: من يرزقكم من السماء والأرض أي ومن يدبر الرزق في السماء، ومن يدبر الرزق في الأرض، لا أحد يملك استنزال الرزق من السماء، واستخراج الرزق من الأرض؛ وكذلك لا أحد يملك تدبيره في السماء والأرض سواه، ولا أحد يملك إنشاء السمع والبصر، ولا أحد أيضًا يملك إخراج الحي من الميت ولا إخراج الميت من الحي ولا تدبير الأمر، لا يعرفون حقيقة ماهية السمع والبصر ولا كيفيتهما، فكيف يملكون إنشاء السمع والبصر ونصبهما، ولا [يملك أحد][٣] سواه إصلاح ما ذكر إذا فسد ذلك، فأقروا له أنه لا يملك أحد سوى الله ذلك، وهو قولهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يقول. والله أعلم -: إذا عرفتم

---

(١) سقط في أ.
(٢) زاد في أ: أي: من يدبر الرزق في السماء، ومن يدبر في الأرض.
(٣) في أ: يملكون.

وأقررتم أنه لا يملك ما ذكر سواه وعرفتم أن له السلطان والقدرة على ذلك أفلا تتقون][١] بوائقه ونقمته، [أو يقول: أفلا تتقون عبادة غيره دونه، وإشراك غيره في ألوهيته وربوبيته][٢]، أو يقول: أفلا تتقون صرف شكره إلى غيره وقد أقررتم أنه هو المنعم عليكم بهذه النعم لا من تعبدون دونه.

أو يقول - والله أعلم-: إذا عرفتم ذلك أفلا تتقون مخالفته وعصيانه، فإذا أقروا أن الذي يملك تدبير ما بين السماء والأرض هو الذي له السموات والأرض عرفوا الذي يستحق العبادة والقيام بشكره، فإذا ضيعوا ذلك جمعهم على اسم الضلال؛ فذلك قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلكم الذي ذكر ربكم بالحجج والبراهين، فماذا بعد الحق الذي هو حق بالحجج والبراهين إلا الضلال؟! لأن ما لا حجج له ولا براهين[٣] فهو ضلال.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: عن عبادته إلى عبادة غيره، أو فأنى تصرفون عن شكر المنعم، إلى شكر غير المنعم. أو يقول: فأنى تعدلون من لا يملك ما ذكر بمن يملك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حقت: وجبت، وقيل: كذلك حقت كلمة ربك على الذين ختموا بالفسق أنهم لا يؤمنون، أي: لا ينتفعون بإيمانهم بعد ذلك.

وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ تحتمل وجهين: تحتمل كلمة ربك [مواعيد ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون فإن كان على هذا فهو في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون. ويحتمل كلمة ربك][٤] حجج ربك وبراهينه على الذين فسقوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: قال عامة أهل التأويل: ثم يعيده: البعث بعد الموت[٥]، أي: لا أحد من شركائكم الذين تعبدون يملك

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في ب.

(٣) في ب: برهان.

(٤) سقط في أ.

(٥) قال القرطبي: ومعنى الآية: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: ينشئه من غير أصل ولا سَبْق مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يحييه بعد الموت كهيئته، فإن أجابوك، وإلا ف ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: تصرفون عن قصد السبيل، والمراد: التعجب منهم في الدنيا من هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد إلى مخالفته؛ لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهةً كذبٌ وإفك، والاشتغال بعبادتها مع أنها لا تستحق العبادة أيضًا إفك.
ينظر اللباب (١٠/ ٣٢٣).

بدء الخلق ولا بعثه. وقال بعضهم: قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا يحتمل البعث؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث، فلا يحتمل الاحتجاج عليهم بذلك، ولكن قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ما سوى البشر؛ لأنهم إنما ينكرون إعادة البشر، فأما إعادة غيره من الأشياء لا ينكرونه؛ نحو إعادة الليل والنهار، وإعادة الإنزال والنبات، ونحو الأشياء التي يشاهدونها، أي: ثم يعيد مثله: الليل ليلا مثله، والنهار نهارا مثله؛ وكذلك الخلائق تفنى ثم يعيد مثله، فإذا ثبت في غير البشر ثبت في البشر.

ويحتمل الأمرين جميعًا عندنا البعث وأشياء مثله؛ لأنه تعليم منه لهم، ألا ترى أنه قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ قيل: تكذبون بتوحيد الله، وقد عرفتم أنه هو بدأ الخلق ثم هو يعيده، لا أحد يملك ذلك، ألا ترى أنه احتج[1] عليهم ما يلزمهم ذلك بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٨].

وقوله - عز وجل -: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: يحتمل[2] قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يدعو إلى الحق فإذا كان هؤلاء الأصنام التي تعبدونها لا يملكون الدعاء إلى شيء، فلا يملكون الضر والنفع، ومن الخلائق من لا يملك النفع والضر، ويملك الدعاء إلى خير أو [إلى][3] نفع، فهؤلاء دون الخلائق جميعًا؛ إذ لا يملكون الدعاء، فكيف يملكون [الضرّ والنفع][4]؟! يبين عز وجل سفههم بعبادتهم هؤلاء الأصنام؛ لعلمهم أنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا.

ويحتمل قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: يبين ويقيم الدلائل والبراهين على [عدم] استحقاق العبادة لهم، فإذا لم يملكوا الدعاء إلى العبادة لهم، فكيف يملكون نصب

---

(١) زاد في ب: به.

(٢) اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولًا، ثم بالهداية ثانيًا، عادةٌ مطردة في القرآن، قال - تعالى - حكاية عن الخليل - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عن موسى - عليه الصلاة والسلام - في جوابه لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وأمر محمدًا - عليه الصلاة والسلام - فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ . وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٤].

واعلم أن الإنسان له جسد وروح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية.

والمقصود من خلق الجسد: حصول الهداية للروح، كما قال -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد، وأعطى الحواس؛ لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلم. ينظر اللباب (١٠/ ٣٢٤).

(٣) سقط في ب.

(٤) في ب: النفع والضر.

الدلائل والحجج على استحقاق العبادة؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾: أخبر أن الله هو الذي يهدي للحق. ثم يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا: هو يملك الدعاء إلى الحق ويقيموا الدلائل والحجج على ما دعا إليه، وهو يستحق العبادة له والربوبية.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: الذي يبين البراهين والحجج، ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ أي: لا يبين، ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، فإن قيل: ما معنى الاستثناء وهو وإن هدي لا يهتدي؟ قيل: يشبه أن يكون هذا صلة ما تقدم من قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ينطقهم الله - عز وجل - يوم القيامة، فيشهدون عليهم أنهم لم يأمروهم بالعبادة لهم ولا دعوهم لإشراكهم في العبادة، فيكون قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لما أن يجعلهم الله بحيث يهتدون إذا هدوا ويجيبون إذا دعوا.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: بالجور وصرف العبادة والشكر إلى من لا يملك ذلك[1].

وقوله - عز وجل-: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قال بعضهم: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لا يحتمل الصنم والوثن الاهتداء وإن هدي، ولكن المراد منه الإنسان. وقال بعضهم: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ إلا أن يحمل الصنم ويوضع، فأما أن يهتدي هو بنفسه فلا، لكن يحتمل ما ذكرنا أنه إذا صيره بحيث يتكلم ومن جنس ما ينطق وأذن له في النطق احتمل الإجابة والاهتداء، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ قال بعضهم: هذا في الأئمة والرؤساء منهم حيث عبدوا الأصنام والأوثان وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحو ذلك من القول؛ يقول: ما يتبع أكثرهم في عبادتهم الأصنام بأنهم يكونون لهم شفعاء عند الله إلا ظنا ظنوه.

وقال بعضهم: هذا في الأتباع والعوام ليس في الأئمة؛ ذلك أن الأئمة قد عرفوا البراهين والحجج التي قامت عليهم والآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ، لكن ما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] ونحو ذلك من الكلام، أرادوا أن يلبسوا على العوام ويشبهوا عليهم، فاتبع العوام الأئمة فيما قالوا وأنه كذا وصدقوهم؛ يقول: وما يتبع

(١) في أ: ذكر.

أكثرهم الأئمة في ذلك إلا ظنًّا ظنوا.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني: أهل مكة [أي ما يتبع أكثر أهل مكة][(١)] الأوائل والأسلاف في عبادة الأصنام والأوثان. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنهم عبدوا الأصنام ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ . . .﴾ الآية [الزخرف: ٢٣] وآباؤنا كذلك يفعلون، ثم أخبر أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، أي: الظن لا يدرك به الحق إنما يدرك الحق باليقين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وهو حرف وعيد ليكونوا أبدا على حذر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: هو صلة قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فيقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ كقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ﴾ [يونس: ١٥] أي ما أتبع إلا ما يوحى إلي.

وقال بعضهم: إن كفار قريش قالوا: إن محمدًا افترى هذا القرآن من عند نفسه ويقوله من نفسه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن يضاف إلى غيره أو يختلق.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يصدق هذا القرآن الكتب التي كانت من قبل، ولو كان محمد هو الذي افتراه واختلقه من عند نفسه لكان خرج هو وسائر الكتب المتقدمة مختلفا، إذ لم يعرف محمد سائر الكتب المتقدمة إذ كانت بغير لسانه، ولم يكن له اختلاف إلى من يعرفها ليتعلم، ثم خرج هو أعني القرآن مصدقا وموافقا لتلك الكتب؛ دل أنه من عند الله جاء؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يخرج على وجهين؛

(١) سقط في أ.

أحدهما: ما كان هذا القرآن بالذي يحتمل الافتراء من دون الله؛ لخروجه عن طوق البشر ووسعهم، فذلك بالذي يحيله كونه مفترى بجوهره.

والثاني: لما أودع فيه من الحكمة والصدق يدل على كونه من عند الله؛ إذ كلام غيره يحتمل السفه والكذب ويحتمل الاختلاف.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل فيه بيان الكتب التي نزلت قبله، وتمامه أن هذا وإن كان في اللفظ مختلفا فهو في الحكمة والصدق مبين موافق للأول. وقيل: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [أي: تفصيل][١] ما كتب لهم وما عليهم. أو أن يقال؟ إلى الله تفصيل الكتب ليس إلى غير ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه من عند رب العالمين.

أو يقول: مفصل من اللوح المحفوظ.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يقول: إن كان محمد افتراه من عند نفسه، فأتوا أنتم بمثله[٢]؛ إذ لسانه ولسانكم واحد، فأنتم قد عرفتم بالفرية والكذب، ومحمد لم يعرف به قط، ولا أخذ عليه بكذب قط، فأنتم أولى أن تأتوا بسورة مثله.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم: ادعوا بآلهتكم التي تعبدونها؛ ليعينوكم على إتيان[٣] مثله.

وقال بعضهم[٤]: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: بمن لسانه مثل لسانكم؛ ليعينوكم على ذلك.

أو يقول: استعينوا بدراسة الكتب؛ ليعينوكم على مثله إن كنتم صادقين أن محمدًا افتراه من نفسه؛ فدل ترك اشتغالهم بذلك على أنهم قد عرفوا أنه ليس بمفترى، وأنه سماوي.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

قال بعضهم: ما لم يحفظوا نظمه، ولا لفظه، ولا نظروا فيه، ولا تدبروا؛ ليعلموا معناه، بل كذبوه بالبديهة، والشيء إنما يعرف كذبه وصدقه بالنظر فيه والتفكر والتدبر، لا بالبديهة، فذلك - والله أعلم - تأويل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

الثاني: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ كذبوا على علم منهم أنهم كذبة فيما يقولون، ويتقولون: إنه مفترى ليس بمنزل ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: ولما يأتهم العلم بتأويله، أي: بتأويل القرآن.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: بسورة مثله.
(٣) في ب: إثبات.
(٤) قاله البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٤).

ومعناه - والله أعلم -: أنهم كذبوه من غير أن حفظوا نظمه، ووعوا لفظه، ولا أتاهم العلم بعاقبته وآخره.

وقيل: التأويل: هو رد كل شيء إلى أولية الأمر.

وقالت الحكماء: التأويل: آخر كل فعل هو قصد في أوله وقصد كل شيء في أوله هو آخر في فعله، أو نحوه.

وقال بعضهم[١]: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ قال: ما وعد الله أن يكون قبل أن يكون.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه-: تأويل القرآن بما يكون منه في الدنيا، وبما يكون منه يوم القيامة، وهو العذاب الذي وعد.

وقال بعضهم: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: ثوابه.

وقيل[٢]: عاقبته.

وقال الواقدي: لم يأتهم عاقبة بيان ما وعد الله في القرآن في الآخرة من الوعيد.

وأصل التأويل: هو النظر إلى ما تئول عاقبة الأمر.

وقوله - عز وجل-: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كذلك كذب الأمم السالفة رسلهم، كما كذب كفار مكة رسولهم، أي: لست أنت بأول مكذب، بل كذب من كان قبلك من إخوانك؛ ليكون له التسلي عما هو فيه من تكذيبهم إياه، وردهم عليه أنه ينزل بهم ما نزل بأولئك إن هم أقاموا على ما هم عليه.

والثاني: أن يكون الخطاب وإن كان خارجًا لرسول الله ﷺ، فهو راجع إلى قومه يأمرهم بالنظر فيما نزل بالأمم السالفة، وأن يتأملوا أحوالهم؛ ليكون ذلك سببا لزجرهم عما هم فيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ بالتكذيب، أي: كيف يعاقبون ويعذبون، والله أعلم. وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ قيل[٣]: من أهل مكة من يؤمن بهذا القرآن، ومنهم من لا يؤمن به، وهم كذلك كانوا، منهم من قد آمن به، ومنهم من لا يؤمن به، أي: من لم يؤمن به.

ويحتمل على الوعيد فيما يستقبل، أي: منهم: من أهل مكة من يؤمن بهذا القرآن، ومنهم من لا يؤمن به، وهم كذلك كانوا: منهم من قد آمن، ومنهم من لم يؤمن به.

قال بعضهم: هي في اليهود، ليست في أهل مكة، وظاهره أن يكون في كفار مكة،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٦/ ٥٦٢) والبغوي (٢/ ٣٥٤).

(٢) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص/ ١٩٧).

(٣) انظر تفسير ابن جرير (٦/ ٥٦٣) والبغوي (٢/ ٣٥٤).

وعلى ذلك قول عامة أهل التأويل، كأن هذا يخرج على البشارة: أن منهم من يؤمن به؛ لئلا يقطع ويمنع دعاءهم، وأخبر أن منهم من لا يؤمن به، يؤيسه حتى لا يشتد حزنه على كفرهم.

وجائز أن يكون هذا [: أي: منهم من][١] قد يولد من بعد، ويؤمن به، ومنهم من يولد فلا يؤمن.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يشبه أن يكون معناه: أي: على علم بما يكون منهم من الفساد خلقهم وأنشأهم، وليس عن غفلة وجهل بالفساد، ولكن عن علم بذلك؛ لما لا يضره فساد مفسد، ولا ينفعه صلاح [من يصلح][٢]، إنما عليهم ضرر فسادهم، ولهم منفعة صلاحهم.

ويحتمل أن يكون على الوعيد، أي: عالم بفسادهم، فيجزيهم جزاء فسادهم[٣]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، تأويله - والله أعلم - أي: إن كذبت فيما أخبرتكم: أنه جاء من عند الله، فـ ﴿لِّي عَمَلِي﴾، أي: جزاء عملي[٤] فيما أبلغكم، أي: فعلي وزر عملي، ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، أي: فعليكم جرم ما رددتم علي فيما بلغتكم عن الله، وهو كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، أي: علي جرم ما افتريت إن افتريت، وعليكم جرم ما رددتم علي فيما بلغتكم عن الله.

ويحتمل: ما قاله أهل التأويل: ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي: لي ديني ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: لكم دينكم.

﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تأويله - والله أعلم - أي: أنا لا أؤاخذ بما دنتم أنتم، ولا أنتم تؤاخذون بما دنت أنا وعملت، وهو كقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ . . .﴾ الآية [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ . . .﴾ الآية [النور: ٥٤]، وكقوله: ﴿لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا . . .﴾ الآية [سبأ: ٢٥].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أخبر أن منهم من يستمع إليه، يعني:

---

(١) في ب: فيمن.
(٢) في أ: نصلح.
(٣) في أ: الفساد.
(٤) في أ: فعلي.

إلى رسول الله، وإلى ما يتلو من القرآن، [لكنه لا يؤمن، أخبر أنه][١] لا كل مستمع إلى شيء ينتفع بما يستمع أو يعقل ما يستمع ويفهم، إنما ينتفع بالاستماع ويعقل على قدر المقصود والحاجة إليه.

[ومنهم من كانوا ينهون من يستمعون لقبول القول منهم][٢].

ومنهم من كان يستمع إليه؛ ليسمع غيره، كقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١].

ومنهم من كان يسمعه، ويطيعه في ذلك، فإذا خرج من عنده غيره وبدله كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١].

ومنهم من كان يستمع إليه؛ استهزاء منه، وطلب الطعن فيه والعيب، كانوا مختلفين في الاستماع، ثم نفى عنهم السمع والعقل والبصر؛ لوجهين:

أحدهما: ما ذكرنا أنهم لما لم ينتفعوا بأسماعهم وعقولهم وأبصارهم وهذه الحواس انتفاع من ليست له هذه الحواس، [نفى عنهم ذلك؛ إذ هذه الحواس][٣] إنما جعلت، لينتفع بها لا لتترك سدى[٤] لا ينتفع بها.

والثاني: كان العقل والسمع والبصر، وهذه يكون منها مكتسب بالاكتساب، ومنها ما يكون غريزة، فهم تركوا اكتساب الفعل الذي جعل مكتسبًا فنفى عنهم؛ لما تركوا اكتساب ذلك.

ويحتمل نفي هذه الحواس لهذين الوجهين اللذين ذكرتهما، والله أعلم.

ثم نفى عمن لا يستمع العقل، حيث قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، ونفى عنهم الاهتداء والإبصار بترك النظر، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لأن بالبصر يوصل إلى اهتداء الطرق والسلوك فيها، ألا ترى أن البهائم قد تبصر الطرق، وتسلك بها، وتتقي بها المهالك، ولا تعقل، لما ليس لها العقل[٥]، فلا تعقل لما يسمع القلب بعقل، وبظاهر البصر تبصر الأشياء.

---

(١) في أ: لكنه يخبر أنه.
(٢) بدل ما بين المعقوفين في أ: ومنهم كانوا يستمعون لمعاني مرة، يستمعون بقبول القول منهم والمنزلة.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: هدى.
(٥) في أ: سمع العقل.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ يخبر أن ما حل بأولئك من عذاب استئصال(١)، إنما حل بظلمهم، [لا بظلم](٢) من الله تعالى وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾. لم يلبسوا إلا ساعة من النهار، قال: في قبورهم يتعارفون بينهم إذا خرجوا من قبورهم. وقال بعضهم من أهل التأويل: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: في الدنيا(٣)، وأصله كأنهم استقلوا طول مقامهم في الدنيا وما أنعموا فيها؛ لما عاينوا من أهوال ذلك اليوم وشدائده، أو استقلوا لبثهم [في الدنيا](٤) ومقامهم؛ لطول مقامهم في الآخرة في العذاب.

وفيه وجه ثان: وهو أنه يذكر من شدة سفههم وغاية جهلهم أن ما يعدهم من الحشر والعذاب الأبد كأنهم لا يلبثون فيها إلا ساعة من النهار، حتى لا يبالوا ما يلحقهم من ذلك وما يستوجبون عليه من العذاب باكتسابهم [من](٥) تلك الأسباب.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضا على قدر ما يلعن(٦) بعضهم بعضًا؛ كقوله: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وعلى قدر ما يتبرأ بعضهم من بعض ثم يفرق بينهم كقوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨]، أي: فرقنا بينهم.

---

(١) في أ: استئصال وعقوبة.
(٢) سقط في أ.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٥) ونسبه للضحاك وأبي حيان في البحر المحيط (٥/ ١٦٢).
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في ب.
(٦) في هذا التعارف وجوه:
الأول: يعرف بعضهم بعضًا كما كانوا في الدنيا.
الثاني: يعرف بعضهم بعضًا بما كانوا عليه من الخطأ والكفر، ، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب، وتبرأ بعضهم من بعض.
فإن قيل: كيف توافق هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ [المعارج: ١٠]؟
فالجواب من وجهين:
أحدهما: أنهم يتعارفون بينهم بتوبيخ بعضهم بعضا؛ فيقول كل فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا، وزينت لي الفعل القبيح الفلاني، فهو تعارف توبيخ وتباعد وتقاطع، لا تعارف عطف وشفقة.
وأما قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ فهو سؤال رحمة وعطف.
والثاني: أن هاتين الآيتين على حالين، وهو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة؛ فلذلك لا يسأل حميمٌ حميمًا.
ينظر اللباب (١٠/ ٣٤٣).

وقوله - عز وجل-: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: خسروا بما وعدوا في الآخرة من النعم الدائمة بترك اكتسابهم إياها؛ إذ قد أعطوا ما يكتسبون به نعم الآخرة، فاكتسبوا ما به خسروا ذلك؛ فهو كقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي: ما أصبرهم على اكتساب ما به يستوجبون النار.

والثاني: [قد](١) خسروا [. . .](٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: «إما» حرف شك، وكذلك حرف أو، لكن يكون تأويله - والله أعلم - على حذف إما وإضمار حرف «إن» كأنه يقول: إن أريناك إنما نرينك بعض ما نعدهم لا كل ما نعدهم، أو نتوفينك ولا نرينك شيئًا(٣). أو أن يكون قوله: إن نرينك بعض ما نعدهم أي: لقد نريك بعض ما نعدهم؛ وهو كقوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]، فعلى هذا التأويل يريه بعض ما يعدهم، ولا يريه(٤) كل ما وعدهم.

وعلى التأويل الأول إن أراه إنما يريه بعض ذلك ولا يريه شيئًا.

فإن قيل: حرف «إما» حرف شك وكذلك حرف أو كيف يستقيم إضافته إلى الله، وهو عالم بما كان ويكون وإنما يستقيم إضافته إلى من يجهل العواقب؟!

---

(١) سقط في ب.

(٢) بياض في الأصول.

(٣) وقال ابن عطية: (ولأجلها، أي: لأجل زيادة «ما»، جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت «إن» وحدها لم يجز) أي: إن توكيد الفعل بالنون مشروط بزيادة «ما» بعد «إن»، وهو مخالف لظاهر كلام سيبويه، وقد جاء التوكيد في الشرط بغير «إن» كقوله:

مَنْ تَثْقَفَنْ منهم فليس بآيبٍ أبدًا وقَتْلُ بني قتيبةَ شافِ

قال ابن خروف: أجاز سيبويه: الإتيان بـ (ما)، وألا يؤتى بها، والإتيان بالنون مع «ما»، وألا يؤتى بها، والإراءة هنا بصرية؛ ولذلك تعدى الفعل إلى اثنين بالهمزة، أي: نجعلك رائيًا بعض الموعودين، أو بمعنى: الذي نعدهم من العذاب، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك، فإنك ستراه في الآخرة.

قال مجاهد: فكان البعض الذي رآه قتلُهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موته.

ينظر: المحرر الوجيز (٣/١٢٣)، واللباب (١٠/٣٤٤).

(٤) في أ: يريهم.

قيل: جميع حروف الشك الذي أضيف إلى الله هو على اليقين والوجوب نحو حرف «عسى» و «لعل» ونحو ذلك، فعلى ذلك حرف «إما» [و]، «أو» فهو لم يزل عالما بما كان ويكون في أوقاته.

وأما حرف الاستفهام والشك يخرج على مخرج الإيجاب والإلزام على ما ذكرنا في حرف التشبيه، أو أن يكون رسول الله وعد لهم أن يريهم شيئًا، فقال عند ذلك: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ لا نرينك شيئًا يقول: ليس إليك ما وعدتهم، إنما ذلك إلينا؛ كقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾: هذا يحتمل ثم الله شهيد لك يوم القيامة على ما فعلوا من التكذيب بالآيات وردها؛ وهو كقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١٩]. ويحتمل أنه عالم بما يفعلون لا يغيب عنه شيء وهو وعيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ونحوه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي: لكل أمة فيما خلا رسول الله بعث إليهم لست أنا أول رسول بعثت إليكم؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يحتمل هذا وجهين: يحتمل فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط؛ أي: يقضى بين الرسل وبين الأمم بالعدل بما كان من الرسل من تبليغ الرسالة إليهم والدعاء إلى دين الله، ومن الأمم من التكذيب للرسل والرد للآيات، قضي بينهم بالعدل وهم لا يظلمون لا يزاد على ما كان ولا ينقص.

ويحتمل قوله: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: يهلك المكذبون منهم وينجى الرسل ومن صدقهم[1]، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾ الآية [يونس: ١٠٣] ويجوز أن يقضى بين المعرضين وبين المجيبين والمطيعين يوم القيامة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: وذلك أنه[2] لما أوعدهم العذاب حين قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قالوا: متى هذا العذاب[3] الذي توعدنا هذا يا محمد إن كنت صادقًا بأن العذاب نازل بنا في الدنيا، وهو

---

(١) في ب: صدق منهم.
(٢) في أ: أنهم.
(٣) في أ: الوعد.

على التأويل الثاني الذي ذكرنا لقد نرينك بعض ما وعدناهم.

فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا أملك أيضًا جرّ منفعة إليها يقول: لا أقدر على أن أدفع عن نفسي سوءا حين ينزل بي، ولا أملك على أن أسوق إليها خيرا ألبتة، فإذا لم أملك هذا كيف أملك إنزال العذاب عليكم[1] إنما ذلك إلى الله هو المالك عليه والقادر على ذلك، لا يملك[2] أحد ذلك سواه؛ وذلك كقوله[3]: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: إذا جاء أجلهم لا يقدرون على تأخيره ولا يستقدمون، أي: لا يقدرون على تقديمه، ليس على أنهم لا يطلبون[4] تأخيره ولا تقديمه فيسألون ذلك، ولكن لا يؤخر إذا جاء ولا يقدم قبل أجله.

وفيه دلالة ألا يهلك أحد قبل انقضاء أجله، فهو رد على المعتزلة حيث قالوا: من قتل آخر فإنما قتله قبل أجله، والله يقول: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهم يقولون: يستقدمون، والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقول - والله أعلم-: أي منفعة لكم إن أتاكم عذابه؟! لا منفعة لكم في ذلك بل فيه ضرر لكم، فاستعجال ما لا منفعة فيه سفه وجهل، يسفههم في سؤالهم العذاب، ويخبر في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] أن عذاب الله إذا نزل وجاء وقته لا يملك أحد تقديمه ولا تأخيره، ولا يملك أحد استقدامه[5] ولا استئخاره بالقدر والمنزلة،

(١) في ب: عليهم.
(٢) في ب: يقدر.
(٣) في أ: وهو كقوله.
(٤) في أ: لا يبطلون.
(٥) في أ: ولا يحتمل استقدامه.

كما يحتمل[١] ذلك في الدنيا التقديم والتأخير بالشفاعة والفداء ويذكر عجزه في إنزال العذاب عليهم في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ﴾: قيل: أي العذاب إذا نزل بكم أمنتم به الآن؟! يخبر عنه أنهم إذا نزل بهم العذاب يؤمنون.

ثم يحتمل قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالله وبرسوله؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، ثم أخبر أن إيمانهم لا ينفعهم عند معاينتهم العذاب؛ وهو كقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [غافر: ٨٥]، وقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنعام: ١٨٥].

ويحتمل قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ أي: بالعذاب؛ لأنهم يكذبون رسول الله ﷺ فيما يوعدهم العذاب، وهم يستعجلون به استهزاء وتكذيبا، فإذا نزل بهم آمنوا أي صدقوا بذلك العذاب، يقول: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استهزاء وتكذيبا أنه غير نازل [بكم ذلك][٢]، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيل[٣]: أشركوا في ألوهيته وربوبيته وعبادته غيره.

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ لأنهم يخلدون فيه، يقال ذلك بعدما أدخلوا النار.

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: لا تجزون إلا بما كنتم كسبتم في الدنيا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك.

﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ يحتمل هذا وجوهًا.

يحتمل قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ العذاب الذي كان يوعدهم أنه ينزل بهم، على ما قاله عامة أهل التأويل.

ثم قال: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ أي: قل: نعم وربي إنه لحق إنه نازل بكم.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: بفائتين عنه ولا سابقين له.

ويحتمل قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ ما يدعوهم إليه من التوحيد؛ كقولهم لإبراهيم: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ . قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ . . .﴾ الآية [الأنبياء: ٥٥، ٥٦]؛ فعلى ذلك قولهم: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ ثم، أخبر أنه لحق بقوله: ﴿قُلۡ إِي

(١) في أ: لا يحتمل.
(٢) في ب: ذلك بكم.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٧).

وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: غائبين فائتين عنه.

ويحتمل الآيات أو محمد أو القرآن أحق هو؟ قل: إي وربي، قل: نعم إنه لحق؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] أخبر أن ما يأمرهم به ويدعوهم إليه ليس هو هزوا ولا لعبًا، ولكنه حق أمر من الله تعالى؛ فعلى ذلك قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾: هذا الحرف يحتمل أن يكون من الشاكين [منهم][1] في ذلك طلبوا منه أنه حق ذلك أو لا، ومن المعاندين استعجال العذاب الذي كان يوعدهم رسول الله ﷺ استهزاء به وتكذيبًا له، ومن المتبعين له والمطيعين التصديق له والإيمان به؛ كقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا فرقًا ثلاثة: فرقة قد آمنوا به، وفرقة قد شكوا فيه، وفرقة قد كذبوه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: يخبر عنهم أنهم يفدون ويبذلون جميع ما في الأرض لو قدروا عليه عند نزول العذاب بهم لشدة العذاب، وإن كان الذي منعهم عن الإيمان هو حبهم الدنيا وبخلهم عليها وما فيها بقوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾: الندامة لا تكون إلا سرا بالقلب، فكأنه قال: حققوا الندامة في قلوبهم على ما كان منهم من التكذيب بالآيات والعناد في ردها. وقال بعضهم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أظهروا الندامة وهو مما يستعمل في الإظهار والإخفاء[2]؛ كقوله: شعب: جمع، وشعب: فرق ونحوه، وبعد فإنه إذا أسر

---

(١) سقط في ب.

(٢) إذا فسرنا الإسرار بالإخفاء ففيه وجوه:

الأول: أنهم لما رأو العذاب الشديد، صاروا مبهوتين، لم يطيقوا بكاء ولا صراخًا سوى إسرار الندامة، كمن يذهب به ليصلب، فإنه يبقى مبهوتًا لا ينطق بكلمة.

الثاني: أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم؛ حياء منهم، وخوفًا من توبيخهم.

فإن قيل: إن مهابة ذلك الوقت تمنع الإنسان من هذا التدبير، فكيف أقدموا عليه؟

فالجواب: أن هذا الكتمان قبل الاحتراق، فإذا احترقوا، تركوا هذا الإخفاء وأظهروه؛ لقوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

الثالث: أنهم أسروا الندامة؛ لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة، ومن أخلص في الدعاء أسره، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم، أي: أنهم إنما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته.

ومن فسر الإسرار بالإظهار، فإنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا؛ لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة يبطل هذا الغرض؛ فوجب الإظهار.

ينظر اللباب (١٠/ ٢٥٤، ٢٥٥).

في نفسه لابد من أن يضع ذلك في آخر ويخبره بذلك، فذلك منه إظهار.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يحتمل قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ما توجبه الحكمة؛ لأن الحكمة توجب تعذيب كل كافر نعمة، وكل قائل في الله ما لا يليق به، أو أن يكون تفسير قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ما ذكر، وهم لا يظلمون.

ويحتمل قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ما ذكر: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ...﴾ الآية [الإسراء: ١٤]، والقسط: هو العدل، وهم يومئذ عرفوا أنه كان يقضي بالعدل في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن ما في السموات والأرض كلهم عبيده [وإماؤه وملكه][1]، لا لمن [تعبدون دونه][2] من الأصنام والأوثان، فمن عند من يملك الدنيا والآخرة اطلبوا ذلك منه؛ لا من عند من لا يملك يبين سفههم في طلبهم الدنيا من عند من يعلمون أنه لا يملك ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: في كل وعد ووعيد أنه كائن لا محالة عذابا أو رحمة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بعلمهم، فنفى عنهم العلم وإن علموا؛ لما لم ينتفعوا به.

ويحتمل قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لم يكتسبوا سبب العلم، [وهو التأويل والنظر في آياته وحججه.

ويحتمل نفي العلم عنهم لما أعطوا أسباب العلم][3] فلم يعلموا، فإن كان على هذا فيكونون معذورين، وإن كان على الوجهين الأولين فلا عذر لهم في ذلك.

(١) في ب: وملكه وإماؤه.
(٢) في ب: تعبدونه.
(٣) ما بين المعقوفين سقط في ب.

وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دلالة **إثبات البعث من وجهين**:

أحدهما: فيما يذكر من قدرته من خلق السموات والأرض وما بينهما [بغلظهما وكثافتهما وشدتهما وعظم خلقتهما][١]، وأن تلك القدرة خارجة عن وسع البشر وتوهمهم، فمن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الخلق بعد فنائهم.

والثاني: يخبر عن حكمته من تعليق منافع الأرض بالسماء على بعد ما بينهما، والإفضال على الخلق بأنواع النعم التي تكبر الإحصاء، وأن كل شيء منها قد وضع مواضعها، فلا يحتمل من هذا وصفه في الحكمة يخلق شيئًا عبثًا باطلا ولو كانوا للفناء لا حياة بعده كان يكون خارجًا عن الحكمة، فظهر أنه خلقهم لأمر أراد بهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: تعلمون أنه هو أحيا الأحياء، وهو الأموات أيضًا وهو كقوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، فإذا عرفتم أنه هو يحيي الأحياء وهو يميت الأموات لا غير، فاعلموا أنه هو يبعثكم وإليه ترجعون؛ ألزمهم الحجة أولًا بالكائن، ثم أخبرهم عما يكون بالحجة التي ذكر.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: وهو هذا القرآن[٢] قال بعضهم: الموعظة: النهي كقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] قيل: ينهاكم أن تعودوا لمثله أبدا. وقال آخرون: الموعظة هي التي تدعوا إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب وقال بعضهم [العظة][٣] هي [التي][٤] تلين كل قلب قاس وتجلى كل قلب مظلم وفي القرآن جميع ما ذكرنا فيه النهي، وفيه الدعاء إلى كل مرغوب، والزجر عن كل مرهوب، وهو يلين القلوب القاسية ويجلي القلوب المظلمة إذا تأملوا فيه، ونظروا، وتفكروا تفكر المستشهد وطالب الحق.

وقيل: الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية وتدمع العيون اليابسة، وتجلي الصدور

---

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: بغلظها وكثافتها وشدتها وعظم خلقها.

(٢) أما كون القرآن موعظة؛ فلاشتماله على المواعظ والقصص، وكونه شفاء، أي: دواء لجهل ما في الصدور، أي: شفاء لعمى القلوب، والصدور موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان؛ لجوار القلب، قال - تعالى-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وكونه هدى، أي: من الضلالة، ورحمة للمؤمنين، والرحمة: هي النعمة على المحتاج؛ فإنه لو أهدى ملك إلى مَلِك شيئًا، فإنه لا يقال: رحمة، وإن كان ذلك نعمة؛ فإنه لم يصنعها إلى المحتاج.
ينظر: اللباب: (١٠/٣٥٦).

(٣) سقط في ب.

(٤) سقط في ب.

المظلمة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: إن للدين آفات وداء تضر به وتتلفه كما لهذه الأبدان آفات وأمراض تعمل في إتلافها وإهلاكها، ثم جعلت لآفات الأبدان وأمراضها أدوية يشفى بها الأبدان [المؤرقة][١] المريضة؛ فعلى ذلك جعل هذا القرآن شفاء لهذا الدين ودواء يداوى به، فيذهب بآفات الدين وأمراضه؛ كما تعمل الأدوية في دفع آفات الأبدان وأمراضها؛ لذلك سماه موعظة وشفاء لما في الصدور، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قيل: هدى من الضلالة، ورحمة من عذابه. أو يقول: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى أي: يدعوا إلى كل خير ويهدي [إليه][٢]، ورحمة: لمن اتبعه، هو هدى ورحمة لمن اتبعه وتمسك به، وعمى وضلال لمن خالفه وترك اتباعه وهو ما ذكر ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] أي: زاد للمؤمنين إيمانًا إلى إيمانهم، و ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] أي: زاد للكافرين رجسًا إلى رجسهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾: قال بعضهم: فضل الله ورحمته القرآن[٣].

وقال قائلون: فضل الله القرآن، ورحمته الإيمان[٤]، وفيه أنه بإنزال القرآن متفضل إذ له ألا ينزل، وفيه أن أهل الفترة يؤاخذون في حال فترتهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: فرحكم بما ذكر [هو][٥] خير مما تجمعون من الدنيا.

وقال بعضهم: قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾: إنما خاطب المؤمنين بقول: قل للمؤمنين بفضل الله: الإسلام، وبرحمته: يعني القرآن[٦] فبذلك يعني فبهذا الفضل والرحمة فليفرحوا يعني المؤمنين، هو خير مما يجمعون يعني مما يجمع الكفار من الأموال من الذهب والفضة وغيره.

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ب.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٦٩) (١٧٦٩٢، ١٧٦٩٣) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٥٤) وزاد نسبته لابن أبي شيبة عن مجاهد.

(٤) ذكره بمعناه البغوي (٢/ ٣٥٨) ونسبه لقتادة ومجاهد وابن عادل في اللباب (١٠/ ٣٥٩).

(٥) سقط في ب.

(٦) أخرجه بمعناه ابن جرير (٦/ ٥٦٨-٥٦٩) عن كل من: هلال بن يساف (١٧٦٨٤، ١٧٦٨٥، ١٧٦٨٦، ١٧٦٨٧، ١٧٦٨٨، ١٧٦٩٦).

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾.

[يحتمل ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾][(١)] أضاف إنزاله إلى السماء، وإن كانت الأرزاق إنما تخرج من الأرض لما كانت أسبابها متعلقة بالسماء، يكون نضج الأنزال وينع الأعناب وإصلاح الأشياء كلها أعني أسباب الأرزاق من نحو المطر الذي به تنبت الأرض النبات وبه يخرج جميع أنواع الخارج مما يكون فيه غذاء البشر والدواب، ومن نحو الشمس التي [ينضج بها][(٢)] الأنزال وبها تينع الأعناب وجميع الفواكه ونحوه أضاف ذلك إلى السماء لما ذكرنا.

وكذلك قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي: أسباب ذلك في السماء؛ لا أن عين ذلك في السماء.

ويحتمل قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: ما خلق الله لكم؛ وكذلك جميع ما يضاف إلى الله إنما يضاف إليه بحق الخلق أي خلقه منزلا؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] ونحو ذلك، أي: خلق لكم مما ذكر، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾: قال بعضهم: ما حرموا من البحيرة والسائبة والوصيلة وما ذكر في سورة الأنعام والمائدة[(٣)].

وقال بعضهم: ما حرموا الآلهة التي كانوا عبدوها، أي: جعلوها للأصنام وهو ما ذكر في الأنعام، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا...﴾ الآية [١٣٦] نحو ما ذكرنا في الآية، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي: آلله أذن لكم في تحريم ما حرمتم وتحليل ما أحللتم أم على الله تفترون: [بل على الله تفترون][(٤)] وذلك أن هذه السورة نزلت في محاجة أهل مكة وهم لم يكونوا مؤمنين بالرسل والكتب، وإنما يوصل إلى معرفة [المحرم والمحلل][(٥)] بالرسل والكتب والخبر عن الله، وهم لم يكونوا

= قتادة (١٧٦٩٠)، والحسن (١٧٦٩١)، وابن عباس (١٧٦٩٥).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٥٤) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس، ولابن أبي شيبة عن سالم بن عبد الله، وللبيهقي عن زيد بن أسلم وهلال بن يساف.

(١) سقط في ب.

(٢) في ب: بها ينضج.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٧١) (١٧٧٠٦، ١٧٧٠٧) عن مجاهد، وبمثله عن ابن زيد (١٧٧٠٩)، والضحاك (١٧٧١٠)، وذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٨).

(٤) سقط في أ.

(٥) في ب: المحلل والمحرم.

مؤمنين بواحد مما ذكرنا، فكيف جعلتم منه حرامًا وحلالا وأنتم لا تؤمنون بما به يعرف الحلال من الحرام، فكيف حرمتم ما أحل لكم أو أحللتم ما حرم عليكم؟! يخبر عن سفههم وعنادهم وافترائهم على الله، فإذا اجترءوا أن يفتروا على الله فعلى غيره أجرأ، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾: فإن قيل كيف أوعدوا بيوم القيامة وهم كانوا لا يؤمنون بالبعث؟! قيل: قد ألزمهم الحجة بكون البعث بما أظهر من كذبهم وافترائهم على الله في التحريم والتحليل، فذلك يظهر كذبهم بتكذيبهم البعث.

وبعد فإنه قد يوعد المرء بما لا يتيقن به ويتخوف عليه ويحذر وإن لم يحط علمه به، فكذلك هذا.

وبعد فإنه قد جعل في عقولهم ما يلزمهم الإيمان بالبعث والجزاء للأعمال؛ إذ ليس من الحكمة خلق الخلق للفناء خاصة.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن يقول: وما ظن الذين يفترون على الله الكذب لو خرج الأمر حقًّا، وكان صدقًا على ما أخبر رسول الله ﷺ وقاله من البعث والجزاء لما اكتسبوا؟!

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: هو ذو فضل على جميع الناس من [جهة ما ساق](١) إلى الكل من الرزق كافرهم ومؤمنهم وأنواع النعم، وما أخر عنهم العذاب إلى وقت، أو لما بعث إليهم الرسل والكتب من غير أن كان منهم إلى الله سابقة صنع يستوجبون به ذلك ومنه خصوص فضل على المؤمنين ليس ذلك على الكافرين، ولكن أكثرهم لا يشكرون لفضله وما أنعم عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ﴾ قال بعضهم من أهل التأويل: في شأن: في

(١) في ب: جهة وهو ما ساق.

أمرك وحالاتك وما تتلو منه من قرآن تبلغهم به الرسالة وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في عبادة.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: تبلغهم به الرسالة.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: يخاطب نبيه تنبيهًا منه وإيقاظًا والمراد منه هو وغيره، ألا ترى أنه قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ من عمل عمهم جميعًا في ذلك، يخبر أنكم في كل أمر يكون بينكم وبين ربكم، وفي كل أمر بينكم وبين الناس - فلله لكم وعليكم شهود، أو كل عمل تعملون لكم وعليكم شهود ينبههم ويوقظهم ليكونوا على حذر أبدًا منتبهين [متيقظين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ قال بعضهم: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ تأخذون فيه وتخوضون فيه.

وقيل: تقولون فيه.][1] وقيل: يكثرون فيه؛ وكله واحد.

ثم يحتمل قوله: ﴿فِيهِۚ﴾ في الحق، ويحتمل في الدين، ويحتمل في القرآن، ويحتمل في رسول الله؛ يقول: أنا شاهد فيما تخوضون وفيما تقولون في رسول الله، أو في دينه، أو فيما يتلو عليكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: لا يعزب[2]، [أي: لا يغيب][3] عن ربك من مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء فيما لا أمر فيه ولا نهي ولا كلفة، فالذي فيه السؤال والأمر والنهي والكلفة أحرى وأولى ألا يغيب عنه شيء.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) قرأ الكسائي هنا، وفي سبأ [٣]: ﴿يَعْزِبُ﴾ بكسر الزاي، والباقون بضمها، وهما لغتان في مضارع «عزب»، يقال: عزب يَعْزِبُ ويَعْزُبُ، أي: غاب حتى خفي، ومنه الروض العازب؛ قال أبو تمام:

وقَلْقَلَ نَأْيٌ مِن خراسانَ جَأْشَهَا فقلتُ: اطمئنّي، أنضرُ الروضِ عَازِبُهْ

وقيل للغائب عن أهله: «عازب»، حتى قالوا لمن لا زوج له: عازب.

وقال الراغب: (العازب: المتباعد في طلب الكلأ، ويقال: رجل عزب، وامرأة عزبة، وعزب عنه حِلْمُهُ، أي: غاب، وقوم مُعْزِبُونَ، أي: عزبت عنهم إبهلم)، وفي الحديث: «من قرأ القرآن في أربعين يومًا، فقد عَزَبَ»، أي: فقد بعد عهده بالختمة، وقال قريبا منه الهروي، فإنه قال: (أي: بعد عهده بما ابتدأ منه، وأبطأ في تلاوته) وفي حديث أم معبد: (والشاء عازبٌ حِيَالٌ).

قال: والعازب: البعيد الذهاب في المرعى، والحائل: التي ضربها الفحل، فلم تحمل لجدوبة السنة، وفي الحديث أيضًا: «أصبحنا بأرض عزوبة صحراء» أي: بعيدة المرعى. ويقال للمال الغائب: عازب، وللحاضر: عاهن، والمعنى في الآية: وما يبعد، أو: ما يخفى، أو: ما يغيب عن ربك.

ينظر اللباب (١٠/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٣) سقط في أ.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هو تحذير وتخويف بتمثيل لا وعيد بتقرير وتصريح؛ لأن الوعيد على وجهين:

أحدهما: على التمثيل[١]، والآخر على التقرير[٢] في عينه وتصريح.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: ما قل وما كثر إلا في كتاب، أي: إلا في اللوح المحفوظ [مبين][٣]، ويحتمل إلا في كتاب مبين، أي: في الكتب المنزلة من السماء والله أعلم.

وقال أبو بكر الأصم في قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي تنتشرون، وتأويله ولا تعملون من عمل تنتشرون فيه إلا كنا عليكم شهودًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: قالت المعتزلة: دلت الآية على أن أصحاب الكبائر ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين لكانوا أولياء الله، وإذا كانوا أولياء الله لكان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا كان لا شك أن على أصحاب الكبائر خوف وحزن [دل أنهم ليسوا بمؤمنين ولا لهم ولاية الإيمان لكن التأويل عندنا - والله أعلم -:][٤] ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥]

---

(١) في أ: التمثال.

(٢) في أ: التعزير.

(٣) سقط في ب.

(٤) بدل ما بين المعقوفين في أ: في وقت دون وقت، ويجوز لأصحاب الكبائر لا خوف عليهم ولا حزن في وقت، وليس في الآية أن ليس على أولياء الله خوف ولا حزن من أول الأمر إلى آخره. ويحتمل قوله.

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآية، اختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم:

فقال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله في كتابه، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وقال قوم: هم المتحابون في الله: لما روى أبو مالك الأشعري، قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»، قال: وفي ناحية المسجد أعرابي، فجثا على ركبتيه، ورمى بيديه، ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم، قال: فرأيت في وجه النبي ﷺ البشر؛ فقال: «هم عباد من عباد الله، من بلدان شتى، وقبائل شتى، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورًا، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون».

قال أبو بكر الأصم: أولياء الله: هم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان، وتولوا القيام بحق العبودية، والدعوة إليه.

واعلم: أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فَوَلي كلِّ شيء هو الذي يكون قريبا منه، والقرب من الله - تعالى - بالمكان والجهة محال؛ فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقا في نور معرفة الله - تعالى - فإن رأى، رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع، سمع آيات الله، وإن نطق، نطق بالثناء على الله، وإن تحرك، تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد، اجتهد في طاعة الله، فهناك يكون في غاية القرب من الله؛ فحينئذ يكون وليًّا.

ينظر اللباب (٣٦٦/١٠).

على ما يكون لأهل الدنيا في الدنيا من الخوف والحزن، إنما خوفهم وحزنهم لعاقبتهم، ويشبه ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الجنة، وهكذا يكون إذا دخلوا الجنة يأمنون عن جميع ما ينقصهم[(١)].

وقال بعضهم: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ هم أهل التوحيد، لكن تلك البشارة وذلك الوعد لأهل التوحيد في الاعتقاد والوفاء جميعًا، لا لأهل الاعتقاد خاصة.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال بعضهم: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الرؤيا الصالحة؛ وعلى ذلك رويت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الآية ففسر بالرؤيا الصالحة، فإن ثبت فهو الحق[(٢)].

وقال بعضهم: لا تحتمل الرؤيا الصالحة [؛ لأنه نسق البشرى في الآخرة على البشرى في الحياة الدنيا، ولا شك أنه لا يكون في الآخرة الرؤيا الصالحة،][(٣)] ولكن إن ثبت ما ذكرنا من[(٤)] الخبر؛ فهو ذلك.

ويشبه أن يكون البشارة التي ذكر هاهنا؛ نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ . . .﴾ الآية [الزمر: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣]، وأمثال ذلك.

وقال بعض أهل التأويل: لهم البشرى في الحياة الدنيا تبشرهم الملائكة عند الموت وفي الآخرة الجنة[(٥)]. والله أعلم.

---

(١) في أ: ينفعهم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٧٧-٥٨٠) عن كل من:
أبي الدرداء (١٧٧٣٢ و١٧٧٣٨ و١٧٧٣٩ و١٧٧٤٨ و١٧٧٥٠ و١٧٧٥١ و١٧٧٥٢ و١٧٧٥٣)، وعبادة بن الصامت (١٧٧٣٣ و١٧٧٣٤ و١٧٧٣٥ و١٧٧٣٦ و١٧٧٣٧ و١٧٧٤٠ و١٧٧٤٥ و١٧٧٤٦ و١٧٧٥٤ و١٧٧٥٥ و١٧٧٥٦ و١٧٧٥٨ و١٧٧٧١)، وأبي هريرة (١٧٧٤١ و١٧٧٤٢ و١٧٧٤٣).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٥٩) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء مرفوعًا.
وللطيالسي وأحمد والدارمي والترمذي وابن ماجه والهيثم بن كليب الشامي والحكيم الترمذي وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت مرفوعًا.

(٣) ما بين المعقوفين سقط في ب.

(٤) في أ: في.

(٥) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٨١) (١٧٧٧٢) عن قتادة، (١٧٧٧٣) عن الضحاك.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٢) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الزهري وقتادة.

وقوله - عز وجل -: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: يحتمل لا تبديل لكلمات الله من وعده ووعيده، وذلك مما لا تبديل له ولا تحويل.

ويحتمل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن لا تبديل لما فيه من الوعد والوعيد وغيره.

ويحتمل لا تبديل لما مضى من سنته في الأولين والآخرين من الهلاك والاستئصال بتكذيبهم الرسل والآيات؛ كقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويحتمل قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تبديل للبشرى التي ذكر لهؤلاء الذين تقدم ذكرهم.

ويحتمل لا تبديل لحجج الله وبراهينه، أو لا تبديل لوعيد الله ووعده ونحوه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: تلك البشرى هي الفوز العظيم، أو ذلك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هو الفوز العظيم؛ إذ لا خوف بعده.

وقال بعضهم من أهل التأويل: لا خوف عليهم من النار، ولا هم يحزنون أن يخرجوا من الجنة أبدًا، والوجه فيه ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يحتمل قولهم: ما قالوا في الله بما لا يليق به من الولد والشريك[1]؛ يقول: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2].

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الذي قالوا في القرآن إنه سحر وإنه مفترى، أو قالوا في رسول الله ﷺ: إنه ساحر وإنه يفتري على الله كذبًا. ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ مكرهم الذي مكروا به، وكيدهم الذي كادوه، يؤيد ذلك قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

---

(١) في أ: والشرك.

(٢) قيل: المعنى: إن جميع العزة والقدرة لله - تعالى - يعطي ما يشاء لعباده، والغرض منه: أنه لا يعطي الكفار قدرة عليه، بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو أعز منهم، ونظيره: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].

قال الأصم: المراد: أن المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم، ويخوفونك بها، وتلك الأشياء كلها لله -تعالى- فهو -تعالى- قادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء، وينصرك، وينقل أموالهم وديارهم إليك.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كالمضادة لقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالجواب: لا مضادة؛ لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله، فهي لله.

ينظر: اللباب (١٠/ ٣٧٠).

﴿جَمِيعًا﴾ أي: إن العزة في المكر والكيد لله؛ وهو كقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢] أي: مكره ينقض مكرهم ويمنعه، وكيده يفسخ كيدهم؛ فعلى ذلك قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: ينقض جميع ما يمكرون بك ويكيدونك،

و ﴿الْعِزَّةَ﴾ القوة؛ يقول: إن القوة لله ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كيدهم ومكرهم الذي هموا بك.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: [لقولهم][1] الذي قالوه العليم بمصالحهم، أو السميع المجيب للدعاء العليم بما يكون منهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تعلمون أن من في السموات ومن في الأرض كلهم عبيده وإماؤه، فكيف قلتم: إن فلانا ولده وإن له شريكًا، ولا أحد منكم يتخذ من عبيده وإمائه ولدا ولا شريكًا؛ كقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .﴾ الآية [الروم: ٢٨]؛ فعلى ذلك هذا.

أو كيف يحتمل أن يتخذ ولدًا وله ملك ما في السموات والأرض، وإنما يتخذ في الشاهد الولد لإحدى خصال ثلاث: إما للاستنصار على غيره، وإمّا لحاجة تمسه، وإمّا لوحشة أصابته، فهو غني له ملك السموات والأرض لا حاجة تمسّه، فكيف نسبتم الولد إليه والشريك وما قالوا فيه مما لا يليق به؟! وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

أو يخبر عن غناه عما يأمرهم وينهاهم ويتعبدهم، أي: ليس يأمر وينهى ويتعبد بأنواع العبادات ويمتحنهم بأنواع المحن لحاجة له أو لمنفعة له في ذلك، ولكن لمنفعة لهم في ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ما يتبعون فيما يدعون من دون الله من الشركاء بالحجج والبراهين أو [اليقين بكتاب][2] أو رسول، إنما يتبعون بالظن والحذر.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا يكذبون فيما يتبعون بدعائهم دون الله؛ لأنهم كانوا أهل شرك لم يكونوا أهل كتاب ولا آمنوا برسول، فهم قد عرفوا أنهم مفترون كاذبون

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: الكتاب بيقين.

في اتباعهم دون الله؛ إذ سبيل معرفة ذلك الكتاب أو الرسول ولم يكن لهم واحد من ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: يبصر فيه، وقال في آية أخرى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣] يعني: في الليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعني: في النهار، فهو في موضع الامتنان وتذكير النعم، ليتأدى[١] بذلك شكر ما أنعم عليه.

وفيه أن الليل والنهار يجريان على التدبير والتقدير؛ لأنهما لو كانا يجريان على غير تدبير ولا تقدير لكانا لا يجريان على تقدير واحد ولا سنن واحد، ولكن يدخل فيهما الزيادة والنقصان ولا يجريان على تقدير واحد، وإن كان يدخل بعضه في بعض، فدل جريانهما على تقدير واحد أنهما يجريان على تدبير آخر فيهما؛ إذ لو كان على غير تدبير يجريان على الجزاف[٢] على الزيادة والنقصان وعلى القلة والكثرة.

وفيه أيضًا أن مدبرهما واحد؛ لأنه لو كان مدبرهما عددًا لكان إذا غلب أحدهما الآخر دام غلبته، ولا يصير الغالب مغلوبًا والمغلوب غالبًا، فإذا صار ذلك ما ذكرنا دل أن مدبرهما واحد لا عدد.

وفيه دلالة البعث بعد الموت؛ لأن كل واحد منهما إذا جاء أتلف صاحبه تلفا حتى لا يبقى له أثر ولا شيء منه، ثم يكون مثله حتى لا يختلف الذاهب والحادث ولا الأول من الثاني، فدل أن الذي قدر على إنشاء ليل[٣] قد ذهب أثره وأصله لقادر على البعث، ومن قدر على إحداث نهار وقد فني وهلك لقادر على إحداث ما ذكرنا من الموت.

وفيه أن الشيء إذا كان وجوبه لشيئين لم يجب إذا عدم أحدهما؛ لأنه قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ وإنما يبصر بنور البصر ونور النهار جميعًا؛ لأنه إذا فات أحد النورين لم يبصر شيء من النور نور البصر أو نور النهار، دل أن الحكم إذا وجب بشرطين لا يوجد[٤] إلا باجتماعهما جميعًا، والليل يستر وجوه الأشياء لا أنه لا يرى نفسه، والنهار يكشف وجوه الأشياء، وفي الليل فيما يستر وجوه الأشياء دلالة أن الحكم إذا كان وجوبه بشرطين يجوز منعه بعلة واحدة؛ لأنه يستر نور النهار ونور البصر جميعًا.

---

(١) في أ: سيتأدى.
(٢) في أ: الحرف.
(٣) في أ: نسل.
(٤) في أ: لا يوجب.

وفي قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ وجوه من الدلالة:

أحدها: ما ذكرنا من تذكير النعم يدعوهم به إلى الشكران[١] وينهاهم عن الكفران، وفيه تذكير القدرة له حيث أنشأ هذا وأحدثه وأتلف الآخر، فمن قدر على هذا لا يعجزه شيء، وفيه دليل السلطان حيث يأخذهم الليل ويستر عليهم الأشياء شاءوا أو أبوا؛ وكذلك النهار يأتيهم حتى يكشف وجوه الأشياء ويجلي شاءوا أو أبوا، وفيه دليل التدبير والعلم لما ذكرنا من اتساق جريانهما على سنن واحد ومجرى واحد.

وفيه دلالة وحدانية منشئهما[٢] بين هاهنا فيما جعل الليل حيث قال: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أخبر أنه جعل الليل للسكون والراحة، فدل ذكر السكون في الليل على أنه جعل النهار للسعي وطلب العيش، ألا ترى أنه قال في النهار: ﴿مُبۡصِرًا﴾ أي: يبصرون فيه ما يتعيشون[٣]، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ . . .﴾ الآية [القصص: ٧٣].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: ولم يقل: يبصرون فظاهر ما سبق من الذكر يجب أن يقال: لقوم يبصرون؛ لأنه قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾، لكن يحتمل قوله: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ أي: يعقلون؛ كقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

ويحتمل قوله: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ [ما ذكر من الآيات من أول السورة إلى هذه المواضع آيات لقوم يسمعون: ينتفعون بسماعهم أو يسمعون][٤] أي: يجيبون كقوله: سمع الله لمن حمده: أي: أجاب الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾.

قال بعضهم: أرادوا بقولهم: اتخذ الله ولدا حقيقة الولد؛ كقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] [. . .][٥].

---

(١) في أ: شكره.
(٢) في أ: منشئها.
(٣) في أ: يعيشون.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٥) بياض في الأصل ولا يضر بالسياق.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ...﴾ [البقرة: ١١٣] كذا، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ ...﴾ [البقرة: ١١٣] كذا فنزه - عز وجل - نفسه عمّا قالوا[1] بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أنه لم يلد أحدًا ولا ولد هو من أحد؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]؛ إذ في الشاهد لا يخلو إما أن يكون ولد من آخر أو والد، والخلق كله لا يخلو من هذا، فأخبر أنه لم يلد هو أحد ولا ولد من أحد.

(١) نقل عن طوائف النصارى القول بالاتحاد، وعن بعضهم القول بالحلول، وعن بعضهم القول بأن عيسى ابن الله، وعن بعض طوائف اليهود القول بأن عزيرًا ابن الله.
واختلف النقل عن النصارى في معنى الاتحاد: فقيل: معناه: أن الكلمة - وهي صفة العلم - ظهرت في عيسى وصارت معه هيكلا، وقيل: معناه: المخارجة، بمعنى أنه تكوّن من الكلمة وعيسى شيء ثالث.
وأما القول بالحلول فمعناه على رأى بعض فرقهم: أن الكلمة - وهي صفة العلم - حلت في المسيح، وعلى رأى البعض الآخر: أن ذات الله حلت في المسيح.
ولما كان كلامهم في الحلول والاتحاد مضطربًا وغير منضبط على وجه صحيح نذكر الصور العقلية التي تتأتى في الاتحاد والحلول، فنقول:
إما أن يقولوا باتحاد ذات الله بالمسيح، أو حلول ذاته فيه، أو حلول صفته فيه، وكل ذلك إما ببدن عيسى أو بنفسه، وإما ألا يقولوا بشيء من ذلك، وحينئذ فإما أن يقولوا: أعطاه الله قدرة على الخلق والإيجاد أو لا، ولكن خصه الله بالمميزات وسماه ابنا تشريفًا كما سمى إبراهيم خليلا، فهذه ثمانية احتمالات كلها باطلة؛ للأدلة التي أحالت حلول الله واتحاده والسابع باطل؛ لما ثبت أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، وبقي احتمال اتحاد الكلمة بذات المسيح، وهو باطل أيضًا؛ لأن الكلمة المراد منها عندهم صفة العلم، والاتحاد بجميع معانيه وأفراده مستحيل على الله بالأدلة السابقة.
والشبهة التي أوقعت النصارى في هذه الكلمات هي ما جاء في الإنجيل في عدة مواضع من ذكر الله بلفظ الأب، وذكر عيسى بلفظ الابن، وذكر الاتحاد والحلول تصريحًا أو تلويحًا، فمن ذلك ما جاء في إنجيل (يوحنا) في الإصحاح الرابع عشر: (يا فيلسوف، من يراني ويعاينني فقد رأى الأب، فكيف تقول أنت: أرنا الأب، ولا تؤمن أني بأبي وأبي بي واقع واقع، وأن الكلام الذي أتكلم به ليس من قبل نفسي، بل من قبل أبي الحالّ فيّ، وهو الذي يعمل هذه الأعمال التي أعمل، آمن وصدق أني بأبي وأبي بي).
هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية المتداول عندهم، فأخذ بعضهم الاتحاد من قوله: (من يراني ويعاينني فقد رأى الأب)، وأخذ بعضهم الحلول من قوله: (أبي الحال فيّ)، وأخذ البنوة من التصريح بلفظ الأب مرة بعد أخرى، وهذا لا يصلح دليلا؛ لوجهين:
الوجه الأول: توافرت الأدلة على حصول التغيير والتبديل في الإنجيل، فاحتمل أن يكون ذلك المذكور في إنجيل (يوحنا) مما حصل فيه التغيير والتبديل؛ فلا يصلح حينئذ أن يكون دليلاً فلا يصح به الاستدلال.
الثاني: أن نتنزل ونقول: لا تغيير ولا تبديل في ذلك المنقول، لكن دلالته على مدعاهم ليست يقينية؛ لجواز أن يكون المراد من الاتحاد الذي فهمه بعضهم من الجملة الأولى: الاتحاد في بيان طريق الحق، وإظهاركلمة الصدق؛ كما يقال: أنا وفلان واحد في هذا القول، ولجواز أن يكون المراد من الحلول المصرح به في بعض الجمل: حلول آثار صنع الله من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولجواز أن يكون المراد من الأب: المبدِئ؛ فإن القدماء كانوا يطلقون

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأويله - والله أعلم - أن في الشاهد من اتخذ ولدا إنما يتخذ لأحد وجوه ثلاثة: إما لحاجة تمسه، أو لشهوة تغلبه، أو لما يستنصر به على آخر ممن يخافه، فإذا كان له ملك السموات والأرض وملك ما فيهما كلهم عبيده وإماؤه، فلا حاجة تقع له إلى الولد؛ إذ هو الغني وله ملك ما في السموات والأرض ومن هذا وصفه فلا يحتاج إلى الولد، ولأنه لا أحد في الشاهد يحتمل طبعه اتخاذ الولد من عبيده وإمائه، فإذا كان لله سبحانه الخلائق كلهم عبيده وإماؤه كيف احتمل اتخاذ الولد منهم لو جاز وقد بينا إحالة ذلك وفساده.

ولأن الولد يكون من شكل الوالد ومن جنسه كالشريك يكون من شكل الشريك ومن جنسه فكان في نفي الشريك نفي الولد؛ لأن معناهما واحد وكل ذي شكل له ضدّ ومن له ضد أو شكل فإنه لا ربوبية له ولا ألوهية.

[وقال بعضهم: قولهم: اتخذ الله ولدا، لم يريدوا حقيقة الولد، ولكن أرادوا منزلة الولد وكرامته، فهو - أيضًا - منفي عنه؛ لأن من لا يحتمل الحقيقة - أعني: حقيقة

= «الأب» على «المبدئ»، فمعنى قوله: «أبي»: مُبدِئي ومُوجِدي، وسمى عيسى ابنا؛ تشريفا له كما سمى إبراهيم خليلاً.

وأيضًا فمن كان متوجهًا لشيء ومقيمًا عليه يقال له: ابنه، كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء السبيل؛ فجاز أن تكون تسمية عيسى بالابن، لتوجهه في أكثر الأحوال إلى الحق واستغراقه أغلب الأوقات في جناب القدس، ومما يؤكد ذلك: أنه جاء في الإصحاح السابع عشر من إنجيل (يوحنا) حيث دعا عيسى للحواريين، ما لفظه: (وكما أنت يا أبي بي وأنا بك فليكونوا هم أيضًا نفسا واحدًا لزمن أهل العلم بأنك أنت أرسلتني، وأنا قد استودعتهم بالمجد الذي مجدتني به ودفعته إليهم؛ ليكونوا على الإيمان كما أنا وأنت أيضًا واحد، وكما أنت حالٌ في كذلك أنا فيهم ليكون كمالهم واحدًا) هذا لفظ الإنجيل، وقد تبين منه معنى الاتحاد والحلول على وجه مغاير لما فهموه وجاء في الإصحاح التاسع عشر ما لفظه: (إني صاعد إلى أبيكم وإلهي وإلهكم) وهذا يدل بواسطة العطف على أن المراد من الأب: الإله، وعلى أنه مساو لهم في معنى البنوة والعبودية.

فهذه النصوص تدحض حجتهم، وتلزمهم إذا أرادوا الحق بالرجوع إلى ما قضت به الأدلة العقلية المتقدمة من استحالة الاتحاد والحلول والبنوة.

أما بعض اليهود الذين قالوا: إن عزيرا ابن الله فقد أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ نسب الله ذلك القول إلى اليهود مع أنه قول لطائفة منهم؛ جريًا على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد، والسبب الذي دعا هذه الطائفة إلى القول بأن عزيرا ابن الله: أن اليهود تركوا العمل بما في التوراة وعملوا بغير الحق؛ فعاقبهم الله تعالى بأن أنساهم التوراة ونسخها من صدروهم؛ فتضرع عزيرٌ إلى الله وابتهل إليه؛ فعاد حفظ التوراة إلى قلبه، فأنذر قومه به، فلما جربوه وجدوه صادقا فيه، فقالوا: ما تيسر لهذا العزير دون سواه إلا لأنه ابن الله. وهذه شبهة واهية لا يصح الاستناد إليها؛ لأن إجابة المَطْلب مرتبطة بالقبول والقرب من الله والخضوع لأوامره واجتناب نواهيه، لا بالبنوة كما يزعمون.

ينظر: الدرر السنية في تنزيه الحضرة الإلهية لأحمد المستكاوي ص (٣٢-٣٥).

الولد - امتنع عن منزلته وكرامته؛ لأن الحقيقة انتفت لعيب يدخل فيه، فإذا ثبت له منزلة تلك الحقيقة والكرامة دخل فيه عيب الحقيقة][١].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ بهذا قيل ما عندكم من حجة على ما تقولون إن له ولدا؛ لأنهم كانوا أهل تقليد لآبائهم وأسلافهم، وكانوا لا يؤمنون بالرسل والكتب والحجج، وإنما يستفاد ذلك من جهة الرسالة والكتب وهم كانوا ينكرون ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تقولون على الله أنه اتخذ ما تعلمون أنه لم يتخذ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هو ما ذكرنا أنهم علموا أنه لم يتخذ ولدًا، لكن قالوا ذلك افتراء على الله ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة؛ لما طمعوا في الدنيا بعبادتهم دون الله الأصنام بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] لا يفلحون، أي: لا يظفرون بما طمعوا في الآخرة ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [أي ذلك لهم متاع في الدنيا][٢] ليس لهم متاع في الآخرة.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: يخاطب رسوله بذلك لم يخاطبهم إلينا مرجعكم، فهو - والله أعلم - لما اشتد على رسول الله ما افتروا به على الله يقول: إلينا مرجعهم فنجزيهم جزاء افترائهم. والثاني: يقول: إلينا مرجعهم فنذيقهم العذاب الشديد، لا ما طمعوا من الشفاعة عندنا والزلفى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره[٣] وحديثه، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) لما بالغ في تقرير الدلائل، والجواب عن الشبه، شرع في بيان قصص الأنبياء؛ لوجوه:
الأول: أن الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم، فربما حصل نوع من الملالة، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن إلى فن آخر، انشرح، ووجد في نفسه رغبة شديدة.
الثاني: ليتأسى الرسول وأصحابه بمن سلف من الأنبياء؛ فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه، خف ذلك على قلبه؛ كما يقال: إن المصيبة إذا عمت

قال بعضهم: إن كان كبر عليكم طول مقامي ومكثي فيكم ودعائي إياكم إلى عبادة الله، والطاعة[١] له، وتذكيري إياكم بآياته. قال بعضهم: وتذكيري بعذابه بترككم إجابتي ودعائي.

ويحتمل قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ بما ادعى من الرسالة، ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بحجج الله على ما ادعيت من الرسالة.

وفي قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ وجوه:

أحدها: اتل منابذة نوح قومه وما أرادوا به من الكيد والمكر به.

والثاني: اذكر عواقب قوم نوح، وما حل بهم من سوء معاملتهم رسولهم.

والثالث: اذكر لهؤلاء عواقب متبعي قومه ومخالفيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قال بعضهم: أي اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ثم كيدوني، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، أي: اجعلوا ما تسرون من الكيد والمكر بي ظاهرًا غير ملتبس ولا مشبه.

وقال بعضهم: قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ أي: أعدوا أمركم وادعوا شركاءكم[٢]؛ وكذلك روي في حرف أبي[٣]: ﴿فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم﴾.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: اقضوا ما أنتم قاضون.

= خفت.

الثالث: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن الجهال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين، إلا أن الله -تعالى- أعانهم بالآخرة، ونصرهم، وأيدهم، وقهر أعداءهم. كان سماع هؤلاء الكفار لهذه القصص سببًا لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف في صدورهم؛ فحينئذ يقللون من الأذى والسفاهة.

الرابع: أن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - لما لم يتعلم علمًا، ولم يطالع كتابًا، ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ولا نقصان، دل ذلك على أنه - عليه الصلاة والسلام - إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

ينظر: اللباب (١٠/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(١) في أ: وإطاعته.

(٢) اخرجه ابن جرير (٦/ ٥٨٥) (١٧٧٧٥) عن الأعرج، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٣) وعزه إلى ابن أبي حاتم عن الأعرج.

(٣) قرأ العامة: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ نصبًا، وفيه أوجه:

أحدها: أنه معطوف على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بتقدير حذف مضاف، أي: وأمر شركائكم؛ كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

الثاني: أنه عطف عليه من غير تقدير حذف مضاف، قيل: لأنه يقال أيضًا: أجمعت شركائي.

الثالث: أنه منصوب بإضمار فعل لائق، أي: واجمعوا شركاءكم بوصل الهمزة، وقيل: تقديره: وادعوا، وكذلك هي في مصحف أبي: ﴿وَٱدْعُواْ﴾ فأضمر فعلاً لائقًا؛ كقوله -تعالى- ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩]، أي: واعتقدوا الإيمان.

=

وقال بعضهم: قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا يكبر عليكم أمركم[١].

وقال الكسائي: هو من التغطية واللبس، أي: لا تغطوه ولا تلبسوه، اجعلوا كلمتكم ظاهرة واحدة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «لا يكن أمركم اغتماما عليكم»، أي: فرجوا عن أنفسكم؛ كقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ...﴾ الآية [الحج: ١٥].

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: اعملوا بي ما تريدون ولا تنظرون؛ وهو كقوله: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وقال الكسائي: هو من الإنهاء والإبلاغ؛ وهو كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ الآية [الإسراء: ٤] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أي: أنهينا إليه وأبلغنا إليه.

وقال أبو عوسجة: إن شئت جعلتها ظلمة فلا يبصرون أمرهم يعني غمّة، وإن شئت جعلتها شكا واشتقاق[٢] الغمة، من غم يغم غما أي غطى يغطي، تقول: غممت رأسه أي غطيته، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي: افعلوا بي ما أردتم وفي قول نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، وقول هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، وقول رسول الله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ دلالة إثبات رسالتهم؛ لأنهم قالوا ذلك لقومهم وهم بين أظهرهم، ولم يكن معهم أنصار ولا أعوان؛ دل أنهم إنما قالوا ذلك اعتمادًا على الله واتكالا بمعونته ونصرته[٣] إياهم.

وقال بعضهم في قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي: فافرغوا إلى يقال [قضى][٤] فرغ؛ وهو قول أبي بكر الأصم.

= ومثله قول الآخر:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماء باردا حتى شَتَتْ هَمَّالَةً عيناها

أي: وسقيتها ماء.

وكقوله:

يا ليت زوجك قد غدا متقلدا سيفا ورمحا

وغير ذلك من الوجوه.

انظر اللباب: (١٠/ ٣٧٧).

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٨٥) (١٧٧٧٦) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) في أ: وإشفاق.

(٣) في ب: ونصره.

(٤) سقط في ب.

وقال بعضهم: ثم اقضوا إلي أي امضوا إلي كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [الذاريات: ٢٦] و ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ونحوه.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾: التولي اسم لأمرين: اسم للإعراض والإدبار؛ كقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، واسم للإقبال والقبول أيضًا؛ كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ الآية [المائدة: ٥٦] ونحوه، فهاهنا يحتمل الأمرين جميعًا، أي: فإن توليتم أي أقبلتم وقبلتم ما أعرضه عليكم وأدعوكم إليه، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أجري إلا على الله. وإن كان في الإعراض فكأنه يقول: كيف أعرضتم عن قبوله، ولم أسألكم على ذلك أجرًا فيكون لكم عذر في الإعراض والرد؟! كقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ الآية [الطور: ٤٠]، أي: لم أسألكم على ما أعرضه عليكم وأدعوكم إليه غرما حتى يثقل عليكم ذلك الغرم، فيمنعكم ثقل الغرم عن الإجابة، ففي هذه الآية وغيرها دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم؛ لأنه لو جاز أخذ الأجر على ذلك لكان لهم عذر ألا يبذلوا ذلك ولا يتعلموا شيئًا من ذلك، وفي ذلك هدم شرائع الله وإسقاطها، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: مسلمًا نفسي إلى الله، أي: سالمًا، لا أجعل لأحد سواه فيها حقا ولا حظا، أو أمرت أن أكون من المخلصين [لله](١) والخاضعين له؛ هو يحتمل ذلك كله.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: نوحًا كذبه قومه فيما ادعى من الرسالة، أو ما آتاهم من الآيات، أو ما أوعدهم(٢) من العذاب بتكذيبهم إياه.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ يعني نوحًا، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: من ركب معه الفلك من المؤمنين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يحتمل خلائف خلفاء في الأرض وسكانًا يخلف بعضهم بعضا، ويحتمل جعلناهم خلائف أي خلف قوم أهلكوا واستؤصلوا بالتكذيب.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: يحتمل الآيات الحجج والبراهين التي أقامها على ما ادعى من الرسالة.

ويحتمل قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العذاب الذي أوعدهم بتكذيبهم إياه فيما وعد.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: كان أنذر(٣) الفريقين جميعًا

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: أوردهم.
(٣) في أ: إنذار.

المؤمن والكافر جميعًا؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١] فإذا كان ما ذكرنا فيكون تأويله: فانظر كيف كان عاقبة من أجاب ومن لم يجب: عاقبة من أجاب الثواب، وعاقبة من لم يجب العذاب[١].

ويحتمل المنذرين الذين لم يقبلوا الإنذار ولم يجيبوا، أي: انظر كيف كان عاقبتهم بالهلاك والاستئصال، ويكون تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١] أي: إنما يقبل الإنذار من اتبع الذكر، أو إنما ينتفع بالإنذار من اتبع الذكر، أو أما من لم يتبع الذكر لم ينتفع، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا﴾ أي: من بعد نوح رسلا إلى قومهم، أي: بعثنا إلى كل قوم رسولا، لا أنه بعث الرسل جملة إلى قومهم، ولكن واحدًا على أثر واحد.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: يحتمل البينات الحجج والبراهين التي أقاموها على ما ادعوا من الرسالة والنبوة.

ويحتمل البينات بيان ما عليهم أن يأتوا ويتقوا.

ويحتمل البينات بما أخبروهم وأنبئوا قومهم بالعذاب أنه نازل بهم في الدنيا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ قال بعضهم: ما كان كفار مكة ليؤمنوا وليصدقوا بالآيات والبيانات كما لم يصدق به أوائلهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: قبل بعث الرسل، ففيه دلالة أن أهل الفترة يؤاخذون بالتكذيب في حال الفترة.

ويحتمل قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: من قبل إتيان البينات، أي: ما كانوا ليؤمنوا بعدما جاءوا بالبينات بما كذبوا به من قبل مجيء البينات.

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: هكذا نطبع على قلوب أهل مكة كما طبعنا على قلوب أوائلهم؛ إذ علم أنهم لا يقبلون الآيات ولا يؤمنون بها، والاعتداء هو الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ هو يخرج على وجهين؛ أحدهما: ما كانوا ليؤمنوا بالبينات إذا جاءتهم البينات على السؤال، وهكذا عادتهم أنهم لا يؤمنون بالآيات إذا أتتهم على السؤال.

والثاني: ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا على علم منهم أنها آيات وأنه رسول؛ والله أعلم.

---

(١) في أ: العقاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد من ذكرنا من الرسل.

﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: بعثهما إلى الملأ وغير الملأ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: يحتمل الوجوه التي ذكرنا.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾: هذا يدل أنهم قد عرفوا أن ما جاءهم الرسول من الآيات أنها آيات، لكنهم عاندوا وكابروا ولم يخضعوا في قبولها وكانوا قومًا مجرمين.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قال بعضهم: قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: الحجج والآيات من عندنا، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنون الحجج والبراهين التي جاء بها موسى، ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يسمون الحجج والبراهين سحرًا لما أن السحر عندهم باطل، لذلك قالوا للحجج إنها سحر، وذلك تمويه منهم يموهون على الناس لئلا يظهر الحق عندهم فيتبعونه.

وقال بعضهم: الحق هو الإسلام والدين؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون الحجج والآيات التي جاءهم بها للدين لأنه جاءهم بالدين، وجاءهم أيضًا بحجج الدين وآياته، قالوا: الحجج: الدين، والإسلام: سحر، ففي التأويلين جميعًا سموا الحجج سحرًا.

وقوله: ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بأمرنا، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: الإسلام هو الدين [الذي][1] أمر الله به، لا أنه يفهم

---

(١) سقط في ب.

لـ (عند) مكان ينتقل من مكان إلى مكان، ولكن معنى الـ (عند) معنى الأمر، وعلى هذا يخرج قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠] أي: [إن][١] الذين بأمر ربك يعبدونه لا يستكبرون عن عبادته لما أنه لم يفهم من مجيء الحق من عنده مكان، فعلى ذلك لا يجوز أن يفهم من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ المكان أو قرب المكان منه، ولكن التأويل ما ذكرنا أن المفهوم من عند الله أمره، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾: والحق ما ذكرنا.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: الإفلاح هو الظفر بالحاجة، يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا [يظفر الساحر][٢] بالحاجة ولا يغلب؛ لأن السحر باطل ولا يغلب الباطل الحق، بل الحق هو الغالب. والسحر هو المغلوب على ما غلب الحق الذي جاء به موسى السحر الذي جاء سحرة فرعون.

أو يقول: لا يفلح الساحرون في الآخرة بسحرهم في الدنيا.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ بسحرهم في حال سحرهم؛ كقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، و ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] أي: لا يفلحون بظلمهم في حال ظلمهم، وأما إذا تركوا الظلم فقد أفلحوا، فعلى ذلك السحرة إذا تركوا السحر فقد أفلحوا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ قيل: لتصرفنا وتصدنا[٣].

قال القتبي[٤]: لفت فلانا عن كذا إذا صرفته، والالتفات منه وهو الانصراف.

وقال أبو عوسجة: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تردنا وتصرفنا على ما ذكر القتبي، قال: يقال: لفته يلفته لفتا.

وقوله - عز وجل-: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: من عبادة الأصنام والأوثان.

ويحتمل ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون والطاعة له.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال عامة أهل التأويل: الكبرياء الملك والسلطان

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: يظفرون.
(٣) ذكره ابن جرير (٦/ ٥٨٨)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٤) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن السدي.
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (١٩٨).

والشرف[١]، أي: الملك الذي كان لفرعون والسلطان يكون لكما [باتباع الناس لكما؛ لأن كل متبوع مطاع معظم مشرف ويحتمل ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الألوهية التي كان يدعى فرعون لنفسه لكما][٢] لأن عندهم أن كل من أطيع واتبع فقد عبد ونصب إلها.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فيما تدعوننا إليه أو ما تدعون من الرسالة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ هذا من فرعون ينقض ما ادعى من الألوهية؛ حيث أظهر الحاجة إلى غيره ولا يجوز أن يكون المحتاج إلهًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ . فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيبطل عمل السحر الذي قصدوا به، أي: يجعله مغلوبًا؛ كقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا يغلب الساحرون ولا يظفرون بالحاجة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا يصلح ما أفسدوا من أعمالهم فيجعلهم صالحين.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: هو ما ذكرنا، أي: لا يجعلهم بأعمالهم الفاسدة صالحين، أو لا يجعل أعمالهم الفاسدة صالحة.

وقال بعضهم: ﴿لَا يُصْلِحُ﴾ أي: لا يرضي بعمل المفسدين.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: ذكر أن يحق الحق والحق حق وإن لم يحق الحق، وكذلك ذكر في الباطل ليبطل الباطل والباطل باطل وإن لم يبطل، ولكن يحتمل قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويبطل الباطل، أي: ليجعل الحق في الابتداء حقا فيصير حقا، ويجعل الباطل في الابتداء باطلا، فيكون باطلا أي: بإبطاله الباطل يكون باطلا وبتحقيقه الحق [يكون حقًّا وهو ما يقال: هداه فاهتدى، وأضله فضل، أي: بهدايته اهتدى وبضلاله ضل؛ فعلى ذلك بإبطاله الباطل بطل وبتحقيقه الحق حق][٣]، والله أعلم.

وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يحتمل وجوهًا:

---

(١) أخرجه بمثله ابن جرير (٦/ ٥٨٩) (١٧٧٨١ و١٧٧٨٢ و١٧٧٨٣ و١٧٧٨٥ و١٧٧٨٦ و١٧٧٨٧ و١٧٧٨٨) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.

يحتمل يحق الحق بكلماته [أي: برسله؛ إذ بالرسل يظهر الحق وبهم يظهر بطلان الباطل وهم حجج الله في الأرض وبالحجج يظهر الحق، وكذلك الباطل.

ويحتمل ما ذكر أهل التأويل بكلماته: آياته التي أنزل عليه، بها ظهر حقيقة ما أتى به موسى وبها ظهر بطلان ما أتى به السحرة من السحر.

ويحتمل كلماته][(١)] ما وعد موسى قومه من العذاب الذي وعد [من الظفر بأعدائهم والنصر عليهم وغير ذلك ما وعد من][(٢)] النعمة لهم؛ كقوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾.

يحتمل قوله: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ من قوم موسى لما قيل: إن موسى كان من أولاد إسرائيل، فهم من ذريته من هذا الوجه، يقال: أهل بيت فلان وإن لم يكن البيت له.

ويحتمل [قوله][(٣)]: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ من قوم فرعون فهو نسب إليه لما ذكرنا.

وقال أهل التأويل: أراد بالذرية القليل منهم، أي: ما آمن منهم إلا القليل، ولكن لا ندري ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾.

يحتمل: ما آمن من آمن من قومه إلا على خوف من فرعون وملئه أي: آمنوا، أي: وإن خافوا من فرعون وملئه.

ويحتمل ما ترك من قومه الإيمان بموسى من ترك إلا على خوف من فرعون أن يفتنهم أي: يقتلهم ويعذبهم، ففيه دلالة أن الخوف لا يعذر المرء في ترك الإيمان حقيقة، وإن كان يعذر في ترك إظهاره؛ لأن الإيمان هو التصديق والتصديق يكون بالقلب ولا أحد من الخلائق يطلع على ذلك؛ لذلك لم يعذر في ترك إتيانه لأنه يقدر على إسراره، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨] كان مؤمنًا فيما بينه وبين ربه وإن لم يظهر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما قال - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي: قهر وغلب على أهل الأرض وإنه لمن المسرفين.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فيه دلالة أن الإيمان والإسلام واحد في الحقيقة؛ لأنه بدأ بالإيمان بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وختم بالإسلام بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ دل أنهما واحد هو اعتقاد ترك تضييع كل حق، والإسلام اعتقاد تسليم كل حق وترك تضييعه، والله أعلم. والإسلام هو جعل كلية الأشياء لله سالمة، والإيمان هو التصديق بكلية الأشياء فيما فيها من الشهادة لله بالربوبية له والألوهية.

وقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يحتمل هذا وجهين:

يحتمل: أن يكون قال ذلك لما خافوا مواعيد فرعون وعقوباته؛ كقوله للسحرة لما آمنوا: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٢٤]، فقال عند ذلك: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ في دفع ذلك عنكم، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل ما قاله على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم ما قيل أي[١]: يقتلهم ويعذبهم، والله أعلم.

هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: أي لا تجعل لهم علينا الظفر والنصر، فيظنون أنهم على هدى وعلى حق ونحن على ضلال وباطل[٢].

والثاني: لا تجعلنا تحت أيدي الظلمة فيعذبونا؛ فيكون ذلك فتنة لنا ومحنة على ما فعل فرعون بالسحرة لما آمنوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه أن قوله: الظالمين والكافرين واحد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . . .﴾ الآية يحتمل وجهين:

---

(١) في أ: أن.
(٢) في أ: وبطلان.

[أحدهما][(١)]: يحتمل قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ أي: اتخذا لقومكما مساجد يصلون فيها، ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ﴾ أي: اجعلوا في بيوتكم التي اتخذتم مساجد قبلة؛ [فيكون في قوله:][(٢)] ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [الأمر باتخاذ المساجد، ويكون في قوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الأمر باتخاذ القبلة في المساجد التي أمر ببنيانها.

والثاني: قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾][(٣)] أي: اتخذا لقومكما بمصر مساجد على ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: اجعلوا في بيوتكم التي بنيتم لأنفسكم قبلة تتوجهون إليها، ويكون فيه دلالة أن نصب الجماعة واتخاذ المساجد والقبلة متوارثة مسنونة ليست ببديعة لنا وفي شريعتنا خاصة، ويؤيد ما ذكرنا أن فيه الأمر باتخاذ المساجد.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دل الأمر بإقامة الصلاة على أن الأمر ببناء البيوت أمر باتخاذ المساجد واتخاذ القبلة.

فإن قيل: هذا في الظاهر أمر باتخاذ المساجد، والآية التي ذكر فيها اتخاذ المساجد تخرج مخرج الإباحة لنا، وهو قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] هو في الظاهر إباحة.

قيل: هو أمر في الحقيقة، وإن كان في الظاهر إباحة، ألا ترى أنه قال: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا . . .﴾ الآية [النور: ٣٦]، ولا شك أن ذكر اسمه والتسبيح له أمر؛ فدل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

وأما أهل التأويل فإنهم قالوا: إنهم كانوا يخافون فرعون وملأه، فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرًا خوفًا من فرعون[(٤)]، هذا يحتمل إذا كان قبل هلاك فرعون وقبل أن يستولوا على مصر، وإذا كان بعد هلاكه وبعدما استولوا وملكوا على مصر وأهله فالأمر فيه ما ذكرنا؛ أمر باتخاذ المساجد ونصب الجماعات فيها وإقامة الصلاة فيها.

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (٦/٥٩٧) عن: ابن عباس (١٧٨٢٢ و١٧٨٢٣ و١٧٨٢٤)، ومجاهد (١٧٨٥٢ و١٧٨٢٦ و١٧٨٢٧ و١٧٨٢٨)، وقتادة (١٧٨٣٠ و١٧٨٣١)، والضحاك (١٧٨٣٢).
وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٦٦) وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس، ولأبي الشيخ عن قتادة.

وقال بعضهم من أهل التأويل: وجهوا بيوتكم ومساجدكم نحو القبلة لكن هذا بعيد؛ لأنه لا يكون بيتًا إلا ويكون جهة من جهاته إلى القبلة، فلا معنى له. والوجه فيه ما ذكرنا.

ويحتمل الأمر ببناء البيوت لقومهما بمصر وجعل البيوت قبلة وجهين:

أحدهما: الأمر بالانفصال من فرعون وقومه حتى إذا أرادوا الخروج من عندهم قدروا على ذلك ولا يكون المرور عليهم وكان ذلك الانفصال إنما كان من جهة القبلة.

والثاني: ما ذكرنا أرادوا أن يعتزلوهم حتى يتهيأ لهم الصلاة فيها، وكان لا يتهيأ لهم في بيوت فرعون.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل البشارة في الآخرة بالجنة وأنواع النعيم [ويحتمل أن يبشرهم بالملك في الدنيا والظفر على فرعون وأنواع النعم][1] بعدما أصابوا الشدائد من فرعون؛ كقوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو عوسجة: قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ تهيآ من هيأ، أي: هيئا لهم موضعًا؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣] أي: هيأنا لهم مهيأ صدق.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ويحتمل قوله ﴿زِينَةً﴾: من أنواع ما آتاهم من الأنزال والنبات؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] ونحوه. ويحتمل الزينة التي كانوا يتزينون بها من المركب والملبس، وما يتحلون بها من أنواع الحلي وأموال كثيرة سوى ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾: قالت المعتزلة تأويل قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: آتاهم لئلا يضلوا الناس عن سبيله، ولكن أضلوهم عن سبيله وقالوا هذا كما يقال [لم أقل كذا لأجل كذا][2]، ولكن فعلت ونحوه من الكلام، ولكن عندنا هو ما ذكر: آتاهم الأموال وما ذكر ليضلوا عن سبيله؛ لأنه إذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا وهو كما ذكرنا في قوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]؛ وقوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ . . .﴾ الآية [المؤمنون: ٥٦] وأمثاله فكذا هذا والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل هذا وجهين: يحتمل: أي: اطمس على أموالهم، واجعل في قلوبهم قساوة وغلظة تنفر الأتباع ومن

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: لم تك هذا كذا لنفعل كذا.

يقلدهم عن اتباعهم وتقليدهم، فيكون ذلك أهون علينا في استنقاذ الأتباع منهم وأدعى لهم إلى الإيمان أعني الأتباع ومن يقلدهم، ويكون ذلك سببًا لإبعادهم عن اتباعهم وتقليدهم إياهم؛ هذا وجه.

والثاني: قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعل ذلك آية تضطرهم إلى الإيمان، فإنهم لم يؤمنوا بالآيات التي أرسلتها عليهم من الطوفان والجراد وما ذكر من البلايا، فيكون قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هذا من طمس الأموال وقساوة القلوب وشدتها، والله أعلم.

وقال بعض أهل التأويل: واشدد على قلوبهم واطبعها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وهو الغرق[١] فعند ذلك يؤمنون، وأما بهذه الآيات فلا.

هذا يحتمل إذا كان الله - عز وجل - أخبر موسى أنهم لا يؤمنون فيسع له هذا الدعاء، وأما قبل أن يخبره بذلك فلا يسع له أن يدعو بهذا، وهو إنما أرسله إليهم[٢] ليدعوهم إلى الإيمان والطمس.

قال أبو عوسجة: هو الذهاب بها، أي: اذهب بها.

وقال القتبي[٣]: قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾ أي: أهلكها[٤]، وهو من قولك: طمس الطريق إذا عفا ودرس.

وقال غيره: الطمس هو المسخ[٥]؛ كقوله: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] أي: مسخناهم.

وقال بعضهم: الطمس هو التغيير عن جوهرها[٦]، دعا موسى بهذا الدعاء بالأمر لما أيس من إيمانهم؛ وهو كقول نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ الآية [٢٦، ٢٧] عند الإياس منهم فعلى ذلك موسى، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال بعضهم: إن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه[٧]، فقال الله - عز وجل-: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ سمى كليهما

(١) في أ: الفرق.
(٢) في أ: عليهم.
(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (١٩٨).
(٤) ذكره البغوي (٢/ ٣٦٥) ونسبه لمجاهد.
(٥) ينظر السابق.
(٦) ذكره بمعناه ابن جرير (٦/ ٥٩٩) وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ١٨٦).
(٧) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٠٣) عن كلٍّ من:
عكرمة (١٧٨٦١ و١٧٨٦٧ و١٧٨٦٨)، وأبي صالح (١٧٨٦٢)، ومحمد بن كعب (١٧٨٦٣ =

دعاء، ولهذا قال محمد بن الحسن - رحمه الله - في بعض كتبه: إن الإمام يدعو في القنوت في الوتر والقوم يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة وما [أمرتكما به][1] ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وهو كقوله لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]؛ وكقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٤٩] ونحوه، وإن كان العلم محيطا أن الأنبياء - صلوات الله عليهم - لا يتبعون سبيل أولئك ولا يتبعون أهواءهم لما عصمهم - عز وجل - ولكن ذكر هذا - والله أعلم - ليعلم أن العصمة لا تزيل النهي والأمر بل تزيد حظرًا ونهيا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: هذا ظاهر.

وفي قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ دلالة خلق أفعال العباد؛ لأنه أضاف إلى نفسه أنه جاوز بهم، وبنو إسرائيل هم الذين تجاوزوا، دل ذلك أنه خالق فعلهم.

وأما قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: حتى إذا غرق؛ لأنه ذكر في بعض القصة أن فرعون لما انتهى إلى ساحل البحر، فرأى البحر منفرجا طرقًا، فقال: إنما انفرج البحر لي، فلما دخل غرق فعند ذلك قال غريقا: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثم إيمانه لم يقبل في ذلك الوقت لوجهين:

أحدهما: لما يحتمل أن يكون إيمانه عند رؤية البأس وخوف الهلاك، فهو إيمان دفع البأس لا إيمان حقيقة، وهو على ما أخبر عن إيمان الكفرة في الآخرة لما عاينوا العذاب؛

= و١٧٨٦٤)، وأبي العالية (١٧٨٦٥)، والربيع بن أنس (١٧٨٦٦)، وابن عباس (١٧٨٦٨)، وابن زيد (١٧٨٦٩).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٧) وعزاه لأبي الشيخ عن ابن عباس، ولعبد الرزاق وأبي الشيخ عن عكرمة، ولسعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظي، ولابن جرير عن أبي صالح والربيع بن أنس وأبي العالية وابن زيد مثله.

(١) في ب: أمر بكتابه.

كقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]؛ وكقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وكقولهم: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وأمثاله ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فما عاينوا هم من العذاب أكبر وأشد مما عاين فرعون، ثم أخبر أنهم لو ردوا لعادوا إلى ما كانوا يعملون لكنهم قالوا ذلك قول دفع، فعلى ذلك إيمان فرعون إيمان دفع البأس عن نفسه لا إيمان حقيقة واختيار.

والثاني: أن الإيمان والإسلام هو تسليم النفس إلى الله، فإذا آمن في وقت خرجت نفسه من يده لم يصر مسلمًا نفسه إلى الله؛ إذ نفسه ليست في يده ولذلك لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت وقت الإشراف على الهلاك.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن الإيمان بالله [لا يكون إلا بالاستدلال][1] بالشاهد على الغائب، ولا يمكن الاستدلال بالشاهد على الغائب في ذلك الوقت؛ إذ لا يكون ذلك إلا بالنظر والتفكر [وفي ذلك الوقت لا يمكن النظر والتفكر][2]؛ لذلك لم يكن إيمان حقيقة، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قيل فيه بوجوه:

قيل: قوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجوة، أي: نلقيك على النجوة وهو مكان الارتفاع والإشراف[3]؛ ليراه كل أحد أنه هلك ليظهر لهم أنه لم يكن إلها على ما ادعى لعنه الله، وأما سائر أبدان قومه لم تلق على النجوة ولكن بقيت في البحر.

والثاني: قيل: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي: نخرجك من البحر ولا نتركك فيه لتكون لمن خلفك آية.

والثالث: ننجيك ببدنك ولا نتبع بدنك روحك[4]؛ لأنه ذكر في القصة أنهم لما غرقوا هم وأغرق، أخذ إلى النار؛ كقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] أخبر أنه لم يهو جسده بروحه إلى النار، ولكن أخرج بدنه وهوت روحه إلى النار مع سائر قومه - والله أعلم - ليرى جسده ويظهر كذبه ولايشتبه أمره عليهم.

---

(١) في ب: إنما هو يكون بالاستدلال.
(٢) سقط في أ.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٦٧)، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ١٨٨).
(٤) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٠٧) (١٧٨٨٥ و١٧٨٨٦ و١٧٨٨٧ و١٧٨٩٢ و١٧٨٩٣) عن مجاهد.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٠) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل ليكون هلاكك آية، فلا يدعى أحد الربوبية والألوهية مثل ما ادعى هو(١)، أو يقول: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: من شاهدك كذلك غريقًا ملقى كان آية له.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾: قال بعض أهل التأويل: يعني أهل مكة(٢) عن آياتنا لغافلون عن هلاك فرعون وقومه لما قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]، و ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ [القصص: ٣٦] [. . .](٣) يقول: هم غافلون عما أصاب أولئك؛ إذ مثل هذا لا يفترى، أعني: هذه القصص.

ويحتمل ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، أي: كثير منهم كانوا غافلين عما أصابهم، والغفلة تكون على وجهين:

أحدهما: غفلة إعراض وعناد بعد العلم به ومعرفة أن ذلك حق.

والثاني: يغفل بترك النظر والتفكر؛ فكلا الوجهين مذموم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: قال عامة أهل التأويل: بوأنا أنزلنا بنى إسرائيل منزل صدق(٤). وقال بعضهم: ﴿بَوَّأْنَا﴾: هيئنا لبنى إسرائيل، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: مهيأ صدق حسنا؛ كقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٢١]، أي: تهيئ للمؤمنين.

وقال بعضهم: قوله: ﴿بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مكناهم تمكين صدق؛ وهو كقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [القصص: ٥ - ٦] يحتمل ما ذكر من التبوئة التمكين(٥) الذي ذكر في هذه الآية وقوله ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قال بعضهم: منزل صدق، أي: كريم وقال: منزل صدق أي حسن. ويحتمل وجهين آخرين:

أحدهما: أنه وعد لهم أن يمكن لهم في الأرض فأنجز ذلك الوعد، فهو مبوأ صدق أي تمكين صدق، حيث أنجز ذلك الوعد وصدق الوعد ما ذكر ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الآية.

والثاني: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مبوأ أهل صدق لأن الشام كان لم يزل منزل أهل صدق،

---

(١) هذا كأنه على قراءة «خَلَقَكَ» بالقاف.

(٢) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ١٨٩).

(٣) بياض في الأصول.

(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (٦/ ٦٠٨) (١٧٨٩٦) عن الضحاك، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الضحاك.

(٥) في أ: التمكن.

وعلى هذا يخرج قوله: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ . . .﴾ الآية [الإسراء: ٨٠]، أي: أخرجني مخرج أهل صدق وأدخلني مدخل أهل صدق، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قال أهل التأويل: يعني المن والسلوى، ولكن الطيبات هي التي طابت بها الأنفس مما حل بالشرع مما لا تبعة على أربابها مما لم يعص فيها.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: فما اختلفوا في الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم أنه حق.

وقيل[١]: فما اختلفوا في محمد في أنه رسول الله إلا من بعد ما جاءهم العلم [أنه رسول الله وقيل: فما اختلفوا في القرآن والأديان التي أنزلها على رسوله إلا من بعد ما جاءهم العلم][٢] أنه منزل من عند الله. ويحتمل قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في موسى أنه رسول الله إلا من بعد ما جاءهم العلم أنه رسول الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . . .﴾ الآية: ظاهرة من الوجوه التي ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: الجزاء والثواب، والثاني: في تبيين المحق من المبطل.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: اختلف فيه؛ قال بعضهم: [الخطاب به لرسول الله والمراد منه غيره. وقال بعضهم: الخطاب به المراد به جميعًا غيره. وقال بعضهم][٣] الخطاب به والمراد به رسول الله ما كنت في شك مما أخبرتهم وأنبأتهم، فمن قال: الخطاب لرسول الله والمراد به غيره، وهو ما ظهر في الناس أنهم يخاطبون من هو أعظم منزلة عندهم وقدرا ويريدون به غيره، وإلا لا يحتمل أن يكون رسول الله يشك فيما أنزل إليه قط أو يرتاب؛ كقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/٣٦٧).
(٢) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.

عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا . . .﴾ الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أنه في وقت ما خوطب به لم يكن أبواه أحياء دل أنه أراد به غيره؛ فعلى ذلك الأول.

ومن قال: الخطاب والمراد به من غير[١] رسول الله ﷺ يقول: إن الوفود من الكفرة كانوا يتقدمون رسول الله فيسألونه شيئًا فشيئًا فيخاطب الذى[٢] يتقدم، وكان يحضره الوحدان[٣] والجماعة يقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ على هذا التأويل هو منزل إليه؛ إذ كل منزل على رسول الله منزل عليه وإليه وإلى كل أحد كقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أمرهم باتباع ما أنزل إليهم دل أن كل منزل على رسول الله منزل عليهم.

ومن قال: الخطاب والمراد به رسول الله قال لما لا يحتمل أن يكون رسول الله يشك في شيء مما أنزل إليه، ولكنه يريد به التقرير عنده لقول الكفار إن الذي يلقي على محمد شيطان فيريد به التقرير عنده، أو يخاطب به كل شاك؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ . ٱلَّذِى﴾ [الانفطار: ٦ - ٧] هو يخاطب إنسانًا واحدًا، ولكن المراد به كل إنسان مغرور وكل كافر، وذلك جائز في القرآن كثير أن يخاطب به كلا في نفسه.

ومن قال: خاطب به رسوله وأراد هو - أيضًا - وهو كان في الابتداء على غير يقين أنه يوحى إليه أو لا؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنباء التي أخبرتهم وأنبأتهم وادعيت أنها أوحيت إليك ليخبروك على ما أخبرتهم.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال بعضهم: فاسأل الذين يقرءون الكتاب يعني من آمن منهم.

وقال بعضهم: سل أهل الكتاب منهم يخبرونك؛ لأنه مكتوب عندهم؛ كقوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ قيل[٤]: الحق القرآن جاء من ربك، وقيل: جاء البيان أنه من عند الله.

---

(١) في أ: حضر.
(٢) في أ: الذين.
(٣) في أ: الوفد.
(٤) ذكره أبو حيان في البحر (٥/١٩١).

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هو ما ذكرنا أنه يريد بالخطاب غيره، وإلا لا يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ يكون من الشاكين، أو يكون من الذين يكذبون[(١)] بآيات الله، أو يكون من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله - عز وجل-: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] هذا يكون في الختم من يختم به يعني بالكفر فقد حقت كلمة ربك لأملأن جهنم، أو ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ما ذكر في آية أخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٣٧]، أو كلمة ربك ما ذكر: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله - عز وجل-: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: علم ربك بأحوالهم، أي: من كان علمه أنه لا يؤمن فلا يؤمن وقت اختياره الكفر؛ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] [أي: من يضلل الله فلا هادي له][(٢)] وقت اختيارهم الكفر؛ وكذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقت اختيارهم الظلم ونحو ذلك، فالتأويل الأول يرجع إلى الختم به، والثاني: إلى وقت من ثبت عليه علم ربه أنه لا يؤمن إلى وقت أنه لا يؤمن في ذلك الوقت.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قيل: في الدنيا إيمان دفع العذاب ويحتمل في الدنيا، وقد ذكرنا هذا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ . . .﴾ الآية، أي: لم تكن القرى آمنت عند معاينة البأس إيمانا نفعها إلا إيمان قوم يونس، فإنهم آمنوا إيمان حقيقة وعلم الله صدقهم من إيمانهم فنفعهم إيمانهم، هذا يخرج

(١) في ب: كذبوا.
(٢) سقط في أ.

على وجوه:

أحدها: أن سائر القرى كان إيمانها عند إقبال العذاب إليهم ووقوعه عليهم، فلم ينفعهم [إيمانهم][(١)] إلا قوم يونس، [فإن إيمانهم إنما كان لتخويف العذاب فينفعهم.

والثاني: يحتمل أن يكون قوم يونس][(٢)] كان نزول العذاب بهم على التخيير والتمكين إن قبلوا الإيمان أمنوا دفع العذاب عنهم، وإن لم يقبلوا نزل بهم.

والثالث: [إنما][(٣)] كان إيمان سائر القرى بعدما عاينوا مقامهم في النار فآمنوا، فيكون إيمانهم إيمان اضطرار، وقوم يونس آمنوا قبل أن يعاينوا ذلك، ويشبه أن يكون قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ بعد وقوع العذاب والبأس، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم آمنوا إذ عاينوا العذاب قبل أن يقع بهم، وإيمان فرعون وقومه إنما كان بعدما غرقوا وبعدما خرجت أنفسهم من أيديهم فلم يقبل، وإيمان قوم يونس كان قبل أن يقع العذاب بهم وأنفسهم في أيديهم بعد فقبل، وهو ما ذكر عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٧١]، آمنوا بعدما[(٤)] عاينوا قبل أن يقع بهم وسائر الأمم الخالية كان منهم الإيمان بعد وقوع العذاب بهم من نحو عاد وثمود وأمثاله، وأصله ما ذكرنا آنفًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾: بحلول العذاب بهم، ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾: هو العذاب الفاضح وإلا الخزي هو العذاب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾: قالت المعتزلة: [قوله][(٥)]: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مشيئة القهر والقسر، لو شاء لأجبرهم وقهرهم جميعًا فيؤمنوا وإلا فقد شاء أن يؤمنوا مشيئة الاختيار لكنهم لم يؤمنوا، واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فيقال لهم: إن مشيئة الاختيار هي الظاهرة عندكم ومشيئة الجبر والقهر غائبة[(٦)]، فإذا وجد منه مشيئة الاختيار فلم يؤمنوا ولم تنفذ مشيئته فيهم كيف يصدق هو في الإخبار عن

---

(١) سقط في ب.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: عندما.
(٥) سقط في ب.
(٦) في أ: غايته.

المشيئة التي [هي غائبة][(١)] أنها لو كانت لآمنوا هذا فاسد على قولهم.

وبعد فإن المشيئة لو كانت مشيئة القهر لكانوا مؤمنين بتلك المشيئة وهي خلقة؛ لأن كل كافر مؤمن بخلقته؛ لأن خلقة كل أحد تشهد على وحدانية الله، فإذا كانوا مؤمنين بالخلقة ثم ذكر أنه لو شاء لآمنوا دل أنه لم يرد به مشيئة القهر ولكنه أراد مشيئة الاختيار، وتأويله عندنا هو أن عند الله تعالى لطف لو أعطاهم كلهم لآمنوا جميعًا، لكنه إذ علم أنهم لا يؤمنون لم يعطهم وهو التوفيق والعصمة، لكنه إذ علم منهم أنهم لا يؤمنون شاء ألا يؤمنوا، ثم لا يحتمل أن يتحقق الإيمان بالجبر والقهر؛ لأنه عمل القلب والجبر والإكراه مما لا يعمل على[(٢)] القلب، فهو وإن تكلم بكلام الإيمان فلا يكون مؤمنا حتى يؤمن بالقلب، فيكون التأويل على قولهم: ولو شاء ربك فلا يؤمنوا، فهذا متناقض فاسد.

وبعد فإن الإيمان لا يكون في حال الإكراه والإجبار؛ لأن الإكراه يزيل الفعل عن المكره كأن لا فعل له في الحكم.

وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن قيل: أليس قال الله - عز وجل-: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] أي: حتى يسلموا وذلك إكراه، وقال [رسول الله ﷺ][(٣)]: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»[(٤)] فذلك إكراه، فكيف يجمع بين الآيتين؟! قيل لوجهين:

أحدهما: ما ذكر أن هذه السورة مكية، وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] مدنية، فيحتمل قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تكرههم ثم أمر بالقتال بالمدينة والحرب والإكراه عليه.

والثاني: يجوز أن يجمع بين الآيتين، وهو أن يكون قوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] أي: تقاتلونهم حتى يقولوا قول إسلام ويتكلموا بكلام الإيمان، دليله[(٥)] ما روي: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، والقول: بلا لا إله إلا الله على غير حقيقة ذلك في القلب ليس بإيمان، وفي هذه الآية حتى يكونوا مؤمنين وبالإكراه لا يكونون مؤمنين

---

(١) في أ: هو غاية.
(٢) في أ: عمل.
(٣) سقط في ب.
(٤) أخرجه البخاري (٣/٣٠٨) كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٩٩) وفي (١٢/٢٨٨) كتاب استتابة المرتدين (٦٩٢٤) وفي (١٣/ ٢٦٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤) ومسلم (١/ ٥٢) كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: «لا اله إلا الله » (٢١/٣٣).
(٥) في ب: حتى.

حقيقة؛ لأنه عمل القلب والإكراه مما لا يعمل عليه، والله أعلم.

وتأويل قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تملك أن تكرههم، وكان رسول الله ﷺ لشدة حرصه ورغبته في إيمانهم كاد أن يكرههم على الإيمان إشفاقًا عليهم؛ كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمشيئة الله، وقيل: بعلم الله، وقيل: بأمر الله[١] وبإرادته وهو ما ذكرنا لا تؤمن نفس إلا بمشيئة الله وإرادته في ذلك، ولا يحتمل قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ سوى المشيئة والإرادة؛ لأنه كم من مأمور بالإيمان لم يؤمن، فلم يحتمل الأمر ولا يحتمل الإباحة لأنه لا يباح ترك الإيمان في حال وأصله ما ذكرنا؛ أنه لا يحتمل أن يكون الله - عز وجل - يعلم من خلقه اختيار عداوته والخلاف له ويشاء لهم الولاية؛ لأنه يخرج ذلك مخرج العجز؛ لأن في الشاهد من اختار عداوة أحد فالآخر يختار ولايته أنه إنما يختار لضعفه وعجز فيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ قيل: الإثم على الذين لا يعقلون[٢]، وقيل: ويجعل العذاب على الذين لا يعقلون[٣]، أي: لا يستعملون عقولهم حتى يعقلوا، أو على الذين لا ينتفعون بعقولهم.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: لم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها عند نزول العذاب إلا قوم يونس.

وقال بعضهم: فهلا كانت آمنت إذا رأت بأسنا، فكانت مثل قوم يونس، فإنهم آمنوا حين رأوا[٤] العذاب، وأصله ما ذكرنا أنه لا يحتمل أن يكون الله تعالى يعلم من خلقه اختيار عداوته والخلاف له يسألهم ويشاء لهم الولاية؛ لأنه يخرج ذلك مخرج العجز؛ لأن في الشاهد من اختار عداوة أحد فالآخر يختار ولايته أنه إنما يختار لضعفه وعجزه فيه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: وما كان لنفس في علم الله أنها لا تؤمن فتؤمن، أي: لا تؤمن نفس في علم الله أنها لا تؤمن إنما يؤمن

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٠).
(٢) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ١٩٣) ونسبه لابن عباس.
(٣) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٤) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، والبغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٠).
وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ١٩٣) ونسبه للحسن والزجاج وأبي عبيدة.
(٤) في أ: يروا.

من في علم الله أنه يؤمن، وأما من في علم الله أنه لا يؤمن فلا يؤمن.

وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: لا تؤمن نفس إلا بمشيئة الله، أي: إذا آمنت إنما تؤمن بمشيئة الله ما يفعل إنما يفعل بمشيئة الله؛ كقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقال بعضهم: [قوله](١): ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله، فمعناه إذا آمنت إنما تؤمن بأمره لا تؤمن بغير أمره فالأول أقرب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: يجعل جزاء الرجس، أي: جزاء الكفر على الذين لا يعقلون، أي: الذين لا ينتفعون بعقولهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأويله - والله أعلم - أي: انظروا إلى آثار نعمه وإحسانه التي في السموات والأرض [لكي تشكروه أو يقول: انظروا إلى آثار ربوبيته وألوهيته في السموات والأرض](٢) فتوحدوه وتؤمنوا به أو يقول: انظروا إلى آثار سلطانه وقدرته فتخافوا نقمته(٣) وعقابه، أو انظروا إلى أجناس الخلق واتساقه على تقدير واحد ليدلكم على وحدانيته ونحو ذلك، ليس شيء في السموات والأرض يقع عليه البصر إلا وفيه دلالة الربوبية حتى طرفة العين ولحظة البصر.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ [يحتمل وجوهًا: يحتمل وما تغني الآيات والنذر عن قوم](٤) همتهم المكابرة والمعاندة، إنما تغني الآيات من همته القبول والانقياد، وأما من همته المكابرة والعناد فلا تغني؛ وهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

ويحتمل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون في الدنيا، إنما تنفع وتغني لقوم يؤمنون، فأما من لا يؤمن فلا تغني.

والثالث: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل الرسل، ويحتمل المواعيد(٥) التي أوعدوا والأحوال التي تغيرت على أوائلهم، والله أعلم.

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: نعمته.
(٤) سقط في أ.
(٥) في أ: الوعيد.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: فهل ينتظرون بي يومًا من الهلاك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم؟! أي: إلا مثل ما انتظر الذين خلوا من قبلهم برسلهم من الهلاك، فهو يخرج على التوبيخ لانتظارهم هلاك الرسل وذهاب أمرهم. ويحتمل وجهًا آخر: فهل ينتظرون من نزول العذاب بهم إلا مثل ما انتظر أولئك من نزول العذاب بهم؟! إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل.

ويحتمل قوله: فهل ينتظرون من تأخيرهم الإيمان إلى وقت نزول العذاب بهم [إلا مثل ما أخر الذين خلوا من قبلهم الإيمان إلى وقت نزول العذاب بهم][1]، فهذا يخرج على الإياس من إيمانهم، أي لا يؤمنون إلى ذلك الوقت الذي لا ينفعهم إيمانهم.

والوجه الأول على التوبيخ والتعيير.

وقوله: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بي ذلك ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾.

قوله: ﴿نُنَجِّي﴾ أي: أنجينا الرسل والذين آمنوا؛ لأنه لم يكن بعده رسول، وتأويله - والله أعلم - أنه وعده أن ينجي الرسل والذين آمنوا كذلك حقا علينا أن ينجز ما وعدنا أن ينجي الرسل والذين آمنوا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾.

قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾: الذي أدين به، أو [إن][2] كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه.

﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا شككتم في ديني الذي أدعوكم إليه كنتم

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ب.

شاكين في دينكم الذي أنتم عليه، فتركتم ديني الذي أنا عليه بالشك، [ثم تدعونني إلى دينكم الذي أنتم عليه بالشك، يذكر سفههم بتركهم إجابتهم بالشك ودعائهم إياه بالشك إلى دينهم لأن الشك][١] يوجب الوقف في الأشياء، ولا يوجب الدعاء إليه إنما يوجب الدعاء إليه بطلان غيره لا الشك، هذا - والله أعلم - محتمل وهو يخرج على وجهين أيضًا:

أحدهما: على الإضمار، والآخر على المنابذة، والإضمار ما ذكرنا: إن كنتم في شك من ديني الذي أدين به [وأدعوكم إليه فإني لا أشك فيه، هذا وجه الإضمار، ووجه المنابذة: يقول إن كنتم في شك مما أعبد وأدين به][٢] فلا تعبدون ذلك ولا تدينون به، فأنا لا أعبد ما تعبدون ولا أدين ما تدينون؛ وهو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾: والتوفي هو [النهاية والغاية][٣] في الإضرار، وما تعبدون من الأصنام دونه لا يملكون توفيكم ولا الإضرار بكم إن لم تعبدوها، يذكر سفههم ويلزمهم الحجة أن الذي يتوفاهم هو المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يشبه أن يكون قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المرسلين؛ كقوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١] فعلى ذلك هذا.

ويحتمل الإيمان نفسه على ما نهي أن يكون من المشركين أو الشاكين؛ فعلى ذلك أمر أن يكون من المؤمنين المخلصين له المسلمين أنفسهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أمرت أن أقيم نفسي لله خالصة سالمة لا أشرك فيها غيره ولا أجعل لسواه فيها نصيبًا، أو أن يقول: إني أمرت أن أقيم نفسي على ما عليها شهادة خلقتها؛ إذ خلقة كل نفس تشهد على وحدانية الله وألوهيته، أو يقول: أقم وجه أمرك لما تدين به وتقيم عليه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: هذا ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾: إن أطعته وأجبته، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: إن تركت إجابته وطاعته.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٣) في ب: الغاية والنهاية.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل لا تعبد من دون الله ما لا يملك جر المنفعة.
ويحتمل الدعاء نفسه، أي: لا تدعوا[١] من دون الله إلهًا.
وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: [ذكر هاهنا][٢] الظلم إن فعل ما ذكر والمراد منه الشرك، وذكر في قصة آدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقد قرباها ولم يكونا مشركين إنما كانا عصاة؛ ليعلم أن ليس في الموافقة في الأسماء موافقة في الحقائق والمعاني إنما يكون الموافقة في الحقائق في موافقة الأسباب؛ لذلك كان ما ذكروا، والله أعلم.
وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: فيه الرجاء والطمع إلى من دونه؛ إذ أخبر أنه لا يوجد ذلك من عند غيره.
وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: أخبر أنه إن أراد خيرًا وفضلا فلا راد لذلك الفضل، والخير، والإيمان من أعظم الخيرات وأفضلها، فإذا [أراده لإنسان][٣] كان لا يملك أحد دفع ما أراد ولا رده؛ دل أنه إذا أراد الإيمان لأحد كان مؤمنا، فهو ينقض على المعتزلة حيث قالوا: إنه أراد الإيمان للخلق كلهم. لكنهم لم يؤمنوا؛ إذ أخبر أنه إذا اراد به خيرًا فلا راد [لذلك الفضل][٤]، وهم يقولون: بل يملك العبد رد ما أراد له ودفعه، وبالله العصمة.
وفيه أن ليس على الله فعل [لهم][٥] - أعني فعل الخير - لأنه سماه فضلا، والفضل هو فعل ما ليس عليه، وهو المفهوم في الناس أن ما عليهم من الفعل لا يسمونه فضلا إنما يسمون الفضل ما ليس عليه، والله أعلم.
وقوله - عز وجل-: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: يصيب به من يشاء من الفضل والخير أو من الشر، وفيه دلالة تخصيص بعض على بعض حيث قال: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.
﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: لا يعجل بالعقوبة.
وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: قيل: الحق محمد[٦] ﷺ وقيل: الحق: القرآن الذي أنزل عليه[٧]، وأمكن أن يكون الحق هو الدين الذي كان

(١) في ب: تسم.
(٢) في ب: هاهنا ذكر.
(٣) في أ: أراد الإنسان.
(٤) في أ: لفضله.
(٥) سقط في ب.
(٦) ذكره أبو حيان في البحر (٥/١٩٦).
(٧) ذكره ابن جرير (٦/٦١٩)، وأبو حيان (٥/١٩٦)، والبغوي (٢/٣٧٢).

يدعوهم رسول الله إليه؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: ١٠٤] فيشبه أن يكون الحق هو الدين الذي شكوا فيه، أي: قد جاءكم ما يزيل عنكم ذلك الشك إن لم تكابروا لما أقام عليهم الحجج والبراهين.

ويحتمل الحق محمدًا ﷺ على ما ذكره بعض أهل التأويل وكان رسول الله في أول نشوئه إلى آخره آية.

ويحتمل الحق القرآن على ما ذكره بعضهم وهو ما ذكر. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، سماه بأسماء مختلفة سماه حقًّا وسماه نورا وشفاء ورحمة وهدى ونحوه، وفيه كل ما ذكر من تأمله وتفكر فيه وتمسك به.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ أي: من اهتدى فإنما منفعة اهتدائه له في الدنيا والآخرة، ومن ضل فإنما يرجع ضرر ضلالته إليه وخيانته عليه، أي: ما يأمر وينهى ليس يأمر وينهى لمنفعة تحصل له أو لحاجة نفسه إنما يأمر وينهى لمنفعة الخلق ولحاجتهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بمسلط. قال بعض أهل التأويل: هو منسوخ، نسخته آية القتال، لكنه لا يحتمل لأنه وإن كان مأمورا بالقتال فهو ليس بوكيل ولا بمسلط[١] على حفظ أعمالهم، إنما عليه التبليغ؛ كقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ وكقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ﴾ [النور: ٥٤]؛ وكقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ...﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ يحتمل القرآن وغيره من الوحي غير القرآن.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: اصبر على أذاهم لأنهم كانوا يؤذونه ويقولون فيه بما لا يليق به، يقول: اصبر على أذاهم ولا تعجل [عليهم][٢] بالعقوبة حتى يحكم الله عليهم بالعقوبة وقت عقوبته وهو خير الحاكمين، أو اصبر على تكذيبهم إياك حتى يحكم الله بينك وبين مكذبيك وهو خير الحاكمين، أو اصبر على تبيلغ الرسالة والقيام لما أمرت به، والله أعلم[٣].

* * *

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦١٩) (١٧٩٢٨) عن ابن زيد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٢) سقط في ب.

(٣) في أ: والله الموفق.

[سورة هود عليه السلام][(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله - عز وجل -: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾:

قال الحسن: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأمر والنهي[(٢)]، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد.

وقال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالوعد والوعيد، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالأمر والنهي.

وقال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حتى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها[(٣)]، ولا يملك أحد التبديل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بينت ما يؤتى و [ما][(٤)] يتقى، أو بينت ما لهم وما عليهم وما لله عليهم.

وقال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فلم تنسخ[(٥)]، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالحلال والحرام. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي: فرقت في الإنزال أنزل شيء بعد شيء على قدر[(٦)] النوازل والأسباب فلم ينزل جملة؛ لأنه لو أنزل جملة لاحتاجوا إلى أن يعرفوا الكل بسببه وشأنه وخصوصه وعمومه، فإذا أنزل متفرقًا في أوقات مختلفة على النوازل والأسباب عرفوا ذلك على غير إعلام ولا بيان، والتفصيل هو اسم التفريق واسم التبيين، وذلك يحتمل المعنيين جميعًا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي: أحكمت حتى لا يرد عليها النقض[(٧)]

---

(١) في ب: السورة التي فيها ذكر هود، عليه الصلاة والسلام.
(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٢٠) (١٧٩٢٩ و١٧٩٣٠ و١٧٩٣١) عن الحسن البصري.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن البصري.
(٣) أخرجه بمعناه ابن جرير (٦/ ٦٢١) (١٧٩٣٣ و١٧٩٣٤) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٨) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.
(٤) سقط في ب.
(٥) ذكره البغوي (٢/ ٣٧٢) ونسبه لابن عباس، وكذا الرازي (١٧/ ١٤٢).
(٦) ذكره البغوي (٢/ ٣٧٢)، وكذا الرازي (١٧/ ١٧٣).
(٧) في ب: النقيض.

والانتقاض، أو أحكمت حتى لا يملك أحد التبديل والتغيير، أو أحكمت عن أن يقع فيها الاختلاف.

وقال بعضهم: أحكمت آياته بالفرائض، وفصّلت بالثواب والعقاب.

ثم ﴿الآيات﴾ تحتمل وجوهًا:

أحدها: العبر.

والثاني: الحجج.

والثالث: العلامة.

ثم الآية كل كلمة في القرآن تمت فهي [عبرة أو حجة][(١)] أو علامة لا تخلو عن أحد هذه الوجوه الثلاثة.

وقوله - عز وجل-: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: من عند حكيم عليم جاءت هذه الآيات.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: من الله ينذر من ينذر ومن عنده يبشر من يبشر؛ يبشر من اتبع وينذر من خالف.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في شهادة خلقتكم هو المستحق للعبادة ويحتمل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ ألَّا توحدوا إلا الذي في شهادة خلقتكم وحدانيته.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: إن كانت الآية في الكفار فيكون قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: أسلموا ثم توبوا إليه، أي: ارجعوا إليه عن كل معصية وكل مأثم تأتونها، وإن كان في المسلمين فهو ظاهر، فيكون قوله: استغفروا وتوبوا واحدا.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: يمتعكم في الدنيا متاعًا تستحسنون في الآخرة ذلك التمتع، وأمّا الكفار فإنهم لا يستحسنون في الآخرة ما متعوا في الدنيا؛ لأن تمتعهم في الدنيا للدنيا، والمؤمن ما يتمتع في الدنيا يتمتع لأمر الآخرة والتزود لها[(٢)]،

---

(١) في ب: حجة أو عبرة.

(٢) قال المفسرون: يعيشكم عيشًا في خفض ودعة وأمن وسعة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين الموت.

فإن قيل: أليس أن النبي ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وقال أيضًا: «خص البلاء بالأنبياء، ثم الأولياء، فالأمثل فالأمثل»، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]؛ فدلت هذه النصوص على أن نصيب المؤمن المطيع عدم الراحة في الدنيا، فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب من وجوه:

الاول: أن المعنى: لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القوة من الكفار.

والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: يحتمل قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الدنيا جزاء فضله في الآخرة.

ويحتمل ﴿وَيُؤْتِ﴾ بمعنى أتى، أي: ما أتى كل ذي فضل في الدنيا إنما أتاه بفضله.

وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: ويؤت كل ذي فضل في دينه في الدنيا فضله في الآخرة، أو يقول: يؤت كل ذي فضل في الدنيا والآخرة فضله؛ لأن أهل الفضل في الدنيا هم أهل الفضل في الآخرة.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾: ولم يسلموا، ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الآية ظاهرة.

وقال بعضهم[(١)] في موضع آخر، وهذا لما يكبر على الخلق ويعظم ذلك اليوم.

وقال بعض أهل الفقه: في قوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ دلالة تأخير البيان؛ لأنه قال: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، وحرف ثم[(٢)] من حروف الترتيب، ففيه جواز تأخير البيان، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: إلى ما أعد لكم مرجعكم من وعد ووعيد.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو على كل ما [أوعد ووعد][(٣)] قدير.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾: عن عبد الله بن شداد قال: كان أحدهم إذا مر بالنبي تغشى بثوبه وحنى صدره.

= الثاني: أنه تعالى يوصل إليهم الرزق كيف كان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢].

الثالث: أن المشتغل بالعبادة مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه، وكلما كان تمكنه في هذا الطريق أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل، وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل؛ لأنه أمن من تغير مطلوبه، وأمن من زوال محبوبه.

وأما من اشتغل بحب غير الله، كان أبدًا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله؛ فكان عيشه منغصًا وقلبه مضطربًا؛ ولذلك قال تعالى في حق المشتغلين بخدمته: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ينظر: اللباب (١٠/ ٤٣٢).

(١) في أ: عظيم.

(٢) في ب: الثم.

(٣) في ب: وعد وأوعد.

وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله وذكره[(١)].

وقال بعضهم: نزلت الآية في رجل يقال له: الأخنس بن شريق الثقفي، كان يجالس النبي ﷺ ويظهر له أمرا حسنا، وكان حسن المنظر حسن الحديث، وكان النبي ﷺ يعجبه حديثه ويقر به مجلسه، وكان يضمر خلاف ما يظهر، فأنزل الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾[(٢)] يقول: يكتمون ما في صدورهم ويستترون؛ وهو قول ابن عباس.

وأصل تثنية الصدور هو أن يضم أحد طرفي الصدر إلى الطرف الآخر ليكون ما أضمروا أستر وأخفى.

ويشبه ما ذكر من ثني الصدور أن يكون كناية عن ضيق الصدور؛ كقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أو عبارة عن الكبر؛ كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ . . .﴾ الآية [الحج: ٩]، وكان أصله الميل إلى غيره، وهو ما قال أبو عوسجة: ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ أي: يميلون إلى غيره؛ وكذلك قوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ [الحج: ٩].

وقوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ قال بعضهم: من الله[(٣)]، وقال بعضهم: منه أي من رسول الله[(٤)]، لكن إن كانت الآية في المنافقين على ما ذكره بعض أهل التأويل، فهو الاستسرار والاستتار من رسول الله؛ لأنهم كانوا يظهرون الموافقة ويضمرون الخلاف له والعداوة، وإن كانت الآية في المشركين فهو على الاستسرار والاستتار من الله؛ لأنهم لا يبالون الخلاف لرسول الله وإظهار العداوة له، وعندهم أن الله لا يطلع على ما يسرون ويضمرون في قلوبهم، فأخبر أنه يعلم ما أسروا وما أعلنوا، ففيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لأنهم كانوا يسرون ذلك عنه ويضمرونه، فأخبرهم بذلك ليعلم إنما علم ذلك بالله تعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: يستترون بها. قال الحسن: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ في ظلمة الليل وفي أجواف بيوتهم يعلم تلك الساعة ما يسرون

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٢٤) (١٧٩٥٢ و١٧٩٥٣ و١٧٩٥٤) عن عبد الله بن شداد.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٩) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عبد الله بن شداد.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٣) ونسبه لابن عباس.

(٣) ذكره ابن جرير (٦/ ٦٢٧)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٤) ونسبه لمجاهد.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٤).

وما يعلنون[(١)]، وأصله أنهم يعلمون أن الله هو الذي أنشأ هذه الصدور والقلوب، والثياب هم الذين نسجوها واكتسبوها، ثم لا يملكون الاستتار [بما كسبوا هم فلألَّا يملكوا الاستتار][(٢)] بما تولى هو إنشاءه أحق.

وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ﴾ ألا إنما هو تأكيد الكلام، وهو قول أبي عبيدة[(٣)] وغيره.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: قال أهل التأويل عليم بما في الصدور ولكن يشبه أن قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عبارة عن صدور لها تدبير وتمييز وهو البشر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: قال بعضهم: عنى بالدابة الممتحن به وهو [البشر، وأما غيره من الدواب فقد سخرها للمتحن به.

وقال قائلون: أراد كل دابة تدب على وجه الأرض من الممتحن به وغيره وتمامه: ما من دابة في الأرض][(٤)] جعل قوامها وحياتها بالرزق إلا على الله إنشاء ذلك الرزق لها، ثم من الرزق ما جعله بسبب، ومنه ما جعله بغير سبب.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: اختلف فيه أيضًا:

قال بعضهم: قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [الذاريات: ٢٢] أي: على الله إنشاء رزقها وخلقه لها الذي به قوامها وحياتها؛ وهو كقوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: ينشئ ويخلق رزقنا بسبب من السماء من المطر وغيره؛ فعلى ذلك قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: على الله إنشاء رزقها وخلقه لها.

وقيل: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: على الله أن يبلغ إليها رزقها وما قدر لها وما به معاشها كقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ...﴾ الآية [فصلت: ١٠]: عليه تبليغ رزقها وما به معاشها.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٢٥) (١٧٩٦٠)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٩) وعزاه لابن جرير عن الحسن البصري.
(٢) سقط في أ.
(٣) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٢٨٥).
(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.

ثم قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: قال بعضهم: ما جاءها من الرزق إنما جاءها من الله لم يأتها من غيره وعلى الله بمعنى من الله وذلك جائز في اللغة؛ كقوله: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢] أي: من الناس؛ وهو قول مجاهد[١]. ويحتمل قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: على الله وفاء ما وعد، وقد كان وعد[٢] أن يرزقها، فعليه وفاء وعده وإنجازه.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أنه علم لما خلقها علم أنه يبقيها إلى وقت عليه تبليغ ما به تعيش إلى ذلك الوقت والأجل الذي خلقها ليبقيها إلى ذلك؛ وبعضه قريب من بعض.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: اختلف فيه:

قال بعضهم: مستقرها بالليل، ومستودعها بالنهار في معاشها[٣].

وقال بعضهم: المستقر: الرحم، والمستودع: الصلب.

وقال بعضهم: المستقر: الصلب[٤]، والمستودع: الرحم.

وقال بعضهم: المستقر: المتقلب في الدنيا، والمستودع: مثواها في الآخرة؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا وتحرككم في معاشكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] أي: قراركم ومقامكم في الآخرة.

وقال بعضهم: مستقرها في الدنيا، ومستودعها في القبر.

ويشبه أن يكون هذا إخبارًا عن العلم بها في كل حال في حال سكونها وفي حال حركتها؛ لأنها لا تخلو إما أن تكون ساكنة أو متحركة، أي: يعلم عنها كل حالها ويشبه أن يكون صلة ما تقدم وهو قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ...﴾ الآية [هود: ٥]، يخبر أنه إذا[٥] لم يخف عليه كون كل دابة في بطن الأرض، وما تغيض به الأرحام وما استودع في الأصلاب، كيف يخفى عليه أعمالهم التي عليها العقاب ولكم بها الثواب وفيها الأمر والنهي؟! والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣) (١٧٩٧٣)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٠) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) في ب: أوعد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨١) وعزاه لأبي الشيخ عن أبي صالح، وذكره البغوي بمثله عن ابن عباس (٢/ ٣٧٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٤) عن كل من: مجاهد (١٧٩٧٩)، وابن عباس (١٧٩٨٠)، والضحاك (١٧٩٨١).

وذكره البغوي (٢/ ٣٧٤) ونسبه لعطاء وقال: رواه سعيد بن جبير وعلى بن أبي طلحة وعكرمة عن ابن عباس.

(٥) في ب: إذ.

و ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: مبين في كتابه. قيل: في اللوح المحفوظ[1]، ويحتمل القرآن وغيره.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤]، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، وقال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠].

يجوز أن يكون جعل للأرض يومين: يومًا لوجودها ويومًا لعدمها، وكذلك السماء جعل يومًا لوجودها ويومًا لعدمها؛ كقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ . . .﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨]؛ وكقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥]. وكذلك ما بينهما جعل يومًا لوجوده ويومًا لعدمه، فيكون يوم السابع يوم البعث يكون لكل من ذلك يومان: يوم لوجوده، ويوم لعدمه، وقد ذكرنا شيئًا في ذلك مما احتمل وسعنا في سورة الأعراف.

وفي هذه الآية دلالة أن السموات والأرض دخلتا[2] تحت الأوقات بقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] إذ الأيام عند الناس إنما هي[3] مضى الأوقات، فإذا دخلتا[4] تحت الأوقات ليستا بأزليتين - على ما يقول بعض الملحدة إنهما أزليتانِ - كانا كذلك، والله أعلم، [وجائز أن يكون اليوم السابع هو اليوم الذي أنشأ الممتحن فيه، فهو المقصود في خلق ما ذكر من الأشياء، أعني من البشر، وقوله:][5].

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إن كان العرش اسم الملك والسلطان على ما قال بعض أهل التأويل، فتأويله - والله أعلم - كان أظهر ملكه عن الماء[6] «على» بمعنى «عن»،

(١) ذكره البغوي (٢/ ٣٧٤)، وأبو حيان في البحر (٥/ ٢٠٥).
(٢) في أ: دخلت.
(٣) في ب: هو.
(٤) في أ: دخلت.
(٥) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٦) فإن قيل: ما الفائدة في ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؟
فالجواب: أن فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه:
أحدها: أن العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء؛ فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عَمَدٍ لما صح ذلك.
وثانيها: أنه تعالى أمسك الماء لا على قرار، وإلا لزم أن يكون أجسام العالم غير متناهية؛ فدل على كمال القدرة.
=

وذلك جائز في اللغة؛ لأن بالماء ظهور كل شيء وبدأه؛ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وإن كان العرش اسم السرير والكرسي على ما قاله بعض الناس، فهو عرش الملك وسريره خلقه ليكرم به أولياءه؛ ليمتحن ملائكته بحمله والخدمة له على ما يكون لملوك الأرض سرير يستخدمون خدمهم في ذلك، وهو خلق من خلائقه أضافه إليه كما تضاف الأشياء إلى الله، لكنه يضاف الأشياء إليه مرة بالإجمال مرة جملة ومرة بالإشارة والإفراد، لكن ما أضاف إليه بالإشارة فهو على تعظيم ذلك الشيء، وما أضيف إليه [من] الأشياء بالإجمال والإرسال فهو على ذكر عظمته وكبريائه، كقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ونحوه [فيه ذكر سلطانه وعظمته، وقوله: بيت الله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ ونحوه][١]، وهو يخرج على ذكر تعظيم البيت والمساجد، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض وما فيهما للممتحن لم يخلق هذه الأشياء لأنفسها إنما خلقها للممتحن فيهما؛ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣]؛ لأن خلقها لأنفسها [عبث؛ لأنها مخلوقة للفناء خاصة، فكل مخلوق للفناء خاصة فهو عبث؛ لذلك كان ما ذكر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾: هذا القول نفسه: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ ليس يقولون هذا سحر، ولكن إذا أخبرهم أنهم مبعوثون من بعد الموت، وأقام الحجج والبراهين على البعث فحينئذ قالوا لحجج البعث وبراهينه: ما هذا إلا سحر.

ويحتمل وجها: وهو أن يذكر سفههم أنهم اعتادوا نسبة كل شيء إلى السحر، حتى الأشياء التي لا تحتمل السحر وهو الإخبار؛ لأن السحر إنما يكون في تقليب الأشياء، وأما فيما يخبر عن شيء يكون فلا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قيل: إلى وقت

= وثالثها: أن العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه؛ فدل على كمال القدرة.
ينظر اللباب (١٠/ ٤٤٠).

(١) سقط في ب.

معلوم[١] وهو البعث، ذكر ﴿أُمَّةٍ﴾ - والله أعلم - لأنه وقت [به ينقضي][٢] آجال الأمم جميعًا.

﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: كانوا يقولون: ما يحبس عنا العذاب الذي يعدنا لم تزل عادتهم استعجال العذاب استهزاء بهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: ذلك العذاب؛ إذا جاء لا يملك أحد صرفه عنهم؛ كقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ونحوه.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: قيل: نزل بهم[٣]، وقيل: لحق بهم ما كانوا به يستهزئون جزاء استهزائهم بالرسول والكتاب.

وقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: لا يصرف عنهم بشفاعة من طمعوا بشفاعته؛ كقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: لا يكون ردًّا على ما طمعوا ورجوا لعبادتهم.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] ونحو ذلك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام رجاء أن تشفع لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قيل: سعة في المال ونعمة.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ إياسه ذهاب ذلك المال عنه ونزعه منه عن العود ذلك إليه ويقنطه، والإياس قد يكون كفرا[٤]؛ كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

---

(١) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/٨) (١٨٠٠٦ و١٨٠٠٧ و١٨٠١٤) عن ابن عباس، (١٨٠٠٨) عن قتادة، (١٨٠٠٩) عن الضحاك.

(٢) في ب: ينقضي به.

(٣) ذكره ابن جرير (٧/٩)، والبغوي (٢/٣٧٥).

(٤) أي أنه حال زوال تلك النعمة يصير يئوسًا؛ لأن الكافر يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى، فلا جرم يستبعد تلك النعمة؛ فيقع في اليأس. وأما المسلم، فيعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من فضل الله وإحسانه؛ فلا ييئس، بل يقول: لعله يؤخرها إلى ما هو أحسن وأكمل مما كانت. وأما أن الإنسان يكون كفورًا حال تلك النعمة، فإن الكافر لما اعتقد أن حصولها كان على سبيل الاتفاق، أو أنه حصلها بجده واجتهاده، فحينئذ لا يشتغل بشكر الله على تلك النعمة والمسلم يشكر الله تعالى.

والحاصل: أن الكافر يكون عند زوال النعمة يئوسًا وعند حصولها كفورًا.

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ في حال ذهاب النعمة، والكَفُور في حال النعمة والسعة، كفور لما رأى نزع ذلك المال والسعة منه جورا وظلمًا فهو كفور.

وعن ابن عباس قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الكافر[1]، ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقول: نعمة العافية وسعة في المال وما يسر به، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ يعني الرحمة ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ يعني قنوط آيس وأقنطه من رحمة الله؛ وهو كقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: الفرح هو الرضا؛ كقوله: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦] أي: رضوا بها.

وقيل الفرح: البطر يبطر في حال السعة والرخاء؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، والفرح قد يبلغ كفرا، ويكون الفرح سرورا ولا يكون كفرا.

فخور: يفتخر على الفقراء بالمال الذي أعطي، أو يفتخر على الأنبياء والرسل بالتكذيب، وكذلك كان عادة رؤسائهم أنهم كانوا ذوى مال وسعة، فلا بد يرون الرسالة تكون فيمن دونهم في المال والسعة؛ كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ وكقولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] ونحوه.

ويحتمل قوله: ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ في حال الشدة، كفور لله في نعمه [في الرخاء وأصل ذلك][2] أنهم كانوا لا ينظرون في النعم إلى من أنعم عليهم، إنما ينظرون إلى[3] أعين النعم وأنفسها؛ لذلك حملهم نزع ما أعطوا منهم على الإياس والقنوط، وإعطاؤها إياهم على الكفران والفرح والفخر، ولو نظروا في تلك النعم إلى المنعم لم يقع لهم إياس عند النزع، ولا الكفران والفرح عند النيل، بل يصبرون عند النزع من أيديهم ويشكرون للمنعم عليهم في حال النيل.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: قال بعض أهل التأويل: [إلا الذين صبروا على البلايا والشدائد وعملوا الصالحات يعني: الطاعات ويشبه أن يكون

= وأما انتقال الإنسان من المحنة إلى النعمة، فالكافر يكون فرحًا فخورًا؛ لأن منتهى طبع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية، وهو منكر للسعادات الأخروية.
ينظر اللباب (١٠/٤٤٥).

(١) ذكره الرازي في تفسيره (١٧/١٥٣) ولم ينسبه لأحد، وكذا أبو حيان (٥/٢٠٦).
(٢) في أ: والرخاء وأصله، وذلك.
(٣) في أ: على.

قوله:][١] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: آمنوا على ما ذكر في غير واحد من الآيات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ كقوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ . إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، ويكون قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عن المعاصي فلم يرتكبوها، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات والإيمان نفسه هو اعتقاد الانتهاء عن المعاصي كلها، والاتقاء عن جميع ما يدخل نقصًا فيها وإتيان الطاعات جميعًا، وهكذا يعتقد كل مؤمن أن [يتقي وينتهي][٢] كل معصية، ويأتي بكل طاعة ويعمل بها، هذا اعتقاد كل مؤمن وحقيقة الوفاء بذلك كله.

وقوله - عز وجل -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: يشبه أن يكون قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما ارتكبوا على[٣] الصغائر من الذنوب، وانتهوا عن الكبائر منها، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ على ما أتوا وعملوا من الكبائر من الطاعات.

ويحتمل قوله ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ الستر في الدنيا ستر عليهم تلك الذنوب في الدنيا فلم يطلع عليها الخلق ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ بما أظهر منهم ما كان من الطاعات والخيرات حتى نظر الناس إليهم بعين تعظيم بما ظهر منهم من الخيرات وخفي عليهم ما ارتكبوا من المعاصي.

هذا التأويل يكون في الدنيا، والأول في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ (١٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٤)﴾.

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وإن كان معلومًا أنه لا يترك؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وأمثاله، نهاه وإن كان معلومًا أن رسول الله ﷺ لا يفعل ذلك، وإنما احتمل النهي كما يقول الرجل لآخر لعلك تريد أن تفعل كذا فهو نهاه عن ذلك.

والثاني: يقال عند القرب إلى الفعل والدنو منه؛ كقوله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] يقال: حرف «كاد» عند الميل إليه والقرب منه طمعا منه في

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) في ب: ينتهي ويتقي.
(٣) في أ: من.

إيمانهم، وذلك فيما يحل له الترك، وذلك ما قيل من نحو سب آلهتهم وذكر العيب فيها، ويحل له ترك سب آلهتهم وشتمها. وكذلك يخرج قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ على هذين الوجهين، على المنع ألا يحمل على نفسه إشفاقًا على أنفسهم ألا يؤمنوا ما يوجب تلفه.

والثاني: على التخفيف؛ كقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ . . .﴾ الآية [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧] هو على التخفيف ليس على النهي.

وفي قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ . . .﴾ الآية وجه[(١)] آخر: وهو نهي يخرج مخرج البشارة [له بما][(٢)] كان يخاف من ضيق صدره واشتغال قلبه عند سوء معاملتهم إياه، فيقع له فيه تأخير في إبلاغ ما أمر بتبليغه فأمنه الله عن ذلك وعصمه.

والوجه الثاني: في النهي[(٣)] عن ذلك هو ما يقع له فيه الرجاء، وذلك أن الأخيار إذا ابتلوا بالأشرار قد يؤذن لهم بمفارقتهم وترك الأمر فيهم، فلعله كان يقع له في مثله الرجاء أنه قد يؤذن له، في حال من الأحوال بتأخير التبليغ، فأيئسه عن ذلك وكلفه بتبليغ ما أمر له في جميع أحواله و ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يحتمل ما ذكر أهل التأويل من سب آلهتهم وعيبها وما تدعو إليه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾: يضيق صدره بما يقولون له استهزاء، وكذلك الحق أن كل من استهزئ به أن يضيق صدره لما لا يقدر على إتيان ما طلبوا منه من الكنز[(٤)] وإنزال الملك، وقد وعدوا أن يؤمنوا لو فعل، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾: لأن للكنز والملك محلًا في قلوب أولئك وقدرًا فقالوا: لولا أنزل عليه كنز [فيعظموه فيصدق على ما يدعي، وكذلك الملك له محل عظيم عندهم إذا كان معه عظموه وصدقوه.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ أثر قولهم: لولا أنزل عليه كنز][(٥)] أو جاء معه ملك أي: إنما أنت نذير ليس عليك إتيان ما سألوا، إنما ذلك تحكم منهم على الله تعالى وأمانيُّ، فعليك إبلاغ ما أنزل إليك؛ كقوله: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ لكل ما يقولون فيك ويتفوهون به، أو هو الوكيل والحفيظ لا أنت؛ كقوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ونحوه، والله أعلم.

(١) في أ: ووجه.
(٢) في أ: مما.
(٣) في أ: والنهى.
(٤) في أ: الملك.
(٥) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: قالوا: إنه افتراه، أي: محمد افترى هذا القرآن من عند نفسه.

﴿قُلْ﴾: يا محمد إن كان افتريته على ما تقولون، ﴿فَأْتُوا﴾: أنتم، ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾: لأنكم أقدر على الافتراء من محمد؛ لأنكم قد عودتم أنفسكم الكذب والافتراء، ومحمد لم تأخذوه بكذب قط ولا ظهر منه افتراء، فمن عود نفسه الافتراء والكذب أقدر [عليه][1] ممن لم يعرف به [قط][2]، فأتوا بعشر سور مثله وادعوا أيضًا شهداءكم من الجن والإنس ممن استطعتم من دون الله يعينوكم على إتيان مثله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراه من عنده.

أو يقول: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي أن محمدا قد جاء بسور [فيها أنباء][3] ما أسررتم وأخفيتم مما لا سبيل إلى معرفة ذلك والاطلاع عليه إلا من جهة الوحي من السماء وإطلاع الله إياه، فأتوا أنتم بسورة مفتراة فيها أنباء ما أضمر هو وأسر، وتطلعون أنتم على سرائره كما اطلع هو على سرائركم، وادعوا من استطعتم ممن تعبدون من دون الله من الآلهة، إن كنتم صادقين أنه افتراه.

أو يقول: إن لسانكم مثل لسان محمد، فإن قدر هو على الافتراء افترى مثله من عنده، فتقدرون أنتم على افتراء مثله: فأتوا به، وادعوا أيضًا من لسانه مثل لسانكم حتى يعينوكم على ذلك، إن كنتم صادقين أنه افتراه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾.

قال بعضهم: بعشر نزل قبل ولم تقدروا على مثله، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ دعوا[4] أولا أن يأتوا بعشر سور، فلما عجزوا[5] عن ذلك عند ذلك قيل لهم: ﴿فَأْتُوا

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: فيه إيتاء.
(٤) في ب: ادعوا.
(٥) اختلفوا في الوجه الذي كان القرآن لأجله معجزًا، فقيل: هو الفصاحة، وقيل: الأسلوب، وقيل: عدم التناقض، وقيل: اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والمختار عند الأكثرين: أن القرآن معجز من جهة الفصاحة، واستدلوا بهذه الآية؛ لأنه لو كان إعجازه هو كثرة العلوم، أو الإخبار عن الغيوب، أو عدم التناقض لم يكن لقوله: ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ معنى، أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك؛ لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام، سواء كان الكلام صدقًا أو كذبًا، ثم إنه لما قرر وجه التحدي قال: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾: واستعينوا بمن استطعتم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ يا أصحاب محمد، وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول - صلوات الله البر الرحيم =

﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [فإن قيل: كيف ذكر: فأتوا بسور مفتريات][١] قيل: معناه إن كان هذا مما يحتمل الافتراء على ما تزعمون، فأتوا بمثله أنتم لأنكم أقدر على الافتراء من محمد، فإن[٢] لم تقدروا لم يقدر أحد على ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم تقدروا أنتم ولم يجيبوكم أولئك على الإعانة على إتيان مثله، فاعلموا [أنه][٣] إنما أنزل بعلم الله وبأمره أتاه ومن عنده نزل، ليس بمفترى على ما تزعمون، وأن لا إله إلا الله لا ألوهية لمن تعبدون دونه من الأصنام والأوثان.

والثاني: فإن لم يستجيبوا لكم يا أصحاب رسول الله ﷺ ولم يقدروا على مثله، فاعلموا أنتم أنه إنما أنزل بعلم الله ومن عنده نزل على التنبيه والتذكير لهم، وإن كانوا علموا أنه من عنده نزل؛ كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] على التنبيه والتذكير ليس على أنه لا يعلم فعلى ذلك الأول.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: خاضعون له مخلصون، وعلى التأويل الأول على حقيقة الإسلام، والإيمان، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .﴾ الآية اختلف فيه:

قال بعضهم: الآية في أهل الإيمان الذين عملوا الصالحات مراءاة للخلق يقول: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ من الذكر فيها والشرف، وما طلبوا بأعمالهم في الدنيا من المباهاة وغيره، آتاهم الله في الدنيا جزاء لتلك الأعمال التي عملوها وبطل ما صنعوا وباطل ما

= وسلامه عليه وحده - والمراد بقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: الكفار، يحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا.
ينظر اللباب (١٠/٤٤٩).

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: فإذ.
(٣) سقط في ب.

كانوا يعملون؛ لأنهم عملوا لغير الله، فلا يجزون في الآخرة بأعمالهم تلك، وإلى هذا يذهب ابن عباس.

وروي في بعض الأخبار أن نبي الله ﷺ سئل: ما بال العبد المعروف بالخير يشدد عليه عند الموت، والرجل المعروف بالشرّ يهون عليه الموت؟! فقال: «المؤمن تكون له ذنوب فيجازى بها عند موته، فيفضي إلى الله في الآخرة ولا ذنب عليه، والكافر يكون له الحسنات فيجازى بها عند الموت يخفف عنه بها كرب الموت، ثم يفضي إلى الآخرة وليست له حسنة»[١] أو كلام نحوه.

وقال بعضهم: الآية في أهل الكفر[٢] يعملون أعمالا هي في الظاهر صالحة؛ نحو: التصدق على الفقراء وعمارات الطرق واتخاذ القناطر والرباطات هي في الظاهر صالحة، يقول: نوف لهم جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا لا ننقص منها شيئًا فهو ما وسع عليهم الدنيا.

وجائز أن يكون قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: نرد إليهم أعمالهم التي عملوها فلا نقبلها ويكون إيفاء أعمالهم الرد.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون ما قدر لهم من الرزق إلى انقضاء مدتهم وآجالهم بشركهم بالله.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾: على هذا التأويل [ظاهر ليس لأهل الكفر في الأخرة إلا النار][٣] وعلى التأويل الذي قال: إنها في أهل الإيمان، أي: لا يستوجبون بتلك الأعمال التي عملوها مراءاة إلا النار؛ لأنه إذا راءى فيها لم يخلصها لله وضيع أمره، وكل من ضيع أمر الله وفريضته يستوجب التعذيب عليه وله العفو، وليس في الآية أنه لا محالة يعذبهم بعملهم المراءاة، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فيه دلالة نقض قول الجهمية والمعتزلة بنفيهم العلم عن الله، وفي الآية إثبات العلم له بقوله: ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾.

وقوله: ﴿أَفَمَن﴾ حرف يقتضي الجواب لكن الجواب له لم يخرج في الظاهر؛ لأن

---

(١) أخرجه بمعناه مسلم (٤/ ٢١٦٢) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا (٥٦/٢٨٠٨)، وأحمد في المسند (٣/١٢٣، ٢٨٣) عن أنس بن مالك.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٧٧)، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ٢١٠) ونسبه لمجاهد.

(٣) سقط في أ.

جوابه أن يقول: أفمن كان على بينة من ربّه كمن ليس على بينة من ربه كما قال في آية أخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ وكقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] لا يعلم، فعلى ذلك جواب قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كمن لا يكون على بينة من ربه، لكن الجواب عندنا يكون على وجوه: مرة يكون بالتصريح وهو ما ذكرنا، ومرة بالإشارة، ومرة بالكناية[١] على غير تصريح.

ثم منهم من يجعل جوابه ما تقدم وهو قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .﴾ الآية، [يقول: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها][٢]، أي: لا يكون كذلك، ومنهم من يجعل جوابه فيما تأخر وهو قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ كأنه يقول: أفمن كان على بينة من ربه كمن يكفر به الأحزاب، أي: لا يكون كذلك وقالوا: يجوز تقديم الجواب وتأخيره، كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] لم يخرج لهذا أيضًا جواب التصريح.

ثم اختلفوا في جوابه؛ قال بعضهم: جوابه فيما تأخر في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وصف الذين لا يعلمون، فكأنه يقول: أفمن يعلم كمن لا يعلم.

ومنهم من يجعل جوابه في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨] يقول: من جعل لله أندادًا وضل عن سبيله وصار من أصحاب النار، كمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا أي: ليسا بسواء.

وقال مقاتل: ليس الذي على بيان من ربه كالذي موعده النار[٣]، والله أعلم.

وجائز أن يكون على طرح الألف: ﴿فمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى . . .﴾ الآية يقول: فمن كان على بيان من ربه أولئك يؤمنون به.

ثم قوله[٤]: ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: قال بعضهم: دين من ربه، أي: من كان على دين من الله ويتلوه شاهد منه أي: يتلو لما هو عليه من الدين شاهد منه، كمن كان على دين الشيطان ولا شاهد له عليه؟! وقال بعضهم قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن

(١) في أ: بالكتابة.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: في النار.
(٤) في أ: وقوله.

﴿رَبِّهِۦ﴾، أي: على برهان من ربه[1] وحجج ويتلوه شاهد منه على ذلك، كمن لا على برهان من ربه ولا حجج ولا شاهد له على ذلك؟! ثم قال بعضهم: قوله: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ جبريل[2] أو ملك غيره يتلو عليه القرآن. وقال بعضهم: يتلوه شاهد منه: لسانه. وقال بعضهم ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ هو القرآن ونحوه[3].

ثم قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: يحتمل أصحاب عيسى الذين آمنوا به.

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أصحاب التوراة الذين آمنوا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي: هؤلاء الذين آمنوا بهؤلاء هم الذين يؤمنون بمحمد - عليه أفضل الصلوات - وبما جاء به محمد، ﷺ.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾: قيل فيه بوجوه:

قيل: ومن قبل القرآن كتاب موسى جاء جبريل إلى موسى، كما جاء بهذا القرآن إماما يقتدى به ورحمة من العذاب لهم.

ويحتمل قوله: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ يعني قبل القرآن كتاب موسى التوراة إماما فيها أنباء هذا القرآن، وأنباء محمد أنه رسول؛ كقوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] وأمثاله.

ويحتمل قوله: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ [ما روي] عن ابن عباس قال: إمامًا ورحمة: كان كتاب موسى وهو التوراة إماما يقتدى به، وكان رحمة، أولئك يؤمنون به قال: أصحاب محمد ﷺ الذين آمنوا به من أهل الكتاب وغيرهم. ويحتمل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي: مؤمني أهل التوراة يؤمنون بالقرآن ويقتدون به؛ كما آمنوا بالتوراة واقتدوا بها.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الأحزاب: الفرق والأصناف. يحتمل من يكفر به أي: بالقرآن من الفرق.

ويحتمل يكفر به أي: بمحمد. ويحتمل الدين الذي هو عليه ويدعوهم إليه.

---

(١) ذكره الرازي (١٧/ ١٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٧) عن كلٍّ من: ابن عباس (١٨٠٦٣ و١٨٠٧٨)، وإبراهيم (١٨٠٦٤ و١٨٠٦٥ و١٨٠٦٧ و١٨٠٦٨ و١٨٠٦٩ و١٨٠٧٠ و١٨٠٧٧)، ومجاهد (١٨٠٦٦ و١٨٠٧١ و١٨٠٧٩)، وأبي صالح (١٨٠٧٢)، والضحاك (١٨٠٧٣ و١٨٠٧٤)، وأبي العالية (١٨٠٧٥)، وعكرمة (١٨٠٧٦).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٨) وعزاه لابن أبي المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٣) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ١٧) (١٨٠٥٧) عن ابن زيد، وذكره البغوي (٢/ ٣٧٧) ونسبه للحسين ابن الفضل.

﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾: إن مات على ذلك، وأمّا إذا أسلم ومات على الإسلام، فلا تكون النار موعده.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾: يحتمل في قوله الوجوه الثلاثة التي ذكرنا من الدين والقرآن والنبي، يحتمل هو نفسه، ويحتمل الخطاب غيره لما ذكرنا في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثاله؛ فكذلك هذا، وقد ذكرنا أن العصمة لا تزيل النهي والأمر بل تزيدهما؛ لأن بالعصمة يظهر موافقة الأمر ومخالفة النهي والمحظور.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: يحتمل القرآن، ويحتمل الدين الذي عليه ويدعوهم إليه، ويحتمل هو نفسه الحق من ربه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (١٩) أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ (٢٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣) مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هو ما ذكرنا أن لا أحد أظلم على[(١)] نفسه ممن أخذ[(٢)] نفسه من معبوده وشغلها في عبادة من لا يملك له نفعًا إن عبده ولا ضر إن ترك عبادته، أو يقول: لا أحد أظلم على نفسه ممن ألقى نفسه الطاهرة في عذاب الله ونقمته أبدًا بافترائه على الله، وبالله العصمة والقوة.

وفي التأويل لا أحد أظلم على نفسه ممن افترى على الله كذبًا، وفي المعنى لا أحد أفحش ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا بعد معرفته أن جميع ما له من الله تعالى.

وقوله - عز وجل -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: أولئك الذين تعرض أعمالهم على أنفسهم عند ربهم، فإن وافقت أعمالهم [ما في][(٣)] شهادة خلقتهم أدخلوا الجنة، وإن خالفت أعمالهم شهادة خلقتهم أدخلوا النار، تعرض أعمالهم على أنفسهم عند ربهم؛

---

(١) في أ: عن.
(٢) في أ: اختلق.
(٣) في أ: في ما.

لأن الله عز وجل عالم بما كان منهم من الأعمال والأقوال على ربهم، أي: عند ربهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] [أي: عند ربهم][(١)] وتأويله ما ذكرنا يعرضون على ربهم لأنفسهم؛ لأنهم إنما يؤمرون وينهون ويمتحنون لأنفسهم ولمنفعة أنفسهم فيكون عرضهم لهم، أو أن يكون قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ﴾ على ما وعدهم ربهم في الدنيا، أو يقول: أولئك يعرضون لأنفسهم على ربهم من غير غيبة كانت منه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: اختلف فيه:

قيل: الأشهاد: الرسل والأنبياء[(٢)].

وقال بعضهم: الأشهاد: الملائكة[(٣)].

وقال بعضهم: الأشهاد: المؤمنون. فمن قال: هم الأنبياء والمؤمنون؛ فهو كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وكقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ومن قال: هم الملائكة؛ كقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ . كِرَامًا كَٰتِبِينَ . . .﴾ الآية [الانفطار: ١٠ - ١١]، ونحوه.

ومعناه - والله أعلم - أنه[(٤)]: تعرض أعمالهم وأقوالهم على أنفسهم فإن أقروا بها بعثوا إلى النار، وإن أنكروا يشهد عليهم ما ذكر من الشهداء فإن أنكروا يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ . . .﴾ الآية [الإسراء: ١٤]، فإن أنكروا ذلك [فعند ذلك][(٥)] تشهد عليهم جوارحهم؛ كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم . . .﴾ الآية [النور: ٢٤].

ويحتمل أن يكون الملائكة نادوا في ملأ الخلق قبل أن يدخلوا النار: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.

ويحتمل ما ذكر من[(٦)] شهادة الذين كانو موكلين بكتابة أعمالهم وأقوالهم يخبرون عما

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢) (١٨١٠٢) عن الضحاك، وذكره البغوي (٢/ ٣٧٨) ونسبه للضحاك وابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢) عن كل من: مجاهد (١٨٠٩٥ و١٨٠٩٦ و١٨١٠٠)، قتادة (١٨٠٩٧ و١٨٠٩٨ و١٨٠٩٩)، الأعمش (١٨١٠١).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٨) وعزاه لابن جرير عن مجاهد .

(٤) في أ: أن قوله.

(٥) سقط في ب.

(٦) في أ: في.

كتبوا في الكتب.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اللعنة: قال بعضهم: هي الطرد عن جميع المنافع والإبعاد عن رحمة الله في الدنيا عن دينه وفي الآخرة عن ثوابه. وقال بعضهم: اللعنة هي العذاب.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصدون يحتمل وجهين:

يحتمل أن أعرضوا هم بأنفسهم عن دين الله.

ويحتمل صرفوا الناس عن دين الله، لكنه يتبين ذلك بالمصدر أنه أراد ذا أو ذا، يقال في الإعراض بنفسه: صد يصد صدودا؛ كقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ويقال في صرف غيره: صد يصد صدا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]: قال بعضهم: هم بغاة على دين الله بالجور.

وقال بعضهم: يبغون من النساء الميل عن دين الله إلى دينهم، فذلك هو بغي العوج، كل سبيل غير سبيل الله فهو عوج وبغي، كأنه يقول: يبغون سبيلا غير سبيل الله.

﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: في الدنيا.

وقوله - عز وجل-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أولئك لم يكونوا معجزي الله في الدنيا من أن يعذبهم وينتقم منهم إن شاء. والثاني: أولئك لم يكونوا سابقي الله في الآخرة في دفع العذاب عن أنفسهم. وجائز أن يكون الآية في الأئمة منهم والجبابرة يخبر أنهم غير معجزي الله فيما يريد منهم من التعذيب لهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هم حسبوا أن أولئك الذين عبدوهم من دون الله يكونون لهم أولياء؛ لأنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] و ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كانوا يطمعون في شفاعة الأصنام التي كانوا يعبدونها، أو الذين اتبعوهم يكونون لهم أولياء فأخبر أن ليس لهم أولياء على ما ظنوا وحسبوا، بل يكونون لهم أعداء؛ كقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً . . .﴾ الآية [الأحقاف: ٦]، وأمثاله كثير؛ وكقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ وكقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [يس: ٧٤] أي: لم يكن لهم ما طمعوا، وقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] صاروا لهم أعداء على ما ذكر.

ويحتمل ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا ينفعهم ولاية من اتخذوا أولياء؛

كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ونحوه.

وقوله - عز وجل -: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: هذا يدل على أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الأئمة الذين صرفوا الناس عن دين الله؛ لأنه أخبر أنه يضاعف لهم العذاب. وهو يحتمل وجهين:

أحدهما: لما ضلوا هم بأنفسهم، والآخر: لما صرفوا الناس عن دين الله تعالى.

وقوله - عز وجل -: و ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾: قالت المعتزلة فيه بوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يسمعون ويبصرون، لكنه قال لا يستطيعون السمع ولا يبصرون استثقالا منهم لذلك، وهو كما يقول الرجل: ما أستطيع أن أنظر إلى فلان ولا أسمع كلامه، وهو ناظر إليه سامع كلامه، لكنه يقول ذلك لاستثقاله النظر إليه وسماع كلامه؛ فعلى ذلك الأول كانوا يسمعون ويبصرون، لكنهم كانوا يستثقلون السمع والنظر إليهم [فنفى عنهم][1] ذلك.

والثاني: كانوا لا يستطيعون السمع، أي: كانوا كأنهم لا يستطيعون السمع ولا النظر، وهو ما أخبر أنهم صم بكم عمى، كانوا يتصامون ويتعامون الحق.

وأمّا عندنا: الجواب للتأويل الأول أنهم كانوا لا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون السماع سمع الرحمة والنظر إليه بعين الرحمة والقبول، فهم من ذلك الوجه كانوا لا يستطيعون.

والثاني: يحتمل سمع القلب وبصر القلب، وهم كانوا لا يستطيعون السمع سمع القلب وبصر القلب؛ كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهذه الاستطاعة عندنا هي استطاعة الفعل لا استطاعة الأحوال؛ إذ جوارحهم كانت سليمة صحيحة؛ فدل أنها الاستطاعة التي بها يكون الفعل لما ذكرنا.

وفي حرف ابن مسعود[2] - رضي الله عنه -: ﴿يضاعف لهم العذاب بما كانوا

(١) في أ: فنفاهم.
(٢) يجوز في «ما» هذه ثلاثة أوجه:
أحدها: أن تكون نافية، نفى عنهم ذلك لما لم ينتفعوا به، وإن كانوا ذوي أسماع وأبصار، أو يكون متعلق السمع والبصر شيئًا خاصًا.
والثاني: أن تكون مصدرية، وفيها حينئذ تأويلان:
أحدهما: أنها قائمة مقام الظرف، أي: مدة استطاعتهم، وتكون «ما» منصوبة بـ«يضاعف»، أي: لا يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والأبصار.
والثاني: أنها منصوبة المحل على إسقاط حرف الجر، كما يحذف من «أنْ» و«أنَّ» أختيها، وإليه =

يستطيعون السمع﴾، ثم سئل الحسن عن ذلك؟ فقال: هو قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١] إذا سمعوا الوحي تقنعوا في ثيابهم، فلم يستطيعوا احتمال ذلك.

وفي حرف حفصة: ﴿وما كانوا يستطيعون السمع﴾ بالواو.

وأما في حرف ابن مسعود ظاهر تأويله أي: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع، فلم يسمعوا عنادا وإبطاء، وأصله ما كانوا يستطيعون السمع المكتسب والبصر المكتسب عندنا، ما[1] ذكر من السمع والبصر هو السمع المكتسب والبصر المكتسب والحياة المكتسبة؛ لأن سمع الآخرة وحياتها مكتسبان، وحياة الدنيا والسمع والبصر مخلوقة.

وقوله - عز وجل-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: أما في الدنيا عبادتهم غير معبودهم الذي كان منه جميع النعم والمنافع، وما لحقهم بذلك من الذل والصغار، وأما في الآخرة فالعذاب والهوان الدائم بدلا عن النعم الدائمة.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي: بطل عنهم، ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] و ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ . . .﴾ الآية [الزمر: ٣] وأمثاله.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: قال أبو عوسجة: لا جرم واجب من الكلام، أي: الحق أنهم في الآخرة هم الأخسرون. وقال بعضهم: لا جرم أي: نعم إنهم في الآخرة هم الأخسرون. وقال الفراء: قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد، لكن[2] الناس أكثروا استعماله فصار في معارفهم حقا، ولا بد في الحقيقة حقا؛ لأنه إذا كان لا بد فهو حق.

= ذهب الفراء، وذلك الجار متعلق أيضًا بـ «يضاعف» أي: يضاعف لهم بكونهم كانوا يسمعون ويبصرون، ولا ينتفعون.

والثالث: أن تكون «ما» بمعنى «الذي» وتكون على حذف حرف الجر أيضًا، أي: بالذي كانوا. وفيه بُعْدٌ؛ لأن حذف الحرف لا يطرد.

والجملة من قوله: «يضاعف» مستأنفة.

وقيل: إن الضمير في قوله «ما كانوا» يعود على «أولياء» وهم آلهتهم، أي: فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، وإن كانوا يعتقدون أنهم أولياء؛ فعلى هذا يكون ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ معترضًا.

ينظر: اللباب (١٠/ ٤٦٠).

(١) في أ: وما.

(٢) في أ: ولكن.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: تأويله - والله أعلم - أن الذين آمنوا بالله وبجميع ما أنزل على رسوله، وعملوا الصالحات ولزموا ذلك حتى صاروا إلى الله أولئك أصحاب الجنة؛ وهو كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] أي: من تاب من الشرك وآمن بالله وعمل صالحًا ثم اهتدى أي: ثم لزم ذلك حتى صار[١] إلى الله هكذا؛ فعلى ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لزموا ذلك كله حتى صاروا إلى الله.

ويحتمل قوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ سنن الذين أولئك كذا.

وقوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم: الإخبات التخشع والتواضع[٢]، أي: تخشعوا وتواضعوا فرقًا من ربهم.

وقال بعضهم: أخبتوا أي: اطمأنوا على ذلك أولئك كذا.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه-: أخبتوا قال: خافوا من ربهم[٣].

وقال القتبي[٤]: أخبتوا أي: تواضعوا لربهم، وقال: الإخبات التواضع والوقار.

وقال أبو عوسجة: الإخبات التوبة والمخبت التائب.

وقال غيرهم: الإخبات الإنابة، أخبتوا أي: أنابوا إلى الله؛ وبعضه قريب من بعض.

ومن قال: الإخبات هو التواضع والخشوع فمعناه - والله أعلم - أي: تواضعوا وخشعوا بالإجابة إلى ما دعاهم إليه ربهم وندبهم إليه.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الصنفين اللذين سبق وصفهما، وهو قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ الآية [هود: ١٥] فهو وصف الكافر، والفريق الآخر قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] إلى آخر ما ذكر وفيه وصف المؤمن. أو يكون وصف الكافر ما ذكر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ هو وصف أحد الفريقين وهم الكفار، والفريق الآخر ما ذكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هذا - والله أعلم - الفريقين اللذين ضرب مثلهما بالأعمى

---

(١) في ب: صاروا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٦) (١٨١١٥) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٠) وزاد نسبته لعبد الرزاق وأبي الشيخ عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٥) (١٨١١١)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٩) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٠٢).

والأصم و [البصير والسميع][١].

ثم وجه ضرب مثل الكافر بالأعمى والأصم، والمؤمن بالبصير والسميع، فهو - والله أعلم - أن الكافر أعمى القلب وأصم السمع، لم يبصر ما غاب عنه من الموعود، ولا يسمع[٢] ما غاب عنه من الموعود، وإنما أبصر ظواهر الأمر؛ وكذلك إنما سمع ظواهر من الأمور وبواديها[٣]، لم ينظر إلى الغائب من الموعود ولا سمع ذلك، وهو لم يخلق لمعرفة ذلك الظاهر خاصة، وإنما خلق لما وعد وأوعد في الغائب.

والمؤمن أبصر ذلك الغائب وسمع ما غاب من الموعود، فيقول [كما لم يستو][٤] عندكم في الظاهر البصير والأعمى والسميع والأصم لم يستو من كان أعمى القلب بمن كان بصير القلب بذلك، ولم يستو أيضًا من به صمم القلب بمن كان سميعًا بذلك.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أنهما لا يستويان، أو يقول: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون بما نزل من القرآن وتنتهون عما تنهون، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وجوه من الأسئلة:

أحدها: أن يقال: كيف احتج عليهم وهو ما ذكر أنهم عميان وصم أو كالعميان والصم، ولا يكلف الأعمى الإبصار والنظر ولا الأصم السماع؟!

والثاني: يقولون: إنا [بصراء سمعاء][٥] ليس بنا صمم ولا عمى، بل أنتم العميان والصم.

والثالث: كيف ذكر المثل لهم، وهم لا يتفكرون ولا ينظرون في المثل ولا يلتفتون إليه؟![٦]

---

(١) في ب: السميع والبصير.
(٢) في ب: سمع.
(٣) في ب: باديها.
(٤) في أ: كما يسبق.
(٥) في ب: سمعاء بصراء.
(٦) وقد أحسن الزمخشري في التعبير عن ذلك فقال: شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللَّفِّ والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريقين تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحَشَفِ والعُنَّاب، وأن يشبه بالذي جمع بين العمى والصمم، والذي جمع بين البصر والسمع، على أن تكون الواو في «والأصم» وفي «والسميع» لعطف الصفة على الصفة؛ كقوله:

..... الصـــابح فالغـانم فالآيب

يريد بقوله (اللف): أنه لف المؤمنين والكافرين اللذين هما مشبهان بقوله: (الفريقين)، ولو فسرهما لقال: مثل الفريق المؤمن كالبصير والسميع، ومثل الكافر كالأعمى والأصم، وهي

أما جواب الأول: فأنه احتج عليهم؛ لأنهم تركوا اكتساب بصر الآخرة وسمع سماع الآخرة، فنفى عنهم السمع والبصر والحياة؛ لأنه ببصر المخلوق يكتسب بصرا في الدين وسمعا في أمر الدين وحياة الدين، فيصير بذلك مكتسب الحياة الدائمة والبصر الدائم والسمع الدائم، فيكونون في الآخرة بصراء سمعاء أحياء؛ كقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والثاني: نفى عنهم هذه الحواس؛ لأنهم لم ينتفعوا بها؛ لأن هذه الحواس إنما أنشئت لهم وخلقت لينتفعوا بها، وهو المقصود بإنشائها، فإذا تركوا الانتفاع بها فكأنها ليست لهم.

وأما جواب ما قالوا: إنا [بصراء وسمعاء][1] وأنتم العميان والصم، فيقال لهم: إن أهل الإسلام إذا سمعوا ذلك قد اشتغلوا بالتفكر فما فرغ سماعهم[2] من الآيات والنظر فيها، وأنتم لا بل تعاموا عنها وتصاموا، فدل تفكرهم ونظرهم فيها على أنهم بصراء و [سمعاء وأحياء][3]، وأنتم يا أهل الكفر العميان والصم والأموات.

والثاني: أن هذه الآيات إنما نزلت في محاجة أهل مكة، وهم قد علموا أن آباءهم لم يكونوا حكماء ولا علماء، فلم يكونوا ما ذكر بصراء ولا أحياء ولا سمعاء، فصاروا صمًّا عميانًا أمواتا؛ ولأن أحد الفريقين لا محالة ما ذكر نحن، أوهم ثم قد استووا في هذه الدنيا وفي العقل والحكمة التفريق بينهما؛ فدل أنهم بما ذكر أولى.

وأما جواب ذكر المثل لهم على علم منهم أنهم لا يقبلون المثل ولا ينظرون بأنه إنما ذكر لأهل الإسلام؛ ولأن ذكر المثل به ربما يبعثهم على النظر فيه والتفكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ

= عبارة مشهورة في علم البيان: لفظتان متقابلتان، اللف والنشر، أشار لقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رَطْبا ويابِسًا ... لدى وَكْرِها العُنَّاب والحَشَفُ البَالِي

أصل الكلام: أن الرطب من قلوب الطير: العناب، واليابس منها: الحشف، فلفَّ ونَشَر. ينظر اللباب (١٠/ ٤٦٤).

(١) في ب: سمعاء وبصراء.
(٢) في ب: أسماعهم.
(٣) في ب: وأحياء وسمعاء.

﴿٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾: أخبر أنه أرسله إلى قومه، ولم يفهم منه الإرسال من مكان إلى مكان؛ وكذلك قوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يكن مجيئه من مكان إلى مكان، فهذا يدل أنه لا يفهم من ذكر المجيء الانتقال من مكان إلى مكان؛ وكذلك الإرسال.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: نذير لمن عصى بالنار وبعقابه بين الإنذار.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي: لا تجعلوا عبادتكم إلا لمعبود هو معبود بشهادة خلقتكم؛ لأن خلقتهم تشهد على أنه هو المستحق للعبادة، لا من تعبدون من الأصنام والأوثان.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أي: وحدوا الله ولا تصرفوا الألوهية إلى غيره، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾: أضاف [الألم إلى اليوم واليوم ليس بمؤلم ولكنه - والله أعلم - أضاف إليه؛ لما فيه يؤلم، وهو كقوله: ﴿ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦] والليل لا يسكن ولا يوصف به، لكنه يسكن][(١)] فيه، وكذلك قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧] والنهار لا يبصر، لكنه يبصر فيه؛ فعلى ذلك قوله: ﴿يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ لما فيه يكون العذاب الأليم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: الخوف في غيره لا يكون في الحقيقة خوفًا؛ وكذلك الرجاء في غيره لا يكون في الحقيقة رجاء، وفي نفسه يكون في الحقيقة خوفًا ورجاء؛ لما يلحقه ضرر في نفسه أن جعل به ذلك لغيره، ويلحقه نفع فيكون الخوف في نفسه حقيقة خوف والرجاء حقيقة رجاء، وأما في غيره لما لا يلحقه ضرر وإن حل ذلك لغيره، ولا ينال من النفع في الرجاء إن نال ذلك الغير، لكنه يخرج على وجهين:

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

أحدهما: على العلم، أي: إني أعلم أنه ينزل بكم العذاب؛ نحو قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] أي: علمتم.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي: فإن علمتم أن يضيعا حدود الله.

والثاني: يخاف عليهم[١] إشفاقا منه؛ لأن الخلق جبلوا على أن يتألم بما يحل بغير حتى لا يكون في وسع بعض أن يروا ذلك في غيره. على هذين الوجهين يخرج الخوف على غيره، وفي الخوف رجاء وفي الرجاء خوف؛ لأن الخوف إذا لم يكن فيه رجاء فهو إياس، وقال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والرجاء إذا لم يكن فيه خوف فهو أمن قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا . . .﴾ كذا.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾: قيل: أشراف قومه وأئمتهم[٢].

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: وكذلك قال عامة القوم لرسلهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، كان هذا احتجاجهم في رد الرسالات[٣] يحتجون على الرسل فيقولون - والله أعلم -: إن الرسل في الشاهد إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من [عند] أحد في الظاهر، والرسول هو الذي يأتي من عند غير، ويكون للرسول خصوصية عند المرسل، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره، فكيف بعثتم إلينا رسلا دون أن نبعث نحن إليكم رسلا؛ إذ أنتم ونحن في الخلقة سواء وفي الأمور الظاهرة سواء؟! أو نحوه من الكلام، احتجوا على رسلهم في رد الرسالة؛ وكذلك كان عادة الكفرة يقولون للرسل إذا لزمتهم الحجة وأقيم عليهم نسبوها إلى السحر، ونسبوا الرسل أنهم بشر مثلهم.

فجواب هذا كله ما ذكر: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وما قال لهم نوح: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: آتاني رحمة من عنده، وجعل لي بينة وبرهانا على ما آتاني رحمة من عنده بمثل هذا يحتج عليهم.

ويقال أيضًا: إنكم لا تنكرون فضل الله وتخصيص بعض على بعض بما جعلكم أئمة ورؤساء بأمور الدنيا على غيرهم، فكيف تنكرون فضل الله وتخصيص بعض على بعض بفضل الدين والرسالة؟!.

---

(١) في أ: عليكم.
(٢) ذكره البغوي (٢/ ٣٨٠).
(٣) في أ: الرسالة.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾: احتجوا أيضًا في رد الرسالة يقولون: إن الأراذل هم أتباع لكل من دعاهم وأهل طاعة لكل متبوع، فليس في اتباع الأراذل إياك والضعفاء[1] دلالة ثبوت رسالتك؛ إذ هم يتبعون بلا دليل ولا حجة وهم فروع وأتباع لغير، ولم يتبعك أحد من الأصول.

لكن يقال: إن هؤلاء الأراذل لما اتبعوا الرسول ولم يتبعوا الأئمة والرؤساء الذين معهم الأموال والدنيا، ولم يكن في أيدي الرسل ذلك، ثم تركوا اتباع أولئك وفي أيديهم ما يدعوهم إليه واتبعوا الرسل دل أنهم إنما اتبعوا الرسل بالحجج والبراهين التي أقاموها عليهم أو نحوه.

والأراذل: قيل: هم السفهاء[2] والضعفاء[3].

وقال القتبي[4]: أراذلنا: شرارنا.

و ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [قال بعضهم: ظاهر الرأي؛][5] من قولك: بدا لي ما كان خفيا.

وقال بعضهم: بادي الرأي: خفيف الرأي لا يعرفون حقائق الأمور، إنما يعرفون[6] ظواهرها، كأنهم يقولون: إنما اتبعك من كان خفيف الرأي وباديه، لم يتبعك من يعرف حقائق الأمور والأصول.

وقد قرئ: ﴿بادئ الرأي﴾ بالهمز، وقد قرئ بغير همز. ومن قرأ بالهمز فهو من الابتداء، أي: في أول الرأي وابتدائه لا ينظر في عواقب الأمور. ومن قرأ بغير همز فهو من الظهور، أي: ظاهر الرأى على غير تفكر ونظر فيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ . . .﴾ الآية: يحتمل هذا أي: فضلا في الخلقة، أو في ملك أو مال[7] ولا في شيء، لكن جواب هذا ما سبق.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾: هكذا كانت عادة الكفرة، يردون دلالات الرسل والحجج بالظن لم يردوا لحقيقة ظهرت.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على بيان من

---

(١) في أ: الضعفة.
(٢) في أ: السفلة.
(٣) ذكره ابن جرير (٧/ ٢٨) وكذا البغوي (٢/ ٣٨٠).
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٠٣).
(٥) سقط في أ.
(٦) في ب: يفهمون.
(٧) في أ: ولا مال.

ربي، أو على حجة من ربي وبرهان فيما آتاني من رحمته. والرحمة تحتمل النبوة لأنهم[١] كانوا ينكرون رسالته لما أنه بشر مثلهم، فكيف خص هو بها دونهم وهو مثلهم؟! فيقول: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً﴾ أي: النبوة، وآتاني - أيضًا - على ذلك بينة وحجة. وتحتمل الرحمة الدين الذي كان يدعوهم إليه والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: قرئ بالتخفيف والتشديد، أي: لبست، أو التبس عليكم حيث أعرضتم عنه.

ومن قرأ، بالتشديد: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يرجع إلى الأتباع والسفلة، أي: عميت عليهم القادة والرؤساء منهم ولبست. ﴿وعميت﴾ بالتخفيف أي: التبس، وعمي على القادة والرؤساء.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنوجبها عليكم، وهي التي ذكر أنه آتاها إياه أو البينة التي ذكر أيضًا أو الدين الذي كان يدعوهم إليه، أي: لا نوجبها عليكم ولا نلزمها، وأنتم لها كارهون بلا حجة ولا برهان.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي: لا نلزمها لكم بلا حجة شئتم أو أبيتم ولكن بحجة.

وفيه أن الدين لا يقبل بالإكراه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾: على تبليغ الرسالة إليكم، أو على إقامة الحجة على ما أدعي من الرسالة، أو على الدين الذي يدعوهم إليه، أي: لا أسألكم على ذلك أجرا، فلماذا تعرضون عما أدعوكم إليه وأقيمه عليكم ليكون لكم الاحتجاج أو الاعتذار؟! وكذلك يخرج قوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] [أي: لا تسألهم أجرا على ما تبلغه إليهم ويدعوهم إليه][٢]، فيمنعهم ثقل ذلك الغرم إجابتكم إياه، فعلى ذلك الأول ذكر هذا؛ لأن ما يلحق الإنسان من الضرر إنما يمنعه عن الإذعان بالحق [للخلق][٣] والإقبال إليه والقيام بوفائه، أو يمنع ذلك لما لا يتبين له الحق لئلا يكون لهم الاحتجاج والاعتلال عند الله وإن لم يكن لهم حجة؛ وكقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ليس على أنه إذا سألهم على ذلك أجرا يكون لهم عذر في ردِّ ذلك وترك الإجابة له؛ إذ لله أن يكلفهم الإجابة والطاعة له بالمال وبغير المال.

---

(١) في أ: كأنهم.
(٢) بدل ما بين المعقوفين في أ: أي: لا نسألهم أجرًا على ما نبلغه إليكم وندعوكم إليه.
(٣) سقط في ب.

والثاني: بقوله: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه وأبلغكم إياه مالاً، مع حاجتي وقلة مالي، فيقع عندكم أني أدعوكم إليه رغبة فيما في أيديكم من الأموال أو لمنفعة نفسي بل إنما أدعوكم إلى ما أدعوكم إليه لمنفعة أنفسكم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلا على الله في ذلك ليس عليكم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: فيه دلالة أنهم كأنهم كانوا سألوا رسولهم أن يتخذ لهم مجلسا على حدة، ويفرد لهم ذلك دون الأراذل والضعفاء الذين اتبعوه ويطرد الضعفاء؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وقال أهل التأويل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: ما أنا بالذي لا يقبل الإيمان من الأراذل والضعفاء عندكم؛ لقولهم حيث قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [(١)] [هود: ٢٧] لأنهم يقولون: اتبعوك الأراذل ظاهرًا، وأما في الباطن فليسوا على ذلك؛ ولذلك قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ [هود: ٣١] يعني: ما في قلوب السفلة فيقول: ما أنا بطارد الذين آمنوا ظاهرًا الله أعلم بما في قلوبهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجهين؛ أي: ملاقو ربهم فيشكون مني إليه في رد إيمانهم، ويخاصمونني في ذلك ويطالبونني في طردي إياهم.

والثاني: أنهم ملاقو ربهم بإيمانهم ظاهرًا كان إيمانهم أو باطنًا [أي في أي حال هم يلاقون][(٢)] ربهم فيجزيهم بما هم عليه؛ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ يحتمل تجهلون ما أدعوكم إليه أو تجهلون في قولكم: إنهم إنما آمنوا واتبعوا في ظاهر الحال، وأما في السر فلا، أو تجهلون ما يلحقني في طردهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي:[(٣)] من يمنعني من عذاب الله، ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾: على ما تدعونني إليه، أو من يمنعني من عذاب الله إن لم أقبل منهم الإيمان.

---

(١) زاد في ب: ظاهر الرأي.
(٢) في أ: حالهم ملاقون.
(٣) في أ: أو.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أنه لا يسع لي ما تدعونني إليه من طرد هؤلاء أو رد إيمانهم، أو أفلا تذكرون فتؤمنون.

وما روي في حرف أبي بن كعب[١]: ﴿أنلزمكموها شطر أنفسنا﴾ فمعناه أنلزمكموها نحن أنفسنا وأنتم قوم معاندون[٢].

وفي حرف ابن عباس: ﴿أنلزمكموها من شطر أنفسنا﴾ أي: من تلقاء أنفسنا[٣]، أي: لا نقدر أن نلزمكم ذلك من تلقاء أنفسنا وأنتم كارهون لذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يخرج على وجوه:

أحدها: يقول: ليس عندي خزائن الله والسعة، فأبذل لكم لتؤمنوا رغبة في المال والسعة.

والثاني: يقول: ليس عندي سعة، فيقع عندكم أني أدعوكم إلى ما أدعوكم إليه افتعالا رغبة في المال على ما يفعل المفتعلون للرغبة في المال، ولكن لتعلموا أني مكلف في ذلك.

والثالث: يحتمل ما ذكرنا من أسئلة كانت منهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾: هذا القول منه لهم يحتمل الوجهين:

أحدهما: أنه قال ذلك لهم على أثر أمور وأسئلة كانت منهم من نحو قولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وقولهم لرسول الله ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩١]، وقولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] وأمثال ما كان منهم، فيقول لهم: ليس ذلك عندي وبيدي، إنما ذلك عند الله وبيده.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يحتمل أن يكونوا سألوه أن يخبرهم عن أمور تستقبلهم قبل أن تستقبلهم، إن كان شرا فيعدوا له في دفعه، وإن كان منافع فيستقبلوا لها ويتهيئوا، فيقول لهم: ذا غيب وأنا لا أعلم الغيب إنما العلم في ذلك إلى الله، ولا أقول: إني ملك أعلم أخبار السماء والأمور التي فيها، إنما أنا بشر مثلكم.

---

(١) ينظر اللباب (١٠/ ٤٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٠) (١٨١٢٥)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩١) وزاد نسبته لابن المنذر عن أبي بن كعب.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٠) (١٨١٢٣) و(١٨١٢٤)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩١) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: مفاتيح الله في الرزق، فهذا كأنهم سألوه السعة فيتبعونه، فيقول: ليس عندي ذلك.

ويحتمل أن يكون قال لهم الرسول هذا لدفع الشبهة عنهم، وذلك أن من الكفار من اتخذ الرسول إلها فعبدوه بعدما عاينوا أنه من البشر.

ومنهم من قال: إنه ابن الله.

ومنهم من قال[١]: إنه ملك، وكانوا يعبدون الملائكة وكانوا يخبرونهم عن أشياء غابت عنهم، فظنوا أنه إنما علم ذلك لأنه إله، فيقول لهم ذلك ليدفع عنهم[٢] تلك الشبهة ويتبرأ من ذلك؛ ولذلك قال عيسى: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠، ٣١] هو - عليه السلام - كان يعلم في نفسه أنه عبد الله، ولكن يقول لهم لئلا ينسبوه إلى الألوهية والربوبية على ما نسبوا إليه، فأقر بالعبودية[٣] له، والله أعلم بذلك.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: مفاتيح الله بأنه يهدي السفلة دونكم، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: لا أقول: إن عندي علم ذلك أن الله يهديهم وهم مؤمنون في السر؛ وذلك كقوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: من الصدق.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: إنما [أنا][٤] بشر لقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا . . .﴾ إلى آخر الآية [هود: ٢٧].

ثم قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ قيل: الذين حقرتموهم يعني السفلة والأتباع. وقال ابن عباس: ﴿الذين لم تأخذهم أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا﴾ يعني إيمانًا الله أعلم بما في أنفسهم من الصدق، إني إذا لمن الظالمين لهم إن لم أقبل منهم [الإيمان][٥] أو طردتهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) في ب: قالوا.
(٢) في ب: عنكم.
(٣) في ب: بالعبودة.
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾: قالوا ذلك لأنه قد كان طال عمره وهو بين أظهرهم ويدعوهم إلى الإيمان، فأكثر حجاجه ومجادلته إياهم[١]. فقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وكان يعدهم العذاب إن لم يجيبوه؛ كقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وما كان وعد لهم في غير آية من القرآن إن لم يجيبوه فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: ليس لي إتيان ذلك إنما ذلك إلى الله، إن شاء عجل وإن شاء أخر إلى ما بعد الموت؛ وهو كقول رسول الله لقومه: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا تعجزون الله عن تعذيبكم فتفوتون عنه، وقيل: وما أنتم بسابقي الله بأعمالكم الخبيثة حتى يجزيكم بها؛ وهو واحد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: تأويله - والله أعلم - لا ينفعكم دعائي إلى ما به نجاتكم إن كان الله يريد أن يغويكم [ثم اختلف في وقت ذلك: قال بعضهم: لا ينفعكم نصحي عند إقبال العذاب عليكم؛ إن كان في حكم الله ألَّا تكونوا من الغاوين في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ إن كان الله يريد أن يغويكم][٢] أي: لا ينفعكم نصحى إن كان الله يريد أن يعذبكم في نار جهنم ويقول الغي العذاب؛ كقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي: عذاب جهنم ونحوه من الكلام.

وأما عندنا فهو على ما أخبر: إن كان الله يريد إغواء قوم أبدا فهم في الغواية أبدًا، وأصله أن الله أراد غواية من في علمه أنه يختار الغواية [وأراد ضلال كل من في علمه أنه يختار الضلال؛ لأن من في علمه أنه يختار الغواية][٣] والضلال اختار عداوته، ولا يجوز

(١) دلت هذه الآية على أنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان قد أكثر في الجدال معهم، وذلك الجدال كان في بيان التوحيد، والنبوة، والمعاد، وهذا يدل على أن المجادلة في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وأن التقليد والجهل والإصرار حرفة الكفار، ودلت على أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يعدهم به، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ثم إنه - عليه الصلاة والسلام - أجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ [هود: ٣٣] أي: أن إنزال العذاب ليس إليَّ، وإنما هو خلق الله فيفعله إن شاء، وإذا أراد إنزال العذاب فإن أحدًا لا يعجزه، أي: لا يمنعه. ينظر اللباب (١٠/ ٤٧٦).

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.

أن يريد هو هداية من يعلم أنه يختار عداوته؛ لأن ذلك يكون من الضعف أن يختار المرء ولاية من يختار هو عداوته، فدل أنه لم يرد الهداية لمن علم منه اختيار الغواية والضلال.

ثم إضافة الإغواء والإزاغة والإضلال إلى الله يخرج على وجهين:

أحدهما: أنه ينشئ ذلك الفعل منهم غيا وزيغًا وضلالا لا بد؛ لأن فعلهم فعل غواية وزيغ.

والثاني: أنه خذلهم ولم يوفقهم ولم يرشدهم ولم يعصمهم ولا سددهم، فمن ذلك[(١)] الوجه ليس فعله فعل الذم عليه حتى يتحرج بالإضافة إليه، ومن الإضافة إلى الخلق يكون على الذم؛ لأن فعلهم نفسه فعل غواية وضلال، فاستوجبوا الذم عليه بذلك، والإغواء من الخلق هو الدعاء إلى ذلك أو الأمر به، فهو مذموم يذمون على ذلك وليس من الله تعالى من هذا الوجه، ولكن على الوجهين اللذين ذكرناهما.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ دلالة تعليق الشرط على الشرط.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل يقولون.

إنه افتراه من عند نفسه قل:[(٢)] ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: اختلف فيه؛ قال بعضهم: قال قوم نوح لنوح - عليه السلام[(٣)] -: إنه افترى على الله أنه رسول إليهم من الله على ما سبق من دعائه قومه إلى دين الله، فقالوا له: إنه افتراه.

وقال بعضهم: هو قول قوم محمد[(٤)] قالوا: افترى محمد هذا القرآن من نفسه ليس هو من الله على ما يزعم، وهو ما قال في صدر السورة، وهو قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إلى آخر ما ذكر، فعلى ذلك هذا هو قولهم لرسول الله ﷺ إنه افترى هذا القرآن الذي يقول هو من الله من نفسه فقال: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: إن افتريته فعليَّ جرمُ افترائي وجزاؤه.

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ معناه - والله أعلم - أي: لا تؤاخذون أنتم بجرم افترائي إن افتريته، وأنا لا أؤاخذ بإجرامكم؛ كقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فعلى ذلك إجرامي، وأمكن أن يكون هذا القول لهم لما أيس من إيمانهم؛ كقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا

(١) في ب: ذا.
(٢) في أ: قيل.
(٣) ذكره البغوي بمعناه (٢/ ٣٨١) ونسبه لابن عباس وأبي حيان في البحر (٥/ ٢٢٠).
(٤) ذكره ابن جرير (٧/ ٣٣)، وكذا البغوي بمعناه (٢/ ٣٨١) ونسبه لمقاتل.

﴿وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] لما أيس عن إيمانهم، وانقطع طمعه ورجاؤه عن إسلامهم، قال لهم ذلك أن لا محاجة بيننا وبينكم بعد هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ قال بعضهم: إن نوحًا عليه السلام لم يدع على قومه بالهلاك ما دام يرجو ويطمع من قومه الإيمان، فإذا أيس وانقطع رجاؤه وطمعه فحينئذ دعا عليهم بالهلاك؛ كقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [1] [نوح: ٢٦] أي أحدًا، ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ . . .﴾ الآية [نوح: ٢٧]، وعرف الإياس عن إيمانهم بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ . . .﴾ الآية؛ وكذلك سائر الأنبياء والرسل لم يؤذن [لهم][2] بالدعاء على قومهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم، ما داموا يرجون ويطمعون منهم الإيمان والإجابة لهم، فإذا أيسوا وانقطع رجاؤهم وطمعهم عن ذلك، فعند ذلك أذن لهم بالدعاء عليهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم [وعلى ذلك عوتب يونس بالخروج من بين أظهرهم قبل أن يؤذن له بالخروج من بينهم][3].

وفي قوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ دلالة أن للإيمان حكم التجدد والابتداء في كل وقت [وفي][4] كل حال؛ لأنه أخبر أن الذي قد آمن قد يؤمن في حادث الوقت؛ وعلى ذلك يخرج الزيادات التي ذكرت في الإيمان فزادتهم إيمانا ونحوه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: لا تحزن بما كانوا يفعلون[5]، فهو يحتمل وجهين:

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٤) عن قتادة (١٨١٣٩)، والضحاك (١٨١٤٠).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٢) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولأحمد في الزهد وابن المنذر وأبي الشيخ عن الحسن البصري.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٤) عن كل من: مجاهد (١٨١٣٥، ١٨١٣٦)، ابن عباس (١٨١٣٧)، قتادة (١٨١٣٩).

أحدهما: لا تحزن بكفرهم بالله وتكذيبهم إياك، ليس على النهي عن الحزن في ذلك، بل[١] على دفع الحزن عنه والتسلي به؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا يحزنون بكفر قومهم بالله وجعلهم[٢] أنفسهم أعداء له؛ كقوله لرسول الله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ . . .﴾ الآية [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وأمثاله، كان الأنبياء - عليهم السلام - أشدّ الناس حزنا بكفر قومهم بالله وتكذيبهم آياته وأشدهم رغبة في إيمانهم، وكان حزنهم لم يكن على هلاكهم ألا ترى أن نوحا دعا عليهم بالهلاك وكذلك سائر الأنبياء - عليهم السلام - دل أن حزنهم كان لمكان كفرهم بالله وتكذيبهم آياته، لا لمكان هلاكهم إشفاقًا على أنفسهم.

والثاني: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ يحتمل أنهم كانوا هموا قتله والمكر به، فقال: لا تحزن بما كانوا يسعون في هلاكك فإني كافيهم[٣] قال أبو عوسجة: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ هو من الحزن، يقال: ابتأس يبتئس ابتئاسًا. قال الكسائي - أيضًا - لا تبتئس أي: لا تحزن هو من البأس، يقال: لا تبتئس بهذا الأمر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾: قال بعض أهل التأويل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بأمرنا ووحينا[٤]، وقال بعضهم[٥]: بمنظرنا ومرآنا[٦]، ولكن عندنا يحتمل وجهين، أحدهما: قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا ورعايتنا، يقال: عين الله عليك أي حفظه عليك، ثم لا يفهم من قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ نفس العين على ما لا يفهم من [قوله][٧]: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] و ﴿كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولكن ذكر الأيدي لما في الشاهد إنما يقدم باليد ويكتسب باليد؛ فعلى ذلك ذكر العين لما بالعين يحفظ في الشاهد.

والثاني: قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بإعلامنا إياك؛ لأنه لولا تعليم الله إياه اتخاذ السفينة

= وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٢) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(١) في أ: ولكن.

(٢) في ب: جعل.

(٣) في ب: أكافئهم.

(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير عن كل من: ابن عباس (١٨١٤٢، ١٨١٤٥)، مجاهد (١٨١٤٣، ١٨١٤٤)، قتادة (١٨١٤٦).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٢) وزاد نسبته لأبي الشيخ عن مجاهد، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس.

(٥) ذكره البغوي بمثله (٢/ ٣٨٢) عن ابن عباس، وأبو حيان في البحر (٥/ ٢٢١).

(٦) في ب: ومرأى منا.

(٧) سقط في ب.

ونجرها لم يكن ليعرف أن كيف يتخذ وكيف ينجر، إنما عرف ذلك بتعليم الله إياه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: هذا يحتمل وجهين.

يحتمل أي: لا تشفع إلي في نجاة الذين ظلموا فإنهم مغرقون في حكم الله.

والثاني: لا تخاطبني في هداية الذين هم في حكم الله أنهم يموتون ظلمة، أي: لا تسألني إيمان من في علم الله أنه لا يؤمن، وفيه نهي السؤال عما في علم الله أنه لا يكون؛ لأنه إذا أخبر أنه لا يكون أو لا يفعل فإذا سأله كان يسأله أن يكذب خبره الذي أخبر أنه لا يكون، وفيه أنه إذا أراد الله إيمان أحد آمن، ومن لم يرد إيمانه لم[1] يؤمن.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: الملأ هم الأشراف والرؤساء من قومه.

﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: هم الذين سخروا منه، قال بعضهم: سخريتهم منه أن قالوا: صار نجارا بعدما ادعى لنفسه الرسالة[2].

وقال بعضهم: سخريتهم منه لما رأوه يتخذ الفلك، ولم يكن هنالك بحر ولا واد ولا مياه جارية، إنما هي آبار لهم فقالوا: يتخذوا السفينة ليسيرها في البراري والمفاوز ونحوه من الكلام[3].

وقال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ وقالوا: سخريته منهم أنه إذا ركبوا الفلك رأوهم يغرقون، قالوا: كنت على حق وعلى هدى ونحوه من الكلام، لكن هذا لا نعلمه ولا حاجة لنا إلى معرفة سخريتهم أن كيف كانت سوى أن فيه سخروا منه.

ويحتمل قوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي: نجزيهم جزاء سخريتهم.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: هو وعيد، أي: سوف تعلمون أن حاصل سخريتكم رجع إليكم؛ كقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ ...﴾ الآية [البقرة: ٩]، أي: سوف تعلمون إذا نجونا نحن، وغرقتم أنتم من ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: عذاب يفضحه ويهلكه وهو

(١) في أ: لا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٦) (١٨١٥٢) عن عبيد بن عمير الليثي، وذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٨٢).

(٣) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٣٥) (١٨١٤٨) عن عائشة مرفوعًا، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وضعفه الذهبي وابن مردويه عن عائشة مرفوعًا، ولإسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس.

الغرق.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: عذاب يدوم.

وقال بعضهم: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عذاب الآخرة(١)؛ كقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وأما قول أهل التأويل: إن سفينة نوح كان طولها كذا وعرضها كذا، فليس لنا بذلك علم ولا حاجة لنا إلى معرفة ذلك، فإن صح ذلك فهو ما قالوا وقولهم كان لها ثلاثة أبواب وثلاثة أطباق، فذلك أيضًا لا نعرفه، ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: جاء وقت أمرنا بالعذاب الذي استعجلوه؛ كقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ وكذلك كانت عادة الأمم السالفة استعجال العذاب من رسلهم، وسمي العذاب أمر الله؛ لما لا صنع لأحد فيه، وكذلك المرض سمي أمر الله؛ لما لا صنع لأحد من الخلائق فيه، وسمى الصلاة أمر الله؛ لما بأمره يصلي.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: قال أبو عوسجة: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يقال: فار الماء أي خرج يفور فورًا، أي: غلى كما تغلي القدر وتصديقه قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ . تَكَادُ . . .﴾ [الملك: ٧، ٨] قالوا: فار أي: خرج وظهر.

والتنور: اختلف فيه؛ قال بعضهم: التنور هو وجه الأرض، قالوا: إذا رأيت الماء خرج ونبع وظهر على وجه الأرض فاركب(٢).

وقال بعضهم: التنور هو التنور الخابزة التي يخبز فيها، قالوا: إذا رأيت الماء نبع من

---

(١) ذكره ابن جرير (٧/ ٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٨، ٣٩) عن ابن عباس (١٨١٥٨)، وعن الضحاك (١٨١٥٩)، وعكرمة (١٨١٦٠، ١٩١٦١)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٦) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس، ولأبي الشيخ عن عكرمة.

تنورك فاركب[١]، قالوا: كان الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض؛ كقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١ - ١٢]، لكن جعل علامة وقت ركوبه السفينة هو خروج الماء من الأرض ونبعه منها.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: يحتمل هذا وجهين: يحتمل إن كنا قلنا له إذا فار التنور: احمل فيها من كل زوجين اثنين.

ويحتمل: إن قلنا له وقت فور الماء من التنور: احمل فيها من كل زوجين اثنين.

ويحتمل وقوله - عز وجل-: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: الزوج هو اسم فرد لذى شفع ليس هو اسم الشفع حتى يقال عند الاجتماع ذلك، ولكن ما ذكرنا أنه اسم فرد لذي شفع كان الإناث صنفًا وزوجًا والذكور صنفًا وزوجًا، فيكون الذكر والأنثى زوجين، والله أعلم.

وقوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من ذكر وأنثى ثم يحتمل زوجين من ذوي الأرواح التي تكون لهم النسل؛ لئلا ينقطع نسلهم.

ويحتمل ذوي الأرواح وغيره، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: قال بعضهم: قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أراد أهله والذين آمنوا معه، يقول: احمل فيها من كل زوجين اثنين، واحمل أهلك أيضًا إلا من قد سبق عليه القول، أي: إلا من كان في علم الله أنه لا يؤمن، أو إلا من كان في علم الله أنه يهلك.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أراد أهله خاصة، ثم استثنى من سبق عليه القول، وهو ابنه وزوجته وهما من أهله، ألا ترى أنه ذكر من بعد من آمن معه وهو قوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ﴾ أي: احمل أهلك الذين آمنوا معك إلا من سبق عليه القول من أهلك وغيره أنه في الهالكين.

أو يقول: إلا من سبق عليه القول أنه لا يؤمن، فهذا يدل أن في أهله من كان ظالمًا كافرا حيث استثني من أهله، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: يذكر هذا - والله أعلم - تذكيرًا لرسول الله ﷺ منه ونعمه التي أنعمها عليه؛ لأن نوحًا مع طول مكثه بين أظهر قومه وكثرة دعائه قومه إلى دين الله ومواعظه لم يؤمن من قومه إلا القليل منهم؛ ورسول الله ﷺ مع

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٠) عن كل من: ابن عباس (١٨١٦٩)، الحسن (١٨١٧٠)، مجاهد (١٨١٧١، ١٨١٧٢، ١٨١٧٣، ١٨١٧٤، ١٨١٧٥)، الشعبي (١٨١٧٦)، الضحاك (١٨١٧٨).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قلة مكثه وقصر عمره آمن من قومه الكثير يعرفه نعمه عليه، وفيه دلالة رد قول من يقول: إن [المواعظ إنما تنفع][١] الموعوظ[٢] على قدر استعمال الواعظ، وليس هكذا ولكن على قدر قبول الموعوظ إياها وقدر الإقبال إليها؛ لأن نوحًا - عليه السلام - كان أشد الناس استعمالا للمواعظ وأكثرهم دعاء، ثم لم يؤمن من قومه إلا القليل؛ دل أنه ليس لما فهموا، ولكن لما ذكرنا.

وأما ما ذكر أهل التأويل أنه حمل في السفينة حبات العنب، فأخذه إبليس فلم يعطه إلا أن أعطى له الشركة، فذلك شيء لا علم لنا به، فإن ثبت ذلك فيكون فيه دلالة أن ليس له في سائر الأنبذة والأشربة نصيب، إنما يكون له فيما يخرج من العنب، وتقدير الثلث والثلثين إنما يكون في عصير العنب خاصة ليس في غيره، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾: يحتمل قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ أنه لما قال لهم نوح: اركبوا فيها قولوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وهو كقول الناس باسم الله من أوله على ما يقال، ويذكر [اسم الله][٣] في افتتاح كل أمر وكل عمل من ركوب ونزول وغيره.

ويحتمل قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: بالله مجراها ومرساها، أي: به تجري وبه ترسو، وأنه ليس كسائر السفن التي بأهلها تجري وبهم تقف، وهم الذين يتولون ويتكلفون إجراءها ووقوفها، وأما سفينة نوح كانت جريتها بالله وبه رسوها لا صنع لهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هو ظاهر لمن آمن به وصدق رسوله ينجيه من الغرق والهلاك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: هذا يدل على ما ذكرنا أنها كانت بالله تجري وبه ترسو؛ حيث لم يخافوا الغرق مع ما كان من الأمواج، وأما سائر السفن فإن أهلها خافوا من أمواجها، لما كانوا هم الذين يتولون ويتكلفون إجراءها ووقفها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير [آية لهم][٤].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) في أ: الموعظ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: لهم آية.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾.

يحتمل قوله: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: بمعزل من نوح، أو كان بمعزل من السفينة، أو ما كان.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل لا تكن مع الكافرين: لتغرق، أو لا تكن مع الكافرين لنعم الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي: سأنضم إلى جبل، ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: ظن المسكين أن هذا الماء كغيره من المياه التي يسلم منها بالالتجاء إلى الجبال، فأخبر عليه السلام أنه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله، سمى عذابه أمر الله لما ذكرنا[١] أمر الله أمر تكوين؛ لأنه هو النهاية في الاحتجاج [لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ . . .﴾ الآية [النحل: ٤٠]، وهو كما يسمى البعث لقاء الله لأنه هو النهاية في الاحتجاج][٢] على من ينكر البعث؛ فعلى ذلك سمى عذابه أمر الله وهو أمر تكوين؛ لأنه هو النهاية في الاحتجاج على من ينكر العذاب.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بهدايته إياه، أو إلا من سبقت له الرحمة من الله بالهداية له والنجاة.

وقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾: يحتمل قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بين ابنه وبين نوح، ويحتمل بينه وبين السفينة.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: يحتمل صار من المغرقين، ويحتمل كان في علم الله أنه يغرق، وهذا يدل على أن قوله في إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أنه يخرج على وجهين:

أحدهما: أنه كان في علم الله أنه يكفر، أو صار من الكافرين كما ذكر، وكان من المغرقين إذ لم[٣] يكن من المغرقين في الأزل.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ

---

(١) في ب: ذكر.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٣) في أ: ولم.

وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: قال بعضهم: عاد كل ماء إلى من حيث خرج: ما أرسل من السماء عاد إليها، وما خرج من الأرض غاض في الأرض وغار فيها.

وقال بعضهم: لا ولكن أمسك السماء من إرساله، وأمسك الأرض من نبعه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ ليس على القول لهم، ولكن الله أمسكهما من إرساله ونبعه.

ويحتمل على القول منه لهم باللطف جعل فيهم ما يفهم هذا.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: غار الماء في الأرض.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: بهلاك قوم نوح ويحتمل على التكوين على ما ذكر ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي: استقرت على الجودي وهو جبل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكا ويحتمل بعدا للقوم الظالمين من رحمة الله[1]. وقال القتبي[2]: مرساها أي تقف.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: يمنعني من الماء، وقال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال القتبي[3]: لا معصوم اليوم من عذاب الله؛ كقوله: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾

---

(١) في هذه الآية ألفاظ كل واحد منها دال على عظمة الله - تعالى-:

فأولها: قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، وهذا يدل على أنه - سبحانه - في الجلال والعظمة بحيث أنه متى قيل لم ينصرف الفعل إلا إليه، ولم يتوجه الفكر إلا إلى ذلك الأمر؛ فدل هذا الوجه على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوى والسفلي إلا هو.

وثانيها: قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾؛ فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام، والحق - تعالى - مُسْتَوْلٍ عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد؛ فصار ذلك سببًا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله - تعالى - وعلو قدره وقدرته وهيبته.

وثالثها: أن السماء والأرض من الجمادات، فقوله: (يا أرض ويا سماء) مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات، وإذا كان كذلك حكم الوهم بأن نفوذ أمره على العقلاء أولى، وليس المراد منه أنه تعالى يأمر الجمادات؛ فإن ذلك باطل، بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم قدر عظمته وجلاله تقريرًا كاملاً.

ورابعها: قوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ومعناه: أن الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزمًا فقد وقع، ذلك يدل على أن ما قضى الله - تعالى - به فهو واقع في وقته، وأنه لا دافع لقضائه، ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه. ينظر اللباب (١٠/ ٤٩٩).

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٠٤).

(٣) ينظر: السابق.

[الطارق: ٦] أي: مدفوق، وأصله لا عاصم أي: لا شيء يمنع اليوم من نزول عذاب الله عليهم ولا دافع لهم منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ . . .﴾ الآية، فقال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا - والله أعلم - كان عند نوح أن ابنه كان على دينه لما لعله كان يظهر الموافقة له، وإلا لا يحتمل أن يقول: إن ابنيمن أهلي ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي في سؤال مثله حيث قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا يحتمل أن يكون يعلم أنه على غير دينه، ثم يسأل له النجاة بعدما نهاه عن المخاطبة في الذين ظلموا، فقال: إنه ليس من أهلك في الباطن والسر، والإخرج هذا القول مخرج تكذيب رسوله، لكن الوجه فيه ما ذكرنا أنه كان في الظاهر عنده أنه على دينه لما كان يظهر له الموافقة، وكان لا يعرف ما يضمره فسأله على الظاهر الذي عنده؛ وكذلك أهل النفاق كانوا يظهرون الموافقة لرسول الله - ﷺ - وأصحابه ويضمرون الخلاف له، وكانوا لا يعرفون نفاقهم إلا بعد إطلاع الله إياه؛ فعلى ذلك نوح كان لا يعرف ما كان يضمر هو لذلك خرج سؤاله فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي وعدت النجاة لهم، أو ليس من أهلك؛ لأنه لم يؤمن بي ولم يصدقك فيما أخبرت أنه عمل غير صالح.

روي عن رسول الله ﷺ[1] أنه كان يقرأ: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صالحٍ﴾ بغير تنوين[2]. وعن

---

(١) قرأ الكسائي: ﴿عَمِلَ﴾ فعلًا ماضيًا، و ﴿غَيْرَ﴾ نصبًا.
والباقون (عَمَلٌ) بفتح الميم وتنوينه على أنه اسم ، و(غيرُ) بالرفع.
فقراءة الكسائي: الضمير فيها يتعين عوده على ابن نوح، وفاعل «عمل» ضمير يعود عليه أيضًا، و«غير» مفعول به. ويجوز أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، تقديره: عمل عملاً غير صالح؛ كقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقيل: إنه ذو عمل باطل؛ فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه.
وأما قراءة الباقين، ففي الضمير أربعة أوجه:
أظهرها: أنه عائد على ابن نوح، ويكون في الإخبار عنه بالمصدر المذاهب الثلاثة في «رجل عدل»، و«زيد كَرَمٌ وجُودٌ».
والثاني: أنه يعود على النداء المفهوم من قوله: ﴿وَنَادَىٰ﴾ ، أي: نداؤك وسؤالك.
وإلى هذا ذهب أبو البقاء ومكي والزمخشري. وهذا فيه خطر عظيم، كيف يقال ذلك في حق نبي من الأنبياء، فضلاً عن أول رسول أرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، عليهما الصلاة والسلام؟! ولما حكاه الزمخشري قال: «وليس بذاك» ولقد أصاب. واستدل من قال بذلك أن في حرف عبد الله ابن مسعود: ﴿إنه عَمَلٌ غيرُ صالح أن تسألني ما ليس لك به علم﴾ وهذا مخالف للسواد.
الثالث: أنه يعود على ركوب ابن نوح المدلول عليه بقوله: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ .
الرابع: أنه يعود على تركه الركوب، وكونه مع المؤمنين، أي: أن تركه الركوب مع المؤمنين وكونه مع الكافرين عملٌ غير صالح.

ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قرأه: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بالتنوين[١]. فمن قرأ بالنصب: ﴿عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾ أي: أن ابنك عمل غير صالح، ومن قرأه: ﴿عَمَلٌ﴾ يكون معناه - والله أعلم - أن سؤالك عمل غير صالح وكلا القراءتين يجوز أن يصرف إلى ابنه، أي: أنه عمل غير صالح وهو عمل الكفر، و ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: الذي كان عليه عمل غير صالح، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: هذا في الظاهر يخرج على التكذيب له، لكن الوجه فيه أنه من أهلك على ما عندك، وليس هو من أهلك فيما بشرتك من نجاة أهلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: يحتمل وجهين:

يحتمل وإن وعدك بإغراق الظلمة حق.

والثاني: وإن وعدك بنجاة المؤمنين حق وأنت أحكم الحاكمين.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: يحتمل هذا نهيًا عن سؤال ما لم يؤذن له من بعد؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا لا يسألون شيئًا إلا بعد الإذن لهم في السؤال، وإن كان يسع لهم السؤال، أو أن يكون عتابًا لما سبق، والأنبياء - عليهم السلام - كانوا يعاتبون في أشياء يحل لهم ذلك؛ نحو قوله لرسول الله ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣]، وقد كان له[٢] الأمر بالقعود والنهي عن الخروج بقوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ونحوه.

= وعلى الأوجه لا يحتاج في الإخبار بالمصدر إلى تأويل؛ لأن كليهما معنى من المعاني، وعلى الوجه الرابع يكون من كلام نوح - عليه الصلاة والسلام - أي: أن نوحًا قال: إن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غير صالح، بخلاف ما تقدم؛ فإنه من قول الله تعالى فقط. هكذا قال مكي، وفيه نظر، بل الظاهر أن الكل من كلام الله تعالى.

ينظر: الحجة (٤/ ٣٤١) وإعراب القراءات السبع (١/ ٢٨٣)، وحجة القراءات (٣٤١) وقرأ بها أيضًا يعقوب.

وينظر: الإتحاف (٢/ ١٢٧) والمحرر الوجيز (٣/ ١٧٧) والبحر المحيط (٥/ ٢٢٩) والدر المصون (٤/ ١٠٤)، واللباب (١٠/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٤ ، ٤٥٩، ٤٦٠)، وأبو داود (٣٩٨٢، ٣٩٨٣) والترمذي (٢٩٣٢) من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٧) وعزاه لأحمد وأبي داود والترمذي والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة، قال عبد بن حميد : أم سلمة هي أسماء بنت يزيد.

(١) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٦) وعزاه لابن المنذر عن علقمة عن ابن مسعود.

(٢) في أ: منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: هو كما نهى رسول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وأمثاله، وإن كان معلوما أنه لا يكون من الجاهلين، وهو ما ذكرنا أن العصمة لا تمنع النهي عن الشيء، بل بالنهي تظهر العصمة.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ إني أعوذ بك أن أعود إلى سؤال لا أعلم بالإذن في السؤال هذا يحتمل.

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: إن لم ترحمني[١] بالعصمة من العود إلى مثله أكن من الخاسرين، هذا يشبه أن يكون.

ويحتمل أن يكون ذكر هذا لما لا يستوجبون المغفرة والرحمة إلا برحمة الله وفضله، على ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: هو طلب المغفرة بالكناية[٣]، وهو أبلغ وأكبر من قوله: اللهم اغفر لي؛ لأن في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ قطع رجاء المغفرة من غيره، وإخبار ألَّا يملك أحد ذلك، وليس في قوله: اغفر لي قطع كون ذلك من غيره؛ لذلك كان ذلك أبلغ من هذا، وكذلك سؤال آدم وحواء المغفرة حيث قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ...﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، هو سؤال بالكناية فهو أبلغ في السؤال.

وقوله - عز وجل-: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾: قال بعضهم: أي: انزل من الجودي إلى قرار الأرض، وقال بعضهم: قوله: ﴿ٱهۡبِطۡ﴾ [أي][٤]: انزل وأقم على المقام والمكث في المكان، ليس على الهبوط من مكان مرتفع إلى مكان منحدر.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾: السلام هو أن يسلم عن الشرور والآفات، والبركة هي نيل كل خير وبرّ على غير تبعة، ثم هما في التحصيل واحد؛ لأنه إذا سلم عن كل شر وآفة نال كل خير وبر، وإذا نال كل خير سلم عن كل شر وآفة، هما في الحقيقة واحد لكنهما في العبارة مختلف، وهو كالبر والتقوى من العبد: البر هو كسب كل خير، والتقوى هو اتقاء كل شر ومعصية، هما في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد؛

(١) في أ: لم تغفر لي.
(٢) أخرجه بمعناه البخاري (١١/ ٣٠٠) كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة (٦٤٦٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٩) كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٧١/ ٢٨١٦) عن أبي هريرة.
(٣) في أ: بالكتابة.
(٤) سقط في ب.

لأنه إذا اتقى كل شر ومعصية عمل كل خير وبر، وإذا كسب كل خير وبر اتقى كل [معصية وشر][(١)]؛ وعلى ذلك يخرج الشكر والصبر: الصبر هو كف النفس عن كل مأثم، والشكر هو استعمال النفس في كل طاعة، هما أيضًا في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا كف نفسه من كل مأثم استعملها في الطاعة، وإذا استعملها في الطاعة كفها عن كل مأثم ومعصية؛ وعلى ذلك يخرج الإسلام والإيمان: الإسلام هو تسليم النفس [لله][(٢)] خالصة سالمة لا يجعل لغيره فيها حقا، والإيمان هو أن يصدق الله بالربوبية في نفسه وفي كل شيء، وهما في الحقيقة واحد وفي العبارة مختلفان؛ لأنه إذا جعل نفسه وكل شيء سالما [لله تعالى][(٣)] أقر بالربوبية له في نفسه وفي كل شيء، وإذا صدقه وأقر له بالربوبية في نفسه وفي كل شيء جعلها لله، وكل شيء له.

هذه أشياء في العبارة مختلفة وفي التحصيل واحد.

ثم قوله: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾: جائز أن يكون جواب قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ آمنه عما خاف وطلب منه المغفرة والرحمة.

والثاني: السلام له منه هو الثناء الحسن؛ كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾: يحتمل أن يكون جواب قوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾، والبركة هي اسم كل خير لا انقطاع له، أو اسم كل شيء لا تبعة له عليه فيه.

ثم قوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، على قول بعض أهل التأويل: ذلك السلام، وتلك البركات في الدنيا: السلام لما سلموا من الغرق والبركات ما نالوا في الدنيا من الخيرات والمنافع.

وعلى قول بعضهم: السلام والبركات جميعًا في الآخرة.

ثم جعل عز وجل المؤمن والكافر مشتركين في منافع الدنيا وبركاتها، وجعل منافع الآخرة وبركاتها للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ثم قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أشرك المؤمن والكافر في زينة الدنيا، ثم جعل [للمؤمنين خالصة][(٤)] يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

(١) في ب: شر ومعصية.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: خالصة للمؤمنين.

﴿يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أخبر أنه يمتعهم ثم يصيبهم عذاب أليم، ويمتع المؤمن أيضًا في هذه الدنيا بأنواع المنافع، ثم أخبر أن العاقبة للمتقين ثم جعل العاقبة للمتقين بإزاء ما جعل لهم عذابا أليما أعني الكفرة، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: ولم يكن مع نوح أمم يومئذ، إنما كانوا معه نفرًا، لكنه أراد - والله أعلم - الأمم التي كانوا من بعده كأنه قال: وعلى أمم يكونون من بعدك، فهذا[1] يدل أن دين الأنبياء والرسل جميعًا دين واحد، وإن اختلفت شرائعهم؛ لأن تلك الأمم لم يكونوا بأنفسهم مع نوح، ولا كانوا معه في العبادات التي كان فيها نوح؛ دل أنهم كانوا جميعًا على دينه وهو واحد، وعلى ذلك يخرج دعاؤه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ . . .﴾ الآية [نوح: ٢٨]، دعاء بالمغفرة له لكل مؤمن ومؤمنة يكون من بعده؛ وكذلك يحق على كل كافر دعاؤه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

وقوله - عز وجل-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾: يحتمل قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح من أنباء الغيب غابت عنك لم تشهدها، ولم تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، إن كان المراد من قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ قصة نوح خاصة وأنباؤه، كان يجيء أن يقول: هذه من أنباء الغيب نوحيها إليك، لكنه كأنه على الإضمار، أي: هذه الأنباء تلك الأنباء التي ذكرت في كتبهم، وإن كان المراد هذه وغيرها من الأنباء يصير كأنه قال: هذه من تلك الأنباء. ويحتمل قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ القصص كلها قصة نوح وغيره من الأنبياء من أنباء الغيب، غابت عنك لم تشهدها ولا تعلمها أنت ولا قومك، خص قومه لأن غيره من الأقوام قد كانوا عرفوا تلك الأنباء فيخبرونهم فيعرفون به صدق رسول الله ﷺ.

وفيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لأنه أخبرهم على ما أخبر أولئك الذين عرفوا تلك الأنباء بكتبهم؛ ليعلم أنه إنما عرف ذلك [بالله تعالى إذ تلك][2] الأنباء كانت بغير لسانه، ولم يعرف أنه اختلف إلى أحد[3] منهم؛ دل أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يحتمل قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم إياك، وعلى أذاهم أو اصبر على ما أمرت ونهيت، واصبر على ما صبر إخوانك من قبل؛ كقوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ونحوه.

---

(١) في أ: فهو.
(٢) في أ: بالله أن تلك.
(٣) في أ: لأحد.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يشبه أن يكون قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الشرك وأمكن الذين اتقوا الشرك والمعاصي كلها، والأشبه أن يكون المراد منه اتقاء الشرك؛ لأنه ذكر بإزاء قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو في العقد أشبه.

وقال بعض أهل التأويل في قوله: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ من السفينة بسلام منا، فسلمه الله ومن معه من المؤمنين من الغرق، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يعني بالبركة أنهم توالدوا وكثروا بعدما خرجوا من السفينة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ممن سبق له في علم الله البركات والسعادة من النبيين وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: هذا والله أعلم صلة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فيقول: ولقد أرسلنا هودًا إلى عاد أخاهم.

ثم يحتمل قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ الأخوة تكون على وجوه: أخوة جنس يقال: هذا أخو هذا نحو مصراعي الباب، يقال لأحدهما: هذا أخو هذا ونحو أحد زوجي الخف وأمثاله. وأخوة النسب. وأخوة الدين؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فهو لم يكن أخا لهم في الدين، فهو يحتمل أنه أخوهم في الجنس وفي النسب؛ لأن الناس كلهم ينسبون إلى آدم فيقال: بنو آدم مع بعد ما بينه وبينهم؛ فعلى ذلك يكون بعضهم لبعض

إخوة مع بعد النسب الذي بينهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾: يُعبَد أي: الذين تعبدون ليسوا بآلهة يستحقون العبادة [إنما الإله الذي يستحق العبادة][١] الله الذي خلقكم وخلق لكم الأشياء[٢].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا مفترون، لا يحتمل أن يكون هو قال لهم هذا في أول ما دعاهم إلى التوحيد، وفي أول ما ردوا إجابته وكذبوه؛ لأنهم أمروا بلين القول لهم وتذكير النعمة عليهم؛ كقوله لموسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ الآية [طه: ٤٤]، ولكن كأنه قال لهم ذلك بعد ما سبق منه إليهم دعاء غير مرة، وأقام عليهم الحجة والبراهين فردوها، فعند ذلك قال لهم هذا حيث قالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ ...﴾ الآية [هود: ٥٣].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾: يحتمل في تسميتهم الأصنام التي عبدوها آلهة، يقول: [إن][٣] أنتم إلا مفترون في ذلك.

ويحتمل أنه سماهم مفترين فيما قالوا الله أمرهم بذلك، يقول: أنتم مفترون فيما ادعيتم الأمر بذلك، أو مفترون في إنكارهم البعث والرسالة[٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾: هذا قد ذكر[٥] في غير موضع يقون لهم - والله أعلم-: إني لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا يمنعكم ثقل ذلك الأجر وغرمه عن الإجابة، فما الذي يمنعكم عن الإجابة لي ويحملكم على الرد [بل أدعوكم إلى][٦] ما ترغبون فيه، فكيف يمنعكم عن الإجابة والنظر فيما أدعوكم إليه؟!

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أني رسول إليكم بآيات وحجج جئت بها، أو: أفلا تعقلون أنها آيات وحجج ونحوه، أو يقول: أفلا تعقلون أن الله واحد وأنه رب كل شيء وخالق كل شيء ومنشئه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: يحتمل أن يكون قوله

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: أشياء.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: أو الرسالة.
(٥) في ب: ذكرنا.
(٦) في ب: بل أدعوكم على ما أدعوكم إليه.

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه واحدا.

ويحتمل على التقديم والتأخير توبوا إليه ثم استغفروا ما كان منكم من المساوي، أي: أقبلوا إلى طاعة الله واندموا على أفعالكم.

وقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: معلوم أن هودا لم يرد بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ أن يقولوا: نستغفر الله، ولكن أمرهم أن يطلبوا السبب الذي به تجب لهم المغفرة وتحق وهو التوحيد، كأنه قال: وحدوا ربكم فآمنوا به ثم توبوا إليه، أو يقول: اطلبوا المغفرة بالانتهاء عن الكفر؛ كقوله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقوله - عز وجل-: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾: قال بعض أهل التأويل: إنه قد كان انقطع عنهم المطر وانقطع نسلهم[(١)]، فأخبر أنكم إن تبتم إلى الله، واستغفرتم ربكم ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ...﴾ الآية حتى تناسلوا وتتوالدوا.

ويحتمل قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ أي: يزدكم قوة أفعالكم إلى قوة أبدانكم؛ لأنهم كانوا أهل قوة وأهل بطش بقولهم قالوا: من أشد منا قوة.

ويحتمل على الابتداء: يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة إلى قوتكم.

فقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ عما أدعوكم فيه؛ فتكونوا ﴿مُجْرِمِينَ﴾ ولا تتولوا عما أدعوكم فيه؛ فتكونوا مجرمين. المجرم قال أبو بكر: هو الوثاب في الإثم، وقيل: هو المكتسب.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: على ما تدعونا إليه، أو على ما تدعي من الرسالة، فعند ذلك قال [لهم هود][(٢)]: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ما نحن بتاركي عبادة آلهتنا عن قولك، أي: بقولك، كان لا يدعوهم هود إلى ترك عبادة آلهتهم بقوله خاصة، ولكن قد دعاهم وأقام على فساد ذلك الحجج والبراهين، لكنهم قالوا متعنتين مكابرين: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فيما تدعونا إليه، وتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ قيل: [هو كان][(٣)] يسب آلهتهم ويذكرهم بالعيب فيقولون: إن يعترك من بعض آلهتنا سوء أو يصيبوك بجنون وخبل، فلا عجب[(٤)] أن يصيبك منها فاجتنبها سالما، فذلك يخرج منهم مخرج الامتنان،

---

(١) ذكره البغوي بمعناه (٢/ ٣٨٨)، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ٢٣٣).
(٢) في ب: هود لهم.
(٣) في ب: كان هو.
(٤) في أ: فلا يجب.

أي: إنا إنما ننهاك عن سب آلهتنا وذكر العيب فيها إشفاقًا عليك لئلا يصيبك [شيء منها][(١)].

وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: قالوا: «شتمت آلهتنا فخبلتك وأصابتك بالجنون»[(٢)]، فتأويله - والله أعلم - أنك إنما تدعونا إلى ما تدعونا إليه وتدعي ما تدعي لما أصابتك آلهتنا بسوء واعترتك بجنون، كانوا يخوفونه أن تصيبه آلهتهم بسوء بتركه عبادتها، على ما كانوا يرجون ويطمعون بعبادتهم إياها شفاعتها لهم؛ قال: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ به وتعبدونه من الآلهة، واشهدوا أنتم أيضًا بأني بريء من ذلك، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾: أنتم وآلهتكم فيما تدعونني من الهلاك أو السوء، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ثم لا تمهلون في ذلك.

ويحتمل قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ [أنتم وآلهتكم][(٣)]؛ يقول: اعملوا أنتم وآلهتكم جميعًا التي تزعمون أنها خبلتني وأجنتني، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾. أي: لا تمهلون، وهذا من أشد آيات النبوة؛ لأنه يقول لهم وهو بين أظهرهم وحيدًا، فلولا أنه يقول ذلك لهم بقوة من الله والاعتماد له عليه والانتصار به، وإلا ما اجترأ أحد أن يقول مثل هذا بين أعدائه علم أنه قال ذلك بالله تعالى؛ وكذلك قول رسول الله ﷺ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٩٥]، وقول نوح: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ . . .﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقول شعيب: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ . . .﴾ الآية [هود: ٩٣] وأمثاله، قالوا ذلك بين أظهر الاعداء ولم يكن معهم أنصار ولا أعوان؛ دل أنهم إنما قالوا ذلك بالله وذلك من آيات النبوة.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوضت أمري [إلى الله][(٤)]، أو وكلت في جميع عملي إليه، أو وثقت به واعتمدت عليه فيما توعدونني من الهلاك، أو توكلت عليه في دفع ما أوعدتموني ربي وربكم، أي: كيف توعدونني بآلهتكم التي تعبدون، ولا تخافون الذي تعلمون أنه هو ربي وربكم؟! وهو كما قال إبراهيم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٨١].

وقوله - عز وجل-: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾: يميتها متى شاء.

---

(١) في ب: منها شيء.
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٥٩) (١٨٢٨٦)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٠) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: إليه.

وقوله: ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: في ملكه وسلطانه، يقال: فلان آخذ بحلقوم فلان، وفلان في قبضة فلان ليس أنه في قبضته بنفسه أو آخذ بحلقوم فلان، ولكن يراد أنه في سلطانه وفي ملكه[(١)] وفي قبضته.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على الذي أمرني ربي ودعاني إليه، أو يكون قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: أن الذي أمرني ربي ودعاني إليه هو صراط مستقيم؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقال أبو عوسجة: الاعتراء هو الأخذ، يقال: اعترته الحمى أي أخذته.

وقال القتبي[(٢)]: الاعتراء [هو][(٣)] الإصابة، بقول: إلا اعتراك: أصابك، يقال: اعتريت: أصبت، وهو ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾: يحتمل على الإضمار أي: فإن تولوا عن إجابتك وطاعتك فقل قد أبلغتكم [رسالات ربى][(٤)]؛ لأن قوله: ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ إنما هو خبر.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَبْلَغْتُكُم﴾: خطاب، وأمكن أن يكونا جميعًا على الخطاب، يقول: فإن توليتم عن إجابتي فيما أدعوكم إليه، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم وليس على إلا تبليغ الرسالة إليكم؛ كقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]؛ وكقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النحل: ٨٢]، يقول: إنما على إبلاغ الرسالة[(٥)] إليكم، ليس على جرم توليكم عن إجابتي؛ كقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونحوه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [فيه وجهان: أحدهما: يخبر عن هلاكهم؛ لأنه أخبر أنه يستخلف قومًا غيرهم؛ لأنه ما لم يهلك هؤلاء لا يكون غيرهم خلفهم][(٦)]: لأنهم كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، يقول - والله أعلم-: إن قوة أبدانكم وبطشكم لا تعجز الله عن إهلاككم، وفيه أن عادًا ليسوا هم النهاية في العالم، بل يكون بعدهم قوم غيرهم، والله أعلم.

---

(١) في ب: وملكه.
(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٢٠٤).
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: رسالاتي.
(٥) في ب: رسالته.
(٦) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تضرونه بتوليكم عن إجابتي وردكم رسالة الله إليكم، ليس كملوك الأرض إذا تولى عنهم خدمهم وحشمهم ضرهم ذلك.

والثاني: لا تضرونه كما يضر ملوك الأرض بالقتال والحرب بعضهم بعضا.

والثالث: لا تضرونه لأنه لا منفعة له فيما يدعوكم حتى يضره ضد ذلك؛ إذ ليس يدعوكم إلى ما يدعو لحاجة نفسه ولا لمنفعة له، إنما يأمركم ويدعوكم لحاجة أنفسكم والمنفعة لكم.

ويحتمل أن يكون لا تضرونه شيئًا جواب قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا . . .﴾ الآية.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [لا يخفى عليه شيء وإن لطف، فكيف يخفى عليه أعمالكم وأموالكم مع ظهورها وبدوها. أو يقول: إن ربي على كل شيء حفيظ][(١)]: فيجزيه عليه، ولا يذهب عنه شيء، أي: لا يفوته، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾.

قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أمر تكوين لا أمر يقتضي الساعة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فعلى ذلك هذا هو أمر تكوين وقد ذكرناه.

وقوله - عز وجل-: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: هذا يدل أن من نجا إنما نجا برحمة منه لا بعمله؛ وعلى ذلك روي في الخبر عن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[(٢)]، لا على ما يقوله المعتزلة: إن من نجا إنما ينجو بعمله لا برحمته.

ثم يحتمل قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وجوهًا؛ تحتمل الرحمة هاهنا هودا، أي: رحمهم به حيث بعث إليهم رسولا فنجا من اتبعه، فإن كان هذا ففيه أن أهل الفترة معاقبون في حال فترتهم؛ لأنه أخبر أن من نجا إنما نجا بهود، فدل أنهم معاقبون قبل بعث الرسل إليهم.

ويحتمل قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بتوفيق منا إياهم نجا من نجا منهم.

والثالث: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [قال بعضهم: نجيناهم من العذاب الذي أهلك هؤلاء. ويحتمل أن يكون على الوعد أي: ينجيهم في الآخرة من عذاب غليظ][(٣)].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟﴾ أي: وتلك أهل قرية عاد جحدوا بآيات ربهم

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) تقدم.

(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وعصوا رسلهم، الكفر بالآيات كفر بجميع الرسل، والكفر بواحد من الرسل كفر بالرسل جميعًا وبالله؛ لأن كل واحد من الرسل يدعو إلى الإيمان بالله وبجميع الرسل، فالإيمان بواحد منهم إيمان بالله وبجميع الرسل والآيات، والكفر بواحد منها[1] كفر بالله وبجميع الرسل، وإنما كان الكفر بالآيات كفرا بالله؛ لأن الله إنما يعرف من جهة الآيات والكفر بالآيات كفر به.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قيل: أخبر أنهم اتبعوا أمر الجبابرة وأطاعوهم، وتركوا اتباع الرسل وطاعتهم. قيل: الجبار هو المتجبر الذي يتجبر على الرسل ويتكبر عليهم؛ لأن الرؤساء منهم كانوا يتجبرون على الرسل ويتكبرون، ثم الأتباع اتبعوا الرؤساء في عملهم.

قال أبو عوسجة: الجبار هو المتجبر، والعنيد هو المعاند المخالف.

وقال القتبي[2]: العنود والعنيد والمعاند المعارض لك بالخلاف عليك.

وقال أبو عبيدة[3]: العنيد والعنود والمعاند هو الجائر[4].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قال بعضهم: اللعن هو العذاب، أي: أتبعوا في الدنيا وفي الآخرة بالعذاب؛ كقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] أي: عذاب الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ أي: ألحقوا، وقيل: إن اللعن هو الطرد[5]، طردوا عن رحمة الله حتى لا ينالوها لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا أن عادًا كفروا ربهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، أي: ألا بعدًا لهم من رحمة الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

---

(١) في ب: من هذا.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٠٥).

(٣) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٢٩٠).

(٤) انظر تفسير البغوي (٢/ ٣٨٩)، وكذا الرازي (١٨/ ١٣، ١٤).

(٥) تقدم.

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: هو ما ذكرنا، أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا.

وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾: قد ذكرنا أيضًا أن الأخوة تتجه إلى وجوه ثلاثة: أخوة في الدين، وأخوة في الجنس، وأخوة في النسب [فهو لا يحتمل أن يكون أخاهم في الدين، لكنه يحتمل أن يكون أخاهم من الوجهين الآخرين في الجنس والنسب][١].

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: إن الرسل صلوات الله عليهم جميعًا أول ما دعوا قومهم إنما دعوا إلى توحيد الله وجعل العبادة له؛ لأن غيره من العبادات إنما يقوم بالتوحيد، فكان أول ما دعاهم قومهم إليه لم يزل عادة الرسل وعملهم[٢] الدعاء إلى توحيد الله والعبادة له.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: وقال بعض أهل التأويل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يقول: هو خلقكم من آدم وخلق آدم من الأرض[٣]، لكنه أضاف خلق الخلائق إليها[٤]؛ كما أضاف في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩]، أخبر أنه خلقنا من نفسه، أي: آدم، وإن لم تكن أنفسنا منه[٥]؛ فعلى ذلك إضافته إيانا بالخلق من الأرض، وإن لم يخلق أنفسنا منها، أي: خلق أصلنا وأنشأه من الأرض، فأضاف إنشاءنا إلى ما أنشأ أصلنا.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعل نشأة الخلائق كلهم ونماءهم

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في أ: وعلمهم.

(٣) ذكره ابن جرير (٧/ ٦٢)، والبغوي (٢/ ٣٩٠)، والسيوطي بمعناه في الدر (٣/ ٦١١) وعزاه لأبي الشيخ عن السدي.

(٤) قال ابن الخطيب: (وفيه وجه آخر وهو أقرب منه؛ وذلك لأن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني إنما تولد من الدم؛ فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما تولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانات حالها كحال الإنسان؛ فوجب انتهاء الكل إلى النبات، والنبات إنما تولد من الأرض؛ فثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض).
ينظر اللباب (١٠/ ٥١٢).

(٥) في أ: فيه.

وحياتهم ومعاشهم بالخارج من الأرض؛ إذ به نشوءهم ونماؤهم وحياتهم وقوامهم منها.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾: قال بعضهم: [أسكنكم فيها[١]، وقال بعضهم: استخلفكم فيها[٢]. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾][٣] أي: جعلكم عمار الأرض تعمرونها لمعادكم ومعاشكم، جعل عمارة هذه الأرض إلى الخلق هم الذين يقومون بعمارتها وبنائها وأنواع الانتفاع بها، ويرجع كله إلى واحد. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ أي: جعل عمركم طويلا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: هذا قد ذكرنا فيما تقدم في قصة نوح، أي: كونوا بحال يغفر لكم؛ وهو كقوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] كأنه قال: فإن انتهوا عن الكفر يغفر لهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾: لحفظ الخلائق أو قريب لمن أنعم عليهم وأمثاله، أو قريب إلى كل من يفزع إليه، مجيب لدعاء كل داع استجاب له؛ كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . . .﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]؛ وكقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ . . .﴾ الآية [البقرة: ٤٠].

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: قال بعضهم: قولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ كنت ترحم الضعفاء وتعود المرضى[٤] ونحو ذلك من الكلام، فالساعة صرت على خلاف ذلك.

وقال بعضهم: ﴿كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا قبل هذا الذي تدعونا إليه[٥]، فالساعة صرت تشتم آلهتنا وتذكرها بعيب، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، أي: ما كنا نعرف أن آباءنا عندك سفهاء من قبل هذا، فالساعة تسفه أحلامهم في عبادتهم الأصنام.

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [قالوا هذا؛ احتجاجًا لهم عليه فيما دعاهم إلى توحيد الله وعبادتهم إياه، فقالوا: إنا على يقين أن آباءنا قد عبدوا هذه الآلهة من غير شك فما تدعونا إليه مريب][٦] أي: يريبنا أمرك ودعاؤك لنا إلى هذا الدين.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٩٠) ونسبه لقتادة.
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١١) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.
(٣) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٤) ذكره الرازي في تفسيره (١٨/ ٤٥).
(٥) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٩٠)، وابن عادل في اللباب (١٠/ ٥١٣).
(٦) ما بين المعقوفين سقط في أ.

قد قيل هذا، ولكنا لا نعلم ما كانوا يرجون فيه، وأما المعنى الذي قالوا له قد كنت فينا مرجوا سوى أنا نعلم أنه كان مرجوا فيهم بالعقل والدين والعلم والبصيرة[١] ونحوه، فكان مرجوا فيهم بالأشياء التي ذكرنا. هذا نعلمه ولا نعلم ما عنى أولئك بقولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: إن كنت على حجة وبرهان وبيان من ربي فيما أدعوكم إلى توحيد الله وصرف العبادة إليه.

والثاني: قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: قد كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة يحتمل قوله: رحمة أي: آتاني هدى ونبوة من عنده.

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من يمنعني من عذاب الله إن عصيته ورجعت إلى دينكم، أي: لا أحد ينصرني إن أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه، أي: لا أحد ينصرني دون الله لو أجبتكم وأطعتكم فيما دعوتموني إليه.

ثم الذي دعوه إليه يحتمل ترك تبليغ الرسالة إليهم، أو دعوه إلى عبادة الأصنام التي عبدوها.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: قيل فيه بوجوه:

قيل: فما تزيدونني بمجادلتكم إياي فيما تجادلونني إلا خسرانًا.

وقال بعضهم: فما تزدادون بمعصيتكم إياي إلا خسرانًا لأنفسكم.

وقال القتبي[٢]: غير تخسير، أي: غير نقصان.

وقال أبو عوسجة: غير تخسير هو من الخسران، يقال: خسرته أي: ألزمته الخسران.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾: قال لهم هذا حين سألوا منه الآية، فقال: هذه ناقة الله لكم آية على صدق صالح فيما ادعى من الرسالة، أو هذه ناقة الله لكم [فذروها تأكل في أرض الله، قال لهم هذا حين سألوا منه الآية، فقال: هذه ناقة الله لكم آية][٣]، أي: لكم آية التي سألتموها من الرسالة.

وقوله - عز وجل-: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾: أضاف إليه لخصوصية كانت فيها نحن لا نعرف ذلك، ليست تلك الخصوصية في غيرها من النوق؛ لما[٤] جعلها آية لرسالته ونبوته

(١) في أ: والصبر.
(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٢٠٥).
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: مما.

خارجة عما عاينوا من النوق وشاهدوها، وهكذا كانت آيات الرسل كانت خارجة عن وسع البشر وطوقهم؛ ليعلم أنها سماوية.

ثم لا نعرف أية خصوصية كانت لها عظم جسمها وغلظ بدنها، حيث قسم الشرب بينهم وبينها حتى جعل يوما لها ويومًا لهم بقوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ولم يقسم مراعيها بينها وبينهم بقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، وأما ما قاله بعض الناس: إنها خرجت من صخرة كذا، وأنها كانت تحلب كل يوم كذا وأشياء أخر ذكروها، فإنا لا نعرف ذلك ولا نقطع القول فيه أنه كان كذلك، سوى أنا نعرف أن لها كانت خصوصية ليست تلك الخصوصية لغيرها من النوق، ولو كانت لنا إلى تلك الخصوصية حاجة لبينتها لنا[1]، وأصله ما ذكرنا أنه إذا أضيف جزئية الأشياء إلى الله تعالى فهو على تعظيم تلك الجزئيات المضافة إليه، وإذا أضيف إليه كلية الأشياء فهو على إرادة التعظيم لله والتبجيل له؛ نحو قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٤٠] ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١] ونحوه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهاهم أن يمسوها بسوء، ولم يبين ما ذلك السوء، فيحتمل أن يكون ذلك شيء عرفوا هم ونهاهم عن ذلك. وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تعقروها فيأخذكم عذاب قريب[2]، لما كان ذلك على أثر عقرهم الناقة بثلاثة أيام حيث قال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، وما ذكر أيضًا أن وجوههم اصفرت في اليوم الأول، ثم احمرت في اليوم الثاني، ثم اسودت في اليوم الثالث، ثم نزل بهم العذاب في اليوم الرابع، فذلك أيضًا مما لا نعرفه.

وقوله - عز وجل-: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ قيل: سريعًا لا تمهلون حتى تعذبوا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ﴾ من الله ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: ليس فيه كذب، وكان عذابهم إنما نزل على أثر سؤال الآية، سألوا ذلك فلما أن جاءهم بها كذبوها، فنزل بهم العذاب، وهكذا السنة في الأمم السالفة أنهم إذا سألوا الآية فجاءتهم فلم يؤمنوا بها نزل بهم العذاب، وهو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ...﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، والله أعلم.

---

(١) في أ: لها.
(٢) ذكره ابن جرير (٧/ ٦٣)، والبغوي (٢/ ٣٩١).

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي: جاء ما أمر به كما يقال: جاء وعد ربنا، أي: جاء موعود ربنا؛ لأن وعده وأمره لا يجيء، ولكن جاء ما أمر به ووعد[١] به وهو العذاب، أو نقول: جاء أي أتى وقت وقوع ما أمر به ووعد، وهو العذاب الذي وعد وأمر به، والله أعلم.

﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾: بنعمة منا أو بفضل[٢] منا، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ قيل: الخزي هو العذاب الذي يفضحهم، وقيل: كل عذاب فهو خزي، أي: نجاهم من خزي ذلك اليوم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ قيل: القوي: هو الذي لا يعجزه شيء، والعزيز هو الذي يذل من دونه، وقيل: القوي هو المنتقم المنتصر لأوليائه من أعدائه، والعزيز: هو المنيع في ملكه وسلطانه الذي لا يعجزه شيء.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾: قيل: عذابهم كان صيحة صاح بهم جبريل، وقيل: الصيحة الصاعقة وكل عذاب فهو صيحة، لكن لا ندري كيف كان، أو أن يكون عذابهم[٣] قدر صيحة لسرعة وقوعه بهم، أو يسمى ذلك العذاب صيحة لما رأوه ما يصيحون فيما بينهم أو ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾: قال هاهنا: ديارهم، وقال في سورة الأعراف: دارهم، والقصة واحدة. قال بعضهم: دارهم قراهم، وديارهم منازلهم، ولكن هو واحد أصبحوا جاثمين في دارهم ومنازلهم سواءٌ.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قيل: خامدين موتى وأصل قوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: منكبين على وجوههم، يقال: جثم الطائر إذا انكب على وجهه مخافة الصيد، وقد ذكرناه فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ قيل: كأن لم يعيشوا فيها[٤]، وقيل: كأن لم يسكنوا فيها، وقيل: كأن لم يعمروا فيها، وأصله أنهم صاروا كأن لم يكونوا فيها لما لا يذكرون بعد هلاكهم، فصاروا من حيث لا يذكرون كأن لم يكونوا، وأما الأخيار والأبرار فإنهم وإن ماتت أبدانهم وصارت كأن لم تكن ففي الذكر كأنهم أحياء حيث يذكرون بعد موتهم.

---

(١) في أ: وما وعد.
(٢) في ب: وبفضل.
(٣) في ب: عقابهم.
(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦٧) (١٩٣٠٩) عن ابن عباس، (١٨٣١٠) عن قتادة.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ قيل: كفروا نعمة ربهم، أو كفروا بآيات ربهم، فذلك كله كفر بالله.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [أي: ألا بعدًا لثمود][1] من رحمة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: اختلفوا في هذه البشارة؛ قال بعضهم: جاءوا هم ببشارة إسحاق والحافد. وهو قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ . وقال بعضهم: جاءوا ببشارة إهلاك قوم لوط وإنجاء لوط وأهله، قيل: لأن لوطا كان ابن أخي إبراهيم، وكان لوط فزع إلى الله بسوء عمل قومه وصنيعهم ودعا بالنجاة منهم، وهو قوله: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ . . .﴾ الآية [الاشعراء: ١٦٨] حتى ذكر في بعض القصة أن سارة قالت لإبراهيم: ضم ابن أخيك إلى نفسك فإن قومه يعذبون، كأنها عرفت أنه لا يتركهم على ما هم عليه بسوء عملهم. قالوا: جاءوا بالبشارتين جميعًا: ببشارة الولد والحافد، وبشارة هلاك قوم لوط ونجاة لوط وأهله؛ إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾: هذا يدل أن السلام هو سنة الأنبياء والرسل والملائكة في الدنيا والآخرة، ولم تخص هذه الأمة به بل كان سنة الرسل الماضية والأمم السالفة وكذلك هو تحية أهل الجنة لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ونحوه، هذا يدل على ما ذكرنا.

ثم انتصاب قوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ وارتفاع الثاني؛ لأن الأول انتصب لوقوع القول عليه كقولك: قال قولا، والثاني حكاية لقولهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

---

(١) سقط في أ.

وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ أي: ما لبث عندهم حتى اشتغل بتقديم شيء إليهم، وإلا قد يكون في ذبح العجل وشويه لبث إلا أن يكون العجل مشويًّا، فإن لم يكن مشويًّا فتأويله ما ذكرنا أن لم يلبث عندهم في المؤانسة والحديث معهم على ما يفعل مع الأضياف حتى جاء بما ذكر، وفيه ما ذكرنا من الأدب، وفيه دلالة فيمن نزل به ضيف ألا يشتغل بالسؤال عن أحوال ضيفه من أين وإلى أين؟ وما حاجتهم؟ ولكن يشتغل بقراهم وإزاحة حاجتهم؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - إنما اشتغل بقراهم، لم يشتغل بالسؤال عن أحوالهم، ولكن اشتغل بما ذكرنا فجاء بعجل حنيذ، وهذا هو الأدب في الضيف[1]، ألا ترى أنه لو كان سأل عن أحوالهم، فعرف أنهم من الملائكة لكان لا يشتغل بما ذكر؛ إذ عرف أنهم من الملائكة والملائكة لا يتناولون شيئًا من الطعام.

وقوله: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، قال بعضهم: الحنيذ: السمين[2]، وهو ما ذكر في موضع آخر: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

وقال بعضهم: الحنيذ هو المشوي الذي خد في الأرض خدًّا، فحمي فشوي بالحجر المحمي[3].

وقال بعضهم: الحنيذ هو المشوي الذي يسيل منه الماء[4].

وقال ابن عباس[5]: الحنيذ: النضيج[6].

---

(١) في أ: بالضيف.
وفي هذه القصة دليل على تعجيل قِرَى الضيف، وعلى تقديم ما يتيسر من الموجود في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكلف ما يضر به، والضيافة من مكارم الأخلاق، وإبراهيم أول من أضاف، وليست الضيافة بواجبة عند عامة أهل العلم؛ قال عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».
وإكرام الجار ليس بواجب؛ فكذلك الضيف، وفي الضيافة الواجبة يقول - عليه الصلاة والسلام-: «ليلة الضيف حق».
وقال ابن العربي: وقد قال قوم: إن الضيافة كانت واجبة في صدر الإسلام، ثم نسخت.
ينظر: اللباب (١٠/ ٥٢٣).
(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٩٢)، وأبو حيان (٥/ ٢٤٢) ونسبه للسدي.
(٣) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٦٨-٦٩) (١٨٣١٣) عن مجاهد، (١٨٣٢١) عن الضحاك.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٢) وعزاه للطستي عن ابن عباس، ولابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الضحاك.
(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦٨، ٦٩) (١٨٣١٦، ١٨٣١٨، ١٨٣١٩) عن شمر بن عطية. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٢) وعزاه لأبي الشيخ عن شمر بن عطية.
(٥) زاد في أ: هو نضيج.
(٦) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦٨) (١٨٣١١)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٢) وزاد نسبته لابن المنذر عن ابن عباس.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾.

قال بعضهم: نكرهم وأنكرهم واستنكرهم: واحد[1]، وهو من الإنكار، أي: لم يعرفهم؛ ظن أنهم لصوص؛ لأن اللصوص من عادتهم أنهم كانوا إذا أرادوا السرقة من قوم لم يتناولوا من طعامهم، ولم يأكلوا شيئًا عندهم.

وقيل: نكرهم أنهم من البشر.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

قيل[2]: أضمر منهم خوفًا[3]، قال بعضهم: خاف لما ظن أنهم سراق ولصوص؛ حيث لم يتناولوا شيئًا مما قدم إليهم.

وقال بعضهم: خيفة، أي: وحشة: أي: أضمر وحشة، حيث لم يتناولوا شيئًا مما قرب إليهم؛ فحينئذ علم أنهم ليسوا من البشر؛ لأن منزل إبراهيم كان ينأى من البلد، ولم ينزل أحد من البشر إلا وقد احتاج إلى الطعام، فلما لم يتناولوا علم أنهم ليسوا من البشر، فما جاءوا إلا لأمر عظيم: لتعذيب قوم وهلاكهم؛ فخاف لذلك؛ فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ...﴾ الآية [الذاريات: ٣٢، ٣٣]. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾][4].

وقال في موضع آخر: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يذكر هاهنا أن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ على أثر سؤال، وفيما نحن فيه لا كذلك؛ فالمعنى فيه - والله أعلم - أن ذلك كان على أثر سؤال إبراهيم بقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، لكنه جمع ذلك فيما نحن فيه بالحكاية عن قولهم، وإن كان مفصولا عنه، وخرجت الحكاية في موضع آخر على ما كان في الحقيقة، وذلك مستقيم في كلام العرب، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

قال بعضهم: قائمة على رءوس الأضياف؛ لأنها كانت عجوز، ولا بأس لعجوز ذلك؛ ألا ترى إلى قول الله - تعالى - ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ الآية [النور: ٦٠].

---

(١) ذكره ابن جرير (٧/ ٧٠)، والبغوي (٢/ ٣٩٢)، وأبو حيان (٥/ ٢٤٢).

(٢) ذكره ابن جرير (٧/ ٧٠)، والبغوي (٢/ ٣٩٢).

(٣) في أ: خيفة.

(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وقال بعضهم: ﴿قَآيِمَةٌ﴾ من وراء الباب، لكن لسنا ندري أي ذلك كان؟
وقوله - عز وجل-: ﴿فَضَحِكَتْ﴾.

قال بعضهم: ضحكت، تعجبًا من خوف إبراهيم أنهم لصوص، وهم كانوا ثلاثة أو أربعة، دون عشرة، وكان خدم إبراهيم - عليه السلام - يبلغ عددهم ثلاثمائة[١]، على ما ذكر في القصة ضحكت تعجبًا؛ إذ[٢] كيف يخاف من نفر عددهم دون عشرة، وعنده من الخدم ما يبلغ عددهم ما ذكرنا.

وقال بعضهم: ضحكت؛ تعجبًا ممّا بشروها بالولد، وقد بلغ سنها ما بلغ من الكبر وهو كذلك[٣]، وقالت: أحق أن ألد وقد بلغت[٤] من السن كذا.

وقال بعضهم: ضحكت أي: حاضت[٥]، من قولهم: ضحكت الأرنب إذا حاضت، وهو قول ابن عباس وعكرمة[٦]. وقال الفراء: ﴿ضحكت﴾: حاضت غيرُ مسموع ولا معروف فعلى تأويل من قال: إنها ضحكت تعجبًا مما بشرت بالولد فهو على التقديم والتأخير، كأنه قال فبشرناها بإسحاق ومن وراء أسحاق يعقوب فضحكت.

وقال بعضهم: ضحكت سرورًا بالأمن منهم؛ لأنهما خافا منهم.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

ظاهر هذا أنها بشرت بإسحاق، ومن وراء أولاد إسحاق أولاد[٧] يعقوب، ولكن لم يكن يعقوب ولد من إبراهيم؛ إنما ولد من إسحاق، وهو: حافد إبراهيم أبي[٨] إسحاق فتأويله من وراء إسحاق حافد؛ فإنما البشارة بالولد وبالحافد، وهو كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال في هذه السورة: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآيِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ﴾ [الذاريات: ٢٩].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٧٣) وعزاه لإسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وكذا البغوي (٢/ ٣٩٣) ونسبه لمقاتل والكلبي.
(٢) في ب: أنه.
(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٧١) (١٨٣٣٣) عن وهب بن منبه، وذكره بمعناه السيوطي في الدر (٣/ ٦١٥) وعزاه لابن جرير عن السدي.
(٤) في أ: كبرت.
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٧٢) (١٨٣٣٤) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس، ولأبي الشيخ عن عكرمة.
(٦) تقدم.
(٧) في أ: بولد.
(٨) في أ: ابن.

فإن كان على ما قالوا إنها كانت قائمة وراء الباب؛ فيكون إقبالها خروجها إلى القوم، وإن كان قيامها على رءوسهم؛ فيكون معنى الإقبال هو الإقبال في ضرب وجهها وصكها، لكن ذلك من القدوم، لكنه على الإقبال بفعل ما أخبر عنها من صك وجهها، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [وقال في موضع آخر: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩]؛ وقال هاهنا: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾][١] إن هذا لشيء عجيب.

هي لم تتعجب [من][٢] قدرة الله أنه قادر على أن يهب الولد في كل وقت؛ ولكنها تعجبت لما رأت العادة في النساء والرجال أنهم إذا بلغوا المبلغ الذي كانوا هم لم يلدوا؛ فتعجبها أنها تلد في الحال التي هي عليها، أو يردان إلى حال الشباب؛ فعند ذلك يولد لهما، وكلاهما عجيب بحيث الخروج على خلاف العادة، لا بحيث قدرة الرب، وهو كما ذكرنا من قول زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وفي موضع آخر: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وقوله: أنى يكون لي غلام في الحال التي أنا عليها أو يرد لي شبابي، فعلى ذلك قولها ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال أهل التأويل: أتعجبين من قدرة الله هذا؟ [...][٣] لكنه يحتمل وجهين:

أحدهما أي: لا تعجبي من أمر الله هذا وكثيرا مما رأيت أمثال ذلك في أهل بيتك.

والثاني [...][٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

يشبه أن يكون هذا صلة قوله: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾؛ لأنه معلوم أنهم لم يقولوا سلامًا حسب، لم يزيدوا على هذا؛ بل زادوا؛ فكأنهم قالوا: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو قالوا: سلام الله ورحمته وبركاته عليكم.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

بالنصب؛ كأنه قال يا أهل البيت، كقوله - عليه السلام - حيث قال: «تركت بعدي

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: بياض بمقدار نصف سطر.
(٤) بياض في ب.

الثقلين: كتاب الله وعترتي: أهل بيتي»، أي: يا أهل بيتي[١].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

يحتمل حميد الذي يقبل اليسير من المعروف ويعطي الجزيل كالشكور، والمجيد: من المجد والشرف.

وقيل: الحميد: المحمود، والمجيد: الماجد وهو الكريم[٢]، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾.

قيل: الروع هو الفرق والفزع الذي دخل فيه بمجيء الملائكة.

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

في الولد والحافد، وفي نجاة لوط وأهله، وهو ما ذكرنا في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩].

وقوله - عز وجل-: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

قال بعض أهل التأويل: مجادلته إياهم في قوم لوط ما ذكر في القصّة أنه قال لهم: أرأيتم إن كان فيهم من المؤمنين كذا تعذبونهم؟ قالوا: لا ونحوه من الكلام فإن ثبت هذا، وإلا لا نعلم ما مجادلته إياهم [وأمكن أن تكون مجادلته إياهم][٣] في دفع العذاب عنهم أو تأخيره دليله قوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، ويحتمل مجادلته إياهم في استبقاء قوم لوط؛ شفقة عليهم ورحمة، لعلهم يؤمنون ويقبلون ما يدعون إليه؛ لئلا ينزل بهم العذاب: ما أوعدوا يتشفع إليهم ليسألوا ربهم أن يبقيهم والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

قيل: الحليم هو الذي لا يكافئ من ظلمه ولا يجازيه به، أو يحلم عن سفه كل سفيه ﴿أَوَّٰهٌ﴾، قيل: الأواه: الموقن، بلغة الحبش، وقيل: الأواه: المتأوه، وهو الدعاء وكثير الدعاء، وقيل: الأواه: المتقي الذي لا يفتر لسانه عن ذكره، وقيل: الأواه: الحزين فيما بينه وبين ربه[٤]. في هذه الأحرف الثلاثة جميع أنواع الخير والطاعة ما كان [فيما][٥] بينه

---

(١) أخرجه بمعناه الترمذي (٦/ ١٢٤) باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٨٦)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. والطبراني في الكبير (٢٦٨٠) عن جابر بن عبد الله.

(٢) انظر تفسير ابن جرير (٧/ ٧٥)، والبغوي (٢/ ٣٩٣).

(٣) سقط في أ.

(٤) تقدم في التوبة.

(٥) سقط في ب.

وبين ربه، وما كان بينه وبين الخلق، حيث ذكر أنه حليم وأنه أواه، وأنه منيب، والمنيب، قيل: المخلص لله وقيل: هو المقبل إلى الله بقلبه وبدنه، وقد ذكرنا هذا في سورة التوبة.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ يعني: عن المجادلة [التي كان يجادلهم ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: جاء ما أمر به ربك، وجاء موعودهم، وأنهم ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي: غير مدفوع لا يحتمل الردّ بالشفاعة.

ويحتمل قوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ عن المجادلة التي][1] ذكر أنه قد جاء أمر ربك بالانصراف والرجوع عنك.

ويحتمل: جاء أمر ربك من إنزال العذاب بهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: قوله ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ قيل: أي: ساءه مجيئهم ومكانهم[2] وكرههم لصنيع قومه بالغرباء مخافة أن يفضحوهم ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: لم يدر كيف يصنع بهم، وكيف يحتال ليدفع عن ضيفه سوء قومه.

والذرع: قيل: هو المقدرة والقوة، أي: ضاق مقدرته وقوته ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ قيل: فظيع شديد[3]؛ لأنه يوم يهتك فيه الأستار، ويفضح الرجال.

وفيه دليل جواز الاجتهاد؛ لأنه قال: يوم عصيب فظيع، فبعد لم يظهر له شدته لكنه قاله اجتهادًا، والله أعلم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.

(٢) ذكره ابن جرير (٧/ ٧٩) وبمعناه البغوي (٢/ ٣٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٨١) عن كلٍّ من: مجاهد (١٨٣٧٠)، وقتادة (١٨٣٧١، ١٨٣٧٣)، وابن إسحاق (١٨٣٧٢)، وابن عباس (١٨٣٧٤).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٩) وعزاه لابن الأنبارى في الوقف والابتداء، والطستي عن ابن عباس.

ثم قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [يحتمل: أن يكون قوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ لما جاءته الرسل بإهلاك قومه ساءه ذلك، وضاق به ذرعًا كذلك أيضًا. ويحتمل قوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾][1] بسوء صنيع قومه بأضيافه، الحرفان جميعًا ينصرفان[2] إلى لوط لمكان قومه، أو لمكان أضيافه، أو يكون أحد الحرفين لمكان ضيفه، والآخر لمكان ما ينزل بقومه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال بعضهم: يسرعون إليه[3].

وقال بعضهم: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يهرولون إليه[4]، وهو سير بين السعي وبين المشي بين بينين.

وقال بعضهم: [قوله][5] ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يروعون إليه، من الروع، أي: فزعين إليه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا يحتمل وجهين: يحتمل قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يبعث لوط رسولا إليهم كانوا يعملون السيئات.

ويحتمل قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول الأضياف[6] بلوط كانوا يعملون السيئات، والسيئات تحتمل الشرك وغيره من الفواحش التي كانوا يرتكبونها، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ اختلف في قوله: ﴿بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال بعضهم: أراد بنات قومه؛ لأن الرسل هم كالآباء لأولاد قومهم ينسبون إليهم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه، (وهو أب لهم كما أزواجه أمهاتهم والنبي أب لهم)[7]؛ فعلى ذلك يحتمل قول لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أراد بنات قومه فنسبهن إلى نفسه؛

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في ب: ينصرف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٨٢) عن كلٍّ من: الضحاك (١٨٣٧٨)، وقتادة (١٨٣٧٩، ١٨٣٨٠)، والسدي (١٨٣٨١)، وشمر بن عطية (١٨٣٨٤)، وابن عباس (١٨٣٨٥).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٩) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٨٢) (١٨٣٨٢) وذكره البغوي (٢/ ٣٩٥).

(٥) سقط في ب.

(٦) في أ: الضياف.

(٧) أخرجه ابن جرير (٧/ ٨٣) (١٨٣٩٤) عن سعيد بن جبير، وذكره السيوطي (٣/ ٦٢٠) وعزاه لابن أبي الدنيا وابن عساكر عن السدي.

لما ذكرنا أنّه كالأب لهم.

ثم يحتمل معنى جعل النبي لأولاد قومه كالأب، وأزواجه كالأم وجهين:

أحدهما: نسبوا إليه للشفقة، فهو[١] أشفق بهم من الأب والأم.

أو: لحق التربية وتعليم الدين كالأب لهم؛ فهو أولى بهم من أنفسهم لهذين الوجهين.

وقال بعضهم: أراد بنات نفسه[٢].

ثم اختلف فيه.

قال بعضهم: كان ذلك منه تعريضا لهم للنكاح؛ يقول: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم نكاحًا إن كنتم قابلين للإيمان.

ومنهم من قال: هو تعريض منه لما هو زنا عندهم، لا أنه عرض ذلك عند نفسه، وهذا كما يقولون بأن من أكره على أن يشتم محمدًا ﷺ فلا بأس بأن يشتم ويقصد بشتمه محمدًا آخر يحل له شتمه، وإن كان عند المكره أنه يشتم رسول الله ﷺ بعد أن جعل[٣] الشاتم في قلبه [غيره][٤]، وكذلك إذا أكره [على][٥] أن يشتم الإله، فيقصد بالشتم شتم آلهتهم، وإن كان عندهم أنه [إنما][٦] يشتم إلهه الذي يعبده؛ فعلى ذلك يحتمل قول لوط: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ تعريض زنا عندهم، وإن كان عنده أنه ليس لذلك يقصد.

وقال قائلون: قال هذا ليريهم قبح الفعل الذي كانوا يقصدون بأضيافه؛ لأن الزنا كان عندهم محرما فعرض عليهم بناته؛ ليعرفوا قبح ذلك الفعل؛ حيث احتمل فعله[٧] في بناته ولم يحتمل في أضيافه؛ ليمتنعوا عن ذلك.

أو يحتمل أن يكون قال ذلك وإن كان كلاهما لا يحلان، لكن أحدهما أيسر وأهون، ويجوز الجمع بين شرين؛ فيقال: هذا أطهر لكم وأحل من هذا، وهذا أيسر من هذا وأهون، وإن كان كلاهما شرين، فالزنا وإن كان حرامًا فذلك مما يحل بالنكاح، وأدبار الرجال لا تحل بحال.

وقال بعضهم: إنهم كانوا يخطبون بناته، وكان أبي أن يزوجهن منهم؛ لما لم يكونوا

---

(١) في ب: هو.
(٢) ذكره البغوي (٢/ ٣٩٣)، وكذا أبو حيان (٥/ ٢٤٧).
(٣) في أ: أخطر.
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في ب.
(٦) سقط في ب.
(٧) في أ: قلبه.

كفؤًا لهن، ثم عرض عليهم في ذلك الوقت؛ ليعلموا قبح ذلك الفعل الذي قصدوا بأضيافه، أو كلام نحو هذا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] ليعلم أن الإخزاء هو الفضيحة؛ هذا يدل أن الخزي هو الذي يفضح من نزل به.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ قال بعضهم: هم أن يزوج بعض بناته من يصدر لرأيه فيمنعهم عنهم؛ كأنه يقول: أليس منكم من يرشد ويصدر لرأيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: أليس منكم رجل يقبل الموعظة، ويرشدكم، ويعظكم، أو يقول: أليس منكم رجل رشيد على النفي فيمنعهم عما يريدون ويقصدون.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ على التأويلين اللذين ذكرناهما يكون: الحق: حق النكاح، أو حق الاستمتاع، وفي بعض التأويلات من حق: من حاجة، وبذلك يقول عامة أهل التأويل: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يعنون: الأضياف ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: قوة في نفسي ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: عشيرته. والركن الشديد عند العرب: العشيرة؛ يقول: لو أن لي بكم قوة في نفسي أو عشيرة يعينوني لقاتلتكم؛ فيه دلالة أن من رأى آخر على فاحشة فله أن يقاتله.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ تأويله - والله أعلم -: أنك تعلم أن ليس لنا في بناتك من حق كما ليس لنا فى[1] أضيافك من حق فكيف تمنعنا عنهم وتعرض علينا بناتك، فهن فيما ليس لنا فيهن حق كأولئك، والله أعلم.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قيل: قالوا ذلك للوط: لن يصلوا إليك؛ لما طمسوا أعينهم، وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وقال قائلون قالوا ذلك للوط [لما أوعدوا للوط][2] حين طمست أعينهم أن ضيفك سحروا أبصارنا، فستعلم غدًا ما تلقى أنت وأهلك، فقالوا عند ذلك: لن يصلوا إليك بسوء غدًا بأنهم يهلكون.

ودل قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ على أنهم قد هموا للوط وأوعدوه حتى قال ما قال؛ ألا ترى أن الملائكة قالوا له: إنهم لن يصلوا إليك، فهذا على ما ذكرنا.

(١) في أ: من.
(٢) سقط في أ.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قيل: قطع من الليل: آخره[(١)] وهو وقت السحر.

وقيل: هو ثلث الليل، أو ربعه من آخره، وهو واحد، والله أعلم.

وقوله- عز وجل-: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ قيل [(٢)]: لا يتخلف أحد منكم إلا امرأتك؛ فإنها تتخلف، ويصيبها ما أصاب أولئك.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ من الالتفات والنظر.

وقيل: لا يترك أحد منكم متابعتك إلا امرأتك؛ فإنها لا تتبعك، فيصيبها ما أصاب أولئك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ يحتمل النهي عن الالتفات، كأنه يقول: لا يلتفت أحد.

ويحتمل الخبر كأنه يقول: لا يلتفت منكم أحد إلا من ذكر، وهو زوجته، فذلك علامة لخلافها له.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾: كأن لوطًا استبطأ الصبح لعذابهم، فقالوا: أليس الصبح بقريب، هذا من لوط لا يحتمل أن يكون قال ذلك وهو بين أظهرهم، ويعلم أن قراه يقلب أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، ولكن قال [ذلك] [(٣)] - والله أعلم - بعدما أخرجوه وأهله من بين أظهرهم، فعند ذلك قال ما قال، واستبطأ وقت نزول العذاب بهم؛ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يحتمل: جاء الأمر بالمراد بأمرنا.

أو أمره هو جعله عاليها سافلها.

ثم قال أهل التأويل قوله [(٤)]: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أدخل جبريل جناحه تحت [قريات لوط] [(٥)] فرفعها إلى السماء، ثم قلبها فجعل ما [هو] [(٦)] أعلاها أسفلها، فهوت إلى الأرض؛ فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ قيل: [أهوى بها] [(٧)] جبريل من السماء إلى الأرض.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٢٣) وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس.
(٢) قاله ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٣).
(٣) سقط في أ.
(٤) قاله سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير (١٨٤٢٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٤).
وهو قول قتادة والسدي ومجاهد وغيرهم.
(٥) في ب: قرياته.
(٦) سقط في ب.
(٧) في أ: أهواها.

وأمكن أن يكون إذا أهلكهم جعلهم تحت الأرض؛ فذلك جعل أعلاها أسفلها، [لكن أهل التأويل حملوه على ما ذكرنا، وأجمعوا على ذلك.

وقال بعضهم: قلبت القرى، وجعل أعلاها أسفلها][١] على ما ذكر [٢]، وأرسل الحجارة على من [٣] كان غائبا عنها.

وقوله- عز وجل-: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قال بعضهم: أمطر الحجارة عليها، ثم قلبها جبريل.

وقال بعضهم [٤]: أمطر عليها الحجارة بعدما قلبها [جبريل][٥]، فسواها، وكل واحد منهم كان غائبا عن بلده جاءت [٦] حجار [٧] مكتوب عليها اسمه فقلته[٨] حيث كان، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [قال بعضهم][٩]: السجيل [١٠]: هو اسم المكان الذي منه رفع[١١] الحجر الذي أمطر [١٢].

وقال بعضهم [١٣]: هو طين مطبوخ كالآجر.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال[١٤]: سَنْك وجيل ﴿مَّنضُودٍ﴾ نضد الحجر بالطين وألصق بعضه ببعض [مسومة][١٥]: معلمة، مخططة، سود الحمرة.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) في أ: ذكرنا.
(٣) في أ: ما.
(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٣٩٧).
(٥) سقط في ب.
(٦) في ب: فجاءت.
(٧) في أ: عجلًا.
(٨) في ب: فقتله.
(٩) في ب: قيل.
(١٠) قاله ابن زيد أخرجه ابن جرير عنه (١٨٤٤٨).
(١١) في ب: نبع.
(١٢) في أ: أمطرنا.
(١٣) ذكره ابن جرير (٧/ ٩٢) ولم يسنده عن أحد، ونسبه البغوي (٢/ ٣٩٧) للضحاك.
(١٤) أخرجه ابن جرير (١٨٤٤٦)، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥).
(١٥) قاله قتادة وعكرمة، أخرجه ابن جرير (١٨٤٥٨-١٨٤٥٩) وعبد الرزاق، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥).
وفي ب: قيل.

وقال بعضهم [(١)]: [﴿مُّسَوَّمَةً﴾] [(٢)]، أي: مكتوب عليها اسم صاحبها.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

قال بعضهم: ما هي من ظلمة قوم لوط ببعيد.

وقال بعضهم: ما هي من ظالمي أهل [مكة][(٣)] وحواليهم ببعيد، [أي: عذاب الله ليس ببعيد، فهو][(٤)] يعذبهم إن شاء.

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: تلك القرى والأمكنه التي أهلك أهلها ليست ببعيدة من مشركي أهل مكة، وهو ما ذكر: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِٱلَّيْلِ﴾ الآية [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وفيه تذكير [منته][(٥)] على هذه الأمة، حيث لم يجعل عذابهم عذاب استئصال بحيث لا يملكون العود عنه والرجوع، ولكن جعل عذابهم الجهاد، حتى لو أرادوا الرجوع عنه ملكوا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٣٩٧).
(٢) في ب: مسمومة.
(٣) في ب: قرية لوط.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٥) في ب: منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ [أي: إلى مدين أرسلنا][١] ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ هذا قد ذكرنا فيما تقدم: أن كل نبي أول ما دعا قومه إنما دعا إلى توحيد الله، وجعل العبادة له.

وفي قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وما ذكر في غيره من الأخوة دلالة على أن الرسل من قبل كانوا يبعثون[٢] من جنس قومهم لا من الملائكة حيث قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ومعلوم أنهم لم يكونوا إخوة لهم في الدين، وفيه أن المؤاخاة [٣] لا توجب فضيلة المؤاخى له؛ [لأنه ذكر أن الرسل][٤] إخوة أولئك الأقوام، ومنهم[٥] كفرة، وذلك يرد قول الروافض في تفضيل عليّ على أبي بكر بالمؤاخاة التي كانت بين رسول الله وبين علي؛ والخلة توجب الفضيلة، وقد جاء عنه عليه السلام [أنه قال][٦]: «لو اتخذت سوى ربي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا»[٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، ذكر أنهم [كانوا][٨] ينقصون المكيال والميزان، ولا يوفون الناس حقوقهم، فنهاهم عن ذلك، فهو - والله أعلم - لوجهين:

أحدهما: أنهم إنما نهوا عن ذلك؛ لحق الربا؛ لأن النقصان إذا كان برضا من صاحبه يجوز؛ فدل أنه إنما نهاهم بحق الربا، وفيهما يجري الربا.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: من البشر.
(٣) في أ: الأخوة.
(٤) في أ: لأن الرسل.
(٥) في أ: وهم.
(٦) سقط في ب.
(٧) أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير كما في الدر المنثور (٣/ ٢٤٣) بلفظ «غير» بدل «سوى»، وزاد: «ولكن أخي وصاحبي في الغار»، وفي الباب عن ابن عباس، وابن مسعود.
حديث ابن عباس:
أخرجه البخاري (١/ ٦٦٥) كتاب الصلاة: باب الخوخة والممر في المسجد، حديث (٤٦٧)، وفي (٧/ ٢١) كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، حديث (٣٦٥٦-٣٦٥٧)، وأحمد (١/ ٢٧٠).
حديث ابن مسعود:
أخرجه مسلم (٤/ ١٨٥٥)، كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر، حديث (٣/ ٢٣٨٣)، والترمذي (٥/ ٦٠٦) كتاب المناقب: باب مناقب أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حديث (٣٦٥٥).
(٨) سقط في أ.

والثاني: فيه أن [هبة][(١)] المشتري للبائع، وتقلبه [فيه][(٢)] قبل قبضه على قيام البيع فيما بينهما غير جائز؛ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ قيل[(٣)]: [في سعة][(٤)] من المال.

وقيل[(٥)]: في رخص من السعر[(٦)]، وإنما يحمل المرء على النقصان والظلم على آخر - عز الشيء وضيق [الحال][(٧)]، فكيف تنقصون أنتم في حال السعة ورخص السعر[(٨)].

أو يقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ في غير هذا، فلا تظلموا الناس في هذا، و[لا][(٩)] تمنعوا حقوقهم، ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، أي: يوم يحيط بهم العذاب إن كانت الإحاطة مضافة إلى اليوم فهو محيط بالكل، وإن كانت الإحاطة مضافة إلى العذاب، فهو محيط بالكفرة خاصة، وهو - والله أعلم - أنه ما من جارحة من ظاهرة وباطنة إلا وقد يصيبها العذاب، ويحيط بها، ليس كعذاب الدنيا يأخذ جزءًا دون جزء، بل يحيط به، والنهي[(١٠)] بتخصيص نقصان الكيل والميزان لا يدل على أن لم يكن فيهم[(١١)] من المآثم والإجرام سوى ذلك، لكنه خص هذا؛ لما كان الظاهر فيهم نقصان الكيل والوزن، فذكر ذلك، وهو ما خص قوم لوط بقوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] و ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٢٨]، ذكر هذا وخصهم، ليس على أنهم لم يكونوا يأتون من الفواحش غيرها، لكن خص هذا؛ لأن الظاهر فيهم هذا؛ فعلى ذلك نقصان الكيل والميزان في قوم شعيب، والله أعلم.

وقوله- عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ خص المكيال والميزان [والله أعلم][(١٢)] - لما كانوا يطففون المكيال وينقصون الميزان؛ رغبة فيهما، وفيهما يجري الربا، كما[(١٣)] ذكرنا.

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) قاله ابن عباس بنحوه، كما في تفسير البغوي (٢/ ٣٩٧).
(٤) في أ: وسعة.
(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (١٨٤٨١)، وأبو الشيخ عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).
(٦) في أ: السعة.
(٧) في ب: المال.
(٨) في أ: السعة.
(٩) سقط في أ.
(١٠) في أ: النهي.
(١١) في أ: فيه.
(١٢) سقط في أ.
(١٣) في أ: لما.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فيه دلالة أن المشتري يملك المبيع قبل أن يقبضه[١]؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أضاف إلى الناس أشياءهم، فلو كان لا يملك، لم يكن أشياء الناس، إنما كان [أشياء البائع][٢]، فإنما نقص ماله.

[وقوله][٣]: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وهو ما ذكر في موضع آخر: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: ما أبقى الله لكم من ثوابه في الآخرة خير لكم إن آمنتم به، وأطعتموه مما تجمعون من الأموال.

[و][٤] قال بعضهم[٥]: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ما جعل الله لكم مما يحل خير لكم مما يحرم عليكم من نقصان الكيل والوزن، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالحلال أو بالآخرة.

وقال بعضهم[٦]: طاعة الله - وهو ما يأمركم به، ويدعوكم إليه - خير لكم مما تفعلون.

وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس حقوقهم[٧]، لكن هذا يرجع إلى ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يحتمل: ما أنا عليكم بحفيظ، أي: لست أشهد بياعاتكم وأشريتكم حتى أعلم ببخسكم [٨] الناس المكيال والميزان، لكن إنما أعرف ذلك بالله، وفيه دلالة إثبات [رسالة محمد ﷺ][٩].

والثاني: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: بمسلط عليكم، إنما أبلغ إليكم، كقوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

---

(١) في أ: يقبض.
(٢) في أ: أشياءهم.
(٣) سقط في ب.
(٤) سقط في أ.
(٥) قاله ابن عباس كما في تفسير البغوي (٢/ ٣٩٨).
(٦) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (١٨٤٩١ - ١٨٤٩٦)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).
(٧) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٧).
(٨) في ب: بخسكم.
(٩) في أ: رسالته.

وقوله - عز وجل -: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾ قال بعض أهل التأويل [(١)]: صلاتك، [أي] [(٢)]: قراءتك تأمرك هذا.

وقال ابن عباس: قالوا ذلك له؛ لأن شعيبًا كان يكثر الصلاة [(٣)]، كأنه [يخرج][(٤)] على الإضمار يقولون: أصلواتك تأمرك بأن تأمرنا بترك عبادة ما عبد آباؤنا.

وقوله: و ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ يحتمل [أنها كانت صلوات] [(٥)] معروفة يفعلها، فيقولون: أصلواتك [(٦)] التي تفعلها تأمرك أن نترك كذا، أم صلاة واحدة تكثرها، فقالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، وخصوا [(٧)] الصلاة من [بين][(٨)] غيرها من الطاعات؛ لما لعلها كانت من أظهر طاعاته عندهم، فقالوا له هذا.

ثم يحتمل وجهين:

[أحدهما: كأنهم][(٩)] قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ . . .﴾ كذا على التسفيه له [والتجهيل] [(١٠)] كمن يوبخ آخر [ويسفهه][(١١)]، [فيقول له] [(١٢)]: أعلمك يأمرك [بذلك][(١٣)]، أو[(١٤)] إيمانك يأمرك بهذا [(١٥)]، كقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، ونحوه من الكلام يخرج على [التسفيه له أو التجهيل][(١٦)].

والثاني: يقال ذلك على الإنكار، يقول الرجل لآخر: إيمانك يأمرك بذلك، أو علمك يأمرك بهذا، [أي: لا يأمرك بذلك] [(١٧)]، فعلى ذلك يحتمل قول هؤلاء: ﴿أَصَلَوٰتُكَ

---

(١) قاله الأعمش، أخرجه ابن جرير (١٨٥٠٧)، وعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٧).
(٢) سقط في أ.
(٣) أخرجه ابن عساكر عن الأحنف بنحوه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٧).
(٤) سقط في ب.
(٥) في أ: أن يكون له صلاة.
(٦) في أ: أصلاتك.
(٧) في أ: فتخصيص.
(٨) سقط في ب.
(٩) سقط في ب.
(١٠) سقط في أ.
(١١) سقط في ب.
(١٢) في أ: يقول.
(١٣) في ب: بكذا.
(١٤) في أ: و.
(١٥) في أ: هذا.
(١٦) في ب: هذا التأويل.
(١٧) في ب: ونحوه.

تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [أي: لا تأمرك بذلك][١] هذا إذا كانت الصلاة التي ذكروها مرضية عندهم، فإن لم تكن مرضية، فالتأويل هو الأول.

وقوله - عز وجل-: [﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾][٢] الآية، حبب إليهم تقليد آبائهم في عبادة الأصنام واتباعهم إياهم [٣] والأموال التي كانت لهم، [فمنعهم هذا][٤] عن النظر في الحجج والآيات؛ [لما] [٥] حبب إليهم ذلك، وهكذا جميع الكفرة إنما منعهم عن النظر في آيات الله و[التأمل في][٦] حججه أحد هذه الوجوه التي ذكرنا: حب اللذات، ودوام الرياسات، والميل إلى الشهوات، ظنوا أنهم لو اتبعوا رسل الله وأجابوهم إلى ما دعوهم إليه - لذهب عنهم ذلك.

ثم قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ يحتمل: قضاء جميع الشهوات.

ويحتمل: ما ذكر من نقصان المكيال والميزان، يقولون: أموالنا لنا ليس لأحد فيها حق، نفعل فيها ما نشاء.

وقال بعضهم: قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾: الألف صلة «وأن نفعل في أموالنا ما نشاء».

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال [بعضهم من][٧] أهل التأويل[٨]: قالوا ذلك له؛ استهزاء به وسخرية، كنوا بالحليم عن السفيه، وبالرشيد [عن][٩] الضال، أي: أنت السفيه [الضال][١٠]؛ حيث سفهت آباءنا[١١] في عبادتهم الأصنام، [الضال][١٢] حيث تركت ملتهم ومذهبهم.

وقال بعضهم [١٣]: على النفي والإنكار، أي: ما أنت الحليم الرشيد.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ .
(٣) في أ: آباءهم.
(٤) في ب: فامتنعوا.
(٥) في ب: كما.
(٦) سقط في ب.
(٧) سقط في ب.
(٨) قاله ابن جريج، أخرجه ابن جرير عنه (١٨٥٠٨) وهو قول قتادة وابن زيد.
(٩) سقط في أ.
(١٠) سقط في ب.
(١١) في ب: آباءك.
(١٢) سقط في أ.
(١٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٧).

ويشبه أن يكون على حقيقة الوصف له بالحلم والرشد؛ لأنهم لم يأخذوا عليه كذبا قط، ولا رأوه على خلاف و[لا على][1] سفاهة قط؛ فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، أي: كنت هكذا؛ فكيف تركت ذلك، وهو ما قال قوم صالح لصالح حيث قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾، وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على [علم و][2] بيان وحجج وبرهان من ربي، على ما ذكرنا فيما تقدم، أي: تعلمون أني كنت على بيان من ربى وحجج، ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: [يحتمل هذا منه مكان ما قال أولئك الأنبياء: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: قال شعيب: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾][3] الدين والهدى، [و][4] النبوة على ما ذكر[5] وأمكن أن يكون الرزق الحسن هو الأموال الحلال الطيبة التي لا تبعة عليه فيها فقال ذلك؛ وما رزق أولئك عليهم تبعة في ذلك؛ لأنهم اكتسبوها من وجه لا يحل.

وقوله- عز وجل-: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ من الناس من يقول: قال لهم ذلك بإزاء ما قالوا فيما ذكر في الأعراف: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يقول: أأدعوكم[6] إلى الإيمان بالله والتوحيد له، وأنهاكم عن الكفر به، ثم أرتكب ما أنهاكم عنه، وأترك ما أدعوكم إليه؟!

وقال قتادة[7]: لم أكن لأنهاكم عن أمر [وأرتكبه][8]، وهو واحد ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [أي: ما أريد إلا الإصلاح لكم ما استطعت][9]، وفيه دلالة [على][10] أن الاستطاعة تكون مع الفعل [لا غير][11]، أما أن يكون أراد: استطاعة الإرادة أو استطاعة الفعل، فكيفما كان، فقد أخبر أنه يريد لهم من الصلاح ما استطاع، ففيه ما ذكرنا، وهو ينقض على المعتزلة مذهبهم؛ لأنهم يقولون: الاستطاعة تتقدم [على][12] الفعل، وهي لا

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: أو.
(٥) في أ: ذكرنا.
(٦) في أ: أدعوكم.
(٧) أخرجه ابن جرير (١٨٥١٠)، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٧).
(٨) وفي أ: وأركبه.
(٩) سقط في أ.
(١٠) سقط في أ.
(١١) في أ: لا يخلو.
(١٢) سقط في ب.

تبقى وقتين؛ فيصير على قولهم إرادة الصلاح لهم [في غير زمن][(١)] الاستطاعة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، قال بعضهم: التوفيق: هو صفة كل مطيع، والخذلان: هو صفة كل عاص.

وقال بعضهم: التوفيق: هو ما [يوفق بين فعله وقوله][(٢)] في الطاعة، والخذلان ما يفرق بين قوله وفعله في المعصية.

وقال الحسين النجار: التوفيق: هو قدرة كل خير وطاعة، والخذلان: هو قدرة كل شر ومعصية.

وعندنا: التوفيق: هو أن يوفق بين عمل الخير والاستطاعة، والخذلان: هو أن يفرق بين عمل الخير والاستطاعة.

أو أن نقول: هو أن يوفق بين عمل الشر والاستطاعة، وهما واحد.

وقوله - عز وجل-: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: عليه اعتمدت في جميع أمري، وإليه توكلت، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: أرجع.

أو يقول: إليه أقبل بالطاعة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ [بالغرق][(٣)] ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ [بالريح الصرصر][(٤)] ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ بالصيحة على ما ذكر.

قال بعضهم[(٥)]: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يحملنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ قيل[(٦)]: خلافي أن يصيبكم مثل ما أصاب أولئك.

وقال بعضهم قوله: [﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يؤثمنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ أي: عداوتي أن يصيبكم مثل ما أصاب أولئك.

وقيل:][(٧)] ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [أي:][(٨)] لا يكسبنكم عداوتي.

وقال الحسن: ﴿شِقَاقِيٓ﴾: ضراري.

---

(١) في أ: بما عدم من.
(٢) في أ: يوافق قوله فعله.
(٣) سقط في ب.
(٤) سقط في ب.
(٥) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (١٨٥١٥-١٨٥١٦)، وهو قول السدي أيضًا.
(٦) انظر: تفسير البغوي (٢/٣٩٨).
(٧) سقط في ب.
(٨) سقط في ب.

لكن كله[١] يرجع إلى معنى واحد؛ لأنه إذا ثبت العداوة، ثبت المخالفة والبغض والضرر، فكل ما ذكروا فهو واحد.

وأصل الجرم: الإثم والذنب[٢].

ثم يخرج إنذاره إياهم بمن هلك من الأمم على وجهين:

أحدهما: أن قوم شعيب قوم لا يؤمنون بالبعث وبالقيامة، فأنذرهم بمن هلك من الأمم السالفة؛ لأنه لو كان ينذرهم بالبعث، لكان لا ينجح فيهم؛ لأنهم[٣] لا يؤمنون به.

والثاني: أنذرهم بأولئك؛ لأنهم كانوا يقلدون آباءهم في عبادة الأوثان، ويتبعونهم، فيقول: إنكم تقلدون آباءكم وتتبعونهم في عبادة الأوثان فاتبعوهم - أيضًا - فيما بلغوا إليكم من هلاك أولئك بعبادتهم الأوثان، وتكذيبهم الرسل، فإذا قلدتموهم في العبادة[٤] [فهلا][٥] تقلدونهم وتتبعونهم فيما أصابهم بم أصابهم؟

أو يقول [لهم][٦]: إنكم تقلدون آباءكم[٧] الذين عبدوا الأوثان وقد هلكوا، فهلا[٨] تقلدون من لم يعبد منهم ونجا وقد [عرفتم أن][٩] من هلك منهم [بم][١٠] هلك؟ ومن نجا منهم[١١] [بم][١٢] نجا، والله أعلم.

وقوله - عز و جل-: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي: إن نسيتم من مضى منهم، فلا تنسوا ما نزل بقوم لوط، وليسوا هم ببعيد منكم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اطلبوا من ربكم المغفرة؛ أي: اطلبوا السبب الذي يقع لكم المغفرة من ربكم، وهو التوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه، ولا تعودوا إلى ما كنتم [من][١٣] قبل.

---

(١) في ب: بحله.
(٢) في أ: الكسب.
(٣) في أ: أنهم.
(٤) في أ: ذلك.
(٥) في ب: فلا.
(٦) سقط في أ.
(٧) في أ: آباء.
(٨) في أ: فلا.
(٩) في ب: آمن.
(١٠) في ب: بمن.
(١١) في أ: معهم.
(١٢) في ب: بمن.
(١٣) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه رجوعًا حتى لا تعودوا إلى مثل صنيكعم أبدًا ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ يرحم من تاب إليه، والله يرحمه ﴿وَدُودٌ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ودود: أي: حق أن يودّ؛ إذ منه كل شيء وكل إحسان، والناس جبلوا على حب من أحسن إليهم.

والثاني: ودود لمن توسل إليه وتقرب.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ قوله: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ يحتمل: ما نفهم وما نعقل كثيرًا مما تقول[1]؛ كأنهم يقولون ذلك على الاستهزاء والهزء به؛ كأنهم نسبوه إلى الجنون؛ يقولون: لا نفهم ما تقول؛ لأن كلامك كلام مجانين. وهذه هي عادة القوم؛ كانوا ينسبون الرسل إلى الجنون.

ويحتمل: ما نفقه: ما نقبل كثيرًا مما تقول، فإن كان على الفهم فهو كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهم كانوا فريقين: فريق كانوا يقولون: قلوبنا أوعية للعلم؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ فإن كان ما تقول حقًّا نفهم ونعقل كما نعقل غيره، وفريق قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] كانوا يعقلون أنهم لا يفهمون ولا يفقهون؛ لأن قلوبهم في أكنة وفي آذانهم وقر، والفريق الأول يقولون: إن قلوبنا أوعية للعلم، فلو كان حقًّا لعقلناه كما عقلنا غيره، فهؤلاء كانوا يصرفون العيب إلى الرسول، وأولئك إلى أنفسهم، فعلى ذلك قوم شعيب يحتمل أن يكون قولهم كذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يحتمل هذا وجهين:

أحدهما: أي: إنك لست من كبرائنا وأجلتنا، إنما أنت من أوساطنا، وعلى ذلك الأنبياء إنما بعثوا من أوساط الناس[2]، لا من كبرائهم في أمر الدنيا، فالقوي والعزيز عند أولئك القوم من عنده الدنيا والمال، وأما من لم يكن عنده المال فهو عندهم ضعيف ذليل؛ لأنهم لا يعرفون الدين، ولا يؤمنون بالآخرة، لذلك قالوا ما قالوا.

---

(١) استدلوا بهذه الآية على أن الفقه: اسم لعلم مخصوص، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه؛ لأنه أضاف الفقه إلى القول، ثم صار اسمًا لنوع معين من علوم الدين، وقيل: إنه اسم لمطلق الفهم، يقال: أوتي فلان فقهًا في الدين، أي: فهمًا، قال - عليه الصلاة والسلام-: «. . . يُفَقِّهْهُ في الدين» أي: يفهمه تأويله.
ينظر اللباب (١٠/٥٥٢).

(٢) في أ: القوم.

والثاني: لست أنت بذي قوة وبطش في نفسك، وقد ذكر أنه كان ضعيفًا في بصره ونفسه.

ويحتمل وصفهم بالضعف لهذين الوجهين، والله اعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قبيلتك.

وقيل: عشيرتك[١] ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ الرجم: يحتمل: القتل، ويحتمل: اللعن والشتم.

ثم يحتمل قوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ وجهين:

أحدهما: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: لولا حرمة رهطك وإلا لرجمناك؛ كأنهم كانوا يحترمونه[٢] لموافقة رهطه إياهم في العبادة أعني عبادة الأوثان، وعلى ما هم عليه.

والثاني: لولا رهطك لرجمناك خوفًا منهم لما ذكر أنه كان كثير العشيرة، والقبيلة؛ كانوا يخافون عشيرته فلم يؤذوه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما أنت من أجلتنا وكبرائنا، إنما أنت من أوساطنا أو ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما أنت من أجلتنا؛ لأن العزيز عندهم من كان عنده المال والدنيا، لا يعرفون [العز في غير][٣] ذلك، ولم يكن عند شعيب الدنيا لذلك نسبوه إلى ما ذكر:

أو أنت ذليل عندنا، لست بعزيز، فيكون صلة قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا يخرج على وجهين: يحتمل يا قوم، أرهطي أعظم حقًّا عليكم من الله وأكثر حرمة حتى تركتم ما أوعدتمونى من النقمة لحقهم وحرمتهم؟!

والثاني: قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾ أي: رهطي أشد خوفًا عليكم وأكثر نكاية من الله؛ لأنا قلنا في قوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أنه يخرج على وجهين:

أحدهما: الاحترام لرهطه لموافقتهم إياهم في جميع ما هم عليه، والمساعدة لهم.

والثاني: على الخوف والنكاية لقوتهم، وكثرتهم، وفضل بطشهم تركوا ما وعدوا له خوفًا من رهطه، فقال: خوفكم من رهطي أشد وأكثر عليكم من الخوف من الله، وقد بلغكم من نكاية الله ونقمته فيما حل بالأمم الماضية.

---

(١) ذكره ابن جرير (٧/ ١٠٤) والبغوي (٢/ ٣٩٩).

(٢) في ب: يحترمون.

(٣) في أ: العزيز بغير.

أو حرمة رهطي عندكم وحقهم أعظم من حق الله وحرمته، وقد تعلمون إحسانه إليكم وإنعامه عليكم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ قال بعضهم: [قوله][1]: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: حملتموه على ظهركم وحملهم إياه على ظهرهم إسخاطهم إياه، قال: تقول: العرب: فلان حمل الناس على ظهره: أي: أسخطهم على نفسه. ولكن لا ندري أيقال هذا أم لا.

فإن قيل هذا فهو يحتمل ما قال، وهو قول أبي بكر الأصم.

وقال غيره من أهل التأويل: قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم الله وراء ظهركم[2]، أي: نبذتم حق الله وأمره وكتابه الذي أنزله إليكم وراء ظهركم، لا تعملون به، ولا تكترثون إليه، هو كالمنبوذ وراء ظهركم؛ هذا على التمثيل أي: جعلوا أمر الله ودينه الذي دعوا إليه كالمنبوذ وراء ظهرهم، لا يعملون به ولا ينظرون إليه، ولا يكترثون وهو ما ذكر في قوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] على التمثيل، أي: الذي أنتم عليه في القبح كالانقلاب على الأعقاب ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا يخرج على وجهين - أيضًا -:

أي: إن ربي بما تعملون من الأعمال الخبيثة محيط فيجزيكم بها، أو يقول: إن ربي بما تعملون من الكيد برسول الله والمكر به محيط فينصره عليكم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: أن كونوا على دينكم الذي أنتم عليه، وأنا أكون على ديني؛ كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] لأن قوم شعيب قالوا لشعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فقال لهم [هذا] عند ذلك، وهذا إنما يقال عند الإياس[3] عن إيمانهم، كقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] وأمثاله.

والثاني: قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي اعملوا في كيدي، والمكر في هلاكي، إني عامل ذلك بكم، وهو كما قال غيره من الرسل: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] ونحوه.

---

(١) سقط في ب.
(٢) انظر تفسير البغوي (٢/ ٣٩٩) والرازي (١٨/ ٤١).
(٣) في أ: الأيس.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في العاقبة وعيد من يأتيه عذاب يخزيه، أو سوف تعلمون في العاقبة من يأتيه منا عذاب يخزيه نحن أو أنتم ومن هو كاذب، وتعلمون - [أيضًا - في العاقبة][1] من الكاذب منا نحن أو أنتم؛ لأن كل واحد من الفريقين يدعي على الفريق الآخر الكذب والافتراء على الله، فيقول: سوف تعلمون في العاقبة [من][2] الكاذب منَّا والمفتري على الله، والصادق عليه ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: ارتقبوا هلاكي، وأنا أرتقب هلاككم، أو ارتقبوا لمن العاقبة منا لنا أو لكم إني معكم رقيب، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هذا قد ذكرناه فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ قيل: الصيحة صيحة جبريل[3]؛ أي: هلكوا بصيحته.

وقال بعضهم: الصيحة: اسم كل عذاب، وكذلك الرجفة؛ سمي العذاب بأسماء مختلفة: مرة صاعقة، ومرة صيحة، ومرة رجفة.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هذا - أيضًا - قد ذكرناه فيما تقدم.

قال بعض أهل التأويل: قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ في الهلاك[4] ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾: كما أهلكت ثمود؛ لأن كل واحد منهما هلك بالصيحة فمن ثم اختص ذكر ثمود من بين الأمم.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: لم يعذب بعذاب واحد إلا قوم شعيب وصالح؛ فأمّا قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب من فوقهم.

قال: فنشأت لهم سحابة فيها عذابهم، فلم يعلموا كهيئة الظلة فيها ريح، فلما رأوها أتوها يستظلون تحتها من حر الشمس، فسال عليهم العذاب من فوقهم، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾.

وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ من رحمة الله ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ من رحمته.

ويحتمل الهلاك الذي ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) في ب: في العاقبة أيضًا.
(٢) سقط في ب.
(٣) ذكره ابن جرير (٧/١٠٧)، والبغوي (٢/ ٤٠٠)، والرازى (١٨/ ٤٢).
(٤) انظر تفسير البغوي (٢/ ٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهي الحجج.

يحتمل قوله: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ واحد، على التكرار، فإن كانت الآيات هي الأوامر والنواهي(١)، وما يؤتى وما يتقى فقوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هي الحجج والبراهين(٢) على ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قد ذكرنا أن الملأ هو اسم لشيئين: اسم الجماعة، واسم الأجلة والأشراف، وهو كان مبعوثًا إلى الأشراف من قومه، وإلى الجماعة جميعًا؛ خصّ بعثه إلى فرعون وقومه(٣) وإن كان مبعوثًا إلى الكل؛ لما العرف في الملوك أنهم إنما يخاطبون الكبراء منهم والأشراف، وإن كان [المقصود من الخطاب](٤) الكل.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ قال بعضهم: هو ما ذكر في حم المؤمن حيث قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فأطاعوا فرعون في قوله؛ يقول الله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [أي](٥): يهدي، أو يقول: ما الأمر الذي عليه فرعون برشيد؛ بل هو ضلال.

ولكن عندنا أنهم أطاعوا فرعون في جميع أمره ونهيه في عبادة الأصنام وغيره، وهو ما ذكر: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس بهدى؛ بل كان أمره ضلالا؛ حيث كان هو ضالا مضلا.

---

(١) في أ: والمناهي.
(٢) قال الزجاج: السلطان هو الحجة، وسمي السلطان: سلطانًا؛ لأنه حجة الله في أرضه، واشتقاقه من السليط الذي يستضاء به، ومنه قيل للزيت: السليط. وقيل: مشتق من التسليط، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية، والملوك سلاطين بسبب قدرتهم ومُكْنتهم ، إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأبقى من سلطنة الملوك؛ لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل، وسلطنة الملوك تقبلهما، وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء، وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة، وسلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء.
ينظر اللباب (٥٥٧/١٠).
(٣) في أ: وملئه.
(٤) في ب: من القصود خطاب.
(٥) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال بعضهم: أي: صار قدامهم.

وقال بعضهم: يقدم أي: يقود قومه إلى النار حتى يوردهم النار[١].

ويحتمل قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يكون إمامًا لهم يوم القيامة[٢] يتبعون أثره، كما كان إمامهم في الدنيا فاتبعوه؛ كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] أخبر أنهم يكونون أئمة لهم في الآخرة.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي: دعاهم في الدنيا، وأمرهم بأمور توردهم النار تلك الأعمال كقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي: ما أصبرهم على عمل أهل النار.

وقال بعضهم: يتبعونه حتى يدخلهم النار.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال بعضهم: بئس المدخل المدخول[٣]، والورد هو الدخول، والمورود المدخول؛ سمي الجزاء باسم سببه.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: جميع ما ذكر في القرآن من الورود فهو دخول منهم، قوله: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فقال: والله ليردنها كل برّ وفاجر ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٤] [مريم: ٧٢].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يحتمل: اللعنة في الدنيا: العذاب الذي نزل بهم.

ويحتمل لعن الخلائق يلعنهم من ذكرهم.

وفي الآخرة يحتمل الوجهين جميعًا.

يحتمل: يعذبون في الآخرة - أيضًا - كما عذبوا في الدنيا.

ويحتمل: لعن الخلائق - ايضًا - من رآهم لعنهم، واللعن هو الطرد في اللغة: طردوا عن رحمة الله ولم يرحموا في عذاب الدنيا، ولا يرحمون في عذاب الآخرة.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٠٨) (١٨٥٤٣، ١٨٥٤٤) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٠) وزاد نسبته لعبد الرزاق وأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) في أ: في الآخرة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٠٨) (١٨٥٤٦) عن ابن عباس، والبغوي في تفسيره (٢/ ٤٠٠) وكذا السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٠٨) (١٨٥٤٧) وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وقوله - عز وجل-: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ عن ابن عباس: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ يقول: لعنة الدنيا والآخرة[١].

وقال قتادة: ترادفت عليهم لعنتان من الله: لعنة الدنيا، ولعنة الآخرة، ولكن على زعمهم يجيء أن يقال: الردف من الترادف.

وقال بعضهم: الردف العون، وهو قول القتبي.

وقال القتبي[٢]: الرفد: العطية، والمرفود: المعطى؛ يقال: رفدته: إذا أعطيته وأعنته، كما يقال: بئس العطاء المعطى، وكذلك قال أبو عوسجة: بئس ما أعطوا وأعينوا، وبئس المعطى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: ذلك ما[٣] سبق من ذكر القرى والقرون في هذه السورة من أنباء الغيب نقصه عليك؛ [لتفهم رسالتك بها][٤]، ولتكون آية لنبوتك؛ لأنك لم تشاهدها، ولا اختلفت [إلى أحد][٥] منهم فتعلمت منهم، ولا كانت الكتب بلسانك فيقولون: نظرت فيها فأخذت ذلك منها، ثم أنبأت على ما كان وقصصت عليهم؛ ليعلم أنك إنما عرفت بالله، فتكون آية لرسالتك.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٠٩) (١٨٥٥٣)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣١) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٠٩).
(٣) في ب: من.
(٤) في أ: ليعلم بها رسالتك.
(٥) في أ: لأحد.

وقوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال بعض أهل التأويل ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾: ترى مكانها وتنظر إليها، ومنها حصيد لا ترى له أثرًا[١] ولا مكانًا.

وقال بعضهم: قائم: أي: خاوية على عروشها، وحصيد: مستأصلة[٢].

وعن الحسن قال: منها قائم وما حصد الله أكثر، أي: وما أهلك الله من القرى أكثر. وأصله عندنا: منها قائم؛ نحو قرى عاد وثمود ومدين، أهلك أهلها وبقيت القرى لأهل الإسلام؛ لأنه يقول في قرى عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٥]، ومنها حصيد: ما أهلك أهلها والقرى جميعًا نحو قوم نوح؛ أهلكوا ببنيانهم، ونحو قريات قوم لوط أهلكت بأهلها أيضًا حتى لم يبق لا الأهل ولا البنيان، فذلك - والله أعلم - تأويل قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ هلك أهلها وبقي البنيان، ومنها حصيد: هو ما أهلك البنيان بأهله، حتى لم يبق لها أثر، وفيه وجوه ثلاثة:

أحدها: آية لرسالته[٣]؛ لما ذكرناه وعبرة لأهل التقوى، وهو ما ذكر في آخره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وزجرًا لأهل الشرك والكفر؛ لأنهم يذكرون ما نزل بأولئك فينزجرون عن صنيعهم[٤] فيه.

هذه الوجوه التي ذكرناها، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ فيه وجهان:

أي: لم نظلمهم؛ لأنهم وبنيانهم ملك لله - تعالى - وكل ذي ملك له أن يهلك ملكه، ولا يوصف بالظلم من أتلف ملكه، وهم ظلموا أنفسهم إذ أنفسهم ليست لهم في الحقيقة وكذلك بنيانهم، ومن أتلف ملك غيره فهو ظالم.

والثاني: أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ يقول: وما ظلمناهم بالعذاب؛ إذ هم يستوجبون ذلك بما ارتكبوا، فلم نضع العذاب في غير موضعه؛ بل هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها؛ حيث صرفوها إلى غير مالكها وعبدوا غيره، فهو ظلم؛ هذا التأويل في أنفسهم، وأما البنيان فهو، أنه إنما جعله لهم، فإذا هلكوا هم أهلك ما جعل لهم، إنما أبقي لهم ما داموا، فأما إذا بادوا هم فلا معنى لإبقاء البنيان.

---

(١) في أ: نظرا.

(٢) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ١١٠) (١٨٥٥٩) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣١) وعزاه لأبي الشيخ عن ابن جريج.

(٣) في أ: الرسالة.

(٤) في أ: صنعهم.

وما ذكر من ظلمهم أنفسهم يحتمل وجوهًا:

أحدها: ظلموا أنفسهم بعبادتهم غير الله.

والثاني: ظلموا أنفسهم بصرفهم الناس وصدهم عن سبيل الله وعن عبادة الله وتوحيده إلى عبادة غير الله.

والثالث: ظلموا أنفسهم بسؤالهم العذاب.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ في هذا وجهان:

أحدهما: ما أغنت عنهم عبادة آلهتهم التي عبدوها من دون الله لما جاء أمر ربّك؛ أي: عذاب ربك؛ كقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ ...﴾ الآية [الزمر: ٣]، يخبر أن عبادتهم الأصنام لا تنفعهم المنفعة التي طمعوا.

والثاني: فما أغنت عنهم أنفس آلهتهم في دفع العذاب عنهم في أحوج حال إليها؛ لعجزهم في أنفسهم وضعفهم؛ كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإذا لم يملكوا ذلك في وقت الحاجة إليهم فكيف يملكونه في غيره من الحال، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يحتمل: ما زاد عبادتهم إياها غير تتبيب، أو ما زاد آلهتهم التي عبدوها غير تتبيب.

والتتبيب: قال عامة أهل التأويل: هو التخسير(١).

وقال أبو عوسجة: غير تتبيب: غير فساد، والتتبيب: الفساد.

وكذلك قال في قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: فساد.

وقال غيره: إلا في خسار وقال غيره: غير تخسير.

[وكذلك قالوا في قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد: ١] أي: خسرت.

وقال أبو عبيدة(٢): غير تتبيب: غير تدبير وإهلاك](٣).

وكذلك قالوا في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وكذلك قالوا في قول الناس: تبًّا لك.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١١١) عن كلٍّ من: ابن عمر (١٨٥٦٥)، ومجاهد (١٨٥٦٦، ١٨٥٦٧)، وقتادة (١٨٥٦٨، ١٨٥٦٩).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٢) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عمر، ولابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٢٩٩).

(٣) ما بين المعقوفين سقط في ب.

وقال بعضهم: غير تتبيب غير شر[١]، والتتبيب[٢]: الشر، والتبّ: الشر والخسران، وهما واحد.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: هكذا يأخذ كفار هذه الأمة كما أخذ أولئك، أي: كما عذبنا الأمم الخالية وهي ظالمة مشركة كافرة، كذلك نعذب هذه الأمة [لكن أخر عن هذه الأمة][٣]، وفيه رحمة أن ﴿أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، أي: أن أخذه بالعذاب أليم شديد، الأخذ نفسه يوصف بالشدة، ولكن لا يوصف بالألم، والعذاب يوصف بالألم، لكن لما وصف بالألم والشدة دل أن الأخذ أخذ بعذاب، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ هو ما ذكرناه: فيه عبرة لأهل التقوى ولمن خاف عذاب الآخرة.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ خصّ الناس بالذكر وإن كان الجمع لهم ولغيرهم؛ لأن الآية التي ذكر تكون لهم آية، أو لما هم المقصودون بالجمع بذلك اليوم - والله أعلم - قيل: يجمع فيه الأولون والآخرون[٤] ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

قال بعضهم: يشهده أهل السماء وأهل الأرض للعرض والحساب، والله أعلم[٥].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نؤخر العذاب عن هذه الأمة إلا لأجل معدود، وذكر هذا - والله أعلم - جواب ما استعجلوه من العذاب بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ونحوه، فقال: وما نؤخر العذاب عنهم إلا لأجل معدود، إلا لوقت موقوت؛ أي: إلا لأجل معدود عند الله، ولو كان ما ذكر ابن عباس أنه سبعة آلاف فيكون معدودًا عند الناس، ويكون وقت القيامة معلومًا على قوله، وقد أخبر الله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: لا تكلم نفس بالشفاعة لأحد إلا بإذنه؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] أو لا تكلم نفس لأهوال ذلك اليوم ولفزعه؛ كقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٢٦٠) ونسبه لابن زيد.
(٢) في ب: وقال التشبيب.
(٣) سقط في أ.
(٤) ذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٢٦١) وكذا الرازي (١٨/ ٤٧).
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ١١٣) (١٨٥٧٨) عن الضحاك، وذكره السيوطي (٣/ ٦٣٣) وعزاه لابن جرير عن الضحاك، وكذا البغوي (٢/ ٤٠١)، والرازي (١٨/ ٤٨).

هَوَآءٌ﴾ وكقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أو لا تكلم نفس من الأجلة والعظماء لأحد من دونهم بالشفاعة إلا بإذنه، وهو ما ذكرناه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: فمنهم شقي بأعماله الخبيثة التي إذا اختارها وعملها أدخلته [النار، ومنهم سعيد بما أكرم من الطاعة والخيرات التي إذا اختارها وعملها أدخلته][(١)] الجنة، وكل عمل يعمله فيدخله الجنة فهو سعيد به، وكل عمل يعمله فيدخله النار فهو شقي به.

روي في ذلك خبر عن رسول الله ﷺ روي عن عمر - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت النبي ﷺ فقلت: يانبي الله، فعلام نعمل، على شيء قد فرغ منه أو شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له»[(٢)] فإن ثبت هذا فهو يدل لما ذكرناه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ لما ذكرناه ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال بعضهم: الزفير هو كزفير الحمار في الصدر، وهو أول ما ينهق، وأمّا الشهيق فهو[(٣)] كشهيق الحمار في الحلق، فهو آخر ما يفرغ من نهيقه، فهو شهيق.

وقال بعضهم: الزفير هو ما لا يفهم منه شيء إنما هو كالأنين والجزع من شيء يصيبه لا يتبين منه؛ كقوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الملك: ٧] والشهيق هو ما يرتفع منه الصوت يسمى شهيقًا.

ويحتمل ما ذكر من الزفير والشهيق أنهم يصيرون بعد كثرة دعائهم وندائهم حتى يكون منهم الزفير والشهيق[(٤)] لا يفهم؛ كصوت الدواب إذا أصابها ألم.

---

(١) سقط في ب.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١١٤) (١٨٥٨٣)، والترمذي (٥/ ١٨٧) باب «ومن سورة هود» (٣١١١) وقال: حسن غريب، وعبد بن حميد (٢٠) وابن أبي عاصم في السنة (١٧٠) والبزار (١٦٨) وابن عدي في الكامل (٣/ ١١٢١).

(٣) في ب: وهو.

(٤) قال ابن الخطيب: إن الإنسان إذا عَظُمَ غَمُّهُ انحصر روح قلبه في داخل القلب؛ فتقوى الحرارة وتعظم، وعند ذلك يحتاج الإنسان إلى النفس القوى لأجل أن يستدخل هواء باردًا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة؛ فلهذا السبب يعظم في ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل الصدر، وحينئذ يرتفع صدره، ولما كانت الحرارة الغريزية، والروح الحيواني محصورًا داخل القلب، استولت البرودة على الأعضاء الخارجية؛ فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرًا في الصدر.

فعلى قول الأطباء: الزفير: هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب

وقوله - عز وجل-: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ عن الحسن قال: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض[1]؛ لأن السماء هذه أخبر أنها تنشق وتطوى وتبدل؛ كقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] و ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي﴾ [الأنبياء: ١٠٤] و ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ونحوه.

وقال بعضهم: قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ إنما هو صلة الكلام؛ كأنه قال: خالدين فيها إلا ما شاء ربك، وقد يتكلم بمثل هذا على الصلة.

وقال بعضهم: يدوم لهم العذاب أبدًا ما دامت السموات والأرض [لأهل الدنيا ما كانوا فيها؛ لأنهما إنما تفنيان بعد فناء أهلها وإحياء الأهل والبعث، فأخبر أن العذاب يدوم لهم كما يدوم لأهل الدنيا السماء والأرض][2].

وقال بعضهم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: ما دامت سماء الجنة وأرض الجنة، وسماء النار وأرض النار[3]، لكن ذكر هذا لئلا يتوهم أهل الجنة والنار قبل هلاك سمائها وأرضها على ما يتوهم في توهم هلاك أهل الدنيا قبل هلاك سمائها وأرضها.

وقال بعضهم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء، يتكلمون على ما بعد من أوهامهم فناؤهما، أو على الصلة؛ يقول الرجل لآخر: لا أكلمك ما دام الليل والنهار: أي أبدًا.

هذا تأويل قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قال بعضهم: إن ناسًا من أهل التوحيد يعذبون في النار على قدر ذنوبهم وخطاياهم ثم يخرجون منها. وقد روي في ذلك آثار؛ روي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «الاستثناء في الآيتين كلتيهما لأهل الجنة»[4]، يعني:

= انحصار الروح فيه، والشهيق: هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخراجه، وكل من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد.
ينظر: اللباب (١٠/ ٥٦٧).

(١) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٤) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن البصري.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن السدي.

(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ١١٥، ١١٦) (١٨٥٩١)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٤) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن الضريس وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله، أو عن أبي سعيد، أو رجل من أصحاب النبي ﷺ.

الذين يخرجون من النار من أهل التوحيد ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يقول: لم يشقوا شقاء من يخلد في النار وقال في الذين سعدوا إلا ما شاء ربك هم أولئك الذين لم ينالوا من السعادة ما نال أهل الجنة الذين لم يدخلوا النار.

وفي بعضها [عن النبي][١] ﷺ أنه قال: «أما من يريد الله إخراجه [من النار][٢] فإنهم يماتون فيها إماتة»[٣].

وقال في خبر آخر: «أما من يريد الله له الخلود فلا يخرجون منها» وأمثال هذا من الأخبار، فإن ثبت هذا فهو المعتمد.

وقال بعضهم: قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: قد شاء لأهل النار الأبد والخلود، وشاء لأهل الجنة عطاء غير مجذوذ[٤]؛ أي: غير منقطع.

ويؤيد هذا التأويل ما ذكر في حرف ابن مسعود وأبي: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في الآيتين؛ وفي الآية الأولى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وفي الأخرى: ﴿ما دامت السموت والأرض عطاء غير مجذوذ﴾ وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود وأبي أنهما لم يذكرا الثنيا في أهل الجنة[٥]، وأصل هذا ما ذكر أبو عبيد قال: الاستثناء الذي هو في أهل السعادة فهو المشكل؛ لأنه يقال: كيف يستثني وقد وعدهم خلود الأبد في الجنة. وقال في ذلك أقوالا لا أدرى إلى من تسند، إلا أن لها مخارج في كلام العرب وشواهد في الآثار، وإنما يتكلم الناس في هذا على معاني العربية، والله أعلم بما أراد.

قال: فأحد هذه الوجوه في الاستثناء فيما يقال كالرجل يوجب على نفسه الشيء ليفعلنه، ثم يقول: إن شاء الله، وعزمه [و] ضميره مع استثنائه أنه فاعله، لا يريد غيره.

ومما يقوي هذا المذهب قول الله - تعالى-: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فاستثنى، وقد علم أنهم داخلوه ألبتة.

ومنه ما روي في حديث مكة عن النبي ﷺ حين قال: «ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»[٦].

---

(١) في ب: عنه.
(٢) في ب: منها.
(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٧٢، ١٧٣) كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (٣٠٦/ ١٨٥)، وابن ماجه (٥/ ٦٧٨) (٤٣٠٩)، وأحمد (٣/ ٥، ١١، ٧٨)، والدارمي (٢٨٢٠)، وعبد بن حميد (٨٦٨).
(٤) في أ: محدود.
(٥) أي: لم يرد في هذا الحرف هنا قوله - عز وجل-: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.
(٦) أخرجه بمعناه البخاري (٤/ ٥٦) كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة (١٨٣٤) وكتاب الحج، باب فضل الحرم (١٥٨٧)، ومسلم (٩٨٦) كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخَلَاها وشجرها ولُقَطَتها إلا لمُنْشِدٍ على الدوام (٤٤٥/ ١٣٥٣).

وقال بعضهم: استثنى المنشد وهي لا تحل له، كما لا تحل لغيره.

والوجه الثاني بأن يكون «إلا» في معنى سوى؛ فإن العرب تفعل ذلك؛ تقول: عليك ألف درهم من قبل كذا وكذا، إلا الألف التي قبل ذلك؛ أي: سوى الألف التي قبل ذلك [وغير الألف التي قبل ذلك، وإلا الألف التي قبل ذلك][١]، فيكون المعنى على هذا أنه وعدهم خلود الأبد سوى ما أعد لهم من الزيادة في الكرامة والمنزلة التي لم يذكرها لهم.

ومما يقوي هذا التأويل ما روي عن نبي الله ﷺ قال: «قال الله - تعالى -: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...﴾[٢] الآية [السجدة: ١٧]؛ أفلا ترى أن هاهنا من الزيادة ما لم يطلعهم عليه.

والوجه الثالث: أن يكون الاستثناء من خلودهم في الجنة احتباسهم عنها ما بين البعث والحساب، وقد قيل ما ذكرناه أنه ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ الذي ذكر، إلى أن يصيروا إلى الجنة، ثم هو خلود الأبد؛ يقول: فلم يغيبوا عن الجنة إلا بقدر إقامتهم في الحساب.

ومما يقوي هذا المذهب ما قيل في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: ما بين الموت والبعث، والله أعلم بذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ فقد اختلف القراء في قراءتها؛ قرأها الكسائي وحمزة. بضم السين ﴿سُعِدُواْ﴾ وأما أبو عمرو وأهل المدينة وغيرهم من القراء قرءوا بفتح السين ﴿سَعِدُوا﴾ على قياس ﴿شَقُواْ﴾.

قال أبو عوسجة: لا أعرف سعدوا بضم السين، وإنما هو سعدوا بفتح السين.

وقال أبو عوسجة ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع[٣]؛ كقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي قطعًا، وقد ذكرنا قولهم في الزفير والشهيق على قدر حفظنا له.

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٦٦) كتاب في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤) وأطرافه في (٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣) كتاب التفسير، باب من سورة السجدة (٣١٩٧) وابن ماجه (٢/ ٤٤٧) كتاب الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٢٨).

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١١٩) عن كلٍّ من:
الضحاك (١٨٥٩٧)، وقتادة (١٨٥٩٨)، وابن عباس (١٨٥٩٩)، ومجاهد (١٨٦٠٠، ١٨٦٠١، ١٨٦٠٢، ١٨٦٠٤)، وأبو العالية (١٨٦٠٣، ١٨٦٠٥)، وذكره البغوي وغيره (٢/ ٤٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ تأويله - والله أعلم -: لا تكن يا محمد في شك بأن هؤلاء قد بلغوا في عبادتهم الأصنام والأوثان الحد الذي بلغ آباؤهم في عبادتهم الأصنام والأوثان فأهلكوا إذا بلغوا ذلك الحد، فهؤلاء - أيضًا - قد بلغوا ذلك المبلغ؛ أي: مبلغ الهلاك، لكن الله برحمته وفضله أخره عنهم إلى وقت.

أو يقال: إن هؤلاء قد بلغوا في العبادة لغير الله بعد نزول القرآن والحجة المبلغ الذي كان بلغ آباؤهم قبل نزول الحجة والبرهان في عبادتهم غير الله.

أو كان في قوم قد أظهروا الموافقة لهم، وكانوا يعبدون الأصنام في السر على ما كان يعبد آباؤهم، فقال: هؤلاء وإن أظهروا الموافقة لك فقد بلغوا بصنيعهم في السر مبلغ آبائهم، والله أعلم هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: إخبار عن قوم خاص أنه لا يؤمن أحد منهم؛ ليجعل شغله[1] بغيرهم.

والثاني: إخبار ألا يؤمن جميع قومك كما لم يؤمن قوم موسى بأجمعهم؛ بل قد آمن منهم فريق، ولم يؤمن فريق، فعلى ذلك يكون قومك.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قال بعضهم: قوله: وإنا لموفوهم نصيبهم في الدنيا من الأرزاق[2]، وما قدر لهم من النعم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، لا ينقص ما قدر لهم؛ أي: لا يهلكون حتى يوفى لهم الرزق.

وقال قائلون: ﴿وإنا لموفوهم بأعمالهم غير منقوص﴾ أي: لا ينقصون من أعمالهم شيئًا، ولا يزادون عليها[3]، إن كان حسنًا فحسن، وإن كان شرًّا فشر؛ فهو على الجزاء.

وقال بعضهم: [قوله][4]: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ يقول: إنا نوفر لهم حظهم من

---

(١) في أ: شغلهم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن أبي العالية، والرازي في تفسيره (١٨/ ٥٥).

(٣) في أ: عليهم.

(٤) سقط في ب.

العذاب في الآخرة، غير منقوص عنهم ذلك العذاب[(١)].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ إن كان التأويل في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ على الإياس من قوم علم الله منهم أنهم لا يؤمنون، فيكون تأويله ما ذكر في آية أخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ . . .﴾ الآية [هود: ١٥]، وإن كان الثاني فهو ما ذكر في آية أخرى قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ . . .﴾ الآية [هود: ١١١].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ أي: اختلف في الكتاب، والاختلاف فيه يحتمل وجوهًا ثلاثة:

أحدها: في الإيمان به والكفر منهم، من آمن به، ومنهم من كفر.

والثاني: اختلفوا فيه: في الزيادة والنقصان، والتبديل والتحويل والتحريف؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ الآية [آل عمران: ٧٨]، وكقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ . . .﴾ الآية [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وأمثاله من الآيات.

والوجه الثالث: من الاختلاف: اختلفوا في تأويله وفي معناه بعد ما آمنوا به وقبلوه، فالاختلاف في التأويل مما احتمل كتابنا، وأمّا التبديل والتحويل والتحريف، والزيادة والنقصان فإنه لا يحتمل لما ضمن الله حفظ هذا الكتاب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ . . .﴾ الآية [فصلت: ٤٢]، وجعله ميسرًا على ألسن الناس وقلوبهم، حتى من زاد، أو نقص، أو بدل، أو حرف شيئًا أو قدم، أو أخر عرف ذلك، فهو - والله أعلم - لما لا يحتمل إحكام هذا نسخها ولا شرائعه تبديلها، وأما الكتب السالفة فإنما جعل حفظها إليهم بقوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فهو - والله أعلم - لما احتمل شرائعها وأحكامها نسخها وتبديلها، لذلك كان الأمر ما ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ ذكر هذا لرسول الله ﷺ يصبره على ما اختلف فيه قومه في الكتاب الذي أنزل[(٢)] عليه؛ يقول: وقد اختلف فيما أنزل على من كان قبلك كما اختلف فيما أنزل عليك.

---

(١) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ١٢٠) (١٨٦١١) عن ابن زيد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن زيد.

(٢) في ب: نزل.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالهلاك إهلاك استئصال واستيعاب.

وكلمته التي سبقت تحتمل ما كان من حكمه أن يختم الرسالة بمحمد وأن يجعله خاتم النبيين، وأمته آخر[١] الأمم، بهم تقوم الساعة، يحتمل أن يكون كلمته التي ذكر هذا الذي ذكرناه.

وتحتمل وجهًا آخر: وهو أن كان من حكمه أنهم إذا اختلفوا في الكتاب والدين، وصاروا بحيث لا يهتدون إلى شيء، ولا يجدون سبيلا إلى الدين أن يبعث رسولا يبين لهم الدين، ويدعوهم إلى الهدى؛ لولا هذا الحكم الذي سبق وإلا لقضي بينهم بالهلاك.

والثالث: [لولا][٢] ما سبق منه أن يؤخر العذاب عن هذه الأمة إلى وقت وإلا لقضي بينهم بالهلاك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يحتمل الكملة التي ذكر أنها سبقت في قوم موسى، وهو أنه لا يهلكهم بعد الغرق إهلاك استئصال، والتوراة إنما أنزلت من بعد، فقد آمن [من قومه قوم، وهو ما قال][٣]: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٥٩].

[وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يحتمل قوله: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ في الدين مريب][٤].

وقال بعضهم: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يعني: من العذاب مريب وقد ذكرنا الفرق بين الشك والريب فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ قيل: ﴿لَّمَّا﴾ هاهنا صلة، يقول - والله أعلم -: وإن كلا ليفينهم ربك جزاء أعمالهم في الآخرة إن كان شرًّا فشرّ، وإن كان حسنًا فحسن.

ومن قرأ[٥] ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد [فتأويله يحتمل][٦] وجهين:

---

(١) في ب: خير.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٥) قرأها مشددة هنا وفي «يس» وفي سورة الزخرف، وفي سورة الطارق: ابن عامر وعاصم وحمزة، إلا أن عن ابن عامر في الزخرف خلافًا: فروى عنه هشام وجهين، وروى عنه ابن ذكوان التخفيف فقط، والباقون قرءوا جميع ذلك بالتخفيف، وتلخص من هذا: أن نافعًا وابن كثير قرآ: ﴿وَإِن﴾ و﴿لَمَا﴾ مخففتين، وأن أبا بكر عن عاصم خفف ﴿إن﴾ وثقل ﴿لَّمَّا﴾، وأن ابن عامر وحمزة وحفصًا =

أحدهما: إلا.

والثاني: لما؛ أي: «لَمِمْمَا» اجتمع فيها ميمات طرحت الواحدة وأدغمت إحداهما في الأخرى.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو وعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ قال بعضهم قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الاستقامة هو التوحيد؛ أي: استقم عليه حتى تأتي به ربك؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ذلك حتى أتوا على الله به.

وقال بعضهم: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بما تضمن قوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لأن قوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إقرار منه له بالربوبية، فيجعل في نفسه وجميع أموره الربوبية لله، والألوهية له، ويجعل في نفسه العبودية له؛ هذه هي الاستقامة التي ذكر، والله أعلم، أن يجعل في نفسه وجميع أموره الربوبية لله، والألوهية له، ويأتي ما يجب [أن يؤتى، وينتهي عما يجب أن ينتهي][1]، ويتبع جميع أوامره ونواهيه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ لرسول الله، يحتمل على تبليغ الرسالة إليهم.

وقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: استقم على ما أمرت ومن آمن معك - أيضًا - يستقيم على ما أمروا.

والثاني: يقول: امض إلى ما أمرت حرف ﴿كَمَآ﴾ يخرج على هذين الوجهين اللذين ذكرناهما على ما أمرت، وإلى ما أمرت.

= عن عاصم شددوا ﴿إِنَّ﴾ و ﴿لَّمَّا﴾ معًا، وأن أبا عمرو والكسائي شددا ﴿إِنَّ﴾ وخففا ﴿لَمَا﴾، فهذا أربع قراءات للقراء في هذين الحرفين.

ينظر اختلاف السبعة في هذه القراءة في: الحجة (٤/ ٣٨٠، ٣٨١)، وإعراب القراءات السبع (١/ ٢٩٤)، وحجة القراءات ص (٣٥١،٣٥٢)، والإتحاف (٢/ ١٣٥، ١٣٦)، والمحرر الوجيز (٣/ ٢١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٦)، والدر المصون (٤/ ١٣٥).

ينظر اللباب (١٠/ ٥٧٦).

(٦) في أ: فيحتمل.

(١) في أ: ما يؤتى وينتهي ما يجب ما ينتهي.

وقوله: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من الشرك، ادعوهم على أن يستقيموا على ما أقروا وأدّوا بلسانهم ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ قال بعضهم[1] الطغيان هو المجاوزة عن الحد الذي جعل له.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا وعيد.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال الحسن: هو صلة قوله: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار.

قال الحسن: بينهما دين الله بين الركون إلى الظلمة، والطغيان في النعمة.

الآية وإن كانت في أهل الشرك فهي فيهم وفي غيرهم من الظلمة أن كل من ركن إلى الظلمة يطيعهم أو يودهم فهو يخاف أن يكون في وعيد هذه الآية.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في دفع العذاب عنهم، أو إحداث نفع لهم.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا ناصر لهم دونه، ولا مانع، والله أعلم.

وتأويل قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في ظلمهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ . . .﴾ الآية، وإن خرجت مخرج العموم فهي خاصة؛ لأنه لا كل ظلم يركن إليه تمسه النار، وكأنه إنما خاطب به الأتباع؛ يقول: لا تركنوا إلى الكبراء منهم والقادة في ظلمهم وفيما يدعونكم إليه فتمسكم النار.

وقال بعض أهل التأويل نزل قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في رسول الله ﷺ حين دعاه أهل الشرك إلى ملة آبائه؛ يقول: ولا تميلوا إلى أهل الشرك، ولا تلحقوا بهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: صلاة المغرب، ظاهر هذا أن يكون فيها ذكر صلوات ثلاث: صلاة الفجر في الطرف الأول، وصلاة العصر في الطرف الأخير ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [صلاة المغرب؛ لأنه ذكر زلفًا من الليل، والزلف هي القرب منه؛ لأن الزلفى هي القربة والوسيلة إليه؛ فيكون قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾][2] أي: قريبًا من طرفي النهار من الليل، وهو المغرب، ويكون ذكر سائر الصلوات في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ذكر دلوك الشمس، وهو زوال الشمس، وغسق الليل: العشاء، أو في قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾: صلاة العشاء ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: صلاة الظهر، وليس لصلاة المغرب ذكر في الآية، لكنها ذكرت في قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

---

(١) تقدم.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

وقال بعضهم: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: هو ساعات الليل[١]، إلا أن بعض أهل التأويل صرفوها إلى الصلوات الخمس، وقالوا: قوله: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: صلاة الصبح والظهر والعصر[٢] ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء[٣].

وقال الحسن: هما زلفتان من الليل: صلاة المغرب وصلاة العشاء[٤]، وعلى ذلك جاءت الآثار في قوله ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحسنات هي الصلوات الخمس.

وروي أن رجلا أصاب من امرأة كل شيء إلا الجماع، فندم على ذلك، فأتى رسول الله، فسأله، فقال رسول الله ﷺ: ما أدري ما أرد عليك حتى يأتيني فيك شيء من الله. قال: فبينما هم كذلك إذ حضرت الصلاة، فلما فرغ من صلاته نزل عليه جبريل بتوبته فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوة وعشية، صلاة الغداة والظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يعني: الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: يعني: الصلوات الخمس ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال: توبة للتائبين[٥]، فقرأ رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، أخاص له أم عام؟ قال، «لا، بل عام للناس كلهم»[٦] فإن ثبت هذا فهو الأصل في ذلك.

وعن عثمان - في بعض الأخبار - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الصلوات الخمس الحسنات يذهبن السيئات» فقالوا: فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٧) (١٨٦٣٨، ١٨٦٣٩، ١٨٦٤٠، ١٨٦٤٤) عن مجاهد.
وذكره بمعناه السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٧) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٤-١٢٥) عن كلٍّ من: مجاهد (١٨٦٢١، ١٨٦٢٢، ١٨٦٢٣)، ومحمد ابن كعب (١٨٦٢٤، ١٨٦٢٥)، والضحاك (١٨٦٢٦).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٧-١٢٨) عن كلٍّ من: مجاهد (١٨٦٤٩ و١٨٦٥٠ و١٨٦٥١)، وقتادة (١٨٦٥٣)، ومحمد بن كعب (١٨٦٥٤، ١٨٦٥٥، ١٨٦٥٦)، والضحاك (١٨٦٥٨، ١٨٦٦٠).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٧، ١٢٨) (١٨٦٤٦، ١٨٦٤٧، ١٨٦٤٨، ١٨٦٥٢، ١٨٦٥٩).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن البصري.

(٥) في أ: للتائب.

(٦) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٣١، ١٣٢) (١٨٦٨١، ١٨٦٨٧)، وأحمد (١/ ٤٤٥)، وابن خزيمة (٣١٣) وابن حبان في صحيحه (١٧٣٠).
وللحديث ألفاظ أخرى أخرجها كل من: البخاري (٨/ ٣٥٥) كتاب التفسير سورة «هود»، باب: «وأقم الصلاة . . . الآية» (٤٦٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٥، ٢١١٦) كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٣٩/ ٣٧٦٣) عن ابن مسعود.

الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلي العظيم][(١)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات كفارات الخطايا، واقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ».

وعن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس[(٢)].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات»[(٣)].

والأخبار في هذا كثيرة.

وقال بعضهم: فيه ذكر أربع صلوات، يقول: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: الفجر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء.

وقد جاءت الآثار في أن الحسنات هن خمس صلوات.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال بعضهم: فعل الصلوات نفسها، وهو ما ذكرنا من الأخبار إن ثبت.

وقال بعضهم: نفس الصلاة لا تكفر، ولكن تذكر ما ارتكب من الذنوب فيندم عليها؛ فذلك يكفر، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ...﴾ الآية، أخبر أن الصلاة تنهى، ولا تنهى إلا بعد أن تذكر ذلك.

وقال بعضهم قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: تمنع عن الفحشاء؛ أي: ما دام فيها.

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الصلوات وغيرها من الحسنات؛ فيه إخبار أن من الحسنات [ما يكفر][(٤)] شيئًا من السيئات، والله أعلم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سبق ذكره ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة للمتعظين.

---

(١) أخرجه ابن جرير بمعناه (٧/ ١٣٠) (١٨٦٧٥، ١٨٦٧٦، ١٨٦٧٧)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٤٠) وزاد نسبته لأحمد والبزار وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، ونسبه صحيح عن عثمان بن عفان.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٩) (١٨٦٤٤، ١٨٦٦٧، ١٨٦٧٣) وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٧) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات» (٢٨٤/ ٦٦٨)، وأحمد (٣/ ٣٠٥، ٣١٧، ٣٥٧)، وعبد بن حميد (١٠١٤)، والدارمي (١١٨٦).

(٤) في أ: تكفر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ظاهر ما ذكر من الكلام أن يقول: فإن الله لا يضيع أجر الصابرين؛ لأنه ذكر الصبر بقوله: ﴿ٱصْبِرْ﴾ [ص: ١٧] لكن يحتمل قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ عن الشرور كلها وأحسن[١]، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ بل يجزيهم جزاء إحسانهم.

أو يقول: اصبر على أداء ما كلفت من الطاعات، أو تبليغ ما كلفت التبليغ إليهم.

ويحتمل وجهًا آخر: اصبر على أذاهم ولا تكافئهم [فإذا لم تكافئهم][٢] فقد أحسنت إليهم، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، أو يقول هو له: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ والله أعلم.

قال أبو عوسجة: قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: ساعات من الليل[٣]. وقال: الزلفة: المرحلة، والزلفة: القربة؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: لقربة[٤].

وقال أبو عبيدة[٥]: الزلف: [جمع][٦] زلفة، وهي الساعة، وهي المنزلة[٧] [على ما قلناه][٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ظاهر هذا يخرج على المعاتبة أو التنبيه والتذكير؛ لأنه يقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: لم لا كانوا كذا؟ فليس ثم من أولئك من يعاتب أو ينبه، لكنها تخرج على وجهين:

---

(١) في أ: فأحسن.
(٢) سقط في أ.
(٣) تقدم.
(٤) في ب: القربة.
(٥) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣٠٠).
(٦) سقط في ب.
(٧) انظر البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٢٧٠).
(٨) سقط في أ.

أحدهما: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: فهلا كانوا ذوي بقية ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناه - والله أعلم -: هلا كثر أهل الإسلام فيهم حتى قدروا على النهي عن الفساد في الأرض؛ لأنهم إذا كانوا قليلا لم يقدروا على النهي عن الفساد في الأرض؛ نحو لوط وأهله، كانوا عددًا قليلا كيف كان يقدر على النهي عن الفساد، أو المنع عن ذلك، وكنوح - أيضًا - كان معه نفر يقل عددهم، لم يقدروا على منع قومه عن الفساد ونحوه.

فإذا كان ما ذكرناه فكأنه - والله أعلم - يقول: هلا كثر أهل الإسلام وأولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض.

والثاني: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: قد كان منهم أولو بقية، لكنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض، فأهلكوا جميعًا إلا قليلا ممن أنجينا منهم، وذلك القليل قد نهوا عن الفساد في الأرض، فنجوا بين أولئك.

حاصل هذا يخرج على هذين الوجهين اللذين ذكرناهما:

أحدهما: لم يكن منهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض؛ على ما قاله بعض أهل التأويل.

والثاني: كان فيهم أولو بقية، لكنهم لم ينهوهم عن الفساد [في الأرض](١) إلا قليلا منهم فإنهم قد نهوهم عن ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ هو يخرج على وجهين:

يحتمل: واتبع: الأتباع والسفلة الذين ظلموا من أترفوا فيه من الأموال أي: وسع [عليهم وأعطوا](٢) الأموال وهم الأجلة والأئمة منهم أي: آثروا اتباع الأئمة والأجلة الذين أترفوا فيه على اتباع الرسل والأنبياء.

والثاني: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم الأجلة والأئمة ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: ما أعطوا من الأموال أي: آثروا الدنيا وما فيها على اتباع الرسل والأنبياء.

أحد التأويلين يرجع إلى السفلة والأتباع، وهو الأوّل، والثاني إلى الأجلة والأئمة هم آثروا اتباع الدنيا على اتباع الرسل، ثم تبعهم الأتباع والسفلة في ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما كان ربك ليهلك القرى إهلاك استئصال وانتقام وأهلها كلهم مصلحون، أو أكثر أهلها

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: إليهم وأعطوهم.

مصلحون، إنما يهلك القرى إذا كان أهلها كلهم مفسدين، أو عامة أهلها مفسدين؛ هذا يدل [على] أن الحكم في الدار إنما يكون بغلبة أهلها: إن كان أكثر أهلها أهل الإسلام فالحكم حكم الإسلام، وإن كان عامة أهلها أهل الحرب والكفر فالحكم حكمهم، ولا يسمّى أهلها كلهم بالكفر والفساد إذا كان أكثر أهلها مصلحين؛ ألا ترى أنه قال في قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سمى أهل [القرية][1] قرية وإن كان فيها لوط وأهله مصلحون لم يعد لوطًا وأهله من أهلها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: لا يكون في إهلاكهم ظالمًا.

ثم هو يخرج على وجهين:

أحدهما: أن الخلق له، فهو بإهلاكه لم يكن ظالمًا؛ لأنه أهلك ماله.

والثاني: أنه إنما يهلكهم بظلم كان منهم؛ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ . . .﴾ الآية، أي: إنما يهلكهم بشيء اكتسبوه، فهم بما اكتسبوا ظلموا أنفسهم، وهو كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالت المعتزلة: هذه المشيئة مشيئة القهر والقسر، وذلك مما يدفع[2] المحنة، ويزول لديه المثوبة والعقوبة، وكذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وأما عندنا فلو شاء لجعلهم أمة واحدة، مشيئة لا تزول معها المحنة، والذي يدل عليه خصال:

أحدها: أن الله تعالى قد عرفنا الإيمان والدين الذي يقع به اجتماع، أو فيه الاختلاف بما ركب فينا من العقول التي بها نعرف حقائق الأشياء ومجازاتها، ومحاسن الأمور وقبيحها، بمعونة السمع أو بالتأمل فيما يحس[3] بالأمرين جميعًا أنه لا يكون إلا بالاختيار، ولا يوصل إلى السبب الذي به يدان إلا بالاستدلال أو التعليم؛ إذ هو طاعة وتصديق، وذلك يكون ممن لا يحس[4]، وطريقه الاجتهاد، وكل ذي أضداد القسر، فمحال أن يعود الكون لو شاء على وجه قد عرفنا أنه لا يكون سمعًا وعقلا، فيكون في الحقيقة كأنه قال لو شاء أن يكون لا يكون، على أن ذا من يقبل عنه هذه الدعوى على قولهم، وهو منذ كان الخلق بين أن كان فيما شاء إثباته من أفعال الخلق فلم يكن ولم

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: يرفع.
(٣) في أ: يحسن.
(٤) في أ: يحسن.

يشأ، فكان عندهم، فهو كمن ظهر عجزه بجميع أدلة العجز، ثم يدعْ أن له القدرة بها، يقهر ما يشاء، فذلك كمن لا يقوم للانتصاب والنهوض فيدعْ أنه يقدر على الصعود، أو من لا يملك إمساك مثل ذرة أنه ممسك السموات والأرض. على أنه لو كان كذلك ليجيء أن يكون يقدر على فعل الكفر والسفه والكذب، إذ من يقدر على فعل شيء[١] لا يقدر على فعل ضده عندهم ليس ذلك بقدرة.

ثم لو كان ذلك كله بلا غير، يصير له فعلا، فكان يكون في الحقيقة سفيهًا كذوبًا، ومن كان ذلك وصفه فهو غير رب ولا حكيم، ومن ربوبيته تحت قدرة غيره أو حكمته تحتمل المضادات، فهو مسئول عما يفعل، مطالب بالحجج[٢]، فأنى يكون لمن ذلك وصفه ربوبية جل عن ذلك.

والثاني: أن الذي يكون بالقسر والقهر يكون أمر الخلقة، لا أمر فعل العبد، وذلك في الحقيقة لله، لا للبشر، وما هو له من جهة الخلقة موجود؛ لأن نفس كل أحد بالخلقة مؤمن، وقد شاء الله تلك المشيئة، فالقول بلو شاء لا معنى له؛ بل قد شاء وكان، ولا قوة إلا بالله.

والثالث: أنه وعد أن لو شاء أن يجعل كذا لفعل؛ وهو لو فعل لكان يجعل من قد آمن منهم في الحقيقة مؤمنًا في المجاز، كافرًا في الحقيقة؛ لأنهم بهذا يصيرون أمة واحدة؛ إذ صار كثير منهم مؤمنين بالاختيار، لا يحتمل أن يجعلهم على غير ذلك، فيكون محمودًا عدلا، والله الموفق.

ثم الأصل أن الله - تعالى - قد جعل أدلة كل موعود في الحس ظاهرًا، وكل مقدور عليه بالوعد والدعوى له مما جبل عليه أمرًا بيّنًا، وهذا النوع من المشيئة عندهم والدعوى بما جعل جميع مانعٌ لأن يكون كائنًا[٣]، فيصير بالذى به ادعى لنفسه من القدرة مكذبًا بما جعل لمنع مثله الأدلة، ومن ذلك وصفه، فهو غير حكيم، جل الله عن هذا.

على أن المتأمل بما أخبر[٤] يجد حقيقته دون أن يحتاج إلى دليل يوضح قدرته على ما ادعى على بقاء المحنة سبيلا سهلا بحمد الله لا يحتاج إلى ما ذكروا من المكابرة، وهو ما قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً . . .﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

---

(١) في أ: ذلك.
(٢) في أ: بالحجة.
(٣) في ب: كذلك. ولعل في الجملة سقطًا بعد «جميع».
(٤) في أ: اختبر.

ومعلوم أنهم لو كفروا جميعًا بما ذكر لكانوا مختارين، وإلى ما جاءوا به غير مضطرين، فإذا استقام كونهم على دين الكفر بذلك لا يحتمل ألا يوجب ذلك بقاء على الإيمان لو كانوا [مختارين لذلك يستقيم كونهم على دين الإيمان مختارين، أو لو جعل ذلك للمؤمنين][١] فيقدرون[٢] على قولهم أن يجعلهم كفارًا بالمحنة، لا يقدر على أن يجعلهم مؤمنين بها؛ لأن ذلك وصف العجز عندهم، وإن كان لا يكون كذلك عندنا؛ لأنه يستقيم القول بالأقدار على إحداث غيره، ومحال القول على جعل غيره قديمًا، أو على إحواج غيره إليه لا يحتمل الوصف بالقدرة على إغناء غيره عنه، وعليهم أوضح؛ إذ أجازوا [له][٣] القدرة على كل حركة للعبد وسكون بالاضطرار، ولم يجوزوا في ذلك بالاختيار، اللهم إلا أن يقولوا: لا يجوز أن يكون العبد غير كامل القدرة، وهي القدرة على مضادات[٤] الأشياء، والله يجوز له الوصف بالقدرة الناقصة، فيكون قريبًا مما جعلوا للعبد قدرة على ما يجهل الرب، ويجعله كاذبًا فيما يخبر على بقاء الربوبية له، والله لا يقدر على مثله في العبد على بقاء العبودية[٥] له بالمحنة، أو ما أقدروا العبد على إهلاك من وعد الله فيه الإبقاء، ويريد ذلك، وذلك فضله، ووعد له مع ذلك أن يعطيه كذا، فيأتي معاند فيقتله، ويمنع الرب عن إنجاز وعده، وعن سلطان بقائه؛ جل الرب عن هذا، وذلك في قولهم فيما يضرب الله لنبي أو صديق أجلا يرى به مصلحة عباده يقدر الكافر على قتله قبل مجيء ذلك الأجل، وإبطال جميع ما وعد والإيقاء بما هو صنيعه من إبقاء الحياة فيه، ولا يقدر الله على إنجاز ما وعد وإيفائه على ما أراد، والعبد بحاله إلا أن يعجزه، أو يميته، أو يجعله زمنًا، والله المستعان.

ثم الأصل أن كل مريد بفعله فيما فعله أمرًا لا يكون ذلك، وهو لم يكن فعله إلا لذلك يوجب أحد أمرين في الحكمة: إما جهلا بالعواقب وخطأ بالفعل؛ كمن يفعل فعلا يحزن عليه أو يلحقه به مكروه، فهو لا يفعله له يظهر فاعله أنه عن جهل فعل، وعلى الخطأ خرج فعله، وعلى ذلك معنى التحذير في الخلق والتنبيه بقولهم: «لدوا للموت وابنوا للخراب» وسرق ليقطع، وبارز ليقتل من حيث كان والثاني متصلا بالأول ينبه عن الغفلة على إرادة التحذير أنه إليه يئول أمر فعله وعلى ذلك قوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ . . .﴾

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) في ب: فيقدر.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: مضادة.
(٥) في ب: العبودة.

الآية [القصص: ٨]، أو أن يقال ذلك على أنه كذلك في فعله عند الله وإن جهله هو، أو يوجب السفه في الفعل والعبث؛ إذ هو يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون، أو يريد ما يتيقن أنه لا يبلغ، وإذا كان كذلك فإعطاء الله - تعالى - القدرة ليؤمن، أو خلقه ليعبد، وأراد أنه يفعل ذلك، واختار ذلك الفعل، لذلك يوجب أحد ذينك الوجهين جل الله عنهما وتعالى، وقد ثبت أن الله - تعالى - عالم بالعواقب، متعالٍ عن العبث، ثبت أنه خلق من خلق، وأعطى ما أعطى لما علم أنه يكون، وقد علم ما يكون، وعلى هذا التقدير[1] يخرج الأمر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ . . .﴾ الآية [التوبة: ٨٥].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أنه خلقهم للذى علم أنهم يصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق، أو عداوة أو ولاية، لا يريد غير الذي علم، ولا يعلم غير الذي يكون ممن يعلم ما يكون، ولا قوة إلا بالله.

وقالت المعتزلة: قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: للرحمة خلقهم؛ فقال: بعض متكلمي أصحابنا: إن الرحمة تذكر بالتأنيث وهو إنما ذكر بالتذكير؛ حيث قال: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: ولتلك خلقهم دل أنه ليس على ما يقولون.

وقال قائلون: للاختلاف خلقهم إلا من رحم ربك.

وقال بعضهم: هو صلة قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: خلقهم لئلا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

وعندنا ما ذكرنا أنه خلقهم للذى علم أنه يكون منهم، وأنهم يصيرون إليه من الاختلاف أو الاتفاق، أو العداوة أو الولاية، لا يخلقهم لغير الذي علم أنه يكون منهم، ولا يريد - أيضًا - غير ما علم أنهم يصيرون إليه، ولا يعلم غير ما يكون منهم، والله الموفق.

وتأويل المعتزلة في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أنها مشيئة [القسر والقهر][2]، فذلك بعيد؛ لأنه لا يكون في حال القهر والاضطرار إيمان؛ لأن من أكره واضطر على الإيمان حتى آمن فإنه لا يكون إيمانه إيمانا، إنما يكون الإيمان إيمانًا في حال الاختيار إذا آمن مختارًا ممتحنًا فيه، فعند ذلك يكون إيمانه إيمانًا دل أن تأويلهم فاسد.

---

(١) في ب: التقرير.
(٢) في ب: القهر والقسر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تأويله - والله أعلم -: كل الذي نقص عليك أو قصصنا عليك من أنباء الرسل، نبأ بعد نبأ، ونبأ على إثر نبأ؛ ما نثبت به فؤادك.

وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يحتمل وجوهًا.

أحدها: نثبت به فؤادك؛ لما يحتمل أن نفسه كانت تنازعه وتناقشه بأن الذي أنزل عليه أو يأتي به ملك، أو كان ذلك من إيحاء الشيطان وإلقائه عليه ووساوسه، فقص عليه من أنباء الرسل وأخبارهم؛ ليكون له آية بينه وبين ربه؛ ليعلم أن ما أنزل عليه وما يأتي به إنما هو ملك من الله؛ جاء ليدفع به نوازع نفسه وخطراته؛ إذ لا سبيل للشيطان إلى معرفة تلك الأنباء، ولا في وسعه إلقاؤها عليه، فيكون له بها طمأنينة قلبه، وهو كقول إبراهيم؛ حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]، كأن نفس إبراهيم تنازعه في كيفية إحياء الموتى، فسأل[١] ربه ليريه ذلك؛ ليطمئن بذلك قلبه، وإن كان يعلم أنه يحيي الموتى، وأنه قادر على ذلك.

والثاني: قص عليه أنباء الرسل واحدًا بعد واحد؛ ليثبت به فؤاده ليعلم كيفية معاملتهم قومهم، وماذا لقوا من قومهم، وكيف صبروا على أذاهم ليصبر هو على ما صبر أولئك، وليعامل هو قومه بمثل معاملتهم.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بنبأ بعد نبأ؛ لتنظر وتتفكر في كل نبأ وخبر، وتعرف ما فيه، فيكون ذلك أثبت في قلبه[٢]، وهو كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] بإنزال الآية واحدة بعد واحدة، وسورة بعد سورة، وذلك أثبت في فؤاده من إنزاله جملة؛ لأنه يزدحم في مسامعه وفؤاده، وإذا كان بالتفاريق نظر وتفكر، فهو أثبت في قلبه وفؤاده، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ قال بعضهم: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي: في هذه الأنباء التي قصها عليك جاءك فيها الحق، وهو ما ذكرناه.

وقال بعضهم: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي: في هذه السورة الحق[٣]، وهو ما ذكر من

---

(١) في ب: نسأله.

(٢) في ب: قوله.

(٣) أخرجه ابن جرير عن كل من:
أبي موسى (١٨٧٥٥، ١٨٧٥٦)، وابن عباس (١٨٧٥٧، ١٨٧٦١)، ومجاهد (١٨٧٦٢، ١٨٧٦٥، ١٨٧٧٢)، وسعيد بن جبير (١٨٧٦٦)، وأبي العالية (١٨٧٦٧)، والربيع بن أنس (١٨٧٦٨)، والحسن (١٨٧٦٩، ١٨٧٧١، ١٨٧٧٥)، وقتادة (١٨٧٧٣، ١٨٧٧٤).

=

الأنباء: نبأ بعد نبأ، وهو كالأول.

وقال بعضهم: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: في هذه الدنيا الحق[(١)]؛ يعني: الآيات والحجج والبراهين لرسالته ودينه ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: جاءك ما تعظ به قومك، وتذكر به المؤمنين.

[وقوله: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خص المؤمنين بذلك لما يكون منفعة الموعظة والذكرى للمؤمنين][(٢)] وإلا هو موعظة وذكرى للكل.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ المكانة هي: المنزلة والقدر، يقول: اعملوا أنتم على مكانتكم ومنزلتكم التي لكم عند أتباعكم، كأنه يخاطب به الأشراف منهم والرؤساء ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على المكانة والمنزلة التي لنا عند الله فننظر أينا أرجح؟ نحن أو أنتم؟ وأينا أخسر نحن أو أنتم؟

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: على التوبيخ والتخويف عندما بالغ في الحجاج فلم ينجع فيهم، فقال عند ذلك كقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ونحوه.

والثاني: على الإعجاز مما[(٣)] أرادوا به من المكر والكيد بقوله: اعملوا ما تريدون وأنا أعمل.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أنتم بنا ذلك ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم ذلك.

أو يقول هذا لما كانوا يوعدونه ويخوفونه من أنواع الوعيد، فيقول: انتظروا بنا ذلك ما تخوفوننا إنا منتظرون بكم ما نخوفكم نحن، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال بعض أهل التأويل: ولله غيب

= وذكره السيوطي في الدر (٣/٦٤٦) وزاد نسبته لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس، ولأبي الشيخ وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري، ولأبي الشيخ عن سعيد بن جبير والحسن البصري.

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٤٤) (١٨٧٧٦، ١٨٧٧٧) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/٦٤٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولأبي الشيخ عن الحسن البصري.

(٢) سقط في ب.

(٣) في أ: لما.

نزول العذاب وغيب ما في الأرض؛ كأنه خرج جواب ما سألوه من العذاب؛ كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ [العنكبوت: ٥٣] وكقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] وقوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علم ذلك عند الله، وكقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ﴾ [الأنعام: ٥٨] وأمثاله.

ويشبه أن يكون جواب ما تحكموا على الله من إنزال القرآن، وجعل الرسالة في غيره كقولهم[(١)]: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] و ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ﴾ [الفرقان: ٣٢] فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم . . .﴾ الآية [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا إلى الخلق، والله أعلم بما أراد ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ إليه يرجع أمر الخلق كله وتدبيرهم ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي: اعبده في خاص نفسك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ في تبليغ الرسالة إليهم؛ أي: لا يمنعنك كيدهم ومكرهم بك عن تبليغ الرسالة، ولا تخافن منهم، فإن الله يحفظك من كيدهم ومكرهم بك؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] و ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يؤيد ما ذكرناه؛ أي: ما ربك بغافل عما يريدون بك من كيدهم ومكرهم؛ بل يعلم ذلك، وينصرك، وينتصر منهم، وهو كقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٤، ٤٦] أي: اسمع قوله وجوابه [إياكما، وأرى ما يفعل، أي: أنصركما فلا تخافا؛ فعلى ذلك الأول، والله سبحانه وتبارك وتعالى أعلم][(٢)].

* * *

(١) في أ: كقوله.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

[سورة يوسف عليه السلام][١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

قوله - عز وجل -: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

ذكر تلك، وهي كلمة إشارة إلى شيء سبق ذكره، ولم يتقدم فيه ذكر شيء يشار إليه، وذكر آيات - أيضًا - وليس هنالك ذكر آيات أو شيء يكون آية في الظاهر، لكنه يشبه أن يكون قوله: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى: هذه آيات، ويجوز استعمال «تلك» مكان «هذه»، على ما يجوز ذكر «ذلك» مكان «هذا»؛ كقوله: ﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، أي: هذا الكتاب.

أو أن يكون قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما في السماء، أي: الذي في السماء آيات الكتاب.

أو يقول: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى [ما في اللوح المحفوظ أو إشارة إلى][٢] ما في الكتب المتقدمة، أي: تلك آيات الكتاب.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يحتمل المبين أنها آيات الرسالة، أو بين أنها من عند الله.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا - أيضًا - يشبه أن يخرج على وجهين:

أحدهما: إشارة إلى الحروف المقطعة المعجمة فقال: تلك الحروف المقطعة إذا جمعت كانت آيات الكتاب.

أو أن يكون الله أراد أمرًا لا نعلم ما أراد، فيقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: ذلك الذي أراد هو آيات الكتاب، والله أعلم بما أراد.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

قيل: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، أي: ليبين فيه الحلال والحرام، وما يؤتى وما يتقى؛ كقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال بعضهم: ليبين بركته وهداه ورشده، أو بين فيه الحق من الباطل، والعدل من الجور.

والكتاب هو اسم ما يكتب، وسمي قرآنًا؛ لما يقرأ، وكتابًا[٣]؛ لما عن كتاب أخذ ورفع والقرآن لما قرئ عليه.

---

(١) في ب: السورة التي فيها ذكر يوسف النبي عليه السلام.
(٢) سقط في أ.
(٣) في ب: أو كتابًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: الهاء كناية عن الكتاب الذي تقدم ذكره.

﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أنزله بلسان العرب، ولا ندرى بأى لسان كان في اللوح المحفوظ، غير أنه أخبر أنه أنزله بلسان العرب، وهكذا كل كتاب أنزل إنما أنزل بلسان المنزل عليهم، لم ينزل بغير لسانهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

ما لكم وما عليكم، وما تأتون وما تتقون، أو تعقلون أن هذه الأنباء التي يخبركم بها محمد ﷺ من الله - تعالى - لأنها كانت في كتبهم بغير لسانه، فأخبر على ما كانت في كتبهم؛ دل أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

أو لعلكم تعقلون بأن فيه شرفكم؛ لأنكم تصيرون متبوعين لما يحتاج الناس إلى معرفة ما فيه، ولا يوصل ذلك إلا بكم فتكونون متبوعين والناس أتباع لكم؛ وهو كقوله: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: ١٠]، قال أهل التأويل: أي: فيه شرفكم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾.

قال بعضهم: قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾، أي: نبين عليك أحسن البيان ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

وقال بعضهم: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ أي: نخبرك أحسن ما في كتبهم من القصص، وأحسن ما في كتبهم من الأنباء والأحاديث.

وقوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾: أصدقه، وكذلك قوله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ [الزمر: ٢٣]، وأحسن الحديث: أصدقه وأحسن القصص[1]؛ أي: أصدقه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: وقد كنتم من قبله ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) قال القرطبي: وذكر العلماء لكون هذه القصة أحسن القصص وجوهًا:
أحدها: أنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

=

عن هذه الأنباء، وعن قصصهم؛ فهذا يدل أن الإيمان بجملة الأنبياء والرسل إيمان، وإن لم يعرف أنفس الأنبياء وأنفس الرسل وأساميهم؛ لأنه أخبر أنه كان غافلا عن أنبائهم، وعن قصصهم، ولا شك أنه كان مؤمنًا بالله مخلصًا، وبالله العصمة.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه-: أحسن القصص: كلام الرحمن.

وقال مجاهد: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]: كلام ربّ العالمين.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: أن يكون الذي سألوا عنه رسول الله عن قصة يوسف صيرورة بني إسرائيل بمصر، وقد كانوا من قبل بالشام، فقال: تلك الأنباء والقصص نجعلها آيات هذه السورة التي هي من الكتاب المبين.

أو تلك آيات حجج وبراهين لرسالة محمد ﷺ إذ هي من أنباء الغيب عنهم، فعلم الأنباء عنها بالله سبحانه وتعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ دل قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ إن إخوة يوسف كانوا علماء وعيون الأرض، نجومًا يقتدى بهم ويهتدى؛ إذ بالنجوم يقتدى في الأرض، وبها يهتدون الطرق والمسالك.

ودل قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ حيث - خرج على أبويه - أنه كان بهما جميع منافع الخلق؛ إذ بهما صلاح جميع الأغذية في الأرض، ونضج جميع الفواكه والأنزال، وجميع المنافع التي بالناس حاجة إلى ذلك.

ودل قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أن الرؤيا تخرج على عين ما رأى، وتخرج على غيره بالمعنى الذي يتصل به؛ لأنه رأى الكواكب

= وثانيها: لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم بعد التقائهم عن ذكر فعلهم، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وثالثها: أن فيها ذكر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والصالحين، والملائكة، والجن، والشياطين، والإنس، والطير، وسير الملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء، والجهال، والرجال، والنساء وحيلهن ومكرهن، وذكر التوحيد، والفقه، والسير، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

ورابعها: أن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما.

وخامسها: أن «أحسن» هنا بمعنى: أعجب.

وسادسها: سميت أحسن القصص، لأن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة، وانظر إلى يوسف، وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز، قيل: والملك أيضًا أسلم بيوسف، وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا، والساقي، والشاهد - فيما يقال - فما كان أمر الجميع إلا إلى خير، والله - تعالى- أعلم. ينظر: اللباب (١١/٦، ٧).

والشمس والقمر فخرج على إخوته وأبويه؛ كأن المراد بالكواكب والنجوم، غير الكواكب، وغير الشمس والقمر، وذلك لمعنى، وذكر السجود وخرج على عين السجود وحقيقته، وكذلك ما رأى إبراهيم في المنام ذبح ولده خرج الذبح على [حقيقة الذبح][١] هو ذبح الكبش، ورأى ابنه، وكان المراد منه الكبش، فهذا أصل لنا أن الخطاب يخرج والمراد منه على عين ذلك الخطاب لا غير، وقد يخرج لمعنى فيه، فإذا اتصل ذلك المعنى بغير، وجب ذلك الحكم.

وفيه جواز الاجتهاد وطلب المعنى في المخاطبات، وكذلك ما ظهر في الناس من تعبير الرؤيا على الاجتهاد، يدل على جواز العمل بالاجتهاد.

قال بعض أهل التأويل: إن يوسف لما قصّ رؤياه على أبيه بين يدى إخوته قال له: هذه رؤيا النهار ليست بشيء.

وقال ليوسف في السرّ: إذا رأيت رؤيا بعد هذا، فلا تقصها على إخوتك.

لكن هذا كذب؛ فلا يجوز أن يكذب رسول الله يعقوب يقول له: رؤيا النهار ليست بشيء، ثم يعبر له في السرّ، ولا يتوهم على نبي من أنبياء الله الكذب، وهو كذب، فإن كان فهو بالأمر.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾.

دل قوله: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ على أن ما رأى يوسف من سجود[٢] الكواكب له، وسجود الشمس والقمر أنه إنما كان رأى ذلك في المنام، ويدل ما ذكر في آخره أيضًا على ذلك، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ودل قوله: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أن يعقوب إنما عرف ذلك بالوحي؛ حيث قطع القول في قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾، ولم يستثن في ذلك، وقد فعلوا به ما قال.

وفيه دلالة أن إخوته قد كانوا يعرفون تعبير الرؤيا، وكانوا علماء حكماء؛ حيث قال: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، لأنهم لو كانوا لا يعرفون تأويلها ولا علموا تعبيرها لم يكن لينهاه عن أن يقص على إخوته؛ لأنه لو قصها أو لم يقصها إذا لم يعلموا سواء، وفيه دلالة أن الأخ [لا][٣] يتهم في أخيه، ويكون من الأخ الخيانة إلى أخيه[٤]، والأب والأم

(١) في أ: حقيقته.
(٢) في ب: السجود.
(٣) سقط في أ.
(٤) في الآية دليل على تحذير المسلم أخاه المسلم، ولا يكون ذلك داخلًا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته؛ فيكيدوا له كيدًا، وفيها أيضًا: دليل على جواز ترك

يتهمان في الابن، والولد يتهم في والديه، ولا يكون من بعض إلى بعض خيانة في الغالب؛ لأن يعقوب نهى ولده يوسف أن يقصها على إخوته، وأخبر أنهم إذا علموا بذلك كادوه وحسدوه، ولم ينهه بمثله في أمه؛ دل أن الأخ لا يتهم في شهادة أخيه، ويتهم الأب والأم في شهادتهما لولدهما، وكذلك الولد يتهم في والديه، ولهذا قال أصحابنا: إن شهادة الوالد لولده لا تقبل، وكذلك شهادة الولد لوالديه، وأما شهادة الأخ لأخيه تقبل وإنما كان كذلك؛ لما ينتفع الولد بمال والديه، والوالد بمال ولده، ولا ينتفع الأخ بمال أخيه، وكل من انتفع بمال آخر اتهم في شهادته له، ولم تقبل شهادته، وكل من لم ينتفع به قبلت، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ظاهر العداوة.

وقال موسى حين قتل ذلك الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] بدء كل شر يكون من الشيطان، يقذف في القلوب، ويخطر في الصدور، ثم تكون العزيمة على ذلك والفعل من العبد، وهو ما قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١].

والطيف والنزغ: هو القذف والوسوسة، فإذا ذكر الله ذهب.

وقيل: الكيد والمكر سواء، وهو قول أبي عوسجة.

وقال القتبي[١]: الكيد: هو الاحتيال والاغتيال[٢].

وقيل: الكيد: هو أن يطلب إيصال الشر[٣] به على غير علم منه؛ وكذلك المكر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

تأويله - والله أعلم - أي: كما اجتبى ربك أبويك بالرسالة والنبوة، واصطفاهم بأنواع الخيرات، وأتم نعمته [عليهم، كذلك ليجتبيك ربك ويتم نعمته][٤] عليك وعلى آل يعقوب.

= إظهار النعمة عند من يخشى غائلته حسدًا، وفيها أيضًا: دليل على معرفة يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها: أنه سيظهر عليهم.
ينظر: اللباب (١١/ ١١٤).

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٢).
(٢) ذكره بمعناه البغوي (٢/ ٤٠٩)، وكذا أبو حيان (٥/ ٢٨١).
(٣) في أ: شر.
(٤) سقط في أ.

ويحتمل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: كما اجتباك ربك بالرؤيا التي أراك، يفعل ذلك بك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، قيل: تعبير الرؤيا(١).

وقال بعضهم: علمه تأويل الصحف التي كانت لإبراهيم وغيره، وعلمه تأويل تلك الصحف والأحاديث.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا﴾.

قال بعضهم: كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق حين أراد ذبح ابنه، فجعل مكانه كبشًا؛ فعلى ذلك يتم نعمته عليك، ويسجد لك إخوتك وأبويك.

ثم من الناس من استدل بهذا أن الذبيح كان إسحاق؛ لأنه ذكر إتمام نعمته على إبراهيم وإسحاق.

ودل قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ على أنه قد اجتباهم بالنبوة من بعد - أعني: أولاد يعقوب - لأن ولده من آله، وقد أخبر أنه يجتبيهم ويتم نعمته عليهم؛ كما فعل بأبويه(٢): إبراهيم وإسحاق، وكذلك روي عن الحسن أنه قال في إخوة يوسف: نبئوا بعد ما صنعوا بيوسف ما صنعوا.

وقال بعضهم: تأويل الأحاديث: العلم والكلام(٣).

قال: وكان يوسف أعبر الناس، وهو ما قال الله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما صنع به إخوته، أو عليم بما ذكر من التمام، ﴿حَكِيمٌ﴾: وضع كل شيء موضعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

وقوله - عز وجل-: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٥١) (١٨٨٠٣) عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٧) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) في أ: بأبويهم.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٥١) (٤-١٨٨) عن ابن زيد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٧) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

آية للسائل إذا كان السائل مسترشدًا، وكذلك القرآن كله، هو حجة وآية للمسترشد، وأما المتعنت فهو آية عليه.

ثم يحتمل قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: السائلين الذين سألوا؛ على ما ذكر في بعض القصة أن اليهود سألوا النبي عن أمر يوسف ونبئه، فأخبرهم بالحق في ذلك على ما كان، فهو آية لهم إن ثبت ذلك.

ويحتمل قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: السائلين الذين يسألون من بعد إلى آخر الدهر عن نبأ يوسف، كل من سأل عن خبره ونبئه فهو آية لهم.

ثم وجه جعله آية يحتمل وجوهًا:

أحدها: أنه جعل قصة يوسف ونبأه [سورة، وتلك السورة هي آيات الكتاب؛ على ما ذكر: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ؛ جعل قصة يوسف ونبأه][1] آيات من الكتاب.

ويحتمل - أيضًا - أنه جعل آية؛ أي: حجة لنبوة رسوله ورسالته؛ لأن قصته ونبأه كان في كتبهم بغير لسانه من غير ترجمة أحد منهم ولا تعليم، ثم أخبرهم على ما كان في كتبهم من غير زيادة ولا نقصان دل أنه أنما علمه بالله - تعالى - لا أنه أخذه من كتبهم، وهو ما ذكر في القصة أن اليهود سمعوا النبي يقرأ سورة يوسف، فقالوا: يا محمد، من علمكها؟ قال: «الله علمنيها» فعجبوا من قراءته إياها على ما كانت في كتبهم؛ دل أنه إنما عرفها بالله تعالى[2].

ثم يحتمل أن يكون آية لمن سأل عن حجة رسالته، أو هو آية لمن سأل عنها، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

في الآية دلالة أن لا بأس للرجل أن يخص بعض ولده بالعطف عليه والميل إليه، إذا كان فيه معنى ليس ذلك في غيره؛ ولهذا قال أصحابنا: إنه لا بأس للرجل أن يخص بعض ولده بالهبة له أو الصدقة عليه إذا لم يقصد بها الجور على غيرهم[3] من الأولاد.

ثم يحتمل تخصيص يعقوب يوسف وأخاه بالحب لهما وجوهًا:

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/٢٧٦) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/٣) وعزاه للبيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٣) في ب: غيره.

أحدها: لما رأى فيهما من الضعف في أنفسهما، والعجز في أبدانهما، فازدادت شفقته لهما وعطفه عليهما لذلك، وهذا مما يكون فيما بين الخلق.

أو كان ذلك منه لهما لصغرهما، وهذا -أيضًا- معروف في الناس أن الصغار من الأولاد يكونون[١] عندهم أحب، وقلوبهم إليهم أميل، وعليهم[٢] أعطف، ولهم أرحم من الكبار منهم.

أو خصهما بذلك لفضل خصوصية كانت لهما إما من جهة الدين، أو العلم، أو غيره، أمره الله بذلك لذلك من دون غيرهما.

أو لما بشر يعقوب بنبوة يوسف، فكان يفضله على سائر أولاده، ويؤثره عليهم لذلك.

وإنما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ بآثار تظهر عندهم، وإلا حقيقة المحبة لا تعرف.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

قيل: العصبة: الجماعة[٣].

وقال بعضهم: العصبة من عشرة إلى أربعين[٤]، والعصبة: الجماعة، أي: نحن جماعة ولنا منعة؛ ولهذا قال أصحابنا: إن التسعة مع الإمام تكون منعة يستوجبون ما تستوجب السرية إذا دخلت دار الحرب، فغنمت غنائم يخمس منها.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يعنوا ضلال الدين؛ إنما قالوا ذلك -والله أعلم- إنا جماعة تقدر على دفع من يروم الضرر به، ويقصد قصد الشر بنفسه وماله، ونحن أولو قوة، بنا يقوم معاشه وأسبابه، فكيف يؤثر هؤلاء علينا؟! وكذلك قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، لم يرد به ضلال الدين، ولكن وجهًا آخر، وقالوا ذلك؛ لما كانت له منافع من أنفسهم لم تكن تلك المنافع من يوسف وأخيه، وأبدًا إنما يؤثر المرء حب من له منافع من قبله، لا حبّ من لا منفعة له منه، فهو فيه في ضلال مبين؛ حيث يؤثر حب من لا منفعة له منه على حب من كانت له منه منافع وأمثاله، والله أعلم.

وقولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

لا يحتمل أن يكونوا عزموا على قتله، ولكن على المشاورة فيما بينهم: نفعل ذا أو ذا؛

---

(١) في ب: يكون.

(٢) في أ: عليه.

(٣) ذكره ابن جرير (٧/ ١٥٢)، والبغوي (٢/ ٤١١).

(٤) ذكره البغوي (٢/ ٤١١)، وأبو حيان في البحر (٥/ ٢٨٤).

كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]، ليس على العزيمة على واحد، ولكن على المشورة فيما بينهم، يدل على ذلك قوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أنهم أرادوا أن يخلو وجه أبيهم لهم، لا قتله، إنما أرادوا غيبته عنه.

وقال بعضهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

أي: يقبل عليكم أبوكم بوجهه.

وقال بعضهم: أي: يفرغ لكم من الشغل بيوسف(١).

وقوله - عز وجل-: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

يحتمل: ﴿صَالِحِينَ﴾، أي: تائبين.

وقال بعضهم: تكونوا صالحين عند أبيكم من بعده(٢).

وقال بعضهم: يصلح أمركم وحالكم عند أبيكم بعد ذهاب يوسف(٣).

وجائز أن تكونوا قومًا صالحين في الآخرة، وقالوا: إنهم تابوا قبل أن يزلوا ويعصوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾.

قال أبو عوسجة: يعني: في قعر البئر، والغيابة: ما يغيبه ويواريه، والجب: البئر، والجباب جمع.

وقال أبو عبيدة(٤): الغيابة: كل شيء غيب عنك شيئًا فهو غيابة.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾.

أي: يرفعه بعض السيارة؛ ولذلك يقال للطائر: يلتقط الحبّ، ويلقط: أي: يرفع.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾: إن كنتم لا بد فاعلين أن تغيبوه عنه.

وأما قول أهل التأويل إن قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قاله فلان أو فلان، فذلك مما لا نعرفه، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، والله أعلم.

وقال أبو عوسجة(٥): السيارة أصلها من السير، هو مثل المسافر، وهي القافلة؛ يعني: العير.

وقيل: الجب: الركية التي لم تطو بالحجارة، فإذا طويت فليس بجب(٦).

---

(١) ذكره ابن جرير (٧/ ١٥٢) والبغوي (٢/ ٤١٢).

(٢) في ب: بعد.

(٣) ذكره البغوي (٢/ ٤١١)، وبمعناه ذكره الرازي (١٨/ ٧٦).

(٤) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣٠٢).

(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٥٤) (١٨٨٢١) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ١٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٦) انظر ابن جرير (٧/ ١٥٤) والبغوي (٢/ ٤١٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

دل قوله: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ على أنهم قد طلبوا إخراجه من أبيهم غير مرة؛ لأن مثل هذا الكلام لا يتكلم به مبتدأ على غير مسابقة شيء من أمثاله، فدل أنهم قد استأذنوه في إخراجه غير مرة.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾.

الناصح: هو الدال على ما به نجاته، أو الدال على كل خير، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

كأن يعقوب صلى الله عليه وسلم خاف على نفسه - أعني: يوسف - الضيعة بتركهم حفظه[١]، فأمنوه على ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

وخاف عليه الضياع من جهة الجوع بتركهم حفظه أوقات الأكل فأمنوه على ذلك بقولهم: ﴿يَرْتَعْ﴾ أي: يأكل.

وخاف قلبه أن يكلفوه أمرًا يشق عليه ويشتد، فأمنوه [أيضًا على ذلك][٢] بقولهم ﴿وَيَلْعَبْ﴾ لأنه ليس في اللعب مشقة ولا شدة، فخاف عليه الضياع بالوجوه التي ذكرنا، فأمنوه على تلك الوجوه كلها حتى استنقذوه من يديه.

وقوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

قال بعضهم: يرتع: يأكل، ويلعب: يلهو كأنه خرج جوابًا لقوله: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾، قالوا له: لا تحزن عليه فإنه يرتع ويلعب؛ على التقديم والتأخير.

وقال بعضهم: يرتع: ينشط[٣]، ويلعب: يتلهى[٤].

---

(١) في ب: حفظهم.
(٢) في ب: على ذلك أيضًا.
(٣) في أ: ينبسط.
(٤) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/١٥٥، ١٥٦) عن كلٍّ من:
ابن عباس (١٨٨٢٦، ١٨٨٢٧)، وقتادة (١٨٨٢٨، ١٨٨٢٩، ١٨٨٣٠، ١٨٨٣٥)، والضحاك (١٨٨٣١، ١٨٨٣٢، ١٨٨٣٦)، والسدي (١٨٨٣٣، ١٨٨٣٤).
وذكره السيوطي في الدر (٣/١٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وقرئ بالنون[١]: ﴿نرتع ونلعب﴾.

قال القتبي[٢]: نرتع، أي: نأكل؛ يقال: رتعت الإبل: إذا رعت، وارتعتها: إذا تركتها ترعى، ويقرأ نرتع، بكسر العين، والمراد منه أن نتحارس ويرعى بعضنا بعضًا؛ أي: يحفظه، ومنه يقال: رعاك الله؛ أي: حفظك الله.

وقوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قالوا: يلعب فيما يحل ويسع من نحو الاستباق وغيره، وهو ما ذكروا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، واللعب في مثل هذا يحل، وقد روي - أيضًا - في الخبر أنه قال: «لا يحل اللعب إلا في ثلاث» وفيه: «معالجة الرجل فرسه أو قوسه، وملاعبة الرجل امرأته»، أخبر أنه لا يحل إلا ثلاث، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

قال: إني ليحزنني، عند الواقع به والغائب عنه من النعمة التي أنعمها عليه؛ لأنه كان نعمة عظيمة له فات النظر إليه، فذكر الحزن على ما فات عنه، وذكر الخوف لما خاف وقوعه في وقت يأتي وما سيقع؛ فهذا تفسير قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] لا يحزنون؛ لأنه موجود للحال، غير فائت ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا يخافون فوته؛ لأن خوف فوت النعمة ينقص على صاحبه النعمة، فآمنهم على ذلك، وهو ما ذكرنا أن الحزن يكون بالواقع للحال، والخوف على ما سيقع، والله أعلم.

---

(١) في ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أربع عشرة قراءة:
إحداها: قراءة نافع: بالياء من تحت، وكسر العين.
الثانية: قراءة البزي، عن ابن كثير: ﴿نرتَع ونلعب﴾ بالنون وكسر العين.
الثالثة: قراءة قنبل، وقد اختلف عليه: فنقل عنه ثبوت الياء بعد العين وصلاً ووقفًا، وحذفها وصلاً ووقفًا، فيوافق البزي في أحد الوجهين عنه، فعنه قراءتان.
الخامسة: قراءة أبي عمرو، وابن عامر: ﴿نرتعْ ونلعبْ﴾ بالنون، وسكون العين والباء.
وقرأ جعفر بن محمد: ﴿نرتع﴾ بالنون، ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالياء، ورويت عن ابن كثير.
وقرأ العلاء بن سيابة: ﴿يرتع ويلعب﴾ بالياء فيهما، وكسر العين وضم الباء.
وقرأ أبو رجاء كذلك، إلا أنه بالياء من تحت فيهما.
والنخعي ويعقوب: ﴿نرتع﴾ بالنون، ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالياء.
وقرأ مجاهد وقتادة، وابن محيصن: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء.
والفاعلان في هذه القراءات كلها مبنيان للفاعل.
وقرأ زيد بن علي: ﴿يُرتع ويُلعب﴾ بالياء من تحت فيهما مبنيين للمفعول.
وقرئ: ﴿نرتعى ونلعبُ﴾ بثبوت الياء ورفع الباء.
وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿نرعى ونعلب﴾ .
فهذه أربع عشرة قراءة منها ست في السبع المتواتر وثمان في الشواذ.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٢).

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

قال بعض أهل التأويل: كان يعقوب - عليه السلام - رأى في المنام أن يوسف أخذه الذئب(١)، فمن ثمة قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، لكن هذا لا يحتمل؛ لأنّ رؤيا الأنبياء أكثرها [صدق وحق](٢)، فلا يحتمل أن رأى ذلك ثم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أو يدعه يذهب معهم، لكنه خاف عليه أكل الذئب على ما يخاف على الصبيان في المفاوز والبراري؛ إذ الخوف على الصبيان في المفاوز والبراري والضياع عليهم يكون بالذئب أكثر من [أي] وجه آخر؛ لأنه جائز أن يفترسه سبع من السباع عند مغافصته إخوته واشتغالهم بما ذكر من الاستباق، ولا يحتمل الضياع من الناس يأخذه واحد من بين نفر.

وقال بعض أهل التأويل: إن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ كناية عن بنيه؛ أي: أخاف أن تهلكوه وتضيعوه.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

أولو قوة.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

تأويله - والله أعلم-: لئن أكله الذئب ونحن عصبة؛ أي: جماعة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: كأنا نحن سلمناه إلى الذئب، وعرضناه للضياع؛ هذا - والله أعلم - معنى الخسران الذي ذكروا، وإلا لم يلحقهم الخسران إذا أكله الذئب؛ لأنه إذا كان بهم قوة المنع فلم يمنعوه فكأنهم ضيعوه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: [غيابة الجب](٣) قد ذكرناه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

يحتمل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: وحي نبوة، أو وحي بشارة النجاة من ذلك الجب، أو

(١) ذكره الرازي (١٨/ ٧٨)، وابن عادل في اللباب (١١/ ٤٥)، والبغوي (٢/ ٤١٣).
(٢) في ب: حق وصدق.
(٣) سقط في أ.

بشارة الملك له والعز.

ثم قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو قول يوسف[1] حيث قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ . . .﴾ الآية [يوسف: ٨٩] ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ [يوسف: ٩٠] هذا الذي نبأهم يوسف وهم لا يشعرون بذلك.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى يعقوب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هو ما قال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . .﴾ الآية [يوسف: ٨٧] أمرهم أن يطلبوه ويتحسسوا من أمره؛ كأنه علم أنه حي؛ كقوله[2]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه حي؛ ألا ترى أنه قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] ولهذا قال حين ألقى الثوب على وجهه فارتد[3] بصيرًا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك تأويل قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إن كانت الآية في يعقوب، وإن كانت في يوسف فهو ما ذكرنا، والله أعلم بذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ الآية.

في الآية دلائل:

أحدها: أن من ارتكب صغيرة فإنه يخاف عليه التعذيب، ولا يصير كافرًا، ومن ارتكب كبيرة لم يخرج من الإيمان؛ لأن إخوة يوسف همّوا بقتل يوسف، أو طرحه في الجب، والتغييب عن وجه أبيه، وإخلائه عنه، وذلك لا يخلو منهم: إما أن تكون صغيرة أو كبيرة:

فإن كانت صغيرة فقد استغفروا عليها بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ . . .﴾ الآية [يوسف: ٩٧]؛ دل أنهم إنما استغفروا لما خافوا العذاب عليها.

وإن كانت كبيرة فلم يخرجوا من الإيمان؛ حيث صاروا أنبياء من بعد وصاروا قومًا صالحين؛ حيث قالوا: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

دل ما ذكرنا على نقض قول المعتزلة في صاحب الصغيرة أن لا تعذيب عليه، وصاحب الكبيرة أنه خرج من الإيمان، ونقض قول الخوارج في قولهم: إنه إذا ارتكب كبيرة أو صغيرة صار به كافرًا مشركًا.

---

(١) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ١٥٨) (١٨٨٤٣، ١٨٨٤٦) عن مجاهد، والبغوي (٢/ ٤١٣).

(٢) في ب: لقوله.

(٣) في أ: وارتد.

وفيه نقض قول من يقول: إن من كذب متعمدًا أو وعد فأخلف أو اؤتمن فخان يصير منافقًا؛ لأن إخوة يوسف اؤتمنوا فخانوا، ووعدوا فأخلفوا، وحدثوا فكذبوا، فلم يصيروا منافقين؛ لأنهم قالوا: أكله الذئب، [ولم يأكله](١)، وهو كذب، واؤتمنوا، فخانوا حين ألقوه في الجبّ، ووعدوا أنهم يحفظونه، ولم يحفظوه.

فإن قيل: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من علامات النفاق: من إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن [خان، وإذا وعد أخلف]»(٢) فكيف يوفق بين الآية والخبر؟! إذ هو لا يحتمل النسخ؛ لأنه خبر، والخبر لا يحتمل النسخ.

قيل: يشبه أن يكون هذا في قوم خاص من الكفرة اؤتمنوا بما أودع في التوراة من نعت(٣) محمد، فغيروه، ووعدوا أن يبينوه، فأخلفوا وكتموه، وحدثوا أنهم بينوه، فكذبوا، أو يصير(٤) منافقًا بما ذكر، إذا كان ذلك في أمر الدين، وأما في غيره: فإنه لا يصير به منافقًا، ولا يكون ذلك من أعلام المنافق، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

هذا القول منهم له في الظاهر عظيم؛ لأنهم قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، ولا يحتمل أن يكونوا عنده صدقة ثم يكذبهم، يكون نبي من الأنبياء يعلم صدق إنسان ثم لا يصدقه؛ هذا بعيد، لكن يحتمل قولهم: وما أنت بمؤمن لنا في هذا ولو(٥) كنا صادقين عندك من قبل في غير هذا.

أو يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، أي: تتهمنا ولا تصدقنا؛ لأنه اتهمهم؛ حيث قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فاعترضت له التهمة، وليس في الاتهام تكذيب؛ إنما فيه الوقف؛ لأن من ائتمن آخر في شيء ثم اتهمه فيه، لا يكون في اتهامه إياه تكذيبه؛ فعلى ذلك قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، أي: تتهمنا لما سبقت من التهمة ولو كنا صادقين.

---

(١) في ب: ولما أكله.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧٨) كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١٠٧، ١١٠/ ٥٩)، والترمذي (٤/ ٣٧٣) باب ما جاء في علامة المنافق (٢٦٣١)، وأحمد (٢/ ٣٩٧، ٥٣٦)، وأبو يعلى (٦٥٣٣)، وأبو عوانة (١/ ٢١)، وابن عدي (٧/ ٢٦٩٩)، والبغوي (٣٦) ، والبيهقي (٦/ ٢٨٨) عن أبي هريرة. وفي ب: فخان إذا وعد فأخلف.

(٣) في أ: بعث.

(٤) في أ: فيصير.

(٥) في أ: وما.

على هذين الوجهين يخرج تأويل الآية، وإلا لم يجز أن يكون نبي من الأنبياء يكذب من يعلم أنه صادق في خبره وقوله.

فإن قيل في قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: كيف خاف ذلك وقد قال له يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ . . .﴾ الآية [يوسف: ٦]؛ أنبأه أنه يجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم [عليه نعمته][١]، فكيف خاف عليه أكل الذئب، والضياع، وذلك لا يحتمل أن يقول له إلا بعلم من الله والوحي إليه؟

قيل: يحتمل أن يكون ما ذكر على شرط الخوف أنه يخاف مما ذكر فيكون له ما قال من الاجتباء، وتعليم الأحاديث، وإتمام النعمة عليه.

أو خاف ذلك على ما خافوا جميعًا على ما هم عليه من الدين وإن عصموا عما خافوا جميعًا؛ حيث قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ومعلوم أن إبراهيم لا يعبد الأصنام، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وأمثاله، وهو ما ذكرنا في غير موضع أن العصمة لا تزيل الخوف، ولا تؤمن عن ارتكاب مضاداته؛ بل يزيد الخوف على ذلك الأخيار والأبرار؛ كان خوفهم وإشفاقهم على دينهم أكثر من غيرهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾.

قال بعضهم: أي: نشتد إلى الصيد[٢].

وقال أبو عوسجة: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ هذا من السباق؛ أي: يعدون حتى ينظروا أيّهم يسبق[٣]؛ أي: يتقدم من صاحبه ويغلبه في العدو.

وقال القتبي[٤]: ﴿نَسْتَبِقُ﴾، أي: ننتضل[٥]، يسابق بعضنا بعضا في الرمي؛ يقال: سابقته فسبقته، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

الدم لا يكون كذبًا، لكنه - والله أعلم - جاءوا على قميصه بدم قد كذبوا فيه أنه دم يوسف وأن الذئب أكله[٦]، ولم يكن.

---

(١) في ب: نعمته عليه.
(٢) ذكره البغوي بمعناه (٢/ ٤١٤) ونسبه للسدى.
(٣) في ب: يستبق.
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٣).
(٥) انظر تفسير البغوي (٢/ ٤١٤)، وابن جرير (٧/ ١٥٩)، والرازي (١٨/ ٨١).
(٦) قال بعض العلماء - رضي الله عنهم-: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم، قرن الله بهذه العلامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التخريق؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس =

وقال الفراء: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: بدم مكذوب، والعرب قد تستعمل المصدر في موضع المفعول.

ثم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾.

أي: زينت لكم أنفسكم. والتسويل: هو التزيين في اللغة؛ وتأويله - والله أعلم - أي: زينت لكم أنفسكم ودعتكم إلى أمر تفصلون وتفرقون به بيني وبين ابني.

لكنا لا نعلم ما ذلك الأمر الذي زينت أنفسهم لهم، ويشبه أن يكون ذلك قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل: صبر لا جزع فيه، جميل نرضي بما ابتلينا به؛ لأن الصبر هو كف النفس عن الجزع.

والثاني: صبر جميل: كف النفس عن الجزع، وجميل: لا مكافأة فيه؛ لأنهم بما فعلوا بيوسف كانوا مستوجبين للمكافأة.

فقال: ﴿فَصَبْرٌ﴾ كف النفس عن الجزع بذلك، وجميل لا مكافأة فيه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . . .﴾ الآية؛ أي: وبالله أستعين على الصبر بما تصفون.

أو يقول: إني به أستعين على ما تقولون من الكذب حين تزعمون أن الذئب أكله ونحوه.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾.

السيارة: هي جماعة السائرين كالمسافرين.

= القميص - ويسلم القميص من التخريق. ولما تأمل يعقوب -عليه السلام- القميص، ولم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا، استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه.

ينظر: اللباب (٤١/١١).

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾.

الوارد: هو طالب الماء ومستقيه.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾.

أي: أرسل دلوه في البئر.

وقوله[١]: ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾.

قال بعضهم: بشرى هو اسم ذلك الرجل الذي كان مع المدلي الدلو، فقال له: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾؛ كما يقال: يا فلان، هذا غلام.

وقال بعضهم: هو من البشارة؛ كأنه قال له: أبشر بهذا الغلام.

وفي بعض القراءات: ﴿يا بشراي﴾ على الإضافة إلى نفسه؛ فكأنه بشر نفسه؛ أي: البشرى لي بهذا الغلام.

ويشبه أن يكون هذا كناية كلام كان هنالك، لكن لم يبين لنا ذلك، والله أعلم بذلك؛ كقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أخبر أنه أقسم؛ لكن لم [يبين لنا] ما ذلك القسم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾.

قال بعضهم: الإسرار: هو اسم الإخفاء والإظهار جميعًا؛ كقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]، أي: أظهروا الندامة، فإن كان ما ذكر أنه اسم لهما جميعًا فكأنه قال: أظهروه بضاعة؛ فإن[٢] كان على حقيقة الإخفاء والإسرار فهو على الإضمار؛ كأنه قال: وأسرّوا على ما كان وأظهروا بضاعة لئلا يطلب أصحابهم في ذلك شركة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: عليم بما عمل إخوة يوسف بيوسف، أو عليم بما عمل السيارة من الإسرار والإظهار، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه بثمن بخس ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

قال بعضهم: البخس: هو النقصان؛ أي: باعوه بثمن لا يباع مثله بمثله.

وقال بعضهم: البخس [هو][٣] الظلم[٤]؛ باعوه ظلمًا، وأخذوا ثمنه ظلمًا؛ لأنهم

---

(١) في أ: وحده.

(٢) في ب: وإن.

(٣) سقط في ب.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٦٩) (١٨٩٢٦، ١٨٩٢٧) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ١٨) وزاد نسبته لأبي الشيخ عن قتادة.

باعوا حرًّا، وبيع الحر حرام، وأخذوا ثمنه ظلمًا حرامًا؛ لأن ثمن الحرّ حرام.

وقال بعضهم: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ﴾ أي: دراهم مبهرجة وزيف.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

أي: كانت السيارة في يوسف من الزاهدين؛ حيث باعوه بثمن الدون والنقصان بما لا يباع مثله بمثل ذلك الثمن؛ خشية أن يجيئهم طالب؛ لما علموا أن مثل هذا لو كان مملوكًا لا يترك هكذا لا يطلب، فباعوه بأدنى ثمن يكون لهم، لا كما يبيع الرجل ملكه على رغبة منه؛ خشية الطلب والاستنقاذ من أيديهم.

وقال عامة أهل التأويل: قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ﴾: إن إخوة يوسف هم الذين باعوه من السيارة[١] ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، أي: لم يعرفوا منزلته ومكانه.

والأول أشبه.

وقوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

أي: كانوا في شرائه من الزاهدين؛ لما[٢] خافوا ذهاب الثمن إن كان مسروقًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾.

أي: مقامه ومنزلته.

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

إن صدق التجار أنه بضاعة عندهم. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

إن ظهر أنه مسروق، وأنه حر؛ لما وقع عندهم أن البضاعة لا تباع بمثل ذلك الثمن الذي باعوه.

[وقوله][٣]: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ تأويله - والله أعلم -: كما مكنا ليوسف عند العزيز وامرأته كذلك نمكنك عند أهل الأرض، ولكن ذكر ﴿مَكَّنَّا﴾ على الخبر؛ لأنه كان ممكنًا في ذلك اليوم عند العزيز والملك.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿مَكَّنَّا﴾، أي: كذلك جعلنا ليوسف مكانًا ومنزلة عند الناس، وفي قلوبهم مكان ما خذله إخوته، ولم يعرفوا مكانه ومنزلته وبعد ما كان شبه المملوك عند أولئك، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٦٦) (١٨٩٠٨) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ١٨) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٢) في أ: أي.

(٣) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ هذا قد ذكرناه فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

أي: لامرد لقضائه إذا قضى أمرًا كان كقوله، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال أهل التأويل: إنه بيع بعشرين درهمًا أو بعشرين [ونيف][١]؛ فذلك مما لا يعلم إلا بخبر سوى أن فيه أنه بيع بثمن الدون والنقصان بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾ والبخس هو النقصان؛ يقال: بخسته؛ أي: نقصته؛ كقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي: لا تنقصوا، وهو ما قال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾ [هود: ٨٤].

وقيل: البخس: الظلم والحرام، وقد ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ الأشد: هو اشتداد كل شيء ونهاية كل نوع في الكمال يحتمل أشده: انتهاء بلوغه أو انتهاء شبابه، أو انتهاء عقله في التمام؛ لا يخلو من هذه الوجوه الثلاثة.

وقول أهل التأويل: من ثماني عشرة سنة إلى أربعين؛ لأنه به يتم ويكمل كل نوع[٢] من ذلك إلى ذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾.

يحتمل قوله: حكمًا: الحكم بين الناس، والعلم: في الحكم.

---

(١) في أ: زيف.
(٢) في أ: أنواع.

ويحتمل قوله: ﴿حُكْمًا﴾ أي: أعطيناه النبوة، ﴿وَعِلْمًا﴾: علم الأحاديث وتأويلها؛ على ما تقدم ذكره.

أو أن يكون إذا أعطاه الحكم أعطاه العلم، وإذا أعطاه العلم أعطاه الحكم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يحتمل: الإحسان في الأعمال؛ أي: عمل أعمالا حسنة صالحة.

ويحتمل: الإحسان إلى الناس؛ أي: أحسن إليهم، أو أحسن إلى نفسه؛ لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة.

أو أن يكون قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كذلك نجزى من أحسن صحبة نعم الله وإحسانه، وقام بشكر ذلك كذلك؛ أي: مثل الذي جزى يوسف لا يريد أنه يجزي غيره عين ما جزى يوسف، ولكن يجزيه جزاء الإحسان.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

دل قوله: ﴿فِى بَيْتِهَا﴾ أن البيت قد يجوز أن يضاف إلى المرأة، وإن كان البيت في الحقيقة لزوجها؛ على ما أضاف بيت زوجها إليها.

وقوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ المراودة: قيل: هي الدعوة والطلبة، راودته، أي: دعته إلى نفسها(١).

وقال أهل التأويل: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ أي: أرادته.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

قيل: إن هذه كلمة(٢) أخذت من الكتب المتقدمة، ليست بعربية، ونحن لا نعرف ما أرادات بها، لكن أهل التأويل قال بعضهم: هلم لك(٣).

وقال بعضهم: تهيأت لك(٤).

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢/ ٤١٧)، والبحر لأبي حيان (٥/ ٢٩٣).

(٢) في أ: الكلمة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٧٦، ١٧٨) عن كلٍّ من: ابن عباس (١٨٩٧٧، ١٨٩٧٨، ١٨٩٧٩، ١٨٩٨١)، وزر بن حبيش (١٨٩٨٠، ١٨٩٨٨)، وعكرمة (١٨٩٨٢)، والحسن (١٨٩٨٣، ١٨٩٨٤، ١٨٩٨٦، ١٨٩٨٧، ١٨٩٨٨، ١٨٩٩٦)، والثوري (١٨٩٩٠).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢١) وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس، ولأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق أخرى عن ابن عباس، ولابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق أخرى عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٧٨) عن كل من: عبد الرحمن السلمي (١٩٠٠١)، وعكرمة (١٩٠٠٢، ١٩٠٠٣، ١٩٠٠٤)، وأبي وائل (١٩٠٠٥).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢١) وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر وأبي الشيخ عن يحيى بن وثاب، ولأبي عبيد وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وفي بعض القراءات(١): ﴿هئت لك﴾ بالهمز، ومعناه ما ذكرنا؛ أي: تهيأت لك.

(١) قرأ نافع وابن ذكوان: ﴿هِيتَ﴾ بكسر الهاء، وسكون الياء، وفتح التاء.
وقرأ ابن كثير: ﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء، وسكون الياء، وتاء مضمومة.
وقرأ هشام ﴿هِئْت﴾ بكسر الهاء، وهمزة ساكنة، وتاء مفتوحة، أو مضمومة.
وقرأ الباقون: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء، وياء ساكنة، وتاء مفتوحة. فهذه خمس قراءات في السبع.
وقرأ ابن عباس، وأبو الأسود، والحسن، وابن محيصن: بفتح الهاء، وياء ساكنة وتاء مكسورة.
وحكى النحاس: أنه قرئ بكسر الهاء والتاء بينهما ياء ساكنة.
وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضًا: ﴿هُيِيتُ﴾ بضم الهاء، وكسر الياء بعدها ياء ساكنة ثم تاء مضمومة بزنة «حُيِيتُ».
وقرأ زيد بن علي، وابن أبي إسحاق: بكسر الهاء، وياء ساكنة، وتاء مضمومة. فهذه أربع قراءات في الشاذ؛ فصارت تسع قراءات.
وقرأ السلمي، وقتادة بكسر الهاء وضم التاء مهموزًا، يعني: تهيأت لك، وأنكره أبو عمرو، والكسائي، ولم يحك هذا عن العرب؛ فيتعين كونها اسم فعل في غير قراءة ابن عباس ﴿هُيِيتُ﴾ بزنة ﴿حُيِيتُ﴾، وفي غير قراءة كسر الهاء، سواء كان ذلك بالياء أم بالهمز، فمن فتح التاء بناها على الفتح تخفيفًا، نحو: أين، وكيف، ومن ضمها - كابن كثير - شبهها بـ «حيث»، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين كـ «جير»، وفتح الهاء وكسرها لغتان، ويتعين فعليتها في قراءة ابن عباس ﴿هُيِيتُ﴾ بزنة: «حييت» فإنها فيها فعل ماضٍ مبني للمفعول مسند لضمير المتكلم من: «هيأت الشيء».
ويحتمل الأمرين في قراءة من كسر الهاء وضم التاء، فتحتمل أن تكون فيه اسم فعل بنيت على الضم كـ «حيث»، وأن تكون فعلاً مسندًا لضمير المتكلم، من: هاء الرجل يَهِيء، كـ «جاء يجيء»، وله حينئذ معنيان:
أحدهما: أن يكون بمعنى: حسنت هيئته.
والثاني: أن يكون بمعنى: تهيأ، يقال: هيئت، أي: حسنت هيئتي، أو تهيأت.
وجوز أبو البقاء: أن تكون «هئت» هذه من: «هاء يهاء» كـ «شاء يشاء».
وقد طعن جماعة على قراءة هشام التي بالهمز وفتح التاء، فقال الفارسي: يشبه أن يكون الهمز وفتح التاء وَهْمًا من الراوي؛ لأن الخطاب من المرأة ليوسف، ولم يتهيأ لها؛ بدليل قوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾، و ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، وتابعه على ذلك جماعة. وقال مكي بن أبي طالب: يجب أن يكون اللفظ ﴿هئت لي﴾ أي: تهيأت لي، ولم يقرأ بذلك أحد، وأيضًا: فإن المعنى على خلافه؛ لأنه لم يزل يفر منها، ويتباعد عنها، وهي تراوده، وتطلبه، وتقد قميصه، فيكف تخبر أنه تهيأ لها؟!.
وأجاب بعضهم عن هذين الإشكالين بأن المعنى: تهيأ أمرك؛ لأنها لم تكن تقدر على الخلوة به في كل وقت، أو يكون المعنى: حسنت هيئتك. و«لك» متعلق بمحذوف على سبيل البيان، كأنها قالت: القول لك، أو الخطاب لك، كهي في «سقيا لك ورعيا لك».
قال شهاب الدين: واللام متعلقة بمحذوف على كل قراءة إلا قراءة ثبت فيها كونها فعلاً؛ فإنها حينئذ تتعلق بالفعل؛ إذ لا حاجة إلى تقدير شيء آخر. وقال أبو البقاء: والأشبه أن تكون الهمزة بدلاً من الياء، أو تكون لغة في الكلمة التي هي اسم للفعل، وليست فعلاً؛ لأن ذلك يوجب أن يكون الخطاب ليوسف - عليه الصلاة والسلام - وهو فاسد لوجهين:
أحدهما: أنه لم يتهيأ لها، وإنما هي تهيأت له.
الثاني: أنه قال «لك»، ولو أراد الخطاب لقال: هئت لي، وتقدم جوابه.
وقوله: إن الهمزة بدل من الياء - هذا عكس لغة العرب؛ إذ قد عهدناهم يبدلون الهمزة الساكنة =

ويشبه أن يكون قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هأنا لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

أي: أعوذ بالله وألجأ إليه.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

قال أهل التأويل: ﴿رَبِّي﴾ أي: سيدي الذي اشتراه[١] ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: أكرم مقامي ومكاني؛ دليله: قوله لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، هذا يدل أن قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: أحسني مثواه، ولكن يشبه أن يكون أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ربه الذي خلقه.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بظلمهم وقت ظلمهم، والمثوى: الموضع الذي يثوى فيه، والثواء[٢]: المقام، والثاوى: المقيم، و ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ قيل: أعوذ بالله[٣]، وألجأ إليه، وأتحصن به.

أو: لا يفلح الظالمون: إذا ختموا[٤] بالظلم، وأما إذا انقلعوا عنه فقد أفلحوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

أما ما قاله أهل التأويل إنها استلقت له ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: حل سراويله[٥]، وأمثال هذا من الخرافات؛ فهذا كله مما لا يحل أن يقال فيه شيء من ذلك، والدلالة على فساد ذلك من وجوه:

= ياء إذا انكسر ما قبلها، نحو: «بير» و «ذيب»، ولا يقلبون الياء المكسور ما قبلها همزة، نحو: ميل،وديك، وأيضًا: فإن غيره جعل الياء الصريحة مع كسر الهاء -كقراءة نافع، وابن ذكوان - محتملة لأَنْ تكون بدلاً من الهمزة، قالوا: فيعود الكلام فيها كالكلام في قراءة هشام.

واعلم أن القراءة التي استشكلها الفارسي هي المشهورة عن هشام، وأما ضم التاء فغير مشهور عنه.

ينظر: البغوي في تفسيره (٢/ ٤١٧)، الحجة (٤/ ٤١٦) وإعراب القراءات السبع (١/ ٣٠٧) وحجة القراءات ص (٣٥٨) والإتحاف (٢/ ١٤٣-١٤٤) والمحرر الوجيز (٣/ ٢٣٢) والبحر المحيط (٥/ ٢٩٤) والدر المصون (٤/ ١٦٧). واللباب (١١/ ٥٤ - ٥٦).

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٨٥) عن كل من: السدى (١٩٠١٢، ١٩٠١٣)، ومجاهد (١٩٠١٤، ١٩٠١٥، ١٩٠١٧)، وابن إسحاق (١٩٠١٨).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٢) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) في أ: والمثوى.

(٣) ذكره البغوي (٢/ ٤١٨)، وكذا الرازي (١٨/ ٩١).

(٤) في أ: اجتمعوا.

(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٨٢) عن كل من: ابن عباس (١٩٠٣٢).

=

أحدها: قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ولو كان منه الإرادة والمراودة، لم يكن ليقول ذلك لها ويبرئ نفسه من ذلك.

والثاني: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، ولو كان شيء مما ذكروا من حل السراويل والجلوس بين رجليها، لم يكن السوء مصروفًا عنه.

والثالث: قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، ولو كان منه ما ذكروا لقد خانه بالغيب.

والرابع: قولها: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].

هذا كله يدل أن ما قاله أهل التأويل فاسد، لا يحل أن يتكلم فيه بشيء من ذلك، وليس في ظاهر الآية شيء مما قالوا لا قليل ولا كثير؛ إذ ليس فيه سوى أن همت به وهم بها.

ثم تحتمل الآية وجوهًا عندنا:

أحدها: همت به: هم عزم، وهم بها هم خطر، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذة عليه، وهو قول الحسن.

والثاني: همت به همّ الإرادة والتمكن، وهم بها هم دفع، لكنه يدخل عليه قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، لو كان همه بها هم دفع لم يكن لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ معنى، لكنه يشبه أن يكون هم بها، أي: هم بقتلها[(١)]، فإذا كان هم بقتلها فرأى برهان ربه فتركها[(٢)] لما لا يحل قتلها.

والثالث[(٣)]: كان يهم بها لولا أن رأى برهان ربه على الشرط؛ كان يهم بها لولا ما رأى من برهان ربه، وهو كقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] لولا ما كان من تثبيتنا إياك، وكذلك يخرج قول إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، أي: لو كان هو الذي ينطق لفعل هو.

ثم اختلف في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: قال بعض أهل التأويل: رأى يعقوب عاضًا على شفتيه.

= ومجاهد (١٩٠٣٣، ١٩٠٣٩)، وسعيد بن جبير وعكرمة (١٩٠٣٨، ١٩٠٤٠).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٢) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد، ولأبي الشيخ وأبي نعيم في الحلية عن ابن عباس.

(١) في ب: قتلها.
(٢) في أ: وتركها.
(٣) في ب: والثاني.

وقال بعضهم: مثل له يعقوب وصور له، فرآه[١] عاضًا على أصبعه[٢].

وقال بعضهم: رأى برهان ربه.

[و] قال بعضهم: رأى آية من كتاب الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً...﴾ الآية[٣] [الإسراء: ٣٢].

هذا كله لا يدرى.

وأصل البرهان: الحجة؛ أي: لولا ما رأى من حجة الله، وإلا كان يهمّ بها، ولكن لا ندري ما تلك الحجّة، والله أعلم بذلك.

والبرهان: هو الحجة والآية؛ لولا أن رأى حجة ربه، وبرهان ربه وآياته، أو الرسالة، ويشبه الحجّة أي: النبوة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾.

قال بعضهم: استبقا الباب: استبقت هي لتغلق الأبواب[٤]، واستبق هو ليخرج ويفر.

لكن قوله: لتغلق الباب، لا يحتمل؛ لأن الأبواب كانت مغلقة بقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾، ولكن استبقت هي لتحبسه وتمنعه، واستبق هو ليخرج ويهرب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾.

لما جرته لتحبسه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

أي: وجدا سيدها؛ هذا يدل أن قوله: ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ لم يرد به العزيز الذي اشتراه، ولكن العزيز الذي خلقه؛ لأنه قال: ﴿سَيِّدَهَا﴾، ولم يقل: سيدهما.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا يدل أن الإرادة تكون مع الفعل؛ لأنها كانت لا تعلم إرادة ضميره، فإذا أخبرت عما عرفت من الميل وإظهار الفعل، وكذلك قول إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾، وكانوا هم لا يعرفون ما في ضميره من الحبّ سوى ما ظهر لهم منه من الميل

---

(١) في ب: فرأى.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٨٤-١٨٥) عن كل من: ابن عباس (١٩٠٤٣، ١٩٠٤٤، ١٩٠٥٢، ١٩٠٥٣، ١٩٠٥٦)، وابن أبي مليكة (١٩٠٤٦)، وسعيد بن جبير (١٩٠٥٤، ١٩٠٥٥).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عكرمة وسعيد بن جبير، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن البصري.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٨٨) (١٩٠٩٤، ١٩٠٩٨) عن محمد بن كعب القرظي، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٤) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي.

(٤) في أ: الباب.

إليه وإبداء الشفقة له، فهذا يدل على ما ذكرنا من كون الإرادة مع الفعل، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

أي: دعتني، والمراودة قد ذكرنا أنها هي الدعوة؛ كقوله: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سندعوه منه ونطلبه.

فإن قيل: كيف هتك سترها بقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾؟

قيل: ليس فيه هتك الستر عليها؛ بل فيه نفي العيب والطعن عن نفسه، فالواجب على المرء أن ينفي العيب وما يشينه عن نفسه على ما فعل يوسف.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ من كذا فهو كذا، وإن كان كذا فهو كذا من كذا.

قال بعض أهل التأويل: ذلك الشاهد هو ابن عم لها رجل حليم يقال كذا[١].

وقال بعضهم: شق القميص من دبر هو الشاهد[٢]، وأمثاله؛ لكن هذا لا يعلم من كان ذلك الشاهد.

وقيل: صبي في المهد[٣].

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢/ ٤٢٢)، البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٢٩٧)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٩٣) (١٩١٤٠ و١٩١٤١ و١٩١٤٢ و١٩١٤٣) عن مجاهد.
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٩١، ١٩٢) عن كل من: سعيد بن جبير (١٩١١١، ١٩١١٥)، وهلال بن يساف (١٩١١٦)، والضحاك (١٩١١٧، ١٩١١٩)، وابن عباس (١٩١٢٠).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ عن سعيد ابن جبير، ولأبي الشيخ عن الضحاك، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.
وأيضًا: فكل من كان له تعلق بهذه الواقعة، فقد شهد ببراءة يوسف - عليه الصلاة والسلام- عن المعصية والذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف والمرأة وزوجها، والنسوة الشهود، ورب العالَم، وإبليس:
فأما يوسف - صلوات الله وسلامه عليه - فادعى أن الذنب للمرأة، وقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] و ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].
وأما المرأة فاعترفت بذلك، وقالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].
وأما زوج المرأة فقوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩].
وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ...﴾ [يوسف: ٢٦].
وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فقد شهد الله - تعالى - في هذه الآية على طهارته أربع مرات: =

وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ . وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

هذا لأن القميص إذا كان قد من قبل فهو إنما ينقد من دفعها إياه عن نفسها، وإذا كان القميص مقدودًا من دبر فهو إنما ينقد من جرها إياه إلى نفسها، لا من دفعها إياه عن نفسها؛ هذا هو الظاهر في العرف؛ لذلك قال الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ﴾ كذا ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ . فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ . . .﴾ الآية؛ استدل على أنه إنما تمزق من جرها إياه لا من دفعها عن نفسها[(١)]، ففيه دلالة جواز العمل بالاجتهاد؛ لأن القميص في الغالب لا يتمزق من دبر إلا عن جر[(٢)] من وراء، ولا من[(٣)] قبل إلا عن دفع من قدام، لذلك دل على ما ذكرنا، والله أعلم.

وإن كان يجوز أن يكون في الحقيقة على غير ذلك، لكن نظر إلى الغالب.

وقال أبو عوسجة: قوله: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾، أي: شقت ومزقت، ومقدود: أي: مشقوق، من دبر: أي: من خلف، ومن قبل: أي: من قدام، وهو مأخوذ من القبل، من قبل المرأة.

وقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ولم يقل: سيدهما؛ فهذا يدل على ما ذكرناه.

﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

أي: عند الباب، وهو ظاهر؛ أي: وجدا سيدها عند الباب.

= أولها قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

وثانيها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والرابع: قوله: (المخلصين)، وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، وهذا يدل على أن الله تعالى - استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته، وعلى كل وجه فإنه أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه.

وأما إقرار إبليس بطهارته فقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] فهذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى.

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف - عليه الصلاة والسلام - برئ عما يقوله هؤلاء.

ينظر اللباب (١١/ ٦٣، ٦٤).

(١) في أ: نفسه.

(٢) في أ: دفع.

(٣) في أ: عن.

وفي قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ فهو كذا ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ فهو من كذا - دلائل يستدل بها لمسائل لأصحابنا؛ من ذلك قولهم في حانوت فيه لؤلؤ وإهاب تنازع فيه دباغ ولؤلئي، فإنه يقضي باليد لكل واحد منهما في ذلك للؤلئي باللؤلؤ وللدباغ بالإهاب باليد؛ يستدل بغالب الأمر وظاهر اليد؛ على ما قضى عليها بالمراودة بتمزق القميص من دبر، وأمثال هذا مسائل يكثر عددها يقضى [فيها] بالدلالة الغالبة، وإن كان يجوز في الحقيقة على خلاف الظاهر.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

يشبه أن يكون كيدها أنها لما راودته عن نفسه وأمنته على إظهار ذلك وإفشائه عليه، فأفشت عليه ذلك؛ حيث أبي إجابتها، فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ذلك القول منها من كيدهن، وأصل الكيد والمكر هو الأخذ على الأمن، والله أعلم.

وفي الآية دلائل لقول أصحابنا في المتاع يختلف فيه الزوجان: فإن كان من متاع الرجال فهو في يد الرجل، وإن كان من متاع النساء فهو في يد المرأة في قول أبي يوسف ومحمد.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

يحتمل قوله: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: عن قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: عن جميع ما كان بينهما؛ أي: استر عليها، ولا تهتك عليها سترها.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

قال ليوسف ذلك القائل: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وقال للمرأة: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، لما ظهر عنده أنها هي التي راودته ودعته إلى نفسها.

ثم اختلف في قائل[1] هذا القول؛ قال بعضهم: هو زوجها؛ قال ليوسف: أعرض عن هذا، ولا تهتك عليها سترها، لكنهم قالوا: إنه كان قليل الغيرة.

وقال بعضهم: ذلك القائل هو رجل آخر هو ابن عم لها؛ وهذا أشبه[2].

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

قال بعضهم: قال هذا لها؛ لأنهم وإن كانوا يعبدون الأصنام فإنما يعبدونها ليقربوهم

---

(١) في أ: تأويل.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٩٥) (١٩١٤٦) عن ابن زيد، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٧) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

إلى الله زلفى؛ حيث قال لها: واستغفري لذنبك.

وقال بعضهم من أهل التأويل: قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ﴾ أي: إلى زوجك حيث خنتيه، فإن كان التأويل هذا فذلك يدل أن القائل لذلك رجل آخر، لا زوجها.

فإن كان التأويل هو الأوّل فإنه يحتمل كليهما أنهما كان، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ﴾.

يشبه أن تكون استكتمت سرها عند نسوة في المدينة، فأفشين سرها عند أهل المدينة، ليبلغ ذلك الخبر الملك.

أو أن لم تكن أعلمت تلك النسوة، فلابدّ من أن يعلم ذلك بعض خدمها؛ فالخادم أعلمت سرها وأفشته عند نسوة في المدينة، فقلن عند ذلك: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ﴾ أي: تدعو عبدها إلى نفسها.

وقوله - عز وجل -: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾.

قال بعضهم: الشغاف: هو حجاب القلب وغلافه، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي: بلغ حبها إياه الشغاف، ومنه يقال: مشغوف.

والمشغوف: قيل: المجنون حبًّا، وهو من العشق[1].

قال الحسن: الشغف: أن يكون قد بطن لها حبه، والشغف: أن يكون مشغوفًا به.

قال أبو عوسجة: ﴿شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي: دخل الحبّ في شغاف القلب، وهو غطاؤه.

وقال: من قرأها[2] ﴿شَعَفَهَا﴾ أي: ذهب بعقلها؛ أي: عشقها.

لكن هذا قول أولئك النسوة، فلا ندري ما أردن بذلك، إنما ذلك خبر أخبر عن قول

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/١٩٦) (١٩١٥٥) عن الشعبي، وذكره السيوطي في الدر (٣/٢٧) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الشعبي.

(٢) ينظر: اللباب (١١/٧٩).

قلنه هن، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

حيث خانت زوجها.

أو ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في حيرة من حبه، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾.

أي: بقولهن المكر: هو الأخذ في حال الأمن، وهو الخيانة فيما اؤتمن واستكتم؛ فهذه كأنها استكتمت سرّها وحبّها ليوسف عن الناس، وأفشت ذلك لنسوة في المدينة، على أن يستكتمن عن الناس، فأفشين عليها ذلك؛ فذلك المكر الذي سمعت، والله أعلم.

إلى هذا ذهب بعض أهل التأويل.

وأمكن أن تكون المرأة لم تفش سرها إليهن، لكن بعض خدمها التي اطلعت على ذلك هي التي أفشت إليهن، فأفشين هن ذلك، فلما سمعت ذلك منهن أرسلت إليهن: إمّا تنويشًا ودعاء للضيافة، وإما استزارة يزرنها، وأما قول أهل التأويل: إن النسوة كانت امرأة الخباز والساقي؛ ولا أدري من ماذا، فذلك لا نعلمه، وليس لنا إلى [معرفة](١) ذلك حاجة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ قال الحسن: متكأً: طعامًا وشرابًا(٢) وتكأة.

وقال بعضهم: الأترنج والترنج(٣).

وقال بعضهم: متكأً: وسائد وما يتكأ عليه(٤).

وقال أبو عوسجة: متكأً: ممدودًا؛ يعني: هيئات المجلس وما يتكأ عليه.

---

(١) سقط في ب.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٠٠) (١٩١٨٧، ١٩١٨٨)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير ، ولابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٠٠) عن كل من: ابن عباس (١٩١٨٤، ١٩١٨٥)، ومجاهد (١٩١٩١، ١٩١٩٥)، وليث عن بعضهم (١٩١٩٧).
وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢٨) وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس، ولمسدد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طريق آخر عنه، ولابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد، ولأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ من وجه آخر عن مجاهد، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن سلمة بن تمام، ولأبي الشيخ عن أبان بن تغلب.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٣)، وذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٣٠٢).

ومن قرأ[١]: ﴿متكا﴾ مقصورًا، وهو الأترنج وطعام؛ على ما قال الحسن[٢].
وكذلك قال القتبي[٣]؛ قال: ويقال: البزماورد[٤].
وقوله - عز وجل-: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.
أي: أعطت كل واحدة منهن سكينًا؛ ظاهر.
﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾.
هاهنا كلام أن كيف أطاع يوسف بالخروج على النساء بقولها إياه: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فذلك مما لا يحل، لكنه يخرج على وجوه:

أحدها: أنه إنما يكره الدخول عليهن، والخلوة بهن، وأما الخروج عليهن فهو ليس بمكروه؛ إذ فيه الخروج منهن؛ لأنه إذا خرج عليهن كان يقدر أن يخرج منهن؛ فكأنه لما أذنت له بالخروج عليهن خرج رغبة أن يخرج من عندهن؛ إذ لم [يكن ليقدر][٥] أن يخرج من البيت عليهن بغير إذن منها؛ فالأمر بالخروج عليهن أفاد له إذنًا بالخروج من البيت؛ إذ لا سبيل له إلى الخروج منه بلا إذن له منها، فخرج عليهن ثمت من عندهن إلى غيره من المكان، وذلك مما لا يكره إذا كان مما لا سبيل إلى ما سواه.

ويشبه أن يكون منها الأمر بالخروج حسب إذا خرج ولم تقل عليهن، ولم يعلم يوسف أنها إنما تأمره بالخروج على النساء فخرج، لكن الله - عز وجل - أخبر عن مقصودها، وكان مقصودها من الأمر بالخروج [خروجًا عليهن][٦]، فأخبر عن مقصودها بقوله:

---

(١) قرأ العامة: ﴿مُتَّكَأً﴾ بضم الميم، وتشديد التاء، وفتح الكاف والهمز، وهو مفعول به، بـ «أعتدت» أي: هيأت، وأحضرت.
والمتَّكأ: الشيء الذي يُتَّكأ عليه من وسادة ونحوها، والمتكأ: مكان الاتكاء، وقيل: طعام يجز جزًا.
وقرأ أبو جعفر، والزهري - رحمهما الله -: ﴿مُتَّكًا﴾ مشددة التاء، دون همز.
وقرأ الحسن وابن هرمز: ﴿مُتَّكَاء﴾ بالتشديد والمد، وهي كقراءة العامة، إلا أنه أشبع الفتحة؛ فتولدت منها الألف.
وقرأ ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والجحدري، وأبان بن تغلب - رحمهم الله -: ﴿مُتْكًا﴾ بضم الميم، وسكون التاء، وتنوين الكاف، وكذلك قرأ ابن هرمز، وعبد الله ومعاذ؛ إلا أنهما فتحا الميم.
ينظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٣٩) والبحر المحيط (٥/ ٣٠٢) والدر المصون (٤/ ١٧٤)، واللباب (١١/ ٨١، ٨٢).
(٢) تقدم.
(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٦).
(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ١٩٩) (١٩١٨٢) عن الضحاك، وذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٣٠٢).
(٥) في أ: يقدر.
(٦) في ب: على النساء، فخرج لكن الله عز وجل.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [ومثل هذا قد يكون في الكلام.

وجائز أن يكون قوله: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾](١) أي: عنهن، وذلك جائز في اللغة: (على) مكان (عن) كقوله: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢]، أي: عن الناس، وأمثاله كثير.

وفي هذه الآية دلالة أن مشتري يوسف كان يمنع يوسف عن أن يخرج إلى البلد والسوق، ومن أن تخالطه الناس: إما إشفاقًا على نفسه، أو لئلا يفتن به النساء، أو لئلا يطلع على نفس يوسف؛ لما وقع عنده أنه مسروق، فكيفما كان ففيه: أن [على المرء أن](٢) يحفظ ولده أو عبده إشفاقًا عليه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

أي: أكبرنه وأعظمنه من حسنه أن يكون مثل هذا بشرًا؛ ألا ترى أنهن قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ قيل: حزًّا بالسِّكين(٣).

قوله - عز وجل -: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾: قال أهل التأويل: أي: معاذ الله(٤).

وقال بعضهم: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾: كلمة تنزيه من القبيح، ودلّ هذا القول منهن أنهن كنّ يؤمِنّ بالله؛ حيث قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

كان الملك وإن لم يرونه حَسنًا عندهم، ينسبون كل حسن إلى الملائكة، والشيطان - لعنه الله - عندهم قبيح؛ فنسبوا كل قبيح إليه.

وقوله: ﴿بَشَرًا﴾.

قرأه بعضهم: ﴿بِشرًى﴾ بالتنوين، أي: ما هذا بمشترى.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

---

(١) سقط في ب.

(٢) في ب: المرء على أن.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٠٣، ٢٠٤) (١٩٢٢٠، ١٩٢٢١، ١٩٢٢٢) عن مجاهد.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٩) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٠٦) (١٩٢٤٢، ١٩٢٤٥، ١٩٢٤٧) عن مجاهد، (١٩٢٤٦) عن الحسن.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٩) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

بقولهن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: إنكن لمتنني فيه أني أراوده عن نفسه، وأنتن قطعتن أيديكن إذ رأيتنه، وأنكرتن أن يكون هذا بشرًا؛ فذلك أعظم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: دعوته إلى نفسي فاستعصم؛ قيل: امتنع؛ كقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا مانع، ويشبه قوله: استعصم بالله أو بدينه أو نبوته أو بعقله، هذا يدّل على أنه لم يكن منه ما قال أهل التأويل من حَلّ السراويل ونحوه؛ حيث قالت: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾.

قالت ذلك امرأة العزيز.

﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

يشبه أن يكون قولها[١]: ليسجنن وليكونن في السجن[٢] من الصاغرين، أو ليسجنن وليكونن من المذلّين الصّاغرين: هو[٣]: الذليل لأنه قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، فكان مكرمًا عندها معظمًا؛ فلما أبي ما راودته فقالت: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: من الذليلين.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

فيه دلالة أنه قد كان منهن من المراودة والدعاء ما كان من امرأة العزيز من المراودة والدعاء إلى نفسها؛ حيث قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ ألا ترى أنه قال في موضع آخر: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، [وكذلك قالت امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: كنتن لمتنني فيه أني راودته عن نفسه][٤]؛ وأنتن قد راودتنّه عن نفسه.

وقول يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

أي: ذلك الذل والصغار أحبّ إليّ، أي: آثر عندي وأخير في الدِّين مما يدعونني إليه؛ وإن كان ما يدعونه إليه تهواه نفسه وتميل إليه وتحبه؛ فأخبر أن السجن أحبّ إليه، أي: آثر وأخير في الدين؛ إذ النفس تكره السجن وتنفر عنه؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؟! فهذا يدل على أن ما قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا

---

(١) في أ: قوله.
(٢) في أ: السكن.
(٣) في أ: هذا.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في ب.

يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ إنما أراد به: محبة الاختيار والإيثار في الدِّين، لا محبة النفس واختيارها؛ بل كانت النفس تحب وتهوى ما يدعونه إليه؛ دليله قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وليس الدعاء في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ كما يقول بعض الناس: إنه إنما وقع في السجن؛ لأنه سأل ربه السجن فاستجيب له في ذلك؛ ولكن الدعاء في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾، وهو كقول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٣] ليس الدعاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ لأنه[١]: إخبار عما كان منهم، إنما الدعاء في قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وكذلك قول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ [هود: ٤٧].

وفي قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ دلالة على أن عند الله لطفًا لم يكن أعطى يوسف ذلك؛ إذ لو كان أعطاه لكان كيدهن وشرهن مصروفًا عنه؛ حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ ولو كان أعطي ذلك لم يكن لسؤاله ذلك معنى، فهذا ينقض على المعتزلة قولهم، حيث قالوا: إن الله قد أعطى كلا قدرة كل طاعة وقوة كل خير والدفع عن كل شر، وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ أي: لا أحد يملك صرف كيدهن عنّي لو لم تصرفه أنت، وكذلك قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ [هود: ٤٧] وهو أبلغ في الدعاء من قوله: اللهم اغفر لي وارحمني.

وقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

قال بعضهم: أمل إليهن[٢].

وقال بعضهم: قال: لو لم تصرف عنى كيدهن لأتابعهن[٣].

ويقال: الصبو: هو الخروج عن الأمر؛ يقال: كل مَنْ خرج عن[٤] دينه فقد صبا. وبهذا كان المشركون يُسمّون النبي ﷺ: صابئًا، أي: خرج مما نحن عليه.

وقال أبو بكر الأصم: الأصب: هو الأمر المعجب.

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: يكون فِعْلي فعْل الجهّال لا فِعل العلماء والحكماء، إن لم تصرف عنى كيدهن.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

---

(١) في أ: الآية.

(٢) ذكره ابن جرير (٧/ ٢٠٩)، وكذا البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢٠٩) (١٩٢٥٦) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣١) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٤) في ب: من.

أي: أجاب له ربه؛ فصرف عنه كيدهن.

هذا يدل على أن الدعاء كان في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، ليس في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، إنما هو خبر أخبره؛ حيث أخبر أنه أجاب له ربه فصرف عنه كيدهن.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

السميع لكل قول وكلام؛ خَفِيًّا كان على الخلق أو ظاهرًا، العليم به؛ لا يخفى عليه شيء.

وفي قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

دلالة على أنهن كن يدعونه إلى ذلك من وجه كان يخفى عليه ولم يشعر به؛ فالتجأ إلى الله في صرف ذلك عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

ذكر في بعض القصة أنها قالت لزوجها: ما زال يوسف يراودني عن[1] نفسي فأبيت عليه فصدقها؛ فحبسه في السجن.

وقوله - عز وجل-: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾.

قال أهل التأويل: هو قَدّ القميص من دُبره وخمش الوجه وغيره[2]، ولكنه يشبه أن يكون الآيات التي رأوها هي آيات نبوته ورسالته.

وقال بعضهم: حبسوه، لينفوا عن المرأة ما رميت به، ولينقطع ذلك عن الناس، ويموت ذلك الخبر ويذهب، فيه أنهم حبسوه بعد ما رأوا آيات عصمته وبراءته عما اتهموه، وأنهم ظلمة في حبسه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا

---

(١) في ب: من.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢١٠) عن كل من: مجاهد (١٩٢٦١، ١٩٢٦٣، ١٩٢٦٥، ١٩٢٦٧)، وعكرمة (١٩٢٦٢)، وقتادة بمثله (١٩٢٦٦)، وابن إسحاق (١٩٢٦٨).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٢) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة، ولابن المنذر عن مجاهد، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس بمثله.

كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾».

وقوله - عز وجل -: «وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ».

قيل: عبدين للملك؛ غضب عليهما الملك[١].

«قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا».

وقال بعضهم: أرض يُدعى العنب بها خمرا، أو سمي خمرًا باسم سببه وباسم أصله، [وجائز في اللغة تسمية الشيء باسم سببه وباسم أصله][٢].

«وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا»

كان أحدهما خبازًا للملك، والآخر ساقيه.

«نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ»

قال بعضهم: إحسانه في السجن؛ لما كانوا رأوه يداوي المرضي، ويعزّي حزينهم، ويجتهد في نفسه في العبادة لربه[٣]. هذا يحتمل لعله كان يبرّ أهل السجن ويصلهم، ويجتهد في العبادة لله في الصلاة له والصوم، وأنواع العبادة التي تكون فيما بينه وبين ربه، فسمياه محسنًا لذلك.

ويشبه أن يكون قالوا: «إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ» لما رأوا به سيما الخير وآثاره، أو يدعوهم إلى توحيد الله والعبادة له، وخلعهم عن عبادة الأصنام والأوثان والانتزاع من ذلك، فسمياه محسنًا لذلك.

---

(١) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢١٢) (١٩٢٧٣) عن ابن إسحاق، (١٩٢٧٤) عن قتادة.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٣) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس بمثله، ولابن جرير عن قتادة.

(٢) سقط في ب.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢١٤) (١٩٢٨٦، ١٩٢٨٧، ١٩٢٨٩) عن الضحاك، (١٩٢٨٨) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٣) وزاد نسبته لأبي الشيخ عن قتادة، ولسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب عن الضحاك.

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لما رأوه أحسن إلى أهل السجن، ويحتمل الإحسان - هاهنا-: العلم؛ أي:[1] نراك من العالمين؛ وهو قول الفراء.

وقوله - عز وجل-: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.

سمى التعبير: تأويلا؛ لأن التأويل: هو الإخبار عن العواقب؛ لذلك سموه تأويلا، ثم خرج تأويل الذي كان يعصر الخمر على العود إلى ما كان في أمره؛ من السقي للملك؛ وهو كان ساقيه؛ على ما ذكر، فلما رأى أنه دام على أمره، أول له بالعود إلى أمره الذي كان فيه. والآخر كان خبازًا؛ على ما ذكر، وهو إنما كان يخبز للناس، فلما رأى أنه حمل الخبز على رأسه، وأنه يأكل الطير - علم أنه يخرج من الأمر الذي كان فيه، وخروجه يكون بهلاكه؛ لأنه كان من قبل يخبز للناس، فصار يخبز لغيرهم؛ فاستدل بذلك على خروجه من أمره وعمله، لكنه أخبر أنه يصلب؛ لأنه كان قائمًا منتصبًا، فأول على ما كان أمره. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ هذا - والله أعلم - كان يقول لهم ذلك؛ ليعرفهم أن عنده علم ذلك؛ علم ما لا يُحتاج إليه؛ فعلم ما يحتاج إليه أحرى أن يعلم ذلك، وهذا - والله أعلم - منه احتيال؛ لينزعهم عما هم فيه من عبادة الأوثان، وعبادتهم غير الله، وليرغبهم في توحيد الله، وصرف العبادة إليه؛ ولهذا قال:

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾

هذا باللطف ما أضاف إليه أنه علمه، وإلا التعليم لا يكون إلا باختلاف الملائكة إليه، وذلك لطف من الله تعالى للرسل عليهم السلام.

وقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

تأويله - والله أعلم - أي: لا يأتيكما طعام رأيتما آثار ذلك في المنام إلا نبأتكما بتأويل ذلك قبل أن يأتي ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

أخبر أنه ترك: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية.

وقوله: ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ليس أنه كان فيه ثم تركه، ولكن تركه ابتداء؛ ما لو لم يكن تركه كان آخذًا بغيره؛ وهو كقوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليس أنها كانت موضوعة فرفعها، ولكن رفعها أول ما خلقها. وكذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾

(١) في أ: إنا.

[الرحمن: ١٠] ليس أنها مرفوعة ثم وضعها؛ أي أنشأها مرفوعة وموضوعة.

وكقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ليس أنهم كانوا فيها فأخرجهم، ولكن عصمهم حتى لم يدخلوا فيها. فعلى ذلك الأول[1]. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قال في الآية الأولى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2]، وأخبر أنهم كافرون بالله واليوم الآخر، وفيه أن من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، فهو كافر، فهذا ينقض على المعتزلة؛ حيث جعلوا بين الكفر والإيمان رتبة ثالثة، ويوسف يخبر أن من لم يؤمن بالله فهو كافر؛ وهم يقولون: صاحب الكبيرة غير مؤمن بالله، وهو ليس بكافر.

ثم أخبر أنه ترك ملة أولئك الذين لا يؤمنون بالله، واتبع ملة آبائه إبراهيم ومن ذكر، ثم أخبر عن ملة آبائه وهو ما ذكر.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾

عرفهم ملة آبائه ودينهم؛ وهو على ترك الإشراك بالله، وجعل الألوهية له، وصرف العبادة إليه. وفيه: أن الملة ليست إلا ملتين: ملّة كفر، وملة إسلام[3]. وأخبر أن من لم يكن في ملة الإسلام كان في ملة الكفر. ثم خص بذكر هؤلاء: إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأن هؤلاء كانوا مكرمين عند الناس كافة، كل أهل الدين يدّعون أنهم على دين أولئك؛ فأخبر أنهم على دين الإسلام.

والحنيف: المخلص، ليس على ما تزعمون أنتم؛ ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وفي قوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ دلالة أن الكفر كله ملة واحدة؛ حيث أخبر أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون على اختلاف مذاهبهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾.

أي: ذلك الدين والملة التي أنا عليها وآبائي من فضل الله علينا وعلى الناس؛ لأنه - عز وجل- فطر الناس على فطرة؛ يعرفون وحدانية الله وربوبيته بعقول ركبت فيهم؛ ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله وما ركب فيهم من العقول، أو ذلك الدين والهداية الذي أعطاهم من فضل الله؛ لكن أكثر الناس يتركون ذلك الدين وتلك الهداية، والله أعلم.

---

(١) في أ: الآية.

(٢) زاد في أ: ليس أنه كان فيه ثم تركه، ولكن تركه ابتداء، ما لو لم يكن تركه كان آخذًا إلى. . .

(٣) في أ: الإسلام.

وقول الله - عز وجل-: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾. يوسف - لما سئل عن تأويل الرؤيا - دعاهم إلى توحيد الله ودلهم عليه؛ فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾، وقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: عبادة رب واحد وإرضاؤه خير أم عبادة عدد وإرضاء نفر؟ لأنه إذا عبد بعضًا واجتهد في إرضائهم أسخط الباقين؛ فلا سبيل إلى الوصول إلى مقصوده والظفر بحاجته؛ إذ لا يقدر على إرضائهم جميعًا، وإن اجتهد، وأما الواحد: فإنه يقدر على إرضائه؛ إذ لا يزال يكون في عبادته وإرضائه؛ فيصل إلى حاجته والظفر بمقصوده.

والثاني: يخبر أن الواحد القهار يقهر غيره من الأرباب ومن تعبدون؛ فعبادة الواحد القهار خير من عبادة عدد مقهورين.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾.

من الأصنام والأوثان.

﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾.

آلهة.

﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾.

ولا يستحقون العبادة ولا التسمية بالألوهية؛ إنما المستحق لذلك: الذي خلقكم وخلق السموات والأرض.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾.

أي: ما أنزل الله على ما عبدتموهم وسميتم أنتم وآباؤكم آلهة من حجة ولا برهان.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: ما الحكم - في الألوهية والربوبية والعبادة - إلا لله [ليس كما تقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] يقول: ما الحكم في العبادة والألوهية إلا لله][1].

أو يقول: ما الحكم في الخلق إلا لله؛ كقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: له الخلق وله الأمر في الخلق.

و ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾.

حكمه هذا: أمر ألا تعبدوا إلا إياه.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

أي: عبادة الله وتوحيده هو الدين القيم؛ لأنه دين قام على الحجة والبرهان، وأمّا سائر الأديان فليست بقيمة؛ إذ لا حجة قامت عليها ولا برهان.

والقيم: هو القائم الذي قام بحجة وبرهان، وقال أهل التأويل: القيم: المستقيم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يحتمل: لا يعلمون؛ لما لم يتفكروا فيه ولم ينظروا؛ فلم يعلموا، ولو نظروا فيه وتفكروا لعلموا، وهذا يدلّ أن العقوبة تلزم - وإن جهل- إن أمكن له العلم به؛ فلا عذر له في الجهل إذا أمكن العلم به.

أو علموا لكنهم لم ينتفعوا بعلمهم؛ فنفى عنهم العلم لذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

هو ما ذكرنا أنه تأول رؤيا الساقي، وعبرها على[1] العود إلى ما كان يعمل من قبل؛ لما رأى أنه كان عمل على ما كان يعمل من قبل.

وعبر رؤيا الخبّاز بالهلاك؛ لما رأى أنه حمل الخبز على الرأس، والخبز إذا خبزه الخباز لا يحمله على رأسه؛ فرأى أنه قد انتهى أمره؛ إذ عمل على خلاف ما كان يعمل من قبل؛ فتأكل الطير من رأسه، فعبّر أنه يصلب وتأكل من رأسه لما رأى أنه حمل الخبز على رأسه؛ لما كان يخبز من قبل للعباد، فلما رأى أنه يخبز لغيره عبر أنه يهلك فتأكل الطير من رأسه.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

قال بعض أهل التأويل: إنه لما عبر لهما رؤياهما، قال الذي عبر له الصلب والقتل: لم أر شيئًا؛ إنما كنا نلعب[2]، فقال لهما يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: فرغ وانتهى، لكن هذا لا يعلم: أقالا ذلك أم لم يقولا، سوى أن فيه أنه عَبّر رؤياهما، وكان ما عبّر لهما، وقد علم ذلك بتعليم من الله إياه؛ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾.

قال بعضهم: ظن الذي صدق [يوسف: أنه يسقي ربه، وأنه ناج.

---

(١) في أ: عن.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/٢١٨، ٢١٩) (١٩٣٠٢، ١٩٣٠٥) عن ابن مسعود، (١٩٣٠٦) عن ابن إسحاق، (١٩٣٠٨، ١٩٣٠٩) عن مجاهد.

وذكره السيوطي في الدر (٤/٣٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن مسعود، ولأبي الشيخ عن مجاهد وقتادة بمثله.

وقال بعضهم: قال يوسف للذى ظن أنه ناج منهما، بجعل الظن ليوسف، فإن كان الذي ظن][(١)] هو ذلك الرجل؛ فكان الظن في موضع الظن؛ وإن كان الظانّ هو يوسف - فهو علم ويقين؛ أي: علم وأيقن أنه ناج منهما؛ لأنه لا يحتمل أن يشك فيما يعبر وقد علمه الله تأويل الأحاديث بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

ويحتمل على حقيقة الظن من يوسف؛ أي: وقال للذي ناج منهما ظن أنه يذكره عند ربه، وهو على التقديم والتأخير.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

قال بعض أهل التأويل: إن يوسف لما فزع إلى غير الله [وطلب إخراجه من السجن من الملك أنساه الله فيه سنين وأقره فيه عقوبة له حين رجا غير ربه لكن هذا بعيد لا يحتمل أن يكون يوسف يفزع إلى غير الله][(٢)]؛ ويدفع قلبه عن الله ويشغله بمن دونه، لكنه رأى - والله أعلم - أن الله - عز وجل - جعل سبب نجاته على يديه، وأنه بقي فيه منسيًّا؛ لما علم أنه لم يكن منه سبب يلزمهم الحبس في السجن، سوى الاعتذار إلى الناس، والاعتلال لهم على نفى ما اقترفت به زوجته، أو لينقطع ذلك الخبر [عن ألسن][(٣)] الناس، ويبعد عن أوهامهم، فرأى أنه إذا ذكّره؛ لعله أخرجه من ذلك لما رأى أنه جعل سبب نجاته على يديه؛ لا أنه رأى ذلك منه ورفع قلبه عن الله.

وهكذا جعل الله تعالى أمور الدنيا كلها بأسباب.

وعلى ذلك تعبّد عباده؛ باستعمال الأسباب مع اعتقاد القلب القدر من الله؛ نحو: ما جعل الأنزال والزراعة بأسباب يكتسبونها، ونحو الأسلحة التي اتخذت للحرب والقتال بها مما يكثر عدد ذلك، وإنما يحاربون بالله، وبه يقاتلون، ومن عنده يُنصرون.

وقد أمر بذلك كله وبتلك الأسباب؛ فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وليس كل من فعل هذا كان فزع إلى غير الله، أو رأى النصر والنجاة من ذلك الشيء والسبب؛ بل رأى ذلك كله من الله ومن عنده؛ فعلى ذلك يوسف لا يجوز أن يتوهم أنه فزع إلى مخلوق مثله، ورأى نجاته من عند ذلك، ولكن للوجه الذي ذكرناه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٣) في ب: عن الخلق ألسن.

يحتمل وجهين: أحدهما: اذكرني عند ربك؛ لعلي حبست بلا علم منه وبغير أمره؛ لأن تلك المرأة هي التي أوعدت له السجن؛ فوقع عنده أنها هي التي احتالت فى[١] حبسه؛ فقال لذلك ما قال.

والثاني: يقول: اذكرني بالذي رأيت مني وسمعت؛ لأنه دعاهما في السجن إلى التوحيد؛ حيث قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.

قال بعض أهل التأويل: أنسى الشيطان يوسف دعاء ربه الذي أنشأه وخلقه؛ فلم يدع ربه الذي هو في الحقيقة ربّ[٢].

وقال بعضهم: قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي قال له يوسف: اذكرني عند ربك ذكر ربه، وهذا أشبه، والأوّل بعيد؛ لأنه قال في آخره: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد حين ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] دل هذا أنه إنما أنسى الشيطان على ذلك الرجل فلم يذكره عنده حينًا.

وقال بعضهم: لم ينسه الشيطان، ولكن تركه عمدًا؛ لم يذكره عنده؛ لعله يتذكر ما تقدم من المقال فيزداد غضبًا عليه، فتركه عمدًا إلى أن جاء وقته - والله أعلم - وأضاف الإنساء إلى الشيطان، وكذلك قال موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، فهو - والله أعلم - لأن بدء كل شرّ يكون من الشيطان؛ لأنه يخطر بباله ويقذف في قلبه ويوسوسه، ثم يكون من العبد العزيمة على ذلك والفعل، وفائدة النسيان -والله أعلم- هو أن الله تعالى أراد أن يظهر آية رسالته وحجة نبوته؛ بكونه في السجن ويظهر براءته في شأن تلك المرأة بشهادة أولئك النسوان، وذلك علم الأحاديث التي ذكر والرؤيا التي عبرها.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

قال بعضهم: خمس سنين. وقال بعضهم: سبع سنين[٣]؛ ونحو ذلك.

---

(١) في أ: على.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢١) (١٩٣٢٥) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٧) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢٢) عن كل من: قتادة (١٩٣٣٠، ١٩٣٣١)، ووهب بن منبه (١٩٣٣٢)، وابن جريج (١٩٣٣٣).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٨) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن المنذر وأبي الشيخ عن قتادة، ولعبد الرزاق وأحمد في الزهد، وابن المنذر وأبي الشيخ عن وهب بن منبه، ولابن مردويه من طريق أبي بكر بن عياش عن الكلبي، ولأبي الشيخ عن قتادة.

ولكن لا نعلم ذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى [أنه][(١)] لبث فيه حينًا.

وقال أبو بكر الأصم: قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [سماهم: أصحاب السجن؛ لأنهم كانوا في السجن، كما يقال: أصحاب النار، وأصحاب الجنة، ونحوه، لكنه لو كان ما ذكر لقال: يا صاحبا السجن][(٢)] بالألف؛ فلما لم يقل هذا دل أنه أضافه إلى نفسه؛ كأنه قال: يا صاحبي في السجن؛ لأنهما كانا معه في السجن.

وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

قيل: فرغ[(٣)].

وقيل: انتهى الأمر الذي فيه تستفتيان وأنهي؛ كقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ . . .﴾ الآية [الإسراء: ٤].

وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ كأنه بلغ إليهما وحيًا أوحى إليه وأمر به؛ أي: هو كائن من غير رجوع كان منهما؛ على ما يقوله أهل التأويل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾.

ذكر أنه رأى، وليس فيه ذكر أنه رأى في المنام، ولكن ذكر في آخر الرؤيا؛ دل أنه رأى في المنام بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

وفيه: أن من الرؤيا ما هو حق ولها حقيقة، ومنها باطل لا حقيقة لها؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ فكأن، الرؤيا هي حق، ولها حقيقة؛ بتأويل[(٤)] عواقبها، وأضغاث أحلام: لا حقيقة لها.

---

(١) في أ: أن فيه أن.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٧).

(٤) في ب: تتأمل.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾.

أما البقرات: هي السنون، والسمان: هي المخصبات الواسعات.

﴿يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾.

العجاف: هي المجدبات.

﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾.

السنبلات: سنبلات، وخضر: عبارة عما يحصد.

﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾.

عبارة عما لا يحصد أي: لا يكون فيه ما يحصد.

فيه دلالة أن في الرؤيا ما يكون مصرحًا مشارًا إليه يعلم بالبديهة، ومنها ما يكون كناية مبهمًا غير مفسر؛ لا يعلم إلا بالنظر فيها والتفكر[1] والتأمل؛ لأنه قال: ﴿أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾، وسبع: هو سبع لا غير، وبقرات: هن كناية عن السنين، وسمان: كناية عن الخصب والسعة، يأكلهن على حقيقة الأكل لا غير.

وكذلك ﴿سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ السبع: هو سبع، والعجاف: كناية عن الشدة والجدب، وسبع سنبلات: هنّ عَيْن السنبلات، وخضر: هن كناية عما يحصد، ويابسات: كناية عما لا يكون فيه ما يحصد.

ففيه: أن من الخطاب ما لا يكون مصرحًا مبينًا مشارًا إليه؛ يفهم المراد منه بالبديهة وقت قرع الخطاب السمع، ومنه ما يكون مبهمًا غير مفسر؛ فهو على وجهين:

منه ما يفهم بالنظر فيه والتفكر.

والثاني: لا يفهم بالبديهة ولا بالنظر فيه والتفكر، إلا ببيان يقرن به سوى ذلك، على هذا تخرج المخاطبات فيما بين الله وبين الخلق والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

خاطب الأشراف من قومه والعلماء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ على ما ذكرنا فيما تقدم أن الملأ: هو اسم للأشراف منهم والرؤساء، وهكذا العادة في الملوك؛ أنهم إذا خاطبوا إنما يخاطبون أعقلهم وأعظمهم منزلة عندهم وأكرم مثواهم.

دلّ قوله: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أنه إنما رأى ذلك في المنام والله أعلم.

وقوله: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ . . .﴾ الآية.

---

(١) في ب: الفكر.

كأنه[(١)] نهاهم أن يتكلفوا التعبير للرؤيا التي رآها؛ إذا لم يكن لهم بها علم، وكذلك الواجب على كل من سئل عن شيء لا يُعلم ألا يشتغل به، ولا يتكلف علمه؛ إذا لم يكن له به علم؛ حيث قال: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾.

قال بعضهم: أباطيل أحلام كاذبة وقال بعضهم: أخلاط أحلام[(٢)]؛ مثل أضغاث النبات تجمع فيكون فيها ضروب مختلفة، وهو كما قيل في قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] أي: جماعة من أغصان الشجر.

وقال بعضهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: الضغث، والأضغاث: ما لا يكون له تأويل[(٣)]، ويقال لنوع من الكلأ: ضغث وهو الحلفا؛ يشبه البردي وغيره.

وقيل: إن الضغث والأحلام: هما اسمان لشيء لا معنى له، ولا تأويل، وهما واحد، وأصل الأحلام: كأن مخرجه من وجهين:

أحدهما: العقول؛ دليله: قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢] أي: عقولهم ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

والثاني: من الاحتلام، وهو [ما ذكرنا][(٤)] من الحلم؛ كقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ . . .﴾ [النور: ٥٩]: الآية فيشبه أن يكون يخرج على هذا؛ لأن الصبي ما لم يعقل لا يلعب به الشيطان، ولا يحتلم؛ لأن[(٥)] الاحتلام هو من لعب الشيطان به، فسمى الرؤيا الباطلة الكاذبة أحلامًا؛ لأنها من لعب الشيطان به، كما سمى احتلام الصبى حلمًا؛ لأنه إذا بلغ العقل لعب به الشيطان.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

يحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لما لا تأويل لها؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا شفيع لهم.

---

(١) في ب: :كأنهم.

(٢) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢٢٤) (١٩٣٤٢) عن قتادة، (١٩٣٤٥) وعن الضحاك. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٩) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

قلت: لم أجده في ابن جرير بهذا اللفظ، إنما هو بلفظ «كاذبة» وعزاه السيوطي أيضا لابن جرير عن الضحاك، ولأبى عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) انظر التعليق في البحر المحيط (٥/ ٣١١).

(٤) سقط في ب.

(٥) في أ: كأن.

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ لها تأويل، ولكن نحن لا نعلمها[١]، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾.

من الهلاك، وهو الساقي الذي ذكر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

أي: تذكر بعد أُمّة، قال الأمّة - هاهنا-: الحين، أي: ذكر بعد حين ووقت؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] قيل: حين ووقت معدود[٢]، وقال الحسن: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد أمّة من الناس[٣].

ويقرأ ﴿بعد أمه﴾ قال أبو عَوْسجة: الأمه: النسيان والسهو؛ أي: تذكر بعد نسيان وسهو؛ كقوله: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] يقال منه في الكلام: أمه يأمه أمها؛ فهو آمه، وأمه؛ أي: نسي.

والأمة: من الأمم والقرون التي مضت.

والأمة: النعمة، والأمم جمع.

والأمة أيضًا: الدِّين والسُّنة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] أي: على دين.

---

(١) اعلم أنه -سبحانه وتعالى- جعل هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف - صلوات الله وسلامه عليه - من السجن؛ وذلك أن الملك لما رأى ذلك، قلق واضطرب بسببه؛ لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل؛ فشهدت فطرته بأن هذا أمر عداوة وقدر بنوع من أنواع الشر، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه.

والشيء إذا صار معلومًا من وجه، وبقي مجهولا من وجه آخر - عظم شوق النفس إلى تمام تلك المعرفة، وقويت المعرفة في إتمام الناقص، لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه، فبهذا الطريق قوّى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتفسير هذه الرؤيا، وأنه -تعالى- عجّز المُعَبِّرين الحاضرين عن جواب هذه المسألة؛ ليصير ذلك سببا لخلاص يوسف - عليه الصلاة والسلام - من تلك المحنة.

واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير؛ بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين:

منه ما يكون الرؤيا فيه منتظمة؛ فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية.

ومنه ما يكون مختلطًا مضطربًا، ولا يكون فيه ترتيب معلوم، وهو المسمى بالأضغاث.

ينظر اللباب (١١/١١٨).

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/٢٢٧) (١٩٣٥٤، ١٩٣٥٥، ١٩٣٥٦) وذكره السيوطي في الدر (٤/٣٩) وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن.

ويقال: الأمة: القامة أيضًا؛ يقال: فلان حسن الأمة؛ أي: حسن القامة، ويقال: الأمم: القريب.

فهو يحتمل هاهنا الوجهين اللذين ذكرناهما؛ أي: ذكر بعد حين ووقت، أو بعد نسيان؛ من قرأه بالنصب، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

معناه: أي أنا أنبئكم ببيان تأويلها لا أنه كان ينبئهم هو بنفسه؛ ألا ترى أنه قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾. ﴿يُوسُفُ﴾ فيه إضمار؛ كأنه قال: فأرسلوني إلى يوسف، وليس في تلاوة الآية أنه أرسل إليه، ولا إتيانه إليه، ولكن فيه دليل أنه أرسل إليه فأتاه؛ فلما أتاه قال له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

قيل: الصدّيق: هو كثير الصدق[١]؛ كما يقال: شِرِّيب وفِسِّيق وسِكِّير؛ إذا كثر ذلك منه، والصديق: هو الذي لم يؤخذ عليه كذب قط، أو سماه صديقًا لما عرف أنه رسول الله، وهو ما قال في إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

أو يقول: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أنا أتعلم منه؛ فأنبئكم بتأويله.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

فأفتاها له وعبرها عليه؛ وهو ما قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إلى آخر ما ذكر.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

هذا تفسير[٢] رؤيا الملك للذي سأله.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

هذا يحتمل وجوهًا:

يحتمل: يعلمون أن هذه الرؤيا حق ولها حقيقة؛ ليس كما قال أولئك: أضغاث أحلام.

والثاني: يعلمون فضلك على غيرك من الناس، أو يعلمون أنك تصلح لحاجاتهم التي في حال يقظتهم؛ فيرفعونها إليك؛ كما أصلحت ما كان لهم في حال نومهم، ثم علمهم الزراعة، وجمع الطعام[٣] والادخار أن كيف يدّخر حتى يبقى إلى ذلك الوقت، فقال:

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٩)، وأبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٣١٤).
(٢) في أ: تعبير.
(٣) في أ: الطاعات.

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ قال بعضهم: أي: دائمًا؛ أي: تداومون الزراعة فيها. وقال أبو عوسجة: دأبا: من الدوب؛ من الجدّ والتعب.

وقال القتبي[١]: دأبا: أي: جدًّا في الزراعة ومتابعة. وكله واحد.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

لا تنقوه؛ لأن ذلك أبقى له من إذا نقي وميز، إلا قليلا مما تأكلون؛ فتنقونه إن شئتم؛ أي: قدر ما تأكلون.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾.

قيل: مجدبات من الشدة[٢].

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾.

أي: ما ادخرتم لهن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

قال بعضهم: تدخرون[٣].

وقال بعضهم: تحرزون[٤].

قال أبو عوسجة: أحصنته، أي: ادخرته.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾.

قال بعضهم: هو من الغيث؛ وهو المطر؛ أي: يمطرون[٥]. وقيل: يغاثون بالمطر؛ من الإغاثة والغوث.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو من عصر الأعناب والدهن والزيت وغيره[٦]؛ إنما هو إخبار عن

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٨).

(٢) ذكره بمثله البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢٩) (١٩٣٨٠) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٠، ٤١) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٢٩) (١٩٣٨٢) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٤٢٩).

(٥) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢٢٩، ٢٣٠) عن كل من: قتادة (١٩٣٨٥)، والضحاك (١٩٣٨٦)، وابن عباس (١٩٣٨٧)، مجاهد (١٩٣٨٨).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤١) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٦) أخرجه ابن جرير بمثله (٧/ ٢٣٠) عن كل من: ابن عباس (١٩٣٨٩، ١٩٣٩٠، ١٩٣٩١)، ومجاهد (١٩٣٩٢)، وقتادة (١٩٣٩٥، ١٩٣٩٦).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤١) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عباس، ولابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق آخر عن ابن عباس، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

الخصب والسعة.

وقال بعضهم: قوله: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أي: ينجون؛ يقول: من العصر يعني الملجأ: أي يلجئون إلى الغيث، والعصرة المنجاة؛ وهو قول أبي عبيدة[1]. وأمّا قول غيره من أهل الأدب والتأويل: فهو من العصر؛ يعني: عصر العنب وغيره والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ يعني: يوسف [فلما جاءه الرسول، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: فيه دلالة أن قول يوسف][2] للرجل.

﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

إنما طلب بذلك براءة نفسه فيما اتهم به، ليس كما قال أهل التأويل؛ لأنه لو كان غير ذلك لكان لا يرد الرسول إليه ولكنه خرج والله أعلم.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

يحتمل هذا من وجهين:

أحدهما: أهُنَّ على كيدهن بعدُ، أم رجعن عن ذلك؟

والثاني: ليعلم الملك براءته مما قرف به واتهم. [ليظهر عنده أنه كان بريئًا مما قرف به واتهم][3].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

إنهن كدن ثم قال لهن الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذا يدل أن

(١) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣١٣).
(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٣) سقط في أ.

الملك قد علم أنهن راودن يوسف عن نفسه؛ لأنه قال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ﴾ ولم يقل لهن: أراودتن أم لا؟ ولكنه قطع القول فيه.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

بدأ بهن حتى أقررن أنه كان بريئًا ما قرف به واتهم، ثم أقرت امرأة الملك بعد ذلك لما أقر النسوة؛ فقالت:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

قيل: الآن تبين الحق وتحقق[1].

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

وقوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكن وأمركن، والخطب: الشأن، وراودتن: قد ذكرناه.

وقوله: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾.

قيل: معاذ الله[2]، وقيل: هي كلمة تنزيه وتبرئة من القبيح.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

قال أهل التأويل: الزنا، ولكن قوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ هو السوء الذي قالت، ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] هو ذلك السوء قالت إنه أراده بها قلن ما علمنا منه ذلك.

وقوله: ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

قد ذكرناه أنه تبين وتحقق[3].

وفي قوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

دلالة أن لم يكن منه ما قاله [أهل][4] التأويل من حلّ السراويل وغيره؛ لأنه لو كان منه ذلك لكُنّ[5] قد علمن منه السوء.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

قوله: ذلك الرد الذي كان منه وترك الإجابة لرسول الملك؛ حيث قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٣٤، ٢٣٥) عن كل من: ابن عباس (١٩٤١٤)، ومجاهد (١٩٤١٥، ١٩٤١٨، ١٩٤٢٠)، وقتادة (١٩٤١٩، ١٩٤٢١)، والسدي (١٩٤٢٢، ١٩٤٢٣)، والضحاك (١٩٤٢٤)، وابن إسحاق (١٩٤٢٥).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٢) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن جرير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله.

(٢) تقدم.

(٣) في أ: الحق.

(٤) سقط في ب.

(٥) في ب: لكان.

ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب؛ في أهله إذا غاب عني[١]؛ ردًّا لقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ وتصديقًا لقوله؛ حيث قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦].

وقال بعض أهل التأويل: ذلك ليعلم الله أني لم أخنه؛ يعني الزوج بالغيب[٢]، لكن هذا بعيد، إنه قد علم يوسف أن الله قد علم أنه لم يخنه بالغيب.

وقول أهل التأويل لما قال يوسف: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له الملك: ولا حين هممت ما هممت؟ فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: هذا مما لا نعلمه[٣].

وقد ذكرنا التأويل في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] ما يحل ويسع أن يتكلم به، وفساد تأويل أهل التأويل من الوجوه التي ذكرنا.

---

(١) دلت هذه الآية على طهارة يوسف - صلوات الله وسلامه عليه - من الذنب من وجوه:
الأول: أن الملك لما أرسل إلى يوسف - صلوات الله وسلامه عليه - وطلبه، فلو كان يوسف مُتَّهَمًا بفعل قبيح، وقد كان صدر منه ذنب، وفُحْشٍ - لاستحال بحسب العرف والعادة، أن يطلب من الملك أن يفحص عن تلك الواقعة، وكان ذلك سعيا منه في فضيحة نفسه، وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه.

والثاني: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته، ونزاهته ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وفي المرة الثانية: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾.

والثالث: أن امرأة العزيز اعترفت في المرة الأولى بطهارته، حيث قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ﴾، وفي المرة الثانية قولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا إشارة إلى أنه صادق في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾.

والرابع: قول يوسف ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

قال ابن الخطيب: والحَشْوِيَّة يذكرون أنه لما قال هذا الكلام، قال جبريل - عليه السلام-: ولا حين هممت. وهذا من روايتهم الخبيثة، وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم في تحريف ظاهر القرآن.

والخامس: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، يقتضي أن الخائن لا بد أن يفتضح؛ فلو كان خائنا لوجب أن يفتضح، ولَمَّا خلصه الله من هذه الورطة، دل ذلك على أنه لم يكن من الخائنين.

ينظر: اللباب (١١/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٢٣٥، ٢٣٦) عن كل من: مجاهد (١٩٤٣٠)، وأبي صالح (١٩٤٣٣)، والضحاك (١٩٤٣٤).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٣) وزاد نسبته لابن عبيد وابن المنذر عن مجاهد، ولابن المنذر وأبي الشيخ عن أبي صالح.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٣٧،٢٣٩) عن كل من: ابن عباس (١٩٤٣٥، ١٩٤٣٦، ١٩٤٣٧)، وسعيد ابن جبير (١٩٤٣٨، ١٩٤٤٠، ١٩٤٤٣)، وأبي الهذيل (١٩٤٤١، ١٩٤٤٢)، والحسن (١٩٤٤٤، ١٩٤٤٥)، وأبي صالح (١٩٤٤٦، ١٩٤٤٧)، وقتادة (١٩٤٤٨، ١٩٤٤٩)، وعكرمة (١٩٤٥٠).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٣) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ عن أبي صالح، ولابن المنذر عن الحسن وابن جبير، ولابن المنذر وعبد بن حميد عن مجاهد، ولابن أبي حاتم عن قتادة.

ومعنى قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾.

أي: عصم ربي. والله أعلم.

إنه لما قال ذلك؛ ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لما عصمني الله عن ذلك، ولو لم يكن عصمني لكنت أخونه ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ أي: [ما][1] عصم ربي؛ لأن النفس جبلت وطبعت على الميل إلى الشهوات واللذات، والهوى فيها والرغبة والتوقي عن المكروهات والشدائد؛ ألا ترى أنه قال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا . فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ . وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١] أثبت للنفس الهوى وإيثار الحياة الدنيا وشهواتها، هذا يدل أن قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ هو محبة الاختيار والإيثار في الدين لا ما تختار النفس وتؤثر، النفس أبدًا تختار وتؤثر ما هو ألذّ وأشهى، وتنفر عن الشدائد والمكروهات، على هذا طبعت وجبلت.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: [لا يجعل][2] فعل الكيد والخيانة هدى ورشدًا، إنما يجعل فعل الكيد والخيانة ضلالا وغواية.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [أي: أجعله لنفسي خالصًا لحوائجي وأن يكون قوله: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾][3]:

أصدر لرأيه وأطيع أمره، في هذا يقع استخلاصه إياه؛ ولذلك قال: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ...﴾ الآية لا أن يجعله لحاجة نفسه خالصًا دون الناس لا يشرك غيره فيه؛ دليله ما ذكر في حرف حَفْصَة ﴿إنك اليوم لدينا مطاع أمين﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾.

ولم يذكر فيه أنه أتى به، ولكن قال: فلما كلمه؛ فهذا يدل أنه قد أتى به وإن لم يذكر أنه أتى به؛ حيث قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ قيل: المكين: الوجيه، وقيل: المكين: الأمين المرضي عندنا والأمين على ما استأمناك.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

سأل هذا لما علم أنه ليس في وسعهم القيام بإصلاح ذلك الطعام، وعلم أنه لو ولي غيره الخزائن لم يعرف إنزال الناس منازلهم؛ في تقديم من يجب تقديمه، والقيام بحاجة الأحق من غيره. وعلم أنه إليه يرجع، ويقع حوائج أكثر الناس، وبه قوام أبدانهم؛ فسأله

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: لا يحتمل، وفي ب: يجعل.
(٣) سقط في أ.

ليقوم بذلك كله، وعلى يديه يجري.

ولذلك قال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

قال بعضهم: حفيظ لما[١] وليت عليم بأمره[٢].

وقيل: حفيظ أي: حاسب، عليم: أي بالألسن كلها. وقيل: حفيظ لما في الأرض من غلة؛ عالم بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: حفيظ لما تحت يدي، عليم بالناس. وقيل: حفيظ بصير بتقديره عالم بساعات الجوع حين يقع[٣]، إني حفيظ لما استحفظت عليم بحوائج الناس، أو عليم بتقديم الأحق.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يقول - والله أعلم-: كما برأنا يوسف مما قرف به، وأظهرنا براءته منه؛ مكناه[٤] في الأرض حتى احتاج أهل نواحي مصر وأهل الآفاق إليه.

أو أن يقال: كما حفظناه وأنجيناه؛ مما قصد به إخوته من الهلاك؛ نمكن له في الأرض. وجائز أن يكون قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جوابه: كما مكنا ليوسف في الأرض بعدما أخرج من عليه الإيواء[٥] والضم، كذلك نمكنك في الأرض ونؤوي؛ بعدما أخرجك من عليه إيواؤك.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

أي: ينزل منها حيث يشاء، أو يسكن منها حيث يشاء.

وقوله - عز وجل-: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

يحتمل قوله: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ سعة الدنيا ونعيمها؛ كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

ويحتمل ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾: أمر الدين من النبوة والعصمة، وهو على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: ليس لله أن يختص أحدًا برحمته[٦] ولا يصيب من رحمته إنسانًا دون إنسان، وعلى قولهم لم يكن من الله إلى رسول من الرحمة إلا وكان إلى إبليس مثله.

---

(١) في ب: بما.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٤١) (١٩٤٦٣) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٤١) (١٩٤٦٤) عن شيبة الضبي، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبي.

(٤) في ب: ملكناه.

(٥) في أ: الإبراء.

(٦) في ب: بالرحمة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: لا نضيع أجر من أحسن صحبة الله في الدنيا والآخرة؛ أي نجزيه جزاء إحسانه أو يقول: ولا نضيع أجر من أحسن صحبة نعم الله وقبلها بالشكر له.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي ثواب الآخرة وأجرها خير لهم من ثواب الدنيا وأجرها.

وقوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾.

صدقوا.

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك. أو ﴿ءَامَنُواْ﴾ صدقوا؛ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي والفواحش.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

لما أراد الله أن يبلغ أمر يوسف؛ فيما أراد أن يبلغ جعلهم بحيث لا يعرفونه؛ لذلك قال: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: لا يعرفونه؛ كقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] أي: غير معروفين عند إبراهيم، والمنكر: هو الذي لا يعرف في الشرع ولا في العقل.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾.

أي: أعطى لهم الطعام الذي طلبوا منه.

قال أبو عوسجة: الجهاز: المتاع. والجهاز - أيضًا-: متاع المرأة التي تجهز به، ولا يقال: جِهاز بخفض الجيم.

وقال أهل التأويل: إن يوسف -عليه السلام- قال لهم حين دخلوا عليه أنتم عيون؛ بعثكم ملككم تنظرون إلى أهل مصر ثم تأتونه بالخبر وتأتونه بكذا[١].

ذلك مما لا نعلمه أنه قد كان قال لهم ذلك أم لا، وغير ذلك من الكلمات التي قالوا: إنه قال لهم كذا وقالوا هم له كذا، نحن كذا كذا رجلا؛ فهلك منا كذا، ولنا أب كذا: مثل

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٤٣) (١٩٤٧١) عن السدي، وذكره بمثله السيوطي في الدر (٤/ ٤٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي الجلد.

هذا لا يكون كلام الأنبياء إنما هو كلام بعض العوام الغوغاء. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

مثل هذا لا يحتمل أن يقوله يوسف ابتداء؛ على غير سبب أو كلام كان هنالك، لكنه لم يذكر الذي كان؛ ونحن لا نعرف ما الذي كان جرى هنالك فيما بينهم.

وكذلك قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

أمَّا أهل التأويل فإنهم قالوا: قال لهم ائتوني بأخ لكم من أبيكم إلى آخر ما ذكر؛ لأنه لما قال لهم: إنكم جئتم عيونًا لملككم؛ فأمر بحبسهم، فقالوا: نحن بنو يعقوب النبي، وكنا اثنى عشر رجلا؛ فهلك منا رجل في الغنم، ووجدنا على قميصه دمًا؛ فأتينا أبانا فقلنا: كذا، وقد خلفنا عند أبينا أخًا له؛ من أم الذي هلك؛ فعند ذلك قال [لهم][1]: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لكن هذا الذي ذكروا لا يكون سببًا ولا جوابًا له، وقد ذكرنا أنه لا يصح هذا الكلام مبتدأ، لكنا نعلم بالعقل أنه كان هنالك سبب، ومعنى أمر يوسف أن يقول لهم ذلك، وإلا لا يحتمل أن يقول لهم يوسف: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وهو كان يعلم أن أباه يعقوب يحتاج إلى طعام، ويعرف حاجتهم في ذلك -هذا لا يسع إلا بسبب كان؛ فأمر يوسف بذلك.

وقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فيما يستقبل؛ أي: لا تأتوني. والله أعلم.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ وجهين:

أحدهما: قال ذلك لهم؛ إنه يوفي لهم الكيل؛ لأن أهل ذلك المكان كانوا ينقصون ويخسرون الكيل في الضيق؛ فقال هو: ألا ترون أني أوفي الكيل ولا أبخس.

والثاني: ألا ترى أني أوفي الكيل على غير الحاجة؛ وكان يجعل لغيرهم الطعام على الحاجة؛ لضيق الطعام.

إني أوفي الكيل على قدر الحاجة وأنا خير المنزلين في الإحسان إليكم والتوسيع عليكم؛ لأن أهل ذلك المكان لا يحسنون إلى النازلين بهم، ولا يوسعون [عليهم][2]؛ لضيق الطعام. وكأن قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ مؤخر عن قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ كأنه قال: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ فعند ذلك قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ والله أعلم.

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في ب.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

هذا الكلام في الظاهر ليس هو جواب قول يوسف؛ حيث قال: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وجوابه أن يقولوا له: نأتي به أو لا نأتي، فأما أن يجعل قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ جوابًا له؛ فلا يحتمل مع ما أن في قلوبهم سنراود عنه اضطراب؛ يملكون أو لا يملكون.

قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

على القطع؛ لكن يشبه أن يخرج على وجهين:

أحدهما: على الإضمار؛ سنراود عنه أباه فإن أذن له وإنا لفاعلون ذلك.

أو على التقديم والتأخير يكون جواب قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ كأنه لما قال لهم يوسف: ائتوني بأخ لكم من أبيكم قالوا إنا لفاعلون، ثم قالوا فيما بينهم: سنراود عنه أباه.

على هذين الوجهين يشبه أن يخرج والله أعلم(١).

وقوله: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾.

قال أبو عوسجة: المراودة: الممارسة، وهي شبه المخادعة، وهي المعالجة. وقيل: سنراود: أي سنجهد وسنطلب(٢).

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لفتيته.

الفتية: الخدم؛ والفتيان: المماليك.

﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾.

قيل: اجعلوا دراهمهم في أوعيتهم(٣)، فيه دلالة أن الهبة قد تصح -وإن لم يصرح بها- إذا وقع في يدى الموهوب له وقبضه- وإن لم يعلم هو بذلك - وقتما جعل له؛ لأن يوسف جعل بضاعتهم في رحالهم؛ هبة لهم منه؛ وهم لم يعلموا بذلك، وهو وقتما جعل [ذلك لهم](٤) مِلك ليوسف؛ ولهذا قال أصحابنا: إن من وضع ماله في طريق من طرق المسلمين؛ ليكون ذلك ملكًا لمن رفعه كان ما فعل. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) ثبت في حاشية ب: ويمكن أن نقول: معنى ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، أي: المراودة، كأنهم قالوا: لا بد أن نراوده ونفعل المراودة، فإن أذن له جئنا به، وإلا فلا؛ فلا حاجة إلى ما ذكره، والله أعلم. كاتبه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٤٤) (١٩٤٧٦) عن ابن إسحاق، وكذا الرازي (١٨/ ١٣٤).

(٣) ذكره بمثله البغوي (٢/ ٤٣٥).

(٤) في ب: لهم ذلك.

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: يرجعون؛ مخافة أن يعرفوا بالسرقة لما عسى يقع عندهم أن واحدًا منا جعل هذا في متاعنا وأوعيتنا سرًّا منهم ففعل يوسف هذا؛ ليرجعوا؛ مخافة أن يعرفوا بالسرقة[١].

والثاني: ما قاله أهل التأويل: لما تخوف يوسف ألا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى فجعل دراهمهم في أوعيتهم؛ لكي يرجعوا إلينا؛ فلا يحبسهم عنا عدم الدراهم[٢]؛ لأنهم كانوا أهل ماشية[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى

---

(١) ثبت في حاشية ب: هذا لا يحتمل مع قولهم لأبيهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما لا يخفى، والله أعلم. كاتبه.

(٢) وذكر في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم وجوهًا:
أولها: أنهم إذا فتحوا المتاع، فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كرم من يوسف؛ فيبعثهم ذلك على العودة إليه.
وثانيها: خاف ألا يكون عندهم غيره؛ لأنه زمان قحط.
وثالثها: رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه، وإخوته - مع شدة حاجتهم إلى الطعام - لُؤم.
ورابعها: قال الفراء -رحمه الله-: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم، فيحسبوا أن ذلك وقع سهوا، وهم أنبياء وأولاد أنبياء؛ فيحملهم ذلك على رد البضاعة؛ نفيا للغلط، ولا يستحلون إمساكها.
وخامسها: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم منه عَتْب ولا مِنَّة.
وسادسها: قال الكلبي: تخوف ألا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يرجعون به مرة أخرى.
وسابعها: أن مقصوده أن يعرفوا أنه لم يطلب أخاهم لأجل الإيذاء والظلم، وإلا لطلب زيادة في الثمن.
وثامنها: أن يعرف أباه أنه أكرمهم، وطلبهم بعد الإكرام؛ فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.
وتاسعها: أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمن، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع الدراهم في رحالهم؛ حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.
وعاشرها: أنه قابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغة في الإحسان إليهم.
ينظر: اللباب (١١/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) ذكره ابن جرير (٧/ ٢٤٤)، وكذا البغوي (٢/ ٤٣٥).

عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾.

فيما يستقبل ويستأنف لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ بالنون؛ وبالياء[1]: ﴿يكتل﴾، وبالنون أقرب؛ لأنهم قالوا: منع الكيل منا فأرسل معنا أخانا نكتل؛ نحن، يشبه: ويكتل هو إن أرسلته.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

لا يحتمل[2] أن يقولوا له هذا من غير سبب كان هنالك: من خوف خاف عليه أبوهم من ناحيتهم، وقد اتهمهم؛ لأنه كان أخوهم من أبيهم، خاف عليه أن يضيعوه أو إن استقبله أمر لا يعينونه أو أمر كان لم يذكر، ولسنا ندرى ما ذلك المعنى والله أعلم بذلك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

وفي حرف ابن مسعود[3] رضي الله عنه: ﴿هل تحفظونه إلا كما حفظتم أخاه يوسف من قبل﴾.

في هذا دلالة أن من ظهرت منه تهمة أو خيانة في أمر، يجوز أن يتهم فيما لم يظهر منه

(١) قرأ الأخوان حمزة والكسائي: بالياء من تحت، أي: يكتل أخونا.
والباقون بالنون، أي: نكتل نحن، وهو الطعام، وهو مجزوم على جواب الأمر.
ويحكى أنه جرى بحضرة المتوكل، أو وزيره ابن الزيات - بين المازني، وابن السكيت - مسألة، وهي: ما وزن «نكتل»؟ فقال يعقوب: نفتل؛ فسخر به المازني وقال: إنما وزنها: نفتعل.
قال شهاب الدين - رحمه الله-: وهذا ليس بخطأ؛ لأن التصريفين: نصوا على أنه إذا كان في الكلمة حذف أو قلب حذفت في الزنة، وقلبت ، فنقول في وزن: قمت، وبعت: فعت، وفِعْتُ، ووزن «عدة» «علة»، وإن شئت أتيت بالأصل؛ فعلى هذا لا خطأ في قوله: وزن «نكتل»: نفتل؛ لأنه اعتبر اللفظ، لا الأصل، ورأيت في بعض الكتب أن وزنها: «نفعل» بالعين، وهذا خطأ محض، على أن الظاهر من أمر يعقوب أنه لم يتقن هذا، ولو أتقنه لقال: وزنه على الأصل كذا، وعلى اللفظ كذا؛ ولذلك أنحى عليه المازني، فلم يرد عليه بشيء.
ينظر: اللباب (١١/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) ثبت في حاشية ب: غير محتمل؛ لأنهم قالوا ذلك لما وقع في أنفسهم أنه لا يأمنهم عليه؛ لأنه سبق منهم خيانة في أخيه؛ فقالوا ذلك دفعًا له، وأنا لا نفعل به كما فعلنا بأخيه، بل نحفظه، فقال لهم ما قال، والله أعلم. كاتبه.

(٣) والمعنى أنه: أنكم ذكرتم مثل هذا الكلام في يوسف، وضمنتم لى حِفْظَه حيث قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وهاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه، فهل يكون هاهنا إلا ما كان هناك؟! فكما لا يحصل الأمان هناك لا يحصل هنا.
ينظر اللباب (١١/ ١٤٦).

شيء؛ حيث اتهمهم يعقوب في بنيامين[١] بخيانة[٢] كانت منهم في يوسف؛ وإن لم يظهر له منهم في أخيه شيء، وهو حجة لأصحابنا: أن من ظهر فسقه في شيء أو كذبه في أمر، صار مجروح الشهادة في غيره.

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: إن أرسلته فإنما أعتمد على حفظ الله، وإليه أكل في حفظه؛ لست أعتمد على حفظكم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: هو بكل مكروب وملهوف أرحم من كل راحم؛ لأن كل من يرحم إنما يرحمه برحمة نالها منه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ﴾.

هذا قد ذكرناه.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ هذا يحتمل: ما نبغي سوى الثمن؛ فقد رد إلينا دراهمنا أو يكون قوله: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ وراء هذا كبير شيء؛ إنما نبغي ثمن بعير واحد وثمن بعير واحد يسير؛ لأنه قد ردت بضاعتنا؛ وهو ثمن عشرة أبعرة.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾.

لأنه ذكر أن يوسف كان لا يعطي كل رجل إلا حِمْل بعير واحد، ولا يعطي أكثر من ذلك؛ فقالوا: ونزداد كيل بعير به؛ ومن أجله.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

قال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سريع لا حبس فيه: وقال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: ييسر علينا الكيل، ولا يحبس عنا الطعام، ولا يثقل عليه ذلك؛ بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ . فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩، ٦٠] فإن لم نأته به فلا كيل لنا؛ وقد حبسنا عنه. والله أعلم.

ويشبه أن يكون فيه وجه آخر أقرب مما قالوا وهو: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: طلب ثمن كيل بعير يسير؛ لأنه قد ردت إليهم بضاعتهم؛ وهو ثمن كيل عشرة أبعرة؛ فإنما احتاجوا إلى ثمن كيل بعير واحد؛ فقالوا: طلب ثمن كيل بعير واحد يسير، وتكلفة سهلة؛ وهو ثمن كيل بعير بنيامين[٣]. والله أعلم.

---

(١) في الأصول: ابن يامين.
(٢) في أ: بجناية.
(٣) في الأصول: ابن يامين.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾.
أي: حتى تأتوني بمواثيق من الله؛ وبعهود منه.
﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾.

فيه دلالة أنه وإن قال[1]: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ واعتمد في الحفظ على الله، ورأى الحفظ منه، لم يرسله معهم إلا بالمواثيق والعهود من الله، وهذا أمر ظاهر بين الناس؛ أنهم وإن كان اعتمادهم على الله وإليه يكلون في جميع أمورهم في الأموال والأنفس، ومنه يرون الحفظ فإنه يأخذ بعضهم من بعض المواثيق والعهود؛ فعلى ذلك يعقوب أنه وإن أخبر أن اعتماده واتكاله[2] في حفظ ولده على الله لم يرسله معهم إلا بعدما أخذ منهم العهود والمواثيق.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

أي: إلا أن يجمعكم أمر ويعمكم، ويحيط بكم الهلاك جميعًا؛ فعند ذلك تكونون معذورين؛ فإما أن يخص به أمر فلا.

والثاني: إلا أن يجيء أمر عظيم يمنعكم عن رده؛ كأنه خاف عليه من الملك؛ حيث طلب منهم أن يأتوه به.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: الله على المواثيق والعهود التي أخذتها منكم شهيد، أو يقول: الله له حفيظ؛ كما قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ . والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

قال بعضهم من أهل التأويل: إن يعقوب خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا ذوي صور وجمال وبهاء؛ فخشي عليهم العين؛ لذلك أمرهم أن يدخلوا متفرقين[3].

وقال بعضهم: خشى عليهم البيات والهلاك؛ لأنهم كانوا أهل قوة ومنعة؛ فيخافهم أهل البلد ويفرقون منهم السرقة؛ فأمرهم بالتفرق، وهو قول ابن عباس؛ فإذا كانوا

---

(١) في أ: كان.
(٢) في أ: وكلامه.
(٣) أخرجه ابن جرير (٧/٢٤٩) عن كل من: الضحاك (١٩٤٩٣، ١٩٤٩٧)، وقتادة (١٩٤٩٤، ١٩٤٩٥)، وابن عباس (١٩٤٩٦)، ومحمد بن كعب (١٩٤٩٨)، وابن إسحاق (١٩٥٠٠).
وذكره السيوطي في الدر (٤/٤٩) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن أبي شيبة وابن المنذر عن محمد بن كعب، ولابن جرير عن الضحاك، ولابن أبي حاتم عن مجاهد، ولعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

متفرقين فلا يهلكون الكل؛ وإنما يهلك بعضهم وينجو بعض أو لا يدرى ما أراد بهذا.

وقال بعضهم: علم يعقوب أنهم لا يهلكون؛ لما رأى يوسف من الرؤيا أن يسجد له إخوته، ولكن خاف عليهم أن تصيبهم النكبة؛ لذلك أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، أو من سكك متفرقة، أو من طرق متفرقة[١]، أو ما قالوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي لا أدفع عنكم من الله من شيء؛ إن أصابكم نكبة أو عين، فإن قيل: لو كان أمره إياهم بالتفرق؛ لخوف العين؛ أو لخوف أهل البلد منهم السرقة والإغارة، كيف لم يأمرهم [بذلك][٢] في المرة الأولى؛ وخوف العين؟ لم يخش ذلك لما قد يقع الاجتماع ما ذكر ابن عباس رضي الله عنه: أنه يخافهم أهل البلد إذا رأوهم مجتمعين أنهم لصوص وأنهم كذا، ولكن جائز أن يكون في المرة الأولى لم يخش ذلك؛ لما قد يقع الاجتماع في أمثال أولئك من الرفقاء والصحابة، فلا يكون في ذلك الخوف الذي ذكروا. وإذا عادوا في المرة الثانية؛ قد يحتمل ذلك الخوف من العين؛ وغيره، إذا علم أهل البلد أن ذلك العدد تحت أب واحد، أو أمرهم بالتفرق على[٣] الأبواب؛ بمحنة امتحن بذلك، وأمر به، أو لمعنى[٤] غاب عنا لا نحتاج إليه. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا أدفع عنكم [من الله من شيء إن أصابكم نكبة أو عين وإن تفرقتم إن الحكم إلا لله، هذا تفسير قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا أدفع عنكم][٥] بما أحتال ما قدر الله وقضاه؛ أن يصيبكم؛ [فيصيبكم][٦] لا محالة [وينزل بكم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في ذلك إلا لله ما في حكمه وقضائه أن يصيبكم فيصيبكم لا محالة][٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هذا أصل كل أمر يخاف المرء، وأن يأخذ بالحذر، ويتوكل -مع ذلك- على الله؛ على ما أمر يعقوب - عليه السلام - بنيه بالحذر في ذلك، ثم توكل على الله في ذلك.

---

(١) في ب: مختلفة.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: في.
(٤) في ب: بمعنى.
(٥) سقط في أ.
(٦) سقط في ب.
(٧) سقط في أ.

والحذر هو العادة في الخلق، والتوكل: تفويض الأمر إلى الله، والاعتماد عليه. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من أبواب متفرقة.

﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ما كان يدفع ذلك عنهم ما حكم الله عليهم أنه يصيبهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

الحاجة في النفس: أحد شيئين: إما الرغبة، وإما الرهبة؛ كقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ فعلى ذلك حاجة يعقوب، لا تخلو: إما أن كانت رغبة منه؛ في تفرقهم، أو رهبة في اجتماعهم؛ قضى تلك الحاجة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾.

يشبه أن يكون هذا صلة ما قال يعقوب لبنيه: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: وإنه لذو علم لما أمرهم بالدخول على التفرق؛ والنهي عن الاجتماع.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ما أراد بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾: من السكك المتفرقة، ما كان يغني عنهم من قضاء الله شيئًا إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، يقول: بدأها فتكلم بها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ يقول: حافظًا لما علمناه[(١)]، وقيل: حافظًا له؛ عالمًا به، وقيل: ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: عمل بجميع ما علم وانتفع به، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لم ينتفعوا بما علموا.

ويحتمل: وإنه لذو علم بقصة[(٢)] يوسف من أولها إلى آخرها؛ كما[(٣)] أخبرناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: ما أصابه من الحزن[(٤)]؛ بذهاب يوسف وأخيه، وما أصابه من الشدة والنكبة لم يؤثر ذلك في علمه الذي علمناه، وإن أثر ذلك في نفسه وبدنه، أي علمه بما علمناه بعدما أصابه ما أصابه؛ كهو ما كان قبل ذلك،

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/٤٣٨)، وكذا الرازي (١٨/١٤١).
(٢) في ب: بقصته.
(٣) في ب: لما.
(٤) في أ: الخوف.

لم يعمل فيه ولم يؤثر.

وعن الحسن -فيما أظن- في قول يعقوب لبنيه: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: أما والله ما كانت به طيرة تطير بها؛ ولكن قد علم أو ظن أن يوسف سيلقى أخاه؛ فيقول: إني أنا أخوك.

وأكثر أهل التأويل قالوا: قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي: خيفة العين على بنيه؛ لجمالهم، وبهائهم، وحسن صورهم، أو لما يكون لواحد كذا كذا عددًا من البنين فيقصدون قصدهم بالنكاية عليهم لما ذكرنا أو ما أراد بذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

يحتمل أنهم لما دخلوا البلد الذي فيه دعا يوسف أخاه وحن إليه ويحتمل أنهم دخلوا جميعًا على يوسف؛ فضم أخاه إلى نفسه؛ فقال: إني أنا أخوك.

قال بعض أهل التأويل لم يقل [له](١): أنا أخوك: بالنسبة؛ ولكنه قال: أنا أخوك: مكان أخيك الهالك.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

يقول: لا تحزن.

---

(١) سقط في ب.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

يحتمل: لا تبتئس بما كان عمل إخوتك؛ كأنه لما دعاه فضمه إلى نفسه -شكا إليه من إخوته؛ فقال عند ذلك: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويحتمل: [فلا][١] تبتئس بما يعمل بك هؤلاء؛ أي: خدمه وعماله، كأنه أخبره بما كان يريد أن يكيد بهم؛ من جعل الصاع في رحله؛ فقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بك؛ لأنه لا يجوز أن يجعل أخاه متهمًا، يقرف به من غير أن ظهر منه شيء؛ وقد أخبره[٢] أنه أخوه. والله أعلم.

دلَّ أنه أراد أن يعْلمه ما يريد أن يكيد بهم؛ ليكون هو على علم من ذلك. [وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ هو ما يهيأ للخروج؛ ولذلك يقال لمتاع المرأة: جهاز][٣]

وقوله: - عز وجل-: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

السقاية: قيل: هي الإناء الذي كان يشرب فيه الملك[٤]، وقيل: هو الصاع الذي كان يكال به الطعام؛ ولكن لا نعلم ما كان ذلك سوى أنا نعلم أنها كانت ذات قيمة وثمن؛ ألا ترى أن ذلك الرسول قال: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ فلولا أنها كانت ذات قيمة وثمن وإلا لم يعط لمن جاء به حمل بعير الطعام، وكان قيمة الطعام عندهم في ذلك الوقت ما كان.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾.

أي: نادى مناد: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

لا يحتمل أن يكون يوسف يأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؛ وقد علم أنهم ليسوا بسارقين، ولكن قال لهم ذلك المنادي الذي ناداه - والله أعلم-: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ من نفسه، وهو من بعض من يتولى كيل الطعام على الناس، وأمثاله لا يبالون الكذب [أو قال][٥] لهم ذلك قوم كانوا بحضرتهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾. أو أن يكون على

---

(١) في ب: قوله فلا.

(٢) في ب: أخبر.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٥٣) (١٩٥٢١) وعن قتادة، و(١٩٥٢٢) عن ابن عباس، و(١٩٥٢٤) عن مجاهد.

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٥) في أ: وقال.

الاستفهام والتقرير. فإن كان [هذا][١] - فهو يحتمل من يوسف؛ وأما غيره فلا؛ لأنه كذب.

وضم يوسف أخاه يحتمل وجهين:

يحتمل لمكان سؤاله إياهم أن يأتوا به، أو لمكان فضله ومنزلته ليعلموا أن ما كان ليوسف وأخيه عند أبيهم[٢] من فضل المحبة والمنزلة من الله؛ إذ جعل ذلك لهما عند الملك وغيره. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ . قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾.

أي: إناء الملك؛ سمّاه مرةً صاعًا؛ ومرةً سقاية، فيجوز أن يستعمل في الأمرين جميعًا؛ في الاستسقاء والكيل جميعًا.

﴿قَالُوٓا۟﴾ - لمناديه - ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾.

قال أبو عوسجة: أي أضللتم؛ يقال: افتقدتك وتفقدتك أي: تعهدتك.

وقال القتبي[٣]: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: هو من البؤس، والسقاية: المكيال؛ وقيل: مشربة الملك، وصواع الملك؛ وصاعه - واحد[٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

قيل: ضمينٌ لذلك الطعام؛ وكفيل به[٥]. والزعيم: كأنه أيضًا اسم لرئيس من القوم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾.

هذا يحتمل وجوهًا:

يحتمل أنهم قالوا ذلك؛ لأنكم رددتم إلينا الدراهم وجعلتم في أوعيتنا، ثم رددنا عليكم؛ مخافة أن نعرف بالسرقة والفساد في الأرض؛ فكيف تقرفونا بهذا؟!

والثاني: أنكم تعلمون أنا أبناء النبي والرسول، والأنبياء لا يكون منهم السرقة و[لا][٦] الفساد في الأرض، ومثل هذا لم يظهر في أهل بيتنا قط ولا قرفنا به؛ فكيف قرفتمونا بهذا؟!

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: أبيه.
(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢١٩).
(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٥٣) (١٩٥٢٣) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠) وزاد نسبته لابن المنذر وابن الأنباري وابن أبي حاتم عن مجاهد.
(٥) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٢٥٦،٢٥٧) عن كل من: ابن عباس (١٩٥٤٨)، وسعيد بن جبير (١٩٥٥٣)، وقتادة (١٩٥٥٤، ١٩٥٥٥)، والضحاك (١٩٥٥٦، ١٩٥٥٧)، ومجاهد (١٩٥٥٨).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١) وزاد نسبته لابن المنذر عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومجاهد مثله.
(٦) سقط في أ.

والثالث: أنكم تروننا صَوّامين قوامين؛ ومن هذا فعله ورأيه فإنه لا يتهم بالسرقة. أو أن يكون قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لما رأوهم دخلوا من أبواب متفرقة، ولو كانوا سراقًا لدخلوا مجموعين؛ لأن عادة السُّراق الاجتماع لا التفرق.

ثم قالوا: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

أي: إن كان فيكم من يكذب ويظهر ذلك منه؛ فما جزاؤه؟.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

يحتمل قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي يصير رقيقًا مملوكًا بها له، أو يصير محبوسًا بها عنده. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

ظاهر هذا الكلام: أن يكون يوسف هو الذي فتش أوعيتهم، وطلب ذلك فيها؛ حيث نسب ذلك إليه بقوله: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

لكنه نسب إليه؛ لمّا بأمْرِهِ فُتِّشَ؛ إذ الملوك لا يتولون[1] ذلك بأنفسهم وفيه أنه قد فصل بينهم وبين بنيامين؛ حيث سمّى هذا أخاه، ولم يسم أولئك؛ بقوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، وهو يخرج على وجهين:

أحدهما: أنه قد ذكر لهذا أنه أخوه؛ حيث قال له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [يوسف: ٦٩]؛ ولم يذكر لأولئك فسمى هذا أخًا له، ونسب إليه بالأخوة؛ لما كان ذكر له، ولم يسم أولئك؛ لما لم يذكر لهم أنه أخوهم.

والثاني: أنه لم يكن لهذا - أعني بنيامين لمكان يوسف - سوء صنيع، ولا شر، بل هو على الأخوة والصداقة التي كانت بينه وبينه. وأمّا أولئك - أعني غيره من الإخوة - فقد كان منهم إليه ما كان من سوء صنيعهم، وقبح فعالهم؛ فيخرج ذلك مخرج التبرى من الإخوة بسوء ما كان منهم إليه؛ وهو [كقوله لنوح][2] - عليه السلام - حين قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ نفى أن يكون من أهله؛ بسوء عمله وفعله؛ غير صالح.

فعلى ذلك الأول يشبه أن يكون على هذا. والله أعلم.

---

(١) في أ: يأتون.

(٢) في ب: كقول نوح.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

دل هذا أنه قد كان منه أيضًا التفتيش والطلب في وعاء أخيه؛ على ما كان في أوعيتهم [لا يستخرجها][(١)] على غير تفتيش.

وقوله - عز وجل-: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

يحتمل ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا﴾ أي علمنا يوسف - من أول الأمر إلى آخره - ما يكيد ويحتال في إمساك أخيه عنده ومنعه عنهم؛ لأن يخلو لهم وجه أبيهم جزاء ما طلبوا هم: أن يخلو لهم وجه أبيهم؛ بتغييب يوسف عن أبيه؛ لأن أباهم قال: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] فلما بلغه ذلك الخبر - تولى عنهم؛ وهو قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ . . .﴾ الآية [يوسف: ٨٤]؛ هذا - والله أعلم - جزاء كيدهم الذي كادوا بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم؛ ليتولى عنهم أبوهم، هذا يشبه أن يكون.

والثاني: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: علمناه أن كيف يفتش أوعيتهم لئلا يشعروهم أنه عن علم استخرجها من وعاء أخيه؛ لا عن جهل وظن، فعلمه البداية في التفتيش بأوعيتهم؛ لئلا يقع عندهم أنه عن علم ويقين يأخذه.

يشبه - والله أعلم - أن يخرج قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ على هذين الوجهين. أو ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: أمرنا يوسف بالكيد بهم؛ جزاء ما عملوا بمكانه لما اهتموا بإمساك أخيهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾.

أي في حكم الملك، ذكر أن حكم إخوة يوسف وقضاءهم فيهم: أن من سرق يكون عبدًا بسرقته للمسروق منه، ويستعبد بسرقته، ومن حكم الملك: أن يغرم السارق ضعفي ما سرق؛ ويضرب ويؤدب؛ ثم يخلى عنه، ولا نعلم ما حكم الملك في السرقة، سوى أنه أخبر أن ليس له أخذ أخيه في دين الملك.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، أو يجعل له حق الأخذ وحبسه؛ وإن لم يكن ذلك في حكمه.

أو أن يكون قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على ما كان من إبراهيم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ الآية [الأنعام: ٨٠] وكان الأنبياء - عليهم السلام - يذكرون الثنيا على حقيقة المشيئة، أو يقول: إلا أن يكون في علم الله مني زلة؛ فأستوجب عند ذلك الكون في دين ذلك الملك؛ فيشاء ما علم مني، وكذلك قول إبراهيم حيث قال:

---

(١) في ب: لم يخرجها.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي: لا أخاف ما تشركون به؛ إلا أن يكون مني ما أستوجب ذلك بزلة؛ فيشاء الله ذلك مني.

وقوله - عز وجل-: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

الدرجات: هن الفضائل؛ يرفع بعضهم فوق بعض بالنبوة والعلم، وفي كل شيء.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

ما من عالم وإن لطف علمه وكثر إلا قد يكون فوقه من هو ألطف علمًا منه وأكثر وأعلم في شيء أو يكون قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وهو الله تعالى؛ فوق كل ذي علم؛ يعلمهم العلم، والله أعلم.

من يقول: إنه عالم إلا بعلم يحتج بظاهر هذه الآية؛ حيث قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أثبت لغيره العلم ولم يذكر لنفسه؛ بل قال: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لكنه إذا قال: ﴿عَلِيمٌ﴾ أثبت العلم ولأنه إذا قال: وفوق كل العلماء عليم يكون كذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

قال بعض أهل التأويل: كانت سرقته: أنه كان صنم من ذهب لجده أبي أمّه يعبده؛ فسرق ذلك منه لئلا يُعْبَدَ دون الله[(١)]، ولكنا لا نعلم ذلك؛ ونعلم أنهم كذبوا في قولهم ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وأرادوا أن يتبرءوا منه، وينفوا ذلك عن أنفسهم، ليعلم أنه ليس منهم.

فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ عند الله.

قيل: إن يوسف أسر هذه الكلمة[(٢)] في نفسه؛ لم يظهرها لهم أو أسر ما اتهموه بالسرقة.

وجائز أن يكون قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ خاطبوا به أخاه بنيامين دون يوسف: [إن سرقت][(٣)] فقد سرق أخ له من قبل؛ يقولون فيما بينهم.

وقد ذكر في بعض الحروف[(٤)]: ﴿إن يسرق فقد سُرِّقَ أخ لهم من قبل﴾ بالتشديد فإن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٦٥) عن كل من: سعيد بن جبير (١٩٦٠٥)، وقتادة (١٩٦٠٦، ١٩٦٠٧)، وابن جريج (١٩٦٠٨).

وذكره السيوطي في الدر (٤/٥٣-٥٤) وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس مرفوعًا، وزاد نسبته لأبي الشيخ عن ابن جريج، لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم بمثله عن زيد بن أسلم.

(٢) في أ: هذا القول.

(٣) في ب: أسرقت.

(٤) الجمهور على ﴿سَرَقَ﴾ مخففًا مبنيا للفاعل، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي، وابن أبي شريح عن الكسائي، والوليد بن حسان عن يعقوب في آخرين: ﴿سُرِّق﴾ مشددًا مبنيًا للمفعول، أي: نسب إلى السرقة؛ لأنه ورد في التفسير أن عَمَّتَهُ رَبَّتْهُ، فأخذه أبوه منها، فشدت في وسطه منطقة كانوا =

ثبت؛ فالتأويل هو لقولهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أنتم شر صنعًا بيوسف.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب أنه سرق أخ له من قبل.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾.

أرادوا والله أعلم أن يرقّوا قلبه بهذا، ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لما يكون قلب الشيخ بولده الصغير أميل؛ وهو عنده آثر وأكثر منزلة منا.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما أحسن إليهم في الكيل؛ والإنزال في المنزل والضيافة والقرى؛ قد رأوه وعلموه محسنًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾.

قيل: هذا قول يوسف. ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ ونحبس بالسرقة ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ فإن قيل: كيف تعوذ على ترك أخذه؛ وأخذ غيره مكانه، ولم يكن وجب له حق الأخذ؛ إذ لم يكن سرقه وإنما يتعوذ على ترك ما لا يسع تركه؟

قيل: إنه لم يتعوذ على ترك أخذ أخيه، إنما تعوذ على أخذ غير من وجد المتاع عنده.

﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ عندكم لو أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده؛ إذ في حكمهم أخذ من سرق بالسرقة والحبس بها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن

= يتوارثونها من إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - ففتشوا فوجدوها تحت ثيابه، فقالت: هو لي، فأخذته كما في شريعتهم ،ومن هنا تعلم يوسف وضع السقاية في رحل أخيه، كما فعلت به عمته، وهذه القراءة منطبقة على هذا.

ينظر اللباب (١١/ ١٧٣).

رَوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾[١].

قيل: أيسوا عن أن يُرَدّ إليهم أخوهم.

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

قيل: خلوا من الناس وخلصوا منهم؛ يتناجون فيما بينهم في أمر أخيهم، أو في الانصراف إلى أبيهم، أو في المقام فيه[٢].

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾.

قال أهل التأويل: كبيرهم في العقل ليس في السن؛ وهو فلان[٣].

قال بعضهم: وهو يهوذا[٤]، وقال بعضهم: هو شمعون. ولكن لا نعلم من كان قائل هذا لهم، ولا نحتاج إلى معرفة ذلك؛ سوى أن فيه: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ إمّا أن كان كبيرهم في العقل؛ أو كبيرهم في السن.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ (ألم تعلموا) و (ألم تروا) حرفان يستعملان في أحد أمرين: في الأمر؛ أن اعلموا ذلك، أو في موضع التنبيه والتقرير[٥]؛ وهاهنا كأنه قال ذلك على التقرير والتنبيه؛ أي: قد علمتم ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾.

هذا يدل أن التأويل في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] هو إلا أن يعمكم أمرٌ ويجمعكم؛ فتهلكون فيه جميعًا، وليس كما قال بعض أهل التأويل: إلا أن يجيء ما يمنعكم عن ردّه؛ أي: إلا أن تغلبوا فتعجزوا عن ردّه؛ لأنه قد جاء ما يمنعهم عن ردّه، ثم أبي أكبرهم الرجوع إلى أبيه؛ دل أن التأويل هو هذا، ومن يقول: إن التأويل في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] إلا أن يجيء ما يمنعكم عن الردّ؛ استدل بقوله: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؛ فلو كان على ما يعمهم ويجمعهم، لم يكن ليأمرهم بالرجوع إلى أبيهم؛ دل أنه ما ذكر.

---

(١) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٢٦٨) (١٩٦٢٢) عن أبي إسحاق، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤) وعزاه لابن جرير عن ابن إسحاق، وكذا البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه ابن جرير بمعناه (٧/ ٢٦٩) عن كل من: السدي (١٩٦٢٣)، وقتادة (١٩٦٢٤)، وابن إسحاق (١٩٦٢٥).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم بمثله عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٦٩، ٢٧٠) (١٩٦٢٦، ١٩٦٢٨) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤، ٥٥) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٢) ونسبه لابن عباس والكلبي.

(٥) في أ: والتقريب.

وأما أهل التأويل الأول يقولون: إن قوله: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ ليس على الأمر؛ ولكن إذا رجعتم إلى أبيكم؛ فقولوا: إن ابنك سرق وكذلك يخرج قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ليس على الأمر؛ ولكن لو سألت أهل القرية وأهل العير؛ لأخبروك أنه كما قلنا؛ فعلى ذلك قوله: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ ليس على الأمر؛ ولكن لو رجعتم إليه؛ فقولوا كذا.

وقوله عز وجل-: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾.

أي: من قبل ما ضيعتم أمر أبيكم في يوسف؛ أو ضيعتم أمر الله ووعده في يوسف.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾.

[هذا يحتمل وجهين: يحتمل حتى يأذن لي أبي بالرجوع إليه؛ إذا ظهر عنده عذرنا وصدقنا في أمر ابنه أو يأذن لي أبي][1] بالمنازعة في القتال مع الملك حتى أستنقذ أخي وأستخلصه منه.

﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ في الرجوع أيضًا أو في القتال معه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أو يحكم الله لي بإظهار عذرنا وصدقنا عند أبينا.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في إظهار العذر؛ لأنه إذا حكم بإظهار العذر ظهر ذلك في الخلق جميعًا، ولا كذلك حكم غيره؛ لأن كل من يحكم بحكم؛ يجوز إنما يحكم بحكم؛ هو حكم الله؛ فهو خير الحاكمين وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] لأن[2] من رحم من الخلق؛ إنما يرحم برحمته؛ فهو أرحم الراحمين.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾.

يحتمل على الأمر؛ على ما هو [في][3] الظاهر. ويحتمل ما ذكرنا؛ أي: لو رجعتم إليه؛ فقولوا: يا أبانا إن ابنك سرق يشبه أن يكون هذا منه تعريضًا في التخطئة؛ على ما كان يؤثره على غيره من الأولاد؛ أي الذي كنت تؤثره علينا بالمحبة وميل القلب إليه - قد سرق، ويشبه أن يكون ليس على التعريض؛ ولكن على الإخبار؛ على ما ظهر عندهم من ظاهر الأمر.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بما أخرج المتاع من وعائه.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: لأنه.
(٣) سقط في ب.

هذا على التأويل الذي قيل في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ أي: يعمكم ويجمعكم؛ أي: ما كنا نعلم - وقت إعطاء العهد[١] والميثاق - أنه يسرق؛ وإلا لم نعطك العهد على ذلك.

ويحتمل: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ وقت ما أخرج المتاع من وعائه؛ واتهم أنه سرق، أو لم يسرق، أو هو وضع الصاع في رحله، أو غيره وضع أي: ما كنا نعلم في الابتداء أن الأمر يرجع إلى هذا؛ وإلا لم نخرجه معنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾.

أي لو سألت أهل القرية وأهل العير؛ لأخبروك أنه على ما نقول.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ على ذلك؛ على ما ظهر لنا؛ من استخراج الإناء من وعائه[٢] والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾.

فإن قيل: كيف قال لهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ وجعل ما أخبروه من تسويل أنفسهم وتزيينها؛ ولم يخالفوه فيما أمرهم في أمر بنيامين، ولا تركوا شيئًا مما أمرهم به؛ وليس هذا كالأول؛ الذي قال لهم في أمر يوسف: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ . . .﴾ الآية؛ لأنه قد كان منهم خلاف لما أمرهم به؛ والسعي على إهلاكه، فكان ما ذكر من تسويل أنفسهم وتزيينها في موضع التسويل والتزيين، وأمَّا هاهنا فلم يأت منهم إليه خلاف، ولا ترك لأمره؛ فكيف قال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ لكن يشبه أن يكون قال

---

(١) في أ: الوقت.

(٢) قال القرطبي: دلت هذه الآية على أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه، أو يتوهم - أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو عليه؛ حتى لا يبقى متكلم، وقد فعل هذا نبينا - عليه الصلاة والسلام - بقوله للرجلين اللذين مرا، وهو قد خرج مع صفية بنت حيي من المسجد: «على رِسْلِكُمَا، إنما هي صفية بنت حيي»؛ فقالا: سبحان الله! وكَبُرَ عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا. أو قال: شيئًا» متفق عليه.

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل هذا بأبيه، ولم يخبره بمكانه، ويحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه؛ ففيه معنى العقوق، وقطيعة الرحم، وقلة الشفقة؟

فالجواب: أنه فعل ذلك بأمر الله - عز وجل - أمره به ليزيد في بلاء يعقوب؛ فيضاعف له الأجر، ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين.

وقيل: إنه لم يظهر نفسه لإخوته؛ لأنه لم يأمن أن يدبروا في أمره تدبيرًا فيكتموه عن أبيه، والأول أصح.

ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٦١)، واللباب (١٠/ ١٨٧).

ذلك؛ لأنهم لما اتّهموا جميعًا بالسرقة؛ فقيل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣] قطعوا فيه القول؛ أنهم لم يكونوا سارقين، وهو كان فيهم؛ فكيف قطعتم فيه القول بالسرقة ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؛ ولكن سولت لكم أنفسكم أمرًا من البغض والعداوة؛ من الإيثار له وليوسف عليهم؛ والميل إليهما دونهم؛ حيث قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] والله أعلم.

فسولت لكم أنفسكم ببغضكم وعداوتكم حتى تركتم التفحص عن حاله وأمره، أن لا كل من وجد في رحله شيء يكون هو واضع ذلك الشيء؛ بل قد يضع غيره فيه؛ على غير علم منه.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قد ذكرناه.

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

قال أهل التأويل: قال: ﴿يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ لأنهم صاروا جماعة؛ يوسف وبنيامين أخوه، ويهوذا وشمعون قد تخلفا لسبب حبس يوسف أخاه، أو يوسف وأخوه[1].

وقال بعض أهل التأويل: إن جبريل أتى يعقوب على أحسن صورة؛ فسأله عن يوسف؛ أفي الأحياء أم في الأموات؟ فقال: بل هو في الأحياء؛ فقال عند ذلك: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

أو علم يعقوب أن يوسف في الأحياء، وأنه غير هالك؛ لما رأى يوسف؛ من الرؤيا؛ من سجود الكواكب والشمس والقمر له؛ علم أنه في الأحياء، وأنه لا يهلك إلا بعد خروج رؤياه، وغير ذلك من الدلائل، لكنه كان لا يعلم أين هو؟ فقال ذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

أي أعرض عنهم وعاتبهم[2]؛ حين أخبروه أن ابنه سرق.

وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

---

(١) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢٧٤) (١٩٦٤٩) عن قتادة، و(١٩٦٥٠) عن ابن إسحاق.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٥،٥٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولابن المنذر بمثله عن ابن جرير.

(٢) في أ: وعابهم.

قيل: يا حزنا على يوسف(١)، وقيل يا جزعا(٢).

وقال القتبي(٣): الأسف أشد الحسرة؛ وأصله: أن الأسف كأنه النهاية في الحزن: أن الحزين إذا بلغ غايته ونهايته؛ يقال: أسف. وهو النهاية في الغضب أيضًا.

كقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: لما أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

يحتمل أن يكون لا على إظهار القول باللسان؛ ولكن إخبار عما في ضميره، وذلك جائز؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أخبر عما في قلوبهم؛ لا أن قالوا ذلك باللسان. ويحتمل القول به على غير قصد منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

الكظم: هو كف النفس عن الجزع؛ وترديد الحزن في الجوف على غير إظهار في أفعاله، والجزع هو ما يظهر في أفعاله؛ والذى يهيج الحزن هو الذي يهيج الغضب، إلا أن الحزن يكون على من(٤) فوقه؛ والغضب على من تحت يده، وسبب هيجانهما واحد، أو أن يكون الكظيم: هو الذي يمسك الحزن في قلبه والغم، كأنه هو الذي يستر ويغطى القلب؛ إذا حل به، والهم: هو ما يبعث على القصد من الهم به. والحزن: هو على ما يؤثر التغيير في الخلقة؛ ولا يظهر في الأفعال [والجزع يظهر في الأفعال](٥) ولا يغير الخلقة عن حالها، لذلك عمل في ضعف نفس يعقوب، وعمل في إهلاك بعضه، حيث ذهبت عيناه وابيضت من الحزن، والكظيم: ما ذكرنا؛ هو الذي يردد الحزن في جوفه ولا يظهر ويكفه عن الجزع.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾.

هو يمينهم مكان: والله أو بالله، وكذلك قال إبراهيم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥) عن كل من: ابن عباس (١٩٦٥٢)، ومجاهد (١٩٦٥٣)، وقتادة (١٩٦٥٧، ١٩٦٥٨، ١٩٦٥٩)، والضحاك (١٩٦٦١، ١٩٦٦٢، ١٩٦٦٣).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس، ولابن أبي شيبة وابن المنذر عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٧٤) (١٩٦٥٤، ١٩٦٥٥) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٢١).

(٤) في ب: ما.

(٥) سقط في أ.

وقوله - عز وجل-: ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾.

أي لا تزال تذكر يوسف ولا تنسى ذكره؛ حتى تسلو؛ من حزنه، كأنهم دَعَوْه إلى السلو من حزنه؛ لأنه بالذكر يتجدد الحزن ويحدث، فقالوا له: لا تزال تذكر يوسف.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾.

قيل: دنفًا[١] وقيل: ﴿حَرَضًا﴾: هرمًا[٢]؛ وأصل الحرض: الضعف.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

كذلك صار يعقوب ضعيفًا في بدنه من الحزن؛ وصار بعض بدنه من الهالكين؛ حيث ابيضت عيناه؛ وذهبتا من الحزن.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قال القتبي[٣]: الحرض: الدنف، والبث: أشدّ الحزن؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يَبُثَّه؛ أي: يشكوه، وكذلك روي في الخبر: (مَنْ بَثَّ فلم يصبر)[٤]؛ أي: شكا، وما ذكر من الشكاية إلى الله ليس على إظهار ذلك باللسان؛ ولكن إمساك في القلب.

وقال الحسن: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ أي: حاجتي وحزني إلى الله[٥]، ويشبه أن يكون البث والحزن واحدًا ذكر على التكرار.

وقال بعضهم: الحرض: الذي قد ذهب عقله من الكبر.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ فتموت والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال بعض أهل التأويل: قوله: أعلم من الله من تحقيق رؤيا يوسف؛ أنه كائن ما لا تعلمون: أنتم وأنا سنسجد له[٦].

وقال ابن عباس - رضي الله عنه-: [قوله][٧]: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حي

---

(١) ذكره ابن جرير (٧/ ٢٧٨) والسيوطي في الدر (٤/ ٥٩) وعزاه لابن الأنباري والطستي بمثله عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٧٩) (١٩٦٩٧، ١٩٦٩٨) عن قتادة، و(١٩٦٩٩) عن الحسن.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٢١).

(٤) أخرج ابن جرير (٧/ ٢٨٤) (١٩٧٣٨) عن مسلم بن يسار مرسلًا، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩) وزاد نسبته لعبد الرزاق عن مسلم بن يسار مرسلًا.

(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٨١) (١٩٧١٧-١٩٧٢٠)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن المنذر وأبي الشيخ عن الحسن.

(٦) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٨١) (١٩٧٢١) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٧) سقط في ب.

لم يمت وهو ما ذكر[(١)]؛ أنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون هم.

ويشبه أن يكون قوله: أعلم من الله؛ أي: أنتفع بعلمي ما لا تنتفعون أنتم، وأصله: أن إخوة يوسف لو علموا أن أمر يوسف يبلغ ما بلغ من الملك والعز - ما قصدوا قصد تغييبه عن والده، ولا سعوا فيه فيما سعوا من إفساد أمره، لكنهم لم يعلموا والله أعلم - أو علم من الله شيئًا لم يبين ما لا يعلمون هم؛ كقول إبراهيم [. . .][(٢)]، وما ذكر أهل التأويل: أن يعقوب قال: كذا؛ من النياح على يوسف والجزع عليه؛ لا يحتمل ذلك؛ لأنه قال - حين أخبروه بذلك -: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وما ذكروا هم منه ليس هو بصبر؛ فضلا أن يكون جميلا.

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قال أهل التأويل: تحسسوا: اطلبوه واستخبروا عنه وعن أخيه[(٣)]، لكن غير هذا كأنه أقرب؛ وهو من وقوع الحس عليه؛ كأنه قال: اذهبوا فانظروا إليه وإلى أخيه؛ لأنهم إن لم يكونوا يعلمون أن يوسف أين هو - فلقد كانوا يعلمون من[(٤)] حال أخيه بنيامين أنه أين هو؛ فلو كان على الطلب والبحث والاستخبار؛ على ما قاله أهل التأويل؛ إن احتمل في يوسف فذلك لا يحتمل في أخيه؛ إذ هم كانوا يعلمون مكانه وأين هو؛ وإن كانوا لا يعلمون مكان يوسف ولا أين[(٥)] هو، وهو إنما أمرهم أن يتحسسوا عنهما جميعًا؛ فدل - والله أعلم - أنه من وقوع الحسّ والبصر عليهما؛ لا من البحث والطلب - والله أعلم - فكأنه علم بالوحي أنه هنالك وأخوه معه، لكنه لم يخبر بنيه أنه هنالك؛ لما علم أنهم يتكاسلون ويتثاقلون عن الذهاب إليه؛ فإنما أمرهم بذلك أمر تعريض لا أمر تصريح.

أو أن يكون قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ على الإضمار؛ أي: تحسسوا من يوسف واسألوا منه ردَّ أخيه؛ لما علم أن أخاه يكون معه.

وقال عامة أهل التأويل: إنما قال لهم هذا؛ وعلم أنه في الأحياء؛ لأنه رأى ملك الموت؛ فقال له: هل قبضت روح يوسف مما قبضت من الأرواح؟ قال: لا[(٦)].

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢/ ٤٤٥).
(٢) بياض في ب.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٦).
(٤) في ب: عن.
(٥) في ب: وأين.
(٦) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١) وعزاه لابن أبي حاتم عن النصر بن عربي، وكذا ذكره البغوي (٢/ ٤٤٥).

وقال بعضهم: رأى في المنام ملك الموت؛ فقال له ما ذكرنا؛ فعند ذلك قال هذا القول.

لكنا نقول: إنه كان عالمًا بأنه في الأحياء؛ ليس بهالك؛ لما رأى من الرؤيا وغيره؛ فعلم أنه لا يهلك إلا بعد خروج رؤياه على الصدق والحق، لكنه لم يكن يعلم أنه أين هو من قبل، ثم علم من بعدُ بالوحي عن مكانه وحاله؛ فأمر بنيه أن يأتوه؛ فينظروا إليه وإلى أخيه.

وأصل هذا: أن ما حَلّ بيعقوب -من فوت يوسف وغيبته عنه- محنة امتحنه ربه، وبلية ابتلاه بها؛ يبتلي بذلك؛ حسرة عليه؛ ألا ترى أن يوسف لو أراد أن يُعْلِم أباه يعقوب عن مكانه وحاله؛ لقدر عليه؛ لأنه كان يعلم بمكان أبيه، وأن يعقوب لا يعلم بمكان يوسف؛ فلم يعلمه[1] إلا بعد الأمر بالإعلام. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾.

قيل: من رحمة الله[2].

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أخبر أنه لا ييئس من رحمة الله إلا القوم الكافرون؛ لأن مَنْ آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته فلا ييئس من رحمته، وأمّا الكافر؛ فإنه لا يعلم[3] رحمة الله ولا تقلبه في رحمته؛ فييئس من رحمته.

فنهاهم عن الإياس؛ لما كان عندهم أنه هالك؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] لما قال لهم: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وأخوه كان محبوسًا بالسرقة؛ والمحبوس لا يرد في حكمهم.

أو يقول: نهاهم؛ وإن لم يكونوا آيسين؛ ثم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خبر عن الله؛ أخبر أنه لا ييئس من [رحمة الله][4] إلا القوم الكافرون، وكذلك ما بشر إبراهيم بالولد؛ حيث قالوا: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] نهاه عن القنوط؛ ولا يحتمل أن يكون إبراهيم قانطًا عن ذلك؛ لكنه نهاه ثم أخبر فقال:

---

(١) في أ: يفعله.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٨٤-٢٨٥) (١٩٧٤١، ١٩٧٤٢) عن قتادة، و(١٩٧٤٤) عن الضحاك.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢) وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولابن جرير عن الضحاك مثله.

(٣) في أ: لا يعرف.

(٤) في ب: رحمته.

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] والآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لقولهم: إن صاحب الكبيرة خالد مخلد في النار وأنه ليس بكافر؛ وهو آيس - على قولهم - من رَوْح الله، وقد أخبر أنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم يقولون: إن صاحب الكبيرة آيس من رَوْح الله، وهو ليس بكافر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ سموه عزيزًا، لما لعلهم يسمّون كل ملك عزيزًا، أو سموه عزيزًا؛ لما كان عند ذلك عزيزًا؛ بقوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] أو لما كان بالناس إليه حاجة بالطعام الذي في يده؛ وهو كان غنيًّا عما في أيديهم والله أعلم.

قولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

قال أهل التأويل: أصابنا الشدة والبلاء من[1] الجوع[2].

﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾.

قيل: دراهم نُفَاية مبهرجة لا تنفق في الطعام؛ كاسدة[3]؛ لأنه كان في عزّة؛ وتُنفَق في غيره.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي قليلة. وكذلك قال القتبي[4]: أي قليلة. وقال ابن عباس: هي الورق الرّديئة[5] التي لا تنفق حتى يوضع[6] منها.

---

(١) في أ: و.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٦)، وكذا أبو حيان بمثله في البحر (٥/ ٣٣٦).
(٣) أخرجه ابن جرير بمثله (٧/ ٢٨٦) (١٩٧٤٨، ١٩٧٥٣) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٢٢).
(٥) في أ: الردية.
(٦) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٨٥) (١٩٧٤٧)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢) وزاد نسبته لأبي عبيد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

وقال أبو عبيد(١): الإزجاء في كلام العرب: الدفع والسَّوق؛ وهو كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أي يسوق ويدفع. وقال بعضهم: ناقصة(٢). وقال بعضهم: جاءوا بسمن وصوف. وقيل: جاءوا بصنوبر وحبة الخضراء(٣)، وأمثال هذا.

قالوا: ويشبه أن يكون ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ من التزجية: كما يقال: نزجي يومًا بيوم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾.

قال بعضهم: أوف لنا الكيل بسعر الجياد؛ وتأخذ النُّفَاية وتكيل لنا الطعام بسعر الجياد(٤).

لكن قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي سلم لنا الكيل تامًّا؛ لأن الإيفاء هو التسليم على الوفاء؛ كقوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأنعام :١٥٢]، وتصدق علينا بفضل ما بين الثمنين في الوزن. وقيل: ما بين الكيلين(٥).

وقال بعضهم: وتصدق علينا: أي زد لنا شيئًا يكون ذلك صدقة لنا منك.

لكن يشبه على ما قالوا: وطلبوا منه الصدقة؛ حط الثمن؛ لأن الصدقة لا تحل للأنبياء، ويجوز الحط لهم، ويجوز حطّ من لا يجوز صدقته؛ نحو العبد المأذون له في التجارة؛ يجوز حطه ولا يجوز صدقته، وكذلك نبي الله كان يجوز [له الشراء](٦) بدون

---

(١) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٨٦، ٢٨٨) (١٩٧٥٦، ١٩٧٧٩) عن سعيد بن جبير، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٢٨٦، ٢٨٧) (١٩٧٥٧، ١٩٧٥٨، ١٩٧٦٤، ١٩٧٦٩) عن عبد الله بن الحارث، (١٩٧٥٩) عن أبي صالح. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عبد الله بن الحارث، ولابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن أبي صالح.

(٤) أخرجه بمثله ابن جرير (٧/ ٢٨٩) (١٩٧٨٨، ١٩٧٨٩) عن السدي، وذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٦).

(٥) قال القرطبي: (استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على أن أجرة الكيال على البائع؛ لقولهم ليوسف - عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فكان يوسف هو الذي يكيل، وكذلك الوزان والعداد وغيرهم؛ لأن الرجل إذا باع عدة من طعامه معلومة، وأوجب العقد عليه، وجب عليه أن يبرزها، ويميز حق المشتري من حقه، إلا إن كان المبيع فيه معينا صبرة، أو ما ليس فيه حق موفيه؛ فيخلى ما بينه وبينه، وما جرى على المبيع فهو ضمان المبتاع، وليس كذلك ما يتعلق به حق موفيه من كيل أو وزن؛ ألا ترى: أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية؟! وكذلك أجرة النقد على البائع أيضًا؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طيبة، فأنت الذي تدعي الرداءة، فانظر لنفسك؛ ليقع له؛ فكان الأجر عليه. وكذلك لا يجب أجرة القاطع على من يجب عليه القصاص؛ لئلا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، ولا أن يمكن من ذلك طائعًا؛ ألا ترى أن فرضًا عليه أن يفدي يده، ويصالح عليه، إذا طلب المقتص ذلك؟!

ينظر: اللباب (١١/ ١٩٩).

(٦) في ب: الشراء له.

ثمنه؛ ولا تحل له الصدقة.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ بذهاب بصر أبيهم؛ مسهم بذلك وأهلهم الضر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

أي رُدَّ علينا بنيامين؛ لعل الله يرد بصره عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

قال أهل التأويل: إن الله يجزي المتصدقين إن كانوا على دين الإسلام؛ كأنهم ظنوا أنه ليس على دين الإسلام؛ ولو أنهم ظنوا أنه مسلم؛ لقالوا: إن الله يجزيك بالصدقة.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

هو ظاهر لا يحتاج إلى ذكره وأما ما فعلوه بأخيه: قال أهل التأويل: هو ما قالوا إنه سرق؛ لكنهم لم يقولوا إلا قدر ما ظهر عندهم؛ فلم يلحقهم بذلك القول فضل تعيير؛ لكن يشبه أن يكونوا آذوه بأنواع الأذى، ولا شك أنهم كانوا يبغضون يوسف وأخاه؛ حيث قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨].

وقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قد كانوا علموا هم ما فعلوا بيوسف لكنه [كأنه][(١)] قال: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف؛ أو أنتم جاهلون ذلك؛ ناسون؟ يقول لهم: اذكروا ما فعلتم بيوسف، وتوبوا إلى الله عن ذلك، ولا تكونوا جاهلين عن ذلك. أو يقول لهم: هل رجعتم وتبتم عن ذلك؟، أو أنتم بعد فيه؟.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

قال بعض أهل التأويل: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: مذنبون[(٢)]؛ ولكن إذ أنتم جاهلون قدر يوسف ومنزلته، لأنهم لو علموا ما قدر يوسف عند الله؛ وما منزلته ما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨] وما خطئوا أباهم في حبّه إياه حيث قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، وما فعلوا به ما فعلوا. والله أعلم.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

كأنهم عرفوا أنه يوسف؛ بقول يوسف لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [أو عرفوا بقول أبيهم؛ حيث قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾][(٣)] لما ذكر أخاه

(١) سقط في ب.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٧)، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ٣٣٧) ونسبه لمقاتل.
(٣) سقط في ب.

ورأوه معه عرفوا أنه يوسف؛ لذلك قالوا. والله أعلم.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾.

يحتمل: من يتّق معاصيه، ويصبر على بلاياه. أو اتقى مناهيه؛ وصبر على أداء ما أمر به. أو من اتقى وصبر؛ فقد أحسن. أو يقول: إنه من يتق الجفاء؛ ويصبر على البلاء؛ فقد أحسن.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

أي رُدَّ أخانا علينا، وهو ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

﴿تَٱللَّهِ﴾ قسم قد اعتادوه في فحوى كلامهم؛ على غير إرادة يمين بذلك؛ هكذا عادة العرب؛ وإلا كان يعلم يوسف أن الله قد آثره عليهم.

ويشبه أن يكون يخرج القسم هاهنا على تأكيد معرفتهم فضله ومنزلته؛ أي: لم تزل كنت مُؤْثَرًا مفضّلا علينا.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: وقد كنا خاطئين؛ فيما كان منا إليك من الصنيع.

أو أن يكون قوله: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ فيما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨] أي لما كان يؤثرهما عليهم؛ فقالوا: كنت مؤثَرًا على ما كان أبونا يؤثرك علينا وقد كنا ﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾؛ فقال يوسف.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

قال القتبي[(١)]: قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾: أي لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم؛ بما[(٢)] صنعتم.

وقال بعضهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: لا تنغيث عليكم. وقيل: أصل التثريب: الإفساد؛ يقال: ثرب علينا الأمر: أي أفسده.

وقال أبو عوسجة: التثريب: الملامة؛ يقول: لا لوم عليكم في صنيعكم.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه-: لا تثريب عليكم: أي لا أعيّركم بعد هذا اليوم أبدًا؛ ولا أعيره عليكم[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٢٢).

(٢) في ب: مما.

(٣) أخرجه ابن جرير بمثله (٧/ ٢٩٢) (١٩٨٠٢) عن عبد الله بن الزبير، وذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٧-٤٤٨).

وهو يحتمل هذين الوجهين:

أحدهما: لا تعيير عليكم ولا ملامة؛ أي ليس عليكم في العقل تعيير ولا ملامة؛ إذا تبتم وأقررتم بالخطأ، وهكذا كل من أذنب ذنبًا أو ارتكب كبيرة؛ ثم انتزع عنها وتاب منها؛ لا يعيَّر - هو - عليه ولا يلام. وكذلك قيل في قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] ذكر أنهم كانوا يعيِّرون أهل الكفر في كفرهم؛ وينابزونهم؛ ثم أسلموا؛ فنهوا أن ينابزوهم؛ ويصنعوا بهم مثل صنيعهم بهم في حال كفرهم، ولو وجب التعيير والملامة بعد الانتزع عنه والتوبة؛ أو يجوز ذلك لكان أصحاب رسول الله معيَّرين ملامين؛ لأنهم كانوا أهل الكفر في الابتداء، فهذا مما لا يحل في العقل.

والثاني: قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾: لا أعيِّركم؛ على ما قال ابن عباس - رضي الله عنه - أي: لا أذكر ما كان منكم إلينا؛ أمنهم عن أن يذكر شيئًا مما كان منهم إليه؛ ولذلك قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

ذكر أن الشيطان هو الذي فعل ما كان بينه وبين إخوته؛ وكذلك فعل؛ حيث قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أضاف ذلك إلى الشيطان، ولم يضف إلى إخوته.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قطع فيه القول بالمغفرة لهم؛ حين أقروا بالخطايا وتابوا عما فعلوا، وهكذا كل من تاب عن ذنب ارتكبه ونزع عنه؛ أن يقطع القول فيه بالمغفرة والرحمة.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يخرج على الدعاء لهم بالمغفرة، أو على الإخبار بالوحي أنه يغفر لهم، أو قد غفر لهم، أو يقول: استغفروا الله؛ الذي كان بين الله وبينكم يغفر لكم[1].

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأن كل من يرحم من الخلائق؛ إنما يرحم برحمة منه إليه؛ فهو أرحم الراحمين؛ بما قلنا؛ على ما قلنا في قوله: ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] و ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] لأن من يحكم من الخلائق بحكم يجوز إنما يحكم بحكم ناله منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

دل هذا من يوسف؛ حيث قطع القول فيه أنه يصير بصيرًا؛ إنه عن وحي[2] قال هذا لا عن رأي منه واجتهاد؛ إذ قطع القول فيه أنه إذا ألقى على وجهه يصير بصيرًا.

(١) في ب: لهم.
(٢) في أ: عز وجل.

وقوله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ هذا يخرج على وجهين:
أحدهما: يصير بصيرًا على ما ذكرنا.
والثاني: يأتيني بصيرًا.
وقوله - عز وجل-: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
أراد - والله أعلم - حيث أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمع - أن يبرّهم ويكرمهم؛ حين تابوا عما فعلوا به؛ وأقروا له بالخطأ في أمره.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾.
قيل خرجت[١]؛ وفصلت؛ وانفصلت -واحد.
﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.
قال أهل التأويل: كان بينهما ثمانون فرسخًا[٢]؛ يعني:[٣] بين مصر وبين كنعان مكان يعقوب. وقيل: مسيرة ثمانية أيام؛ ما بين الكوفة والبصرة[٤].
ولا حاجة لنا إلى معرفة ذلك أن كم كان بينهما؛ سوى أنا نعلم أنه كان بينهما مسيرة أيام؛ ثم وجد يعقوب ريح يوسف من ذلك المكان؛ ولم يجد غيره ممن كان معه؛ فذلك آية من آيات الله؛ حيث وجد ريحه من مكان بعيد لم يجد ذلك غيره، وذلك من آثار البشارة والسرور الذي يدخل فيه بقدومه.
قال بعض أهل التأويل[٥]: ذلك القميص هو من كسوة الجنة؛ كان الله كساه إبراهيم، وكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف؛ لذلك وجد

---

(١) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٢٩٤) (١٩٨٢٢) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وزاد نسبته لعبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٤) (١٩٨١٩) عن الحسن، و(١٩٨٠) عن ابن جريج، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٣) في أ: يعبر.
(٤) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٣-٢٩٤) (١٩٨١٣، ١٩٨١٦) عن ابن عباس.
(٥) ذكره الرازي في تفسيره (١٨/ ١٦٦).

ريحه؛ لأنه كان من ثياب الجنة، فهو - وإن ثبت ما قالوا - فذلك أيضًا حيث وجد هو ذلك، ولم يجد غيره. وكان أيضًا هو لا يجد ذلك الريح قبل فصول العير، وكان مع يوسف.

احتمل ما قالوا، أو احتمل أن يكون قميصًا من قمصه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

قيل تحزنون، وقيل: تهرمون[(١)]، وقيل: تكذبون[(٢)]، وقيل: تضعفون[(٣)]، وقيل: تعجزون[(٤)]، وقيل: تجهلون[(٥)]، وقيل: تسفهون[(٦)]، وقيل: تحمقون، وقيل: لولا أن تقولوا ذهب عقلك[(٧)].

والمفند: معروف عند الناس: هو الذي يبلغ من[(٨)] الكبر غايته؛ كقوله: ﴿وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿لَوْلَآ﴾ إذا كان على الابتداء؛ فهو على النهي؛ أي لا تفندون، وإذا كان على الخبر؛ فهو على النفي؛ كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] أي: لم ينفع.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٦، ٢٩٧) (١٩٨٤٩، ١٩٨٥٠) عن مجاهد، (١٩٨٥١، ١٩٨٥٣) عن الحسن.

وذكره أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٣٣٩) ونسبه للحسن البصري، والسيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٦) عن كل من: سعيد بن جبير (١٩٨٤٢)، السدي (١٩٨٤٣)، مجاهد (١٩٨٤٤)، الضحاك (١٩٨٤٥، ١٩٤٦)، ابن عباس (١٩٨٤٨).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي الشيخ.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٦) (١٩٨٤٠) عن ابن إسحاق، وذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٣٣٩) والبغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٨).

(٤) ذكره ابن جرير (٧/ ٢٩٤)، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ٣٣٩).

(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٥) (١٩٨٢٧) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وزاد نسبته لأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٥) عن كل من: ابن عباس (١٩٨٢٤، ١٩٨٢٥، ١٩٨٢٨، ١٩٨٣٠، ١٩٨٣٥)، ومجاهد (١٩٨٢٦، ١٩٨٢٩)، وعطاء (١٩٨٣١، ١٩٨٣٢)، وقتادة (١٩٨٣٣ و١٩٨٣٤).

وذكره أبو حيان في البحر (٥/ ٣٣٩) ونسبه لابن عباس وقتادة ومجاهد.

(٧) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٥) عن كل من: مجاهد (١٩٨٣٦، ١٩٨٣٧، ١٩٨٣٨، ١٩٨٣٩)، وابن زيد (١٩٨٤١).

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن زيد، وكذا أبو حيان في البحر (٥/ ٣٣٩)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٤٤٨).

(٨) في ب: في.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ﴾ هو ما ذكرنا أنه يمين اعتادوه في كلامهم؛ على غير إرادة القسم به.

﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قيل في حُبّ يوسف، وذكره القديم كان عندهم؛ بأنه هالك؛ لذلك أنكروا عليه وخطئوه؛ فيما يجد من ريحه، وعنده أنه في الأحياء[١]؛ لذلك كان ما ذكروا. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

أي رجع بصيرًا على ما كان: قال أهل التأويل: البشير كان يهوذا[٢]، وقيل: البريد[٣]، ولا ندري من كان؛ وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة - سوى أن المدفوع إليه الثواب كان واحدًا؛ وإن قال في الابتداء: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال بعض أهل التأويل: وذلك أن يعقوب قال لهم قبل ذلك: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] أنتم؛ من تصديق رؤيا يوسف؛ وأنه حي، وكان يعلم هو من الله أشياء ما لا يعلمون هم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ قال يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي.

طلبوا من أبيهم الاستغفار؛ فأخرهم ذلك إلى وقت، وطلبوا من يوسف العفو وأقروا له بالخطأ والذنب؛ فعفا عنهم وقت سؤالهم العفو، فمن الناس من يقول: إنما أخر يعقوب الاستغفار؛ وعفا عنهم يوسف؛ لأن قلب الشاب يكون ألين وأرقّ من قلب الشيخ؛ لذلك كان ما كان[٤]، لكن هذا ليس بشيء؛ إنما يكون هذا في عوامّ من الناس؛ فأمّا الأنبياء

---

(١) في أ: الإ-خبار.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٨-٢٩٩) عن كل من: مجاهد (١٩٨٦٥، ١٩٨٦٨، ١٩٨٧٠، ١٩٨٧١)، وابن جريج (١٩٨٦٩)، الضحاك (١٩٨٧١، ١٩٨٧٣)، والسدي (١٩٨٧٢).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٨) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد، ولابن أبي حاتم عن سفيان.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٩٨) (١٩٨٦٢) عن ابن عباس، (١٩٨٦٣، ١٩٨٦٤) عن الضحاك.
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٨) وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولأبي الشيخ عن الضحاك مثله.

(٤) في أ: ذكر.

كلما مضى وقت فتزداد قلوبهم لينًا ورقّة وخشوعًا. ومنهم من يقول: إنما كان كذلك؛ لأن وَجْد يعقوب كان أكثر مِنْ وَجْد يوسف؛ لذلك كان أجابهم يوسف وقت سؤالهم العفو؛ وأخر يعقوب إلى وقت.

قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله-: والوجه فيه عندنا -والله أعلم-: أنهم إنما سألوا يعقوب؛ وطلبوا منه الاستغفار من ربهم؛ ليكون لهم شفيعًا؛ فأخر ذلك إلى وقت الاستغفار والشفاعة؛ إذ ليس كل الأوقات يكون وقتًا للاستغفار، وطلبوا من يوسف العفو منه؛ فعفا عنهم وقت طلبهم منه العفو؛ لهذا الوجه، يحتمل أن يخرج معناه. والله أعلم.

أو أن يكون يعقوب أخّر الاستغفار؛ لأن الذنب في ذلك كان بينهم وبين ربهم؛ فأخر[(١)] إلى أن يجيء الإذن من ربه، وأما الذنب في[(٢)] يوسف؛ ففيما بينهم وبين يوسف؛ فعفا عنهم في ساعته.

ويحتمل قوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾.

إن استغفرتم [أنتم][(٣)]، أو قال: سوف أستغفر لكم ربي؛ إذا جاء وقته؛ وهو ما قال ابن عباس - رضي الله عنه-: إنه [أخر وقت الاستغفار][(٤)] إلى وقت السحر، أو أن يكون أخره إلى أن يقدم شيئًا بين [يدي][(٥)] الاستغفار والشفاعة؛ ليكون أسرع إلى الإجابة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

ظاهر هذا أن يوسف كان تلقّاهم خارجًا من المصر؛ فقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ

---

(١) في أ: وأخر.
(٢) في أ: من.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: أخره.
(٥) سقط في ب.

﴿ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ثم لما دخلوا المصر آوى إلى نفسه أبويه وضمهما إليه.

ويشبه أن يكون قال لهم هذا القول؛ وقت ما قال لهم: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ثم لما جاءوا هم ودخلوا مصر - ضم إليه أبويه؛ وأمره إياهم أن يدخلوا مصر آمنين؛ لأن المصر كان أهله أهل كفر؛ فكأنهم خافوا الملك الذي كان فيه؛ فذكر لهم الأمن لذلك. والله أعلم.

وذكر الثنيا فيه؛ لأنه وعْد منه؛ وعَد لهم؛ والأنبياء -عليهم السلام- كان لا يعدون شيئًا إلا ويستثنون في آخره؛ كقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] وإنما ذكر الثنيا في الأمن؛ لم يذكر في الدخول؛ لأن الدخول منه أمر وما ذكر من الأمن فهو وعْد؛ فهو ما ذكرنا: أنه يستثنى في الوعد ولا يستثنى في الأمر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

يشبه أن يكون قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هو ما ذكر من رفعه إياهما على العرش، وخص بذكر أبويه بالرفع على العرش؛ فيحتمل أن يكون رفع أبويه والإخوة جميعًا؛ لأنه لو لم يرفعهم - وقد كان عفا عنهم - لما أقروا بالخطأ. وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] لكان يقع عندهم أنه قد بقى شيء مما كان منهم إليه؛ لكنه خصّ أبويه بالذكر؛ لشرفهما ومجدهما؛ على ما يخص الأشراف والأعاظم؛ نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧] ونحوه.

ودل رفع أبويه على العرش - على أن اتخاذ العرش والجلوس عليه لا بأس به؛ إذ لو كان لا يحلّ أو لا يباح ذلك؛ لكان يوسف لا يتخذه؛ ولا كان يعقوب يجلس عليه، دل ذلك منهما أن ذلك مباح لا بأس به. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

قال بعضهم - من أهل التأويل - كانت تحيتهم يومئذ - فيما بينهم - السجود؛ يسجد بعضهم لبعض مكان ما يسلم بعضنا على بعض، وأما اليوم فهو غير مباح؛ وإنما التحية في السلام(١)، لكن السجود لغير(٢) الله؛ ليس يكره لنفس السجود؛ وإنما يكره وينهى عما في السجود؛ وهو العبادة والتسفل، لا يحل لأحد أن يجعل العبادة والتسفل له دون الله، وأما نفس السجود فإنه كالقيام والقعود؛ وغيره من الأحوال يكون فيها المرء. والله أعلم.

---

(١) أخرجه بمعناه (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤) (١٩٩٠٢) عن ابن إسحاق، و(١٩٩٠٣، ١٩٩٠٤) عن قتادة.
وذكره السيوطي بمعناه (٤/ ٧١) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عدي بن حاتم.

(٢) في أ: لدون.

ويحتمل قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي خروا له خاضعين له ذليلين، وقال بعضهم: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: خروا له سجدا، شكرا له؛ لما جمع بينهم ورفع ما كان بينهم، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

أي: حقق تلك الرؤيا التي رأيتها من قبل؛ وجعلها صدقًا لي، رأى يوسف رؤيا فخرجت رؤياه بعد حين ووقت وزمان طويل؛ فهذا يدلّ أن الخطاب إذا قرع السمع يجوز أن يأتي بيانه من بعد حين وزمان، ويجوز أن يكون مقرونًا به، وليس في تأخر بيان الخطاب تلبيس ولا تشبيه، على ما قال بعض الناس.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [ذكر إحسانه إليه ومنته ولم يذكر محنته بالتصريح، إنما ذكرها بالتعريض، حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾][(١)] ولم يقل: سجنت أو حبست، وأمثاله، ما كان ابتلاه الله به.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾.

قيل: من البادية؛ لأنهم كانوا أهل بادية أصحاب المواشي[(٢)].

وقوله - عز وجل-: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

[قال بعضهم: نزغ: أي فرق [أي:] بعدما فرق الشيطان بيني وبين إخوتي][(٣)]، وكأن النزغ هو الإفساد؛ على ما ذكره أهل التأويل؛ أي: بعدما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وأضاف ذلك إلى الشيطان؛ لما كان قال لهم: لا تثريب عليكم حين أقروا له بالفضل؛ والخطأ في فعلهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.

اللطيف: هو اسم لشيئين: اسم البرّ والعطف؛ يقال: فلان لطيف؛ أي بارّ عاطِف.

والثاني: يقال: لطيف؛ أي عالم بما يلطف من الأشياء ويصغر، كما يعلم بما يعظم ويجسم.

أو يقال: لطيف: أي يعلم المستور من الأمور الخفية على الخلق؛ كما يعلم الظاهرة منها والبادية، لا يخفى عليه شيء؛ يعلم السر وأخفى، يقال له: عظيم، ولطيف؛ ليعلم

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) أخرجه ابن جرير بمعناه (٧/ ٣٠٧) (١٩٩٣٥) عن ابن جريج، وذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٥١)، وكذا أبو حيان (٥/ ٣٤٣).
(٣) سقط في ب.

أن ليس يفهم من عظمه ما يفهم من عظم الخلق؛ إذ لا يجوز في الخلق أن يكون عظيمًا لطيفًا؛ ويجوز في الله، ليعلم أن ما يفهم من هذا غير ما يفهم من الآخر. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي العليم بما كان ويكون، وما ظهر وما بطن، وما يسرّ وما يعلن، وبكل شيء، أو عليم بعواقب الأمور وبدايتها، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: حكم بعلم، ووضع كل شيء موضعه؛ لم يحكم بجهل ولا غفلة ولا سفه؛ على ما يحكم الخلق، تعالى الله - عز وجل - عن ذلك علوًّا كبيرًا.

[مسألة][(١)]: ثلاث آيات في سورة يوسف على المعتزلة: قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] أخبر أنه لو لم يصرف عنه[(٢)] كيدهن مال إليهن، وهم يقولون: قد صرف عن كل أحد السوء والكيد؛ لكن لم ينصرف عنه ذلك.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] أخبر أنه إذا رحمه امتنع عن السوء والأمر به، وهم يقولون: إنه - وإن رحم - لا يمتنع السوء ولا الأمر به.

وكذلك قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦] وهم يقولون: ليس له أن يصيب أحدًا دون أحد من رحمته؛ ولا أن يخص أحدًا بذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

قال أبو بكر الأصم: ذكر ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ لأنه لم يؤته كل الملك؛ إذ كان فوقه ملك أكبر منه، لكن لا لهذا ذكر ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ إذ معلوم أنه لم يؤت لأحد كل ملك الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ويكون في وقت واحد ملوك.

وقال مقاتل: (من) صلة: كأنه قال: رب قد آتيتني من الملك. لكن الوجه فيه ما ذكرنا.

وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ . . .﴾ إلى آخر ما ذكر، قدم دعاءه؛ وسؤاله ربه ما سأل؛ إحسانه إليه ومحامده وصنائعه؛ ليكون ذلك [له وسيلة][(٣)] إلى ربه في الإجابة.

وفي ذلك دلالة نقض قول المعتزلة من وجهين:

أحدهما: يقولون: إن كل أحد شفيعه عمله؛ فيوسف لم يذكر ما كان منه: أني فعلت

---

(١) بياض في ب.
(٢) في أ: عني.
(٣) في ب: وسيلة له.

كذا؛ فافعل بي كذا، ولكن ذكر نعم الله وإحسانه إليه.

والثاني من قولهم: إنه لا يؤتي أحدًا ملكًا ولا نبوة إلا بعد الاستحقاق [به، ولا يكون من الله إلى أحد نعمة وإحسان إلا بعد الاستحقاق][(١)].

ومن قولهم: إن كل أحد هو المتعلم؛ لا أن الله يعلم أحدًا، وقد أضاف يوسف التعليم إلى الله؛ حيث قال: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهم يقولون: لم يعلمه ولكن هو تعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

قال أهل التأويل: تعبير الرؤيا[(٢)]، ولكن الأحاديث: هي الأنباء، والتأويل: هو علم العاقبة وعلم ما يئول إليه الأمر، كأنه قال: علمتني مستقر الأنباء ونهايتها؛ كقوله - تعالى-: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

كأنه على النداء والدعاء؛ ذكر: يا فاطر السموات والأرض؛ لذلك انتصب.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

يشبه أن يكون تأويله: أنت ولى نعمتي في الدنيا والآخرة؛ كما يقال: فلان ولي نعمة فلان.

ويحتمل: أنت أولى بي في الدنيا والآخرة، أو أنت ربي وسيدي في الدنيا والآخرة.

وقوله - عز وجل-: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

تمنى - عليه السلام - التوفي على الإسلام، والإخلاص بالله والإلحاق بالصالحين؛ فهو - والله أعلم - وذلك أن الله قد آتاه النهاية في الشرف والمجد في الدنيا دينًا ودنيا؛ لأن نهاية الشرف في الدين هي النبوة والرسالة، ونهاية الشرف في الدنيا الملك؛ فأحب أن يكون له في الآخرة مثله؛ فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ثم يحتمل سؤاله: أن يلحقه بالصالحين؛ بكل صالح.

ويحتمل: أنه سأله أن يلحقه بالصالحين؛ بآبائه وأجداده وبجميع الأنبياء والرسل.

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هو ينقض على المعتزلة أيضًا؛ ومن قولهم: [إنه أعطى كل أحد][(٣)] ليس له ألا يتوفاه مسلمًا؛ فيكون في دعائه عابثًا؛ على قولهم.

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه بمعناه ابن جرير (٧/ ٣٠٩) (١٩٩٤٦)، وذكره البغوي (٢/ ٤٥١).

(٣) سقط في ب.

[والثاني: على قولهم][1] لا يملك أن يتوفاه مسلمًا؛ لأن من قولهم: إنه أعطى كل أحد ما به يكون مؤمنًا حتى لم يبق عنده شيء، ومن سأل آخر شيئًا يعلم أنه ليس عنده؛ فهو يهزأ به، أو يكون فيه كتمان النعمة؛ وفي كتمان النعمة كفرانها.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ . . .﴾ الآية.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي خبر يوسف وإخوته؛ وقصصهم التي قصصنا عليك وأخبرناك به؛ من أوله إلى آخره، ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ لم تشهدها أنت [ولم تحضرها كقوله][2]: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾ [هود: ٤٩] هذا ليعلم أنك إنما علمت وعرفتها بالله وحيًا؛ ليدلهم على رسالتك ونبوتك. والله تعالى أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

أي: ما كنت لديهم ولا بحضرتهم؛ ثم أنبأت على ما كان؛ ليدل على ما ذكرنا من الرسالة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

بأبيهم وأخيهم: أما مكرهم بأبيهم؛ حيث قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] أخبروه أنهم له ناصحون؛ فخانوه.

ومكرهم بأخيهم؛ حيث قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] ضمنوا له الحفظ؛ فلم يحفظوه -مكروا بهما جميعًا.

والمكر: هو الاحتيال؛ في اللغة؛ والأخذ على جهة الأمن، وقد فعلوا هم بأبيهم يعقوب وأخيهم يوسف عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي ما أكثر الناس بمؤمنين؛ ولو حرصت يا محمد أن يكونوا مؤمنين؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] كان النبي ﷺ بلغ من شفقته ورحمته على الخلق؛ ورغبته في إيمانهم؛ حتى كادت نفسه تهلك في ذلك؛ حيث قال:

---

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: ولا تحضرها؛ لقوله.

﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ . . .﴾ الآية [الشعراء: ٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ [فاطر: ٨] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] كان حرصه على إيمانهم بلغ ما ذكر؛ حتى خفف ذلك عليه بهذه الآيات[١].

وقال بعض أهل التأويل: قوله - تعالى-: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يعني أهل مكة، ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهم كذلك؛ كانوا أكثرهم غير مؤمنين، وأهل مكة وغيرهم سواء كلهم؛ كذلك كانوا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: [على][٢] ما تبلغ إليهم وتدعوهم إلى طاعة الله؛ وجعل العبادة له؛ وتوجيه الشكر إليه؛ لا تسألهم على ذلك أجرًا؛ فما الذي يمنعهم عن الإجابة لك فيما تدعوهم؛ والائتمار بأمرك؟! هذا يدل أنه لا يجوز أخذ الأجر على الطاعات والعبادات؛ حيث نهى وأخبر أنه لا يسألهم على ما يبلغ إليهم أجرًا، وهو لم يتولَّ تبليغ جميع ما أمر بتبليغه بنفسه إلى الخلق كافة، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ . . .﴾ الآية [سبأ: ٢٨] ولكنه ولى بعضه غيره؛ كقوله: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب»؛ فإذا لم يجز له أخذ الأجر فيما يبلغ هو؛ فالذي كان مأمورًا أن يبلغ عنه أيضًا لا يجوز أن يأخذ الأجر على ما يبلغ.

وفي قوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه ليس يسألهم على الذي يبلغه إليهم ويدعوهم أجرًا؛ حتى يمنع بذل ذلك وثقله عن الإجابة.

والثاني: إخبار أن ليس له أن يأخذ؛ وأن يجمع من الدنيا شيئًا؛ كقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ . . .﴾ الآية [طه: ١٣١] ومعلوم أنه لا يمد عينيه إلى ما لا يحل؛ فيكون النهي عن أخذ المباح.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي هذا القرآن الذي تبلغهم ليس إلا ذكرى؛ وموعظة[٣] للعالمين، أو هو نفسه عظة وذكرى للعالمين؛ أعني: النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي شرف وذكرى لمن اتبعه وقام به، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] أي منفعته تكون لمن اتبعه؛ فعلى ذلك هذا.

---

(١) في أ: الآية.
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: وهو عظة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ . . .﴾ الآية.

أي كم من آية في السموات والأرض. قال بعض أهل التأويل: الآيات التي في السماء مثل: الشمس والقمر والنجوم والسحاب؛ وأمثاله، والآيات التي في الأرض: من نحو: الجبال والأنهار والبحار والمدائن؛ ونحوها، لكن السماء نفسها آية، والأرض نفسها آية؛ وما يخرج منها من النبات آية.

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

أي: هم عنها معرضون عما جعلت من آيات؛ لأنها إنما جعلت آيات لوحدانية الله وألوهيته؛ فهم عما جعلت من آيات معرضون. وبالله الهداية والعصمة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: كم من آية دليل وعلامة على وحدانية الله؛ في خلق السموات والأرض، وهو قريب مما ذكرنا.

وقال بعضهم: آيات السماء؛ ما ذكرنا من نحو الشمس والقمر والكواكب. وآيات الأرض؛ فمثل آثار[1] الأمم التي أهلكوا من قبل؛ من نحو قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط؛ وغيرهم؛ ممن قد أهلكوا؛ يمرون عليها ويرونها ولا يتعظون بهم.

والوجه فيه ما ذكرنا: أنهم معرضون عما جعلت تلك آيات؛ وإنما جعلت آيات لوحدانية الله وألوهيته، أو معرضون عن التفكر فيها والنظر إعراض معاندة ومكابرة.

ثم يحتمل الإعراض وجهين:

أحدهما: أعرضوا: أي لم ينظروا فيها؛ ولم يتفكروا؛ ليدلهم على وحدانية الله وألوهيته؛ فهو إعراض عنها.

والثاني: نظروا وعرفوا أنها آيات [لوحدانية الله][2]؛ لكنهم أعرضوا عنها مكابرين معاندين، ليس في السموات ولا في الأرض شيء - وإن لطف - إلا وفيه دلالة [على][3] وحدانية الله، وآية ألوهيته.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

يحتمل هذا وجهين:

أحدهما: في الاعتقاد؛ أي: وما يؤمن أكثرهم بالله بأنه الإله؛ إلا وهم مشركون الأصنام والأوثان في التسمية، وسموها آلهة؛ كقوله -تعالى-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا

---

(١) في أ: آيات.
(٢) في ب: لوحدانيته.
(٣) سقط في ب.

يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

والثاني: إشراك في الفعل[١]؛ أي: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم عبدوا غيره؛ من الأصنام والأوثان، أو أن يكون ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ بلسانهم ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بقلوبهم أو يقول: وما يؤمن أكثرهم بالله في النعمة أنها من الله تعالى؛ إلا وهم مشركون في الشكر له تعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: كيف أمنوا أن يأتيهم عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة؛ وقد سمعوا إتيان العذاب بمن قبلهم وهلاكهم، وقد جاء ما يخوفهم إتيان الساعة؛ وخافوا عنها؛ وإن لم يعلموا بذلك حقيقة؛ لما تركوا العلم بها ترك معاندة ومكابرة؛ لا ترك ما لم يبين لهم؛ ومن[٢] لم يأت له التخويف والإعلام.

و ﴿غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: قال أبو عوسجة -رحمه الله-: أي مجللة تغشيهم، ومنه قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] وهو ما يأتيهم العذاب من فوقهم.

وقال غيره: غاشية من عذاب الله: أي عذاب من عذاب الله تعالى؛ وهو كقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]؛ يجب أن يكون أهل الإسلام معتبرين بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، وكذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وإن كانت الآيتان نزلتا فيهم؛ لأنهم يمرون بما ذكر من الآيات ولا يعتبرون بما ذكر، وكذلك يكون آمنين عن غاشية من عذاب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾.

[قيل][٣]: السبيل يؤنث ويذكّر. ويحتمل: هذه الطاعة أو العبادة لله.

---

(١) في أ: العقل.
(٢) في أ: وما.
(٣) سقط في ب.

يحتمل قوله - تعالى -: ﴿سَبِيلِي﴾ هذه التي أنا عليها،
ويحتمل: هذه سبيلي التي أدعوكم إلى الله.
﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾.

البصيرة: العلم والبيان والحجة النيرة؛ أي هذه سبيلي التي أنا أدعوكم إليها؛ إنما أدعوكم على بصيرة؛ أي على علم وبيان وحجة قاطعة؛ وبرهان نير؛ ليس كسائر الأديان التي يدعى إليها على الهوى والشهوة بغير حجة ولا برهان؛ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [أي: ومن اتبعني][(١)] - أيضًا - فإنما يدعوكم أيضًا على حجة وبرهان؛ إذ من يجيبني؛ فإنما يجيب على بصيرة وبيان وحجة.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قيل: كأن هذا صلة قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ سبحان الله: تنزيهًا لما قالوا؛ وتبرئة عما قالوا في الله بما لا يليق به.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في ألوهيته وربوبية غيره؛ أو في عبادته. والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾.

ذكر رجالا - والله أعلم - أي: لم نبعث رسولا من قبل إلا بشرًا؛ لم نبعث ملكًا ولا جنًّا؛ فكيف أنكرتم رسالة محمد بأنه بشر؛ ولم يروا رسولا من قبل ولا سمعوا إلا من البشر؛ كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وكقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] هذا والله أعلم.

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك؛ بشرًا لا ملكًا ولا جنًّا، أو ذكر رجالا؛ لأنه لم يبعث امرأة رسولا.

وقوله - عز وجل -: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

أي: إنما أرسل الرسل جملة من أهل الأمصار والمدن؛ لم يبعثوا من أهل البوادي وأهل البرارى والقرى؛ إنما يريد الأمصار والبنيان، وقال الله - تعالى -: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢] قيل: هي مكة[(٢)]، جميع ما ذكر في القرآن من القرية والقرى؛ يريد به الأمصار والمدن؛ وإنما بعث الرسل والأنبياء من الأمصار؛ ولم يبعثهم من البوادي ومن أهل البراري - لوجهين - والله أعلم -:

أحدهما: لأن لأهل الأمصار والمدن؛ اختلاطًا بأصناف الناس؛ وامتزاجًا بأنواع

---

(١) سقط في أ.
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦٥٥) عن كل من: ابن عباس (٢١٩٥٦)، ومجاهد (٢١٩٥٧، ٢١٩٥٨)، وقتادة (٢١٩٥٩، ٢١٩٦٠)، وابن زيد (٢١٩٦١).
وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٥١) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

الخلق، ويكون لهم تجارب[(١)] بالخلق؛ فهم أعقل وأحلم وأبصر من أهل البادية والبرية، إذ اختلاطهم وامتزاجهم إنما يكون بالماشية وأنواع البهائم؛ لذلك بعثوا من الأمصار دون البادية.

وبعدُ فإن الرسل يكون لهم أسباب وأعلام تتقدم عن وقت الرسالة تحتاج إلى أن يظهر ذلك للخلق؛ ليكون ذلك أسرع إلى الإجابة لهم؛ وأدعى وأنفذ إلى القبول، فإذا كانوا من أهل البوادي لا يظهر ذلك للخلق.

والثاني: أنه يراد من الرسالة إظهارها في الخلق؛ في الآفاق والأطراف والأمصار، والمدن هي الأمكنة[(٢)] التي ينتاب الناس إليها في التجارات وأنواع الحوائج من الآفاق والأطراف؛ فيظهر ذلك فيها. وفي أهل الآفاق وأما أهل البوادي والبراري؛ ليس يدخلها ولا ينقلب[(٣)] إليها؛ إلا الشاذة من الناس؛ ولا يقضى فيها الحوائج؛ فلا يظهر في الخلق الرسالة وما يراد بها.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ألم ينظروا ويتفكروا؛ فيمن هلك من قبلهم من الأمم؛ بتكذيبهم الرسل أن كيف كان عاقبتهم بالتكذيب في الدنيا؛ ليمتنعوا عن تكذيب رسولهم.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ الآية؛ يخرج على وجهين:

أحدهما: أي قد ساروا ونظروا كيف كان عاقبة المكذبين؛ لكنهم عاندوا ولم يعتبروا.

والثاني: أي سيروا في الأرض؛ وانظروا، ولكن ليس على نفس السير في الأرض؛ ولكن على السؤال عما نزل بأولئك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشِّرك أو خِلافَ الله ورسوله. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك أفضل وخير؛ [ممن لم يتق ذلك][(٤)]. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ و ﴿كُذِّبُوا﴾؛ كلاهما لغتان، قال بعضهم: أيس الرسل عن إيمان قومهم وتصديقهم الرسل[(٥)]، ثم

(١) زاد في ب: بالعقل.
(٢) في أ: إلى مكة.
(٣) في أ: ينتاب.
(٤) في أ: من لم يتق بذلك.
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣١٦، ٣١٧) (١٩٩٨٨، ١٩٩٨٩، ١٩٩٩٢، ١٩٩٩٣) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٧٧) وزاد نسبته لأبي عبيد وسعيد بن منصور والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

يحتمل استيئاسهم عن إيمانهم؛ لكثرة ما رأوا من اعتنادهم الآيات وتفريطهم في ردها؛ أيسوا عن إيمانهم، أو كان إياسهم بالخبر عن الله أنهم لا يؤمنون؛ كقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ . . .﴾ الآية [هود: ٣٦] وأمثاله.

وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قال بعضهم: وظن الرسل أن أتباعهم الضعفة قد كذبوهم؛ لكن هذا إن كان من الرسل فهو ظن من الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم؛ [لكثرة ما أصابهم من الشدائد، وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، فوقع عند الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم وإن كان من الأعداء فقد استيقن الرسل أنهم كذبوهم][١].

وروى عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة؛ قال: فقلت: أرأيت قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أو ﴿كُذِّبُوا﴾ قال: فقالت: بل كذّبهم[٢] قومهم، قال: فقلت: [أرأيت قول الله ﴿حَتَّىٰٓ﴾][٣] والله لقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم؛ وما هو بالظن؛ فقالت: يا عروة لقد استيقنوا بذلك، قال: قلت: فلعلهم ظنوا أن قد كُذِبوا، قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها[٤]، [قال]: وما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم؛ وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر؛ حتى إذا استيئست الرسل ممن كذبهم من قومهم؛ وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم؛ جاءهم نصر الله عند ذلك[٥].

وقال بعضهم: حتى إذا استيئس الرسل عن إيمان قومهم؛ وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما أوعدوا من العذاب أنه نازل بهم؛ لما أبطأ عليهم العذاب[٦].

وقال بعضهم: وظنوا أنهم؛ أي ظن قومهم؛ أن رسلهم قد كذبوهم خبر السماء جاءهم نصرنا.

فإن كان الآية في أتباع الرسل؛ على ما ذكر بعضهم؛ فهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فإن كانت[٧] في غيرهم من المكذبين؛ فقد جاء الرسل نصر الله.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: كذبوهم.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: بها.
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/٣٢٢) (٢٠٠٣٢، ٢٠٠٣٣)، وذكره السيوطي في الدر (٤/٧٦) وزاد نسبته لأبي عبيد والبخاري والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طريق عروة عن عائشة.
(٦) أخرجه ابن جرير (٧/٣١٦) (١٩٩٩٦، ٢٠٠٠٢، ٢٠٠٠٤) عن ابن عباس.
(٧) في ب: وكان.

وقوله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين؛ فهو في ظاهره خبر على المستقبل؛ أي: ينجي من يشاء من هؤلاء المؤمنين.

ويشبه أن يكون على الخبر في أولئك؛ فإن كان على هذا؛ فيجيء أن يكون نجينا من نشاء[١] منهم؛ وأهلكنا من نشاء منهم، لكن يجوز هذا في اللغة، أو يكون في الآخرة ننجي من نشاء.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي لا يرد عذابنا إذا نزل عن المجرمين.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾.

يحتمل قوله: ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ قصة يوسف وإخوته وغيره؛ عبرة لأولى الألباب. ويحتمل ﴿قَصَصِهِمْ﴾: قصص الرسل والأمم السالفة جميعًا عبرة لأولى الألباب، والاعتبار إنما يكون لأولى الألباب؛ الذين ينتفعون بلبهم[٢] وعقلهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾.

يحتمل؛ أي: ما حديث محمد ﷺ؛ وما أخبر من القصص وأخبار الرسل والأمم السالفة؛ بالذي افتري؛ بل إنما أخبر ما كان في الكتب السالفة على غير تعلم منه ولا دراسة كتب.

ويحتمل: ما كان هذا القرآن بالذي يقدر أن يفترى.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

أي: تصديق الذي نزل على رسول الله - الكتب التي كانت من قبل.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي تفصيل ما للناس حاجة إليه.

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن اهتدى.

﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفيما ذكر من قصة يوسف وإخوته على رسول الله دلالة التصبير[٣] على [أذى][٤] قريش؛ يقول: إن إخوة يوسف - عليه السلام - مع موافقتهم إياه في الدين والنسب والموالاة - عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر به؛ فقومك - مع مخالفتهم إياك في الدين - أحرى أن تصبر على أذاهم. وبالله العصمة.

---

(١) في ب: شئنا.
(٢) في أ: بنيتهم.
(٣) في أ: التصبر.
(٤) سقط في ب.

سورة الرعد ذكر أنها مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

قوله - عز وجل-: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾.

يحتمل أن يكون قوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كناية عن الأحرف المقطعة المعجمة؛ فيكون قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تفسير ﴿الٓمٓرۚ﴾.

هذا هو الظاهر: أن يقال في كل الحروف[١] المعجمة والمقطعة: أن يكون ما ذكر من بعدها على أثرها كان تفسيرًا لها.

والثاني: يشبه أن يكون قوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كناية عن الحجج والبراهين وسائر الكتب؛ كأنه قال: تلك الحجج والبراهين وسائر الكتب -جعلناها آيات القرآن وحججه، وقد ذكرنا القول في الحروف المقطعة فيما تقدم.

ثم اختلف في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [هو القرآن الذي أنزل][٢].

قال بعضهم[٣]: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو الحق: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ.

وقال بعضهم[٤]: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو القرآن [والذي أنزل إليك من ربك -أيضًا- هو القرآن،][٥] لكنه أخبر أنه منزل من ربك الحق.

وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يحتمل: هو الحق؛ أي: منزل من الله؛ ليس كما قال أولئك إنه ليس من الله؛ إنما يقوله محمد من تلقاء نفسه.

ويحتمل: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنه من الله، أو أكثر الناس لا يؤمنون أنه آيات الله وحججه والله أعلم.

---

(١) في أ: حروف.

(٢) سقط في ب.

(٣) قاله قتادة ومجاهد، أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٠٤٨) و (٢٠٠٤٩) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٠، ٨١).

(٤) قاله مجاهد وقتادة، أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٠٥٠،٢٠٠٥١) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨١).

(٥) سقط في أ.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾.

قوله: ﴿رَفَعَ﴾ أي: أنشأها مرفوعة؛ لا أنها كانت موضوعة فرفعها؛ ولكن جعلها في الابتداء مرفوعة، وكذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣] ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢] ونحو ذلك؛ أي: أنشأها مرفوعة ممدودة؛ لا أنها كانت مرفوعها فوضعها، أو كانت منقبضة فبسطها؛ ولكن أنشأها[(١)] كذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

قال بعضهم[(٢)]: هي بعمد لكن لا ترونها؛ أي: ترونها بغير عمد وهي بعمد.

وقال بعضهم[(٣)]: هي بغير عمد على ما أخبر؛ ولكن اللطف والأعجوبة بما يمسكها بعمد لا ترى؛ كاللطف والأعجوبة فيما يمسكها بغير عمد؛ لأن في الشاهد لم يعرف؛ ولا قدر على رفع سقف فيه سعة وبعد بغير عمد لا ترى، لكن ما يرفع إنما [يرفع بعمد][(٤)] ترى؛ فاللطف في هذا كاللطف في الآخر.

وفيه دلالة قدرته على البعث؛ لأنه[(٥)] ذكر هذا ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: من: قدر على رفع السماء - مع سعتها وبُعدها - بلا عمد؛ لقادر على إعادة الخلق؛ وبعثهم؛ وإحيائهم بعد الموت، بل رفع السماء مع سعتها وبعدها، بلا عمد، أكبر من

---

(١) في ب: أنشأ.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٠٥٢، ٢٠٠٥٣، ٢٠٠٥٨، ٢٠٠٥٩) وعن مجاهد (٢٠٠٥٤، ٢٠٠٥٧) وانظر الدر المنثور (٤/ ٨١).

(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢٠٠٦١) وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٨١).

(٤) في ب: يرفع بغير عمد.

(٥) في أ: لأن.

إعادة الشيء بعد فنائه؛ إذ في الشاهد من قد يقدر على إعادة أشياء بعد فنائها؛ ولا يقدر على رفع سقف؛ ذي سعة وبعد؛ بغير عمد. من ذا الوجه أمكن أن يحتج. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

لما لم يفهم من قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١] مدبر المكان؛ وإن كان في الشاهد يفهم منه المكان؛ إذا أضيف إلى المخلوق -لم يجز أن يفهم من استوائه [ما يفهم من استواء][(١)] الخلق.

وبعد فإن في الشاهد؛ إذا قيل: فلان استولى أمر بلدة كذا؛ أو استوى أمره؛ لم يفهم منه [المكان، بل فهم منه][(٢)] نفاذ الأمر والسلطان والمشيئة؛ فعلى ذلك لم يجز أن يفهم من الله إذا أضيف إليه المكان.

وأصله: ما ذكرنا فيما تقدم أنه أخبر أنه ليس كمثله شيء؛ فهو في كل شيء؛ وكل وجه؛ لا يشبه الخلق؛ إذ الخلق - في الشاهد - لا يشبه بعضه بعضًا من جميع الجهات؛ إنما يشبه بعضهم بعضًا بجهة، ثم صاروا جميعًا أشكالا وأشباهًا؛ بتلك الجهة التي وقعت بينهم تشابه؛ فإذًا الله سبحانه وتعالى لما أخبر أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] دل أنه إنما نفى عنه الجهات التي [يقع بها][(٣)] التشابه والمثل؛ فهو يخالف الخلق من جميع الوجوه.

وهذه مسألة مذكورة فيما تقدم: اختُلف في العرش: قال بعضهم: العرش: هو الممتحنون بهم، استوى تدبير إنشاء غيرهم من العالم؛ لأنهم هم المقصودون في إنشاء ذلك كله.

وقال بعضهم: العرش: البعث به؛ استوى وتم تدبير إنشاء الخلائق؛ ما لولا البعث يكون إنشاؤهم عبثًا باطلا؛ كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جعل عدم الرجوع إليه إنشاء الخلق عبثًا.

وقال بعضهم: العرش: هو الملك؛ وبه تم ما ذكر، وقيل: هو سرير الملك.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ على ما في العقل أنه عن تدبير مدبر خرج؛ وعن علم وحكمة وضع؛ ليس على الجزاف بلا تدبير ولا علم[(٤)].

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) في ب: بها يقع.
(٤) وحمل كل واحد من المفسرين التدبير على نوع آخر من أحوال العالم، والأولى حمله على الكل، فهو يدبرهم بالإيجاد، والإعدام والإحياء، والإماتة، والاعتماد، والانقياد، ويدخل فيه إنزال =

وقوله - عز وجل-: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يحتمل: يبين الحجج والبراهين.

ويحتمل: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: آيات القرآن أنزلها بالتفاريق؛ لا مجموعة.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

هو ما ذكرنا أن فيما ذكر من الآيات والتدبير؛ ورفع السماء بلا عمد؛ دلالة البعث والإحياء بعد الموت.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ هو كما ذكرنا في قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٣] ومصيرهم وبروزهم؛ وأمثاله. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وقال في موضع آخر: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠] وكله[١] واحد، وقال: ﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] و ﴿مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

يذكرهم نعمه التي أنعمها عليهم.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطها وجعل فيها رواسي؛ ذكر أنها بسطت على الماء؛ فكانت تكفو بأهلها وتضطرب؛ كما تكفو السفينة؛ فأرساها بالجبال الثِّقال؛ فاستقرت وثبتت. وذُكر أنها مدت وبسطت على الهواء؛ ثم أثبتها بما ذكر من الجبال، ولكن لو [كان أنها][٢] ما ذكر ؛ لكان يجيء ألا يكون بالجبال ثباتها واستقرارها؛ لأن الأرض والجبال من طبعها التسفل والانحدار في الماء والهواء؛ وكلما زيد من ذلك النوع كان في التسفل والانحدار أكثر وأزيد، فلا يكون بها الثبات والاستقرار؛ بل إنما يكون الثبات والاستقرار بشيء من طبعه العلو والارتفاع؛ فيمنع ذلك الشيء الذي من طبعه العلو عن التسفل والانحدار؛ إلا أن يقال: إنها كانت لا تتسفل ولا تتسرب؛ ولكن تضطرب وتميد بأهلها؛ على ما ذكره - عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] فإن كان

= الوحي، وبعث الرسل وتكليف العباد، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة؛ لأن هذا العالم من أعلى العرش إلى أطباق الثرى يحتوي على أجناس، وأنواع لا يحيط بها إلا الله تعالى.

والدليل المذكور على تدبير كل واحد بوصفه في موضعه وطبيعته، ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شيء فإنه لا يمكنه تدبير شيء آخر، فإنه لا يشغله شأن عن شأن، وإذا تأمل العاقل في هذه الآية علم أنه - تعالى - يدبر عالم الأجسام ويدبر عالم الأرواح، ويدبر الكبير كما يدبر الصغير، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يمنعه تدبير عن تدبير، وذلك يدل على أنه - تعالى - في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمخلوقات، والممكنات.

ينظر: اللباب (١١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(١) في ب: والكل.

(٢) سقط في ب.

على هذا؛ فيكون بالجبال ثباتها واستقرارها؛ ومنعها عن الاضطراب والميلان.

أو ذكر هذا ليعلم لطفه وقدرته؛ حيث أمسكها بشيء من طبعه التسفل والانحدار، وهي في نفسها كذلك؛ ليعلم قدرة الله ولطفه في كل شيء. والله أعلم بذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: أنشأها ممدودة؛ لا أنها كانت مجموعة في مكان فبسطها؛ على ماذكر من رفع السماء ونحوه.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾.

جعل الله - عز وجل - الأشياء أكثرها بأسباب؛ تعليمًا منه الخلق؛ ليكون ذلك عليهم أهون، وإن كان جعل الأشياء عليه بأسباب [وبغير أسباب سواء][1]؛ إذ هو قادر بذاته، يذكر هذا: إما بحق النعم التي أنعمها عليهم؛ من مد الأرض وبسطها؛ وإثباتها بالرواسي التي ذكر؛ وجعل الأنهار فيها ليصلوا إلى الانتفاع بها؛ ليتأدى بذلك شكره، أو يذكر بحق الإخبار عن قدرته وسلطانه؛ لأنه جعل الأرض بحيث لا يدخل فيها شيء؛ فأخبر أنه أدخل فيها الجبال مع كثافتها وعظمتها ليعرفوا قدرته.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا؛ أخبر أنه[2] مد الأرض وبسطها؛ وجعلها مستقرة ثابتة؛ ليستقروا[3] عليها، ثم أخبر أنه جعل فيها أنهارًا؛ لينتفعوا بها من جميع أنواع المنافع، ثم أخبر أنه جعل فيها من كل الثمرات زوجين.

قال بعض أهل التأويل: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: لونين.

وقال بعضهم[4]: ذو طعمين؛ لكن يكون منها ألوان أكثر من لونين[5]: أحمر، وأبيض، وأسود، وأصفر، ونحوه، وكذلك الطعم: يكون حامضًا وحلوًا ومرًّا ومزًّا، إلا أن يقال: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: الطيب والخبيث؛ فلا يكون ثالث؛ وأما اللون؛ فإنه يكون ذا ألوان وذا طعوم.

وقال بعضهم الذكر والأنثى؛ فهذا يصح إذا أراد به الشجر؛ فمنه ما يثمر ومنه ما لا يثمر؛ فالذى يثمر: هو أنثى، والذي لا يثمر: هو ذكر. وأما على غير هذا فإنه لا يصح.

وأصل الزوجين: هو اسم أشكال وأمثال واسم أضداد؛ ففيه دليل نفي ذلك كله عن

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: أنها.
(٣) في أ: ليقروهم.
(٤) قاله البغوى بنحوه (٣/٦).
(٥) في أ: اثنين.

الله، وأصل الزوج: هو من له المقابل من الأشكال والأضداد؛ أخبر أنه جعل الخلق كله ذا أشكال وأضداد؛ من نحو الليل والنهار؛ والذكر والأنثى؛ فهو[١] في حق المنافع كشيء واحد في حق أنفسهم؛ كالأشياء.

وقوله - عز وجل-: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يذهب ظلمة الليل بضوء النهار؛ وضوء النهار بظلمة الليل، أو يلبس أحدهما الآخر، أو يغطي الليل ما هو بالنهار بادٍ ظاهر للخلق، وبالنهار ما هو مستور خفي على الخلق والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فيما ذُكِر؛ دلالة البعث والإحياء، ودلالة التدبير والعلم والحكمة، ودلالة الوحدانية.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياته وحججه لا لقوم يعاندون آياته ويكابرونها.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ذكر أن الآيات تكون آيات[٢] لهم؛ بالتفكر والنظر فيها؛ والله أعلم؛ لا أن تصير آيات مجانًا بالبديهة.

أو يقول: إن منفعة الآيات تكون لمن تفكر فيها؛ لا لمن ترك التفكر والنظر. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾.

دل قوله: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أن التجاور إنما يذكر ويثبت إذا كانت الأرض [قطعًا، وأما إذا كانت الأرض][٣] أرضًا واحدة؛ فإنه لا يقال فيها التجاور؛ فهذا يبطل قول من يقول: إن التجاور إنما يذكر فيما فيه الشركة؛ فتجب الشفعة فيما فيه الشركة؛ وأما في غيره فلا تجب وأمَّا عندنا: هو ما ذكر - عز وجل-: أنه إنما أثبت التجاور في الأرض التي صارت قطعًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾.

القطع المتجاورات: هي الأرضون الضواحي التي تصلح للزرع.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: جنات متجاورات أيضًا، والجنات هي البساتين المحفوفة بالأشجار؛ فيها ألوان الثمار.

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾.

---

(١) في ب: فهي.
(٢) في ب: الآيات.
(٣) سقط في أ.

قيل[١]: ﴿صِنْوَانٌ﴾ هو النخلتان في أصل واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: النخل المتفرق وحدها:
وقيل: الصنوان: ما كان أصله واحدًا؛ وهو متفرق، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ التي تنبت[٢] وحدها.
وقيل: ﴿صِنْوَانٌ﴾: هي النخلة تخرج؛ فإذا خرجت انشعبت بعد خروج الأصل؛ فهو الصنوان، ولهذا[٣] قيل[٤]: «عَمُّ الرجل صنو أبيه».

﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾.

أي: يسقي ما ذكر؛ من الزروع والنخيل والثمار والجنان بماء واحد.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾.

يذكر هذا - والله أعلم - أن جوهر الأرض كلها واحد؛ وهي قطع متجاورة؛ بعضها ببعض، ثم هي مختلفة في حق الثمار والفواكه، وكذلك الأشجار والنخيل؛ كلها من جوهر واحد من جنس واحد، والأرض في جوهرها واحد وتسقى كلها بماء واحد؛ ثم يخرج مختلفًا في ألوانها وطعومها وطيبها وخبيثها ومناظرها؛ ليعلم أنها لم تكن بنفسها؛ ولا بالأسباب التي جعل لها؛ ولكن بلطف واحدٍ مدبِّرٍ عليم حكيم؛ لأنها لو كانت بأنفسها وطباعها أو بالأسباب، لكانت كلها واحدة متفقة في طيبها وخبيثها وألوانها وطعومها؛ فلما لم يكن ما ذكرنا على لون واحد ولا طعم واحد ولا منظر واحد؛ دل أنه كان بتدبير مدبر واحد؛ عليم لطيف.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾.

قيل[٥]: في الحمل؛ بعضها أكثر حملا من بعض، وبعضها يحمل؛ وبعضها لا، ولكن ما ذكرنا في الطيب والخبيث والطعم واللون والمنظر -مفضل بعضه على بعض.

وأصله: أن الأرض واحدة متجاورة؛ متصلة بعضها ببعض، والماء واحد أيضًا؛ ثم خرجت الثمار والفواكه والزروع والأعناب مختلفة متفرقة؛ ليعلم أن ذلك ليس هو عمل الأرض؛ ولا عمل الماء، ولا عمل الأسباب والطباع؛ ولكن باللطف من الله؛ لأنه لو

---

(١) قاله البراء، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٠٨٧،٢٠٠٩٣،٢٠٠٩٢) وعن ابن عباس (٢٠٠٦٩، ٢٠٠٩٤، ٢٠٠٩٥) وسعيد بن جبير (٢٠٠٩٧) وغيرهم، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٤).

(٢) في ب: نبتت.

(٣) في ب: ولذا.

(٤) هذا القول ورد في حديث مرفوع أخرجه ابن جرير (٢٠١٠٧،٢٠١٠٨) وعبد الرزاق كما في الدر (٤/ ٨٤) عن عمر بن الخطاب أنه كان بينه وبين العباس قول فأسرع إليه العباس ،فجاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ألم تر عباسًا فعل بي وفعل؟ فأردت أن أجيبه، فذكرت مكانه منك؛ فكففت، فقال: (يرحمك الله إن عم الرجل صنو أبيه).

(٥) قاله سعيد بن جبير أخرجه ابن جرير عنه (٢٠١٢٣) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٤).

كان بالماء أو الأرض؛ أو بالأسباب أو الطباع؛ لكانت متفقة مستوية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لما ذكرنا من وحدانيته؛ وتدبيره؛ وعلمه؛ وحكمته.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم همتهم العقل والفهم؛ والنظر والتفكر في الآيات، لا لقوم همتهم العناد والمكابرة، أو لقوم ينتفعون بعقلهم وعلمهم.

وقال الحسن[١]: هذا مثل [ضربه الله][٢] لقلوب بني آدم كانت الأرض في الأصل طينة واحدة؛ فسطحها الرحمن ثم بطحها؛ فصارت الأرض قطعًا متجاورات؛ فينزل عليها الماء من السماء، فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها؛ وتخرج نباتها ويحيا مواتها[٣]، وتخرج هذه سبختها وملحها؛ وخبثها؛ وكلتاهما تسقى بماء واحد؛ فلو كان الماء مالحًا؛ قيل: استسبخت هذه من قبل الماء كذلك الناس: خلقوا من آدم -عليه السلام- فينزل عليهم من السماء تذكرة واحدة؛ فترقّ قلوب؛ فتخشع وتخضع، وتقسو قلوب؛ فتسهو وتلهو وتجفو؛ أو كلام نحوه.

ثم قال الحسن: والله؛ ما جالس القرآن أحدٌ إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان؛ ثم تلا قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾.

قال الحسن[٤]: إن تعجب -يا محمد- من تكذيبهم إياك في الرسالة؛ فعجب قولهم؛ حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقال بعضهم: وإن تعجب -يا محمد- مما أوحينا إليك من القرآن؛ كقوله - في الصافات - ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: أعجب أيضًا قولُهم، يقول: لكن قولهم أعجب عندك؛ حين قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تكذيبًا للبعث.

وأصله -والله أعلم-: يقول: إنك إن عجبت، من قولهم[٥] في تكذيبهم إياك في الرسالة؛ ولم [تكن][٦] رسولا من قبل؛ فقولهم وإنكارهم قدرة الله على البعث والإحياء

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠١١٣) وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٨٤).
(٢) في أ: ضرب.
(٣) في ب: نباتها.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور (٤/ ٨٥).
(٥) في أ: وقولهم.
(٦) سقط في ب.

بعد الموت أعجب؛ إذ قد رأوا وشاهدوا من قدرة الله وآياته؛ ما لو تفكروا وتأملوا ولم يعاندوا، عرفوا أنه قادر على ذلك كله؛ فوصفهم الله تعالى بالعجز؛ وأنه لا يقدر على البعث والإحياء بعد الهلاك -أعجب من تكذيبهم إياك في الرسالة، ولم يكن سبق منك إليهم ما يوجب رسالتك وتصديقك، وقد سبق من الله إليهم - ما يعرفهم قدرته على ذلك؛ وعلى أكثر منه.

وأصله -والله أعلم- وإن تعجب لإنكارهم رسالتك وتكذيبهم إياك؛ ولم يكن منك إليهم حقيقة الهداية والنعم والآيات والحجج، وإنما كان منك البيان والدعاء؛ فأعجب: قولهم في إنكارهم قدرة الله على البعث؛ وقولهم في الله سبحانه ما قالوا فيه؛ بعد معرفتهم حقيقة ذلك كله؛ بالله إليهم. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾.

يشبه أن يكونوا لما كفروا بالبعث؛ كان كفرهم بالبعث كفرًا بالله؛ لأنهم عرفوه عاجزًا، حيث قالوا: لا يقدر على بعث الخلق، ومن عرف ربه عاجزًا -فهو لم يعرف الرب الحقيقة؛ والإله الحقيقة.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾.

قال بعضهم: صار الكفر في أعناقهم أغلالا؛ حيث أنكروا الرسالة في البشر، ثم جعلوا الأصنام والأوثان معبودهم؛ يعكفون عليها[1] ويخضعون؛ فذلك هو الأغلال في أعناقهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ في الآخرة كقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ...﴾ الآية [الحاقة: ٣٠] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾.

الاستفعال يكون على وجهين: يكون طلب الفعل ويكون الفعل نفسه؛ كقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] قيل: أجيب لكم، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾

---

(١) في أ: لها.

[البقرة: ١٨٦] أي: ليجيبوا لي، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ فإن كان على طلب الفعل؛ فهو ما سألوا [رسول الله العذاب][(١)] كقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] وكقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] فبدءوا بسؤالهم [الهلاك قبل سؤالهم][(٢)] تأخير العذاب[(٣)] وإمهاله، [وتأخير العذاب عندهم وإمهاله][(٤)] من الحسنة؛ فاستعجلوا بهذا قبل هذا.

وإن كان الفعل نفسه.

فقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: عجلوك - يا محمد - بالسيئة إليك، قبل أن تكون منهم إليك حسنة؛ حيث كذبوك في الرسالة، وآذوك في نفسك، ولم يكن منهم إليك إحسان من قبل والله أعلم بذلك.

وقيل: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: العذاب؛ على ما ذكرنا.

﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾.

أي: قبل العفو، وسؤالهم السيئة والعذاب بجهل[(٥)] منهم أنه رسول وأنه صادق؛ [لأنهم لو علموا أنه رسول، وأنه صادق][(٦)] فيما يخبر ويوعد من العذاب، كانوا لا يسألون؛ لأنهم يعلمون أن الله يقدر على أن ينزل عليهم العذاب، لكن سألوا ذلك؛ بجهلهم بأنه رسول سؤال استهزاء وسخرية.

فإن كان على هذا سؤالهم - كان فيه دلالة أن العقوبة والعذاب؛ قد يلزم من جهل الأمر؛ إذا كان بسبيل العلم به والنظر والتفكر فيه، وهؤلاء جهلوا أنه رسول الله؛ لتركهم النظر والتفكر. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾.

قال بعضهم[(٧)]: العقوبات؛ أي: قد كان في الأمم الخالية العقوبات؛ بسؤالهم العذاب

---

(١) في ب: العذاب رسوله.
(٢) في أ: بتأخيره وإمهاله.
(٣) زاد في أ: عندهم.
(٤) سقط في أ.
(٥) في أ: يجعل.
(٦) سقط في أ.
(٧) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢٠١٣٠، ٢٠١٣١) وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٨٦).

والمعاندة في الآيات إذا جاءت؛ كأنه - والله أعلم - يصبر رسوله على سفه قومه[(١)]؛ لسؤالهم العذاب والآيات ثم المعاندة فيها، يقول: كان في الأمم الماضية من سؤال العذاب والآيات ثم المعاندة من بعد نزولها؛ فنزلت[(٢)] لهم العقوبات؛ فعلى ذلك هؤلاء.

وقال بعضهم[(٣)]: المثلات: الأمثال والأشباه. وكذلك ذكر في حرف حفصة (وقد خلت من قبلهم الأمثال) وتأويله -والله أعلم- أي: فقد خلت من [قبلهم الأمثال][(٤)]؛ ما لو اعتبروا بها كان مثلا لهم، ولكن لا يعتبرون؛ فيمنعهم عن أمثال ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

قال بعضهم: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذو ستر على ظلمهم؛ وتأخير العذاب إلى وقت؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقال بعضهم: لذو مغفرة [للناس على ظلمهم إذا تابوا، وماتوا عليها، أو يكون قوله ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب][(٥)] لمن لم يتب، ومات على الظلم والشرك. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للكفار؛ وعلى التأويل الأول: وإن ربك لشديد العقاب؛ إذا عاقب.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخر ما ذكر؛ فيحتمل سؤالهم الآية ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] عين تلك الآيات التي أتت بها الرسل الأولون، وليس عليه أن يأتي بعين[(٦)] تلك الآية؛ إنما عليه أن يأتي بآية تخرج عن عرفهم وطباعهم، والرسل جميعًا لم يأتوا بآية واحدة؛ إنما جاءوا بآيات مختلفات، كلٌّ جاء بآية سوى ما جاء بها الآخر؛ فقال له: ليس عليك ذلك إنما أنت منذر. أو سألوا آيات سؤال الاعتناد

---

(١) في أ: قومهم.

(٢) في ب: فنزل.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور، وعن مجاهد أخرجه ابن جرير (٢٠١٣٢، ٢٠١٣٤) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور (٤/ ٨٦).

(٤) في ب: قبلهم المثلات الأمثال.

(٥) سقط في أ.

(٦) في أ: بعض.

لدى هلاكهم، [على ما فعل الأولون؛ فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ قد عفا هذه الأمة إحضار آيات وإنزالها لدى هلاكهم][١] وإن كانوا هم في سؤالهم الآيات معاندين؛ لأنهم قد جاءهم من الآيات؛ على إثبات رسالته وإظهارها؛ ما كفتهم، لكنهم يعاندون.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ : لا تملك إتيان الآيات، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] وقال: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية [الأنعام: ٥٨]. أو يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ : ليس إليك إنشاء الآيات واختراعها؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

أي: داع يدعو إلى توحيد الله ودينه؛ كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يحتمل: لكل وقت هادٍ.

ثم اختلفوا أنه: مَنْ ذلك الداعي؟

قال بعضهم[٢]: الله، وقال بعضهم[٣]: نبي من الأنبياء[٤]، وقال بعضهم[٥]: داع؛ دليل سوى النبي.

وقالت الباطنية: هو إمام يكون معصومًا مثل النبي لئلا يزيغ عن الحق؛ ولكن عندنا معصومًا [أو لم يكن معصومًا][٦] فإن في القرآن ما يمنع عن الزيغ؛ ويعرف ذلك منه إذا زاغ؛ وضل عن الحق.

---

(١) سقط في ب.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠١٤٦) وعن سعيد بن جبير (٢٠١٤٢، ٢٠١٤٤) ومجاهد (٢٠١٤٥) والضحاك (٢٠١٤٧) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٦).

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠١٤٨، ٢٠١٥٤) وعن قتادة (٢٠١٥٥) وابن زيد (٢٠١٥٦) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٦).

(٤) إذا جعلنا (ولكل قوم هاد) كلامًا مستأنفًا، فالمعنى: أن الله -تعالى- خص كل قوم بنبي، ومعجزة تلائمهم، فلما كان الغالب في زمن موسى -عليه السلام- السحر، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقهم، ولما كان الغالب في زمن عيسى - عليه الصلاة والسلام- الطب، جعل معجزته ما كان من تلك الطريقة، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، ولما كان الغالب في زمان محمد ﷺ الفصاحة، والبلاغة، جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن، فلما لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع أنها أليق بطبائعهم، فبألَّا يؤمنوا بباقي المعجزات أولى، هذا تقرير القاضي، وبه ينتظم الكلام.

ينظر: اللباب (١١/ ٢٥٧).

(٥) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠١٣٨) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٦).

(٦) سقط في أ.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: داع وهو كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

قيل: يعلم أنها حملت ذكرًا أو أنثى مستويًا أو غير مستوٍ مؤفًّا؛ يخبر - عز وجل - عن علمه وقدرته أنه لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، فإن قيل: هذا دعوى: ما الذي يعلمنا أنه يعلم ذلك؟ قيل: اتساق تدبيره ولطفه يدل على علم ذلك فيه؛ حيث رباه فيه وأنشأه مستويًا غير مؤفٍّ سليمًا عن الآفات، ونماء الجوارح كلها على الاستواء؛ لا يكون بعضها [أكبر وأعظم وبعضها][1] أنقص وبعضها أتم؛ نحو العينين؛ تراهما مستويتين؛ لا زيادة في إحداهما دون الأخرى؛ بل تنموان على الاستواء، وكذلك اليدان والرجلان والأذنان؛ وأمثاله؛ فدلّ ذلك على العلم له به والتدبير.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

أي: يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد.

قال عامة أهل التأويل[2]: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: ما تنقص عن التسعة الأشهر، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: على التسعة الأشهر، فكان الحسن يقول[3]: غيضوضة الرحم: أن تضع لستة أشهر أو لسبعة أشهر أو ثمانية، وأما الزيادة: فما زاد على تسعة أشهر.

وفي حرف أُبي: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضَعُ﴾ ولكن يحتمل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وجهين:

أحدهما: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: ما لا تحمل شيئًا؛ وهي التي تكون عقيمًا لا تلد، والغيضوضة تكون ذهاب الشيء، قال الله -تعالى-: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠١٦٤) وعن مجاهد (٢٠١٦٥، ٢٠١٧٣)، والضحاك (٢٠١٨٤، ٢٠١٨٩) وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠١٩٦).

أي: ذهب.

﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ما تحمل وما تغيض الأرحام، فتلد بدون الوقت الذي تلد النساء، وما تزداد على الوقت الذي تلد النساء.

أو ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ في زيادة عدد الأولاد ونقصانهم؛ ما تحمل واحدًا أو أكثر من واحد، أو يكون في زيادة قدر نفس الولد ونقصانه؛ لأن من الولد ما يصيبه في البطن آفة؛ فلا يزال يزداد له نقصان في البطن، ومنه ما ينمو ويزداد؛ وأمثاله. والله أعلم.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ مقدّر بالتقدير؛ ليس على الجزاف؛ على ما يكون عند الخلق، ولكنه بتقدير وتدبير.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قال بعضهم: لا يغيب عنه شيء، ولكن هو عالم بالذى يغيب عن الخلق ويشهده الخلق؛ أي: ما يغيب عنهم وما يشهدونه عنده بمحل واحد في العلم به.

وقال بعضهم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ : ما غاب بنفسه، وما شهد بنفسه؛ فالغائب بنفسه: هو ما لم يوجد بعد؛ ولم يكن، والشهادة: ما قد وجد وكان، يعلم ما لم يوجد بعد أنه يوجد أو لا يوجد، وإذا وجد، كيف يوجد؛ ومتى يوجد؛ وفي أي: وقت يوجد؛ وما جد وشهد؛ يعلمه شاهدًا موجودًا.

على هذين الوجهين يجوز أن تخرج الآية؛ والله أعلم؛ ويعلم ما غاب عنهم مما شهدوا من نحو قوة الطعام في الطعام، والقوة التي في الماء، وماهية البصر والسمع، والعقل والروح، وكيفيتها، وهذا كله مما غاب عن الخلق.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾.

[المتعال][1] عن جميع ما يحتمله الخلق؛ يقال: هذا عظيم القوم؛ وكبيرهم، وهذا واحد زمانه؛ لا يعنون عظيم النفس وكبيره أو توحده من حيث العدد؛ ولكن من حيث نفاذ الأمر له والمشيئة فيهم؛ والعزة والسلطان، وذلة الخلق له والخضوع؛ فعلى ذلك لا [يفهم مما][2] وصف هو به؛ ما يفهم من الخلق من عظم الجسم وكبر النفس، وعلى ذلك ما وصف هو بأسماء -لا يحتمل ذلك في الخلق، يقال: أوّل وآخر، وظاهر وباطن، وعظيم ولطيف؛ ليعلم أنه ليس يفهم مما أضيف إليه؛ ووصف هو به؛ ما يفهم مما يضاف إلى الخلق؛ إذ من قيل في الشاهد: إنه عظيم -لم يقل إنه لطيف، ومن قيل: إنه أوّل- لم يقل

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: لا يعزم فيما.

له:[1] آخر، وكذلك الظاهر والباطن؛ إذا وصف بأحدهما انتفى عنه الآخر، وذلك مما وصف به الغائب وأضيف إليه، ليعلم أنه لا يفهم بما يوصف هو به؛ ويضاف إليه ما يفهم؛ مما وصف به الخلق وأضيف إليهم. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه في حال انفراده ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

قيل[2]: ظاهر بالنهار، وقال بعضهم: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ : من يكون في السرب وهو الغار[3] بالنهار، وقال بعضهم: من هو مستخف بالليل: أي: ساكن بالليل في مقره، وسارب بالنهار: أي: متصرف متقلب بالنهار في حوائجه[4].

ذكر هذا صلة ما تقدم؛ وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ويعلم -أيضًا- ما تزداد، وما ذكر أن عالم الغيب والشهادة، يقول - أيضًا-: يعلم من أسرّ القول، ومن جهر به، ومن كان مستخفيًا بالليل أو ساربًا بالنهار، أي: يعلم كل شيء؛ لا يخفى عليه شيء: من عمل سرًّا؛ من الخلق؛ أو عمل بظاهر منهم.

يذكر هذا -والله أعلم- ليكونوا على حذر من المعاصي؛ لأن من علم أن عليه رقيبًا حفيظًا يكون أحذر وأخوف؛ ممن يعلم أن ليس عليه ذلك.

وقال مقاتل: سواء منكم؛ عند الله؛ من أسر القول ومن جهر به، وسواء منكم من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار؛ أي: من هو مستخف بالمعصية في ظلمة الليل، أو هو منتشر بتلك المعصية بالنهار؛ معلن بها؛ فعلم ذلك كله عند الله؛ سواء.

في ذلك تذكير أمرين:

أحدهما: يذكرهم نعمه التي أنعمها عليهم؛ من أول حالهم إلى آخر ما ينتهون إليه يستأدي بذلك شكره؛ ليستديموا بذلك تلك النعم أبدًا ما كانوا.

والثاني: يذكرهم علمه بجميع أحوالهم وأفعالهم؛ ليكونوا أبدًا على حذر من معاصيه، والخلاف له.

أما علمه هو ما ذكر الله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ . . .﴾ إلى قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم . . .﴾ الآية.

---

(١) في أ: به.
(٢) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٢٠٣) وعن خصيف (٢٠٢٠٧)، وقتادة (٢٠٢٠٨) ومجاهد وعكرمة (٢٠٢٠٩) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٨٨).
(٣) في أ: العدو.
(٤) قاله القتبي، كما في تفسير البغوي (٣/ ٩).

وأما نعمه [فهو] ما ذكر.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ قال بعضهم[١]: هم[٢] الأمراء، والشرط الذي يحفظونه في ظواهر من أمره؛ يخبر أنه محفوظ عليه الخفيات من أمره؛ حيث قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ . . .﴾ الآية؛ حيث أخبر أنه يعلم ذلك ومحفوظ عليه الظواهر من أمره.

وقال بعضهم[٣]: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾: الملائكة الذين يحفظونه، وعلى ذلك روي في الخبر عن النبي ﷺ قال: «يجتمعون فيكم عند صلاة العصر وصلاة الصبح يحفظونه من بين يديه ومن خلفه»[٤]، مثل قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] قال: الحسنات من بين يديه والسيئات من خلفه؛ الذي عن يمينه.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يحتمل قوله: ﴿لَهُۥ﴾، أي: لله معقبات يحفظونه، ويحتمل: ﴿لَهُۥ﴾ من كل ذكر وأنثى؛ يكون مثله قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: يحفظون نفسه من البلايا والنكبات التي تنزل على بني آدم؛ فإن كان في حفظ نفسه فقوله من أمر الله؛ أي: من عذاب الله وبلاياه؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠]، وهو عذابنا.

ويحتمل قوله: يحفظون أعماله؛ بأمر الله، ثم يحتمل قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [وجوهًا: يحتمل: من بين يديه: الخيرات التي يعملها، ومن خلفه][٥]: الشرور والسيئات، ويحتمل قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: ما قدّم من الأعمال، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: ما بقي وأخّر؛ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ويحتمل ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: ما مضى من الوقت، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: ما بقي. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

---

(١) قاله عكرمة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٢٢٨).

(٢) في ب: هو.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٢١٥، ٢٠٢١٧)، وعن الحسن (٢٠٢١٠) ومجاهد (٢٠٢١٢، ٢٠٢١٤) وإبراهيم (٢٠٢١٨) وقتادة (٢٠٢٢١، ٢٠٢٢٢) وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٣٣) كتاب المواقيت: باب فضل صلاة العصر (٥٥٥) ومسلم (١/ ٤٣٩) كتاب المساجد: باب فضل صلاة الصبح والعصر (٢١٠/ ٦٣٢) ومالك في الموطأ (١/ ١٧٠) كتاب قصر الصلاة في السفر باب: جامع الصلاة (٨٢) والبغوي في شرح السنة (٢/ ٣٨، ٣٩).

(٥) سقط في أ.

يشبه أن يكون هذه النعمة؛ نعمة الدين من رسول الله ﷺ، أو القرآن، أو ما كان في أمر الدين؛ لا يغير ذلك عليهم إلا بتغيير يكون منهم؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]؛ وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ويحتمل أن يكون ذلك في النعمة الدنياوية؛ من الصحة والسلامة والمال، لا يغير ذلك عليهم إلا بتغيير ذلك من أنفسهم.

فإن قيل: إن الأنبياء قد كانوا بلوا بشدائد وبلايا؛ ولا يحتمل أن يكون ذلك منهم البداية في التغيير.

قيل: أبدلت لهم مكان تلك النعمة خيرًا منها فليس ذلك بتغيير؛ ولكن لما ذكرنا أنه أبدلت لهم مكان النعمة نعمة هي خير منها.

ثم ما كان من النعم؛ والأفضال من الطاعات لها حق التجدد والحدوث؛ يكون التغيير عليهم حالة اختيارهم؛ وتغييرهم على أنفسهم، وأما الأفعال التي لها حق البقاء؛ يكون التغيير من الله من بعد؛ وهو من نحو السلامة والصحة والسعة، والذي له حق التجدد والحدوث الطاعات والمعايي.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

الآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: إنه لا يريد إلا ماهو أصلح لهم في الدين، وقد أخبر أنه إذا أراد بهم سوءًا؛ ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ...﴾ [الآية].

دل هذا أنه قد يريد بهم السوء إذا غيروا هم ما أنعم الله عليهم، أراد أن يغير عليهم والمعتزلة يقولون يملك الخلق دفع سوء إرادة الله بهم، وإذا أراد الخير يملكون رد ذلك، والله يقول: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ولا مرد لسوئه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

أي: ليس لهم في دفع العذاب الذي أراد بهم ولي يدفع عنهم أو نصير ينصرهم؛ كقوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: مخوفًا ومطمعًا أو ما تخافون وتطمعون.

وقال أهل التأويل[١]: خوفًا للمسافر وطمعًا للمقيم.

وقيل: خوفًا لأهل البنيان؛ وطمعًا لأهل الأنزال.

وعندنا يطمعون ويخافون قوم واحد؛ يطمعون نفعه في وقت المنفعة، ويخافون ضرره في غير وقت النفع، أو يطمعون نفعه ويخافون ضرره، أو يطمعون مضيه؛ ويخافون نزوله والضرر به في غير وقت النفع؛ ونحوه.

ويحتمل وجهًا آخر في قوله: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: يريكم خوفًا موعودًا وطمعًا موعودًا؛ لأن البرق نور ونار، فالنور يطمع النور الموعود في الجنة، والنار تخوف النار الموعودة في الآخرة؛ لأن فيها نارًا؛ ألا ترى أنه إذا اشتد خيف على من أصابه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

[قيل: أي: يرفع السحاب الثقال الذي فيه المطر والماء. قال أبو عوسجة: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾][٢] يقال: نشأت السماء؛ إذا ارتفع الغيم فيها، ويسمّى الغيم نشأ، وقوله إنشاء؛ أي: أخذ فيه، ويقال: أنشأ الله الخلق أي: خلقهم، نشأ: ارتفع، وأنشأ: رفع، وهو من هذا. والله أعلم.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

اختلف في الرعد والبرق: قال بعضهم: هو اسم ملك من الملائكة موكل بالسحاب؛ صوته تسبيحه.

وعلى ذلك روى عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ؛ فقالوا: يا أبا القاسم: أخبرنا عن الرعد ماهو؟ قال: «ملك من الملائكة موكَّل بالسحاب؛ معه مخاريق من نار؛ يسوق بها السحاب حيث شاء الله»؛ فقالوا: ما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجرة السحاب إذا زجره؛ حتى ينتهي إلى حيث أمر»، قالوا: صدقت[٣].

---

(١) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢٠٢٥٢،٢٠٢٥٣) وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ،كما في الدر المنثور (٤/ ٩٤).

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١١٧) وأحمد (١/ ٢٧٤) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٤) والنسائي في الكبرى، كما في التحفة (٥/ ٥٤٤٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والضياء في المختارة، كما في الدر المنثور (٤/ ٩٥).

فإن ثبت هذا؛ فهو هو.

وعن علي -رضي الله عنه- أنه سئل عن [البرق والرعد][١]؟ فقال: الرعد: الملك، والبرق: ضربة السحاب بمخراق من حديد[٢].

وقيل[٣]: الرعد: ملك على ما ذكرنا، يزجر السحاب بالتسبيح ويسوقه؛ فإذا شذت سحابة ضمها، وإذا اشتد غضبه صار من فيه النار؛ فهي الصواعق.

وقيل: هي الريح تسوق السحاب؛ فإذا تراكمت السحاب؛ فلم تجد منفذًا صوتت؛ فذلك صوتها.

وقال بعض الفلاسفة: الرعد اصطكاك الأجرام؛ فيحدث هذا الصوت؛ بمنزلة الحجر يحك الحجر. وقال بعضهم من الفلاسفة: إنما هي ريح تختنق تحت السحاب فتصدعه فذلك الصوت منه.

وأي: شيء كان الرعد: الملك، أو الريح، أو ما كان فالتسبيح يحتمل من كل شيء، على ما أخبر الله - عز وجل - التسبيح من كل شيء؛ حيث قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فيحتمل تسبيح الخلقة؛ جعل في خلقه كل شيء حصانة[٤] وبراءة [منشئه من][٥] كل ما وصفه الملحدون، ودلالة ألوهيته وربوبيته.

ويحتمل تسبيحه: قول جعل في سرية كل شيء تسبيحه وتنزيهه ما لا يفهمه الخلق.

وعن أبى سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: الرعد ملك، وهذا تسبيحه، والبرق صوته الذي يزجي به السحاب. قيل: أمثال هذا كثير، والله أعلم بذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة؛ سوى أنه هول هائل يهول الخلق، ويذكرهم سلطانه وعظمته، ولولا أنهم اعتادوا ذلك؛ وإلا لم تقم أنفسهم لسماع ذلك.

وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: يذكرهم سلطانه وعظمته يكون ذلك تسبيحه، وما ذكروا من سلطانه وعظمته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: تسبيح الملائكة من خوفه، الرعد يسبح ويذكر الخلق عظمة الله وسلطانه، فذلك[٦] الثناء عليه والملائكة يسبحونه

---

(١) في ب: الرعد والبرق.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المطر وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه والخرائطي في مكارم الأخلاق ،كما في الدر المنثور (٤/٩٦).

(٣) قاله شهر بن حوشب أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عنه في الدر المنثور (٤/٩٧).

(٤) في أ: حمد صانعه.

(٥) سقط في أ.

(٦) في أ: فدل.

فيما بينهم وبين ربهم، فلم [يذكر فيهم][١] التسبيح[٢]؛ بحمده، وذكر في الرعد والملائكة من خيفته، أي: من خوفه، ثم الخوف يخرج على وجهين:

أحدهما: خوفًا من عقوبته؛ لأنه[٣] قد جاء فيهم الوعيد إذا زلوا كقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ . . .﴾ [الأنبياء:٢٩] الآية.

والثاني: [خوف][٤] رهبة وهيبة لا خوف عقوبة؛ لأن الله تعالى وصفهم بالطاعة له والاستسلام، كقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . . .﴾ الآية [الأنبياء:١٩] ونحو ذلك.

ثم خوف الهيبة لا يزول في الآخرة، وخوف العقوبة يزول.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قيل: الصعقة: الصيحة التي فيها موت البعض، ويذهب عقل البعض، كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨] وقيل: هي[٥] اسم العذاب وقد ذكرنا فيما تقدم ذكره في بعض الأخبار أن رجلا أتى النبي ﷺ فسأله عن شيء من أمر الرب فجاءت صاعقة فأحرقته فنزل ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[٦].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيد الله؛ لأن أهل الكفر كلهم كانت مجادلتهم في توحيد الله وألوهيته وقوله - عز وجل-: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال بعضهم[٧]: شديد الانتقام والعقوبة وقيل[٨]: شديد القوة وقيل[٩]: شديد الأخذ.

وقال القتبي[١٠]: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ من الكيد والمكر، وأصل المحال الحيلة، لكن سمي باسم الأول؛ لأنه جزاء الحيلة، فيكون كتسمية جزاء السيئة سيئة وجزاء الاعتداء

---

(١) في ب: يذكرهم.
(٢) زاد في أ: فيهم تسبيح.
(٣) في أ: فإنه.
(٤) سقط في ب.
(٥) في ب: هم.
(٦) أخرجه النسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير (٢٠٢٧٠) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن أنس بن مالك ،كما في الدر المنثور (٤/ ٩٩) وقد روى الحديث من أوجه أخرى مرسلة فانظرها في المصدر السابق.
(٧) قاله مجاهد، أخرجه ابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٠٠).
(٨) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٠٠) وعن مجاهد وقتادة أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٢٧٤، ٢٠٢٧٥).
(٩) قاله على ابن أبي طالب ،أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٢٧٣).
(١٠) ينظر: تفسير غريب القرآن ص (٢٢٦).

اعتداء، والمكر هو ما ذكرنا أنه الأخذ من حيث الأمن، من حيث لا يشعرون به.

وقال أبو عوسجة: المحال عندى من المكر.

وقال أبو عوسجة: المعقبات الحفظة الذين يحفظونه بأمر الله، ويقال عقبته أي: حفظته، وأما قوله ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] أي: لا رادّ لحكمه قال ويقال في غير هذا أعقب فلان فلانًا، أي: ذهب هو وجاء هو، ويقال: عقبت أي: رجعت، ومأخذهما من العقب، ويقال: رجع على عقبيه، أي: من حيث جاء.

وقال القتبي[١]: معقبات: ملائكة يعقب بعضها بعضا في الليل والنهار إذا مضى فريق خلف بعده فريق آخر يحفظونه من أمر الله، أي: بأمر الله.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] أي: ولى، مثل قادر وقدير، وحافظ وحفيظ وذلك جائز في اللغة.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل أي: له عبادة الحق، وليس لمن دونه عبادة الحق، أي: هو المستحق للعبادة ليس ممن يعبد دونه بالذى يستحق العبادة وعبادة الحق [له][٢] ليس لمن دونه.

والثاني: له دعوة الحق؛ أي: له إجابة دعوة الحق ليس يملك من دونه إجابة من دعا بالحق.

فعلى التأويل الأول الدعوة: العبادة، وعلى الثاني الدعوة: الإجابة، أي: له إجابة دعوة من دعا بالحق والله أعلم هو يملك إجابة دعوة الخلق، فأما من عبد دونه ودعي دونه لا يملك ذلك، يدل على ذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: والذين يدعون من دونه لا يملكون الإجابة، أو لا يملكون ما يأملون من عبادتهم الأصنام فيكون مثله ما ذكر ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وهو[٣] ضرب مثل من يدعو من دون الله كباسط[٤] كفيه إلى الماء هو -والله أعلم- ليس من يدعو من دون الله إلا كباسط كفيه إلى الماء فيدعو الماء، فكما[٥] لا يجيبه الماء وإن دعاه فعلى ذلك من يدعو الأصنام لا يملكون إجابته، والله أعلم بذلك، أو أن يكون وجه ضرب هذا المثل أن من عبد دون الله أو دعا من دونه ليس إلا كباسط كفيه إلى الماء وهو على بعد من

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٢٥).
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: وجه.
(٤) في ب: بباسط.
(٥) في ب: فكذا.

الماء، فكما لا يصل هو إلى الماء، لا يصل من عبد دون الله إلى ما يأمل ويطمع، أو يحتمل من وجه آخر، وهو أن الماء يغترف[1] إذا قبض الكف، ولا سبيل إلى الاغتراف إذا بسطت، فعلى ذلك من عبد دون الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: دعاؤهم وعبادتهم لا يعقب لهم إلا الخسار في الآخرة حاصله: يضل ذلك كله عنهم لا يصلون إلى ما يأملون بالدعاء والعبادة، كقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمل قوله: ﴿يَسْجُدُ﴾ على حقيقة السجود يسجد له المؤمن والكافر جميعًا أما المؤمن فإنه يسجد له بالاختيار والطوع.

ويحتمل ما ذكر من السجود وجوهًا:

أحدها: حقيقة السجود فإن كان هذا فهو في الممتحنين خاصة.

والثاني: سجود الخلقة فإن كان على هذا فهو في جميع الخلائق جعل الله في خلقة كل شيء دلالة وحدانيته وآية ألوهيته وربوبيته.

والثالث: سجود الأحوال، فهو في المؤمن والكافر جميعًا أما المؤمن فهو يسجد له في كل حال وأما الكافر فإنه يسجد له ويخضع في حال الشدة والضيق ولا يسجد له في حال السعة والرخاء ويشبه أن يكون الكافر يكون سجوده لله اختيارا وطوعا حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] إنهم ؛ وإن عبدوا الأصنام؛ فيرون السجود والعبادة لله، لكنه لم يقبل ذلك منهم؛ لإشراكهم غيره في ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

أي: يسجد ظلالهم بالغدو والآصال، ينتقل ظل كل أحد بانتقال نفسه؛ ينتقل حيث تنتقل نفسه؛ فذكر الغدو والآصال؛ لأنه بالغدو والعشي يظهر الظل.

ويحتمل السجود: أنه يسجد له؛ أي: يخضع له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا؛ فإن كان على الخضوع؛ فهو في الخلائق كلهم ؛ في البشر وغير البشر؛ وذي الروح وغير ذي الروح.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: ظلالهم تخضع له أيضًا بالغدو والآصال.

---

(١) في أ: يفترق.

ويحتمل: أن يكون المراد من السجود سجود الخلقة: فيسجد له خلقة كل أحد. فإن قيل: ما معنى الغدوّ والآصال؟ قيل: يحتمل: أبدًا دائمًا: ليس على مراد[١] الوقت؛ ولكن على الأوقات كلها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾.

أمره أن يسألهم: من رب السموات والأرض؟ ثم أمره أن يجيب هو لهم؛ فيقول الله وهو في الظاهر دعوى، أكثر ما في هذه الآية دعوى، وبعضه حجاج، وهو قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وقوله: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ لأنهم يقرون بهذا؛ لا يخلقون كخلقه؛ ولا يملكون دفع الضر؛ ولا جرّ النفع.

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿قُلْ﴾ إنما أمره أن يسألهم من رب السموات والأرض، ولم يقل من ربكم فإنما [أمره أن يسألهم][٢] ما لا يتجاسرون أن يقولوا الأصنام التي يعبدونها هي أرباب السموات والأرض فلا بد أن يقروا الله رب السموات والأرض، فإذا أقروا بهذا أنه رب السموات والأرض قد دخل ما في السموات والأرض في ربوبيته، إذ السموات والأرض، إنما خلقهما لأهلهما؛ فإذا كان ربَّ السموات والأرض - كان ربَّ ما فيهما.

وقال بعضهم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمره أن يسألهم ثم يسبقهم بالإجابة؛ لأنه هو السابق بكل خير، وهم يجيبون له أنه رب السموات والأرض.

دليله: حرف أبي وابن مسعود وحفصة؛ حيث قرءوا ﴿من رب السموات والأرض قالوا الله﴾ يدل إنه أمره أن يسبقهم بالإجابة، كما كان هو السابق على كل خير.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

يقول - والله أعلم - إذا أقررتم أن رب السموات والأرض هو الله؛ وهو الإله؛ فكيف

---

(١) في أ: المراد.

(٢) سقط في ب.

اتخذتم من دونه هذه الأصنام آلهة أربابًا وعبدتموها[١] أو كيف جعلتم من ليس هو رب السموات والأرض- أولى ممن[٢] أقررتم بالعبادة له أنه ربهما؟ والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذ لا يملكون نفعًا لأنفسهم، ولا دفع الضر عنها؛ فكيف يملكون نفع غيره أو دفع ضرّ عن غيره؟ فعرفهم أنهم[٣] لا يملكون ذلك؛ وأن الله هو المالك؛ فكيف تركتم عبادة من يملك ذلك؛ وعبدتم من لا يملك؟.

فيخرج تأويله على وجهين:

أحدهما: يقول: لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف اتخذتم دون الله آلهة؟.

والثاني: لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا مع وجود الحاجة فيها؛ فكيف تعبدون على رجاء النفع لكم بقولكم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

أي: تعلمون أن الأصنام التي تعبدونها أنها عمي لا تبصر شيئًا؛ والله هو البصير؛ فكيف تركتم عبادة من يبصر؛ وعبدتم من لا يبصر؟ هل يستوى ذلك؟ أي: لا يستوي.

أو يقول [لهم][٤]: إنكم بعبادتكم الأصنام طمعتم شفاعتهم عند الله؛ وهم عمي وأنتم بصراء؛ فهل رأيتم أعمى يقود بصيرًا في الشاهد؟ أو هل رأيتم من لا يبصر يكون دليلا لبصير؟ فإذا لم تروا ذلك؛ فكيف طمعتم من الأصنام ذلك.

وقال أهل التأويل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾: الأعمى: الكافر، والبصير: المؤمن.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.

الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. ووجه قولهم؛ حيث شبهوا[٥] الكفر بالظلمة، والإيمان بالنور؛ لأن الظلمة تحجب وتستر كل شيء، والنور يرفع ذلك الحجاب وذلك الستر؛ فالإيمان له دلائل وحجج؛ ترفع تلك الحجب والستر؛ فينور له كل شيء. والكفر ليس له حجج ودلائل ترفع ذلك؛ فهو ظلمة لم يضئ له شيئًا، والإيمان نور؛ حيث أضاء له، ونور كل شيء له بالدلائل والحجج التي ذكرنا. فصار الكافر كالأعمى لا يبصر شيئًا؛

---

(١) في أ: وعهدتموها.
(٢) في أ: من.
(٣) في أ: أنه.
(٤) سقط في ب.
(٥) في أ: شهدا.

لأنه في الظلمة، والمؤمن كالبصير؛ لأن معه الدلائل والحجج.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

أي: بل جعلوا لله شركاء في العبادة؛ بعد ما علموا أنهم لا يملكون لهم نفعًا إن عبدوها ولا ضرًّا إن تركوا العبادة لها.

وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: خلق هؤلاء الأصنام؛ التي عبدوها وأشركوها في ألوهيته؛ كخلق الله؛ فتشابه عليهم خلقه من خلق الأصنام؛ أي: عرفوا أنها لم تخلق شيئًا كما خلق الله؛ فكيف أشركوا هذه الأصنام في عبادة الله وألوهيته؛ وهم كأنهم قد أقروا أن الله هو خالق كل شيء؟

وهذا ينقض على المعتزلة قولهم؛ حيث قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد[١] ولا يقدر على خلقها؛ فإذا كان الله لم يخلقها؛ فهم خلقوها -على زعمهم- فيكون موضع تشابه الخلق عليهم - على قولهم - فيدل على بطلان قولهم وفساد مذهبهم. والله الموفق.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أي: كل شيء دونه تحت قدرته وقهره وسلطانه، والأصنام التي تعبدونها مقهورة مغلوبة.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾ إلى آخر ما ذكر من الأمثال؛ إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال بعض أهل التأويل: هذا مثل ضربه الله لليقين والشك؛ فاحتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها: فأمّا الشك فلا ينفع منه عمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [وهو الشك][٢]، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبيثه في النار؛ كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنه[٣].

(١) في أ: الخلق.
(٢) سقط في ب.
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠٣١٠، ٢٠٣١١) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور (١٠٣/٤).

وقال قتادة: قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الصغير بصغره والكبير بكبره.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقول: رابيا ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ والجفاء: ما يتعلق بالشجر من الزبد، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض؛ فضرب المثل للحق والباطل.

يقول -والله أعلم- كما اضمحل هذا الزبد؛ الذي ظهر فوق الماء؛ فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله؛ كما اضمحل هذا الزبد؛ وكما مكث هذا الماء في الأرض، وقر قرارها فأمرعت ورجيت بركته كذلك، وأخرجت له نباتها؛ كذلك يبقى الحق لأهله؛ كما بقي هذا الماء في الأرض.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ يقول: يبقى خالص هذا الذهب والفضة حين أدخل في النار؛ وذهب خبثه؛ كذلك يبقى الحق لأهله.

﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ يعني هذا الحديد والصفر[١] الذي ينتفع به؛ وفيه منافع، يقول: كما بقي خالص هذا الحديد وهذا الصفر؛ حين أدخل النار وذهب خبثه؛ كذلك يبقى الحق لأهله كما[٢] بقي خالصهما.

وقال الكلبي: قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو القرآن؛ فاحتمله القلوب بأهوائها؛ ذو[٣] اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكه؛ فاحتملت الأهواء باطلا كثيرًا وجفاء: فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل الأهواء، والزبد الباطل، والحق المتاع والحلية.

قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالزبد وخبث الحديد وخبث المتاع: هو الباطل؛ من أصاب من هذا شيئًا لم ينتفع به، فكذلك الباطل يوم القيامة لا ينتفع بباطله. وأمّا الحلية والماء والمتاع: فهو الحق؛ من أصاب شيئًا منه انتفع به، وكذلك صاحب الحق يوم القيامة ينتفع بالحق. أما الحلية: فالذهب والفضة، وأما المتاع: فالصفر والحديد والرصاص والنحاس، ونحوه، ليس شيء من هذا ينتفع به حتى يدخل النار؛ فيميز صفوه من خبثه.

وقال الحسين بن واقد: وهو قول مقاتل؛ ضرب الله مثل الكفر والإيمان؛ ومثل الحق

---

(١) في أ: والصهر.
(٢) في أ: ما.
(٣) في أ: دون.

والباطل، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾، سال الوادي الكبير على قدر كبره؛ والصغير على قدر صغره؛ فاحتمل السيل زبدًا رابيًا أي: عاليًا، ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾؛ الذهب والفضة، ثم قال: ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الشَّبَهُ والحديد والصفر والرصاص، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾: أي: للسيل زبد مثله لا ينتفع به؛ [والماء ينتفع به][(١)]، وللحلي والمتاع أيضًا زبد مثل زبد السيل؛ إذا أدخل النار؛ وهو خبثه لا ينتفع به والحلى والمتاع ما خلص منهما ينتفع به فمثل الأودية مثل القلوب ومثل السيل مثل الأهواء ومثل الماء والحلي والمتاع الذي ينتفع به مثل [الحق، ومثل زبد الماء وخبث الحلي والمتاع الذي لا ينتفع به مثل][(٢)] الباطل فكما ينتفع بالماء وما خلص من الحلي والمتاع الذي ينتفع به أهله في الدنيا؛ فكذلك الحق ينفع أهله في الآخرة؛ وكما لا ينفع الزبد؛ وخبث الحلي؛ وخبث المتاع أهله في الدنيا؛ فكذلك الباطل لا ينفع أهله في الآخرة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: هكذا يضرب الله الأمثال، أي: يبين الله ما ذكر من مثل الحق والباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ قال: يعني يابسًا؛ فلا ينتفع به، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء؛ ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيسقون ويزرعون عليه وينتفعون به.

فهذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد؛ يقول: هكذا يبين الله الأمثال والأشباه ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ﴾ في الدنيا؛ بالإيمان والتوحيد ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لهم؛ وهي الجنة في الآخرة.

ضرب الله مثل الإيمان والحق؛ ووصفهما بالثبات والقرار والطيب؛ بالأرض الطيبة مرة؛ وشجرة طيبة ثانيًا، وضرب مثل الكفر والباطل؛ بالأرض الخبيثة؛ والشجرة الخبيثة، ووصفهما بالخبث والذهاب؛ فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ...﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] وقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ...﴾ الآية [الأعراف: ٥٨] وضرب مثل المؤمن مرة بالبصير والسميع، ومثل الكافر بالأعمى والأصم؛ فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] وضرب مثل الكفر؛ مرة بالظلمات؛ ومرة بالرماد والموت، ومثل الإيمان بالنور والضياء والحياة؛ ونحوه.

فهذه الأمثال التي ضرب الله - عز وجل - تخرج كلها مخرج الدعوى في الظاهر؛ إذ

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.

ليس فيها بيان الحق منها؛ وبيان المحق من غير المحق؛ سوى أن فيها: هل يستوي ذا مع ذا؟ لا يستوى على ما ذكر، وهل يستوي الطيب والخبيث؛ أو البصير والسميع [أو](١) الأصم والأعمى؛ أو الميت [و](٢)الحي؛ أو الظلمات والنور؟ وأمثاله، هذا كله غير مستوٍ. وكل أهل الأديان وإن - اختلفت مذاهبهم - يقول كل: أنا الذي عليه هو الحق؛ والباطل هو الذي عليه غيري، وينفى كل عن نفسه العمى والصمم(٣)؛ وكونه في ظلمة؛ ويدعي كونه في النور؛ ونحوه. فليس في نفس الأمثال التي ضربت بيان الحق من الباطل والمحق من غيره؛ فذلك يعرف بغيرها بالدلائل والحجج والبراهين؛ وهو ما ذكر ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٤٣] فبالدلائل والحجج والبراهين يعرف الحق من الباطل والمحق من غير المحق؛ فللإيمان والحق دلائل وحجج يعرف ذوو العقول - بالعقول - حسنه وطيبه، وما يعقب من ثمرته، ويبين قبح الكفر والباطل لذوى العقول بالعقول، واستخباثهم الباطل؛ وما يعقبه(٤) لأهله من الخبث والقبح والشرّ.

وقال القتبي(٥): ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: عاليًا على الماء ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حلي أو متاع آنية يعنى من فِلزّ الأرض وجواهرها؛ مثل الرصاص والحديد؛ ونحوه، والذهب والفضة؛ حيث تعلوها - إذا أذيبت - مثل زبد الماء. والجُفاء ما رمى به الوادي إلى جنباته؛ يقال: أجفأت القدر بِزَبدها: إذا ألقت زبدها عنها.

وقال أبو عوسجة: ﴿رَّابِيًا﴾: أي: مرتفعًا فوق ظهر الماء؛ وهو واحد، ويقال: زبد الماء: إذا صار له زبد ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ هو من الحلي؛ من الذهب والفضة؛ مما يتحلى به؛ ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: باطلا لا ينتفع به، وأما الجفاء: فهو إظهار التهاون بالإنسان؛ وقلة الاكتراث له؛ والاستخفاف به. وقال: الجفاء هو الغثاء، ويقال: قد أجفأ(٦) الوادي: إذا علاه ذلك ثم جرى به الماء.

قال أبو عوسجة: والغثاء - عندي -: ما حمله السيل؛ من العيدان والبعر؛ وما يشبه ذلك.

وقال القتبي(٧): قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥] أي: يبسًا.

قال أبو عبيد(٨): الجفاء الجمود، ويذهب إلى أن الزبد يجمد ويجتمع على الماء، ثم

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: الصم.
(٤) في أ: يعقب.
(٥) ينظر: تفسير غريب القرآن ص (٢٢٧).
(٦) في أ: انجفا.
(٧) ينظر: تفسير غرايب القرآن (٥٢٤).
(٨) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣٢٩).

يذهب بمائها.

وقال الفراء يذهب جُفاء: أي: يذهب سريعًا كما جاء.

وقال الشيخ -رحمه الله-: ويشبه أن يكون المثل الذي ضرب بالماء هو للدين وهو أن الدين الحق الذي أنزل من السماء واحد؛ لكن الناس اتخذوا أديانًا متفرقة، ومذاهب(١) مختلفة؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالدين الذي أمر بسلوكه واتباعه واحد؛ وهو كالماء الذي أنزل من السماء واحد صاف؛ وهو الأصل؛ فحذف(٢) منه أشياء لا يعبأ به ولا يكترث؛ فعلى ذلك السبل. أو أن يكون وجه ضرب مثله بالماء؛ وهو أن الماء إذا أنزل من السماء أنزل [طيبًا عذبًا](٣)، لكن اختلف ألوانه وطعومه باختلاف جواهر الأرض؛ بعضه خرج مالحًا أجاجًا، وبعضه مرًّا لا ينتفع به؛ وبعضه عذب، وذلك على اختلاف جواهر الأرض، وإلا كان المنزّل من السماء كله عذب طيب؛ فالذي ينتفع به واحد؛ وهو العذب. فعلى ذلك الدين الذي ينتفع به -واحد؛ والبواقي لا ينتفع بها كالمياه المرة والمالحة، أو يكون غير هذا؛ ونحن لا نعرفه والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي: أجابوا ربهم فيما دعاهم إليه، وإنما دعاهم إلى السبب الذي يوجب لهم دار السلام وهي الجنة بقوله: [﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] دعاهم إلى دار السلام ومكن لهم من الإجابة له والرد، فمن أجابه فيما دعاه كان له دار السلام](٤)، والحسنى الذي ذكر،

---

(١) في ب: ومذاهبنا.
(٢) في أ: فحدث.
(٣) في ب: عذبًا طيبًا.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.

ومن رد دعاءه كان له النار ودار الهوان؛ فأيهما اختار، فله الموعود الذي وعد؛ إن اختار إجابته إلى ما دعاه؛ فله النعيم الدائم الذي وعد ودار السلام؛ وإن اختار الرد وترك الإجابة، فله ما وعد من العذاب الدائم والهوان.

والأمثال التي ذكر أنها ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هو هكذا للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وكذلك ما ذكر من القرآن أنه هدى ورحمة للمؤمنين، وأمّا على أهل الكفر؛ فهو عمى وضلال. وكذلك قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وأمّا قلوب الكفرة فما ذكر: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] و ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وأمثاله.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾.

أي: ضِعْفه معه؛ لافتدوا به، يذكر هذا -والله أعلم- أن الذي[١] كان يمنعهم عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه - رغبتهم في هذه الدنيا؛ وميلهم إليها؛ يتمنون - لما يحل فيهم من العذاب والشدائد - أن يكون لهم ما في الأرض جميعًا أن يفتدوا به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: يحاسبون حسابًا يسوءهم؛ لأن حسناتهم التي عملوها وطمعوا الإنتفاع بها- لم تنفعهم بل صارت كالسراب الذي ذكر: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] ولم يتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الذي يأوون إليه؛ هو جهنم وبئس المهاد؛ لما يسوءهم ذلك والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: من يعلم الحق حقًّا كمن هو يعمى عنه ولا يعلم؟ أو من يعلم الحقّ أنه حق؛ كمن يعلمه باطلًا؟ ليسا بسواء؛ كقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

[أي][٢] إنما يتذكر - بالتذكير أولو الألباب وذوو العقول؛ الذين ينتفعون بعقولهم ولُبِّهم.

ثم بين من هم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

يحتمل عهد الله عهد خلقه؛ يوفون بما في خلقتهم [من العهد][٣]؛ إذ في خلقة كل أحد - دلالة وحدانيته، وشهادة ألوهيته؛ فوفوا ذلك العهد.

---

(١) في أ: الذين.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في ب.

ويحتمل: عهد الله ما جرى على ألسن الرسل، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم؛ وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ الآية [آل عمران: ٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

العهد والميثاق واحد، وسمي العهد ميثاقًا؛ لأنه يوثق المرء، ويمنعه عن الاشتغال بغيره. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الصلات التي أمر الله بها أن توصل على جهات ومراتب: أما ما بينه وبين المؤمنين: ألَّا يحب لهم إلا ما يحب ولا يصحبهم إلا بما يحب هو أن يصحب، وأما فيما بينه وبين محارمه: أن يؤوى ويحفظ الحقوق التي جعل الله لبعضهم[١] على بعض؛ ولا يضيعها. وأما فيما بينه وبين الرسل: فهو أن من حقهم أن يوصل الإيمان بالنبيين جميعًا؛ والكتب كلها.

هذا والله أعلم الصلة التي أمر الله أن يوصل بها.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إما في التقصير فيما أمر أن يوصل، وإما بالتفريط في ذلك، وترك الصلة.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾

أي: شدة الحساب؛ حين لم تنفعهم حسناتهم؛ ولا يتجاوز عن شيء من سيئاتهم؛ فذلك يسوءهم. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الصبر: هو كف النفس وحبسها عما تهواه؛ على ما تكره ويثقل عليها.

ثم يحتمل كفها وحبسها عن الجذع في المصائب، وعلى أداء ما افترض الله عليهم وأمرهم بها، أو كفوا أنفسهم وحبسوها عن المعاصي، يكون الصبر على الوجوه الثلاثة التي ذكرنا[٢]. والله أعلم.

---

(١) في ب: بعضهم.

(٢) واعلم أن العبد قد يصبر لوجوه:

إما أن يصبر ليقال: ما أصبره! وما أشد قوته على تحمل النوائب!.

وإما أن يصبر لئلا يعاب على الجزع.

وإما أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء، وإما أن يصبر لعلمه أن الجزع لا فائدة فيه.

فإذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه، لم يكن داخلاً في كمال النفس، أما إذا صبر على البلاء لعلمه أن البلاء قسمة القاسم الحكيم العلام، المنزه عن العبث والباطل، والسفه وأن تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة، ومصلحة راجحة، ورضي بذلك؛ لأنه لا اعتراض على =

[وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجهين. يحتمل: ابتغاء رضوان الله.

ويحتمل: ابتغاء وجه يكون لهم عند الله][(١)]، وهو المنزلة والرفعة، ولذلك سمي الرفيع وذو المنزلة: وجيهًا كقوله: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: ذو منزلة ورفعة في الدنيا والآخرة. وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: ثَمَّ الجهة التي أمر الله أن يتوجه إليها، فعلى ذلك هذا ﴿صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ابتغاء المنزلة والرفعة التي عند ربهم؛ أو ابتغاء رضوان الله ومرضاته والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: داموا على إقامتها؛ ليس أنهم أقاموا مرة ثم تركوها؛ ولكن داموا على إقامتها، وعلى ذلك قوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الانعام: ٧٢] أي: دوموا على إقامتها. ويحتمل قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: جعلوها قائمة أبدًا.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

يحتمل كل نفقة: الصدقة والزكاة وما ينفق على عياله وولده، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: ينفق في كل وقت؛ سرًّا من الناس وعلانية منهم أي: ينفق على جهل من الناس؛ وعلى علم منهم؛ ينفقون على كل حال؛ لا يمنعهم علم[(٢)] الناس بذلك عن الإنفاق، بعد أن يكون ابتغاء وجه ربهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: يدفعون بالحسنة السيئة، ثم يحتمل وجهين:

أحدهما: يدفعون بالإحسان إليهم العداوة التي كانت بينهم؛ كقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ...﴾ الآية [فصلت: ٣٤]. والثاني: يدرءون الإساءة التي كانت لهم إليهم بالخير إليهم والمعروف، ولا يكافئون بالسيئ السيئ؛ وبالشر الشر؛ ولكن يدفعون بالخير.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: إذا سُفه عليهم حلموا،

= المالك في تصرفه في ملكه، فهذا هو الذي يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه؛ لأنه صبر لمجرد طلب رضوان الله.
ينظر: اللباب (١١/ ٢٩٤).

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في ب: حال.

والسفه سيئة؛ والحلم[١] حسنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

أي: عقبى أولئك الذين صبروا؛ على ما ذكر؛ من وفاء العهد والصلة التي أمروا بها أن يصلوا؛ والصبر على أداء ما أمر به وافترض عليهم؛ والانتهاء عما[٢] نهى عنه - الدار التي دعاهم إليها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]

والثاني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عقبى حسناتهم دار الجنة، وأولئك لهم عقبى هذه الدار الجنة، أو عاقبتهم دار الجنة.

ثم نَعَتَ تلك الدار[٣]؛ فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾.

عدن: قال أهل التأويل[٤]: عدن: هو بطان[٥] الجنة؛ وهو وسطها، وقال بعضهم: عدن هو الإقامة؛ أي: جنات يقيمون فيها؛ يقال: عدن: أي: أقام.

وقوله: - عز وجل-: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾.

فإن قيل: كيف خص بالذكر الآباء والأزواج والذرية؛ وهم قد دخلوا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ فما معنى تخصيصهم بالذكر؟

هذا يحتمل وجوهًا:

أحدها: أنهم أسلموا؛ فاخترموا[٦]؛ أي: ماتوا كما أسلموا؛ ولم يكن لهم مما ذكر من الخيرات والحسنات؛ فأخبر أن هؤلاء [يدخلونها - أيضا -][٧] ويلحقون بأولئك.

والثاني: لم يبلغوا الدرجة التي بلغ أولئك؛ فأخبر - عز وجل - أنه يبلغهم درجة أولئك ويلحقهم به؛ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ...﴾ الآية [الطور: ٢١] يضم بعضهم إلى بعض في الآخرة كما كانوا في الدنيا، يضم كل ذي قرين في الدنيا قرينه إليه في الآخرة.

وفي قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ وما ذكر دلالة أن صلاح غيره وإن قرب منه لا ينفعه؛

---

(١) في أ: والحكم.
(٢) في ب: الذي.
(٣) في أ: الجار.
(٤) قاله ابن مسعود، أخرجه عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عنه، كما في الدر المنثور (١٠٨/٤).
(٥) في ب: بطنان.
(٦) في أ: فاحترموا.
(٧) في أ: يدخلوها.

حتى يكون في نفسه صلاح، حيث قال: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ . . .﴾ إلى آخر ما ذكر؛ وهو ما قال لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦] دل هذا أن صلاح والده أو قريبه لا يجدي له نفعًا في الآخرة والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾.

هذا يحتمل أن يكون لمقامهم ومنازلهم أبواب؛ فيدخل عليهم من كل باب ملك.

والثاني: يحتمل أن [يكون][1] يأتي كل ملك بتحفة [غير التحفة][2] التي أتى بها الآخر على اختلاف خيراتهم وقدر أعمالهم.

﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: من كل نوع من التحف. وفيه وجهان:

أحدهما: أن الملائكة يكونون خدم أهل الجنة، وفي ذلك تفضيل [البشر][3] عليهم.

أو أن يكون على حق المصاحبة؛ لما أحبوا هم أهل الخير من البشر في الدنيا؛ لخيرهم؛ فجعل الله بينهم الرفقة، والصحبة في الآخرة والله أعلم بذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ كقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هو ما ذكرنا في قوله أولئك لهم عقبى الدار.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ العهد قد ذكرناه في غير موضع، وكذلك النقض.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

كل حرف من هذه الحروف يقتضي معنى الحرف الآخر؛ إذا نقضوا العهد، والميثاق: قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل؛ وسعوا في الأرض بالفساد، وإذا قطعوا ما أمر الله به أن يوصل: نقضوا العهد؛ وسعوا في الأرض بالفساد؛ إلا أن يقال: إن نقض العهد يكون بالاعتقاد؛ وذلك يكون [بينهم وبين ربهم][4]، وكذلك قطع ما أمر الله به أن يوصل إذا كان الأمر الذي أمر به صلة الإيمان بالنبيين والكتب جميعًا؛ فإن كان صلة الأرحام؛ فهو فعل؛ والسعي في الأرض بالفساد فعل أيضًا؛ من زنًا أو سرقة أو قطع الطريق، وغير ذلك من المعاصي [ما كان، فهو الإفساد في الأرض والله أعلم. والإفساد في الأرض يحتمل:

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: منهم وبين نسائهم.

منعهم الناس [من] الإيمان به وتصديقه أو غيره من المعاصي][١] أو قطع الطريق.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل ما أمر الله به أن يوصل: ما ذكرنا من وصل الإيمان ببعض الرسل بالكل[٢] وبجميع الكتب، ويحتمل[٣]: صلة الأرحام التي فرض عليهم صلتهم؛ قطعوا ذلك.

أو أمرهم أن يصلوا أعمالهم بما اعتقدوا.

وقوله - عز وجل -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

اللعنة: هي الطرد - في اللغة - والإبعاد؛ كأنهم طردوا وأبعدوا عن رحمة الله في الآخرة، أو طردوا وأبعدوا من هداية الله وإرشاده في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

قد ذكرنا أنهم دعوا إلى دار؛ وحذروا عن دار: دعوا إلى دار السلام؛ فإن أجابوا فلهم الحسنى؛ على ما ذكر، وحذروا عن دار الهوان؛ [فإن لم يحذروا فلهم][٤] دار السوء والهوان.

أو سماها سوء الدار؛ لما يسوء مقامهم فيها، أو ذكر لأهل النار سوء الدار مقابل ما ذكر لأهل الجنة: حسن المآب وحسن الثواب والحسنى.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يرغبهم فيما عنده ويؤيسهم عما في أيدي الخلق، ويقطع رجاءهم عن ذلك؛ لأن الذي كان يمنعهم عن الإيمان به، ويحملهم على تكذيب الرسل؛ وترك الإجابة - هذه الأموال التي كانت في أيدي أولئك، وبها [رأوا دوام][٥] الرياسة والعز والشرف لهم في هذه

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) في أ: ما لكل.
(٣) في أ: ومحتمل.
(٤) في أ: فلم يحذر.
(٥) في أ: رأونا.

الدنيا؛ فقال[١]: هو الباسط لذلك؛ والقاتر لا أولئك، هو يوسع على من يشاء، ويقتّر على من يشاء؛ ليس ذلك إلى الخلق، وذكر أنه يبسط الرزق لمن يشاء من أوليائه وأعدائه، ويقتر على من يشاء من أعدائه وأوليائه، ليعلموا[٢] [أن][٣] التوسيع في الدنيا والبسط لا يدل على الولاية، ولا التقتير والتضييق على العداوة، ليس كما يكون في الشاهد؛ يوسع على الأولياء ويبسط، ويضيق على الأعداء؛ لأن التوسيع في الدنيا والتضييق بحق المحنة وفي الآخرة، بحق الجزاء، ويستوي في المحنة الولي والعدو، ويجمع بينهما في المحنة؛ ويفرق بينهما في الجزاء.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

يحتمل قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ صلة ما تقدم؛ وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾، ويفرحون بالحياة الدنيا.

ثم الفرح يحتمل وجوهًا:

يحتمل: فرحوا بالحياة الدنيا؛ أي: رضوا بها؛ كقوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] أي: فرحوا، سرورًا بها.

فإن قيل: إن المؤمن قد يسرّ بالحياة الدنيا؟

قيل: يُسَرّ ولكن لا يُلْهيه[٤] سروره بها؛ ولا يغفل عن الآخرة، وأما الكافر: فإنه لشدة سروره بها وفرحه عليها؛ يلهى عن الآخرة؛ وعن جميع الطاعات. وهكذا [العرف في][٥] الناس أنه إذا اشتد بالمرء السرور بالشيء؛ فإنه يلهى عن غيره ويغفل عنه.

أو يكون قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: أشروا وبطروا؛ كقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وهو الأشر والبطر. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

تأويله - والله أعلم - أي: ما الحياة الدنيا -مع طول تمتعهم بها بتمتع[٦] الآخرة - إلا كمتاع ساعة أو كمتاع شيء يسير؛ وهو كقوله: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وكقوله: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥] يظنون - مع طول

---

(١) في ب: فقالوا.
(٢) في ب: ليعلم.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: يلهمه.
(٥) في أ: يعرف.
(٦) في أ: تمتع.

ما متعوا في هذه الدنيا - عند متاع الآخرة كأنهم ما متعوا بها إلا ساعة؛ فعلى ذلك قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ ، وهو ما ذكر في موضع آخر: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] عند متاع الآخرة؛ لأن متاع الآخرة ونعيمها دائم متصل غير منقطع؛ لا يشوبه آفة ولا حزن ولا خوف، ومتاع الدنيا منقطع غير متصل؛ مشوب بالآفات والأحزان؛ لذلك كان قليلا عند متاع الآخرة ونعيمها.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ أي: إلا لهو وباطل لكن الوجه فيه ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

يحتمل سؤالهم الآية أنفس الآيات التي أتت بها الرسل من قبل قومهم، أو سألوا آيات سموها، كقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا...﴾ الآية [الإسراء:٩٠] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ...﴾ [الإسراء:٩٣] إلى آخر ما ذكر من الآيات، سألوها منه، أو سألوه آيات تضطرهم وتقهرهم[١] على الإيمان؛ كقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤].

وفيه دلالة أنه[٢] لو شاء لأنزل عليهم آيات؛ لآمنوا كلهم بها، واهتدوا، وعنده[٣] أشياء لو أعطاهم لكان ذلك سبب اهتدائهم وتوحيدهم؛ وكذلك لو أعطى أشياء لكان ذلك سبب كفرهم جميعًا؛ كقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ...﴾ الآية [الزخرف:٣٣] لكنه لا ينزل الآية على شهواتهم وأمانيهم، ولكن ينزل أشياء؛ تكون عند النظر والتأمل[٤] حجة؛ فمن تأمّل فيها وتفكرَ لاهتدى وآمن بالاختيار، ومن أعرض عنها ولم يتفكر ضل وزاغ بالاختيار.

ويحتمل قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ [الشعراء:٤] أي: [إن نشأ][٥] إيمانهم واهتداءهم ننزل عليهم آية، وذلك تأويل قوله على أثر سؤالهم الآية.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

أي: ينزل من الآيات ما يهتدي بها المنيب إليها والمقبل، ويضل[٦] المعرض عنها؛

---

(١) في أ: وتقررهم.
(٢) في أ: آية.
(٣) في أ: هذه.
(٤) في أ: التأويل والنظر.
(٥) في أ: يشأ.
(٦) في أ: ويضر.

والصادر بالاختيار، ويكون اهتداؤهم باختيارهم؛ [وضلالهم باختيارهم][(١)]؛ لا بالاضطرار والقهر؛ ألا ترى أنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على رسوله؛ فهو وصف المقبل المنيب إلى ذكر الله؛ يسكن وتطمئن قلوبهم بالتأمل[(٢)] والتفكر فيها وأصله أن الله - عز وجل -: شاء اهتداء من علم أنه يختار الاهتداء والإيمان، وشاء ضلال من علم أنه يختار فعل الضلال والزيغ، يشاء [لكل][(٣)]؛ لما علم منه أنه يختار ذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وتسكن إليه.

وقال بعض أهل التأويل[(٤)]: هو في الحلف في الخصومات؛ ألا في الحلف بالله؛ [تطمئن وتسكن][(٥)] قلوب الذين آمنوا لا تطمئن بالحلف بغير الله.

وقال بعضهم: ألا بالقرآن؛ وبما في القرآن من الثواب، تسكن وتطمئن قلوب الذين آمنوا.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تفرح وتستبشر قلوب الذين آمنوا بذكر الله ألا بذكر الله تستبشر وتفرح قلوب الذين آمنوا؛ لأنه ذكر في الكفرة الفرح بالحياة الدنيا؛ وهو قوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] وذكر في المؤمنين الاستبشار والفرح بذكر الله، وفي أولئك ذكر أن قلوبهم تشمئز بذكر الرحمن وتستبشر بذكر من دونه؛ وهو قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] أخبر الله تعالى أن قلوب المؤمنين تستبشر وتفرح بذكر الله، وقلوب أولئك تستبشر [وتفرح][(٦)] بذكر من دونه.

وقوله - عز وجل -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: تطمئن قلوبهم بذكر الله لهم، وذكر الله لهم التوفيق والتسديد والعصمة، ونحوه.

والثاني: تطمئن قلوبهم بذكرهم الله، وذكرهم الله: إحسانه ونعمه وعظمته وجلاله، ونحوه.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: والتأمل.
(٣) سقط في أ.
(٤) قاله ابن عباس ،كما في تفسير البغوي (٣/ ١٧).
(٥) في ب: تسكن وتطمئن.
(٦) سقط في أ.

وقوله - عز وجل -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

[طوبى][(١)] قيل[(٢)]: خير لهم وغبطة، وقيل[(٣)]: حسنى لهم ونعمى لهم، وقيل[(٤)]: يقال: طوبى لك؛ إن أصبت خيرًا، وقيل[(٥)]: هو اسم الجنة بلسان الحبشة؛ وقيل[(٦)]: بالهندية، وقيل[(٧)]: اسم شجرة في الجنة أصلها في دار رسول الله ﷺ؛ وأغصانها في دار أمته، فإن كان هذا، وهو اسم شجرة؛ فذلك لا يستقيم إلا [على تقدمة كان][(٨)] أهل الكتاب؛ ادعوها لأنفسهم؛ فأخبر أنها للذين آمنوا لا لهم كقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] [ثم][(٩)] قال - عز وجل -: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] ادعوا الجنة لأنفسهم؛ فأخبر أنها ليست لهم؛ ولكن للذي أسلم وأخلص وجهه لله؛ فعلى ذلك يشبه أن يكونوا ادعوا طوبى لأنفسهم فأخبر أنها ليست لهم، ولكن للذين آمنوا.

وإن كان في مشركي العرب؛ فهم ينكرون البعث والجنة والنار، فيشبه أن يكونوا قالوا: إن كان بعث على ما تقولون وجنة وطوبى؛ فهي لنا؛ كقوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال بعضهم: ﴿طُوبَىٰ﴾: كلمة مدح الله ثوابهم، وغبطهم بها.

وقال بعضهم: ﴿طُوبَىٰ﴾: كرامة أعد الله لأوليائه، وهي مذكورة في الكتب.

وقوله - عز وجل -: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾.

أي: كما أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [وقال كل واحد من الرسل][(١٠)]: ﴿رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ...﴾ الآية أي: كل رسول كان

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله الضحاك، أخرجه ابن جرير (٢٠٣٦٥، ٢٠٣٦٧) وأبو الشيخ عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١١١).

(٣) قاله قتادة ،أخرجه ابن جرير (٢٠٣٦٩، ٢٠٣٧٠) وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور (١١١/٤).

(٤) هو قول قتادة السابق.

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٣٧٣، ٢٠٣٧٤).

(٦) قاله سعيد بن مسجوح أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٣٧٥، ٢٠٣٧٦) وعن سعيد بن جبير أخرجه ابن المنذر ،كما في الدر المنثور (٤/ ١١١).

(٧) قاله ابن عباس بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٣٨٢) وعن أبي هريرة (٢٠٣٨٣، ٢٠٣٨٥) وشهر ابن حوشب (٢٠٣٨٤، ٢٠٣٨٦) وغيرهم.

(٨) في أ: تقدمه عن.

(٩) سقط في أ.

(١٠) في أ: وقالوا.

أرسل قبلك كان أمر أن يقول ما ذكر؛ كذلك أرسلناك إلى قومك رسولا، وإن كانوا يكفرون بالرحمن؛ فقل أنت ما قال أولئك الرسل: ﴿رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ...﴾ الآية، لم تخل أمة عن رسول؛ كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧] [يقول: أرسلناك لتتلو أنباء الرسل والأمم الذين كانوا من قبلك عليهم؛ ليكون آية][1] لرسالتك؛ ليعلموا أنك إنما علمت تلك الأنباء بالله تعالى.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

يقول - والله أعلم - هم يكفرون بالرحمن؛ وفي كل الخلائق آية توحيد الرحمن وألوهيته؛ ولا في كل الخلائق آية لرسالتك، وهم مع ذلك كله يكفرون بالرحمن؛ فعلى ذلك يكفرون بآيات رسالتك.

وقال أبو بكر الأصم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو صلة قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧] وكانوا هم أهل التعبد[2] من الكبراء؛ فقال: لو جئتهم[3] بقرآن سيرت به الجبال؛ أو قطعت به الأرض؛ أو كلم به الموتى، يقول: لو جئت بذلك كله كان أمرهم التكذيب والعناد؛ وهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ...﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية [الحجر: ١٤] يخبر - عز وجل - عن عنادهم[4] أنهم لا يؤمنون بالآية - وإن عظمت - إلا أن يشاء الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ كقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] أي: الأمر لله؛ من شاء أن يؤمن فيؤمن، ومن شاء ألا يؤمن فلا يؤمن ألبتة.

وقال بعضهم: [قوله:][5] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يكفرون باسم الرحمن؛ لأنهم قالوا: إن محمدًا كان يدعونا إلى عبادة الله وتوحيده فالساعة يدعونا إلى عبادة الرحمن وألوهيته؛ فذلك عبادة اثنين؛ فقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: دعائي إلى عبادة الرحمن وألوهيته وهو دعائي إلى عبادة الله، وهو واحد ليس هو باثنين ولا عدد؛ كقوله:

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: التعهد.
(٣) في أ: جئتم.
(٤) في أ: عبادهم.
(٥) سقط في أ.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: عدد الأسماء لا يوجب عدد الذات؛ إذ[١] يكون لشيء واحد في الشاهد أسماء مختلفة؛ فاختلاف الأسماء لا يوجب اختلاف الذات؛ فعلى ذلك في الله تعالى.

وقال بعضهم: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ اسم من أسماء الله في الكتب الأول، قالوا: كتبها رسول الله؛ أبوا أن يقرءوا به[٢]، قالوا: وما الرحمن، إنا لا نعرفه؟ فنزل: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ . والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ إلى آخر ما ذكر.

قال بعض أهل التأويل: تأويله[٣]: لو أن قرآنا [ما][٤] غير قرآنك؛ سيرت به الجبال؛ من أماكنها؛ أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لفعلناه بقرآنك أيضًا، ذلك ولكن لم نفعل بكتاب من الكتب التي أنزلتها على الرسل الذين من قبلك، ولكن شيء أعطيته أنبيائي ورسلي.

﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

يقول: بل جميع ذلك الأمر كان من الله؛ وليس من قبل القرآن؛ أي: لو فعل بالقرآن ذلك كان جميع ذلك من الله تعالى.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إن شاء فعل ما سألتم، وإن شاء لم يفعل ويشبه أن يكون غير هذا أقرب،؛ أن يكون صلة ما تقدم من سؤالهم الآيات؛ وهو قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: ٧] فيقول: لو أن قرآنك الذي تقرؤه عليهم: لو سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى لما آمنوا بك؛ ولما صدقوك على رسالتك على ما لا يؤمنون بالرحمن، وكل الخلائق له آية لوحدانيته

---

(١) في أ: أو.
(٢) ثبت في حاشية ب: كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ...﴾ الآية كاتبه.
(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٤٠٣، ٢٠٤٠٤) وعن الضحاك (٢٠٤٠٥) وابن زيد (٢٠٤٠٦) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١١٧، ١١٨).
(٤) سقط في ب.

وألوهيته، يخبر عن شدة تعنتهم وتمردهم في تكذيبهم رسول الله ﷺ؛ [ليعلم رسول الله ﷺ][١] أن سؤالهم الآية سؤال تعنت وتمرد؛ ليس سؤال استرشاد واستهداء.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾.

أي: لو أن قرآنا ما عمل [ما][٢] ذكر لكان هذا القرآن؛ تعظيمًا لهذا القرآن.

والتأويل الذي ذكرنا قبل هذا كأنه أقرب. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

قال بعضهم: هو صلة ما تقدم؛ من قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية، يقول - والله أعلم-: أفلم ييئس الذين آمنوا عن إيمان من كان على ما وصف الله، وتمام هذا كأن المؤمنين سألوا لهم الآيات[٣]، ليؤمنوا؛ لما سألوا هم آيات من رسول الله؛ فيقول: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عن إيمان هؤلاء؛ وهو كما قال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام:١٠٩] كأن المؤمنين سألوا لهم الآيات ليؤمنوا؛ فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ﴾ يأيها المؤمنون ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩] أي: يؤمنون على طرح (لا) على هذا التأويل.

وقال بعضهم[٤]: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: أفلم يتبين[٥] للذين آمنوا أنهم لا يؤمنون؛ لكثرة ما رأوا منهم[٦] من العناد والمكابرة.

فسروا الإياس بالعلم والأيس؛ لأن الإياس إذا غلب يعمل عمل العلم؛ كالخوف والظن ونحوه جعلوه يقينًا، وعلمًا للغلبة؛ لأنه إذا غلب يعمل عمل اليقين والعلم.

وقال بعضهم[٧]: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ﴾: أي: أفلم يعلم[٨] الذين آمنوا أن الله يفعل [ذلك][٩]، لو شاء لهدى الناس جميعًا.

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: آيات.
(٤) قاله علي بن أبي طالب، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٤٠٧) وعن ابن عباس (٢٠٤٠٨، ٢٠٤٠٩، ٢٠٤١١) وابن جريج (٢٠٤١٠) ومجاهد (٢٠٤١٣) وغيرهم.
(٥) في أ: تبين
(٦) في أ: أنهم.
(٧) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٤١٢) وعن قتادة (٢٠٤١٥) وابن زيد (٢٠٤١٦) وانظر: الدر المنثور (١١٨/٤).
(٨) في أ: يعمل.
(٩) سقط في أ.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قالت عائشة -رضي الله عنها-: قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ﴾ خطأ من الكاتب، إنما هو (أفلم يتبين للذين آمنوا أن لو يشاء الله) فمعناه: أي: قد تبين للذين آمنوا[١].

وقال بعضهم: [قوله][٢]: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ﴾ أي: أفلم يعلم الذين آمنوا، أي: قد علم الذين آمنوا، لو شاء الله إيمان الناس واهتداءهم لآمنوا واهتدوا.

وقال صاحب هذا التأويل: إن [هذا][٣] جائز في اللغة: ييئس: يعلم، وذكر أنها لغة «نخع» وغيرها. والله أعلم.

وقال بعضهم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقطوع من قوله ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ...﴾ الآية، وهو موصول بما تقدم من قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧] ثم قال جوابًا لما قالوا؛ كأنه قال: لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، أي: علم منه أنه يختار [الضلال][٤] ويؤثره؛ يشاء ذلك له، ومن علم منه أنه يختار الهدى يشاء ذلك له، ويكون قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقطوع لا جواب له، كأنه قال: أفلم ييئس الذين آمنوا عن إيمانهم لكثرة ما رأوا منهم من العناد والتعنت بعد رؤيتهم الآيات والحجج، كأن أهل الإيمان والإسلام سألوا رسول الله ﷺ الآيات التي سألوا هم؛ رغبة في إسلامهم؛ وإشفاقًا عليهم؛ فيقول -والله أعلم-: ألم يأن للذين آمنوا الإياس من إيمانهم؛ أي: قد أنى للذين آمنوا أن ييئسوا من [إيمانهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ...﴾ الآية [الأنعام: ١١١] فعلى ذلك هذا يقول: قد أنى للذين آمنوا أن ييئسوا من إيمانهم][٥]، ولو شاء[٦] الله لهدى الناس جميعًا؛ وقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ صلته قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ

---

(١) ثبت في حاشية ب: أقر المصنف -رحمه الله- ما نقله عن عائشة على ما هو عليه، وقد قال في سورة النساء في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ الآية بعدما ذكر عن عائشة أنها قالت: (ثلاث آيات وقع فيها الخطأ من الكاتب إحداها: الآية المذكورة: ﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ والصحيح المقيمون. والثانية: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ والثالثة في المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّٰبِئُونَ﴾): الحديث لا يصح عن عائشة؛ لأنه لا يظن من الصحابة أن يقفوا على لحن في المصحف من الكاتب ويتركوه مع أنهم كانوا موصوفين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انتهى المقصود منه فينبغي أن يذكر ذلك هاهنا، والله أعلم. كاتبه.

(٢) سقط في ب.

(٣) سقط في أ.

(٤) سقط في ب.

(٥) سقط في ب.

(٦) في ب: يشاء.

لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ كقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

قال بعضهم: الذين حاربوا رسول الله.

﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾.

القارعة: هي ما يقرع القلوب ويكسرها، ثم قرعهم يكون بعذاب، وقتل، وغيره؛ من الهزيمة ونحوه وبسبي ذراريهم ويغنم المسلمين أموالهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

قال بعضهم: أو تكون القارعة بجيرانهم الذين قرب[١] منكم دارهم.

وقال بعضهم[٢]: لا تزال سرية من سرايا رسول الله ﷺ تحل ببعضهم؛ أو ينزل هو قريبًا منهم؛ حتى يأتي وعد الله، وعد الله يكون بوجهين:

أحدهما: أن يظفره بهم جميعًا، وأن يورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم.

والثاني: يكون وعد الله فتح مكة؛ كقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا...﴾ [الفتح: ٢١] الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ما وعد رسوله؛ من الفتح والنصر وغيره.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾.

يحتمل ما ذكر؛ من إصابة القارعة؛ الجوع والشدائد التي أصابتهم،

ويحتمل القتال والحرب؛ التي كانت[٣] بينهم وبينهم.

وقوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ نزول السرايا بقرب من دارهم.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يحتمل فتح مكة، أي: تحل قريبًا من دارهم حتى يأتي ما وعد الله؛ من فتح مكة عليك، أو أن يكون وعد الله هو البعث والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

يقول: ولقد[٤] استهزأ برسل من قبلك قومهم؛ كما استهزأ بك قومك، يُعَزِّى نبيهُ ﷺ ليصبر على تكذيبهم.

---

(١) في ب: أقرب.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٤١٧،٢٠٤١٩) وعن عكرمة (٢٠٤٢٠، ٢٠٤٢١) ومجاهد (٢٠٤٢٣، ٢٠٤٢٥) وسعيد بن جبير (٢٠٤٢٩) وغيرهم، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١١٩).

(٣) في ب: كان.

(٤) في ب: وقد.

وقال أبو بكر الأصم: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من تقدم من الرسل سألهم قومهم الآيات والعذاب بالهزء، ثم بين بهذا أن ما سألوه من الآية أرادوا الهزء، وهو صلة ما تقدم من قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد:٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقول: أمهلتهم [في كفرهم وهزئهم.

هذا يدل أن تأخر العذاب عنهم لا يؤمنهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يقول: أحللت][(١)] بهم جزاء ما كانوا يهزءون منه.

وقال بعضهم: فكيف كان عقاب الله؟ أي: شديد عقابه؛ وهو كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا. . .﴾ الآية [الحج:٤٨] وقيل: كيف رأيت عذابي لهم أي: أليس وجدوه شديدًا.

والثالث: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أي: أليس ما أوعدهم الرسل من العذاب كان حقًا وصدقًا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

قال أبو بكر الأصم: يقول: من الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت الله أم شركاؤكم فالقائم هو المدبر الحافظ بكل ما فيه الخلق ويشبه أن يكون تأويله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: حافظ وعالم على كل نفس بما كسبت؛ أو بالرزق لهم والدفع عنهم، كمن هو أعمى عن ذلك، ليسا بسواء كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ. . .﴾ الآية [الرعد: ١٩].

أو يقول: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت؛ كمن هو غير قائم عليه؟ ليسا بسواء.

وقال مقاتل: أفمن هو قائم على رزقهم وطعامهم.

ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ .

أي: وصفوا لله شركاء وعبدوها؛ والله أحق أن يعبد من غيره.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

يقول الله: أنا القائم على كل نفس؛ أرزقهم وأطعمهم؛ أفأكون أنا وشركائي الذين لا يفعلون ذلك سواء؟

والوجه فيه ما وصفنا: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت؛ أي: يرزق ويبصر[١] و[يعلم ما تعمل وتكسب ويحفظ][٢] عن أنواع البلايا؛ كمن هو أعمى جاهل عاجز عن ذلك كله؟ أي: ليس هذا كذلك. ويسفههم في إشراكهم الأصنام التي عبدوها في الألوهية والعبادة، وهي بالوصف الذي ذكر؛ كمن هو أعمى عاجز عن ذلك؟ أي: ليسا بسواء.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يحتمل قائم على كل نفس بما كسبت؛ فيما قدر لها وقواها أو في الجزاء يجزي على ما تكسب.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ في العبادة؛ أو في تسميتهم آلهة، لا يعلمون ما[٣] كسب لها، ولا يملكون جزاء ما كسبوا لها أيضًا.

يبين سفههم في جعلهم هذه الأصنام والأوثان شركاء لله في العبادة؛ وتسميتهم آلهة؛ مع علمهم أنهم لا يقدرون ولا يملكون شيئًا من ذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

قال بعض أهل التأويل[٤]: قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بذلك الاسم؛ ولو سموهم، [سموهم][٥] بكذب وباطل وزور.

وعندنا قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: لو سميتموها آلهة واتخذتموها معبودًا؛ فسموهم أيضًا بأسماء سميتم الله؛ من نحو: الخالق والرازق والرحمن والرحيم؛ ونحوه.

يقول - والله أعلم - إذ[٦] سميتم هذه الأصنام آلهة ومعبودًا[٧]، سموهم أيضًا: خالقًا ورازقًا ورحمانًا ورحيمًا، وهم يعلمون أنها ليست كذلك. والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أم تنبئون الله؛ وهو عالم بما في السموات وما في الأرض؛ وعالم بكل شيء، وهو لا يعلم في الأرض ما تقولون من الآلهة وما تصفونه بالشركاء؟! وكذلك يخرج قوله:

---

(١) في أ: ويصبر.
(٢) في أ: ويعمل ما نعمل ونكسب.
(٣) في أ: مما.
(٤) قاله الضحاك بنحوه، أخرجه ابن جرير (٢٠٤٤٤) وابن ابي حاتم وأبو الشيخ عنه ،كما في الدر المنثور (٤/ ١٢٠).
(٥) سقط في أ.
(٦) في أ: أو.
(٧) في أ: وسواء.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أم تنبئونه بما ليس في الأرض شيء مما تقولون وتصفون شيء؛ أي: يقول: أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات والأرض، وهو عالم بكل شيء؟ أي: تقرون بأنه عالم بكل شيء؛ وهو لا يعلم ما تقولون وتسمونه من الشركاء وغيره.

والثاني: أم تنبئونه بما لا يعلم؛ أي: ليس في الأرض.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾.

قال أهل التأويل[1]: ﴿بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أي: بل بباطل من القول وزور.

ويشبه أن يكون بظاهر من القول؛ أي: بضعيف من القول وخفيف، يسمون الشيء الذي لا حقيقة له ولا ثبات[2] ظاهرًا باديًا؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: ضعيف الرأي: وخفيفه؛ لا حقيقة له ولا قرار.

ويحتمل قوله: ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ في الخلق والأسلاف؛ أي: لم يظهر ما يقولون؛ ويصفون[3]؛ إشراك هذه الأصنام؛ وتسميتها آلهة ومعبودًا؛ فيكون (أم) في موضع حقيقة ويقين؛ على هذا التأويل والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾.

قال بعض أهل التأويل[4]: ﴿مَكْرُهُمْ﴾: قولهم الذي قالوه من الكذب والزور؛ أنها آلهة وأنها شركاء الله.

لكن يشبه أن يكون قوله: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي: مكرهم برسول الله ﷺ حيث احتالوا حيلا؛ ليقتلوه لئلا يظهر هذا الدين في الأرض، ويطفئون هذا النور؛ ليدوم عزهم وشرفهم في هذه الدنيا؛ وهو كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] والمكر: هو الاحتيال؛ والأخذ من حيث الأمن. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾.

صدوا؛ لما علموا من مكرهم واختيارهم ما اختاروا والسبيل، المطلق هو سبيل الله؛ وإلا كان جميع الأديان والمذاهب يسمى سبيلا؛ كقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾

---

(١) قاله قتادة والضحاك، أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٤٤٩، ٢٠٤٥٠) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٠).

(٢) في أ: ثابت.

(٣) في أ: ويضيفون.

(٤) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢٠٤٥١، ٢٠٤٥٢) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه ،كما في الدر المنثور (٤/ ١٢٠).

[الأنعام:١٥٣] لكن ما ذكرنا أن السبيل المطلق [هو][(١)] سبيل الله، والكتاب المطلق كتاب الله، والدين المطلق دين الله.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ .

من أضله الله فلا يملك أحدٌ هدايته، ومن هداه فلا يملك أحد إضلاله.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ .

العذاب لهم في الحياة الدنيا يحتمل: القتل والقتال؛ والخوف والجواع؛ وأنواع البلايا؛ كقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ. . .﴾ الآية [النحل:١١٢].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشد.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مالهم من عذاب الله من واقٍ يقيهم من عذابه.

وقوله - عز وجل-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ .

يحتمل: وصف الجنة التي وعد المتقون؛ أو صفة الجنة التي وعد المتقون. ويحتمل: [أي: شبه][(٢)] الجنة التي وعد المتقون.

كشبه النار التي وعد الكافرون؛ أي: ليسا بشبيهين ولا مثلين، لا تكون هذه مثل هذه ولا تشبهها؛ كقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ. . .﴾ الآية [محمد:١٥]، يقول -والله أعلم- يقول: الذي وصفه كذا من النعم الدائمة - كالذي يكون عذابه ووصفه كذا؛ أي: لا يكون؛ فعلى ذلك الأوّل.

وقوله - عز وجل-: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ .

أي: ثمار الجنة دائمة لا تزول ولا تنقطع؛ ليس كثمار الدنيا، ونعيمها ليس من ثمرة من ثمار الدنيا إلا وهي تزول وتنقطع في وقت؛ فأخبر أن ثمار الآخرة - وما فيها من النعيم - غير زائلة ولا منقطعة، وكذلك عذابها [دائم][(٣)] لا يزول.

﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضًا.

أخبر أن ظل الجنة لا يزول ولا ينقطع، لا يكون فيها شمس يزول ظلها بزوالها.

وصف جميع ما فيها بالدوام والمنفعة: الظل شيء لا أذى فيه؛ وفيه منافع، والشمس فيها أذى ومنافع، وكذلك جميع ما يكون من الأشياء في الدنيا؛ يكون فيها منافع ومضار؛ وأنها تزول وتنقطع؛ فأخبر أن ظل الآخرة وما فيها من النعم دائمة باقية؛ غير زائلة ولا

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.

منقطعة، ولا مضرة فيها؛ ليس كنعيم الدنيا وظلها. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ .

[أي: جزاء الكافرين النار][١]، ظاهر هذا أن يكون: الذين اتقوا تقى الشرك؛ لأنه ذكر عقبى الكافرين النار؛ أي: جزاء وعقبى ما ذكرنا؛ أي: تلك الجنة جزاء الذين اتقوا الشرك، وعقبى الكافرين النار؛ أي: جزاء [الكافرين][٢] النار. أو عقبى هذه للذين اتقوا الجنة، وعقبى أولئك النار.

وقال بعضهم: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: عاقبة أعمالهم وحسناتهم الجنة؛ وعاقبة أعمال الذين كفروا بتوحيد الله النار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ .

يشبه أن تكون الآية صلة قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]؛ فأخبر - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ؛ بذكر الرحمن.

ثم اختلف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ : قال بعضهم[٣]: أصحاب محمد؛ فرحوا بما أنزل إلى رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ : أهل التوراة يفرحون بما أنزل إليك يذكر هاهنا أنهم يفرحون بما أنزل إليك، ويذكر في موضع: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ [البقرة: ١٠٥] .

وقال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] فمن تلا منهم الكتاب حق تلاوته ولم يبدله ولم يغيره - فهو يؤمن به؛ ويفرح بما أنزل على محمد، ومن غيّره وبدّله- فهو لم يفرح [بما أنزل][٤] عليه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ تأويله -والله أعلم- كأنه قال: والذين آتيناهم منافع الكتاب أولئك يفرحون [بما أنزل][٥] إليك، وهو ما قال في آية

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢٠٤٥٣) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور (١٢١/٤).
(٤) في ب: بما لم ينزل.
(٥) سقط في أ.

أخرى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١] لأن أكثرهم [لا يؤمنون][(١)] بما أنزل على محمد.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.

يحتمل: أهل الكتاب كانوا ينكرون بعض ما أنزل إليه؛ لا ينكرون كل ما أنزل إليه؛ وإنما ينكرون نعته وصفته؛ لأنهم كتموا نعته وصفته التي في كتبهم.

ويحتمل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ مشركي العرب؛ وهم أيضًا أنكروا بعض ما أنزل إليه؛ وهو ما ذكر: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] في قوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ونحوه، لم ينكروا كله.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾.

كأن هذا قاله على إثر قول كان منهم؛ [كأنهم دعوه][(٢)] إلى أن يشاركهم في عبادة الأصنام، أو دعوه أن يكون على ما كان آباؤهم؛ فقال: قل إنما أمرت أن أعبد الله وأمرت ألا أشرك به.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قال ذلك من نفسه.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ يقول: إلى توحيد الله أدعو غيري ثم أخالف وأعبد غيره؟

﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: إليه المرجع.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: كما علمناك آدابًا وأعطيناك النبوة -كذلك أنزلنا عليك.

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قيل حكمة عربية، وكانت العرب لا تفهم الحكمة؛ أو أنزلنا ما فيه حكم. وتفسير قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ما ذكر [في آية][(٣)] أخرى؛ وهو قوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ . إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ١، ٢] سمى القرآن حكمًا؛ لأنه للحكم أنزل.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

هذا يدل أنهم كانوا يدعونه إلى أن يشاركهم في بعض ما هم فيه.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ينصرك ويمنعك من عذاب الله.

﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يعني العذاب.

---

(١) في أ: يفرحون.
(٢) في ب: كأن دعوهم.
(٣) في ب: في قوله آية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ .

قال بعض أهل التأويل[1]: نزل هذا وذلك: أن اليهود عيروا رسول الله، وطعنوا في كثرة النساء والأولاد؛ [وقالوا: لو كان نبيًّا على ما يزعم لكان لا يمتع بالنساء؛ ولا يطلب الأولاد][2] كما يفعله غيره؛ وكانت النبوة تشغله عن ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا . . .﴾ الآية، أي: الاستمتاع بالنساء واستكثاره [منهن][3] - لم يمنع عن الاختصاص بالنبوة والرسالة، على ما لم يمنع غيره من الرسل الذين كانوا من قبله. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

أي: لا يملكون إنزال الآيات من أنفسهم؛ إنما يتولى الله إنزالها إذا شاء ذلك؛ وهو كقول عيسى؛ حيث قال: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ. . .﴾ الآية [آل عمران: ٤٩] أخبر أن ما يأتي من الآيات إنما يأتيها بإذن الله وبأمره؛ لا من نفسه.

يحتمل أن يكون جواب ما ذكر أهل التأويل، وجواب غير ذلك أيضًا؛ وهو طعنهم الرسل بالأكل والشرب والمشي في الأسواق، وسؤالهم الآيات التي سألوهم، وجواب إنكارهم الرسل من البشر يقول: لست أنت بأول رسول طعنت بما طعنك[4] به قومك؛ ولكن كان قبلك رسل طعن قومهم بما طعن به قومك؛ وسألوهم من الآيات ما سأل به قومك؛ فلم يكن ذلك لهم عذرًا في رد ما ردّوا وترك ما تركوا؛ بل نزل بهم العذاب، فعلى ذلك قومك.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ .

اختلف فيه: قال قائلون: لكل كتاب أجل؛ وهي: الكتب التي أنزلت على الرسل؛ يعمل بها إلى وقت؛ ثم تنسخ أو يترك العمل بها.

وقال قائلون: هو ما قال: لكل أجل كتاب؛ أي: لكل ذي أجل أجله؛ إلى وقت انقضائه؛ ليس يراد به الكتابة باليد؛ ولكن الإثبات؛ كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) قاله البغوي في تفسيره (٣/ ٢٢).
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: طعن.

ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: أثبت؛ ليس أن كتب هنالك باليد، فعلى ذلك قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ أي: إثبات إلى وقت.

ويحتمل قوله: لكل كتاب أجل؛ أي: لكل ما كتب له الأجل؛ وجعل له الوقت؛ من العذاب ينزل بالمعاندين والنصر للرسل؛ فإنه لا يكون قبل ذلك الوقت، ولا يتأخر أيضًا عن ذلك الوقت؛ وهو كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ...﴾ الآية [الأعراف: ٣٤].

وقوله - عز وجل-: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ .

قال قائلون: قوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ المحو - هاهنا-: أن أنشأه[1] في الابتداء بمحو؛ ليس على أن كان مثبتًا فمحاه، ولكن أنشأه هكذا ممحوًّا[2]؛ وهو كقوله: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٢] ليس أنه كان منشأ كذا ثم محي؛ ولكن أنشأه في [الابتداء ممحوًّا][3]، وكقوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليس أنها كانت موضوعة [ثم رفعها][4]؛ ولكن أنشأها مرتفعة كما هي، فعلى ذلك هذا.

ثم يحتمل ذلك الأعمال التي كانت معفوّة[5] في الأصل؛ من [نحو][6] أعمال الصبيان؛ والأعمال التي لا جزاء عليها.

وقال قائلون: على إحداث محو؛ ثم هو يحتمل وجوهًا: [يحتمل:][7] ما ينسخ من الأحكام - فهو على محو الحكم به؛ والعمل ليس على محو نفسه؛ ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ : وهو ما لا ينسخ؛ ولا يترك العمل به والحكم.

ويحتمل المحو: محو الأحوال؛ وهو ما ينقل ويحول من حال إلى حال؛ من حال النطفة إلى حال العلقة، ومن حال العلقة إلى حال المضغة، يحوله وينقله من حال إلى حال أخرى؛ فذلك هو المحو.

ويحتمل المحو -أيضًا-: هو ما يختم به العمر؛ السعادة أو الشقاء: إذا كان كافرًا ثم أسلم في آخر عمره - محيت الأعمال التي [كانت له][8] في حال كفره؛ فأبدلت حسنات،

---

(١) في أ: إنشاءه.
(٢) في أ: بمحو.
(٣) في أ: الآية بمحو.
(٤) في ب: فرفعها.
(٥) في أ: عفوه.
(٦) سقط في أ.
(٧) سقط في أ.
(٨) سقط في أ.

وإذا كان مسلمًا ثم ختم بالكفر - محيت أعماله التي كانت له من الصالحات، فلم ينتفعوا بها.

أو أن يكون ما ذكر من المحو والإثبات: هو ما يكتب الحفظة من الأعمال والأفعال يمحي عنها ما لا جزاء لها ولا ثواب؛ ويبقي ما له الجزاء والثواب ويترك مكتوبًا كما هو.

أو يكون للخلق مقاصد في أفعالهم؛ والحفظة لا يطّلعون على مقاصدهم؛ فيكتبون هم ما هو في الحقيقة حسنة؛ لقصده سيئة؛ على ظاهر ما عمل(١)، أو حسنة في الظاهر؛ وهو في الحقيقة سيئة؛ فيغير(٢) ذلك؛ فيجعل ما هو في الحقيقة شر وفي الظاهر خير - شرًّا بالقصد، وما هو في الحقيقة خير وفي الظاهر شر- خيرًا.

أو [أن](٣) يكون في كتابة الحفظة لكنه من وجه آخر؛ وهو أن الحفظة يكتبون الأعمال؛ ثم يعارض ذلك بما في اللوح المحفوظ؛ فمحى من كتابة الحفظة من الزيادة؛ ويثبت فيها ما كان فيه من النقصان. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

هذا يحتمل: عنده الذي يعارض به كتب الملائكة.

ويحتمل: وعنده أُمّ الكتاب الذي يستنسخ منه الكتب التي أنزلت على الأنبياء والرسل؛ وهو [في](٤) اللوح المحفوظ.

وفيه دلالة أن اختلاف الألسن لا يوجب تغيير المعنى؛ لأنه لا يدري أن تلك الكتب في اللوح بأى لسان هى، ثم أنزل منه كل كتاب على لسان الرسول الذي نزل عليه، وكذلك الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم؛ لا يحتمل أن يكتبوا بلسان الخلق؛ لأنه يظهر لو كانوا يكتبون بلسان هؤلاء؛ فدل أنهم إنما يكتبون بلسان أنفسهم، فهذا كله يدل أن اختلاف اللسان لا يوجب اختلاف المعنى. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ .

كأنه صلوات الله وسلامه عليه طمع أو سأله أن يريه جميع ما وعد [له](٥)؛ من إنزال

---

(١) في أ: علمه.
(٢) في أ: فيغفر.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في أ.
(٥) سقط في ب.

العذاب عليهم، وأنواع ما وعد؛ فقال: إن شئنا نريك بعض ما وعدناهم، وإن شئنا نتوفاك[١] ولم نرك؛ فإنما عليك البلاغ؛ أي: ليس لك من الأمر شيء؛ أي: ليس إليك هذا إنما عليك البلاغ؛ وهو كقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨] إنما عليك كذا؛ فيخرج مخرج العتاب والتوبيخ؛ ليس مخرج الوعد والعدة؛ إذ قوله. ذا، وذا، بحرف شك [ولا يجوز أن يضاف إليه ذلك. وقوله. ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هذا في الظاهر حرف شك][٢]، فهو يخرج على الوعد أو على النهي عن سؤال كان من رسول الله ﷺ: فإن كان على النهي - فكأنه نهاه أن يسأل إنزال العذاب عليهم؛ يقول: إن شئنا أنزلنا وإن شئنا لم ننزل، وإن كان على الوعد؛ يقول: نريك بعض ما وعدنا؛ ولا نريك كله، وإلا ظاهره حرف شك.

وقوله: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ يحتمل حساب ما وعد وجزاءه، ويحتمل الحساب المعروف؛ الذي يحاسبهم يوم القيامة. والله أعلم. [أي: لا يتركهم هملًا سدى، أو قوله: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: إلينا الحساب، أو لنا الحساب، وذلك جائز في اللغة][٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾.

قد ذكرنا فيما تقدم أنه إنما هو حرف تعجب وتنبيه؛ فهو يخرج على وجهين:

أحدهما: على الخبر؛ أي: قد رأوا أنا فعلنا ما ذكر.

والثاني: على الأمر؛ أي: [رَوْا أَنَّا][٤] فعلنا ما ذكر؛ وهو ما ذكر من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩] أي: قد ساروا في الأرض؛ أو سيروا.

﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

قال بعضهم[٥]: هو ما جعل من أرض الكفرة للمسلمين؛ بالفتح لهم[٦]؛ والنصر على

---

(١) في أ: نتوفينك.
(٢) سقط في: أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: رأونا.
(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٥١٤، ٢٠٥١٥) وعن الضحاك (٢٠٥١٦) والحسن (٢٠٥١٧) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٧).
(٦) في ب: عليهم.

أولئك؛ والإخراج من سلطان أولئك الكفرة وأيديهم، وإدخالها في أيدى المسلمين؛ فذلك النقصان. [وهو][1] والله أعلم لما وعد لرسوله أن يريه بعض ما وعد لهم؛ فقال الكفرة عند ذلك: أين ما وعد أن يريك؟ فقال عند ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ أي: ألم يروا أنه جعل بعض ما كان لهم من الأرضين للمسلمين؛ فإذا قدر على جعل البعض - الذي كان لهم لهؤلاء؛ لقادر أن يجعل الكل لهم؛ فهلا يعتبرون.

هذا والله أعلم ما أراد بما ذكر من النقصان.

وقال قائلون[2]: نقصان الأرض: موت فقهائها وعلمائها وفنائها.

ووجه هذا: وهو أن الفقهاء والعلماء -هم عمّار الأرض وأهلها؛ وبهم صلاح الأرض؛ فوصف الأرض بالنقصان بذهاب أهلها، وهو كما وصف الأرض بالفساد؛ وهو قوله: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] فالأرض لا تفسد بنفسها؛ ولكن وصفت بالفساد؛ لفساد أهلها، فعلى ذلك لا تنقص هي بنفسها؛ ولكن وصفت بالنقصان؛ لذهاب أهلها، وعمارها وفقهائها وعلمائها.

ثم يحتمل ذهاب العلماء المتقدمين، الذين تقدموا رسول الله في الأمم السالفة؛ وهم علماء أهل الكتاب؛ فيقول ألا يعتبرون بأولئك الذين قبضوا وتفانوا من علمائهم؟ فلا بدّ من رسول يعلمهم الآداب والعلوم؛ ويجدد لهم ما دَرَس من الرسوم [وذهب][3] من الآثار؛ فكيف أنكروا رسالته؟ وفي بعث الرسول حدوث العلماء؛ وذلك وقت حدوث العلماء وزمانه؛ فإن كان أراد العلماء المتأخرين وفقهاءهم - فيخرج ذلك مخرج التعزية له؛ أي: تصير الأرض بحال توصف بالنقصان، بذهاب العلماء والفقهاء. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

قيل[4]: لا رادّ لحكمه، وحكمه: يحتمل: العذاب الذي حكم على الكفرة؛ يقول: لا رادَّ للعذاب الذي حكم عليهم؛ [وهو كقوله: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي:

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير (٢٠٥٣٣) وعبد الرزاق وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، كما في الدر المنثور.
وعن مجاهد أخرجه ابن جرير (٢٠٥٣٤) وابن أبي شيبة كما في الدر المنثور (٤/ ١٢٦).

(٣) سقط في أ.

(٤) قاله ابن جرير (٧/ ٤٠٨).

احكم بالعذاب الذي حكمت عليهم][1].

ويحتمل قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: لا يتعقب أحد حكمه؛ ولا يعقب أحد سلطانه؛ كما يكون في حكم الخلائق يتعقب بعض عن بعض، وكما ذكر في الحفظة: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١] يتعقب بعض عن بعض في الحفظ؛ وفيما سلطوا. والله أعلم.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا قد ذكرناه في غير موضع.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ .

أي: مكر الذين من قبلهم برسلهم؛ كمكر هؤلاء بك يصبر رسوله على أذاهم به.

ثم يحتمل المكر به وجهين:

أحدهما: مكروا بنفسه؛ همّوا قتله وإهلاكه.

والثاني: مكروا بدينه الذي دعاهم إليه وأراد إظهاره؛ هموا هم إطفاء ذلك وإبطاله وكذلك مكر الذين من قبلهم برسلهم يخرج على هذا. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ .

هذا أيضًا يخرج على وجهين:

أحدهما: يقول: فلله جزاء المكر جميعًا؛ يجزى كلا بمكره.

والثاني: أي: لله حقيقة المكر يأخذهم جميعًا بالحق من حيث لا يشعرون، وأما[2] هم فإنما يأخذون ما يأخذون لا بالحق ولكن بالباطل، ولا يقدرون على الأخذ من حيث لا يشعرون إلا قليلا من ذلك، فحقيقة المكر الذي هو مكر بالحق في الحقيقة لله لا لهم.

ويحتمل قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي: لله تدبير الأمر جميعًا، إن شاء أمضاه؛ وإن شاء منعه، إليه ذلك لا إليهم.

أو لله حقيقة المكر يغلب مكره مكر أولئك.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ من خير أو شرّ.

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ .

يشبه أن يكون عقبى الدار معروفًا عندهم؛ وهي الجنة؛ فيكون صلة قولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١] فيقول -والله أعلم- سيعلمون هم لمن عقبى الدار؛ أهي لهم أم هي للمؤمنين؟

أو أن يكون جواب قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦]

---

(١) سقط في ب.

(٢) في ب: فأما.

أنهم لما رأوهم مفضلين في أمر الدنيا ووسع عليهم الدنيا - ظنوا أن لهم في الآخرة كذلك؛ فقال ذلك جوابًا لهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قالوا.

﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: لن يبعثك الله رسولا، وهم كانوا يقولون كذلك له فأمره أن يقول لهم(١).

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إني نبي رسول الله إليكم بالآيات التي آتي بها، أو كان قال لهم ذلك(٢)؛ لما بالغ في الحجاج والبراهين في إثبات الرسالة والنبوة؛ فلم يقبلوا ذلك فأيس من تصديقهم؛ فعند ذلك قال:

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يعلم من كان عنده علم الكتاب؛ يعني التوراة؛ فيشهد أيضًا أني رسول نبي؛ أي: يعلم من كان عنده علم الكتاب أني على حق؛ وأني رسول الله؛ وهو كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً...﴾ الآية [الشعراء:١٩٧] وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣] ومن قرأ بالخفض: ﴿ومِنْ عِنْدِه عِلمُ الكتابِ﴾ فتأويله -والله أعلم-: أي: من عند الله جاء علم هذا الكتاب؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكذلك روي في بعض الأخبار؛ عن النبي ﷺ: أنه كان يقرأ: ﴿ومِنْ عِنْدِه عِلمُ الكتابِ﴾ بالخفض(٣)، وأما القراء جميعًا فإنهم يختارون النصب ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

قال أبو عبيد: وقرأ بعضهم: ومن عنده علم الكتاب بخفض الميم والدال ورفع العين؛ وقال: لكن لا أدري عمن هو.

وروي عن عبد الله بن سلام أنه قال: فيَّ نَزَلَ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (٤) هذا يؤيد أن يثبت قول أهل التأويل؛ حيث قالوا: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : عبد الله بن سلام وأصحابه. والله أعلم.

* * *

---

(١) في ب: لهم قل.

(٢) في أ: هنا.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٢٥) أنها قراءة الحسن وسعيد بن جبير وأخرجه أبو يعلى وابن جرير (٢٠٥٥٨) وابن مردويه وابن عدي بسند ضعيف عن ابن عمر أن النبي - ﷺ - قرأ ﴿ومِنْ عِنْدِه عِلمُ الكتابِ﴾ قال: من عند الله علم الكتاب. انظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٩).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٠٥٣٥، ٢٠٥٣٦) عنه، وعن مجاهد (٢٠٥٣٨، ٢٠٥٤٠، ٢٠٥٤١) وقتادة (٢٠٥٤٢، ٢٠٥٤٤) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٨).

سورة إبراهيم عليه السلام، قيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾.

قوله - عز وجل -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ : الر: كناية عن حروف مقطعة جعلها -بالحكمة- كتابًا.

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ : أي: جمعناها [وأنزلناها][(١)] وجعلناها كتابًا، أعني تلك الحروف المقطعة كتابًا؛ وأنزلناه إليك بعدما لم تكن تدري ما الكتاب؛ وهو كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ .

وما يضاف الإخراج إلى الله فإنه يكون بإعطاء الأسباب، وحقيقة ما يكون به الأفعال، وهي القدرة، وما يضاف الإخراج إلى الرسل؛ فإنه لا يكون إلا بإعطاء الأسباب؛ لأنه لا يملك أحد سواه إعطاء ما به يكون الفعل، ثم الأسباب تكون بوجهين:

أحدهما: الدعاء إلى ذلك.

والثاني: ما أتي بهم من البيان والحجة على ذلك؛ فهو الأسباب التي يملك الرسل إتيانها، وأما ما به حقيقة الفعل؛ فإنه لا يملكه إلا الله.

وقوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قيل: من الكفر إلى الإيمان، سمى الكفر: ظلمات؛ وهو واحد؛ لأنه يستر جميع منافذ الجوارح؛ من البصر والسمع واللسان؛ يبصر ما لا يصلح؛ ويسمع ما لا يصلح، وكذلك القول: يقول ما لا يصلح، وكذلك جميع الجوارح والإيمان يرفع ويكشف جميع الحجب والستور؛ ويضيء له كل مستور.

والثاني: قوله: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: من الشبهات إلى النور؛ أي: إلى الإيمان والهدى.

وقوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإخراج المضاف إلى الله والهداية تخرج

(١) سقط في أ.

على وجوه أربعة:

أحدها: يأمر ويدعوهم إلى ما ذكر.

والثاني: يكشف ويبين.

والثالث: يرغب ويرهب، حتى يرغبوا في المرغوب ويحذروا المرهوب.

والرابع: تحقيق ما يكون به الهداية؛ وذلك لا يكون إلا بالله؛ وهو التوفيق والعصمة، وأما الوجوه الثلاثة الأول فإنها تكون برسول الله ﷺ؛ يأمر ويدعو؛ ويرغب ويرهب؛ ويبين ويكشف. والله أعلم.

وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ كأنه قال: كتاب أنزلناه إليك؛ لتأمر الناس بالخروج مما ذكر إلى ما ذكر.

الثاني: أنزلناه لتخرج به الناس مما ذكر.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ .

قيل[١]: بأمر ربهم؛ أي: تدعوهم بأمر ربهم.

وقال قائلون[٢]: بعلم ربهم؛ أي: أنزل هذه الحروف المقطعة بعلمه.

والثالث: يحتمل بتوفيق ربهم الإذن من الله، يحتمل [أحد][٣] هذه الوجوه التي ذكرنا: الأمر والعلم والتوفيق.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ .

[العزيز الحميد][٤] هو الله؛ أي. يدعوهم إلى طريق الله الذي من سلكه نجا.

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ سمى عزيزًا؛ لأن كل عزيز به يعز، أو يقال: عزيز؛ لأنه عزيز بذاته ليس بغيره كالخلائق، أو العزيز: هو الذي لا يغلب[٥]، والحميد: هو الذي لا يلحقه الذم في فعله؛ كالحكيم: هو الذي لا يلحقه الخطأ في تدبيره.

وقال أهل التأويل: العزيز: المنيع، والحميد: الذي [هو][٦] يقبل اليسير من العبادة.

وقوله: - عز وجل-: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ .

من قرأ بالخفض صيّره موصولا بالأول، وجعله كلامًا واحدًا؛ وأتبع الخفض

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٢٥).

(٢) قاله البغوي (٣/ ٢٥).

(٣) سقط في ب.

(٤) سقط في أ.

(٥) في أ: يطلب.

(٦) سقط في ب.

بالخفض. ومن قرأ بالرفع: ﴿اللَّهُ الذي﴾ جعله مقطوعًا عن الأول [على][(١)] حق الابتداء؛ فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ذكر قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ ليعلم أنه بما يأمر الخلق؛ ويدعوهم إلى دينه؛ ويمتحنهم بأنواع المحن لا يفعل ذلك لمنافع نفسه أو لحاجته[(٢)] في ذلك؛ بل لحاجة الممتحنين ولمنافعهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

قال قائلون: الويل: [هو][(٣)] الشدة، وقيل: الويل: هو اسم وادٍ في جهنم.

وقال الأصم: الويل: هو نداء كل مكروب وملهوف من شدة البلاء، وقول الحسن كذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وصف أولئك الذين ذكر أن فيهم الويل من هم؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: آثروا واختاروا الحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: رضوا بها واطمأنوا فيها؛ كقوله: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس:٧] اختاروا الحياة الدنيا للدنيا؛ لم يختاروا للآخرة؛ فالدنيا أنشئت لا للدنيا ولكن إنما أنشئت للآخرة؛ فمن اختارها لها؛ لا ليسلك بها إلى الآخرة -ضلّ وزاغ عن الحق.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [وهو ما ذكرنا][(٤)]: يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة؛ حتى يلهوا عن الآخرة؛ ويسهوا فيها ويغفلوا، وإلا أهل الإسلام ربما يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، وهو ما ذكرنا: أنهم يختارون ذلك للآخرة، وأولئك للدنيا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

يحتمل ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: وجهين:

أحدهما: أعرضوا هم بأنفسهم.

والثاني: صرفوا الناس عن سبيل الله؛ الذي من سلكه نجا، [لكن][(٥)] إنما يتبين ويظهر ذلك بالمصدر صدَّ يصدُّ صدًّا: صرف غيره، وصدَّ يصدّ صدودًا: أعرض هو بنفسه.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: لحاجة.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في أ.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ .

أي: طعنًا وعيبًا فيه، دلَّ هذا على أن الآية في الرؤساء منهم والقادة الذين كانوا يصدون الناس عن سبيل الله ويبغون في دين الله الطعن والعيب؛ فما وجدوا إلى ذلك سبيلا قط.

وقوله - عز وجل-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ .

الضلال: يحتمل وجوهًا:

يحتمل: ﴿الضلال﴾: أي: هلكوا هلاكًا لا نجاة فيه قط.

ويحتمل الحيرة والتيه؛ أي: تحيروا فيه وتاهوا حتى لا يهتدوا أبدًا.

ويحتمل ﴿الضلال﴾ البطلان؛ أي: في بطلان بعيد؛ حتى لا يصلحوا أبدًا، وهو في قوم علم الله أنهم لا يهتدون أبدًا؛ ويختمون[١] على الضلال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ .

لو كان غيره من الكتب أرسلت بغير لسان الأمم لكان هذا الكتاب يجب أن يكون مبعوثًا بلسان قومه؛ لأنه جعل هذا الكتاب نفسه حجة وآية لرسالته؛ لأنهم يعجزون عن إتيان مثله؛ وهو كان بلسانهم؛ ليعلموا أنه [جاء من الله][٢]؛ إذ لو كان من اختراع الرسول - لقدروا [هم][٣] على اختراع مثله؛ لأن لسانهم مثل لسانه، فإذا عجزوا عن إتيان مثله - دلَّ أنه منزَّل من الله تعالى لا من عند الخلق.

ثم يحتمل قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ وجوهًا:

قال قائلون: هذا بعد ما اختلفت الألسن؛ أرسل هذا وفيه أنباء أوائلهم الذين كان

---

(١) في ب: يجتمعون.
(٢) في ب: من الله جاء.
(٣) سقط في أ.

لسانهم غير لسان هؤلاء، وأخبارهم ليعلموا أنه إنما عرف تلك الأنباء والأخبار التي كانت بغير لسانهم بالله.

وقال بعضهم: أرسل بلسان قومه؛ لئلا يكون لهم مقال كقوله: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ...﴾ الآية [فصلت: ٤٤].

والثالث: أنه إذا كان بلسانهم يكون آلف وأقرب إلى القبول؛ من إذا كان بغيره؛ إذ كل ذي نوع وجنس يكون بجنسه ونوعه آلف من غير نوعه وجوهره؛ [وهو][1] كقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] إذ ليس في وسع البشر رؤية الملك والنظر إليه على ما هو عليه، فعلى ذلك. كل ذي لسان يكون بلسانه أفهم وأقرب للقبول وآلف من غيره[2].

وقوله - عز وجل-: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

قال قائلون: ليكون أبين لهم وأفهم.

وقال قائلون: ليبين لهم فيفهموا قول رسولهم.

وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يضل الله من آثر سبب الضلال، ويهدي من آثر سبب الذي به يهتدي؛ يهديه ذلك.

وقال قائلون: يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء: هذا حكم الله؛ أن يضل المكذبين ويهدي المصدقين، لكن الوجه فيه ما ذكرنا بدءًا [أنه][3] يضل من آثر سبب الضلال؛

---

(١) سقط في أ.

(٢) ومعنى الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه.
فإن قيل: هذه الآية تدل على أن النبي المصطفى -صلوات الله عليه وسلامه- إنما بعث للعرب خاصة فكيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﷺ «وبعثت إلى الناس عامة».
فالجواب: بعث إلى العرب بلسانهم والناس تبع لهم، ثم بعث الرسل إلى الأطراف يدعوهم إلى الله - تعالى - ويترجمون لهم بألسنتهم.
وقيل: المراد من قومه أهل بلدته، وليس المراد من قومه أهل دعوته؛ بدليل عموم الدعوة في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وإلى الجن أيضًا؛ لأن التحدي ثابت لهم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٨].
قال القرطبي: (ولا حجة للعجم، وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي - صلوات الله عليه وسلامه - ترجمة يفهمها لزمته الحجة وقد قال الله - عز وجل-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقال - عليه الصلاة والسلام-: «أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه».
ينظر: اللباب (١١/٣٣٦).

(٣) سقط في أ.

ويهدي من يشاء [هذا حكم الله: أن يضل المكذبين ويهدي المصدقين][١]؛ أي: من آثر سبب الاهتداء.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العزيز][٢]؛ لأن جميع الخلائق مفتقرون إليه لأنه يعزّ من عزّ.

أو أن يكون العزيز: هو الذي لا يغلب، والحكيم: هو الذي لا يلحقه الخطأ في الحكم والتدبير، أو الحكيم في بعث الرسل وفي جميع فعله، ولم يؤخذ عليه في فعله خطأ قط، مصيبٌ وضع كل شيء موضعه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ .

يحتمل آياته: حججه وبراهينه التي أرسل بها على وحدانية الله وألوهيته.

ويحتمل آياته: التي بعثها إلى موسى ليقيمها على رسالته. إن شئت قلت: آياته: حججه وإن شئت سميتها أعلامًا، والآيات والأعلام والحجج -كله واحد؛ فيكون أعلام وحدانية الله وألوهيته أو أعلام رسالته.

وقال قائلون: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: بديننا، أي: أرسلنا موسى بديننا، ليدعوهم إليه.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ .

وعلى ذلك بعث جميع الرسل والأنبياء، بعثوا ليخرجوا قومهم من الظلمات إلى النور، وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ .

التذكير: هو العظة؛ أي: عظهم بأيام الله.

قال قائلون[٣]: أيام الله: نعمه.

قال قتادة: أمره[٤] أن يذكرهم بنعم الله التي أنعمها عليهم؛ فإن لله عليكم أيامًا من النعم؛ كأيام القوم؛ كم من خير قد أعطاه الله تعالى لكم؛ وكم من سوء [قد][٥] صرفه

---

(١) سقط في ب.

(٢) سقط في أ.

(٣) ورد في معناه حديثٌ مرفوع عن أبي بن كعب ،أخرجه ابن جرير (٢٠٥٧٩) والنسائي وعبد الله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب، كما في الدر المنثور (٤/ ١٣٢).
وهو قول مجاهد أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٥٦٧، ٢٠٥٧٤) وعن سعيد بن جبير (٢٠٥٧٥) وقتادة (٢٠٥٧٦، ٢٠٥٧٧).

(٤) في ب: أمرهم.

(٥) سقط في ب.

الله تعالى عنكم، [وكم من كرب نفسه الله تعالى عنكم][١]، وكم من غَمٍّ[٢] فرجه الله تعالى عنكم؛ فاللهم ربنا لك الحمد.

وقال قائلون[٣]: أيام الله: وقائعه؛ أي: ذكّرهم بوقائع الله في الأمم السالفة؛ كيف أهلكهم لما كذبوا [الرسل][٤].

هذا يحتمل: أن يذكرهم بنعم الله التي كانت على المصدقين بتصديقهم؛ وهو ما أنجى المصدقين من التعذيب والإهلاك؛ إهلاك تعذيب.

أو ذكر المكذبين منهم بالوقائع التي كانت على أولئك بالتكذيب؛ وهو الإهلاك.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: الأيام المعروفة نفسها، أمره أن يذكرهم بها؛ لأن الأيام تأتي بأرزاقهم؛ وتمضي بأعمالهم وأعمارهم؛ إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر، وتفني أعمارهم وآجالهم، وفيما تأتى بأرزاقهم نعمة[٥] من الله عليهم، وفي ذهاب أعمارهم وآجالهم إظهار سلطان الله وقدرته، فأمره أن يذكرهم بذلك. والله أعلم.

هذا يشبه أن يكون أمر موسى أن يذكر بني إسرائيل ما كان عليهم من فرعون؛ من أنواع التعذيب، ثم الإنجاء من بعد، يقول -والله أعلم- ذكّرهم الأيام الماضية وما يتلوها، وهذا أشبه وأقرب. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قد ذكرنا أن الصبر: هو كف النفس عن معاصي الله وعن جميع مناهيه، والشكر: هو الرغبة في طاعته، أخبر أن فيما ذكر آيات لمن كف نفسه عن المعاصي؛ ورغب في طاعته، لا لمن تطاول على الرسل؛ وتكبر عليهم؛ وترك إجابتهم؛ ولم يرغب فيما دعوه إليه، ليس لأمثال هؤلاء عبرة وآية ولكن لمن ذكرنا.

ويشبه أن يكون الصبار والشكور كناية عن المؤمن لأن كل من[٦] آمن بالله ووحّده - اعتقد الكفّ عن جميع معاصيه، والرغبة في كل طاعته، وإن كان يقع أحيانًا في معصيته[٧]، فكأنه قال: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، على ما ذكر في غيره من الآيات؛

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: كرب.
(٣) قاله مقاتل، كما في تفسير البغوي (٣/ ٢٦).
(٤) سقط في أ.
(٥) في أ: نعم.
(٦) في أ: مؤمن.
(٧) في ب: معصية.

من ذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] و ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]؛ ونحوه. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

يشبه أن يكون [هذا][(١)] على الإضمار؛ وهو ما ذكر في آية أخرى؛ أي: اذكروا نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا...﴾ الآية [المائدة: ٢٠].

واذكروا أيضًا: ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ قيل يعذبونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

وقال قائلون: يكلفونكم سوء العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

السوم: الإذاقة والتعريض؛ يقال: سامني كذا: أي: أذاقني وعرضني، ويقال: سمت الدابة على الحوض: أي: عرضتها.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ هذا أيضًا قد ذكرناه؛ فيما تقدم في سورة البقرة والأعراف. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾.

قال بعضهم[(٢)]: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ قال ربكم. وقيل[(٣)]: إذ أعلم ربكم وأخبر، والعرب ربما قالت: أفعلت في معنى تفعلت؛ فهذا من ذلك[(٤)]، ومثله في الكلام: أوعدني وتوعدني؛ وهو قول الفراء، وحقيقته: وعد ربكم أو كفل ربكم؛ لئن شكرتم لأزيدنكم، لم يقل: لئن شكرتم نعمة كذا، ولا بيّن أي نعمة: النعم كلها، أو نعمة دون نعمة، ولا قال: شكرتم بماذا، وقال لأزيدنكم؛ لم يذكر الزيادة في ماذا؛ ومن أي: شيء هي.

فيشبه أن يكون قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ بالتوحيد؛ أي: وحدتم الله في الدنيا؛ فيما خلقكم خلقًا؛ وركّب فيكم ما تتلذذون وتتنعمون في الدنيا؛ وفيما قومكم من أحسن تقويم. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ النعم الدائمة في الآخرة؛ فيصير على هذا التأويل كأنه قال: لئن أتيتم شاكرين في الآخرة لأزيدنكم النعم الدائمة، وإلى هذا يذهب ابن عباس رضي الله عنه؛ أو قريب منه؛ ألا ترى أنه قال:

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: ولئن كفرتم ولم توحدوه؛ وأشركتم غيره فيه؛

---

(١) سقط في ب.
(٢) قاله ابن مسعود وابن زيد ،أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٥٨٣، ٢٠٥٨٤).
(٣) قاله البغوي في تفسيره (٣/ ٢٧).
(٤) في ب: ذاك.

وصرفتم شكر تلك النعم إلى غيره إن عذابي لشديد.

ويحتمل أن يكون كل نعمة يشكرها يزيد له من نوعها في الدنيا؛ ويدوم ذلك له.

وفي قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لطف وفضل؛ لأن الشكر هو المجازاة والمكافأة لما سبق، والله تعالى لا يكافئ فيما أنعم؛ لأنهم يستزيدون لأنفسهم الزيادة بالشكر الذي ذكر؛ فهو ليس بشكر في الحقيقة، لكن هذا [منه لطف][(١)] ذكره؛ وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ الآية [الحديد:١٨] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم...﴾ الآية [التوبة:١١٠] فهذه الأنفس والأموال في الحقيقة لله؛ ليست لهم؛ فهم فيما يقرضون، [يقرضون][(٢)] لأنفسهم، وكذلك في الشراء يشترون لأنفسهم من مولاهم، لكنه ذكر شراه [من أنفسهم][(٣)]؛ لطفًا منه وفضلا؛ فعلى ذلك فيما ذكر من الشكر له يطلبون الزيادة لأنفسهم؛ لطفًا منه، وإن كان الشكر في الظاهر موضوعه المكافأة لما سبق، فهو فيما بين الرب والعباد ليس بمكافأة؛ ولكن سبب الزيادة، ولكن سمي شكرًا؛ لطفًا منه وفضلا على ما ذكر التصدق قرضًا؛ والله أعلم، ألا ترى أنه قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني [بذاته، ليس يأمر ما يأمر لحاجة نفسه، ولا لمنفعة له، ولكن ما امتحنكم إنما امتحنكم لحاجة أنفسكم، ولمنفعة أبدانكم. وقال بعضهم[(٤)]: قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني][(٥)] عن عبادة خلقه؛ حميد عند خلقه؛ وهو ما ذكرنا أنه ليس يأمرهم فيما يأمر لمنفعة نفسه أو لحاجة نفسه؛ ولكن لمنافع تحصل للخلق ولحوائج تبدو لهم، وكذلك النهي عما ينهى ليس ينهى لخوف مضرّة تلحقه؛ ولكن للضرر يلحقهم ولآفة تتوجه إليهم.

يخبر - عز وجل - عن غناه؛ عما يأمر خلقه من طاعته وعبادته وتوجيه الشكر إليه.

والحميد: هو الذي لا يلحقه الذم في فعله، يقول -والله أعلم-: إنهم؛ [وإن كفروا][(٦)] وكان علم الله منهم أنهم يكفرون؛ فعلمه بذلك لا يجعله في إنشائهم مذمومًا. والله أعلم.

---

(١) في ب: لطف منه.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) قاله علي بن أبي طالب ،أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٥٨٩).
(٥) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٦) سقط في ب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ...﴾ الآية.

يشبه أن يكون الخطاب لأهل الإيمان منهم، والرسل خاطبهم - عز وجل - تصبيرًا [منه لهم][1] وتنبيهًا على تكذيب الكفرة إياهم؛ وأذاهم واستهزائهم بهم؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: قد أتاكم نبأ الذين من قبلكم ما فيه مزجر لكم عن مثل معاملتهم الرسول، وهو ما ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] إنه نزل بهم بتكذيبهم الرسل والاستهزاء بأتباعهم، يذكر[2] هذا لهم؛ ليهون ذلك عليهم وليخف؛ لأن من علم أن له شركًا فيما بُلي به واستحن كان ذلك [عليه أهون][3] وأخف من أن يكون هو المخصوص به.

ويحتمل أن يكون الخطاب لأهل الكفر منهم؛ يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: قد أتاكم خبر الذين من قبلكم؛ [أنه ماذا أنزل بهم بتكذيبهم الرسل واستهزائهم بأتباعهم؛ فينزل بكم][4] ما نزل بهم؛ لأن الذي أنزل ذلك عليهم حي قادر على إنزال مثله؛ فيخرج ذلك مخرج [التوقيح و][5] التوبيخ والتعيير والوعيد؛ ليحذروا

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: يذكرهم.
(٣) في ب: أهون عليه.
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في أ.

عن صنيع أولئك. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ .

فيه دلالة أن تكلف معرفة الأنساب وحفظها إلى آدم شغل وتكلف؛ لأنه أخبر أن فيهم من لا يعلمه إلا الله وروي في الخبر أنه كان ينسب إلى مُضَر، ولا ينسب إلى أكثر من ذلك.

قال أبو بكر الأصم: قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [يكذب من ادعى معرفة الأنساب المتقدمة؛ لأنه قال: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾][١] وقد أخبر أيضًا أنه لم يقصّ عليه خبر الكل بقوله: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨] فمن البعيد أن يتكلف تعرف ما لم يقصّ على رسوله والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ .

قيل: البينات: بينات على وحدانية الله وألوهيته، ويحتمل الحجج التي أتوا بها الرسل على إثبات الرسالة والنبوة.

وقال بعضهم: البينات: ما يتّقون، وما يأتون، وما يحل عليهم وما يحرم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ .

يحتمل أن يكون هذا على التمثيل والكناية عن التكذيب وترك الإجابة؛ لأن رد الأيدى في أفواههم يمنعهم عن التصديق؛ كقوله: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ . . .﴾ الآية [الرعد: ١٤] إذا ترك إجابته، وقوله: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وأمثاله.

ويشبه أن يكون على تحقيق جعل الأيدي في أفواههم، ثم يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ : في أفواه الرسل: فيقولون إنكم كذبة.

ويحتمل: ردّ الأيدي في أفواه أنفسهم يصوتون ويستهزئون بهم وبأتباعهم؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٣٥] وقد ذكرنا معناه في موضعه؛ فعلى ذلك [هذا يحتمل ذلك،][٢] والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ . . .﴾ الآية.

[وقد ذكرنا معناه][٣]؛ يحتمل قوله: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ التوحيد؛ لأنهم أرسلوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له، يدل على ذلك قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.

مُرِيبٍ﴾ وقول الرسل ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ . . .﴾ الآية.

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من إثبات الرسالة، وإقامة الحجة عليها، ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ من التصديق بالرسالة والنبوة.

﴿مُرِيبٍ﴾ : هذا يدل أنهم كانوا على شكّ مما يعبدون من الأوثان والأصنام؛ لأنهم لو كان لهم بيان في ذلك وحجة ودعاء إليه؛ لكانوا لا يقولون: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ولكن كانوا يقطعون فيه القول؛ فدل أنهم كانوا [على شك وريب][(١)]؛ في عبادتهم الأصنام والأوثان التي عبدوها.

ثم الشك والريب؛ قال بعضهم: هما سواء، وقال بعضهم: الشك: هو الشك المعروف، والريب: هو النهاية في الشك.

وقال بعض أهل التأويل[(٢)] في قوله - تعالى-: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ : أي: عضوا على أصابعهم غيظًا على ما دعوا.

وقال بعضهم[(٣)]: ردوا عليهم قولهم أو كذبوهم، وهو ما ذكرنا بدءًا؛ وقال: ردوا عليهم بأفواههم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ﴾ .

أي: أفي ألوهية الله شك؛ أو في عبادة الله شك؟ أي: ليس في ألوهيته ولا في عبادته شك [إذ تقرون أنتم أنه إله وأنه معبود، وكذلك أقر آباؤكم أنه إله وأنه معبود، فليس في ألوهيته ولا في عبادته شك][(٤)]؛ إنما كان الشك في عبادة من تعبدون دونه، من الأوثان والأصنام وألوهيتها؛ لأن آباءكم أقروا بألوهية الله وأنه معبود، حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وقالوا : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وأقروا أنه خالق السموات والأرض، وفاطر جميع ما فيهما بقولهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وإن الأصنام التي عبدوها لم تخلق شيئًا؛ فليس في الله شك عندكم إنما الشك فيما تعبدون دونه؛ أو في وحدانية الله.

أو يقول: أفي الله شك أنه معبود؛ أي: ليس في الله شك أنه لم يزل معبودًا إنما الشك

---

(١) في ب: في شك مريب.

(٢) قاله ابن مسعود ،أخرجه ابن جرير (٢٠٥٩٤-٢٠٦٠٣)، وعبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٣٥).

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢٠٦٠٦، ٢٠٦٠٨) وأبو عبيد وابن المنذر عنه ،كما في الدر المنثور (٤/ ١٣٥).

(٤) سقط في أ.

في الأصنام التي قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى؛ فأما في الله فلا شك أنه لم يزل معبودًا فاطر السموات والأرض.

يشبه أن يكون على الإضمار؛ أي: أفي الله شك وقد تقرون أنه فاطر السموات والأرض، وتعلمون أنه خالقهما.

ويحتمل أن يكون على الاحتجاج؛ أي: أفي الله شك وهو فاطر السموات والأرض؟! أي: تعلمون أنه فاطر السموات والأرض وتقرون أنه خالقهما.

وقوله - عز وجل -: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ .

هذا يحتمل [وجهين: يحتمل][1]: ليغفر لكم ذنوبكم التي كانت لكم في حال الفترة إذا أسلمتم.

وفيه دلالة - والله أعلم -: أن المآثم التي كانت لهم في وقت الفترة -مأخوذة عليهم؛ ثم وعد لهم المغفرة إذا أسلموا.

والثاني: وعد المغفرة والتجاوز؛ لما كان منهم من الافتراء على الله؛ والقول فيه بما لا يليق به؛ إذا أسلموا وتابوا عن ذلك؛ أي: إنكم، وإن افتريتم على الله وقلتم فيه ما قلتم؛ وكذبتم رسله، فإذا أسلمتم وتبتم وصدقتم رسله - غفر لكم ذلك كله وفيه ذكر لطفه وحسن معاملته خلقه[2].

ويحتمل أيضًا قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ جواب ما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

[ويحتمل أيضا قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾][3] يقول: إذا أسلمتم وتبتم لا تتخطفون، ولكن تبلغون إلى آجالكم المسماة ويؤخركم إلى أجل مسمى.

يتعلق المعتزلة بظاهر هذه الآية أن لكل إنسان أجلين: أجل في حال إذا كان فعل فعل كذا، وأجل في حال إذا فعل كذا؛ لكن جعل الأجلين إنما يكون بجهل في العواقب ممن يجهل العواقب، فأمّا الله سبحانه وتعالى فهو عالم بما كان ويكون؛ فلا يحتمل أن

---

(١) سقط في أ.

(٢) قال ابن الخطيب: دلت الآية على أنه -تعالى- يغفر الذنوب من غير توبة في حق المؤمن؛ لأنه قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وعد بغفران الذنوب مطلقا من غير اشتراط التوبة؛ فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقا من غير التوبة، وذلك البعض ليس هو الكفر؛ لانعقاد الإجماع على أنه - تعالى - لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان؛ فوجب أن يكون البعض الذي يغفر من غير التوبة ما عدا الكفر من الذنوب.
ينظر: اللباب (١١/ ٣٥١).

(٣) سقط في ب.

يجعل له أجلين؛ وهو عالم بما يكون؛ فإنما جعله أجله بالذى علم أنه يكون منه؛ في الوقت الذي جعله، والله الموفق.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

في قولهم تناقض من وجهين:

أحدهما: أنهم تركوا طاعة رسلهم واتباعهم؛ لأنهم بشر مثلهم؛ [ثم أطاعوا آباءهم واتبعوهم في عبادة الأصنام، وهم بشر مثلهم][1] حيث قالوا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فذلك تناقض في القول.

والثاني: أنهم لم يروا الرسل متبوعين؛ [لأنهم][2] بشر ثم لا يخلو هم بأنفسهم من أن يكونوا متبوعين استتبعوا غيرهم دونهم، أو كانوا أتباعًا لغيرهم؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فذلك تناقض في القول.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

سألوا الحجة على ما دعوا إليه من ألوهية الله تعالى وربوبيته، أو على ما ادعوا من الرسالة من الله، وفي كل شيء وقع عليه بصرهم دلالة وحدانية الله وألوهيته، لكنهم سألوا ذلك سؤال تعنت وعناد، وكذلك قد أقاموا الحجج على ما ادعوا من الرسالة؛ لكنهم تعاندوا وكابروا في ردّ ذلك فسألوا سؤال آية وحجة؛ تضطرهم وتقهرهم على ذلك، أو يكون عند إتيانها هلاكهم؛ فأجابهم الرسل فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان لنا أن نأتيكم بآية تكون بها هلاككم؛ إنما ذلك إلى الله: إن شاء فعل؛ وإن شاء لم يفعل.

وقوله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

أي: ما نحن إلا بشر مثلكم، [ولكن الله يمن على من يشاء، في دلالة][3] رد قول الباطنية؛ لأنهم ينكرون كون الرسالة في جوهر البشرية؛ ويقولون: إنما تكون الرسالة في جوهر الروحانية؛ فهم -صلوات الله عليهم وسلامه- إنما أجابوا قومهم؛ حيث قالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا؛ وقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لم يذكروا شيئًا سوى البشرية؛ فدل أن قول الباطنية باطل؛ حيث قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.

فيه دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يختص أحدًا بالرسالة؛ إلا من كان منه ما يستحق به الرسالة؛ وهم صلوات الله عليهم؛ لم يذكروا سوى منة الله عليهم، دل أنه يمن عليهم ويختصهم؛ لا بشيء [من الاستحقاق و](١) يكون منهم من الأعمال؛ ولكن بالمنة(٢) والفضل منه عليهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .

هو ما ذكرنا: الإذن موضوعه الإباحة، هو مقابل الحجر؛ لكن الإذن المذكور في القرآن ليس كله على وجه واحد؛ ولكن يتجه في كل موضع ويحتمل على ما يليق(٣) به، قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: بنصر الله؛ لأن الهزيمة هي موضع النصر؛ تحمل عليه، وقال: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي: بإنشاء الله؛ [فعلى ذلك الإذن هاهنا؛ حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإنشاء الله](٤) السلطان وإجرائه على أيدينا.

ويحمل الإذن المذكور في القرآن على ما يصلح ويليق بما تقدم ذكره.

ويحتمل الإذن هاهنا الأمر؛ أي: بأمر الله نأتي أي: إن أمرنا الله بذلك نأتى به.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

يشبه أن يكون ذكر هذا على إثر وعيد وأذى كان منهم إليهم؛ فقالوا: على الله يتكل ويعتمد المؤمنون في دفع وعيدكم وأذاكم.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: على الأمر؛ أي: على الله توكلوا أيها المؤمنون؛ في جميع ما يتوعدكم أهل الكفر؛ وفي جميع أموركم.

ويحتمل على الإخبار عن صنيع المؤمنين أنهم إنما يتوكلون على الله، [وبه يعتمدون](٥) في جميع أمورهم؛ ومنه يرون كل خير وبرّ، لا بالأسباب التي لهم ولا يرون منها. وأما أهل الكفر فإنما يتوكلون ويعتمدون بالأسباب؛ ومنها يرون كل سعة وخير. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ .

كأن هذا يخرج على إثر جواب كان منهم؛ لما قال الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: المنة.
(٣) في أ: يتعلق.
(٤) سقط في ب.
(٥) في ب: ويعتمدون به.

بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فأجابوهم بحرف؛ فعند ذلك قال الرسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لكنه لم يذكر ما كان منهم؛ ولكن ذكر جواب الرسل لهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ قال بعضهم: وقد بين لنا سلوك سبلنا.

وعندنا قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: وفق لنا السلوك في السبل التي علينا أن نسلكها؛ وأكرم لنا ذلك؛ أي: ما لنا ألا نتوكل عليه في النصر والظفر عليكم؛ وقد وفقنا وأكرمنا السلوك في السبل التي علينا سلوكها، وذلك أعسر من القيام للأعداء والنصر بهم؛ وقد أكرمنا ما هو أعسر وأعظم؛ فإن ينصرنا أولى. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾.

يحتمل أن يكون هذا قبل أن يأمروا بالقيام لهم والاستنصار منهم؛ أمروا بالصبر على أذاهم؛ فقالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أنهم قالوا ذلك؛ لما كان أهل الكفر في كثرة؛ وكان أهل الإسلام وأتباع الرسل في قلة؛ يستقلون أهل الإسلام ويعاتبون على ذلك؛ فقالوا عند ذلك: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالنصر على أعدائنا؛ والغلبة عليهم، وقد أكرمنا بما ذكر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كأنه يخرج على الأمر؛ أي: على الله فتوكلوا؛ لا تتوكلوا [على][1] غيره.

ويشبه أن يكون على الخبر؛ أي: لا يتوكل المؤمن إلا على الله؛ لا يتوكل على غيره؛ كقول الرسول حيث قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ الآية [هود:٥٦] وهو قول هود، وقول المؤمنين: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا...﴾ الآية [الأعراف:٨٩] ونحوه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾.

الإخراج يحتمل وجوهًا ثلاثة:

أحدها: على حقيقة الإخراج من البلد إلى غيره من البلدان والأرضين.

ويحتمل الإخراج: الحبس ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾؛ أي: لنحبسنكم عن [الانتفاع بالبلد][2] وبأهله وبما فيه، ويحتمل الإخراج: القتل؛ أي: نقتلنكم؛ وقد كان أهل الكفر يوعدون ويخوفون الرسل وأتباعهم بهذه الثلاثة؛ كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآية

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: الانتفاع بها بالبلد.

[الأنفال: ٣٠] ونحوه.

ثم في وعيدهم الذي أوعدوا الرسل وجوهًا ثلاثة حيث تجاسروا إقبال الرسل بمثل هذا الوعيد ومع الرسل آيات وحجج:

أحدها: أنهم رأوا أنفسهم مسلّطين على أولئك؛ قاهرين عليهم، وكانوا أهل كبر وتجبر؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] دل هذا أنهم كانوا رأوا أنفسهم -كما ذكرنا- أهل تسليط وتجبر.

والثاني: قالوا ذلك لهم؛ لما لم يكن عندهم ما يدفعون حجج الرسل وبراهينهم؛ فهمُّوا قتلهم وإخراجهم؛ لعجزهم عن دفع ما ألزمهم الرسل، وهكذا الأمر المتعارف بين الخلق: أنّ الخصم لا يقصد إهلاك خصمه؛ ما دام له الوصول إلى الحجاج؛ فإذا عجز عن ذلك فعند ذلك يهمّ بقتله ويقصد إهلاكه.

والثالث: جواب الرسل إياهم عند القول إليه بالقول الذي ليس فوقه أحسن منه.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ .

الملة: الدين؛ كقوله [ﷺ]: «لا يتوارث أهل الملتين»[1] وقوله [تعالى]: ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] أي: دين إبراهيم.

وقوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ ليس أنهم كانوا فيها وتركوها؛ ولكن على ابتداء الدخول فيها على ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وعد لهم النصر؛ والظفر عليهم؛ والتمكين في أرضهم مع قلة [عدد][2] أتباع الرسل وضعف أبدانهم؛ ومع كثرة الأعداء وقوة أبدانهم؛ ليعلموا أنهم قالوا ذلك بوحي من الله؛ ووعده إياهم، لا من حيث أنفسهم، والله أعلم. فكان على ما أخبروا؛ فكان ذلك من آيات رسالتهم، وما ينبغي لهم أن يطلبوا [لهم][3] من الرسل الآيات والحجج على ما ادعوا؛ لأنهم لم يدعوهم إلى طاعة أنفسهم أو عبادتها؛ إنما دعوهم إلى وحدانية الله تعالى وألوهيته، وجعل الطاعة والعبادة له دون ما عبدوها من الأصنام، وذلك في شهادة خلقتهم؛ وشهادة كل خلقة؛ وإن لطف وصغر؛ فلم يحتاجوا إلى أن يقيموا البراهين

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٥٠) كتاب الفرائض: باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، حديث (٦٧٦٤)، ومسلم (٣/ ١٢٣٣) كتاب الفرائض، حديث (١/ ١٦١٤).

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

والحجج على ما ادعوا ودعوهم إليه؛ لكنهم كانوا قومًا معاندين مكابرين لا يقبلون قولهم ولا يصدقونهم؛ تعنتًا منهم وتكبرًا، لم ينظروا في خلق الله ليدركوا آثار وحدانيته وألوهيته؛ فكلفوا إقامة الحجج والآيات؛ لئلا يكون لهم مقال واحتجاج، وإن لم يكن لهم الاحتجاج. والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي...﴾ الآية.

قوله - تعالى - ذلك يحتمل وجوهًا؛ لأنه قد سبق خصال ثلاث؛ ما يحتمل رجوع هذا الحرف إلى كل واحد من ذلك.

أحدها: قوله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيحتمل قوله ذلك: المن والفضل لمن خاف مقامي وخاف وعيد. وسبق أيضًا قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ذلك الهدى والسبل التي هدانا إليها؛ أي: ذلك الهدى والهداية لمن خاف مقامي وخاف وعيد. وسبق أيضًا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ...﴾ الآية أي: ذلك النصر والظفر بهم والتمكين في الأرض لمن خاف [مقامي وخاف][(١)] وعيد.

ثم قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال بعضهم: خاف مقامي في الدنيا والآخرة، وتأويله - والله أعلم - أي: خاف سلطاني ونقمتي وعذابي في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا لما نزل بمكذبي رسله وأنبيائه، وخاف وعيده وعذابه في الآخرة حيث وعد أنه يحل بهم بالتكذيب وترك الإجابة.

وقال بعضهم: خاف مقامي في الآخرة؛ وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] يخاف ذلك المقام، وخاف ما وعد من العذاب في النار.

ثم قوله: ﴿مَقَامِي﴾ حيث أضاف إليه، ليس في الاشتباه بأقل من قوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ وأقل من قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] وأمثاله؛ فكيف اشتبه هذا على [أهل][(٢)] التشبيه؛ ولم يشتبه قوله: ﴿مَقَامِي﴾؛ حيث سألوا في ذلك؛ ولم يسألوا في هذا؛ وهذا إن لم يكن أكثر في الاشتباه؛ فليس بأقل، والأصل في هذا وأمثاله؛ من قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠] ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٦] و ﴿مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] ذكر هذا؛ وإن كان الخلائق جميعًا في الدارين جميعًا -يكون مصيرهم ومرجعهم إليه؛ لأنه -جل وعلا- لم يخلقهم للمقام في الدنيا[(٣)] والدوام فيها؛

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: الدارين.

إنما خلقهم للزوال عنها والفناء، والمقام في الآخرة والدوام فيها؛ لكن خلقهم في هذه الدنيا -ليمتحنهم ويبتلون فيها؛ ثم يصيرون إلى دار المقام، فالآخرة هي المقصودة في خلقهم في الدنيا؛ لا الدنيا؛ فإذا كان كذلك أضاف المصير إلى نفسه، لما هو المقصود في خلقهم؛ وإن كانوا في الدنيا والآخرة صائرين إليه، غير غائبين عنه طرفة عين؛ ولا فائتين، وبالله النجاة.

ذكر الله - عز وجل - أنباء الرسل الماضية وأتباعهم؛ وأنباء أعدائهم؛ وما عامل بعضهم بعضًا، وما نزل بالأعداء - بما عاملوا رسلهم - من العذاب والاستئصال وأنواع البلايا، وما أكرم رسله وأتباعهم وأولياءهم من النصر على أعدائهم؛ والظفر بهم، والتمكين في الأرض، وجعل ذلك كله كتابًا بالحكمة؛ يتلى ليعلم؛ [أن كيف][1] يعامل الأعداء والأولياء؛ وليرغب فيما استوجب الأولياء من الكرامات وليحذروا عن مثل صنيع الأعداء؛ وليعلموا أن كيف عامل الله رسله وأولياءه، وكيف عامل الرسل ربَّهم، أضاف الرسل جميع ما نالوا[2] من الخيرات والكرامات إلى الله؛ كأن لاصنع لهم في ذلك؛ حيث قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ، ذكر قوله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليعلم أن الخير ليس يكون بالجوهر؛ ولكن بفضل من الله تعالى وبرحمته، وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وأمثاله، أضافوا ذلك إليه؛ كأنهم لا صنع لهم في ذلك.

وذكر الله - عز وجل - ما أكرم أولياءه ورسله؛ من النصر والتمكين والإنزال في الديار، كأنهم استوجبوا ذلك بفعلٍ كان منهم؛ وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر والتمكين، وما ذكرنا من الوجوه ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ذكر أنهم[3] استوجبوا ذلك، لا أن كان، ﴿ذَٰلِكَ﴾ من الله بحق إفضاله وامتنانه؛ ليعلموا معاملة الله رسله وأولياءه، ومعاملة الرسل والأولياء لسيدهم ومولاهم. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ .

يحتمل وجهين:

أحدهما: الاستنصار؛ استنصروا الله على أعدائهم؛ كقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:٨٩] أي: يستنصرون.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: تأتونا.
(٣) في ب: كأنهم.

والثاني: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: تحاكموا إلى الله في النصر للأحق منهم؛ والأقرب إلى الحق؛ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا...﴾ الآية [الأعراف:٨٩] وهو التحاكم إليه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

هو ما ذكرنا: تحاكموا إلى الله؛ فنصر أولياءه، وأهلك أعداءه، على ما ذكر أن أبا جهل قال: اللهم دينك القويم[١] وأياديك الحسنة، أيّنا كان أحبّ إليك وأقرب إلى الحق- فانصره؛ فنصر المؤمنين وأهلك الأعداء.

وقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: تجبر على رسله وأوليائه، والعنيد: قيل[٢]: المعرض المجانب عن الحق والطاعة.

وقال بعضهم: الجبار: القاتل على الغضب والضارب على الغضب؛ وهو ما ذكرنا.

وقوله - عز وجل-: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء عذاب الدنيا لهم عذاب جهنم.

[و][٣] قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: الوراء: قد يستعمل في أمام وخلف؛ أي: من أمام ما حلّ بهم جهنم، ويحتمل: وراء ما أصابهم؛ ما ذكر.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾.

أي: يسقى في جهنم صديدًا مكان ما يسقون في الدنيا؛ وهو الذي يسيل من القروح [والجروح][٤]، جعل الله للكافرين[٥] في الآخرة مكانًا بما كان لهم في الدنيا؛ لباسًا وشرابًا وطعامًا؛ ما كانت تكرهه أنفسهم، جعل مكان ما يسقون في الدنيا من الماء - في النار: الصديد والغسلين والحميم، ومكان الطعام في الدنيا- في النار: الزقوم والضريع، ومكان اللباس: القطران ونحوه، ومكان القرين والصديق في الدنيا: يجعل قرينه الشيطان، كقوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف:٣٦] إذ ذلك كله يمنعهم عن دين الله؛ ويصدهم عن ذكره، ليكون جزاؤهم من نوع ما كان يمنعهم في الدنيا عن طاعته.

ثم قال بعضهم[٦]: إن الصديد الذي يسقون: هو أن النار تجرحهم وتقرحهم؛ فيسيل - من ذلك - الصديدُ؛ فيسقون من ذلك.

---

(١) في أ: القديم.

(٢) قاله إبراهيم، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٦١٩، ٢٠٦٢٠)، وعن قتادة (٢٠٦٢١، ٢٠٦٢٢، ٢٠٦٢٣) وابن زيد (٢٠٦٢٤، ٢٠٦٢٥)، وانظر: الدر المنثور (٤/١٣٧).

(٣) سقط في ب.

(٤) سقط في أ.

(٥) في ب: للكافر.

(٦) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢٠٦٢٩، ٢٠٦٣٠) وعبد الرزاق و عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ،كما في الدر المنثور (٤/١٣٨).

وقال بعضهم: لا؛ ولكن يجعل شرابهم فيها صديدًا؛ كشراب أهل الجنة وطعامهم من غير أصل.

وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ ويحتمل: يسقى من ماء في ظنهم ماء؛ وهو في الحقيقة صديد. ويحتمل أن يكون في الحقيقة والظاهر صديدًا؛ لكن يشربون؛ رجاء أن يدفع عطشهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ .

قال أبو عوسجة: التجرع: ما يشربه مكرهًا عليه.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ .

يقال: أسغته: أي: أدخلته في الحلق؛ يقال: أسغته [فساغ، أي: دخل سهلًا من غير أن يؤذيه، وكذلك قيل في قوله: ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ [فاطر: ١٢] أي: سهل في الحلق][1] وساغ في حلقه؛ إذا دخل دخولا سهلا لا يؤذيه.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

قال قائلون: يأتيهم الغمّ والهم من كل مكان، وكذلك المتعارف في الخلق: إذا اشتد بهم الغم والهم والشدة، يقال: كأنك ميت؛ أو تموت غمًّا.

وقال بعضهم: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسباب الموت؛ ما لو كان من قضائه الموت فيها - لماتوا؛ لشدة ما يحل بهم، ولكنْ قضاؤه؛ ألا يموتون فيها[2].

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ موت حقيقة يستريح من العذاب.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) واعلم أن الموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة:

فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

ومنها: الحزن والخوف المكدران للحياة، كقوله تعالى ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

ومنها النوم، كقوله تعالى -عز وجل-: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد قيل: النوم: الموت الخفيف، والموت: النوم الثقيل، وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل، والسؤال، والهرم، والمعصية، وغير ذلك، ومنه الحديث: «أول من مات إبليس؛ لأنه أول من عصى».

وحديث موسى - صلوات الله وسلامه عليه - حين قال له ربه: «أما تعلم أن من أفقرته فقد أمته؟».

ينظر: اللباب (١١/ ٣٦٠).

وقوله: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال بعضهم: من كل ناحية من فوق؛ ومن تحت؛ [ومن خلف][(١)] ومن قدام؛ كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] أخبر أن النار تأتيهم وتأخذهم من كل جانب ومن كل جهة.

ويحتمل ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: ومن كل سبب من تلك الأسباب التي تأتيهم؛ ما لو كان قضاؤه الموت - لماتوا بكل سبب من تلك الأسباب.

وقال بعضهم: أي: ليس من موضع من جسده ومن سائر جوارحه -إلا الموت يأتيه منها؛ من شدة ما يحل بهم؛ حتى يجدوا طعم الموت وكربه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: ومن وراء ذلك العذاب -عذاب غليظ لا ينقطع ولا يفتر، وصفه بالغلظ والشدة؛ لدوامه والإياس عن انقطاعه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

وقوله - عز وجل-: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ هو - والله أعلم-: على التقديم [والتأخير][(٢)]؛ أي: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد اشتدت به الريح.

ثم تحتمل ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: الأعمال التي كانت لهم في حال إيمانهم، ثم كفروا، بما[(٣)] أحدثوا من الكفر؛ أبطل ذلك الأعمال الصالحة في الإيمان؛ وهو ما ذكر: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥].

أو يكون محاسنهم التي كانت لهم في حال الكفر؛ طمعوا أن ينتفعوا بتلك المحاسن في الآخرة؛ فما انتفعوا بها؛ فصارت كالرماد الذي تذروه الريح الشديدة؛ لم ينتفع صاحب ذلك الرماد به بعد ما عملت به الريح ما عملت؛ فعلى ذلك: الأعمال الصالحة التي عملوها في حال كفرهم، أو أعمالهم الصالحة التي كانت لهم في حال الإيمان؛ ثم أحدثوا الكفر- لا ينتفعون بها.

وقال في آية أخرى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] فيشبه أن يكون هذا في أعمالهم السيئة في أنفسها فرأوها صالحة حسنة؛ كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] فشبه ما كان في نفسه سببًا بالسراب؛ لأنه لا شيء هنالك؛ إنما يرى

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) في ب: ما.

خيالا، فعلى ذلك: أعمالهم السيئة في أنفسها فرأوها حسنة صالحة، وما كان وما شبه بالرماد - فهى أعمالهم الصالحة في أنفسها؛ لكن الكفر أبطلها.

وقوله - عز وجل-: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ .

[اليوم لا يكون عاصفًا؛ ولكن على الإضمار؛ كأنه قال: في يوم فيه ريح عاصف][١] كقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] النهار لا يبصر ولكن يُبصَر فيه أو يُبصَر به.

والعاصف: قيل: هو القاصف الكاسر الذي يكسر الأشياء. أو يكون قوله: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ﴾ ، والعاصف والقاصف -حرفان يؤديان جميعًا معنى واحد.

وقوله - عز وجل-: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ كالرماد الذي ذكرنا أن صاحبه لا يقدر به بعدما عملت به الريح وذرته. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ .

يحتمل: ذلك الكفر هو الضلال البعيد؛ لا نجاة فيه أبدًا.

أو ذلك [الكفر][٢] الذي أتوا به بعيد عن الحق والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حرف تنبيه عن عجيب بَلَغه وعلم به غفل عنه، أو نقول: حرف تنبيه عن عجيب لم يبلغه بعد ولم يعلم به. على هذين الوجهين يشبه أن يكون والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ .

قال عامة أهل التأويل: بالحق أي: للحق، وتأويل قولهم -والله أعلم-: للحق: أي: للكائن[٣] لا محالة؛ وهي الآخرة[٤]؛ لأنه خلق العالم الأول للعالم الثاني؛ والمقصود في [خلق][٥] هذا العالم هو العالم الثاني؛ فكان خلقهما للثاني لا للأول [لأنه لو كان للأول][٦]

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: للكافرين.
(٤) ثبت في حاشية ب: لقائل أن يقول: ما معنى خلقهما للآخرة، وهما لا يبقيان، بل يفنيان ويبدلان كما أخبر جل وعلا، اللهم إلا أن يكون على حذف مضاف، أي: خالق ما فيهما؛ بدليل ما استشهد به من قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ الآية. فالذى فيهما من بنى آدم يجرى فيه التأويل الذي ذكره، والله أعلم. كاتبه.
(٥) سقط في ب.
(٦) سقط في أ.

دون الثاني؛ يحصل خلقهما للفناء، وذلك خارج عن الحكمة؛ وهو ما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال قائلون: للحق الذي وجب له عليهم بالامتحان والابتلاء، خلقهما للشهادة له على الممتحن.

أو يقول: خلقهما بالحق: أي: بالحكمة. وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أن كان الخطاب [به][1] لرسول الله ﷺ - فيصير كأنه قال: قد رأيت وعلمت أن الله خالق السموات والأرض بالحق.

وإن كان الخطاب به لغيره من أولئك يقول: اعلموا أن الله خلق السموات والأرض بالحق؛ لم يخلقهما عبثًا باطلا.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

قال بعض أهل التأويل: هذه المخاطبة يخاطب بها أهل مكة؛ يذكر قدرته وسلطانه على بعثهم بعد الموت والهلاك؛ يقدر على إذهابكم وإهلاككم، ويقدر أيضًا أن يأتى بغيركم، فعلى ذلك: يقدر على بعثكم بعد مماتكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

قال أهل التأويل: أي: عليه هين يسير، ولكن عندنا -والله أعلم-: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ : أي: ذهابكم وفناؤكم عليه ليس بشديد عليه ولا شاقّ؛ ليس كملوك الأرض إذا [ذهب][2] شيء من مملكتهم يشتد ذلك عليهم، فأمّا الله سبحانه وتعالى لا يزيد الخلق في سلطانه ولا في ملكه؛ ولا ينقص فناؤهم وذهابهم منه شيئًا؛ كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي: شديد عليهم وهو ما وصفهم -عز وجل-: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذكر مكان العزة الشدة، ومكان الذلة -هاهنا- الرحمة.

أو أن يكون قوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما بعثكم وإحياؤكم بعد الممات على الله بشاقّ ولا شديد.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ .

قال مقاتل[1]: خرجوا إلى الله من قبورهم جميعًا، وقال: ﴿جَمِيعًا﴾ لأنه لايغادر أحد إلا بعث.

ويحتمل وجوهًا أخر سوى ذلك: وهو أن قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ : أي: لأمر الله؛ أو لوعده الذي وعد أنهم يبعثون. أو يريد الحكم، الله يحكم في بعثهم.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ : أي: ظهروا به ووجدوا؛ فيكونون [به][2] موجودين ظاهرين بعد أن كانوا فائتين ذاهبين غائبين؛ أي: عندهم في الدنيا أنهم [كانوا][3] فائتين غائبين عن الله؛ فيومئذ يعلمون أنه كان لا يخفى عليه شيء من أفعالهم وأحوالهم؛ وهو ما ذكرنا في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وأمثاله، أي: يعلمهم مجاهدين صابرين كما علمهم غير مجاهدين وغير صابرين؛ وكقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر:٢٢] يعلمهم شهودًا كما علمهم غيبًا.

فعلى ذلك قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يكونون له موجودين ظاهرين والله أعلم.

وإضافة البروز إليه في الآخرة وإن كان بروزهم له في الدارين جميعًا، [وكذلك المصير][4] إليه والمرجع إليه والمآب ونحوه؛ فهو - والله أعلم - لما لا ينازع أحد في البروز في ذلك اليوم؛ وقد ينازعونه في الدنيا.

أو خُصّ ذلك البروز بالإضافة [إليه][5]؛ لما هو المقصود من إنشائه إياهم وخلقهم؛ ليس المقصود في خلقهم وإنشائهم الأول؛ ولكن الآخر؛ فخص ذلك بالإضافة إليه. والله أعلم.

---

(١) قاله البغوي في تفسيره (٣/ ٣٠) لم ينسبه لأحد.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: وكذلك من المصير.
(٥) سقط في أ.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يومئذ يعلمون أنه كان لا يخفى عليه شيء؛ وكأنهم لم يكونوا يعلمون؛ قبل ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

قال قائلون[١]: قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ : أي: دافعون عنا من عذاب الله؛ إذ كنا لكم أتباعًا وأنتم متبوعين؛ فادفعوا عنا ذلك. لكن هذا بعيد؛ أن يطلبوا منهم دفع العذاب عنهم وقد رأوهم في العذاب؛ فلو قدروا على دفع [ذلك][٢] عنهم؛ لدفعوا أولا عن أنفسهم؛ إلا أن يكون فيهم حيرة وعمى؛ كما كان في الدنيا، فللحيرة ما قالوا؛ كقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ...﴾ [الإسراء: ٧٢].

والأشبه أنهم يطلبون عنهم رفع بعض العذاب عنهم، وتحمل بعض لأن مؤنة الأتباع في العرف يتحملها المتبوع؛ فيطلبون منهم رفع شيء وتحمل بعض ما حل بهم؛ وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] طلبوا منهم تحمل بعض ما حلّ بهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ .

قال بعض أهل العلم: إن الكفرة جميعًا -أتباعهم ومتبوعهم- أعلم بهداية الله من المعتزلة؛ لأنهم قالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ علموا أن الله -عز وجل- لو هداهم لاهتدوا؛ ويملك هدايتهم، والمعتزلة يقولون: قد هدى الله جميع الكفرة وجميع الخلائق؛ فلم يهتدوا، وأنه لو أراد أن يهدي أحدا لم يملك، والكفرة - حيث قالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ رأوا وعلموا أن الله لو هداهم لاهتدوا؛ لأنهم لو لم يهتدوا بهدايته إذا هداهم لم يعتذروا إلى أتباعهم ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ، [وكذلك][٣] قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] أضاف الإغواء إليه؛ وهم[٤] يقولون: لا يُغوي الله أحدًا، فإبليس [أعلم بهذا][٥] من المعتزلة.

وقولهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لو رزقنا الله الهدى وأكرمنا به لهديناكم؛ ولكن لم يرزقنا ذلك ولم يكرمنا.

وقال أبو بكر الأصم: تأويل قولهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ : لو كان الذي كنا عليه

---

(١) قاله ابن جرير (٧/ ٤٣٢).
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: وهو.
(٥) في ب: بهذا أعلم.

هدى لهديناكم؛ فهذا صرف ظاهر الآية عن وجهها بلا دليل؛ فلو جاز له هذا جاز لغيره صرف جميع الآيات عن ظاهرها بلا دليل مع [أن][(١)] الأتباع؛ قد علموا أن الذي كانوا عليه لم يكن هدى؛ فلا معنى لهذا.

وقوله - عز وجل-: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ .

قال أهل التأويل[(٢)]: إنهم قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نجزع لعل الله يرحمنا؛ فجزعوا حينًا؛ فلم يرحموا، ثم قالوا: تعالوا نصبر لعل الله يرحمنا؛ فلم يرحموا؛ فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ لكن لا يحتمل أن يقولوا ذلك بعد الامتحان والاختبار، لكن كأنهم قالوا ذلك بالذى سمعوا؛ وهو قوله: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] ولما سمعوا ذلك عند ذلك قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنْجًى ومَخْلَص، لا يحتمل أن يقولوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في أول أحوالهم وأمورهم، ولكن يحتمل ما ذكر أهل التأويل أنهم يقولون ذلك عند الإياس.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ .

قال بعضهم[(٣)]: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ : أي: أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ؛ وأهل النارِ النار؛ يقوم إبليس خطيبًا في النار؛ فخطب كما ذكر.

وقال قائلون: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: مُيِّز وبُيِّن أهل الجنة من أهل النار؛ قبل أن يدخل أهل النار النار؛ وأهل الجنة الجنة -قام خطيبًا فخطب لأتباعه كما ذكر.

ويحتمل قوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لما فرغ من الحساب ومن أمرهم؛ عند ذلك يخطب؛ ما ذكر؛ وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] أي: لما فرغ من السماع؛ فعلى ذلك هذا.

وقال بعضهم: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لما نزل بهم العذاب.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هو أن الله كان وعد أن يقوم إبليس خطيبًا لهم؛ فقضى الأمر؛ أي: أنجز ما وعد؛ أنه يخطب أو أن يكون لأهل الكفر لحاجات ومنازعات فيما بينهم يوم القيامة؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ وكقوله: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ . . .﴾ الآية [المجادلة:١٨]

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله محمد بن كعب وابن زيد أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٦٤٠، ٢٠٦٤١).

(٣) قاله ابن جرير (٧/ ٤٣٣).

يكذبون في الآخرة، ويكون لهم لجاجة على ما كان منهم في الدنيا، أو يحتجون فيقولون: إن إبليس هو كان غلبنا وقهرنا؛ لأنه كان يرانا ونحن لم نكن نراه؛ فالمغلوب المقهور غير مأخوذ بما كان منه في حكمك، يحتجون بمثل هذه الخرافات واللجاجات، ويقولون: هو الذي أضلنا، فيقوم عند ذلك إبليس خطيبًا بينهم وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حتى أقهركم وأغلبكم إلا الدعاء؛ فاستجبتم لي طائعين؛ غير مقهورين ولا مضطرين والله أعلم بذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ .

يشبه أن يكون وعده ما وعد على ألسن الرسل: أن البعث، والجنة، والنار، والحساب، والعذاب -كائن لا محالة. أو جميع ما أوعد من مواعيده- فذلك كله حقّ أي: كائن لا محالة.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ .

يحتمل ما ذكر؛ حيث قال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨] وأمثاله من عِدَاته؛ كانت كلها أماني وغرورًا وكذبًا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ يحتمل السلطان وجهين:

أحدهما: أي ما كان لي عليكم من ملك وقهر وغلبة أقهركم وأغلب عليكم إلا الدعاء؛ فاستجبتم لي طوعًا. ويحتمل قوله: ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾: من حجة وبرهان؛ أي: لم يكن لي حجة وبرهان على ما دعوتكم إليه؛ إنما كان لي دعاء ووساوس، وكان مع الرسل حجج وبراهين، فتركتم إجابتهم؛ واستجبتم لي بلا حجة وبرهان؛ أي: لم أقهركم، ولم أغلب عليكم؛ لكن هذا لا يصح؛ لأنه لو كان له عليهم سلطان القهر والغلبة لكانوا معذورين غير معذبين؛ لأن المقهور والمغلوب مضطر؛ فالمضطر معذور؛ ولكن السلطان هو الحجة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ .

ليس مراده -لعنه الله- أنه لا يلام؛ ولكن مراده: أن ارجعوا إلى لائمة أنفسكم واشتغلوا بها؛ فإن ذلك كان منكم لم يكن مني إلا الدعاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ .

قيل[1]: ما أنا بناصركم وما أنتم بناصري، وقيل[2]: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثين

(١) قاله الحسن وابن زيد ،أخرجه ابن جرير عنهما (٢٠٦٤٧، ٢٠٦٥٦).
(٢) قاله الشعبي، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٦٤٤) وعن قتادة (٢٠٦٤٩) ومجاهد (٢٠٦٥١، ٢٠٦٥٤) وغيرهم، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٤١).

لي، وقيل: ما أنا بمانعكم وما أنتم بمانعي، ما نزل بي هذا كله واحد.

وقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: ما أنا بمالك إغاثتكم وإنقاذكم، وما أنتم بمالكي إغاثتي، وإلا لو كان لهم ملك ذلك لفعلوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ .

أي: كفرت بما أشركتموني في عبادة الله وطاعته؛ أي: كنت بذلك كافرًا.

ويحتمل: [﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: كفرت بما أشركتموني في عبادة الله وطاعته، أي: كنت بذلك كافرًا، ويحتمل ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾][1] أي: تبرأت اليوم؛ مما أشركتموني مع الله في الطاعة والعبادة من قبل.

أحد التأويلين يرجع إلى أنه يتبرأ في ذلك اليوم؛ وقتما قام خطيبًا.

والثاني: إني[2] كنت تبرأت من ذلك في الدنيا، وقتما أشركوه ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أذن لهم بالدخول في الجنة.

قوله: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ .

الإذن هاهنا كأنه الرحمة؛ أي: خالدين فيها برحمة ربهم.

﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ .

[يحتمل السلام الثناء][3] أي: يثنون على ربهم؛ كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ...﴾ الآية [فاطر: ٣٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال بعضهم: يسلم بعضهم على بعض، ويحيي بعضهم بعضًا بالسلام.

وقال بعضهم: السلام هو اسم كل خير ويمن وبركة؛ كما قال: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ...﴾ الآية [مريم: ٦٢] والله أعلم.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: أي.
(٣) في ب: يحتمل السلام ويحتمل الثناء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ .

قد ذكرنا أن كلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حرف تنبيه عن عجيب كان بلغهُ؛ فغفل عنه، أو تنبيه عن عجيب لم يبلغه.

وقال أبو بكر الأصم: هي كلمة يفتتح بها العرب عند الحاجة؛ يقول الرجل لآخر: ألم تر إلى ما فعل فلان؛ ونحوه. هذا يحتمل في غيره من المواضع وأما في هذا فإنه غير محتمل.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ قيل: بين الله مثلا وأظهر.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ .

قال أبو بكر الكيساني: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ : هو هذا القرآن، ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ : هي الكتب التي أحدثها الناس، شبه القرآن بالشجرة الطيبة؛ وهي النخلة؛ على ما ذكر؛ إن ثبت، أو كل شجرة مثمرة. وشبه الكتب التي أحدثها الناس بالشجرة الخبيثة؛ وهي التي لا تثمر. وقال: إنما شبه القرآن بالشجرة الطيبة؛ لأن الشجرة الطيبة هي باقية إلى آخر الدهر؛ ينتفع بها الناس بجميع أنواع المنافع، لا يقطعونها؛ فهي تدوم وتبقى دهرًا، فعلى ذلك القرآن ينتفع به الناس وهو دائم أبدًا.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ .

أصلها ثابت لها قرار، فعلى ذلك: القرآن هو ثابت بالحجج والبراهين؛ والكتب التي أحدثها أولئك هي باطلة فاسدة؛ لا حجة معها ولا برهان؛ كالشجرة الخبيثة التي هي غير مثمرة؛ لا بقاء لها ولا قرار ولا ثبات.

وقال بعضهم[(١)]: الكلمة الطيبة: هي الإيمان والتوحيد؛ شبهها بالشجرة الطيبة؛ وهي التي تثمر وتنمو وتزكو هي على ما وصفها - عز وجل- في قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، فعلى [ذلك][(٢)] الإيمان والتوحيد لا يزال يثمر لأهله الخيرات والأعمال

(١) قاله الربيع بن أنس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٦٦٠).
(٢) سقط في أ.

الصالحات؛ كالشجرة التي وصفها أنها تؤتي أهلها أكلها في كل حين وكل وقت، أصلها ثابت بالحجج والبراهين، وفرعها في السماء، في كل وقت يرتفع ويصعد به العمل إلى السماء.

و[الكلمة][١] الخبيثة: هي الكفر؛ لأنه لا منفعة لأهلها فيها، إذ لا عاقبة له ولا حجة معها ولا برهان، إنما شيء أخذوه عن شهوة وأمانيّ، فكان كالشجرة الخبيثة التي لا ثمرة لها، ولا منفعة لأحد فيها، فهى لا تبقى ولا تدوم. فذلك قوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ .

ويشبه أن يكون ضرب المثل لغير هذا المعنى؛ وهو أنه ذكر جواهر طيبة وجواهر خبيثة؛ مما يقع عليها الحواس ويقع عليها البصر؛ ليكون كل جوهر من هذه الجواهر التي يقع عليها الحواس؛ ويقع عليها البصر - من خبيث أو طيب - دليلا وشاهدًا على ما غاب عن الخلق؛ ولا يقع عليها الحواس. وهكذا جعل الله تعالى هذه المحسوسات والأشياء الظاهرة - دليلا وشاهدًا لما غاب عنهم؛ ولا يقع عليه الحس، تدرك بالعقول التي تركب فيهم؛ ليرغب الطيب؛ مما يقع عليه الحس والبصر؛ على الموعود الغائب، ويحذر الخبيث المحسوس عما غاب وأوعد، وكذلك هذه الآلام والأمراض والشدائد التي جعل في هذه الدنيا؛ لتزجرهم عن الأفعال التي بها يستوجبون مثلها في الآخرة، وكذلك النعم التي في الدنيا واللذات، جعلها لتدلهم على النعم الدائمة.

على هذا يجوز أن يخرج لا أنه أراد بالشجرة الطيبة الشجرة نفسها أو بالشجرة [الخبيثة الشجرة][٢] نفسها ولكن ما وصفنا. والله أعلم بذلك.

وقال قائلون[٣]: ضرب الله مثل الشجرة الطيبة مثلا للمؤمن؛ هو في الأرض وعمله يصعد إلى السماء كل يوم؛ فكما تؤتي الشجرة أكلها كل حين كذلك المؤمن يعمل لله في ساعات الليل والنهار[٤].

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) قاله ابن عباس وعطية العوفي والربيع بن أنس، أخرجه ابن جرير عنهم (٢٠٦٦٢، ٢٠٦٦٣، ٢٠٦٦٤)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٤٢، ١٤٣).
(٤) كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله -عز وجل- قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. ووصف الشجرة بكونها طيبة وذلك يشمل طيب الصورة والشكل والمنظر، والطعم، والرائحة والمنفعة ويكون أصلها ثابتًا، أي: راسخًا آمنًا من الانقطاع، والزوال ويكون فرعها في السماء؛ لأن ارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل، وأنها متى ارتفعت كانت بعيدة عن عفونات =

وقوله -عز وجل-: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ .

قال قائلون(١): كلّ عام؛ لأنها تثمر في كل عام مرة.

وقال قائلون(٢): ستة أشهر من وقت طلوعها إلى وقت إدراكها.

وقال قائلون(٣): كل عشية وغدوة؛ كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

وقال قائلون(٤): شهرين؛ وأمثاله.

ويشبه أن يكون ما ذكرنا: أنه ليس في وقت دون وقت، ولكن الأوقات كلها في كل وقت وكل ساعة.

فإن قال لنا ملحد: إن الكلمة التي ضرب الله مثلها بالشجرة الطيبة - [هي](٥) كلمتنا، ونحن المراد بذلك. والكلمة الخبيثة التي ضرب الله مثلها بالشجرة الخبيثة -هي كلمتكم؛ وأنتم المراد بها لا نحن.

قيل: قد سبق لهذا المثل أمثال ودلائل على أن الكلمة الطيبة هي التي لها عاقبة وآخرة، وكل أمر له عاقبة والنظر في آخره -فهو الحق، والذي أنتم عليه لا عاقبة له(٦) ولا آخرة، وفي الحكمة: إن كل أمر لا عاقبة له -فهو باطل؛ والكفر لا عاقبة [له](٧).

والثاني: أن الإيمان والتوحيد له الحجج والدلائل، والكفر مما لا حجة له ولا دلائل؛ إنما هو مأخوذ بالأماني والشهوة: من تسويل الشيطان وتزيينه؛ لذلك كان ما ذكرنا.

وتحتمل الكلمة الطيبة - أيضًا-: أن تكون الوحي الذي أوحى الله إلى رسوله، والكلمة الخبيثة: ما أوحى الشيطان إليهم؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ...﴾ الآية

= الأرض، فكانت ثمارها نقية طاهرة عن جميع الشوائب، ووصفها أيضًا بأنها: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ والحين في اللغة هو الوقت: والمراد: أن ثمار هذه الشجرة تكون أبدًا حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها حاضرة في بعض الأوقات دون بعض.
ينظر: اللباب (١١/ ٣٨٠).

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٧٢١، ٢٠٧٢٣) وعن عكرمة (٢٠٧١٧) ومجاهد (٢٠٧١٩) وغيرهم.

(٢) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٧٠٦، ٢٠٧١٢) وعن عكرمة (٢٠٧٠٧، ٢٠٧١١) وسعيد ابن جبير (٢٠٧١٣) وغيرهم.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٦٩٣، ٢٠٧٠١) وعن الضحاك (٢٠٧٠٢)، والربيع بن أنس (٢٠٧٠٣، ٢٠٧٠٤).

(٤) قاله سعيد بن المسيب، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٧٢٤).

(٥) سقط في أ.

(٦) في ب: عليه.

(٧) سقط في أ.

[الأنعام: ١٢١] فوحي الله: هو ثابت دائم ينتفع به أهله[١] في الدنيا والعاقبة، ووحي الشيطان: هو باطل مضمحلّ لا عاقبة له؛ ولا ينتفع به أهله. والله أعلم بذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ .

قال بعضهم[٢]: استؤصلت، وقيل: انتزعت. وقال أبو عوسجة: اقتلعت من أصلها؛ يقال: جثثت الشجرة أجثها جثًّا: إذا قلعتها من أصلها.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ .

هو ما ذكرنا. وقال بعض أهل التأويل: شبه كلمة الشرك بحنظلةٍ قطعت؛ فلا أصل لها في الأرض ولا فرع في السماء؛ أي: لا يصعد له عمل[٣]، وشبه كلمة الإيمان؛ في نفعها وفضلها وثباتها وقرارها في الأرض؛ بما ذكر من الشجرة. والله أعلم.

ثم من الناس من احتج بهذا المثل في خلق الإيمان والكفر؛ فقال: لأنه ضرب مثله بما هو خلق؛ وهو الشجرة؛ فعلى ذلك الإيمان.

ولكن عندنا لا بهذا يجب أن يستدل على خلقه، ولكن لما ثبت أن منشئهما واحد لأنه لو كان منشئهما مختلفًا لكان لا يضرب مثل هذا بهذا ولا هذا بهذا؛ فإذا ضرب دل أن منشئهما واحد؛ فإذا ثبت ذلك دل على ما وصفنا.

ومن الناس من استدل بهذا أنه يزداد وينقص[٤]؛ حيث شبهه[٥] بالشجرة؛ وهي تزداد وتنقص، ونحن نقول: ليس فيه دلالة ما ذكروا؛ لأن الشجرة في نفسها ليست بذي حدّ، والإيمان ذو حدّ؛ فما يزداد [إنما][٦] هو في حق التزيين والتحسين. وأمّا الإيمان نفسه: فإنه لا يزداد؛ كالشجرة إذا تورقت وخرجت[٧] ثمارها توصف بالزينة والحسن، فأمّا نفس الشجرة: فلا توصف بالزيادة؛ فعلى ذلك الإيمان.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ .

يحتمل: يبين الله الأمثال التي يقع عليها الحس، ويقع عليها البصر، والأشياء الظاهرة؛ لتدلهم على ما استتر وغاب عنهم، يدركون بالعقول ما استتر وخفي بالظاهر والمحسوس.

---

(١) في ب: أهلها.
(٢) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٧٤٠).
(٣) في ب: عمل ولا حمل.
(٤) في ب: ينتقص.
(٥) في ب: شبه.
(٦) سقط في أ.
(٧) في ب: خرج.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمة الطيبة: تحتمل التوحيد وفروعها: هي الخوف، والخشوع، والخضوع، والرغبة [والرهبة][(١)]. وأكلها: هو الأعمال الصالحة والخيرات تكون منه.

والكلمة الخبيثة: هي الشرك. وفروعها: ما يكون منه في الشرك؛ من القساوة[(٢)]، والتمرد، والعناد. وأكلها: هو الأعمال التي تكون منه في الشرك.

أو أن يكون الكلمة الطيبة: هي الأعمال. وفروعها: هي الشرائع والأحكام التي تعمل. وأكلها: هو ما يثاب عليه في الدنيا والآخرة أبدًا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

ذكر مرة بالتثبيت ومرة بذكر الزيادة؛ بقوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ومرة بذكر الابتداء والتجديد؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]. وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالتجديد والابتداء في حادث الوقت؛ لأن تلك الأفعال تنقضي وتذهب ولا تبقى، وأما الزيادة على ما كان يضم شيئًا إلى ما كان، والثبات على ما كان فكله واحد في الحقيقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ .

أضاف الإضلال مرة إلى نفسه؛ ومرة إلى الشيطان، ولا شك أن ما أضيف إلى الشيطان إنما أضيف على الذم، فإذا كان ما ذكر؛ فتكون الجهة التي أضيف إلى الله -غير الجهة التي أضيف إلى الشيطان، الجهة التي أضيف إلى الله: هو أن خلق [فعل][(٣)] الضلال من الكافر، وما أضيف إلى الشيطان: هو على التزيين والتسويل؛ لتصح الإضافتان. ولو كان على التسمية -على ما يقوله المعتزلة: إذ[(٤)] سماه ضالا- لكان كل من سمى آخر ضالا كافرًا جاز أن يسمى مضلا، فإذا لم يسم - بتسميته ضالا أو كافرًا - مضلا دل أنه إنما سمى الله نفسه مضلا؛ لتحقيق الفعل له فيه؛ وهو ما ذكرنا: أن خلق فعل الضلال منه.

والمعتزلة يقولون: إن الله هدى الخلق جميعًا؛ لكنهم لم يهتدوا وضلوا من غير أن يكون الله أضلهم. فهذا صرف ظاهر الآية إلى غيره بلا دليل.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: الفساد.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: أن.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ .

وعلى قول المعتزلة: لا يقدر أن يفعل ما يشاء؛ لأنهم يقولون: شاء إيمان جميع البشر؛ ولكنهم لم يؤمنوا؛ وكذلك قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦] وهم يقولون: أراد إيمانهم؛ لكنه لم يفعل ما أراد؛ ولا يملك، وقد أخبر أنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ و ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وهم يقولون: لم يملك [أن يفعل][1] ما شاء وأراد، بل العباد يقولون ما شاءوا غير ما شاء هو، فتأويلهم خلاف لظاهر القرآن. والله أعلم.

وقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ على تأويل من يقول: إن الكلمة الطيبة هي القرآن، يكون القول الثابت هو القرآن.

يقول - والله أعلم - يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا؛ حيث تلقوه بالإجابة والقبول والعمل به، وفي الآخرة؛ أي: بالآخرة والبعث؛ يقرون به، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ حيث تركوا الإجابة له، وتلقوه بالرد، والمكابرة، والعناد.

ومن يقول: الكلمة الطيبة: التوحيد والإيمان -يكون القول الثابت: هو الإيمان؛ يثبتهم في الحياة الدنيا باختيارهم؛ وفي الآخرة، قيل: في قبورهم؛ يثبتهم لإجابة منكر ونكير، ويمكن لهم ذلك، ويضل الله الظالمين الذين تركوا الإجابة له في الحياة الدنيا وفي القبور؛ حيث تركوا الإجابة في الدنيا.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ هو ما ذكر، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] ثبت من أجاب الله إلى ما دعا في الدنيا، وفي الآخرة يهديه الطريق الذي به يوصل إلى دار السلام، والكافر حيث ترك إجابته إلى ما دعاه، ويضله في الآخرة طريق دار السلام؛ بترك إجابته في الدنيا. والله أعلم بذلك.

وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ في هداية من اختار الإجابة والاهتداء، وإضلال من اختار ترك الإجابة والغواية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ .

---

(١) سقط في أ.

اختلف في نزوله: قال بعضهم: هذه [السورة][١] كلها نزلت بمكة إلا هذه الآية فإنها نزلت بالمدينة. وقال بعضهم: نزلت بمكة كلها.

فمن يقول: نزلت بالمدينة -يقول: قوله: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ . جَهَنَّمَ﴾ هو بَدْر؛ أي: حملوهم إلى بدر حتى قتلوا؛ لأنه لم يكن بمكة بدر؛ إنما كان بالمدينة.

ومن يقول: نزلت بمكة - يقول: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ : هي جهنم؛ على ما فتره ظاهر الكتاب، وهو الأشبه بظاهر الآية؛ لأنه بين تلك الدار؛ فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

وفي الآية دلالة أن الآية [كانت][٢] في عظمائهم وكبرائهم؛ حيث قال: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ . . .﴾ الآية.

ثم اختُلف في النعمة؛ التي ذكر أنهم بدلوها كفرًا؛ فهي تحتمل وجوهًا:

أحدها: أن الله -عز وجل- قد أنعم عليهم في هذه الدنيا؛ ووسعها عليهم؛ فحرموا تلك النعم على أنفسهم؛ فجعلوها للأصنام التي عبدوها وسيبوها؛ ولم ينتفعوا بها، من نحو البَحِيرة التي ذكر، والسائبة، والوَصِيلة، والحامى، وما جعلوا للأصنام هو ما ذكر ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فذلك تبديل النعمة كفرًا؛ حيث حرموا ما أنعم الله عليهم وأحل لهم.

والثاني: تلك النعمة محمد أو القرآن أو الإسلام وهو نعمة، كذبوهم [وكفروهم][٣].

أو أن يكونوا بدلوا الشكر الذي عليهم -بما أنعم عليهم كفرًا، جعلوها سببًا للكفر؛ فلم يشكروه بما أنعم عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ حقيقته يخرج على وجهين:

أحدهما: بدلوا وصرفوا ما أنعم الله عليهم؛ وهو محمد ﷺ عن أنفسهم؛ حتى أخذ منهم؛ بدلوا به كفرًا.

والثاني: بدلوا به كفرًا بعدما سألوا ربهم ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية [النحل: ٣٨]؛ فلم يشكروا ما أنعم عليهم، وبدلوا الشكر كفرًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ .

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

أي: أنزلوا، دل هذا أن الآية نزلت في الرؤساء من الكفرة، والأئمة منهم؛ حيث أخبر أنهم أحلوا قومهم دار البوار. ذكر ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ على الماضي؛ لأنه قد وجد منهم الجناية بالإحلال في دار البوار، وذكر في دخولهم جهنم على الاستئناف؛ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ لما لم يوجد بعد سيوجد، ويجوز أن يستدل بهذا لأصحابنا لمسألة: وهي أن العبد إذا حفر بئرًا ثم أعتق؛ فوقع في البئر إنسان: ينظر إلى قيمة العبد يوم حفر؛ لأن الحفر منه جناية، وإلى الواقع فيه يوم الوقوع لا يوم الحفر؛ لأنه لم يوجد بعد يوم الحفر جناية.

أو أن يقال: أحلوا أرواحهم دار البوار؛ فتدخل أجسادهم يومئذ، لم تدخل بعد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ ثم فسرّ أنهم لم أحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾: أعدالا وأمثالا، ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾.

يحتمل قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ في العبادة؛ يعبدون كما يعبد الله، أو في التسمية؛ يسمونها آلهة؛ كما يسمى الله، جعلوا له أندادًا في هذين الوجهين، يذكر سفههم؛ حيث جعلوا ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا ينفع، ولا يدفع، ولا يضر [أمثالا وأعدالا][١] لله؛ على علم منهم أن الله هو الذي خلقهم، ورزقهم، وينعم عليهم، وهو الذي يدفع عنهم كلّ بلاء وشدة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ هو تفسير ما ذكر؛ من تبديل النعمة كفرًا.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بهذه النعم التي ذكر أنهم بدّلوها كفرًا.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا في قوم ماتوا على الكفر، أو يقول: قل تمتعوا في الدنيا أو تمتعوا بالكفر فإن مصيركم إلى النار، هذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون أبدًا وفيه دلالة إثبات الرسالة.

وقال أبو عوسجة: البوار: الهلاك والفناء، يقال: بار الرجل يبور بورًا؛ فهو بائر، وقوم بور أي: هالكون. ويقال: بارت السوق، وبارت السلعة: إذا كسدت ويقال: بارت المرأة تبور بوارًا؛ فهي بائرة: إذا كبرت. وفي حديث النبي ﷺ: «نعوذ بالله من بوار الأيّم»[٢]؛ قيل: يعني من كسادها. والله أعلم.

---

(١) في ب: أعدالًا وأمثالًا.

(٢) أخرجه الربيع بن حبيب في المسند (٢/ ٣٠) عن جابر بلفظ: «إذا خطب إليكم كفء فلا تردوه ؛فنعوذ بالله من بوار البنات».

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ .

يحتمل [إقامة الصلاة][1] إقامة الإيمان بها؛ كقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٦] هو إقامة الإيمان به، إذ لا يحتمل الحبس إلى أن يقيموا إقامة الفعل والوفاء؛ إذ في ذلك حبسهم أبدًا.

ويحتمل إقامة الوفاء بها والفعل؛ لأنه إنما خاطب المؤمنين على إقامتها، وقد سبق [منهم ما ذكرنا؛ من][2] الإيمان بها. [كيف يحتمل الأمر بإقامتها إقامة الإيمان به، وقد سبق منهم ما ذكرنا من الإيمان بها][3] قيل: هذا جائز يأمرهم بإقامة الإيمان بها في حادث الوقت؛ إذ للإيمان حكم التجدد في كل وقت؛ وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:١٣٦] أي: آمنوا في حادث الوقت؛ فعلى ذلك هذا يحتمل الأمر بإقامتها - إقامة الإيمان بها.

ويحتمل ما ذكر من إقامة الصلاة في الآية؛ والإنفاق - هي الصلاة المعروفة المعهودة، والزكاة المعروفة المفروضة؛ والإدامة لهما واللزوم بهما، ويحتمل القبول والوفاء بهما.

[وقوله -عز وجل-:][4] ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ .

قال الحسن[5]: الأمر بالإنفاق مما رزقناهم الزكوات المفروضات؛ ألا ترى أنه ذكر الوعيد في آخره وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا يحتمل الوعيد في صدقات التطوع؛ وهو ما ذكر أيضًا في آية أخرى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون:١٠] ولا يحتمل طلب الرجوع والتأخير إلى أجل في النوافل؛ دل أنه أراد به الزكوات المفروضات.

وقال بعضهم: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا﴾: هي التطوع، والعلانية: الفريضة؛ لأن الفريضة لا بدّ من أن تظهر وتعلن، وليس في أدائها رياء والله أعلم.

[وقوله -عز وجل-][6]: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ .

---

(١) سقط في ب.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) بياض في ب.
(٥) قاله ابن عباس بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٢٣).
(٦) بياض في ب.

﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾: أي: يوم لا يقدر أحد أن يبيع نفسه من ربه؛ وفي الدنيا يقدر أن يبيع نفسه من ربه؛ كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة:١١١] وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ لا يقدر أحد بيع نفسه من ربه، ويحتمل نفسه. قوله: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾: أي: لا ينفعه بيع نفسه منه في ذلك اليوم؛ وإن باع؛ كقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا...﴾ الآية [غافر:٨٤] فعلى ذلك الأول.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾: هو مصدر خاللت؛ وهو من الخلة والصداقة.

ثم هو يحتمل وجهين:

أحدهما: ألا تنفعهم الخلة التي كانت بينهم في الدنيا؛ لأن كل خلة كانت في الدنيا مما ليست لله فهي تصير عداوة في الآخرة؛ كقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ...﴾ الآية [الزخرف:٦٧] أخبر أن الأخلاء؛ الذين كانوا يخالون في الدنيا؛ للدنيا - فهم الأعداء إلا الخلة التي كانت لله؛ فهي تنفع أهلها؛ وهو ما ذكر -عز وجل-: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥] وأمثاله، يخبر أن الخلة [التي][1] كانت بينهم في الدنيا؛ لا لله؛ فهي تصير عداوة في الآخرة؛ حتى يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا.

والثاني: أن يكون لهم شفعاء وأخلاء؛ ولكن لا يشفعون؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] أو يشفع لهم لكن لا تقبل؛ كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ إلى آخر ما ذكر. فيه دلالة أن تدبير الله محيط متسق بجميع ما في السموات والأرض، وعلمه محيط بجميع الخلائق؛ حيث ذكر [أنه:][2] ﴿وَأَنزَلَ مِنَ

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني البشر، جعل[١] منافع السماء متصلة بمنافع الأرض؛ [مع][٢] بعد ما بينهما؛ دل أنه عن تدبير، فعل هذا وعلم، وأنه تدبير واحد؛ عليم؛ قدير.

ثم ما ذكر: من تسخير السموات والأرض؛ مع شدة السماء وصلابتها، وغلظ الأرض وكثافتها، وتسخير البحر؛ مع أهواله وأمواجه، وتسخير الأنهار الجارية، وتسخير الشمس، والقمر، والليل، والنهار لهذا البشر.

في ذلك كله وجهان:

أحدهما: يذكرهم نعمه التي أنعمها عليهم؛ من المنافع التي جعل لهم؛ في تسخير هذه الأشياء التي ذكر لهم؛ على جهل هذه الأشياء أنهن مسخرات لغيرهن؛ يستأدي بذلك شكرها.

والثاني: يذكر سلطانه وقدرته؛ حيث سخر هذه الأشياء؛ مع شدتها، وصلابتها، وغلظها، وأهوالها. ومن قدر على تسخير ما ذكر -قادر على البعث والإحياء بعد الموت.

ويحتمل ما ذكر؛ من تسخير الأشياء التي ذكر: أنه أنشأ هذه الأشياء مسخرة مذللة لنا، والثاني: سخر لنا؛ أي: علَّمنا من الأسباب والحيل التي يتهيأ لنا الانتفاع بها والتسخير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

فيه لغتان وتأويلان قال بعضهم: ﴿وَآتَاكُمْ مِّنْ كُلٍّ﴾؛ على التنوين؛ ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ على الجحد؛ أي: آتاكم من غير أن سألتم الأشياء التي ذكر أنه سخرها لنا؛ أي: آتاكم من غير سؤال ولا طلبة.

والثاني: وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه؛ لأنه أعطانا أشياء قبل أن نعلم أنه يجب أن نسأله؛ حيث خلق هذه الأشياء التي ذكر من قبل أن يخلقنا.

وقال الحسن[٣]: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ قال: ما لم تسألوه؛ وهو ما ذكرناه؛ فإن قيل: إنا نسأل أشياء لم نعطها؛ فما معنى الآية؟ قيل بوجوه[٤]:

أحدها: ذكر حرف التبعيض؛ وهو ما قال: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

والثاني: وآتاكم علم منافع ما سألتموه قبل أن تسألوا؛ وجهه علم الانتفاع به.

والثالث: وآتاكم من كل ما يحق السؤال ويليق به.

---

(١) في ب: أنه جعل.
(٢) سقط في أ.
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠٨٢٩)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٥٨).
(٤) في ب: لوجوه.

على هذه الوجوه تخرج الآية. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

قال بعضهم: لا تحصوها؛ أي: لا تشكروها؛ أي: لا تقدروا شكرها. وقال بعضهم[١]: أي: لا تقدروا إحصاءها وعدها، وهكذا إن أقل الناس نعمة لو تكلف إحصاء ما أعطاه ما قدر عليه؛ من حسن الجوهر والصورة، واستقامة التركيب والبنية، وسلامة الجوارح، وغير ذلك مما لا سبيل له إلى ذكرها وإحصائها؛ إلا بعد طول التفكر والنظر.

وقال بعضهم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: لا تحيطوا بكنهها ونهايتها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

[الظلوم][٢]: أي: ظلم نفسه؛ حيث صرفها إلى غير الجهة التي جعلت وأمر، وأدخلها في المهالك، وألقاها في[٣] التهلكة[٤].

كفّار لنعمه؛ حيث صرف شكرها إلى غير الذي جعلها له. والله أعلم.

واستدل بعض المعتزلة بقوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أن صاحب الكبيرة يخلد في النار؛ لأنه أوعد بترك الصلاة والزكاة التخليد أبدًا، وترك الصلاة والزكاة من غير عذر -من الكبائر، دل أنه ما ذكرناه.

فنقول نحن - وبالله التوفيق-: إن الآية تحتمل الأمر بإقامة الصلاة؛ وما ذكر من الزكاة والصدقة إقامة الإيمان بها؛ على ما ذكرنا من تأويل بعض المتأولين، فإن كان على هذا على إقامة الإيمان بها - فمن ترك ذلك فهو - يخلد أبدًا لا شك فيه، أو يكون من استحل تركها؛ فهو بالاستحلال يكفر؛ فهو يخلد، أو يترك لعذر؛ فهو لا يخلد على اتفاق القول.

فإذا كان ما ذكرنا محتملا دل أن الآية مخصوصة.

ثم معرفة تخليد صاحب الكبيرة إنما هي بالدلائل سوى هذا، إذ ليس في ظاهر الآية دلالة التخليد؛ لما ذكرنا من احتمال الخصوص، دل أنه إنما يطلب الدليل من وجه آخر.

---

(١) قاله البغوي في تفسيره (٣/ ٣٦).
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: إلى.
(٤) وقال ابن الخطيب: كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما: كونك ظلوما كفارا، ولي وصفان عند إعطائها وهما: كوني غفورا رحيما، فكأنه - تعالى - يقول: إن كنت ظلوما فأنا غفور، وإن كنت كفارا فأنا رحيم، أعلم عجزك، وقصورك، فلا أقابل جفاك إلا بالوفاء.
ينظر: اللباب (١١/ ٣٩٢).

قال القتبي[(١)]: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ مصدر خاللت فلانًا خلالا ومخالة، والاسم الخلة والمخلة؛ وهي الصداقة.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾: قال: من المخالة؛ يعني المودة. ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: قال: يجريان أبدًا، وهو من الدوب؛ أي: التعب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

أي: مأمنًا، سمي آمنا، لما يأمن الخلق فيه؛ كما سمي النهار مبصرًا، والنهار لا يبصر ولكن يبصر فيه، ومثله كثير.

ثم يحتمل قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ قال بعض أهل التأويل: إنما طلب إبراهيم أن يجعله آمنًا على أهله وولده خاصة، لا على الناس كافة؛ إذ قد سفك فيه الدماء، وهتك فيه الحرم؛ دل أنه جعله آمنا على أهله وولده خاصة، ولكن لو كان ما ذكروا محتملا - ما يصنع[(٢)] بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٦٧] وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وغيره من الآيات.

أخبر أنه جعل تلك البقعة مأمنًا للخلق يأمنون فيها.

ثم يحتمل وجهين:

أحدهما: جعله آمنًا بحق الابتلاء والامتحان، ألزم الخلق حفظ تلك البقعة عن سفك الدماء فيها، وهتك الحرم، وغير ذلك من المعاصي، وإن كانوا ضيعوا ذلك، وعملوا فيها ما لا يصلح؛ كالمساجد التي بنيت للعبادة وإقامة الخيرات - ألزم أهلها وعلى جميع الخلائق حفظها عن إدخال ما لا يصلح ولا يحل، ثم إن الناس قد ضيعوا ذلك، وعملوا فيها ما لا يليق بها ولا يصلح، فعلى ذلك الحرم الذي أخبر أنه جعله مأمنًا.

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٣).
(٢) في أ: يضع.

والثاني: جعله مأمنًا بالخلقة من ذا الوجه، يجوز أن يقال: كيف سفك فيه الدماء وهتك فيه الحرم؛ وهو بالخلقة جعله مأمنًا؟

قيل: يجوز هذا بحق العقوبة؛ وإن كان [بالخلقة][1] آمنًا؛ ألا ترى أنه قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ الآية [النساء: ١٦٠] الطيبات بالخلقة حلال؛ لكنه حرم عليهم ذلك بالظلم الذي كان منهم؛ بحق العقوبة والانتقام، فعلى ذلك الحرم؛ جعله مأمنًا بالخلقة، ثم قتل فيه عقوبة؛ لما كان منهم من المعاصي. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف دعا وطلب منه العصمة؛ وقد عصمه بالنبوة والرسالة؛ واختارهما[2] له من ذلك كله؟

قال بعض أهل التأويل: إنما سأل عصمة ولده وذريته؛ لما علم أن ذريته قد يختلفون في دين الله وتوحيده، وما ذكر نَفْسَهُ؛ لما المعروف أنّ من دعا لآخر بدأ بنفسه.

قالت المعتزلة: دعاء إبراهيم وطلبه العصمة؛ مما ذكر؛ يدل أنه [قد][3] يجوز أن يدعى بدعوات عبادة؛ وإن كان قد أعطاه ذلك، أو يعلم أنه مغفور.

قيل: دعاء إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام؛ يجوز أن يكون عصمتهم كانت مقرونة [بما طلبوه][4] منه، وسألوه وتضرعوا إليه؛ إذ معلوم أنهم لم يستفيدوا تلك العصمة؛ بإهمالهم [أنفسهم][5] وتركهم إياها سُدًى؛ بل إنما أوجب لهم ذلك بما أجهدوا أنفسهم في طاعة الله.

ثم الآية على المعتزلة من وجهين:

أحدهما: أن إبراهيم طلب منه العصمة عن عبادة الأصنام، وهو علم أنه يعتصم إذا عصمه عن ذلك، واهتدى إذا هداه، وهم يقولون: الله يعصم ولا يعتصم العبد، ويهدي ولا يهتدي العبد. ويقولون: إذا أعطى أحدًا ذلك، خرج ذلك من يده، ولا يملك إعطاء ذلك، فعلى قولهم تخرج دعوات الرسل على الاستهزاء أو على الكتمان؛ لأن من سأل من آخر شيئًا يعلم أنه ليس ذلك عنده؛ فهو هزء، أو سأل وهو يعلم أنه قد أعطاه ذلك؛ فهو كتمان، وكان خوف الأنبياء والرسل والكبراء من الخلق أشد وأكثر على دينهم، والزيغ عما هم عليه؛ لما خافوا أن يكونوا عند الله على غير ما هو عند أنفسهم، كانوا أبدًا

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: اختارها.
(٣) سقط في ب.
(٤) سقط في أ.
(٥) سقط في أ.

وجلين خائفين على سلب ما هم عليه، وهكذا الواجب أن يكون الخوف على من نعمه عليه أكثر؛ فخوفه أشد.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ أي: باعدني، وجنبني أيضًا. وقال القتبي[١]: أي: جنبني وإياهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾.

نسب الإضلال إلى الأصنام - وإن لم يكن لها صنع في الإضلال لأنهم بها ضلوا، وكانت الأصنام سبب إضلالهم، وقد تنسب الأشياء إلى الأسباب، وإن لم يكن للأسباب صنع فيها نحو ما ذكرنا من قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ...﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورة لا تزيدهم رجسًا، لكن نسب الرجس إليها لما كانت هي سبب زيادة رجسهم، وهو أنها لما نزلت يزداد لهم بها تكذيبًا وكفرا بها، فنسب ذلك إليها، فعلى ذلك الأول.

والثاني: ينسب إلى الأحوال التي كانت بها؟ ما لو كانت تلك بذوات الأرواح، لكانت تضل وتغوي [كذي الروح] ممن يكون منه الإضلال، لأنها تزين وتحلى بالأشياء؛ نحو ما نسب الغرور إلى الدنيا؛ وإن كانت الدنيا لا تغر؛ لأنها تكون بحال لو كانت تلك الأحوال من ذي الروح لكان ذلك تغريرًا، فعلى ذلك نسبة الإضلال إلى الأصنام. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾.

يشبه أن يكون ﴿مِنِّيۖ﴾: أي: موافقي في الدين، أو في الولاية، وحاصله - والله أعلم-: معي في الدين وفي أمر الدين، وكذلك [معنى ما روي:][٢] «من غش فليس منا» أي: ليس بموافق لنا، أو ليس معنا، أو ليس من ملتنا، وكذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: من ملتي.

وحاصله: فمن تبعني وأجابني فيما دعوته إليه وأمرته به فإنه مني؛ أي: مما أنا عليه، وكذلك قوله: «من غش فليس منا»[٣] أي: ليس مما نحن عليه.

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٣).
(٢) سقط في أ.
(٣) أخرجه مسلم (١/ ٣٤٨- الأبي) كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا» حديث (١٦٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٢/ ٢٩٤) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش حديث (٣٤٥٢)، والترمذي (٣/ ٥٧٩) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيع حديث (١٣١٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٩) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (١/ ٥٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٢)، والحميدي (٢/ ٤٤٧) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في (المنتقى) رقم (٥٦٤)، وابن حبان (٤٩٠٥ - الإحسان)، وابن منده في (الإيمان) رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢) والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٨-٩)، والبيهقي (٥/ ٣٢٠) كتاب البيوع، كلهم من طريق =

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

يشبه قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ليس عصيان شرك، ولكن عصيان ما دون الشرك؛ فإنه غفور رحيم. أو من عصاني فإنك غفور؛ أي: ساتر عليه الكفر إلى وقت معلوم؛ إذ الغفران: هو الستر؛ فستر عليه إلى أجل؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أو يقول: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : أي: تمكن له من التوبة والإسلام؛ فيسلم ويتوب؛ فتغفر له ما كان منه من العصيان؛ وترحم عليه.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دعوته إليه وأمرته به ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تمكن له من التوبة، والرجوع عما كان؛فتغفر له وترحمه.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ .

لا يحتمل أن يكون قال هذا أول ما قدم تلك البقعة؛ لأنه قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولا بيت هنالك، دل أنه إنما دعا بهذه الدعوات: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ وما ذكر ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ . . .﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى آخر ما ذكر؛ بعد ما رفع البيت.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ دل أنه إنما أسكن بعض ذريته؛ لم يسكن ذريته كلها؛ حيث قال: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ .

قد امتحنه الله بمحن ثلاثة؛ لم يمتحن بمثلها أحدًا من الأنبياء:

أحدها: امتحنه بإسكان ولده بواد غير ذي زرع؛ وغير ذي ماء، مما لا يحتمل قلب بشر تركه في مثل ذلك المكان مثله، دل أنه إنما فعل بأمر من الله تعالى.

والثاني: امتحنه بذبح ولده حتى إذا أشرف على الهلاك - فداه الله تعالى بكبش.

[والثالث][1]: امتحنه بإلقائه في النار؛ فألقى حتى إذا أشرف على الهلاك - جعلها الله

= العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.
قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك فالحديث في صحيح مسلم كما تقدم في التخريج.
وللحديث شواهد من حديث ابن عمر وأبي بردة بن يسار وابن مسعود والحارث بن سويد وقيس ابن أبي غرزة وأبي الحمراء وعائشة .
حديث ابن عمر:
أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) والبزار (٢/ ٨٢) رقم (١٢٥٥) من طريق ابن معشر عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا».
والحديث ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٨٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في (الأوسط) وفيه أبو معشر وهو صدوق وضعفه جماعة.

(١) سقط في أ.

تعالى عليه بردًا وسلامًا.

ففي ذلك كله دلالة رسالته.

وكانت له هجرتان: إحداهما إلى مكة؛ حيث أسكن فيها ولده، والهجرة الثانية إلى بيت المقدس؛ وهو ما ذكر: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا...﴾ الآية [الأنبياء: ٧١].

ثم قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ هو دعاء بتعريض لا بتصريح، والدعاء بالتعريض؛ والسؤال بالكناية أبلغ وأكثر من السؤال بالتصريح، وهو كدعاء آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾ الآية [الأعراف: ٢٣] فهذا أبلغ في السؤال من قوله: اغفر لنا وارحمنا؛ لأن مثل هذا قد سئل من دونه؛ ولا يكون فيه ما ذكر فيه من الخسران.

وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ يحتمل أن يكون كلمة (من) صلة؛ أي: أسكنت ذريتي، ويحتمل على التبعيض؛ أي: أسكنت بعض ذريتي، على ما ذكر في بعض التأويلات: إسماعيل وإسحاق.

وقوله -عز وجل-: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

يحتمل قوله: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ وجهين:

أحدهما: حرمه أن يستحل فيه ما لا يحل ولا يصلح؛ لكنه خص تلك البقعة بالذكر؛ وإن كان ذلك لا يحل في غيرها من البقاع؛ لفضل الحرمة التي جعلها الله لها، كما خص المساجد بأشياء؛ لفضلها على غيرها من الأمكنة والبقاع.

والثاني: قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾: أي: الممنوع؛ يقال: حرم: أي: منع؛ كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] ليس ذلك على التحريم ألا يحل له المراضع؛ ولكن على المنع؛ أي: منعنا عنه؛ لنرده إلى أمه، فعلى ذلك قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: الممنوع عن الخلق لله؛ حتى لم يقدر واحد[1] من الفراعنة والملوك الغلبة عليها وإدخالها في منافع أنفسهم، بل هي ممنوعة عنهم؛ على ما كان، وفيه آية الوحدانية له والألوهية. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

قال بعض أهل التأويل: فيه تقديم يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ليقيموا الصلاة لك عند بيتك.

---

(١) في ب: أحد.

ويحتمل أيضًا غير هذا؛ وهو أن يقال: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: ليس فيه ما يشغلهم عن الصلاة؛ لأن الزرع وغيره من النعيم يمنع الناس عن إقامة الصلاة، [والعبادة لهم، أي: أسكنت من ذريتي بواد ليس فيه زرع يشغلهم عن إقامة الصلاة][١] ثم يحتمل الصلاة: الصلاة المعروفة، ويحتمل الصلاة: الدعاء والأذكار؛ وغيرها من الدعوات، ويحتمل قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾: [الصلاة][٢] نفسها؛ وغيرها من الطاعات، وكذلك قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾.

يحتمل سؤاله ربه - أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم - وجهين:

أحدهما: لما أسكن ذريته في مكان لا ماء[٣] فيه ولا نبات ولا زرع؛ ففى مثل هذا المكان يستوحش المقام فيه؛ فسأل ربه أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم؛ ليأتوا ذلك المكان؛ فتذهب عنهم تلك الوحشة؛ فيستأنس بهم، أو سأله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم؛ ليتعيشوا بما ينقل إليهم من الزاد والأطعمة إذ أسكنهم في مكان لا زرع فيه، ولا ماء يعيشون فيه به، وقد جعل الله بنية هذا البشر؛ أن لا قوام لهم إلا بالأغذية والأطعمة، فسأل ربه؛ ليتعيشوا بما يحمل إليهم.

وقال أهل التأويل[٤]: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ للحج، وقالوا: لو قال: فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم؛ ولم يقل (من) لحجه الخلق جميعًا: الكافر والمؤمن، لكن لا يحتمل عندنا أن يكون سؤاله للخلق جميعًا أو يكون قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] للخلائق جميعًا: للكافر والمؤمن، بل يرجع ذلك إلى خصوص. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

يحتمل: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك الثمرات، ويحتمل: لعلهم يشكرون بما جعل لهم من التعيش بما يحمل[٥] إليهم من الأغذية والأطعمة.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ليس على تخصيص الثمرات، ولكن سأل الثمرات وما

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: بناء.
(٤) قاله سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٥٠) وعن مجاهد (٢٠٨٥١، ٢٠٨٥٢، ٢٠٨٥٣) وعكرمة (٢٠٨٥٤)، وغيرهم وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٦١).
(٥) في ب: يحل.

به غذاؤهم وقوامهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ .

لا يحتمل أن يكون مثل هذا الدعاء [منه](١) مبتدأ، بل كأنه -والله أعلم- عن نازلة دعاه؛ إذ يعلم صلوات الله عليه أنه كان يعلم ما يخفون وما يعلنون، لكن لم يبين: ما تلك النازلة؟ وأهل التأويل يقولون: قال هذا؛ أي: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ من الحزن والوجد على إسماعيل وأمه حين تركهما بوادٍ لا ماء فيه ولا زرع، ويقولون: ﴿وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ وهو قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ ، لكن لا نعلم ذلك. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ .

كان هذا جوابًا عن الله وإخبارًا منه إياه؛ أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ أي: لا يخفى عليه ما لا أمر فيه ولا نهي ولا جزاء؛ فكيف يخفى عليه الأعمال التي عليها الجزاء والأمر؟

وقوله -عز وجل-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ .

قال أهل التأويل(٢): إنه وهب له الولد؛ وهو ابن كذا وامرأته ابنة كذا؛ لكن لا نعلم ذلك سوى ما ذكر أنه وهب له الولد على الكبر في وقت الإياس عن الولد؛ حيث بشر بالولد؛ فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤] وحيث قالت امرأته لما بشرت بالولد ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ﴾ [هود: ٧٢] يعلم أنه وهب له الولد؛ وهما كانا كبيرين في وقت الإياس عن الولد.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ يكون حمده على الأمرين جميعًا: على الهبة؛ وعلى الولادة في حال الكبر؛ وهو حال الإياس؛ إذ كل واحد مما يوجب الحمد عليه والثناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ قيل: لمجيب الدعاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ﴾ .

قد سبق من الله الأمر بإقامة الصلاة؛ وهو المقيم لها؛ فدل الدعاء منه والسؤال؛ على أن يجعله مقيم الصلاة -أن عند الله لطفا سوى الأمر لم يعطه؛ فسأله ذلك؛ هو التوفيق.

وعلى قول المعتزلة؛ لقولهم: إنه قد أعطى كل شيء حتى لم يبق عنده ما يعطيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ .

(١) سقط في ب.
(٢) قاله سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٦٥).

قال بعضهم: تقبل دعائي في إقامة الصلاة لنفسه وذريته؛ لكن لا يجب أن يخص دعاء من الدعوات التي سأل ربه؛ وقد دعا ربه بدعوات كثيرة؛ نحو ما قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ ، وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، وغير ذلك من الدعوات.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ .

طلب من ربه المغفرة لوالديه.

قال الحسن: إن أمّه كانت مسلمة، وأما أبوه: فكان[١] كافرًا؛ لأنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦] فخص[٢] والده بالضلال؛ دل أن أمه كانت مسلمة؛ لكنا لا نعلم ما حال الأم: أمه كانت مسلمة أو كافرة، وأما أبوه فهو لا شك أنه كان كافرًا.

ثم [لا][٣] يحتمل دعاؤه لوالديه؛ وهما كافران؛ إن كانت[٤] أمّه كافرة؛ إلا على إضمار الإسلام؛ أي: اغفر لهما إن أسلما، أو أن يكون سؤاله المغفرة لهما سؤال الإسلام نفسه، أو أن يكون طلب منه الستر عليهما في الدنيا، وألّا يفضحهما ولا يخزيهما، لكنه سأل المغفرة يوم يقوم الحساب. ولا يحتمل طلب الستر إلا أن يفصل بين قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يبتدئ بالمؤمنين يوم يقوم الحساب، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم ودعاء إبراهيم وسؤاله المغفرة لوالديه يكون سؤال السبب؛ الذي يستحقان به المغفرة من ربها، ويكونان أهلا لها؛ وهو التوحيد ومعرفة المولى؛ وهو ما ذكرنا في أمر نوح قومه الاستغفار له، وكذلك قول هود؛ حيث قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ...﴾ الآية [هود:٥٢] وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ : بالعدل؛ يقول الرجل لآخر: أقم حسابي أي: اعْدل فيه. وإقامة الحساب: العدل فيه؛ على ما توجبه[٥] الحكمة، لا يزاد ولا ينقص؛ كقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٦] قال بعضهم[٦]: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ : يوم يحاسبون، قيام الحساب: هو المحاسبة نفسها والله أعلم.

---

(١) في ب: كان.
(٢) في ب: خص.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: كان.
(٥) في أ: يوجب.
(٦) قاله البغوي (٣/ ٣٩).

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ كانت له حاجات أخفاها، طلب قضاءها؛ فقال: تعلم حاجاتي؛ أخفيتها، أو أعلنتها فاقضها لي، أو أن يكون قومه طعنوا في شيء؛ فقال ذلك على التبري من ذلك؛ إنه يعلم ما نخفي وما نعلن، ولم يعلم ذلك الذين يطعنون في ﴿مِنِّي﴾ والله أعلم؛ كقول عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦] أو أن يكون قال ذلك؛ لأن أهل الأديان جميعًا كانوا يوالون إبراهيم ويدعون أنه على دينهم؛ ولذلك قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...﴾ [آل عمران: ٦٧] الآية.

برأه الله مما ادعى كل فريق.

ثم منهم؛ من كان من هذه الفرق؛ يدعون الأسرار عن الله والإخفاء عنه؛ فقال هذا ليعلم الناس توحيده؛ أنه لا يخفى عليه شيء؛ أُخفي أو أعلن؛ ليعرفوا توحيده أنه ليس شيء يخفى عليه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال بعضهم: المخاطب بهذا الرسول ﷺ خاصة؛ على علم منه أن رسول الله كان لا يظن أن الله يغفل عما يعمل الظالمون؛ لكنه خاطب به كما خاطب به في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وأمثاله، نهاه مع العلم أنه لا يفعل[1] ذلك، وأصله في هذا أن العصمة لا ترفع المحنة، وليس المحنة إلا الأمر والنهي؛ إذ لو رفعت العصمة المحنة؛ والأمر والنهي؛

(١) في أ: يغفل.

لذهبت فائدة العصمة، ولا حاجة تقع إليها، فدل أن العصمة تزيد في المحنة، ومع المحنة يحتاج إليها وينتفع بها.

ويحتمل أن يكون الخطاب بالآية غيره، كل ظانّ يظن بالله الغفلة عن ظلم الظالم؛ وهو كما خاطب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] إنما خاطب به كل غارّ بربه الكريم لا كل إنسان، فعلى ذلك خاطب بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كل ظانّ بالله الغفلة عن ظلم الظالمين[١]، ثم إن الذي حملهم على الظن بالله الغفلة عن ظلم الظالم - حلمه[٢]، وتأخيره العذاب عنهم عن وقت ظلمهم، وترك أخذهم بذلك: فمنهم من ادعى الغفلة عن ذلك؛ لما رأوا من عادة ملوك الأرض أن من ظلم [أحدًا][٣] منهم انتقم منه في أعجل وقت يقدر على الانتقام منه؛ فحمل تأخير الله العذاب منهم؛ والانتقام منهم- على القول بالغفلة. ومنهم من ادعى الرضا؛ بما اختاروا هم من الشرك والكفر بالله، وادعوا الأمر بذلك؛ لما لم يأخذهم ولم يستأصلهم بصنيعهم؛ فاستدلوا بذلك [على] رضاه بفعلهم[٤]، وأمره إياهم بذلك. فأخبر رسوله أن تأخيره العذاب عنهم وإمهاله إياهم - ليس عن غفلة [عنه][٥] ولا عن سهو، ولا لرضاه به وأمره ولكن إنما يؤخرهم ليوم، ثم وصف ذلك اليوم؛ لشدة فزعه وهوله فقال.

﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾

قال بعضهم: هذا كله يرجع إلى الطرف والبصر؛ يقول: شاخصة أبصارهم مهطعين: ناظرين إليه؛ أي: إلى الداعي، مقنعي رءوسهم: رافعي رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم؛ لهول ذلك اليوم، هذا كله يصرفون إلى الأبصار دون النفس؛ لأن الإهطاع والإقناع: هو للنظر ولشخوص الأبصار.

ومنهم من صرف قوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، و ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ إلى البصر، وصرف قوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ إلى الأنفس؛ وهو ما ذكر في موضع آخر: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي: مسرعين إليه الإجابة؛ رجاء التخلص والنجاة عما حل بهم؛ بترك الإجابة.

---

(١) في أ: الظالم.
(٢) في أ: حمله.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: بفعله.
(٥) سقط في أ.

والإهطاع: قيل[١]: هو النظر الدائم، والإقناع: هو الرفع؛ رفع الرءوس، مهطعين: أي: مديمي النظر، مقنعي رءوسهم أي: رافعيها، وعلى تأويل بعضهم[٢]: مسرعين؛ على ما ذكرنا. وقال بعضهم[٣]: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي: رافعيها؛ ملتزقة إلى أعناقهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. [يخرج على وجهين: أحدهما: يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾][٤] وقت خلقه الخلق وإنشائهم؛ عما يكون منهم من الظلم؛ أي: لا عن غفلة وسهو عن ظلم الظالمين أنشأهم وخلقهم؛ ولكن على علم بما يكون منهم أنشأهم وخلقهم؛ لكن أنشأهم على علم منه؛ [بذلك؛ لأن منافع ما يكون منهم وضرره يرجع إليهم؛ فلم يخرج إنشاؤه إياهم على علم منه ذلك][٥] عن الحكمة.

والثاني: ما ذكرنا أن تأخيره العذاب عنهم - ليس لغفلة منه بذلك؛ ولكن لما في أخذهم بالعذاب وقت صنيعهم زوال المحنة؛ لأنه يصير العذاب والثواب مشاهدة. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

[قيل][٦]: خالية؛ لهول ذلك اليوم؛ أي: خالية عن التدبير؛ لأن في الشاهد أن من بلي ببلايا وشدائد يتدبر ويتفكر في دفع ذلك؛ فيخبر أن أفئدتهم هواء يومئذ: أي: خالية عن التدبير؛ إذ أفئدتهم لا تكون معهم؛ لشدة أهواله.

وقال بعضهم[٧]: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: لا شيء فيها؛ ما ينتفعون بها، وهكذا الهواء - هواء كل شيء - يوصف بالخلاء عن كل شيء. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ

---

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٧١) وعن أبي الضحى (٢٠٨٧٢)، والضحاك (٢٠٨٧٤،٢٠٨٧٦) ومجاهد (٢٠٨٧٧،٢٠٨٧٨)، وانظر: الدر المنثور (٤/١٦٣).

(٢) قاله سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٦٨)، وعن قتادة (٢٠٨٦٩،٢٠٨٧٠)، وانظر: الدر المنثور (٤/١٦٣).

(٣) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٨٨٠) وعن مجاهد (٢٠٨٨١،٢٠٨٨٢) والضحاك (٢٠٨٨٥، ٢٠٨٨٨) وغيرهم.

(٤) سقط في ب.

(٥) سقط في أ.

(٦) سقط في أ.

(٧) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩٠١)، وعن مجاهد (٢٠٩٠٢) وابن زيد (٢٠٩٠٣) وغيرهم.

أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قولهم الذي يقولون يومئذ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ . ويحتمل: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي يحل بهم.

ثم أخبر عما يقولون -إذا حل بهم العذاب-: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ قال بعضهم: إلى الدنيا؛ والدنيا أجلها قريب، لكن هذا لا يحتمل؛ لأن الدنيا أولى، والآخرة آخرة، فلو جاز هذا لتكون الآخرة أولى؛ فذلك بعيد، لكن طلبوا -والله أعلم- الرد إلى حال الأمن؛ ليجيبوا داعيه؛ إذ لم تنفعهم إجابتهم في حال الخوف والهول، وما حل بهم إنما حل بتركهم [الإجابة][(١)] في حال الأمن؛ فطلبوا الرد إلى الأمن؛ ليجيبوا داعيه لتنفعهم إجابتهم؛ حيث قالوا: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ .

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ .

لم يبين بما أقسموا في هذه الآية؛ وهو ما بين في آية أخرى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨].

ثم قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ : قال قائلون: ما لكم من زوال من الدنيا، أي: كنتم تقولون: أن ليس إلا الدّنيا لا زوال لنا عنها؛ أحياء وموتى؛ كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾ الآية [المؤمنون:٣٧] على ما ذكر من قسمهم أنهم لا يبعثون.

وقال قائلون: قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ جواب لسؤالهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ على الاستئناف؛ قال: ما لكم عما أنتم فيه من العذاب إلى ما تسألون من المدة والتأخير؛ أي: ما لكم إلى ذلك سبيل.

وقال بعضهم[(٢)]: في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ : أي: تنزع قلوبهم؛ حتى صارت في حناجرهم؛ فلا تخرج من أفواههم، ولا تعود إلى أماكنها؛ لشدة هول ذلك اليوم وفزعهم عليه، وهو على التمثيل والكناية؛ كقولهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ...﴾ الآية [الأحزاب:١٠]؛ لشدة خوفهم، وهو على التمثيل؛ إذ لا يحتمل بلوغ القلوب الحناجر في الدنيا حقيقة؛ إذ لو بلغت ذلك لخرجت فماتوا، إذ الدنيا يحتمل الموت فيها، فدلّ أن ذلك على التمثيل لشدّة خوفهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم الرسل.

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله أبو الضحى، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩٠٧)، وعن قتادة (٢٠٩٠٨، ٢٠٩٠٩)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٦٤).

[وتأويله - والله أعلم-: أنهم كانوا يطلبون من ربهم الرد إلى حال الأمن؛ ليجيبوا بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾؛ والله أعلم، فقال: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتكذيبهم الرسل][1]؛ أي: سكنتم في الدنيا في مثل منازلهم ومساكنهم؛ فرأيتم ما نزل بأولئك الذين صنعوا مثل صنيعكم.

وذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ من التعذيب والاستئصال ثم لم يتعظوا بما حلّ بهم، فعلى ذلك إذا رددتم إلى حال الأمن لا تتعظون بما حلّ بكم في هذه الحال، وهو ما قال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] فيما يقولون: إنهم يجيبون دعوته، هذا -والله أعلم- تأويله.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: أي: عملتم مثل أعمالهم، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ من الاستئصال بالتكذيب؛ بتكذيبهم الرسل؛ فلم تتعظوا بذلك؛ فلا تتعظون بهذا أيضًا إذا رددتم. والله أعلم.

وفي قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ...﴾ إلى آخر ما ذكر: دلالة لزوم النظر والاستدلال، ولزوم القياس، ودلالة لزوم العقوبة؛ وإن كان لم يعلموا به؛ بعد أن مكنوا من العلم به.

أما دلالة النظر والاستدلال: هو قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: فهلا نظرتم ما حلَّ بهم من تكذيبهم الرسل؛ واتعظتم به.

ودلالة القياس: هو ما خوفهم أن ينزل بهم ما نزل بأولئك؛ لأنهم اشتركوا في المعنى الذي نزل بأولئك؛ ما نزل وهو تكذيبهم الرسل، وسوء معاملتهم إياهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: أي: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾؛ ما لو تفكرتم فيها ونظرتم ثم لكان ذلك لكم موعظة وزجرًا عن مثل صنيعكم. أو يقول: وضربنا لكم الأمثال: أي: قد بينّا لكم الأمثال والأشباه ما يعرفكم؛ لو تأملتم أن أولئك لكم أشباه وأمثال، وصنيعهم لصنيعكم أشباه وأمثال؛ فينزل بكم ما نزل بهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾.

[مكروا][2] واحتالوا على إهلاك الرسل وقتلهم؛ كقوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآية [الأنفال:٣٠] وكيدهم الذي ذكر - في غير آي من القرآن - برسل الله؛ حتى قال الرسل فيكيدوني جميعًا، ومكروا أيضًا بدين الله الذي أتت به الرسل، مكروا

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) سقط في أ.

واحتالوا على إطفاء ذلك النور؛ فأبى الله ذلك عليهم، وأظهر دينه، وأبقى نوره إلى يوم القيامة، كقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، كأن مكرهم وحيلهم يرجع -فى أحد التأويلين- إلى أنفس الرسل حين هموا وتعمدوا إهلاكهم.

والثاني: يرجع إلى إطفاء الدِّين؛ [الذي][١] أتى به الرسل؛ والنور الذي دعوا إليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ .

يحتمل: عند الله جزاء مكرهم؛ الذي مكروا برسل الله وبدينه.

[أو][٢] ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ : أي: عند الله العلم[٣] بمكرهم، محفوظ ذلك عنده، لا يفوت ولا يذهب عنه شيء؛ فيجزيهم بذلك في الآخرة.

أو ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ : أي: عند الله الأسباب التي بها مكروا، من عند الله استفادوا؛ وهو النعم التي أعطاهم، والأموال التي ملكهم، والعقول التي ركب فيهم؛ بما قدروا على المكر والاحتيال عند الله[، ذلك كله،][٤] والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ .

اختلف في تلاوته، وقراءته، وتأويله:

قرأ بعضهم[٥]: ﴿وإن كاد مكرهم﴾ بالدال؛ وهو حرف عبد الله[٦] بن مسعود، وأبي، وابن عباس[٧] رضي الله عنهم. وقرأ بعضهم[٨] ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بالنون.

ثم اختلف في قوله: ﴿وَإِن كَانَ﴾ .

وقال الحسن[٩] وغيره: و (إن) بمعنى: (ما)، أي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، قال: كان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال، و(إن) بمعنى: (ما) كثير في القرآن، كقوله: ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا فاعلين؛ وكقوله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١] أي: ما نحن إلا بشر مثلكم.

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) في ب: العمل.

(٤) سقط في أ.

(٥) ينظر: اللباب (١١/ ٤١٣)، والمحرر الوجيز (٣/ ٣٤٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٥)، وأخرجه ابن الأنباري، كما في الدر المنثور (٤/ ١٦٥)، ابن جرير (٢٠٩٣٢).

(٦) في الأصول: عمرو. والصواب المثبت.

(٧) أخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤/ ١٦٦).

(٨) منهم ابن مسعود أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩٢١)، وعلي بن أبي طالب، أخرجه ابن المنذر وابن الأنباري عنه، وأبي بن كعب أخرجه ابن الأنباري عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٦٥).

(٩) أخرجه ابن جرير (٢٠٩٣٧، ٢٠٩٣٩)

وقد تستعمل (إن) في موضع (قد)؛كقوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:١٠٨] أي: قد كان وعد ربنا لمفعولا.

فمن حمله على (ما) فقد استهان بمكرهم، واستخف به؛ فقال: إن مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال، والجبال أوهن وأسرع زوالا من رسالة الرسل ودين الله، بل رسالة الرسل؛ ودين الله [أثبت من الجبال، لأن دين الله][(١)] ورسله معهما حجج الله وبراهينه، فإذا لم يعمل مكرهم في إزالة الجبال - لا يعمل في إزالة دين الله ورسالة الرسل، ومعهما الحجج والبراهين.

ومن قال: ﴿وَإِن كَانَ﴾ : قد حمله على الاستعظام[(٢)] بمكرهم.

وعلى ذلك: من قرأ [﴿كاد﴾][(٣)] بالدال على الاستعظام بمكرهم؛ كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠، ٩١] من عظيم ما قالوا في الله كادت السموات أن تنشق، فعلى ذلك مكرهم جميعًا الوجهين: أن يستهان مرة ويستعظم؛ إلا أن يقال: إن كلمتهم من حيث الشرك والكفر عظيمة، ومن حيث احتيالهم ومكرهم -فى إزالة ذلك النور وإطفائه- ضعيفة. والله سبحانه أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ .

الخطاب به يحتمل ما ذكرنا: أي: لا تحسبن أن ما تأخر؛ من نزول ما وعد؛ أنه يخلف وعده الذي وعد رسله؛ كما لم يكن تأخير العذاب عنهم؛ من وقت ظلمهم عن غفلة وسهو، ولكن كان وعده إلى ذلك الوقت، وخلف الوعد في الشاهد من الخلق - إنما يكون لوجهين: أحدهما: لما لا يملك إنجاز ما وعد.

والثاني: لما يضره الإنجاز، فتعالى الله عن ذلك كله.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

قال بعضهم: عزيز: لا يعجزه شيء. وقيل: عزيز: قاهر يقهر ويذل؛ فالخلائق كلهم أذلاء دونه.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ : أي: غالب قاهر ذو انتقام لأوليائه من أعدائهم؛ أي: غالب الأعداء وقاهرهم، وناصر الأولياء.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: الاستفهام.
(٣) سقط في ب.

وأما ما قال أهل التأويل[١] في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ . إنه نزل في [شأن نمرود][٢] وإنه اتخذ تابوتًا، وربط ثورًا على قوائمه، وما ذكروا إلى آخره - فلا علم لنا إلى ذلك، وأظنه أنه كله خيال، فلا نقول إلا القدر الذي ذكر في الآية.

و «لَتزولُ»[٣] بنصب اللام [الأولى][٤] وبرفع الآخرة: على معنى التوكيد، و ﴿لِتَزُولَ﴾ بكسر [اللام][٥] [الأولى][٦] ونصب الآخرة: على الجحد؛ أي: ما كانت الجبال لتزول من مكرهم، وهو ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ .

قال الحسن: تفنى هذه الأرض، ثم تعاد من ساعته مستوية، لا شجر فيها، ولا جبال، ولا آكام، قاعًا صفصفًا لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا.

وقال بعضهم[٧]: تبدل هذه الأرض أرضًا غير هذه؛ بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها بالمعاصي، وكذلك السموات.

ومنهم من يقول: لا تبدل عينها؛ ولكن يتغير صفتها وزينتها؛ كما يقول الرجل لآخر: تبدلت يا فلان، لا يريد تبدل أصله وعينه؛ ولكن تغير الأخلاق والدِّين، فعلى ذلك ما ذكر من تبديل الأرض والسموات.

والأشبه أن يكون على اختلاف الأحوال؛ لأنه ذكر في آية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ

---

(١) قاله علي بن أبي طالب، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩١٩، ٢٠٩٢١) وعن مجاهد (٢٠٩٢٢، ٢٠٩٢٣)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٦٦).

(٢) في ب: شأن فلان نمرود.

(٣) ينظر: الحجة (٥/ ٣١)، وإعراب القراءات السبع (١/ ٣٣٦)، واللباب (١١/ ٤١٢).

(٤) سقط في أ.

(٥) سقط في ب.

(٦) سقط في أ.

(٧) قاله ابن مسعود وغيره، أخرجه ابن جرير (٢٠٩٤١، ٢٠٩٤٦) وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب، كما في الدر المنثور (٤/ ١٦٧).

﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ذكر مرة تمد الأرض، وذكر مرة أنها تخبر وتحدث عما عمل عليها، وذكر في السماء بالتشقق والانفطار، وفي الجبال بالسير والمرور مرة؛ ومرة بالرفع ومرة أخبر أنه جعلها هباء منثورا وأمثاله.

فيشبه أن يكون هذا كله على اختلاف الأحوال والأوقات؛ إذ يوم القيامة يوم ممتدّ؛ فيكون كل ما ذكر على ما قال يومئذ؛ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]؛ قال في آية: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] وقال: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهو -والله أعلم-: على اختلاف الأحوال والأوقات، فعلى ذلك الأول، والله أعلم بذلك.

وتبديل الأرض والسموات: يحتمل وجهين:

أحدهما: تبديل أهلها على ما يذكر؛ الأرض والقرية، والمراد منها الأهل؛ كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وقوله: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً...﴾ الآية [النحل: ١١٢]ونحوه كثير.

والثاني: تبديل نفس الأرض.

ثم يحتمل كل واحد من الوجهين وجهين:

إما تبديل أهلها: هو أن يكونوا مستسلمين خاضعين له في ذلك، ولم يكونوا في الدنيا [كذلك][(١)].

والثاني: تبدل أهلها: هو أن يكون الأولياء في النعم الدائمة، واللذة الباقية، والأعداء في عذاب وألم وشدة، وكانوا في هذه الدنيا جميعًا مشتركين - الأولياء والأعداء - في اللذات والآلام.

فإن كان تبديل نفس الأرض - فهو يخرج على وجهين [أيضًا][(٢)]:

أحدهما: تبديل[(٣)] زينتها وصفتها.

والثاني: تبديل عينها وجوهرها؛ وهو ما ذكر: أن أرض الجنة تكون من مسك وزعفران، ونحو ماروي في الخبر والله أعلم. كأنّ قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ صلة قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ...﴾ الآية فقالوا: متى يكون ذلك؟ فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخرج جوابًا لسؤالهم والله أعلم.

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: تغيير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قد ذكرنا تخصيص بروزهم لله يوم القيامة أنه -والله أعلم- أنشأ هذا العالم الأول للعالم الثاني، فالعالم الثاني هو المقصود في إنشاء هذا العالم، فخص بروزهم يومئذ له؛ لما هو المقصود في إنشائهم.

وقال قائلون: تخصيص البروز له يومئذ؛ لأنهم يخرجون من قبورهم للحساب لا لغيره، فهو يحاسبهم؛ فأضاف البروز إليه؛ لما لا يخرجون إلا له، وأما في الدنيا: فإنما يخرجون لحوائج أنفسهم؛ لذلك خرج التخصيص له والإضافة.

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾: يحتمل وجهين:

أحدهما: برزوا له مستسلمين خاضعين، قابلين[1] طائعين، ولم يكونوا في الدنيا كذلك.

والثاني: يبرزون له؛ لما وعدوا وأوعدوا؛ بارزون لوعده ولوعيده، ولما دعوا إليه، ورغبوا فيه.

والثالث: يبرزون له؛ لما لا يملكون إخفاء أنفسهم وسترها؛ بل ظاهرين له.

وقوله - عز وجل-: ﴿ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

[الواحد:][2] الذي لا شريك له، والقهار: يقهر الخلائق كلهم؛ ويغلبهم: الجبابرة، والفراعنة.

أو يبرزون له ليجزيهم، على ما ذكر تعالى ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾.

وذكر ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾: قيل[3]: (القطر) هو النحاس [و(آن) أي: قد انتهى حره، كقوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

وقيل[4]: الصفر وقال بعضهم[5] ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: من نحاس أنى لهم أن يعذبوا به][6].

وقال بعضهم: هو من القطران المعروف الذي يطلى به الإبل؛ ذكر هذا لأنه أشدّ إحراقًا واشتعالا.

---

(١) في أ: قائلين.

(٢) سقط في أ.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩٨٦)، وعن سعيد بن جبير (٢٠٩٨٩، ٢٠٩٩٢) والحسن (٢٠٩٩٣) والربيع بن أنس (٢٠٩٩٤)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٧٠).

(٤) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٠٩٩٨، ٢١٠٠٠).

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢٠٩٩٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٠).

(٦) سقط في أ.

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ . . .﴾ إلى آخر ما ذكر: جعل الله عذاب الكفرة في الآخرة بالأسباب والأشياء التي كانوا يفتخرون بها في الدنيا؛ من اللباس والشراب والأصحاب؛ وغيره، وهو كان سبب منعهم عن إجابة الرسل فيما دعوهم إليه؛ فجعل تعذيبهم في الآخرة بذلك النوع من النار؛ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ يقرن ويقيض بعضهم ببعض؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا. . .﴾ الآية [الزخرف:٣٦]؛ لأنه كان يتبعه ويأتمر بأمره؛ وكقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟. . .﴾ الآية [الصافات:٢٢]، وكذلك الرؤساء منهم، والمتبوعون.

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ لما كانوا يفتخرون في الدنيا بلباسهم، وكذلك كل نوع [كانوا][١] يفتخرون به في الدنيا، ويمنعهم عن الإجابة؛ إجابة الرسل، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

والأصفاد: قيل: الأغلال؛ أي: قد قرن بعضه إلى بعض في الأغلال، واحدها: صفد؛ وهو قول القتبي[٢]، وكذلك قول أبي عوسجة في الأصفاد، إلا أنه قال: واحدها: صفاد، والصفد العطيّة.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ : قمصهم، واحدها: سربال.

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ : القطر -ما ذكرنا- النحاس، والآن الذي [قد][٣] اشتد حره، وهو قول القتبي[٤] وأبي عوسجة.

ذكر هذه المواعيد والشدائد، وأنواع ما يعذبون به في الآخرة، ونعيمها على ألسن من قد ظهر صدقهم بالآيات والحجج؛ ليحذروا ما أوعدوا، ويرغبوا فيما رغبوا لئلا يكون لهم الاحتجاج يومئذ؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ. . .﴾ الآية [الأنفال:٤٢] ونحوه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ .

لأن أيديهم مغلولة إلى أعناقهم؛ فلا يقدرون أن يتّقوا النار بأيديهم ذكر هذا؛ لأن في الشاهد: من [أصاب وجهه][٥] أذًى يتقي عنه بيده، فيخبر أنهم إنما يتقون ذلك بوجوههم. والله أعلم.

---

(١) سقط في أ.
(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٤).
(٣) سقط في ب.
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٤).
(٥) في ب: أصابه.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ﴾ .

لما ذكرنا؛ يبرزون لله؛ ليجزيهم من خير وشر.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

قال بعضهم: كان قد جاء حسابه.

والثاني: ذكر هذا؛ لأن الحساب إنما يبطئ لما لا يتذكر من له الحساب لمن يحاسبه في الشاهد - فيما يحاسبه، فيطول الحساب أو الاشتغال بشيء [يشغله][(١)] عنه، أو لجهل بالحساب. فأمّا الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء، ولا يشغله شيء عن شيء، كله محفوظ عنده؛ فهو سريع الحساب. والله أعلم.

أو نقول: إنما يطول الحساب في الشاهد؛ ويمتد لما يحتاج إلى التفكر [والنظر][(٢)] والتذكر في ذلك، فالله سبحانه متعال عن التفكر والنظر، بل كل شيء محفوظ عنده. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ : القرآن؛ هو بلاغ للناس، على ما ذكر في صدر السورة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ...﴾ الآية [إبراهيم:١] هو بلاغ على ما ذكر. والله أعلم.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ : أي: بالقرآن أيضًا على ما ذكر: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ [الأنعام:٩١] ويحتمل قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ ما ذكر من المواعيد؛ وهو قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ إلى آخر ما ذكر؛ أي: هذا الذي ذكر بلاغ يبلغهم لا محالة، ولينذروا بما ذكر.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ .

لا شريك له؛ بالآيات التي أقامها على وحدانية الله وألوهيته.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [أي: ذوو العقول، والله أعلم][(٣)].

* * *

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.

سورة الحجر ذكر أنها مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٢) ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ (٤) مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ (٥) وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ (٦) لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)﴾.

قوله - عز وجل -: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ .

قد ذكرنا فيما تقدم: أنه يحتمل أن الحروف المقطعة كناية عن كتابه وآياته[(١)]، أو آياته؛ أنه جمعها على ما توجبه الحكمة؛ فجعلها كتابًا أو [آيات كتاب يتلى][(٢)]، أو يكون كناية عن الإنباء والإخبار عن الأمم السالفة؛ التي لم يشهدها رسول الله ﷺ، تلك الأنباء والأخبار التي جعلناها كتابًا أو آيات؛ ليعلموا أن هذا الكتاب إنما نزل من السماء، وأنه إنما علم بالوحي من الله، وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ .

قال: بيّن فيه ما يؤتى، وما يتقى. أو ﴿مُّبِينٖ﴾: يبين بين الحقّ والباطل. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ .

قال عامة أهل التأويل[(٣)]: إنما يودون الإسلام والتوحيد، بعد ما عذب بالنار قومًا من أهل التوحيد بذنوبهم، ثم أخرجوا منها بالشفاعة أو بالرحمة، فعند ذلك يتمنى أهل الشرك؛ ويودّون الإسلام والتوحيد[(٤)]؛ لكن هذا بعيد ألا يتمنوا إلا في النار بعد ما أخرج أولئك وقد أصيبوا الشدائد والبلايا؛ من قبل أن يأتوا النار، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

---

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: آيات تتلى.

(٣) ورد في معناه أحاديث منها: حديث أبي موسى الأشعري، أخرجه ابن أبي عاصم في السنة وابن جرير (٢١٠٠٥) وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور، وعن أبي سعيد الخدري، أخرجه إسحاق بن راهويه وابن حبان والطبراني وابن مردويه، وعن جابر، أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه بإسناد صحيح، كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٢) وهو قول ابن عباس وأنس بن مالك وغيرهما، أخرجه ابن جرير (٢١٠٠٦، ٢١٠١٠) وابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث عنهما، كما في الدر المنثور.

(٤) زاد في أ: لو كانوا مسلمين.

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ الآية [المؤمنون:٩٩-١٠٠] أخبر أنه يتمنى عند حلول الموت - الإسلام؛ حيث طلب الرجوع إلى الدنيا، دلّ أنهم يودون الإسلام؛ قبل الوقت الذي ذكروا، أو يتمنون الإسلام إذا حوسبوا، أو إذا بعث أهل الجنة [إلى الجنة وبعثوا هم][١] إلى النار، يتمنون الإسلام قبل ذلك بمواضع، وربما يتمنى الآحاد من الكفرة، ويودّون لو كانوا[٢] مسلمين في أحوال؛ وأوقات؛ يظهر لهم الحق[٣]، وقد بان لهم الحق؛ لكن الذي يمنعهم عن الإسلام - فوت شيء من الدنيا، وذهاب شيء قد طمعوا فيه.

وقال الحسن في قوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : قسم؛ لما ذكر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ ؛ يقول: أقسم بالحروف المقطعة أنهم يودّون الإسلام. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ .

هذا ليس على الأمر، ولكن على الوعيد[٤]، والتهديد، والإبلاغ في الوعيد، وتأكيد؛ كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ. . .﴾ الآية، [فصلت:٤٠] هو على الوعيد[٥]؛ حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] فعلى ذلك قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟﴾ وعيد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ، ويشبه أن يكون: ذرهم ولا تكافئهم بصنيعهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ المحقّ من المبطل، وأن المحقّ والمبطل من أنت أو هم؟ أو سوف يعلمون نصحك إياهم، وشفقتك لهم، أنك نصحت لهم، وأشفقت عليهم لا أن خنتهم أو يعلموا بما سخروا بكم وهزءوا.

وقوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ .

الأمل: الطمع، اختلف فيه: قال بعضهم: [أي][٦]: منعهم طمعهم أنهم وآباءهم قد أصابوا الحق، ذلك منعهم عن الإجابة، والنظر في الآيات والحجج.

والثاني: تقديرهم بامتداد حياتهم[٧]؛ ليبقى لهم الرياسة، والشرف، ذلك الذي كان

---

(١) في أ: وبعثوهم.
(٢) في ب: كان.
(٣) زاد في أ: لكن الذي يمنعهم.
(٤) في أ: التوحيد.
(٥) في أ: التوعيد.
(٦) سقط في ب.
(٧) قال القرطبي: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا. فطول الأمل: داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه، واشتد علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

يمنعهم عن الإجابة له، والانقياد له، والنظر في الآيات والحجج.

والثالث: يطمعون هلاك النبي ﷺ، ويتمنون ذلك، وانقطاع ملكه، وأمره، والعود إليهم، فذلك الذي كان منعهم.

وفي حرف حفصة: ﴿ذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾.

وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا . . .﴾ الآية في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، آيس رسوله عن إيمانهم؛ وهو كقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

قال الحسن: وما أهلكنا من أهل قرية إهلاك تعذيب؛ إلا وقد أرسلنا إليهم رسلا بكتاب معلوم، نتلو ذلك الكتاب المعلوم عليهم، فإذا كذبوهم وأيسوا من إيمانهم؛ فعند ذلك يهلكون هلاك تعذيب، وهو ما قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، فعلى ذلك الأول.

وقال بعضهم: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يقول: كتاب فيه أجل معلوم مؤقت لها؛ على هذا التأويل؛ كأنه قد خرج جوابًا لقول كان من أولئك الكفرة من استعجالهم الإهلاك.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

أي: ما تسبق أمة عن أجلها الذي جعل الله لها بالإهلاك، وما تستأخر عنه، وهو ما قال: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] [أي: ما يستأخرون ساعة عن الوقت الذي جعل لهم ولا يستقدمون][(١)].

فهذا ينقض على المعتزلة قولهم؛ حيث قالوا: إن الله يجعل لخلقه آجالا، ثم يجيء آخر فيقتله قبل الأجل الذي جعله[(٢)] له، والله يقول: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] يخبر أنه لجاءهم العذاب؛ لولا ما جعل من أجل مسمى؛ قد وعد جلَّ وعلا أن يفي بما[(٣)] وعد؛ من البلوغ إلى الأجل الذي سمى.

= وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحب لها، والإعراض عن الآخرة، قال - صلوات الله وسلامه عليه-: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل، إلا أساء العمل ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٤).

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.

(٢) في ب: جعل.

(٣) في ب: ما.

وعلى قول المعتزلة: لا يملك إنجاز ما وعد؛ لأنه يجيء إنسان؛ فيقتله؛ فيمنع الله عن وفاء ما وعد، فذلك عجز وخلف في الوعد، فنعوذ بالله من السرف في القول، والزيغ عن الحق[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ يعني: القرآن.

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال الحسن: قوله: يأيها الذي تدعي أنه نزل عليه الذكر: إنك لمجنون؛ فيما تدعي من نزول الذكر، هو على الإضمار الذي قال الحسن، وإلا في الظاهر متناقض؛ لأنهم كانوا لا يقرون بنزول الذكر عليه؛ لأنهم لو أقروا نزول الذكر عليه لكان قولهم متناقضًا فاسدًا.

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سموه مجنونًا، والذي حملهم على تسميتهم إياه مجنونًا وجوه:

أحدها: [أنهم][٢] لما رأوه أنه قد أظهر الخلاف لذوي العقول منهم والأفهام، والدعاء إلى غير ما هم فيه؛ فرأوا أنه ليس يخالف أهل العقول والفهم إلا بجنون به؛ فسموه مجنونًا.

والثاني: رأوه قد أظهر الخلاف للفراعنة والجبابرة، الذين كانت عادتهم القتل والهلاك من أظهر الخلاف لهم؛ في أمر من أمورهم الدنياوية؛ فكيف من أظهر [الخلاف لهم][٣] في الدين؟ فظنوا أنه ليس يخالفهم، ولا يخاطر بنفسه وروحه إلا لجنون فيه.

والثالث: قالوا ذلك لما رأوه؛ كان يتغير لونه عند نزول الوحي عليه؛ فظنوا أن ذلك لآفة فيه، ومن تأمل حقيقة ذلك علم أن من قرفه بالجنون فيه[٤] هو المجنون لا هو؛ حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨٤] وقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] أخبر أنهم لو تفكروا عرفوا أنه ليس به جنة، ولكن عن معاندة ومكابرة؛ يقولون؛ وجهلٍ، وسموه مرة ساحرًا؛ فذلك تناقض في القول؛ لأنه لا يسمى ساحرًا إلا لفضل بصر وعلم؛ فذلك تناقض.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

تأويله -والله أعلم- يقولون له: إنك تزعم أن الملائكة يأتونك بالوحي، فهلا أظهرت

---

(١) في أ: الخلق.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: لهم الخلاف.
(٤) في أ: به.

لنا إذا أتوك؛ فننظر إليهم أملائكة هم -على ما تزعم- أم شياطين؟

وقال بعضهم: لو ما تأتينا بالملائكة فيشهدون أنك رسول الله، وأنك أرسلت على ما تدعي من الرسالة؛ فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: [إلا بالموت][1] ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

قال بعضهم: أنْ ليس في وسع البشر رؤية الملائكة على صورتهم؛ فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا بالموت، لو رأوا؛ لماتوا؛ لما لم يجعل في وسعهم رؤية الملائكة، وهو كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾ الآية [الأنعام: ٨] أخبر أنه لو أنزل [عليهم الملك][2] - لماتوا؛ إذ ليس في وسعهم رؤية الملائكة[3] على صورتهم، ثم أخبر أيضًا أنه لو جعله ملكًا لجعله رجلا، ويكون في ذلك لبس على أولئك.

وقال بعضهم: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: إلا بالحجج والآيات والبراهين على الرسل، وعلى من هو أهل لذلك، ليس على كل أحد.

وقال بعضهم[4]: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: إلَّا بالعذاب الذي يكون فيه هلاكهم، وهكذا إن الملائكة لا تنزل إلا بالعذاب الذي فيه هلاكهم أو بالحجج والبراهين. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيما وكل الحفظ إلى نفسه؛ لم يقدر أحد من الطاعنين[5] مع كثرتهم منذ نزل موضع الطعن فيه، وذلك يدلّ أنه سماوي، وأنه محفوظ.

وقال بعضهم[6]: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾: أي: محمدًا عليه أفضل الصلوات: أي: نحفظه بالذكر الذي أنزل عليه؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى...﴾ الآية [سبأ: ٥٠] أخبر أنه إنما يهتدي بما يوحي إليه ربه، فعلى ذلك يحفظه بالقرآن الذي أنزل عليه.

ويحتمل [أن يكون][7] الذكر: النبوة؛ أي: إنا نحن نزلنا النبوة، وإنا له: أي:

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: عليه.
(٣) في أ: الملك.
(٤) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٠٢٨، ٢١٠٢٩) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم: كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٥).
(٥) في أ: الطاغين.
(٦) قاله البغوي (٣/ ٤٤).
(٧) سقط في ب.

لرسوله؛ لحافظون له: بالنبوة والرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قيل: في ملك الأولين. وقيل: في فرق الأولين. وقيل: في جماعات [الأولين][(١)]، وهو واحد.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

يصبر رسوله على استهزاء قومه إياه، وأذاهم له.

يقول - والله أعلم-: لست أنت المخصوص بهذا، ولكن لك شركاء وأصحاب في ذلك؛ ليخف ذلك عليه ويهون؛ لأن العرف في الخلق أن من كان له شركاء وأصحاب في شدة أصابته أو بلاء يصيبه - كان ذلك أيسر عليه، وأهون من أن يكون مخصوصًا به، من بين سائر الخلائق. والله أعلم.

كأن هذه الآية صلة قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، فكأنه لما سمع هذا اشتد عليه، وضاق صدره بذلك؛ فعند ذلك قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ . . .﴾ إلى آخره، يصبره على أذاهم وهزئهم به؛ فإنما يشتد عليه ذلك؛ على قدر شفقته ونصيحته لهم، وكان بلغ نصيحته وشفقته لهم ما ذكر: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨] كادت نفسه تهلك، أو ذكر هذا له لما أن هؤلاء - أعني قومه - إنما استهزءوا به تقليدًا لآبائهم، واستهزاء بهم وتلقنوا منهم، لا أنهم أنشئوا ذلك من أنفسهم، وأولئك - أعني: الأوائل - إنما استهزءوا برسلهم، لا تقليدًا بأحد، ولكن إنشاء من ذات أنفسهم، فمن استهزأ بآخر [فشتمه؛ تقليدًا][(٢)] واقتداء وتلقنًا - كان ذلك أيسر عليه وأخف ممن فعل به من ذاته؛ لأنه إنما يلقن المجانين والصبيان ومن به آفة، بمثل ذلك؛ فهم الذين يعملون بالتلقين، وأما العقلاء السالمون عن الآفات - فلا، فذلك أهون عليه من استهزاء أولئك برسلهم والله أعلم.

---

(١) سقط في أ.

(٢) في ب: تقليدًا وشتمه.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

اختلف فيه: قال بعضهم[١]: كذلك نسلك التكذيب والاستهزاء في قلوب المجرمين؛ لا يؤمنون به، يقول: من حكم الله أن يسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذبه، ومن حكمه أن يسلك التصديق في قلب من صدقه واختاره؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال بعضهم[٢]: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نجعل الكفر والتكذيب ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكفرهم؛ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ...﴾ الآية [الأنعام: ٢٥] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] ونحوه.

ويحتمل قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الحجج والآيات؛ ليكون تكذيبهم وردّهم [الآيات والحجج][٣]، وتكذيبهم تكذيب عناد ومكابرة، لا يؤمنون به.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل الذي سلكنا في قلوب المؤمنين؛ من قبول الآيات والحجج، والتصديق لها؛ لما علم أنهم يختارون ذلك - نسلك[٤] في قلوب المجرمين؛ من تكذيب الآيات والحجج وردها؛ لما علم منهم الرد والتكذيب لها. هذا يحتمل، ويحتمل غير هذا مما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

يحتمل قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيب، والردّ، والمعاندة، والمكابرة، بعد قيام الحجج والآيات.

ويحتمل: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: الهلاك والاستئصال عند مكابرة حجج الله، ومعاندتهم إياها.

وقال بعض أهل التأويل[٥]: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: نجعله؛ على ما ذكرنا، الكفر بالعذاب ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: لا يصدقون بالعذاب ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيب لرسلهم بالعذاب، فهؤلاء يستنون بسنتهم.

وقال أبو عوسجة: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾: أي: ندخله؛ يقال: السالك: الداخل، والسلوك: الدخول، وسلكت أدخلت، وتصديقه: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء:

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٤٥).
(٢) قاله سفيان، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٠٤٠).
(٣) في ب: الحجج والآيات.
(٤) في أ: مثلك.
(٥) هو قول سفيان كما تقدم.

٢٠٠] وقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] أي: أدخل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾.

يخبر -عز وجل- عن سفههم وعنادهم في سؤالهم الآيات؛ وطلب نزول الملائكة بقوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يقول: إن سؤالهم الآيات؛ وما سألوا متعنتين مكابرين؛ ليسوا هم بمسترشدين، لكن أهل الإسلام لا يعرفون تعنتهم بالذكر؛ حيث قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ...﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩] ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وذلك أن المؤمنين كانوا يشفعون لهم بسؤالهم الآيات لعلهم يؤمنون؛ فأخبر: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعلى ذلك قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يخبر أنهم بسؤالهم نزول الملائكة؛ معاندين مكابرين - ليسوا بمسترشدين.

ثم اختلف فيه: قال بعضهم[(١)]: قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾: يعني على الملائكة بابا حتى رأوا، وعاينوا الملائكة ينزلون من السماء ويصعدون؛ فلا يؤمنون؛ وقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قيل[(٢)]: حيرت وسدت، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: أي: سحرت أعيننا؛ فلا نرى ذلك.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ أي: لهم ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي: للنصب.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ حتى ﴿يَعْرُجُونَ﴾ فيه ويعاينون نزول الآيات ويشاهدون كل شيء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ يؤيس رسوله وأصحابه عن إيمانهم، وقوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ يقولون ذلك لشدة تعنتهم وسفههم، وينكرون معاينة ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٠٤٣، ٢١٠٤٦) وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٦).

(٢) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٠٥١، ٢١٠٥٢) وعن ابن جريج (٢١٠٥٣) والضحاك (٢١٠٥٤).

أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قيل: نجومًا، ويحتمل البروج: المنازل التي ينزل فيها الشمس والقمر والنجوم، جعل لكل واحد من ذلك منزلا، ينزل في كل ليلة في منزل على حدة. ويحتمل ما ذكر من البروج: هي مطالع [ما ذكر][١] من الشمس والقمر والنجوم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [يعني السماء للناظرين][٢].

وفي قوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ دلالة نقض قول من ينهى عن النظر إلى السماء من القراء؛ لأنه أخبر أنه زينها للناظرين، ولا يحتمل أن يزينها [للناظرين][٣] ثم ينهى عن النظر إليها، دل أنه لا بأس [للناظرين][٤]، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا...﴾ الآية [الأنعام:٩٧] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك:٥] وجعل الله في الشمس والقمر والنجوم منافع: يهتدون بها الطرق في ظلمات الليل، وجعلها مصابيح في الظلمات[٥]، وأخبر أنه زينها للناظرين؛ لأن ما يقبح[٦] في العين من المنظر[٧] لا يتفكر الناظر فيه ولا ينظر إليه؛ فزينها لهم؛ ليحملهم ذلك على التفكر فيه، والنظر إليها؛ ليعلموا أنه تدبير واحد؛ حيث جعل منافع السماء متصلة بمنافع الأرض؛ مع بعد ما بينهما، وجعل أشياء هي في الظاهر أشباهًا؛ وهي في الحقيقة كالأضداد لها، ومنها ما هي في الظاهر أضداد، وهي كالأشكال؛ نحو النور والظلمة: هي في الظاهر أضداد، صارت كالأشكال؛ حيث تضيء النجوم في ظلمات الليل؛ حتى ينتفع بذلك أهل الأرض، وهما في الظاهر أضداد، فصارت بما يظهر من منافعها كالأشكال[٨]، وجعل لا ينتفع بضوء النجوم مع نور القمر، ولا ينتفع بنور القمر مع ضوء الشمس، وهن أشكال؛ فصارت بما يذهب كل واحد [منهما][٩] بسلطان الآخر؛

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: للناظر.
(٥) في أ: ظلمات.
(٦) في أ: يفتح.
(٧) في أ: النظر.
(٨) في ب: أشكال.
(٩) سقط في ب.

كالأضداد ليعلم أنه تدبير واحد؛ حيث صارت الأضداد كالأشكال، والأشكال كالأضداد في حق المنفعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ يعني: السماء، ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ذكر أن الشياطين كانوا يصعدون السماء فيستمعون من أخبار السماء من الملائكة، مما يكون في الأرض؛ من غيث وغيره، ثم زادوا فيها ما شاءوا فيلقون ذلك إلى الكهنة؛ فيخبر الكهنة الناس، فيقولون: ألم نخبركم [بالمطر][(١)] في يوم كذا وكذا، وكان حقًّا، ثم منعوا عن ذلك - عن صعودهم - أعنى السماء، وحفظوا عنهم، فجعلوا يسترقون السمع، فسلط الله الشهب عليهم، حتى يقذفون؛ وهو قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨، ٩] وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

ويحتمل ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: أي: أهلها من الشيطان الرجيم لما ذكرنا من ذكر أشياء من القرية والمصر والعير، وغيره، والمراد منه: أهله، فعلى ذلك هذا، إلا أن أهل السماء بأجمعهم أهل ولاية الله؛ وأهل طاعته، وأما أهل الأرض: ففيهم من الغاوين الضالين، فهم أولياء الشيطان؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ...﴾ الآية [النحل: ١٠٠].

ويحتمل حفظ السماء نفسها: بالملائكة، وهو ما ذكر: ﴿وَيُقْذَفُونَ ...﴾ الآية. ويحتمل: بالشهب؛ التي في غير آي من القرآن.

وقال بعضهم[(٢)]: ﴿رَّجِيمٍ﴾: اللعين، وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود: ﴿من كل شيطان لعين﴾ واللعين: -في اللغة-: فهو المطرود المبعد، وهو على ما ذكر ﴿دُحُورًا﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [ق: ٧] وقال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] يعني الجبال، في ظاهر هذا أن الأرض كأنها تضطرب وتنكفئ بأهلها، فأثبتها بالجبال، وإلا من طبعها التسفل والانحدار، وكذلك الجبال من طبعها التسفل والانحدار، فكيف كان ثباتها بشيء [كان][(٣)] طبعه التسفل والتسرب؟ إلا أن يقال: إن طبعها كان الاضطراب والانكفاء فأثبتها بالجبال عن الاضطراب والانكفاء؛ أو أن يقال: من طبعها ما ذكرنا: التسفل والانحدار؛ إلا أن الله - بلطفه - أثبت ما هو طبعه التسفل، بما[(٤)] هو طبعه كذلك؛ ليعلم لطف الله وقدرته، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

---

(١) سقط في ب.
(٢) قاله قتادة، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٧).
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: ما.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

قال بعضهم[(١)]: ﴿فِيهَا﴾: يعني في الجبال، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾: يعني: ما يوزن من نحو: الذهب، والفضة، والحديد، والرصاص، ونحوه مما يستخرج منها، وهذا كأنه ليس بصحيح؛ لأنه لا يقال في الذهب، والفضة والحديد: إنه أنبت[(٢)] في الأرض؛ كما يقال ذلك لنبات وما ينبت فيها، وإنما يقال للذهب، والفضة، والحديد: جعلنا فيها، أو خلقنا فيها[(٣)].

وقال بعضهم[(٤)]: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾: يعني: في الأرض؛ من كل ألوان النبات، ﴿مَّوْزُونٍ﴾: أي: معلوم مقدر بقدر؛ كقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

ويحتمل: وأنبتنا فيها ما يصير موزونًا في الآخرة من الزروع وغيرها من الحبوب، أو ما ذكرنا؛ أي: معلوم مقدر، والله أعلم، ليس على الجزاف؛ على ما يكون من فعل جاهل على غير تدبير ولا تقدير.

ويحتمل قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ : ما لو اجتمع الخلائق - لم يعرفوا قدر ما يزداد وينمو من النبات؛ في لحظة واحدة؛ وطرفة عين، في أول ما يخرج ويبدو من الأرض، وذلك موزون عنده؛ معلوم قدره، ليعلم لطفه، وقدرته، وتدبيره، وعلمه، وأنه تدبير واحد؛ حيث لم يختلف ذلك؛ ولم يتفاوت. والله أعلم.

قال أبو عوسجة: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾: أي: صاروا يومهم ﴿يَعْرُجُونَ﴾ : يرتفعون ويصعدون.

وقال غيره: ظلوا: أي: ما لوا، كقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ [الشعراء: ٤] أي: مالت، وقال: قوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾: أي: حيرت؛ يقال: تسكر بصره: إذا تحير، وقال: يقال أيضًا تحيرت، يقال: سكر الله بصره: أي: حيره، وسكرت الريح تسكر سكرًا: إذا سكنت، ويقال: ليل ساكر، أي: ساكن، وسكرت الماء أسكره سكرًا: أي: حبسته[(٥)]،

---

(١) قاله عكرمة، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ،كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٨).
(٢) في أ: أنبت.
(٣) ثبت في حاشية ب: لا يبعد أن يكون قوله: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ بمعنى خلقنا؛ فيصح قول هذا التأويل، ومصداقه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: خلقكم منها، على أنه لا مانع من إطلاق حقيقة الإنبات على مثل الذهب والفضة؛ لأن كل ما برز من التراب، وخرج يقال فيه: نبت، والله أعلم. كاتبه.
(٤) قاله ابن جرير (٧/ ٥٠١)، والبغوي (٣/ ٤٧).
(٥) في أ : حبسه

والسكر: السدّ، والسكور جمع، والسكر: مصدر سكر يسكر سكرًا؛ فهو سكران، وقوم سكرى وسكارى، والسكرة: الغمرة، والغمرة: الشدة، وقال -عز وجل-: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة ق:١٩] أي: شدته.

وقال القتبي[١]: سكرت: غشيت، ومنه يقال: سكر النهر: إذا سدّ، فالسكر اسم ما سكرت، وسكر الشراب منه؛ إنما هو الغطاء على العقل والعين.

وقال الحسن[٢]: سكرت - بالتخفيف-: سحرت. وقوله -عز وجل- ﴿بُرُوجًا﴾ : قال: اثنا عشر برجًا، وأصل البرج الحصن والقصر وقوله: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ . إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان أو يعلم من أمرها شيئًا إلا استراقًا، ثم يتبعه شهاب مبين: أي: كوكب مضيء.

وقال أبو عوسجة: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾: يقال: استرقت السمع: أي: تغفلت قومًا حتى سمعت حديثهم؛ وهم لا يعلمون، وهكذا لو علم الملائكة أن الشياطين يسترقون السمع، ويختطفون - لمنعوا من ذلك، وامتنعوا عن التكلم به؛ حتى لا يستمعون كلامهم، وحديثهم. و ﴿شِهَابٌ﴾ : كوكب، وقيل: الشهاب: خشبة في طرفها نار، والشهبان جماعة.

وقال بعضهم: ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ لرسول الله كان له خاصّةً لم يكن قبل والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ أي: في الأرض والجبال.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ .

قال الحسن: أي: جعلنا [لكم][٣] في الأرض معايش ما تتعيشون به، ولمن حولكم أيضًا، جعل فيها معايش، لاترزقونه أنتم؛ إنما ذلك على الله، هو يرزقهم وإياكم.

وقال بعضهم[٤]: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ : الوحوش والطير، وأما الأنعام: فإنه قد أشركهم البشر في المعايش، وكان غير هذا أقرب وأوفق: وهو أن أهل مكة كانوا[٥] يمنّون على رسول الله ﷺ، ويقولون: نحن ربيناه، وغذيناه، وأنفقنا عليه، ورزقناه؛ ثم فعل بنا كذا، فخرج هذا جوابًا لهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: محمدًا.

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٥).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٤٥).
(٣) سقط في ب.
(٤) قاله منصور، أخرجه ابن جرير (٢١٠٩١) وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ١٧٨).
(٥) في أ: كأنهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ .

يحتمل هذا -والله أعلم-: وإن من شيء يخزن في الخلق -إلا عندنا خزائنه؛ [أي][١]: إلا عندنا تلك الخزائن؛ أي: ما تخزنون من الأشياء، فتلك عندنا وفي خزائننا.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

على هذا ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ : أي: ما نعطيه ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ : أي: وإن كان عندكم مخزونًا محبوسًا - فإن ذلك كله في خزائنه، أعطى من شاء، وحرم من شاء.

ويحتمل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ والخزائن: هي الأمكنة الخفية التي تخزن فيها الأموال، وبواطن من الأرض، يقول - والله أعلم-: وإن من شيء كان في بواطن الأرض، وأمكنة خفية - إلا عندنا تدبير ذلك وعلمه، يخبر أن تدبيره وعلمه في الخفية من الأمكنة - كهو في الظاهر؛ لا يخرج شيء عن تدبيره وعلمه، بل كل ذلك في تدبيره وعلمه[٢].

وقال الحسن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾: أي: الماء الذي جعل به حياة كل شيء، ولا يخرج شيء عن منافعه، فهو خزائن الأشياء كلها، وبه قوام كل شيء، وقال: ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، ذكر الإنزال: وهو الذي ينزل من السماء طاهرًا. هذا الذي قاله محتمل، لكن تمامه أن يقال: إن الماء خزانة، والخزانة[٣]: هي الموضع الذي يخزن فيه، وفي الماء قوة ومعنى؛ يكون فيه حياة الخلق، ومنافعهم، فيما جعل فيه لا في نفس الماء، ألا ترى أنه يصيب عروق الشجر؛ فتظهر منافعه في غصونها؛ في أعلاها؛ فثبت أن فيه قوة سرية، ومعنى يكون المنافع بها لا بنفس الماء، والله أعلم بذلك.

ثم ما ذكر من الخزائن، والرياح، والماء، والمطر، وغير ذلك من النعم؛ يذكر على الاحتجاج عليهم؛ لأنه إنما أنشأ هذه الأشياء، وخلقها لهؤلاء، لا أنه أنشأها لنفسها، فإذا كان أنشأها لهم - فلا يحتمل أن يتركهم سدى؛ لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يمتحنهم[٤] ولايجعل لهم عاقبة يثابون أو يعاقبون[٥]؛ ولذلك قال في آخره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ .

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: حكمه.
(٣) في أ: والخزائن.
(٤) في أ: يمنحهم.
(٥) في أ: ويعاتبون.

وقوله: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ على التأويل الأول: ما ذكرنا، أي: ما نعطيه إلا بقدر معلوم؛ وإن خزنه وحبسه. ويحتمل: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: بقدر سابق معلوم، ذلك إن كان على هذا - فإنه يدل على أن ما يكون ويحدث- إنما يكون لقدر سابق؛ لا يكون غير ما سبق تقديره.

أو ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ محدود؛ أي: ليس ينزل جزافًا، ولكن معلومًا محدودًا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ .

قال بعضهم: ﴿لَوَاقِحَ﴾: حوامل.

وقال بعضهم: هذا لا يصح، لو كان على هذا - لكان ملاقح وملقحات.

وقال أبو عوسجة: ﴿لَوَاقِحَ﴾ تلقح الشجر: أي: تنبت ورقها وهي ملقحة، وقال: يقال: ناقة لاقح: أي: حامل قد حملت، ونوق لواقح، ويقال: حرب لاقح: أي: شديدة، وسحاب لاقح: الذي فيه ماء - أي: مطر - وريح لاقح: أي: ملقح تلقح الشجر؛ أي: تنبت ورقه وحمله، ويقال: ملقح، ويقال: ألقح الرجل إذا لقحت إبله؛ أي: حملت، ورجل ملقح، واللقوح: الناقة التي معها ولد صغير، والجمع: لقاح، وجمع الجمع: لقائح، واللقح: اللواقح؛ وهي الحوامل من الإبل.

قال القتبي[١]: قال أبو عبيدة[٢]: ﴿لَوَاقِحَ﴾ : إنما هي ملاقح؛ جمع ملقحة، يريد أنها تلقح الشجر، وتلقح السحاب؛ كأنها تنتجه، واللواقح: المنتجة الثمار من الأشجار، والسحاب، وغيره. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ .

هو ما ذكرنا على التأويل في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾، وعلى تأويل الحسن: هو ما ذكر من الماء والمطر.

﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ : أي: حابسين لما جرى به الذكر؛ من المطر والماء؛ الذي ذكر أنه أنزل من السماء. ويحتمل ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ﴾ أي: لله ﴿بِخَازِنِينَ﴾ : أي: ليست خزائنه في أيديكم؛ ولا بيد أحد، ولكن بيد الله، عز وجل.

وعلى تأويل الآخر: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ : بمدبرين ما خزن في الأرض ودفن.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ .

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٧).

(٢) ينظر: مجاز القرآن (٣٤٨/١).

أي: الباقون، يفنى الخلقُ كله؛ فيبقى هو، ولذلك سمي من خلف الميت وارثًا؛ لأنه يموت ويبقى الوارث؛ وهو باقٍ وكذلك يخرج قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ .

قال بعضهم: ولقد علمنا المستقدمين من المكذبين منكم؛ ما حل بهم بالتكذيب، وقد علمنا المستأخرين من المكذبين منكم.

وقال بعضهم: ولقد علمنا من كان منهم ومات، وقد علمنا المستأخرين: من يكون منهم ويولد؛ ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ : من مضى ومن بقي لم يكن بعد؛ إلى يوم القيامة.

وقال الحسن[١]: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الخير ﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ في الشر.

وقال بعضهم[٢]: في القرن الأول والآخر، لكنه بعيد[٣].

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

الحكيم: هو الذي يضع الأشياء مواضعها.

والثاني: هو الذي يجعل الأشياء مواضعها[٤]، فالأول قد يعرف الخلق وضع الأشياء مواضعها، وأما الثاني: فلا يكون ذلك إلا بالله.

وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ : عليم بمصالح الخلق، ومالهم وما عليهم. أو عليم بوضع الأشياء مواضعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢١١٣٣، ٢١١٣٢) وابن المنذر ،كما في الدر المنثور (١٨١/٤).

(٢) قاله مجاهد، كما في تفسير البغوي (٤٨/٣).

(٣) قال القرطبي: هذه الآية تدل على فضل أول الوقت في الصلاة، وعلى فضل الصف الأول، وكما تدل على فضل الصف الأول في الصلاة، كذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال؛ فإن القيام في وجه العدو، وبيع العبد نفسه لله -تعالى- لا يوازيه عمل، ولا خلاف في ذلك.
ينظر: اللباب (٤٤٩/١١) .

(٤) في أ: موضعها.

خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقال في آية آخرى: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال: ﴿خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥][(١)]، ذكر مرة الحمأ المسنون؛ وقيل[(٢)]: هو الطين الأسود المتغير، وذكر مرة التراب، ومرة الطين اللازب: وهو الملتزق، ومرة من سلالة الطين، فيشبه أن يكون على الأحوال، واختلاف الأوقات: كان في حال الأول ترابًا، وفي حال طينًا لازبًا، وفي حال حمأ مسنونًا؛ وهو الذي اسودّ وتغير؛ لطول مكثه، وصلصالا وفخارًا. فقبل أن يكون خلقًا مركبًا الجوارح فيه والعظام -كان على هذه الأحوال الثلاثة على ما أخبر من تغير أحوال أولاده؛ حيث قال: ﴿خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٤] ذكر فيه أحولا ثلاثة قبل أن يخلق لحمًا وعظمًا، في حال كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة.

فعلى ذلك يحتمل ما ذكر في آدم: من تراب، وطين، وحمأ ونحوه، إن كان على اختلاف الأحوال على ما ذكرنا.

أو أن يكون على التشبيه والتمثيل، ووجه التمثيل بالطين: الذي ذكر؛ وهو أن الطين الذي يكون كالصلصال، والفخار، واللازب؛ ونحوه -هو الطين الطيب؛ الذي يكون منه البنيان، والأوانى، والقدور، وجميع أنواع المنافع. وأما الطين الذي يخبث- فإنه لا يتخذ منه شيء مما ذكرنا، ولا يتهيأ اتخاذ شيء من ذلك، فشبه خلق آدم بالطين الذي يجتمع فيه جميع أنواع المنافع، فعلى ذلك جمع في آدم جميع أنواع المنافع والخير، كالطين الطيب.

ثم فيه دلالة قدرته، وسلطانه، وذكر نعمه؛ حيث أخبر أنه خلق آدم من تراب وطين؛

---

(١) ثبت في حاشية ب: وقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . . .﴾، الآية. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾. كاتبه.

(٢) قاله ابن جرير (٧/ ٥١٢).

وما ذكر، وليس في التراب، ولا في الطين - من أثر البشرية - شيء، وكذلك ليس في النطفة التي خلق البشر منها [من] أثر البشرية شيء؛ ليعلم أنه قادر على إنشاء الأشياء من شيء، ومن لا شيء؛ إذ ليس فيما ذكر من الطين والتراب؛ الذي خلق منه أبا البشر من أثر البشرية فيه [شيء][١]، ولا في النطفة التي خلق منها أولاده؛ من أثر البشرية والإنسانية من اللحم، والعظم، والشعر، وغيره، وما ركب فيهم: من العقل، والعلم، والتدبير، والجوارح، وغير ذلك - شيء؛ ليعلم قدرته وسلطانه على خلق الأشياء: لا من شيء؛ وليعرفوا نعمه التي أنعمها عليهم؛ حيث أخبر أنه خلق آدم من طين لازب، وصلصال، وما ذكر، وذلك وصف الطين الطيب؛ لأن ما خبث من الطين لا يبلغ المبلغ الذي وصفه، ولا يصير إلى تلك الحال[٢]، وإن طال مكثه؛ لأنه لا ينتفع به [لا][٣] من اتخاذ البنيان، والأواني، والقدور، ولا ينبت الزروع أيضًا، فيحتمل على التمثيل الذي ذكرنا لا على التحقيق، أو على التحقيق على الأحوال المختلفة. فدل أنه إنما خلقه من طين [لازب][٤]؛ طاب أصله.

فعلى ذلك يحتمل النطفة التي يخلق منها البشر تكون طاهرة، وهي لا تصيب شيئًا، وهي على غير الوصف الذي يخرج؛ لأنه قال: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] وقال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨].

والصلصال: قال بعضهم: هو التراب اليابس. والحمأ: الطين الأسود. والمسنون: [المنتن المتغير][٥].

وقال بعضهم: الصلصال: هو الذي إذا ضربته تصوت؛ ومنه يقال: صلصلة اللجام والفرس؛ إذا كان يصلصل؛ وهو قول ابن عباس[٦] رضي الله عنه .

وقال القتبي[٧]: الصلصال: الطين اليابس الذي لا يصيبه النار؛ فإذا نَقَرْتَهُ صوّت، فإذا مسته النار - فهو فخار: والمسنون: المتغير الرائحة، والمسنون - أيضًا-: المصبوب، وسننت الشيء: إذا صببته صبًّا سهلا، وسنّ الماء على وجهك، وهو قول القتبي[٨].

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: الجبال.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.
(٥) في ب: المتغير المنتن.
(٦) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٨٢).
(٧) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٧).
(٨) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٨).

وقال أبو عوسجة: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ : الحمأ: التراب الأسود يكون في أسفل البئر، ومن هذا سمّي الحمي؛ لأنه يحمي أن يرعى، ويقال: حميت الحرب، والشمس، والتنور، يحمى: إذا اشتد حره. ومسنون: أي: مخلوق.

وقال الحسن: المسنون: الذي سن عليه خلقة الخلق؛ يعني أولاده على خلقته؛ أي: على خلقته خلق الخلق، وأمثال هذا. والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ .

قال بعضهم(١): الجانّ: هو إبليس. وقال بعضهم(٢): الجانّ: هو أبو الجن، وإبليس: هو أبو الشياطين؛ سمّوا شياطين لتمردهم في فعلهم، ذلك مقتدر من فعلهم، ألا ترى أنه ذكر من الإنس والجن شياطين؛ وهو قوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ وذلك لتمردهم، والجانّ مقتدر عن الجن. والله أعلم بذلك.

والسموم: قال بعضهم(٣): السموم: لهب النار؛ وليس له دخان؛ وهو المارج من نار، والمارج هو المنقطع(٤) منها.

وقال بعضهم: من جنس النار؛ كأنه أراد لهبها(٥)، وقال(٦): ﴿نَارِ ٱلسَّمُومِ﴾ : الحارّة التي تقتل، فإذا كان السموم، والمارج -ما ذكر بعضهم أنه لهب النار- فمن طبعه الارتفاع والعلوّ، فعلى ذلك ما خلق منه طبعه الارتفاع والعلو؛ وهو الجانّ الذي ذكر، والطين طبعه التسفل والانحدار إلى الأرض؛ فعلى ذلك ما خلق منه طبعه الهوى إلى الأرض، والميل إليها.

والجانّ: قال أبو عوسجة: الجنّ: واحدُ الجانّ، والجمع(٧): جانّ؛ سمي ذلك لاستجنانه. وقال غيره: الجن: الجماعة، والجانّ الواحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي أتممته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

---

(١) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١١٦٤) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٨٣).
(٢) قاله البغوي (٣/ ٤٩) ونسبه لابن عباس.
(٣) قاله الضحاك، أخرجه ابن جرير عنه (٢١١٦٧).
(٤) في ب: المقطع.
(٥) في أ: لهبا.
(٦) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١١٦٥، ٢١١٦٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه كما، في الدر المنثور (٤/ ١٨٣).
(٧) في ب: الجميع.

لم يشتبه[١] هذا على الناس، ولم يفهموا [من قوله][٢]: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ما فهموا من نفخ الخلق، فما بالهم فهموا من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩] و ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١] ونحوه - استواء الخلق؟ بل فهم نفخه من فهم نفخ الخلق أكثر من استوائه؛ لأنه أمكن صرف الاستواء إلى وجوه؛ ولا يمكن صرف النفخ فيه، لكنه اشتبه عليهم؛ لأنهم اقتدروا فعل الله بفعل الخلق، ولا يجب أن يقتدروا بالخلق على مالم يقتدروا في قوله: [حدود الله، وحكم الله][٣]، وعباد الله، وخلق الله، وأمثاله. وقد أخبر أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أو تلقين من الشيطان.

وقوله: ﴿رُّوحِى﴾ ﴿رُّوحَنَا﴾ أي: الروح الذي به حياة الخلق؛ أي: خلق الذي يكون به حياة الخلق على ما ذكرنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

يحتمل أن يكون قوله: ﴿خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ ما ذكر خبر أنه سيفعل، وأمر لهم بالسجود؛ فيكون الأمر بالسجود بعد ما خلقه إياه، فهذا يدلّ أنه قد يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ظاهر الأمر بالسجود؛ والاستثناء - الذي ذكر - يدل أن إبليس من الملائكة؛ لأن فيهم كان الأمر بالسجود، ومنهم وقع الثنيا، وقد ذكرنا اختلافهم وأقاويلهم فيما تقدم؛ مقدار ما حفظناه.

قال: والأصل بأن كل ما خرج مخرج الاستثناء -فيجب أن يسقط اسم ما أجمل؛ نحو قول الرجل الآخر: لك علي عشرة إلا درهمًا، يسقط [الاستثناء ما][٤] أجمل من الاسم حتى [صار][٥] تسعة، وكذلك إذا قال: ألف إلا خمسين، وإذا لم يسقط ذلك الاسم- فلابد أن يكون الكل فيه مضمرًا؛ نحو قول الرجل: رأيت علماء بلدة كذا إلا فلانًا- يجب أن يضمر فيه حرف الكل، حتى يقع على كل؛ نحو أن يقول: رأيت كل علماء بلدة كذا إلا

(١) في أ: يشبه.
(٢) في ب: من خلقه قوله.
(٣) في ب: حكم الله، وحدود الله.
(٤) في ب: الاستثناء اسم ما.
(٥) سقط في ب.

فلانًا، فعلى ذلك تخصيص العموم.

وقال الحسن: في قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال: الصلصال: هو الطين الحرّ الذي يتصلصل من صلابته ويبوسته، والحمأ الطين، والمسنون: قال: مسنون خلقته؛ فهو سنة للخلق بعده من ذريته؛ أن يخلقوا على خلقته؛ وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يقول: استلها من بين ظَهراني الطين؛ لا من كل طين خلقه، وكذلك قال في تناسل ذريته؛ وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ليس من كل ماءٍ خلقه؛ ولكن استلها من بين ظهراني الماء. وقال: الجانّ: إبليس؛ هو أبو الجن ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ : أي: من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ : يقول: السموم: هو اسم من أسماء جهنم، ولها أسماء كثيرة، أخبر أنه خلقه من نار السموم؛ أي: جهنم. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقال له: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ، وقال في موضع آخر: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال في موضع آخر [﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] ، وقال في موضع آخر][1]: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

ذكر مثل هذا على اختلاف الألفاظ، ومعلوم أن هذه المخاطبات معه - لم تكن معه مرارًا؛ ولكن بمرة واحدة.

وقال أبو بكر الأصم: ذكر الله تعالى قصة إبليس، وقصة الأنبياء جميعًا في مواضع على اختلاف الألفاظ؛ لأنها كذلك كانت في كتبهم، فذكرها على ما في كتبهم؛ ليعلموا أن نبى الله إنما عرف ذلك بالله؛ ليدلهم على صدقه، وفيه دلالة أن اختلاف الألفاظ وتغييرها -لا يوجب اختلاف الحكم بعد ألَّا يغير المعنى، فهذا يدل أن الخبر إذا أُدِّي معناه على اختلاف لفظه -فإنه يجوز، وكذلك إذا قرأ بغير لسان الذي أنزل- فإنه يجوز إذا أتى بمعناه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ .

قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: قال بعضهم: اخرج من السماء إلى الأرض. وقال بعضهم:

---

(١) سقط في أ.

اخرج من الأرض إلى جزائر البحر. وقال بعضهم[١]: اخرج من الجنة، وأمثاله أو اخرج من صورة الملائكة إلى صورة الأبالسة، وجائز أن يقال: اخرج من كذا: أي: تحول من مكان كذا إلى مكان كذا على حقيقة الخروج، ولسنا ندري كيف كان كذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَجِيمٌ﴾ قيل[٢]: الرجيم: الملعون. وقيل: الرجيم: ما يرجم بالكواكب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .

اللعنة: هي الطرد - في اللغة - والخذلان، طرد عن رحمته إلى يوم الدين، حتى لا يهتدي إلى دين الله وهداه، ثم يوم الدين له العذاب الدائم واللعنة القائمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ .

لعن اللعين، وطرد عن رحمته إلى يوم الدين؛ أي: لا تدركه الهداية؛ لأن الهداية في الدنيا إنما تدركه برحمته، والرحمة في الآخرة هي العفو عما لزمه؛ ووجب عليه.

مسألة تكلموا فيها: ما الحكمة في خلق الله تعالى إبليس؛ مع علمه ما يكون منه: من إفساد خلقه، والدعاء إلى المعاصي، وإنظاره إلى يوم الوقت المعلوم؛ وقد علم أنه إنما ينظره؛ ليفسد عباده، [فمع ما][٣] علم أنه[٤] يكون منه فما الحكمة في خلقه؟

قال بعضهم: خلق إبليس وأهل المعاصي؛ مع علمه ذلك؛ ليعلم أنه لم يخلق لمنافع نفسه، ولا لحاجة نفسه، وأن معاصيه لا تضره، ولا تدخل نقصانًا في ملكه، فخلقه - مع علمه بما يكون منه - ليعلم أنه لم يخلق الخلق لمنافع نفسه ولا لحاجته، ولكن لمنافع أنفسهم ولحاجاتهم.

وقال بعضهم: خلق الأعداء والأولياء؛ نظرًا للأولياء؛ ليعلم أولياؤه الاختصاص الذي اختصهم به، ولو كانوا جميعًا أولياءه - لم يعرفوا[٥] فضيلة الله؛ واختصاصه إياهم، وهكذا النعم وإحسان الله، لا يعرف بنفس النعم ونفس الإحسان؛ وإنما يعرف بالبلايا والشدائد التي تحل، فعلى ذلك الأولياء: لو لم يكن الأعداء لم يعرفوا اختصاص الله

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٥٠).
(٢) قاله قتادة وابن جريج، أخرجه ابن جرير عنهما (٢١١٧٢، ٢١١٧٣).
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: ما.
(٥) في ب: يعلموا.

لهم، وفضائله التي أكرمهم بها[١].

وقال بعضهم: خلق الأعداء نظرًا للأولياء على ما ذكرنا، لكن من وجه آخر [ ][٢]، وأصله أن الله -عز وجل- جائز أن ينشئ[٣] أشياء فيها حكمة وسرية؛ لا يبلغها علم الخلق، ولا يدركها حكمة البشر، على ما جعل النعم الظاهرة فيها- حكمة معنى لا يبلغه علم[٤] الخلق؛ ولا حكمة[٥] البشر، وكذلك البلايا والشدائد فيها حكمة لا يبلغها علم الخلق، فعلى ذلك جائز أن خلق إبليس، وعُصاة الخلق؛ لحكمة جعل في ذلك؛ حكمة لا يبلغها علم الخلق، ولا يدركها حكمة البشر، على ما ذكرنا: من النعمة الظاهرة؛ والشدائد الظاهرة، وأصله أن الله تعالى خلق الخلق على علم منه أنهم يعصون؛ ويعاندون[٦]، لكن مكن لهم من الاختيار والإيثار - ما به نجاتهم وهلاكهم؛ إذا اختاروا ذلك، فإذا اختاروا ما به نجاتهم- نجوا، وإذا اختاروا ما به هلاكهم - هلكوا، فيكون هلاكهم باختيارهم، ونجاتهم باختيارهم. وأصله: ما ذكرنا في غير موضع؛ أنه أنشأهم في هذه الدنيا؛ ليمتحنهم فيها، وفي خلق ما ذكر: من إبليس؛ وغيره من الأعداء؛ ليتم لهم المحنة، وفي ترك خلق ذلك ذهاب المحنة؛ وهي دار الامتحان.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

قال بعض أهل التأويل[٧]: إلى النفخة الأولى وقيل: إلى النفخة الثانية، ونحوه. لكنا لا نعلم ذلك، وكأنه تعالى أنظره إلى الوقت المعلوم؛ ولم يبين له ذلك الوقت، ولم يطلعه عليه؛ حيث قال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ...﴾ الآية [الأنفال: ٤٨] أخبر أنه يرى ما لا يرون هم، وأنه يخاف الله، ولو كان بيّن له الوقت المعلوم - لكان لا يخاف هلاكه قبل ذلك الوقت، فهذا يدل [على][٨] ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قال الحسن: قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: لعنتني. وهذا منه احتيال وفرار عن مذهب

(١) ثبت في حاشية ب: ونظرًا للوجوه التي يمكن تعريف الأولياء بها ما اختصهم به، فما المرجح لهذا على غيره ؟إذ يجوز أن يصرفهم بالإلهام مثلا. كاتبه.
(٢) بياض بالأصل نبّه عليه الناسخ.
(٣) في أ: ينشق.
(٤) في أ: على.
(٥) في أ: حكم.
(٦) في ب: ويعادون.
(٧) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٨٤).
(٨) سقط في أ.

الاعتزال، وما يلزمهم في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ يلزم في قوله: لعنتني؛ لأن اللعن: هو الطرد؛ فإذا طرده عن رحمته - فقد خذله، فالطرد[١] والإغواء والإضلال سواء؛ فيلزم في اللعن ما يلزمهم في الإغواء.

وقال أبو بكر الأصم: الإغواء واللعن من الله: شتم، لكن هذا بعيد، لا يجوز أن يضاف إلى الله الشتم أنه يشتم؛ لأنّ الشاتم والسابّ لآخر - في الشاهد بما يشتمه - مذموم عند الخلق؛ فلا يجوز أن يضاف إلى الله مابه يذم. وأصله: أن قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ يحتمل أنه خلق فعل الغواية منه أو أغواه؛ لما علم أنه يختار الغواية والضلال.

وقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: كأنه يقول: ربّ بما أغويتني لأزيدن لهم في الغواية بما أغويهم، وقد ذكرنا هذا وأمثاله فيما تقدم.

فإن قيل: قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قول إبليس؛ وهو كاذب بالإضافة إليه. قيل: لو كان فيما أضاف إليه الإغواء كاذبًا لكذبه فيه، وورد عليه [قوله][٢]، كما كذبه في قوله ورد عليه: أنا خير منه خلقتني من كذا وخلقته من كذا؛ حيث قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فلما لم يردّ عليه؛ ولم يكذبه فيما أضاف إليه حرف الإغواء دل أن [إضافة الإغواء إليه][٣] والإضلال حقيقة أو أن يكون قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] إنما ذلك منه ذكر فضله وإحسانه؛ حيث أخبر أنه خلقه مما هو أفضل وأعظم مما[٤] خلق آدم؛ فيخرج ذلك منه مخرج الشكر. وأما قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ ليس على ذلك، فلا يحتمل ألا يكذبه، ولا يرد عليه قوله إذا كان كاذبًا فيه؛ لأنه فعل شر أضافه إليه، إذا لم يكن منه الإغواء؛ لذلك اختلفا، أو لو كان قول إبليس - لعنه الله - كذبًا فما تصنعون بقول نوح - عليه السلام - حيث قال: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقول موسى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ثم قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يحتمل أن يكون منه عزم على ما ذكر، دون أن تفوّه بذلك، فأخبر -عز وجل- عنه ما كان عزم؛ من الإغواء وغيره بالقول، وذلك جائز؛ يخبر عن العزم والقصد بالقول؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] لا يحتمل أن يكون هذا القول الذي أخبر عنهم قولا منهم؛ لأنه لا أحد من المتصدقين يقول بمثل ذلك عند

(١) في أ: في الطرد.
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: عليه صرف الإغراء دل أن الإضافة إليه الإغواء.
(٤) في أ: ما.

التصدق؛ لكنه إخبار عما [قصدوا وعزموا][١] بالتصدق؛ فعلى ذلك يشبه أن يكون هذا من الله إخبارًا عما عزم إبليس وقصد؛ على غير التفوه به والقول، وهو ما ذكر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٩٩] أخبر أنهم كتموا فيه وأضمروا.

ويحتمل أن يكون على التفوه بما ذكر، قال ذلك؛ لما قال له -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لما شهد الله عليه باللعن إلى يوم الدين أيس -لعنه الله- عن الهدى؛ فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: لعنتنى وشهدت عليّ بذلك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ المخلص - بخفض اللام-: هو الذي أخلص له الاعتقاد، والعمل والوفاء، والمخلص -بنصب اللام-: هو الذي أخلصه الله، وحفظه، وعصمه، واختصه بذلك. والمخلص لا يقال إلا بعد أن يكون لله فيهم صنع، ولهم اختصاص، وفضائل اختصهم بذلك؛ برحمة الله وفضله.

والمعتزلة يقولون: لا يستوجب أحد الاختصاص والفضيلة إلا بفعل يكون منه لا يستوجب بالله.

ويقولون: الله لا يغوي أحدًا لا إبليس، ولا أحدًا من أتباعه؛ فإبليس أعرف بالله من المعتزلة؛ حيث رأوا أن الله لا يغوي أحدًا ولا يختص أحدًا إلا بصنع يكون منه.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

قال بعضهم[٢]: قوله ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى إليّ: أي: إليّ صراط مستقيم؛ يقول: هو بيدي لا[٣] بيد أحد وقال بعضهم[٤]: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه لا يعوج على شيء.

ويحتمل قوله: ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾: أي: عليّ بيانه وهو مستقيم؛ كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]: أي: بيان قصد السبيل.

وقال بعضهم: لما قال إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول: عليّ ممرّ من أغويته وتابعك؛ كقولك لآخر -إذا أوعدته-: إن طريقك عليّ. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: ليس لك عليهم حجة ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) في ب: عزموا وقصدوا.
(٢) أخرجه ابن جرير (٢١١٧٩) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٨٤).
(٣) في أ: ليس.
(٤) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١١٧٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٨٤).

﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ فإنهم يتبعونك بلا حجة ولا برهان.

ويحتمل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: تقهرهم وتضطرهم على ذلك إلا من اتبعك من الغاوين؛ فإنهم يتبعونك على غير قهر واضطرار؛ أي: من كان في علم الله أن يتبعك ويختار الغواية؛ وإن لم يكن إغواؤك إياه؛ فإن لك عليه سلطانًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: لموعد إبليس وأتباعه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾.

يحتمل الأبواب المعروفة، ويحتمل الأبواب: الموارد والجهات التي تكون لها؛ ألا ترى أنه قال: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فهذا يدل أن المراد بالأبواب: الموارد والدركات - لا نفس الأبواب؛ إذ جزء مقسوم إنما يكون للدركات؛ لا يكون للأبواب نفسها.

قال الحسن، والأصم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يعنون بالأبواب: الطبقات والدركات، لكل باب منهم جزء مقسوم: لليهود باب، وللنصارى باب، وللمجوس باب، وللذين أشركوا باب، وللمنافقين باب، ولأهل الكبائر باب وذكر أيضًا بابًا لفريق أدخلوا أهل الكبائر فيها، والصابئين، والدهرية.

وعندنا أن ظاهر الآية في الكافرين؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ والغاوون: هم الكافرون، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ فإذا كان كذلك؛ فالسبعة الأبواب - التي ذكر - كلها لأهل الكفر، لا يدخل أهل الكبائر فيه.

ويحتمل: باب للمتجاهلة؛ وهم الذين ينكرون العالم الشاهد والغائب، لا يقرون بشيء، وباب للدهرية؛ وهم الذين ينكرون الصانع، وباب للثنوية، وهم الذين يقولون بالاثنين، وباب للذين أشركوا؛ وهم يقولون بالواحد؛ لكنهم[1] يشركون فيه غيره؛ يعبدون الأصنام والأوثان، وباب لليهود، وباب للنصارى، وباب للمنافقين. فذلك سبعة أبواب، وليس لأهل الكبائر باب مسمى معلوم، إنما ذلك كله لأهل الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

---

(١) في ب: لكن.

إن كان أهل الكبائر في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيكون قوله: إن المتقين الذين اتقوا الكبائر؛ وإن كان أصحاب الكبائر لم يدخلوا في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ ، فيكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للذين اتقوا الشرك.

وقوله - عز وجل-: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ .

أي: في: بساتين، والبساتين: هي التي التفّت بالأشجار والنخيل.

والعيون قد تكون جارية في الدنيا، وقد تكون غير جارية، فأخبر في آية أخرى بأن عيون الآخرة تكون جارية؛ بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]

﴿وَعُيُونٍ﴾: قال بعضهم: ذكر العيون؛ ليعلم أن مياه الجنة - ليست تكون من الثلوج والأنهار العظام - على ما تكون في الدنيا - ولكن تنبع فيها.

وقال بعضهم: ذكر العيون؛ لأنه ينبع في بستان كل أحد عين على حدة، لا يأتي بستانه من ملك آخر، ومن بستان آخر، على ما يكون في الدنيا؛ ولكن تنبع في جنة كل أحد عين على حدة، على ما أراد الله، ليس أنها تتصل بالأرض؛ كما ذكر في قصّة بني إسرائيل: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أنشأ الله في ذلك الحجر ما يخرج لهم على غير اتصاله بالأرض، ولكن بلطفه ينشئ فيه ماء، فعلى ذلك في الجنان التي وعد.

ويشبه أن يكون ذكر هذا لما يختلف رغائب الناس في الدنيا: منهم من يرغب في العين[1]؛ ويتلذذ بالنظر إليها، ومنهم من يرغب في النهر الجاري، فذكر مرة العيون، ومرة الأنهار؛ كقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النحل: ٣١] على ما ذكر مرة الخيام، والقباب، والغرف، وأنواع الفرش والبسط، والكيزان والأكواب، والجواري والغلمان، وغير ذلك على ما يرغب الناس في الدنيا: منهم من يرغب [في نوع لا يرغب][2] في نوع آخر؛ فذكر فيها كل ما يرغبون في الدنيا؛ ليبعثهم ذلك على العمل الذي به يوصل إلى ذلك. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

قال بعضهم: قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: أي: اجعلوا دخولكم فيها بسلام؛ على ما أمرهم في الدنيا أن يجعلوا الدخول في المنازل بالسلام؛ كقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا

---

(١) في أ: الدين.
(٢) سقط في أ.

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ. . .﴾ الآية [النور: ٦١]، وعلى ما أخبر أن الملائكة يسلمون عليهم؛ كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وكقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الحجر: ٥١، ٥٢] وقال بعضهم: قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: أي: ادخلوها بسلام لا يصيبكم مكروه؛ آمنين لا ينغِّصهم خوف ولا حزن، على ما أخبر ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وقال بعضهم: [. . .][١] وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ .

قال بعضهم: هو صلة قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: نزعنا ما في صدورهم من غل؛ الذي كان في الدنيا بالكفر؛ فصاروا إخوانًا بالإسلام الذي هداهم إليه؛ فكانوا إخوانًا، ثم قيل لهم: ادخلوا الجنة بلا غلّ، وهو ما قال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قد نزع من قلوبهم الغل في الدنيا، فصاروا إخوانًا فدخلوا الجنة.

وقال بعضهم[٢]: قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الآخرة إذا دخلوا الجنة وتقابلوا واتكئوا على سرر، فعند ذلك ينزع الغل من قلوبهم، والمظالم التي كانت بينهم، فإذا كان هذا فهو بين أهل الإسلام.

وعلى ذلك يحتمل أن يكون [كل من][٣] جفا آخر في الدنيا أن ينسى الله ذلك منهم في الجنة؛ لأن ذكر الجفاء ينغص[٤] النعم التي فيها، وكذلك ما يكون بين الرجل وولده من الجفاء والعقوق - يجوز أن ينسى ذلك عليهم. وعلى ذلك ما روي عن عليّ رضي الله عنه؛ قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٦]: قال بعضهم: يجعل الله منازلهم بعضها مقابل بعض؛ فينظر بعضهم إلى بعض، ويزور بعضهم بعضًا.

وقال بعضهم: يأمر الله السرر التي هم عليها جلوس؛ ليكون بعضها مقابل بعض، إذا

---

(١) بياض في أ، ب. وقد أشير إليه فيهما.
(٢) قاله أبو أمامة، أخرجه ابن جرير (٢١١٩٣، ٢١١٩٤) وسعيد بن منصور وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريقين عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٨٨).
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: ينقص.
(٥) أخرجه ابن جرير (٢١٢٠٧، ٢١١٩٩) وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من طرق عنه كما، في الدر المنثور (٤/ ١٨٨، ١٨٩).
(٦) في أ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾ .

اشتهى بعضهم زيارة بعض، ولا يكونون مدبرين؛ ولا معرضين، بل مقبلين، يخبر عن اجتماعهم في الآخرة في الشراب، وأنواع المطاعم على ما يستحسن في الدنيا الإخوان بينهم الاجتماع على الشراب والطعام، والتلذذ، والنظر بعضهم إلى بعض، فعلى ذلك أخبر أن لهم في الآخر كذلك اجتماع في الشراب، والنظر، وأنواع التلذذ والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ .

أي: عناء ومشقة، أخبر أنه لا عناء يمسهم كما يكون في الدنيا؛ لأن في الدنيا: من أطال المقام في موضع يملّ عن ذلك ويسأم، وكذلك إذا أكثر من نوع من الطعام[١]؛ أو الشراب، أو الفاكهة -يملّ عن ذلك ويسأم، ويؤذيه، ولا يوافقه، فأخبر أن أهل الجنة لا يملون ولا يؤذيهم طعامها؛ وإن أكثروا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ .

أخبر أنهم لا يخرجون منها، ولا هم يطلبون الخروج منها؛ كقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]؛ لأن خوف زوال النعم ينغص[٢] على صاحبها تلك النعمة، وطعمها؛ فأخبر أنهم فيها أبدًا، وتلك[٣] النعمة لهم دائمة غير زائلة عنهم والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

قال بعضهم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن استغفرني وتاب عما ارتكب من معاصيه، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لمن عصاني، ولم يستغفر، ولم يتب إليه.

ويحتمل غير هذا؛ وهو أن يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لئلا ييئسوا من رحمتي، ولا يقنطوا مني، ولكن يرجون رحمته وعفوه[٤]، ويخافون عذابه ونقمته، ونبئهم أيضًا أن عذابي هو العذاب الأليم لئلا يكونوا آمنين أبدًا؛ فيكون فيه أمر بأن يبشر، وأن ينذر؛ كأنه قال بشر أوليائي أني أنا الغفور الرحيم لأوليائي، وأن عذابي شديد أليم لأعدائي.

وفي قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ فيه بشارة ونذارة: أما البشارة: فهو قوله: ﴿أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، و[أما][٥] النذارة: فهو قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

---

(١) في أ: المطاعم.
(٢) في أ: ينقص.
(٣) في ب: أو.
(٤) ينظر: اللباب (١١/ ٤٦٥،٤٦٦).
(٥) سقط في ب.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

أي: نبئ قومك عن ضيف إبراهيم؛ أي: نبئهم بتمام ما فيه من الزجر والموعظة؛ لأن في ذلك أخبار ما نزل بالمكذبين؛ بتكذيبهم الرسل، وهو الإهلاك، ونجاة من صدق الرسل، ففيه تمام ما يزجرهم، ويعظهم، من الترهيب والترغيب، فإن فيهم آية لرسالتك ونبوتك؛ لأنه يخبرهم على ما في كتبهم لم يشهدها هو، فيدلهم أنه إنما عرف ذلك بالله.

أو نبئهم؛ فإن ذلك ما يزجرهم عن مثل صنيعهم، وفيه ذكر نعم الله؛ لأنهم جاءوا بالبشارة؛ بشارة الولد، وجاءوا بإهلاك قوم مجرمين، فذلك بالذي يزجرهم عن مثله، والبشارة ترغبهم في مثل صنيع إبراهيم، فنبئهم فإن فيه[١] ما ذكرنا.

ودل قوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أن الضيف اسم لكل[٢] نازل على آخر، طعم عنده أو لم يطعم، وكان نزله للطعام أو لا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ .

أي: سلموا على إبراهيم، فرد إبراهيم عليهم السلام.

وقال أبو بكر الأصم: السلام جعله الله أمانًا بين الخلق، وعطفًا فيما بينهم، وسببًا لإخراج الضغائن من قلوبهم.

وقال بعضهم: جعل الله السلام تحية على[٣] كل داخل على آخر، وهو ما ذكرناه.

وقال بعضهم: السلام: هو اسم كل خير وبر وبركة؛ كقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢] والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون.

قال بعض أهل التأويل: إنما خاف؛ لأنه ظن أنهم لصوص وأهل ريبة، لكن هذا لا يحتمل أن يخاف منهم؛ ويظن أنهم لصوص وأهل ريبة، وقد سلموا عليه وقت ما دخلوا

---

(١) في أ: به.
(٢) في ب: كل.
(٣) في أ: عن.

عليه، واللصوص وأهل الريبة إذا دخلوا بيت آخر لا يسلمون عليه، لكنه إنما خافهم إذ رأى أيديهم لا تصل إليه؛ كما قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] عند ذلك خافهم؛ فلما رأى ذلك ظن إبراهيم أنهم ملائكة؛ إنما جاءوا لأمر عظيم؛ حيث لم يتناولوا مما قرب إليهم؛ وبين إبراهيم[١] وبين المكان الذي يرتحل منه - مكان يقع لهم الحاجة إلى الطعام.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

وقال في آية أخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] والحلم: هو الذي ينفي عن صاحبه كل أخلاق دنية، والعلم: هو الذي يدعو صاحبه إلى كل خلق رفيع؛ ليعلم أنه اجتمع فيه [جميع][٢] الخصال الرفيعة، ونفى عنه كل خلق دنيء.

وقوله - عز وجل-: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾.

أي: أبشرتموني أن يولد لي، وأنا على الحال التي أنا عليها، أو يرد إليَّ شبابي وشباب امرأتي.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ على الحال التي أنا عليها وامرأتي، أو يرد الشباب إلينا، وإلا لا يحتمل أن يخفى عليه قدرة الله هبة الولد في حال الكبر، لكنه لم ير الولد يولد في تلك الحال، فاستخبرهم أنه يولد في تلك الحال، أو يرد إلى حالة أخرى حالة الشباب. والله سبحانه أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: بما هو كائن لا محالة، أي: وعد كائن لا محالة، والواجب على كل من أنعم عليه بنعمة أن يشتغل بالشكر للمنعم، لا يستكشف عن الوجوه التي أنعم، والأحوال التي يكون عليها.

ثم في بشارة الولد بشارتان:

إحداهما[٣]: بشارة بالغلام.

والثانية[٤]: بالبقاء والبلوغ إلى وقت العلم؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، وهو ما قال في آية أخرى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]، ففي قوله «كهلا» دلالة وبشارة: إلى أنه يبقى إلى أن يصير كهلا، وإلا الكهل يضعف.

---

(١) في ب: أيديهم.
(٢) سقط في ب.
(٣) في أ: أحدهما.
(٤) في أ: والثاني.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ .

قد ذكرنا فيما تقدم أن الأنبياء قد نهوا عن أشياء [قد][(١)] عصموا عنها ما لا يحتمل أن يكون منهم ما نهوا عنه؛ [نحو قوله][(٢)]: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] و ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وأمثاله، وذلك مما لا يتوهم كونه[(٣)] منهم؛ وذلك لما ذكرنا أن العصمة لا ترفع المحنة؛ لأنها لو رفعت لذهبت فائدة العصمة؛ لأنها[(٤)] إنما يحتاج إليها عند المحنة، وأمّا إذا لم يكن محنة فلا حاجة تقع إليها، فعلى ذلك إبراهيم لم يكن قنط من رحمة ربه؛ أنه لا يهب له الولد في حال كبره؛ ولكن ما ذكرنا، ثم بين أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون: أخبر أن القنوط من رحمة الله هو ضلال، والإياس من رحمته كفر، فعندهم تضيق رحمته حتى لا يسع فيها الكبائر، والمعتزلة يقنطون من رحمة ربهم؛ لقولهم في أصحاب الكبائر ما يقولون.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١].

قيل: فما خبركم، وما قصتكم، وما شأنكم؟ والخطب: الشأن؛ أي: على أي أمر وشأن أرسلتم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢].

لم يحتمل أن يكون أول ما أخبروا إبراهيم وقالوه هذا، ولكن كان فيه ما ذكر في آية أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤] فقال إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢] يذكر هاهنا على الاختصار؛ فذلك يدل أن الخبر إذا أدّى معناه يجوز، وإن لم يؤت بلفظه على ما كان.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ كأن الثنيا هاهنا تكون عن الأشخاص، وأنفس أهل القرية؛ عن قوله: ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ ؛ لأن آل لوط لم يكونوا مجرمين؛ فلا يحتمل الاستثناء من ذلك.

أو لا يكون على حقيقة الثنيا، وإن كان في الخبر استثناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ .

أخبر أنهم يهلكون قومه، ثم استثنى آله منهم، ثم امرأته من آله؛ ففيه دلالة أن الثنيا

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: كقوله.
(٣) في ب: أمثاله.
(٤) في أ: لأنه.

ليس برجوع؛ لأنه لو كان رجوعًا لكان يوجب الكذب في الخبر، ولكن في الثنيا بيان تحصيل[(١)] المراد مما أجمل في اللفظ.

وفيه دلالة أيضًا أنه يجوز أن يستثنى من الاستثناء؛ لأنه استثنى امرأته من آله؛ بقوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فحصلت المرأة من قومه؛ حيث استثناها من آله.

وفيه أنه قد يجوز أن يستثنى من خلاف نوعه؛ لأنه استثنى آل لوط من قومه، والمجرم ليس من نوع الصالح، ثم استثنى امرأته من آله؛ وهي ليست منهم.

وفيه أيضًا أن آل الرجل يكون أتباعه؛ حيث استثنى آله منهم، يدخل فيه من تبعه؛ ألا ترى أنه قال: آل فرعون، وإنما هم أتباعه، وآل موسى، وآل هارون، وآل عمران: كل يرجع إلى أتباعهم، فيدخل في قولهم: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد- كلّ من تبعه. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

قال أبو بكر الأصم: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا﴾: أي: أخبرنا، لكن هذا منه احتيال على تقوية مذهب الاعتزال؛ لأنهم ينكرون أن يكون أفعال العبيد مقدرة لله مخلوقة، ففي ذلك دلالة أن أفعالهم مخلوقة لله، مقدرة له، وأصله: أي: قدرنا بقاءها من الأصل.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقين.

قال أبو عوسجة: الغابرون: الباقون، والغابرون: الماضون أيضًا؛ يقال: غبر يغبر غبرًا: إذا بقي، وإذا مضى أيضًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

---

(١) في أ: تحصي.

أي: إنكم قوم منكرون؛ لا تعرفون بأهل هذه البلدة، وإنما قال لهم هذا؛ لأن قومه إنما يعملون ما يعملون بالغرباء؛ لا يعملون بأهل البلد؛ ألا ترى أنهم قالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أن تضيف أحدًا منهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ .

هذا ليس بجواب لما سبق من قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ، ولكن قالوا [ذلك له](١) والله أعلم بعدما كان بين [لوط وقومه](٢) مجادلات ومخاصمات من ذلك قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٩] وغير ذلك من المخاصمات.

وقد كان لوط يعدهم العذاب بصنيعهم الذي كانوا يصنعون؛ ولذلك قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٣٢]؛ فعند ذلك قالوا:

﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ .

[قال بعضهم(٣): بما كانوا فيه يشكّون؛ بما كان يعدهم من العذاب. وقال بعضهم: ﴿بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾](٤) [أي: بما كانوا](٥) يجادلون وينازعون، أو يقول: بل جئناك بجزاء ما كانوا يمترون.

ثم امتراؤهم، يحتمل مجادلتهم إياه، ويحتمل ما كانوا عليه من الريبة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ .

قال بعضهم: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ : أي: بنجاتك؛ ونجاة أهلك وإهلاك قومك. وقال بعضهم: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ : أي: بالعذاب الذي كنت تعدهم.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقول(٦)، يحتمل هذا: أن لم يكن هذا منهم قولا قالوه؛ لأن لوطًا يعلم أنهم صادقون فيما يقولون؛ حيث علم أنهم ملائكة الله، لكن أخبر عنهم على ما كانوا عليه، على غير قول كان منهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ .

أي: ببعض من الليل. وقال بعضهم بسحر؛ على ما قال: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾

---

(١) في ب: له ذلك.
(٢) في ب: لوط وبين قومه.
(٣) قاله قتادة، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩١).
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في أ.
(٦) في أ: تقول.

[القمر: ٣٤] وهو بعضٌ سحرًا كان أو غيره.

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾: أي: سر من ورائهم، وهكذا الواجب على كل مولى أمر[١] جيش أن يتبع أثرهم، أو يأمر من يتبع أثرهم؛ ليلحق بهم من تخلف منهم، ويحمل المنقطع منهم؛ وليكون ذلك أحفظ لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ قال بعضهم ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ﴾ أي: لا يتخلف منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون.

وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١].

فإنها [تتخلف عنكم؛ فيصيبها][٢] ما أصاب أولئك، هذا يدلّ أن ليس في تقديم الكلام وتأخيره منع، ولا في تغيير اللسان ولفظه بعد أن يؤدي المعنى خطر؛ لأن قصة لوط وغيرها من القصص ذكرت وكررت على الزيادة والنقصان، وعلى اختلاف الألفاظ واللسان، فدلّ أن اختلاف ذلك لا يوجب تغييرًا في المعنى، ولا بأس بذلك.

وقال بعضهم[٣]: في قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾: أي: لا ينظر أحد وراءه، فهو - والله أعلم - لما لعلهم[٤] إذا نظروا وراءهم فرأوا ما حلّ بهم: من تقليب الأرض وإرسالها عليهم - لا تحتمل بنيتهم وقلوبهم؛ فيهلكون أو يصعقون، ألا ترى أن موسى مع قوته لم يحتمل اندكاك الجبل[٥]، ولكن صعق؛ فصار مدهوشًا في ذلك الوقت، فهؤلاء أضعف، وما حلّ بقومهم أشد فَبِنْيَتُهُم أحرى ألا تتحمل ذلك. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ قيل: أوحينا إليه، كقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]: أي: أوحينا إليهم، وقال بعضهم: [قوله][٦]: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: أنهينا إليه وأعلمناه، وهو قول الكسائي والقتبي[٧].

وقوله - عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ .

يحتمل قوله: ذلك الأمر هو ما ذكر: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، هذا[٨] الذي

---

(١) في ب: أمير.
(٢) سقط في أ.
(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٢١٩، ٢١٢٢٢).
(٤) في ب: لعله.
(٥) في أ: الجبال.
(٦) سقط في أ.
(٧) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٨).
(٨) في أ: هو.

أوحى إليه وأعلمه.

ويحتمل قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أوحينا إلى محمد ﷺ: أن ذلك الأمر الذي بلغك مقطوع مصبحين.

ويحتمل الوحى إلى لوط على البشارة: أن دابر قومه مقطوع مصبحين.

أي: مقطوع نسلهم، فيه إخبار عن قطع نسلهم، وفي الخبر عن قطع نسلهم إخبار عن هلاكهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ : قال بعضهم: أصل هؤلاء. وقال بعضهم[(١)]: دابر هؤلاء مقطوع: أي: مستأصلون، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ : ليس يريد به حين[(٢)] أصبحوا، وحين بدا طلوع الفجر، ولكن أراد طلوع الشمس؛ ألا ترى أنه قال:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ، وإشراق الشمس: هو ارتفاعها وبسطها في الأرض، دلّ أنه ما ذكرنا. والله أعلم.

والصيحة: تحتمل وجوهًا:

أحدها: ذكر الصيحة؛ لسرعة هلاكهم أي:[(٣)] قدر صيحة.

والثاني: أهلكوا بالصيحة، أو صاح أولئك لما أهلكوا، والصيحة اسم كل عذاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

يحتمل: يُسَرّون بنزول أضيافه، أو يبشر بعضهم بعضًا؛ لما رأوا بهم من حسن الهيئة والمنظر، ورفعة اللباس.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ .

يحتمل هذا وجهين: فلا تفضحوني في ضيفي؛ فإنهم إنما نزلوا بنا على أمن منا؛ فلا تفضحوني عندهم، وهو ما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود:٧٨] ويحتمل: لا تفضحوني في الخلق، يقولون: إن في أهل بيت لوط يُفعل بالأضياف كذا، وإنما عرف أهل بيتي عند الخلق بالصلاح والأمن فلا تفضحوني[(٤)] في الخلق؛ واتقوا الله في صنيعكم بالرجال، ولا تخزون عند الخلق؛ قيل: هو من الهوان.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أن يكون الإخزاء: هو الفضيحة، دليله ما

---

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٢٢٥).
(٢) في أ: حيث.
(٣) في أ: أو.
(٤) في أ: تفضحون.

ذكر: أن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون؛ فيكون هذا تفسير ذلك.

ويحتمل الهوان، وكذلك قيل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [النحل:٢٧] أي: الهوان اليوم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

هذا يدل على أنه قد كان سبق النهي عن إنزال الأضياف؛ كأنهم[1] قد نهوه عن إنزال الأضياف؛ لذلك قالوا: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

قال أبو بكر الأصم: يخرج قولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مخرج الاعتذار له؛ لأنهم كانوا يعظمون الرسل [- أعني: أقوام الرسل جميعًا - إذ لم يكن من الرسل][2] إليهم، سوى الخلاف في الدين والدعاء إلى دين الله، فهم وإن كذبوا الحجج التي أتت بها الرسل فقد كانوا يعظمونهم؛ ألا ترى أنه قال لرسولنا صلوات الله عليه: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ...﴾ الآية [الأنعام:٣٣] والأول أشبه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ، وفي موضع آخر: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود:٧٨] وقد ذكرنا في السورة التي فيها ذكر هود.

قال بعضهم[3]: إنما عرض عليهم نساء قومهم؛ لأنه كالأب لهم على ما ذكر أن نساء رسول الله ﷺ أمهاتهم. وقال بعضهم: في ذكر البنات إخبار منه لهم بنهاية فحش صنيعهم؛ لأنه يجوز ورود الشرع على بناته لهم، ولا يجوز حل ذلك بحال.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ .

قال الحسن: يقسم الله بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله، وإنما أقسم بحياة محمد ﷺ[4]؛ ولم يقسم بحياة غيره وبغيره.

وقال بعضهم: قوله: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ كلمة تستعملها العرب في أقسامهم؛ على غير إرادة القسم بحياة أحد. ومنهم من قال: إنما ذلك على التعريض؛ وأصله: أن الله قد أقسم بأشياء: أقسم بالشمس، والقمر، والليل، والنهار، وأقسم بالجبال، والسماء، وغيرها من الأشياء التي تعظم عند الخلق، فرسول الله ﷺ - وقد أخبره أنه أرسله رحمة للخلق وهدى- أولى أن يعظم بالقسم به؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) في أ: كأنه.

(٢) سقط في أ.

(٣) قاله البغوي (٣/ ٥٥).

(٤) زاد في ب: وقال بعضهم: أقسم بحياة محمد.

[الأنبياء: ١٠٧] فمن كان رحمة للعالم كله أولى أن يعظم من غيره؛ إذ منافعه أعمّ وأكثر.

وقال بعضهم: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ : القسم ليس بحياة الرسول؛ ولكن بدينه، وهو قول الضحاك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

قال بعضهم: السكرة: الشدة التي تحلّ بهم عند الموت، شبههم بحيرتهم التي فيهم بسكرة الموت، يعمهون أي: يترددون[1].

وقال بعضهم: في ضلالتهم وكفرهم، يعمهون: يتحيرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ .

قد ذكرنا في غير موضع اختلافهم في الصيحة: قال بعضهم: الصيحة هي العذاب نفسه؛ أي: أخذهم العذاب. وقال بعضهم: سمي ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ لسرعة نزوله بهم، وأخذه إياهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ .

قال بعضهم[2]: أشرقت الشمس: إذا ارتفعت وأنارت، وشرقت: إذا بزغت، وهو قول الكسائي.

وقال أبو عوسجة: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ : أي: إذا أشرقوا، أي: إذا طلعت الشمس عليهم، وقد ذكرنا هذا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قد ذكرناه في السورة التي فيها ذكر هود.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ .

قال بعضهم[3]: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ : للمتفرسين؛ من الفراسة، وروي في ذلك خبر عن رسول الله ﷺ؛ يرويه أبو سعيد الخدري؛ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» قال: ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [4]. فإن ثبت الخبر، وثبت تلاوة هذه الآية على إثر ما ذكر فهو هو.

---

(١) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٢٣٥) وعن الأعمش ، أخرجه ابن جرير (٢١٢٣٣)، وابن أبي حاتم ،كما في الدر المنثور (١٩٢/٤).

(٢) قاله ابن جريج، أخرجه ابن جرير (٢١٢٣٨).

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٢٤٠،٢١٢٤٤) وابن المنذر عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢١٢٤٩، ٢١٢٥٠) والبخاري في تاريخه والترمذي (٣١٢٧) وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معًا في الطب وابن مردويه والخطيب، كما في الدر المنثور (١٩٣/٤).

وقال بعضهم: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ : المعتبرين[(١)]. وقيل: المتفكرين[(٢)]. وقيل: الناظرين[(٣)]. ذكروا أنه آية للمعتبرين، ولكن لم يبينوا من أي وجه يكون آية لمن ذكر؛ فيحتمل وجوهًا:

أحدها: آية للمتوسمين: للمعتبرين[(٤)] لرسالته؛ لأنه ذكر قصة إبراهيم ولوط - على ما كان - وهو لم يشهدها؛ فذلك يدل على صدقه وآية لرسالته[(٥)].

والثاني: آية لصدق خبر إبراهيم، وصدق لوط؛ لأنهم كانوا يخبرون قومهم أن العذاب ينزل بهم، وغير ذلك من الوعيد، فيدل ذلك على صدق خبر الأنبياء عليهم السلام في كل ما يخبرون.

والثالث: في هلاك من أهلك منهم؛ ونجاة من أنجى منهم - آية لمن ذكر، من هلك منهم هلك بالتكذيب، ومن نجا منهم نجا بالتصديق؛ فيكون لهم آية.

والرابع: قد بقى من آثار من هلك منهم آية؛ فيكون هلاكهم آية لمن ذكر. وأصل هذا أن الله ذكر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ : أي: المؤمنين المتقين، والاعتبار والتفكر للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون. قال: والمتوسم: هو الذي يعمل بعلامة، وكذلك المتفرس: هو الذي يعمل بعلامة في غيره، [ينظر في غيره][(٦)]: بأن هلاكه بم كان؟ فينزجر عن صنيعه ويتعظ به، وهو كالمتفقه الذي يعمل بالمعنى. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

أي: طريق دائم لا يزول، يعلم أن في ذلك لآية للمؤمنين؛ وهو ما ذكرنا أن الآية تكون للمؤمن. والله أعلم.

ذكر في الآية الأولى: ﴿الآيات﴾ لأنه أنبأ إبراهيم وقصته، وقصة قوم لوط؛ ففي ذلك آيات لمن ذكر. وذكر في هذه الآية: ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ لأنه ذكر شيئًا واحدًا؛ وهو السبيل.

---

(١) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١٢٤٧،٢١٢٤٨) وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٢).
(٢) قاله ابن زيد أخرجه ابن جرير عنه (٢١٢٥٣).
(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٢٤٥) وعن الضحاك (٢١٢٤٦،٢١٢٥٤) وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٩٢).
(٤) في ب: المعتبرين.
(٥) في ب: رسالته.
(٦) في ب: ينظرون غيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ .

أي: وقد كان أصحاب الأيكة لظالمين. والأيكة: ذكر أنها الغيضة من الشجر؛ وهي ذات آجام وشجر، كانوا فيها فبعث إليهم شعيب وهم في الغيضة.

وذكر [بعض][١] أهل التأويل[٢]: أن شعيبًا بعث إلى قومين: إلى أهل غيضة مرة، وإلى أهل مدين مرة؛ على ما ذكر: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦] وقال في آية [أخرى][٣]: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ سمى الله تعالى الكفرة بأسماء مختلفة: سماهم مرة ظالمين، ومرة [فاسقين، ومرة مشركين][٤]، واسم الظلم قد يقع فيما دون الكفر والشرك، وكذلك اسم الفسق يقع فيما دون الكفر والشرك، ثم الكفر لم يقبح لاسم الكفر، وكذلك الإيمان لم يحسن لاسم الإيمان؛ إذ ما من مؤمن إلا وهو يكفر بأشياء ويؤمن بأشياء؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] المؤمن يكفر بالطاغوت وبالأصنام؛ التي كان[٥] أهل الكفر عبدوها، وكذلك الكافر يؤمن بأشياء ويكفر بأشياء: يؤمن بالأصنام ويكفر بالله؛ فثبت أن الكفر لاسم الكفر - ليس بقبيح، وكذلك الإيمان لاسم الإيمان- ليس بحسن، ولكن إنما حسن؛ لأنه إيمان بالله، والكفر إنما قبح؛ لأنه كفر بالله.

وأما الظلم: فهو لاسم الظلم قبيح، وكذلك الفسق لاسم الفسق قبيح؛ فسماهم بأسماء هي لاسمها قبيحة[٦]، لكن الإيمان المطلق هو الإيمان بالله، والكفر المطلق هو

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١٦٤) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٣).

(٣) سقط في ب.

(٤) في ب: فاسقين وكافرين ومشركين.

(٥) في ب: كانوا.

(٦) في أ: قبيح.

الكفر بالله، وإن كان يسمى بدون الله كفرًا وإيمانًا؛ كما قلنا: الكتاب المطلق كتاب الله، والدين المطلق دين الله؛ وإن كان اسم الكتاب والدين يقع على ما دونه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ذكر الانتقام منهم؛ ولم يذكر هاهنا بِمَ كان الانتقام، وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] فيحتمل أن يكون الرجفة لقوم؛ والصيحة لقوم؛ وعذاب يوم الظلة لقوم منهم، أو كان كله واحدًا؛ فسماها بأسماء مختلفة، وليس لنا إلى معرفة ذلك العذاب[١] حاجة -سوى ما عرف أنهم إنما أهلكوا أو عذبوا بالتكذيب؛ ليكون ذلك آية لمن بعدهم؛ ليحذروا مثل صنيعهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ للرسل؛ كما انتقمنا من قوم لوط للوط؛ بسوء صنيعهم، وسوء معاملتهم إياه، فعلى ذلك ننتقم من أهل مكة لمحمد ﷺ؛ بسوء صنيعهم ومعاملتهم إياه، وقد كان ما نزل بأصحاب الأيكة كفاية مزجر لهم، وعظة لا يحتاج إلى ذكر ما نزل بقوم لوط.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قال بعضهم[٢]: يعني قوم لوط، وقوم شعيب.

وقوله: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: طريق مستبين؛ أي: بين هلاكهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ -واحد؛ أي: بيّن واضح آثارهم من سلك ذلك الطريق؛ أو دخل قراهم ومكانهم[٣]- لاستبان له[٤] آثار هلاكهم؛ وما حل بهم.

وقوله: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: طريق يُؤمّ، ويقصد؛ بيّن واضح.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال أهل التأويل[٥]: أصحاب الحجر: هم قومُ صالحٍ ثمودُ، وقالوا: الحجر: هو اسم واد. وقيل: هو اسم القرية على شط الوادي؛ نسبوا إليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال أهل التأويل[٦]: يعني بالمرسلين [ولم

---

(١) في ب: الكتاب.
(٢) قاله البغوي (٣/ ٥٥).
(٣) في أ: ومكان.
(٤) في أ: لهم.
(٥) قاله قتادة ،أخرجه ابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٤).
(٦) قاله البغوي (٣/ ٥٥).

يذكر]؛ صالحًا وحده، لكن ذكر المرسلين؛ لأن صالحًا كان يدعوهم إلى ما كان دعا سائر الرسل، فإذا كذبوه فكأن قد كذبوا الرسل جميعًا؛ إذ كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعًا، فإذا كذب واحد منهم - فقد كذب الكل. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ .

تحتمل الآيات: آيات وحدانية الله وحججه، ويحتمل: جميع الآيات: آيات الوحدانية، وحججه، وآيات رسالتهم. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ : أي: لم يقبلوها؛ فإذا لم يقبلوها - فقد أعرضوا عنها؛ [أو أعرضوا عنها][1]، أي: كذبوها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ .

يحتمل آمنين عما وعدهم صالح من عذاب الله؛ حيث قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] كانوا آمنين عن ذلك.

وقال بعضهم[2]: كانوا آمنين عن أن يقع عليهم ما نحتوا لحذاقتهم، وهو ما قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] على تأويل بعضهم: حاذقين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ يحتمل: أخذتهم ظاهرة بالنهار.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾: أي: ما كانوا ينحتون، لا يغنيهم من عذاب الله من شيء.

ويحتمل: فما أغنى عنهم ما عملوا من عبادة الأصنام والأوثان؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ولقولهم[3]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي: لم يغنهم ما عبدوا من عذاب الله.

أو يقول: ما أغنى عنهم ما متعوا وأنعموا في هذه الدنيا؛ في دفع عذاب الله عن أنفسهم؛ كقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ . . .﴾ الآية [الأحقاف: ٢٦] أي: وإن أعطوا ما ذكر؛ من السمع، والبصر، والأفئدة، إذا لم ينظروا، ولم يتفكروا في آيات الله فجحدوها.

---

(١) سقط في أ.
(٢) قاله البغوي (٣/ ٥٦).
(٣) في ب: قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

يحتمل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحق الذي جعل لنفسه(١) على أهلها، والحق الذي لبعض على بعض، والحق: هو اسم كل محمود مختار من القول والفعل، والباطل: اسم كل مذموم من القول والفعل.

قال بعضهم: تأويله: وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا شهودًا لله(٢) بالحق على أهلها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: لم يخلقهما لغير شيء؛ ولكن خلقهما للمحنة؛ يمتحنهم بالعبادة فيها، وإلى هذا ذهب الحسن.

وقيل: خلقهما وما بينهما لأمر كائن؛ أي: لعاقبة: للثواب أو الجزاء(٣)، لم يخلقهم للفناء خاصة؛ ولكن للعاقبة؛ لأن خلق الشيء للفناء خاصة عبث؛ وهو ما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخبر أن خلقهم لا للرجوع إليه ولا للعاقبة- عبث، وقد ذكرنا هذا(٤) فيما تقدم.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ على الاحتجاج على أولئك لإنكارهم الساعة، لوجهين:

أحدهما: ما ذكرنا أنه لو لم تكن الساعة حصل خلقهما وما بينهما للفناء خاصة؛ وخلقُ الشيء للفناء خاصةً عبث باطل؛ كبناء البناء للنقض خاصة لا لعاقبة تقصد - عبث.

والثاني: أنه يكون في ذلك التسوية بين الأعداء والأولياء، وفي الحكمة التفريق

(١) في أ: تسميته.
(٢) في أ: بشهود الله.
(٣) في ب: والجزاء.
(٤) في أ: وقد ذكرناهما.

بينهما، وما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية [ص: ٢٧] لم يكن ظنهم أنه خلقهما باطلا؛ ولكن لما أنكروا البعث صار في ظنهم خلقهما باطلا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

قال بعضهم[١]: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾: [أي: أعرض عنهم][٢]، ولا تكافئهم بما آذوك بألسنتهم وفعلهم ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فإني[٣] أكافئهم عنك على أذاهم إياك وصنيعهم يومئذ.

والصفح الجميل: هو ما لا نقض[٤] فيه ولا منّة في العُرف؛ أي: اصفح الصفح ما يوصف فيه بتمام الأخلاق، ومالا نقض فيه ولا منّة يحتمل الصفح الجميل: هو أن يصفح ولا يمنّ عليهم، كأنه أمره أن يصفح صفحًا لا منّة فيه.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فتجزى أنت على صفحك الجميل؛ وهم على أذاك. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه على علم بما يكون منهم من المعصية والخلاف خلقهم، لا خلقهم عن غفلة وجهل بذلك؛ ليعلم أنه لم يخلق الخلق لحاجة نفسه ولا لمنفعة نفسه، ولكن خلقهم ليمتحنهم بما أمرهم به ونهاهم، ولما يرجع إلى منافعهم وحوائجهم.

والثاني: إن ربك هو الخلاق لخلقه؛ العليم بمصالحهم بأن الصفح الجميل لهم، ذلك أصلح في دينهم من المكافأة. والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

اختلف في قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: قال بعضهم[٥]: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: المثاني: هو القرآن كله؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقيل: سمي مثانيًا لترديد الأمثال فيه والعبر والأنباء؛ فإن كان على هذا فيكون قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: أي: سبعًا من القرآن العظيم.

---

(١) قاله ابن جرير (٧/ ٥٣٢)، والبغوى (٣/ ٥٦).

(٢) سقط في ب.

(٣) في أ: فإذا.

(٤) في أ: نقص.

(٥) قاله أبو مالك، أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير (٢١٣٤٥، ٢١٣٤٧) وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٧).

ثم يحتمل السبع الطوال؛ على ما ذكر بعض أهل التأويل؛ كأنه قال: آتيناك سبعًا من القرآن العظيم. ويحتمل: ﴿سَبْعًا﴾ يعني فاتحة الكتاب من القرآن؛ أي: آتيناك فاتحة الكتاب من القرآن. وقال قوم: يقولون: سبع المثاني: فاتحة الكتاب، ويروون على ذلك حديثًا عن رسول الله ﷺ مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [«الحمدُ لله أم القرآن وأم الكتاب، والسبعُ المثاني»(١) وعن أُبَيٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ](٢): «ما أنزل الله في التوراة والإنجيل مثل أم القرآن؛ وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي؛ ولعبدي ما سأل»(٣).

ومنهم من يقول: المثاني: القرآن كله؛ يذهب إلى ما ذكرنا من الآية؛ وبما يروى(٤) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور والقرآن مثلُها(٥) - يعني أمّ القرآن - وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت» ذكروا أنها سبع من المثاني؛ فإن كان سبع المثاني فاتحة الكتاب، يصير كأنه قال: ولقد آتيناك سبعًا؛ وهي المثانى، وإن كان سبعًا من المثاني [هي السبع](٦) الطوال يكون هكذا: أي: آتيناك سبعًا؛ وهو المثاني. وروي أيضًا عن نبي الله ﷺ وقال: «آتاني السبع الطوال مكان التوراة والمثاني مكان الإنجيل، وفضّلني ربي بالمفصل»(٧) ثم إن ثبت ما روي في الخبر أن سبع المثاني فاتحة الكتاب(٨) وإلا الكفّ والإمساك عن ذلك أوْلى؛ لأنه لا حاجة بنا إلى معرفة ذلك، وليس يكون تسميتنا إياها سوى الشهادة، وما خرج مخرج الشهادة - من غير حصول النفع لنا- فالكف عنه والإمساك أولى.

ومنهم من يقول: هنّ المفصّل.

ومن قال: المثاني فاتحةُ الكتاب- قال: لأنها تثنى في كل ركعة أو ما جعل فيها مكررة معادة؛ لأن كل حرف منها يؤدي معنى حرف آخر؛ فسمي مثاني بذلك.

ومن قال: المثاني: هو القرآن؛ قال: لما ذكرنا؛ لأن أمثاله، وأنباءه، وغيره معادة

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٣٥١، ٢١٣٦٠) من طرق عنه، وفي بعض الطرق عن أبي ذر.
(٢) سقط في ب.
(٣) انظر ما سبق.
(٤) في أ: روى.
(٥) تقدم.
(٦) في أ : هو
(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/٣٠٨) (٨٠٠٣، ٨٠٠٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٦١) : وفيه ليث بن أبي سليم وقد ضعفه جماعة ويعتبر بحديثه وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٨) تقدم.

مرددة.

ومن قال: المثاني السبع الطوال -فقال: لأنه يثنى فيها حدود القرآن، وفرائضه، وعامة أحكامه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ .

سماه عظيمًا، وسماه مجيدًا، وحكيمًا؛ وهو اسم الفاعلين، ولا عمل له ولا فعل في الحقيقة؛ لكنه يخرج -والله أعلم- على وجوه:

يحتمل: سماه عظيمًا مجيدًا؛ لما عظمه وشرفه ومجده، فهو عظيم مجيد حكيم: أي: محكم، الفعيل بمعنى المفعول[1]، وذلك جائز في اللغة.

أو سماه بذلك لأن من تمسك به؛ وعمل به؛ يصير عظيمًا مجيدًا، حكيمًا، أو سماه عظيمًا مجيدًا حكيمًا: أي: جاء من عند عظيم هو مجيد حكيم، وأصل الحكيم: هو المصيب، الواضع[2] كلَّ شيء موضعه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ .

يحتمل المراد بقوله: ﴿عَيْنَيْكَ﴾ نفس العين.

ثم هو يحتمل وجهين:

أحدهما: نهى رسوله أن ينظر إلى مامتع أولئك مثل نظرهم؛ لأنهم ظنوا أنهم إنما متعوا هذه الأموال في الدنيا لخطرهم وقدرهم عند الله، وعلى ذلك قالوا: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ...﴾ الآية [فصلت: ٥٠] ونحوه، ظنوا أنهم إنما متعوا في هذه الدنيا؛ لخطرهم وقدرهم عند الله؛ لذلك قالوا ما قالوا؛ فنهاه أن ينظر إلى ذلك بعين الذين نظروا هم إليه؛ ولكن بالاعتبار.

والثاني: نهاه أن ينظر إلى ذلك نظر الاستكبار والتجبر على المؤمنين، والاستهزاء بهم على ما نظروا هم؛ لأنهم بما متعوا من أنواع المال استكبروا على الناس، واستهزءوا بهم؛ إذ البصر قد يقع [على ما ذكر][3] من غير تكلف؛ فيصير كأنه نهاه عن الرغبة والاختيار فيما متعوا فيه؛ لأن ما متعوا به هو ما ذكر، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥] وقال في آية أخرى ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ فيما متعوا فإنهم إنما متعوا لما ذكر، ويحتمل النهي عن مدّ

---

(١) في ب: مفعول.
(٢) في ب: واضع.
(٣) سقط في أ.

العين لا العين نفسه ولكن نفسه؛ كأنه قال: لا تمنيّن نفسك فيما متعوا هم ولا ترغبنها في ذلك؛ فإنه ليس يوسع ذلك عليهم لخطرهم وقدرهم؛ ولكن ليعلم أن ليس لذلك[١] خطر عند الله وقدر؛ حيث أعطى من افترى [على الله][٢] وجحد نعمه وفضْله.

وفي الآية تفضيل[٣] الفقر على الغنى؛ لأنه نهى رسوله أن يمد عينيه إلى ما متعوا، ومعلوم أن رسول الله ﷺ إذا[٤] مدّ إلى ذلك ليس يمد للدنيا ولا لشهواته؛ ولكن يستعين به في أمر جهاد عدوه، ويعين[٥] به أصحابه في سبيل الخيرات، ثم نهاه مع ذلك عنه؛ دلّ أن الأخير والأفضل ما اختاره من الفقر، وقصور ذات يده. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ .

أي: أصنافًا من الأموال، وألوانًا من النعم. وقال بعضهم[٦]: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ : أي: الأغنياء منهم وأشباهه؛ فإن كان قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هو أصناف الأموال- فهو[٧] على التقديم والتأخير، كأنه قال: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا منهم أزواجًا.

وإن كان أزواجًا منهم هو أصناف الناس فهو على النظم الذي جرى به التنزيل؛ أي: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به قومًا منهم.

وفي قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يعطى أحدًا شيئًا إلا ما هو أصلح له في الدين، ولو كان ما متع هؤلاء أصلح لهم في الدين - لم ينه رسوله عن مدّ عينيه إليه، دلّ أنه قد يعطي ما ليس بأصلح في الدين، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] أخبر أنه إنما يملى لهم ليزدادوا إثمًا، وهم يقولون: يملي لهم ليزدادوا خيرًا. وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ...﴾ الآية [آل عمران: ١٨٠] هذه الآيات كلها تنقض عليهم قولهم، وقد ذكرنا هذا في غير موضع فيما تقدم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ .

---

(١) في ب: ذلك

(٢) في ب: عليه.

(٣) في أ: تفضل.

(٤) في أ: إن.

(٥) في أ: ويعني.

(٦) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٣٦٤، ٢١٣٦٥) وابن المنذر عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٧).

(٧) في أ: فهي.

يحتمل النهي نفسه نهاه أن يحزن عليهم؛ إشفاقًا عليهم؛ بل أمره أن يغلظ عليهم؛ كقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، وعلى هذا يخرج قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] أي: ارفق بهم، ولِنْ عليهم، واشدد على أولئك، واغلظ عليهم؛ وهو ما وصفهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] أخبر أنهم أهل شدة على الكفار وأهل غلظة، رحماء بينهم، وأهل ذلّة على المؤمنين، وأهل شدة عليهم؛ أي: على الكفار، فعلى ذلك هذا.

ويحتمل أن ليس على النهي؛ ولكن على التخفيف والتسلي، ودفع الحزن عن نفسه؛ لأنه كان يحزن لكفرهم بالله وتركهم الإيمان؛ حتى كادت نفسه تتلف لذلك؛ كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الشعراء:٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ الآية [فاطر:٨] وأمثاله.

ويحتمل أيضًا وجهًا آخر: وهو أنه كان يحزن عليهم، ويضيق صدره؛ لما مكروا به وكادوه؛ كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧] فإني أكافئهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

يحتمل: أنا النذير على معاصيه، المبين على طاعاته، أو النذير على العصاة من عذاب الله، المبين لأموره ونواهيه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ . ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ .

قال الحسن: الكتب كلها قرآن؛ يعني كتب الله اقتسموها وجعلوها عضين؛ أي: فرقوها بالتحريف والتبديل؛ فما وافقهم أخذوه، ومالم يوافقهم غيّروه وبدلوه؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة:٤١] ونحوه، فذلك اقتسامهم وتعضيتهم على قوله، وكقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١] وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون:٥٣] ونحوه.

وقال بعضهم[1]: اقتسامهم: وهو أن نفرًا من قريش كانوا اقتسموا عقار مكة؛ ليصدّوا الناس عن رسول الله ﷺ؛ فيقول طائفة منهم -إذا سئلوا عنه-: هو كاهن، وطائفة أخرى: هو شاعر، ساحر، مجنون، ونحوه. وعضين: قولهم: هو: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، افترى على الله كذبًا، وأمثال ما قالوا. فذلك اقتسامهم

---

(١) قاله البغوي (٣/٥٨).

وعضتهم.

وقال بعضهم: هو على التقديم: أي: آتيناك المثاني والقرآن العظيم؛ أنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى؛ فهم المقتسمون كتاب الله؛ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقال أبو عوسجة: يقال: عضيت الجزور: أي: قسمتها عضوًا عضوًا[١].

وقال غيره[٢]: هو من العضة: وهو السحر؛ بلسان قريش؛ يقال للساحر عاض.

وقال القتبي[٣]: المقتسمون: قوم تحالفوا على عضة النبي ﷺ؛ وأن يذيعوا ذلك بكل طريق، ويخبروا به النزاع إليهم. وعضين: أي: فرقوه [وعضوه][٤]. وقيل[٥]: فرقوا القول فيه، وهو ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ : قيل: قسم أقسم به تعالى.

﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : قال بعضهم: الخلائق كلها؛ كقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] أخبر أنه يسألهم جميعًا: الرسل عن تبليغ الرسالة، والذين أرسل إليهم عن الإجابة لهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : هؤلاء الذين سبق ذكرهم؛ المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، والذين استهزءوا برسول الله ﷺ وأصحابه؛ يسألهم عن حجج ما فعلوا، والمعنى الذي حملهم على سوء معاملة رسوله وكتابه، لأي: شيء نسبتم رسولي وكتابي إلى السحر، والكذب، والكهانة، والافتراء على الله؟ لا يسألون ما فعلتم؟ وأي شيء عملتم؛ لأن ذلك يكون مكتوبًا في كتبهم؛ يقرءونه[٦]؛ كقوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وهو وعيد شديد في نهاية الوعيد والشدة؛ لأنه وعيد مقرون بالقسم، وكل وعيد قرن بالقسم فهو في غاية الشدة؛ إذ لو جاءنا ذلك الوعيد من ملك من ملوك البشر يجب أن يخاف؛ فكيف من ربنا؟!

وقوله -عز وجل-: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ .

---

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٣٧٤، ٢١٣٨٥، ٢١٣٨٦).
(٢) قاله عكرمة، أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن جرير (٢١٣٩٤) عنه كما في الدر المنثور (١٩٨/٤).
(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٣٩).
(٤) سقط في أ.
(٥) قاله ابن عباس بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٣٨٤).
(٦) في أ: يقرءون.

قال بعضهم: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: أي: استقم كما تؤمر؛ كقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

فهو في كل ما أمر به.

وقال بعضهم: اصدع: أي: امض بما تؤمر من تبليغ الرسالة.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: أعرض عن مكافأتهم؛ ومعناه - والله أعلم - امض على ما تؤمر؛ من تبليغ الرسالة إليهم ولا تخفهم، ولا تهبهم، ولا يمنعنك شيء عن تبليغ الرسالة؛ الخوف، ولا القرابة، ولا شيء من ذلك، ولكن امض على ما تؤمر؛ وهو كما قال: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨] وقال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: لا يمنعكم عن القول بالحق والعدل بغضكم إياهم، ولا قرابتكم التي فيما بينكم، فعلى ذلك قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: أي: امض على ما أمرت من تبليغ الرسالة، ولا يمنعنك[(١)] عن ذلك: الخوف، والوعيد، والقرابة التي فيما بينك وبينهم.

وقال القتبي[(٢)]: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: أي: أظهر ذلك، وأصله: الفرق والفتح؛ يريد: اصدع الباطل بحقك؛ حتى يأتيك الموقن به؛ وهو الموت.

وقال أبو عوسجة: اصدع: أي: امض على ما تؤمر[(٣)]، وصدعت: أي: مضيت؛ وذلك من المضي، وأصل هذا كله: الشق، ويقال: تصدعوا: أي: تفرقوا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: أعرض عن مكافأتهم؛ فأنا أكافئهم عنك على ما آذوك.

وقال بعض أهل التأويل[(٤)]: قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هو منسوخ بآية السيف؛ لكن على الوجه الذي ذكرنا ليس بمنسوخ، ويحتمل: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ إن كان أراد به القتال والدعاء إلى التوحيد فهو في وقت دون وقت أو في قوم خاص علم[(٥)] الله أنهم لا يجيبونه ولا يؤمنون به أيئس رسوله عن إيمانهم فقال: أعرض عن هؤلاء ولا

---

(١) في أ: يمنعك.

(٢) تفسير غريب القرآن (٢٤٠).

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٤٠٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٩).

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٤١٥).

(٥) في أ: على.

تشتغل بهم ولا تدعهم فإنهم لا يؤمنون ولكن ادع قومًا آخرين والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

قال بعضهم: قوله: ﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: الكفرة جميعًا؛ فمنعناهم عن أن يصلوا إليك؛ على ما [قصدوا إليك][(١)] من إهلاكك، وغيره؛ كقوله: «نصرت بالرعب مسيرة شهرين».

وقال بعضهم: قوله: ﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الذين كانوا على الطرق والمراصد؛ ليصدوا الناس عن سبيل[(٢)] الله؛ على ما ذكر في القصة؛ العدد الذي ذكر سبعة أو خمسة؛ كفاه الله بأن أهلكهم بما ذكر أهل التأويل[(٣)]: أن الذين استهزءوا به هلكوا جميعًا بعقوبات مختلفة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

قوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ ليس على الجعل؛ لأنهم لو جعلوا لكان؛ لأن كل مجعول كائن موجود؛ ولكن قوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾: أي: يزعمون أن مع الله إلهًا آخر؛ إما في التسمية أو في العبادة، وكذلك قوله: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ هم لا يقدرون على أن يجعلوه عضين، ولكن زعموا أنه كذا؛ لأن الله وكل حفظه إلى نفسه؛ بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] أخبر أنه يحفظه حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فلو قدروا على جعله عضين - لكان قد أتى الباطل من بين يديه، دلّ أنه على القول الذي قالوا؛ وهو على المجاز [كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]، وقوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، فهو على المجاز][(٤)] على ما عندهم، إما بحق التسمية لها أنها آلهة، وإما بصرف[(٥)] العبادة إليها، ظاهر هذا أن المستهزئين الذين ذكرهم أنه كفاه عنهم هم الكفرة جميعًا؛ لكن يحتمل في الذين ذكرهم أهل التأويل كانوا على مراصد مكة، أضاف ذلك إليهم ونسب؛ لأنهم هم الذين أمروا غيرهم أن يجعلوا دونه إلهًا؛ فكأنهم فعلوا ذلك، وهم قالوا.

---

(١) في ب: قصدوك.

(٢) في أ: رسول.

(٣) انظر قول سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٤٢٠، ٢١٤٢١)، وعن عكرمة (٢١٤٢٢، ٢١٤٢٣)، والشعبي (٢١٤٢٥، ٢١٤٢٧)، وقتادة (٢١٤٢٨، ٢١٤٣٠)، وغيرهم.

(٤) سقط في أ.

(٥) في أ: بعون.

وقوله: ﴿كَفَيْنَكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الذين فعلوا به ما فعلوا ممن تقدم ذكرهم؛ فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ على إضمار (كان) ؛ أي: الذين كانوا يجعلون مع الله إلهًا آخر.

وإن كان في الذين يكونون من بعد - فهو على ظاهر ما ذكر؛ يجعلون على المستقبل.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي: سوف يعلمون ما عملوا من الاقتسام، والعضة، والاستهزاء برسول الله وأصحابه، إذا نزل العذاب بهم. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ .

وما قالوا؛ من الاقتسام، والعضة، والاستهزاء به، وأنواع الأذى الذي كان منهم برسول الله ﷺ؛ أي: نعلم ذلك، وهو محفوظ عندنا، نجزيهم على ذلك فلا يضيقن صدرك؛ لذلك فهو على التصبير على الأذى، والتسلي عن ذلك، وترك المكافأة لهم، والله أعلم. وكان يضيق صدره؛ مرة لتركهم الإجابة له، ومرة للأذى باللسان.

والثاني: على علم منا بما يكون منهم، ومن ضيق صدرك بذلك، لكن أنشأناهم ومكناهم على علم منا بذلك؛ امتحانًا منا إياك بذلك وإياهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ .

قال بعض أهل التأويل(١): أي: صل بأمر ربك وكن من الساجدين؛ أي: من المصلين.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ : هو أمر؛ فإذا فعل ذلك كان بأمر ربه؛ فلا معنى لذكر الأمر(٢) من بعد قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إن كان الحمد هو الأمر؛ على ما قال بعض أهل التأويل.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: نزّه الله عن جميع ما قالت الملحدة فيه؛ إذ التسبيح هو التنزيه في اللغة ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ؛ أي: بثناء ربك؛ أي: نزهه عن ذلك كله بثناء تثنيه عليه، وكن من الساجدين؛ أي: من الخاضعين؛ إذ السجود هو الخضوع.

أو أن يكون أمره إياه بالتسبيح على التسلي، وتوسيع صدره بالذي يكون منهم؛ أي: فسبح ربك مكان ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ .

يحتمل التوحيد؛ أي: وحّد ربك، وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: كل عبادة ذكرت في القرآن - فهو توحيد يأمره باعتقاد الإخلاص له في كل أمر، ويحتمل العبادة

(١) قاله ابن عباس، كما في تفسير البغوي (٣/ ٦٠).
(٢) في أ: الأمرين.

نفسها؛ يأمره بالعبادة له؛ شكراً له؛ على ما روي في الخبر عن نبي الله ﷺ: أنه صلى حتى تورمت ساقاه؛ فقيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «بلى، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!»[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾: أي: ما تيقنت به؛ وهو الموقن به. وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] أي: من يكفر بالمؤمن به فقد حبط عمله؛ لأن الإيمان لا يكفر به، فعلى ذلك اليقين لا يأتيه؛ ولكن يأتيه الموقن به. وكذلك ما ذكر: الصلاة أمر الله؛ أي: بأمر الله، وهو المأمور به؛ لأن الصلاة لا تكون أمر الله، لكن بأمر الله، وكذلك ما يجيء من هذا النحو.

ويحتمل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيهم؛ وهو ما وعد من العذاب فيهم؛ أي: يتيقنون بذلك والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٨٤) في التفسير باب: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك (٤٨٣٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧١) في صفات المنافقين وأحكامهم باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٧٩/ ٢٨١٩).

[سورة النحل كلها مكية إلا ثلاث آيات][1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

قال بعض أهل التأويل[2]: سورة النحل كلها مكية إلا ثلاث آيات؛ فإنها[3] نزلت بالمدينة والله سبحانه أعلم بالصواب

قوله - عز وجل-: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يعرف قوله: أمر الله، [ما أراد به وما][4] الذي استعجلوه، وإنما استعجلوه الساعة والقيامة؛ بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا...﴾ الآية [الشورى: ١٨] ونحوه من الآيات.

وقال بعضهم: أمر الله هو عذابه، وكذلك [جميع][5] ما ذكر في جميع القرآن من أمر الله؛ المعنى منه عذابه؛ كقوله: ﴿جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] أي: عذابه، ونحوه.

ويحتمل قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: رسوله الذي كان يستنصر به أهل الكتاب على المشركين؛ كقوله: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآية [البقرة: ٨٩] وكان يتمنى مشركوا العرب أن يكون لهم رسول كسائر الكفرة؛ كقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ...﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩] ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ذهاب ما كنتم تتمنون بمحمد ﷺ أو شيء آخر. والله أعلم.

ثم إنه لم يرد بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وقوعه؛ ولكن قربه؛ أي: قرب آثار [أمر][6] الله؛ كما يقال: أتاك الخبر، وأتاك أمر كذا؛ على إرادة القرب؛ لا على الوقوع. وجائز أن يكون قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ظهر أعلام أمر الله وآثاره، ليس على إتيان أمره من مكان إلى مكان؛ كقوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] وآثاره: هو رسول الله ﷺ؛ لأنه كان به يختم النبوة؛ فهو كان أعلام الساعة على ما روي عنه ﷺ؛ فقال: «بعثت أنا

---

(١) سقط في ب.
(٢) قاله ابن عباس أخرجه النحاس من طريق مجاهد عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٤).
(٣) في أ: لأنها.
(٤) في أ: وأراد ما.
(٥) سقط في أ.
(٦) سقط في أ.

والساعة كهاتين»[١] أشار إلى أصبعين لقربها منه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

لأنه لا منفعة لكم فيها فلماذا تستعجلونه؟ كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] إذ لا منفعة لهم فيه، بل فيه ضرر عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

سبحان: هو كلمة إجلال الله يجريها على ألسن أوليائه على تنزيه[٢] ما قالت الملحدة فيه، وتعاليه[٣] عن جميع ما نسبوا إليه من الولد، والصاحبة، والشريك، وغيره من الأشباه والأضداد، تعالى عن ذلك.

سبحان الله: حرف يذكر على أثر شيء مستبعد، أو مستعجب، أو مستعظم؛ جوابًا لذلك، وهو ما ذكره على أثر وصف أو قول لا يليق بالله من الولد، والشريك، ونحوه؛ فقال: (سبحان الله) على التنزيه مما وصفوه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ قال بعضهم[٤]: قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الذي أنزله على رسله، والرحمة، أو الروح: الرحمة؛ وهو الذي به نجاة كل من رحمه الله، وهداه[٥] لدينه؛ وهو ما ذكر؛ حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقيل: الرسالة [هي القرآن والرسالة][٦]، وما ذكر روحًا؛ لأنه به حياة الدين؛ كما سمي الذي به حياة الأبدان أرواحًا.

وقال الحسن: قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: أي: بالحياة من أمره؛ وهو ما ذكرنا من حياة الدين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٥٥) كتاب الرقاق: باب قول النبي «بعثت أنا والساعة كهاتين» رقم (٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب (قرب الساعة) رقم (١٣٣، ١٣٤/ ٢٩٥١)، والترمذي (٤/ ٤٩٦) كتاب الفتن: باب ما جاء في قول النبي «بعثت أنا والساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى رقم (٢٢١٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٨١) وأحمد (٣/ ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٩٣، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣٧، ٢٧٤) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أما طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

أخرجه مسلم (٣/ ٤١٨-النووي) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم (٤٣/ ٨٦٧)، والنسائي (٣/ ١٨٨) كتاب الخطبة: باب: كيف الخطبة رقم (١٥٧٨)، و ابن ماجه (١/ ١٧) المقدمة: باب (٧) رقم (٤٥).

(٢) في أ: تبرئة.

(٣) في أ: وتواليه.

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٤٥١) وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٥).

(٥) في أ: وهذه.

(٦) سقط في أ.

أي: على من يشاء أن يختص من عباده ويختاره، وهو مشيئة الاختيار؛ وإن كان غيره يصلح لذلك، وفيه دلالة اختصاص الله بعضهم على بعض؛ وإن كان غيره يصلح لذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

على هذا جاءت[١] الرسل والأنبياء عليهم السلام جميعًا بالإنذار والدعاء إلى وحدانية الله، وتوجيه العبادة إليه.

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ [هو][٢] صلة ما تقدم من قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أن أنذروا، ولا يوصل بما تأخر، ثم يخرج على الإضمار؛ أي: أنذروا وقولوا: إنه لا إله إلا أنا فاتقون.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

قد ذكرنا قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في غير موضع أنه لم يخلقهما وما فيهما عبثًا، إنما خلقهم لأمر كائن، أو للمحنة، والجزاء، ونحوه.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

من [لا يخلق، ولا ينفع][٣]، ولا يضر، ولا يدفع في الذي يخلق، وينفع، ويضّر، ويدفع تعالى عن ذلك وتبرأ.

وقوله -عز وجل-: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

يذكرهم -عز وجل- نعمه عليهم، وقدرته، وسلطانه، وعلمه؛ لأنه لو اجتمع الخلائق كلهم؛ على أن يدركوا المعنى الذي به تصير النطفة نسمة وإنسانًا -ما قدروا عليه حيث خلق من النطفة إنسانًا على أحسن تقويم؛ وأحسن صورة.

وفيه نقض قول الدهرية؛ حيث أنكروا خلق الشيء من لا شيء؛ لأنهم لم يدركوا المعنى الذي به خلق الإنسان من النطفة؛ فيلزمهم أن يقروا بخلق الشيء من لا شيء، وإن لم يشاهدوا ذلك ولم يدركوا، وفيه دلالة البعث؛ لأن من قدر على إنشاء الإنسان من النطفة؛ وليس فيها من آثار الإنسان شيء يقدر على البعث وإنشاء الأشياء؛ لا من شيء.

---

(١) في أ: أجاب.

(٢) سقط في ب.

(٣) في ب: لا ينفع ولا يخلق.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .

قال بعضهم[١]: ﴿خَصِيمٌ﴾ : هو الذي يجادل بالباطل ﴿مُّبِينٌ﴾ : أي: ظاهر مجادلته بالباطل ومخاصمته.

وقال بعضهم: الخصيم: هو الجدل الذي يجادل فيما كان.

قال أبو عوسجة: الخصيم: هو المخاصِم، والمخاصَم كلاهما خصيم، ويقال: فلان [خصيمي أي:][٢] خصمي.

مبين: ظاهر خصومته، والخصيم: هو الفعيل، والفعيل: قد يستعمل في موضع الفاعل والمفعول جميعًا؛ فكأنه قال: فإذا هو خصيم[٣] مبين: أي: منقطع عن الخصومة؛ بين انقطاعه، وهو ما ذكر من خصومته في آية أخرى؛ وانقطاع حجته؛ حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨] فهذا احتجاج عليه؛ فانقطعت[٤] حجته، وبهت الذي أنكر قدرته على البعث؛ حيث لم يتهيأ له جواب ما احتج عليه.

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٦٢).

(٢) سقط في أ.

(٣) ووجه الاستدلال بكونه خصيمًا على وجود الإله المدبر الحكيم: أن النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهما وذكاء من نفوس سائر الحيوانات؛ ألا ترى أن ولد الدجاجة حالما يخرج من قشر البيضة يميز الصديق والعدو، ويهرب من الهرة، ويلتجئ إلى الأم ويميز الغذاء الموافق، والغذاء الذي لم يوافق؟! .

وأما ولد الإنسان فإنه حال انفصاله من بطن الأم لا يميز ألبتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع، فظهر أن الإنسان في أول الحدوث أنقص حالا، وأقل فطنة من سائر الحيوانات!.

ثم إن الإنسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه، ويصير بحيث يقوى على مساحة السماوات والأرض، ويقوى على معرفة الله -عز وجل- وصفاته، وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الأرواح والأجسام والفلكيات والعنصريات، ويقوى على إيراد الشبهات القوية في دين الله - تعالى - والخصومات الشديدة في كل المطالب، فانتقال نفس الإنسان من تلك البلادة المفرطة إلى هذه الكياسة المفرطة لا بد وأن يكون بتدبير مدبرمختارحكيم ينقل الأرواح من نقصانها إلى كمالاتها، ومن جهالاتها إلى معارفها بحسب الحكمة والاختيار، فهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .

وفي معنى كونه خصيمًا مبينًا وجهان:

الأول: أنه يجادل عن نفسه منازعًا للخصوم بعد أن كان نطفة قذرة وجمادا، لا حس فيه ولا حركة، والمقصود منه أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم.

والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ والغرض وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة.

ينظر اللباب (١٢/ ١٠، ١١).

(٤) في أ: فإذا انقطعت.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ .

يحتمل قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ على الظاهر؛ أن خلق هذه الأشياء وخلق لنا فيها دفئًا ومنافع؛ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

ويحتمل قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾: أي: هو خلقها، ثم أخبر أنه خلق لنا فيها منافع يذكر أنواع المنافع والنعم التي أنعم علينا، مفسرة مبينة، واحدة بعد واحدة؛ في هذه السورة، وفي غيرها من السور، إنما ذكرها مجملة غير مشار إلى كل واحدة منها؛ على ما أشار في هذه السورة؛ ليقوموا بشكرها، وليعلموا قدرته على خلق الأشياء لا من الأشياء.

ثم قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ : قال بعضهم[(١)]: الدفء نسل كل دابة.

وقال بعضهم[(٢)]: ما ينتج منه. وقال القتبي[(٣)]: الدفء ما استدفأت به، ويشبه أن يكون تفسير الدفء والمنافع الذي ذكر هو ما فسّر في آية أخرى؛ وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ...﴾ الآية [النحل:٨٠] جعل الله -عز وجل- الأنعام وما ذكر وقاية لجميع أنواع الأذى من السماوي وغيره؛ مما يهيج من الأنفس من الحرّ، والبرد، والجوع، وغير ذلك مما يكثر عدها، ويطول ذكرها، وجعل فيها منافع كثيرة: من الركوب، والشرب، والأكل؛ كما قال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ [يس:٧٣] وقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون:٢١] وأخبر أيضًا أن فيها جمالا وزينة؛ بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ .

فإن قال قائل: أي جمال يكون لنا فيها حين الإراحة وحين السرح.

وقال بعض أهل التأويل[(٤)]: وذلك أنه أعجب ما يكون؛ إذا راحت عظامًا ضروعها، طوالا أسنمتها. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إذا سرحت لرعيها.

أو أن يكون الجمال عند الإراحة والسرح: شرب ألبانها، وقرى الضيف من ألبانها؛ في الرواح والمساء.

وقال بعضهم قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ : وذلك أنهم كانوا

---

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٤٦٤، ٢١٤٦٥) وعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/٢٠٦).

(٢) قاله مجاهد بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٤٦٩).

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤١).

(٤) قاله قتادة، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه (٢١٤٧٠، ٢١٤٧١) كما في الدر المنثور (٤/٢٠٦).

يسترون عند الإراحة والتسريح، وذلك السرور يظهر في وجوههم؛ فإذا ظهر ازداد لهم جمالا وحسنًا، وهكذا المعروف في الناس: أنهم إذا سروا يظهر ذلك السرور في وجوههم؛ فيزداد لهم بذلك جمالا، وإذا حزنوا وأصابهم غم - يؤثر ذلك الغم نقصانًا في خلقتهم(١)؛ فيزداد لهم قبحًا وتشويهًا.

وقال بعضهم: إنهم إذا أراحوها أو سرّحوها رأى الناس أن أربابها أهل غنى؛ وأهل ثروة، وأنهم لا يحتاجون [إلى غيرهم، وأن](٢) يكون لغير إليهم حاجة؛ فيكون لهم بذلك ذكر عند الناس وشرف، وذلك جمالهم وشرفهم فيها، والجمال لهم فيها ظاهر؛ لأن ما يبسط ويفرش إنما يتخذ منها ومن أصوافها، وكذلك ما يلبس إنما يكون منها، وإنما يبسط، ويفرش، ويلبس للتجمل والبهاء. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ .

ذكر أيضًا ما جعل [فيها لنا](٣) من النعم ما تحمل من الأثقال، من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد؛ ما لو لم يكن أنشأهن أعني:(٤) الأنعام التي أخبر أنها تحمل أثقالنا إلى ذلك بدونه إلا بجهد وشدة، وذلك -والله أعلم- أن الله جعل في هذه الأنفس حوائج وقوامًا ما لا قوام لها إلا بذلك؛ فلعله لا يظفر بما به قوام النفس إلا في بلد آخر أو مكان آخر، فلو تحمل ذلك بنفسه - لكان في ذلك تلف نفسه، وذهاب ما به قوامه، فذكر أنه خلق لنا ما نحمل به من بلد إلى بلد؛ مما به قوام أنفسنا وحاجاتنا. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: من رحمته ورأفته ما جعل لكم من المنافع في الأنعام؛ وما ذكر، أو ذكر هذا ليرحموا على هذه الأنعام التي خلقها لهم(٥)؛ في الإنفاق عليها(٦)، والإحسان إليها؛ وذكر فيه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك لا يوصل إلى أكله إلا بالذبح؛ ليعلم أن الذبح فيما يؤكل ليس بخارج من الرحمة والرأفة.

وذلك ينقض على الثنوية قولهم؛ حيث أنكروا ذبح هذه الأشياء ويقولون: إنهم يتألمون [بالضرب، والقتل، والذبح](٧)؛ كما تتألمون أنتم، فمن قصد أحدكم بالقتل فهو

---

(١) في أ: خلقهم.
(٢) في ب: لغيرهم.
(٣) في ب: لنا فيها.
(٤) في أ: غير.
(٥) في ب: لكم.
(٦) في أ: عليه.
(٧) في ب: بالذبح والضرب والقتل.

سفيه عندكم غير حكيم ولا رحيم، بل موصوف بالقساوة والسفه، فالله سبحانه موصوف بالحكمة، والرحمة، والرأفة، لا يجوز أن يأمر بالذبح والقتل لهذه الأشياء؛ إذ ذلك مما يزيل الرحمة والحكمة.

فيجاب لهم بوجوه:

أحدها: أن الله خلق هذا البشر في هذه الدنيا للمحنة ولعاقبة قصدها، إمّا ثوابًا وإمّا عقابًا، وأخبر أنه خلق هذه الأشياء لنا، وجعل لنا فيها منافع، تتأمل وتقصد، وقد نجد في الشاهد من هو موصوف بالرحمة والرأفة على نفسه، يجرح نفسه الجراحات، ويحمل عليها الشدائد والمكروهات؛ لمنافع تقصد وخير يتأمل في العاقبة، ثم لم يوصف بالسفه، ولا بالخروج عن الحكمة والرحمة، من نحو الحجامة والافتصاد، وشرب الأدوية الكريهة الشديدة ما لو لم يتأمل ما قصد من النفع والعافية في العاقبة؛ ما تحمل تلك المكروهات والشدائد، فدل ما وصفنا أن تحمل الأذى، والألم، والمكروه -غير خارج عن الحكمة والرحمة، ولا الفعل بما فعل سفه؛ إذا كان لمنافع تقصد في العاقبة، وعاقبة تتأمل.

فيبطل قول الثنوية: أن ذلك مما يزيل الرحمة؛ على أن هذه الأنعام والبهائم لم تخلق للمحنة وللجزاء في العاقبة؛ ولكن خلقت لمنافع البشر؛ فلهم الانتفاع بها؛ مرة بلحومها، ومرة بحمل أثقالهم والانتفاع بظهورها، مع ما ذكرنا أن [تحمل المكروهات وأنواع الشدائد][(١)] والآلام - لا تخرج الفعل عن الحكمة، ولا تزيل الرحمة والرأفة [إذا قصد به النفع][(٢)] في العاقبة، وطمع فيه الخير.

وهذا يدل أنه أبيح لنا الانتفاع بها؛ والذبح على غير جعل حقيقتها لنا؛ حيث لم يبح لنا إتلافها؛ إذ لو كان أصول الأشياء لنا لكان لا يمنع عن الإتلاف، فدل أنه أبيح لنا الانتفاع بها على غير جعل الحقيقة والأصول لنا، فيبطل قول من يقول: إن الأشياء في الأصل على الحل والإباحة حتى يقوم ما يحظر.

قال أبو عبيد[(٣)]: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ يقال منه: أرحت الإبل أريحها إراحة، والإراحة عند العرب: أن يصدر الرعاء مواشيها بالليل إلى مآويها؛ ولهذا سمي ذلك الموضع: المراح.

وقوله: ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ هو إخراجها إلى المرعى؛ يقال: سرحتها، أسرحها سرحًا وسروحًا. وكذلك قال القتبي[(٤)] وأبو عوسجة. والدفء: ما ذكرنا أنه من الاستدفاء.

(١) في ب: تحمل الشدائد وأنواع المكروهات.
(٢) في أ: والقصد بالنفع.
(٣) ينظر: مجاز القرآن (١/٣٥٦).
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤١).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ .

قوله: ﴿وَزِينَةً﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن الماشي هو دون الراكب، والمشي يؤثر نقصانًا في الوجه والركوب لا، وذلك زينة؛ على ما ذكرنا في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ .

والثاني: أن الراكب إذا نظر إلى الماشي سرّ بركوبه، فالسرور يظهر في وجهه، وذلك يزيد في حسنه وجماله، وأصله: ما ذكر -عز وجل-: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ. . .﴾ الآية [النحل: ٥] ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ بين أنه لماذا[١] خلق الأنعام وما جعل فيها؛ وهو ما ذكر: أنه جعل فيها الدفء والمنافع ومنها تأكلون، وبيّن أنه لماذا خلق الخيل؛ وهو ما ذكر: لتركبوها وزينة.

وسئل ابن عباس: عن لحوم الخيل؟ فقرأ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يقل: لتأكلوها؛ فكره أكلها لذلك[٢]. وتمام هذا أن الله ذكر الأنعام، وما ذكر من النعم والانتفاع بها، وبالغ في ذكرها؛ لأنه قال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . . .﴾ الآية، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: ١٠] وقال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا. . .﴾ [النحل: ١٤] إلى آخر ما ذكر، ذكر جميع ما ينتفع به؛ من أنواع المنافع ذكرًا شافيًا مبالغًا غير مكفيّ، فدل ما ذكر في الخيل من الركوب، وكذلك في البغال والحمير؛ على أنه ليس فيها[٣] منفعة أخرى سوى ما ذكر؛ وهو الركوب؛ إذ خرج الذكر لها على المبالغة والاستقصاء؛ ليس على الاكتفاء، ولو كان هنالك منفعة أخرى لذكر على ما ذكر في غيره. والله أعلم.

والثاني من الأشياء: أشياء يعرف خبثها؛ بنفار الطباع، والصبيان أوّل ما بلغوا يرغبون في ركوبها، لا أحد يرغب في أكلها إلا من غير طبعه عما كان مجبولا به؛ فهو يرغب في أكله، وأما من ترك وطبعه يستخبث وينفر طبعه عن أكله. والله أعلم.

وروي عن جابر قال: لما كان يوم خيبر أصاب الناس مجاعة ، وأخذوا الحمر الأهلية

---

(١) في أ: لما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير (٢١٤٨٤، ٢١٤٨٤) وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عنه، كما في الدر المنثور (٤/٢٠٧).

(٣) في أ: فيه.

فذبحوها، فحرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الإنسية، ولحوم الخيل والبغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وحرم الخلسة والنهبة[١].

وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ خلاف ذلك قال: أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: نحرنا فرسًا في عهد رسول الله ﷺ فأكلنا[٣].

وفي بعض الأخبار: أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر وأذن لنا في لحوم الخيل[٤].

قلنا: قد يجوز أن يكونوا أكلوه في الحال التي كان يؤكل فيها الحمر؛ لأن النبي إنما نهى عن أكل لحوم الخيل صحيحًا، فقد يجوز أن يكونوا أكلوا لحم الفرس في حال الإباحة؛ إذ لم يذكروا الوقت.

وعن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يأكلون لحوم الخيل في مغازيهم[٥]، وكان الحسن لا يرى فيها بأسًا على كل حال، وقول الحسن: إنهم كانوا [يأكلون لحوم الخيل][٦] في مغازيهم يدل على أنهم كانوا يأكلونها[٧] في حال الضرورة.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيل لثلاثة: فهي لرجل كذا، ولرجل آخر كذا، وعلى رجل وزر»[٨]. يبيّن أنها لا تصلح لغير ذلك، ولو صلحت للأكل لقال: الخيل لأربعة؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٣) والترمذي (٣/ ١٤٤، ١٤٥) أبواب الصيد، باب: ما جاء في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب (١٤٧٨) والدارقطني (٤/ ٢٩٨٩، ٢٩٠) من طرق عنه وليس فيه لفظه: (ولحوم الخيل).

(٢) أخرجه الحميدي (١٢٥٤) والترمذي (٣/ ٣٨٩) أبواب الأطعمة باب ما جاء في أكل لحوم الخيل (١٧٩٣) والنسائي (٧/ ٢٠١) كتاب الصيد: باب الإذن في أكل لحوم الخيل، والدارقطني (٤/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٧٠) كتاب الذبائح والصيد باب: النحر والذبح (٥٥١٠) ومسلم (٣/ ١٥٤١) كتاب الصيد والذبائح باب :فى أكل لحوم الخيل (٣٨/ ١٩٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٢٦٠) كتاب المغازي باب: غزوة خيبر (٤٢١٩) ومسلم (٣/ ١٥٤١) (٣٦/ ١٩٤١) في المصدر السابق.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ١٢٠) (٢٤٣١٢).

(٦) في ب: يأكلونها.

(٧) في أ: يأكلون.

(٨) أخرجه البخاري (٥/ ٥٦) في الشرب والمساقاة، باب شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار (٢٣٧١) (٦/ ٧٥) في الجهاد، باب الخيل لثلاثة (٢٨٦٠) و (٦/ ٧٣٢) في المناقب (٣٦٤٦) (٨/ ٥٩٨) في التفسير، باب قوله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ (٤٩٦٢)، (١٣/ ٣٤١) في الأحكام التي تعرف بالدلائل (٧٣٥٦) ومسلم (٢/ ٦٨٠، ٦٨٢) في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢٤-٢٦/ ٩٨٧)، والترمذي (٤/ ١٤٨) في فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل من ارتبط فرسا في =

ولقال: ولرجل طعام.

ومما يبين ما ذكرنا: أن البغل حرام؛ وهو من الفرسة؛ فلو كانت أمه حلالا كان هو أيضًا حلالا؛ لأن حكم الولد حكم أمه؛ لأنه منها أو هو كبعضها، فمن حرم لحم البغل لزمه أن يحرم لحم الفرسة في حكم النظر والمقاييس؛ ألا ترى أن حمار وحش لو نزا على حمارة أهلية لم يؤكل ولدها، ولو أن حمارًا أهليًا نزا على حمارة وحشية؛ فولدت أكل ولدها، أفلا ترى أنه جعل حكم الولد حكم أمه؛ ولم يعتبر بالفحل، فلما كان لحم البغل حرامًا وجب أن يكون لحم الفرسة كذلك. إلا أن أبا حنيفة - رحمه الله - كان لا يطلق تحريم أكلها؛ لما فيها من الشبهة، والاختلاف، والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ؛ لكنه ذكر الكراهة للشبهة التي فيها؛ وكان أبو يوسف - رحمه الله - يبيح أكلها.

وقد يجوز أن يحتج لأبي يوسف؛ في الفرق بين المولود من الفرسة وبين ولد الحمارة الوحشية إذا نزا عليها حمارٌ أهلى بأن ولد الحمارة لم يتغير عن جنس أمه؛ فحكمه حكمها، والبغل ليس من جنس أمه؛ هو من جنس ثالث، فلذلك لم يكن سبيلها بسبيله. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

أخبر أنه يخلق ما لا نعلم؛ فليس لنا أن نتكلف في علم ذلك. أو يخلق من النعم - فيما خلق - ما لا تعلمون أنتم أنها نعم.

أو قال: يقول قوم: أن ليس لله أن يخلق شيئًا لا يطلعه الممتحن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

اختلف فيه: قال بعضهم[1]: أي: على الله بيان قصد السبيل، وهو الهدى: يبين الهدى من الضلالة، ويبين من السبل التي تفرقت عن سبيله؛ كقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: عليه بيان ما يجوز منها؛ من قصد السبيل يعدل ويجار، أو يقال: وبالله يوصل إلى قصد السبيل. وقال بعضهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي:

= سبيل الله (١٦٣٦) والنسائي (٦/ ٢١٥-٢١٦) في الخيل، في أوله وابن ماجه (١/ ٩٣٢) في الجهاد، باب ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٨)، ومالك (٢/ ٤٤٤، ٤٤٥) في الجهاد، باب الترغيب في الجهاد (٣) ، وأحمد (٢/ ٣٦٢، ٣٨٣، ٣٨٤) وابن خزيمة (٢٢٥٢)، والبيهقي (٤/ ٨١) (١٠/ ١٥) والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٣٦) برقم (١٥٦٩) من حديث أبي هريرة.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٤٩١، ٢١٤٩٢) وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٩).

وبالله يوصل بقصد السبيل؛ وهي السبل التي ذكرنا، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال بعضهم[١]: طريق الحق والعدل لله، وقد يستعمل حرف (على) مكان (له) كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] أي: للنصب وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٢٩] أي: لربهم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦] [﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: وهي السبل المتفرقة عن سبيله][٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

قد ذكرنا تأويله، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: لو شاء أكرم الخلق كله اللطف الذي أكرم أولياءه؛ فاهتدوا به؛ فيهتدون.

والثاني: لو شاء أعطاهم جميعًا الحال التي يكون بها الاهتداء؛ وهو ما قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف:٣٣] إلى آخر ما ذكر؛ لما لا يحتمل أنه إذا كان ذلك مع الكفار لكفروا جميعًا، وإذا كان تلك الحال للمسلمين لا يسلمون.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ موصول بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، وقوله ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ .

---

(١) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٤٩٣، ٢١٤٩٤) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٩).

(٢) سقط في ب.

يقول: الذي خلق لكم ما ذكر من الأشياء هو الذي أنزل من السماء ماء لكم؛ منه شراب، ومنه شجر هذا يحتمل ما ذكرنا: أنه أنزل من السماء ماء [لنا][١]؛ ثم أخبر أنه منه شراب، ومنه شجر.

ويحتمل: هو الذي أنزل من السماء ماء، ثم أخبر: ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ .

ثم يحتمل قوله: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ جميع ما يشرب من الأشربة؛ إذ منه تكون الأشربة جميعًا؛ وجميع الأشياء.

ويحتمل ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ الماء خاصة.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ : الشجر: معروف؛ هو الذي يعلو ويرتفع في الأرض؛ لا يسمى الحشيش وما ينبسط[٢] على وجه الأرض شجرًا، فظاهر هذا أن يرجع إلى ذلك المعروف؛ إلا أنه ذكر شجرًا ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ : أي: تزرعون، دل هذا أنه إنما أراد بالشجر المنبسط على وجه الأرض والمرتفع عليها.

وقال القتبي[٣]: السائمة: الراعية، وكذلك قال أبو عوسجة، وقال أبو عبيدة[٤]: أسمت سائمتي: أي: رعيتها؛ وكذلك قوله: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] أي: الراعية.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ .

أي: ينبت لكم بالماء الذي ذكر أنه أنزل من السماء الزرع، والزيتون، وجميع ما ذكر، جعل الله - بلطفه - الماء لقاح كل الأشياء المختلفة والمتفقه، ليس كغيره من الدوابّ؛ حيث لم يجعل لقاح شيء من جنس آخر، إنما جعل لقاح كل نوع من نوعه، وجعل في الماء بلطفه سرية توافق جميع الأشياء المختلفة، لو اجتمع الخلائق على إدراك ذلك - وإن اجتهدوا - لم يقدروا عليه، يعرفون الماء ظاهرًا؛ ولكن لا يدركون ما فيه من اللطف والسرية؛ التى[٥] يكون بها حياة كل أحد وموافقته.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ذكر أن فيه آية لقوم يتفكرون، ولم يذكر أنه لماذا؟ لكنه ذكر أنه آية لقوم يتفكرون؛

---

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: يبسط.
(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٢).
(٤) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣٥٧).
(٥) في أ: الذي.

بالتفكر يعرف أنه آية لماذا، وهذا يدلّ على أن الأشياء التي غابت عنا ظواهرها بالتفكر والنظر تدرك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ﴾ وما ذكر.

ووجه تسخير هذه الأشياء لنا: هو أن الله خلق هذه الأشياء، وجعل فيها منافع للخلق؛ تتصل تلك المنافع إلى الخلق شئن؛ أو أبين أحببن[(١)] أو كرهن؛ جعل في النهار معاشًا للخلق؛ وتقلبًا فيه يتعيشون ويتقلبون، وجعل الليل راحة لهم وسكنًا، ينتفعون بهما شاءا أو أبيا، وكذلك ما جعل في الشمس والقمر والنجوم من المنافع: من إنضاج الفواكه والثمرات، وإدراك الزروع وبلوغها، ومعرفة الحساب والسنين والأشهر[(٢)]، ومعرفة الطرق والسلوك بها، وغير ذلك من المنافع ما ليس في وسع الخلق إدراكه، ينتفع الخلائق بما جعل فيها من المنافع شاءت هذه الأشياء أو أبت، فذلك وجه تسخيرها لنا.

ويحتمل ما ذكر من تسخير هذه الأشياء لنا: ما جعل في وسعنا استعمال هذه الأشياء؛ والانتفاع بها، والخيل التي بها نقدر على استعمالها في حوائجنا.

ويحتمل تسخيرها لنا: ما ينتفع بهن شئن أو أبين بالطباع. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

يحتمل وجهين: يحتمل: أي: بأمره تنفع الخلائق ويحتمل ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: أي: كونها في الأصل هكذا؛ بأن تنفع الخلق. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

قال في الآية الأولى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعل الله تعالى التفكر سبيلا للعقول إلى إدراك الأشياء المغيبة بالحواس الظاهرة؛ إذ لا سبيل للعقل إلى إدراك ما غاب عنه إلا بالحواس الظاهرة، [والتفكر فيها؛ لأن ما غاب عن الحواس الظاهرة][(٣)] لا يدركه العقل؛ فجعل الحواس الظاهرة سبيلا للعقول إلى إدراك[(٤)] المغيب عنها.

ذكر -عز وجل- في الآية الأولى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وذكر في الآية الثانية: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وفي الآية الثالثة: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، وفي الرابعة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: فهو -والله أعلم- كرره على مراتب؛ لأنه بالتفكر فيها يعقل ويعلم، ثم بعد العلم والعقل والفهم

---

(١) في أ: أجبن.
(٢) في ب: الشهور.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: درك.

يتذكر، وإذا تذكر عند ذلك شكر نعمه، ثم قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ وما ذكر فيه: دلالة وحدانية الله تعالى، ودلالة تدبيره وعلمه وحكمته، ودلالة بعث الخلائق، ودلالة قدرته وسلطانه؛ لأن الليل والنهار يأتيان الجبابرة والفراعنة، ويذهبان بعمرهم ويفنيانه؛ شاءوا أو أبوا، فذلك آية سلطانه وقدرته؛ ليعلم أن له [السلطان والقدرة](١) لا لهم، وفيهما دلالة البعث؛ لأنه إذا أتى هذا ذهب الآخر حتى لا يبقى له أثر، ثم ينشئ مثله بعد أن لم يبق من الأوّل شيء ولا أثر، فالذي قدر على إنشاء النهار أو الليل بعد ما ذهب أثره وتلاشى - لقادر على إنشاء الخلق بعد ما ذهب أثرهم.

وكذلك الشمس، والقمر، والنجوم، وما ذكر: لما اتسق هذا كله على سنن واحد؛ وتقدير واحد؛ على غير تفاوت فيها ولا تفاضل، وعلى غير تقديم ولا تأخير بل جرى كله على سنن واحد، وتقدير واحد، وميزان واحد؛ من غير تفاوت [ولا تفاضل](٢) ولا اختلاف. دلّ أنه على تدبير واحد خرج ذلك، لا على الجزاف، وأن مدبر ذلك كله واحد؛ إذ لو كان تدبير عدد لخرج مختلفًا متفاوتًا، فدل أنه تدبير واحد لا عدد، وأنه على تدبير غير خرج وجرى كذلك، لا بنفسه، وأنه على حكمة، وعلم جرى كذلك، فدل على لزوم الرسالة والعبادة له؛ فهذا - والله أعلم- تأويل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: مختلفًا أصنافه وجواهره.

يخبر -عز وجل- [عن](٣) قدرته، وسلطانه، ونعمه التي أنعم عليهم بها(٤). أما سلطانه وقدرته: ما خلق في الأرض وأنبت فيها بالماء لم يرجع إلى جوهر الأرض وجنسها، ولا إلى جوهر الماء وجنسه، وهما كالوالدين: الماء كالأب، والأرض كالأم، فلم يرجع ما خرج منهما من جنسهما، ولا من جوهرهما؛ كما كان في سائر الأشياء رجع التوالد منها إلى جنس الوالدين وجوهرهما؛ بل رجع التوالد والنشوء من الأرض والماء إلى جنس البذر(٥) وجوهره؛ ليعلم قدرته وسلطانه على(٦) إنشاء الأشياء؛ بأسباب وبغير

---

(١) في ب: القدرة والسلطان.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: أنعمها عليهم.
(٥) في أ: البدء.
(٦) في أ: إلى.

أسباب، ومن شيء ومن لا شيء. ويذكر نعمه: حيث أخبر أنه خلق في الأرض من الأصناف المختلفة، والجواهر المتفرقة؛ لينتفعوا بها.

ويحتمل قوله: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ﴾ من جنس واحد؛ من شيء واحد؛ لأنه يكون من جنس واحد ألوان مختلفة، ومن قدر على إنشاء ألوان مختلفة من شيء واحد لا يعجزه شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، وفي آية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي آية ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي آية: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، و ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وفي آية: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فيحتمل أن يكون كله كناية عن المؤمنين؛ كأنه قال: إن في ذلك لآية للمؤمنين؛ إذ يجمع الإيمان جميع ما ذكر: من التفكر، والتذكر، والعقل، والاعتبار، والصبر، والشكر، وغيره.

ويحتمل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، و ﴿يَعْقِلُونَ﴾، و ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: لقوم همتهم الفكر والنظر في الآيات، ولقوم همتهم التفهم والاعتبار فيها، لا لقوم همتهم العناد، والمكابرة، والإعراض عن النظر في الآيات والفكر فيها.

وفي ذكر الآية للمتفكرين، والعاقلين، والمتذكرين: لما منفعة الآية تكون لهؤلاء، وإن كانت الآيات لهم ولغيرهم، فمنفعتها لمن ذكر. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ .

وتسخيره إياه لنا: هو ما بذل للخلق ما فيه من أنواع الأموال التي خلق الله فيه: من الحلي والجوهر واللؤلؤ، وبذل ما فيه من الدوابّ: السمك وغيره، فلولا تسخير الله إياه للخلق؛ وتعليمه إياهم الحيل التي بها يوصل إلى ما فيه من الأموال النفيسة؛ وإلا ما قدروا على استخراج ما فيه والوصول إليه؛ لشدة أهواله وأفزاعه.

وقوله - عز وجل-: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ .

يحتمل السمك خاصة. ويحتمل السمك وما فيه من الدوابّ؛ من نوع ما لو كان بريًّا أكل؛ من نحو الجواميس وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ .

يحتمل الحلية: اللؤلؤ والمرجان؛ الذي ذكر في آية أخرى؛ حيث قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ثم يحتمل قوله: ﴿حِلْيَةً﴾: أي: ما يتخذ منه حلية. وهذا جائز؛ أن يسمى الشيء باسم ما يتخذ منه؛ وباسم ما يصير به في المتعقب. أو يسمى حلية؛ لأنه زينة.

ولا شك أن اللؤلؤ والمرجان هما زينة؛ ألا ترى أنه ذكر في الأنعام زينة وجمالًا، وفي الخيل والبغال كذلك، فالزينة في اللؤلؤ والمرجان أكثر، والجمال فيه أظهر أخبر أنه جعل لنا الوصول إلى [ما في][١] قعر البحر وهو ما ذكر من اللؤلؤ وأنواع الحلي، وما في بطن البحر: وهو ما ذكر من اللحم الطري، وما هو على وجه الماء: وهو السفن التي ذكر.

ووجه تسخيره إيانا الخيل والأسباب التي علمنا؛ حتى نصل إلى ما فيه؛ فكأنه قال: سخرت لكم البحر من أسفله إلى أعلاه.

وفي ذلك دلالات:

إحداها: إباحة التجارة بركوب الأخطار؛ لأن الغائص [في البحر][٢] يخاطر بنفسه، وروحه، وكذلك راكب السفن؛ فلولا أنه مباح له طلب ذلك؛ وإلا ما ذكر هذا في منته؛ إذ هو يخرج مخرج ذكر الامتنان. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قال الحسن، والأصم: المواخر: السفن المحشوات[٣]؛ الوافرة أحمالها وأثقالها، يذكر منّته التي منّ بها عليهم؛ حيث جعل لهم السفن والفلك؛ التي يحمل بها الأحمال الثقال العظام في البحار ما سبيلها التسفّل والانحدار في البحر؛ فأمسكها فيه بالسفن العظام الثقيلة.

وقال بعضهم[٤]: مواخر: أي: جارية مقبلة مدبرة بريح واحدة في البحر؛ لأن ماء البحر راكدة؛ فأجرى السفن فيه بالرياح؛ حيثما[٥] أرادوا وقصدوا؛ إذ الأشياء قد تجري [على الماء][٦] إذا كان له جرية، وأما إذا كان راكدًا ساكنًا فلا سبيل إلى ذلك؛ فيذكر عظيم منته وقدرته على إجراء السفن في الماء الراكد بالريح.

وقال [بعضهم][٧]: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: جواري تشق الماء شقًّا وتخرقه، يقال: مخرت السفينة؛ ومنه: مخر الأرض: إنما هو شق الماء لها؛ وهو قول القتبي[٨].

وكذلك قال أبو عبيدة[٩]: إنه من شق السفن الماء. وقال أبو عوسجة: المواخر:

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ب.
(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٥٢٥) وذكره البغوي (٣/ ٦٤).
(٤) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٥٣٣، ٢١٥٣٤) وعن الحسن (٢١٥٣٥).
(٥) في أ: حيث.
(٦) في ب: على جرية ماء.
(٧) سقط في أ.
(٨) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٢).
(٩) ينظر: مجاز القرآن (١/ ٣٥٧).

المستقبلة، يقال: استمخر الإنسان الريح: إذا استقبلها. وقال أبو عبيدة: مواخر من الاستدبار؛ يقال: إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح: أي: يستدبرها. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

يحتمل بالتجارة التي جعل فيها؛ حيث جعل سبيل قطع البحار إلى بلاد نائية بعيدة بالسفن؛ ليبتغوا ما به قوام أبدانهم وأنفسهم؛ إذ جعل بنيتهم بنية لا تقوم إلا بالأغذية، ولعلهم لا يظفرون ما به قوام أبدانهم وبنيتهم في بلادهم؛ فيحتاجون إلى البلاد النائية البعيدة عنهم، فمنّ عليهم بذلك؛ كما من بقطع المفاوز والبراري بالدوابّ؛ بقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

أو قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بما يستخرج منه، ولعلكم تشكرون جميع ما ذكر: من ألوان النعم والمنافع؛ من أوّل السورة إلى آخرها؛ يستأدي به شكره.

وفي قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ دلالة إباحة التجارة، وطلب الفضل بركوب الأخطار واحتمال الشدائد؛ حيث أخبر أنه سخر البحر؛ حتى أمكنهم ركوبه بالحيل والأسباب التي علمها لهم؛ لأن الغواص يخاطر بروحه ونفسه، وكذلك راكب السفينة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: ألقى في الأرض الجبال؛ لئلا تميد بكم[؛ قال بعض أهل التأويل[(١)]: قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ لئلا تميد بكم][(٢)] لأنها بسطت على الماء؛ فكانت تكفو بأهلها؛ كما تكفو السفينة في الماء؛ فأثبتها بالجبال؛ لتقرّ بأهلها، لكن لو كان على ما ذكروا أنها بسطت على الماء لكانت لا تكفو ولا تضطرب، ولكنها[(٣)] تتسرب في الماء وتنهار فيه؛ لأن من طبعها التسفّل والتسرب في الماء؛ إلا أن يقال: [إن][(٤)] الله -عز وجل- جعل -بلطفه- طبعها طبع ما يضطرب؛ وتكفو؛ فعند ذلك يحتمل ما ذكروا. والله أعلم.

ولو قالوا: إنها بسطت على الريح لكان يحتمل ما قالوا؛ ويكون أشبه بقولهم؛ ألا ترى أن السراج في الآبار والسروب لا يضيء بل ينطفئ كما أسرج؛ فيشبه أن يكون انطفاؤه لريح تكون في الأرض، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم، والله أعلم بذلك.

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٦٤).
(٢) سقط في أ.
(٣) في ب: ولكن.
(٤) سقط في أ.

وقال بعضهم: بسطت على ظهر الثور فكانت تضطرب بتحركه فأرساها بما ذكر، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ يخرج ذكر ذلك منه ذكر الامتنان والنعمة؛ لأن له أن يترك الأرض على ما خلقها؛ ولا يثبتها بالجبال؛ لتميد[1] بأهلها وتميل[2]؛ فلا يقدروا على القرار عليها والانتفاع بها، لكنه -بفضله ومنته- أثبتها بالجبال؛ ليقروا عليها، ويقدروا على الانتفاع بها. وكذلك له ألا يجعل لهم فيها أنهارًا جارية؛ فيكون مياههم من آبارها[3]، وكذلك له أن يحوجهم بأنواع الحوائج؛ ثم لا يبين لهم الطرق والسبل التي بها يصلون إلى قضاء حوائجهم، [ويكلفهم طلب الطرق والسبل التي بها يصلون إلى قضاء حوائجهم، ويكلفهم طلب الطرق والسبل التي بها تقضى حوائجهم بأنواع الحوائج، ثم لا يبين لهم الطرق والسبل][4]، لكنه بفضله ومنّه بيّن لهم الطرق والسبل التي تفضي إلى البلدان والأمكنة التي فيها تقضى حوائجهم، وكذلك بفضله جعل لهم في الأرض أنهارًا جارية، وأثبت الأرض بالرواسي؛ ليقروا عليها، وذلك كله بمنّه وفضله.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

يحتمل تهتدون الطرق والسبل التي تفضيهم إلى الحوائج.

ويحتمل: تهتدون الهدى المعروف؛ بما ذكر من نعمه ومننه. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أيضًا يخرج مخرج ذكر المنن والنعم عليهم؛ لأنهم لولا ما جعل الله أعلامًا في البحار[5] والبرارى يعرفون بها السلوك فيها؛ وإلا لم يقدر أحد معرفة الطرق في البحار والبراري.

ثم يحتمل الأعلام: مرة بطعم الماء والجبال التي جعل فيها وبالرياح، ومرة تكون بالنجم؛ [يعرفون بطعم الماء أن هذا الطريق يفضي إلى موضع كذا، وكذلك يعرفون بالجبال وبالرياح][6] يعرفون السبل إلى حوائجهم ومقصودهم. وكذلك بالنجم يعرفون الطرق؛ فالأعلام مختلفة بها يهتدون الطرق والسبل.

---

(١) في أ: ليمتد.
(٢) في أ: وتميلها.
(٣) في أ: آثارها.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٥) في أ: البحر.
(٦) ما بين المعقوفين سقط في ب.

ويحتمل: يهتدون بما ذكر من الأعلام والنجم سبب اهتدائهم إلى توحيد الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

يحتمل هذا وجهين:

أحدهما: على الاحتجاج عليهم؛ أي: لا تجعلوا من لا يخلق ولا ينفع ولا ينعم كمن هو خالق الأشياء كلها؛ منعم النعم عليكم[١]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: [أي][٢]: إن صرف العبادة والشكر إلى غير خالقكم وغير منعمكم جور وظلم.

والثاني: يخرج مخرج تسفيه أحلامهم؛ أنهم يعبدون من يعلمون أنه ليس بخالق، ويتركون عبادة من يعلمون أنه خالق الأشياء كلها، أفلا تذكرون والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ .

هذا يحتمل وجوهًا:

أحدها: وإن تعدوا أنفس نعمة الله التي أنعمها عليكم وأعينها لا تقدروا على عدّها لكثرتها.

والثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ : وإن تكلفتم واجتهدتم كلّ جهدكم أن تقوموا لشكر ما أنعم الله عليكم [ومنّ][٣] وما قدرتم على القيام لشكر[٤] واحدة منها؛ فضلا أن تقوموا للكل.

والثالث: يخرج على العتاب والتوبيخ؛ أي: كيف فرغتم لعبادة من لا يخلق ولا ينعم عن عبادة من خلق وأنعم، وكنتم لا تقدرون على إحصاء ما أنعم عليكم؛ فضلا أن تقوموا لشكره.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ : لا تعرفوا كل النعم؛ لأنه كم من النعم ما لا يعرفه الخلق؛ كقوله: ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فإذا لم يعلموا لم يقدروا إحصاءها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: إنكم وإن افتريتم على الله، وعاندتم حججه وآياته، وكذبتم رسله فإذا استغفرتم؛ وتبتم عما كان منكم؛ يغفر لكم ذلك كله؛ كقوله: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] .

---

(١) في ب: عليهم.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: يشكر.

والثاني: ﴿لَغَفُورٌ﴾: أي: يستر عليكم ما كان منكم؛ ما لو أظهر ذلك لافتضحتم؛ لكنّه برحمته ستر ذلك عليكم، رحيم بالستر عليكم. أو ذكر ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على أثر ذكر النعم وأنواع المنافع؛ ليكونوا رحماء على ما ذكر مما سخر لنا وأذلّ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: ذكر هذا ليكونوا أيقظ وأحذر؛ لأن في الشاهد من يعلم أن عليه رقيبًا حافظًا بما يفعل، كان هو أرقب وأحفظ لأعماله، ويكون أحذر ممن يعلم أنه ليس عليه حافظ ولا رقيب.

والثاني: يعلم ما تسرّون من المكر برسول الله، والكيد له من القتل، والإخراج، وغير ذلك [أي: يعلم ذلك][(١)] كله منكم، ما أسررتم وأعلنتم، وهو يخرج على نهاية الوعيد والتعيير، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يحتمل يدعون: أي: يسمونها[(٢)]: آلهة، وربما كانوا يدعونهم عند الحاجة.

ويحتمل ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون؛ أي: الذين يعبدون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون؛ فهذا يرجع إلى الأوّل؛ أفمن يخلق كمن لا يخلق؟

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ...﴾ [الآية][(٣)].

يحتمل المراد بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: الذين عبدوا الأصنام والأوثان وجميع من كفر بالله؛ هم أموات غير أحياء؛ لأن الله تعالى سمّى الكافر في غير آي من القرآن ميّتًا؛ فيشبه أن يكون قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أيضًا[(٤)].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: يشعرون حين يبعثون، أي: لو شعروا هذا في الدنيا ما شعروا في الآخرة؛ لم

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: يسلمونها.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: هم أيضاً.

يعلموا ما عملوا.

ويحتمل قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾: الأصنام التي عبدوها؛ هن أموات غير أحياء.

قال بعضهم: أموات لأنها لا تتكلم، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر؛ كالميت ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ : أي: ليس فيها أرواح ينتفع بها كالبهائم والأنعام، ويكون قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ راجعًا إلى الذين عبدوا الأصنام؛ لأنها لا تشعر أيان يبعثون، وهم يعلمون أنها لا تشعر ذلك؛ لكن هم يشعرون حين يبعثون.

وقال بعضهم[١]: قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يبعث الآلهة والذين عبدوها جميعًا؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] قال بعضهم: يحشر أولئك الذين عبدوا الأصنام، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي: حين يبعثون، ولو شعروا ذلك في الدنيا ما فعلوا [ما فعلوا][٢] وإن كان قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ راجعًا إلى الملائكة والملوك الذين عبدوا دون الله يكون تأويل قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي: لا يشعرون وقت يبعثون، وإن كان راجعًا إلى الأصنام، فقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي: لا يشعرون أنهم يبعثون، لا يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أن يقال [ذلك][٣] في الأصنام؛ لأن أولئك يعلمون أنهم لا يخلقون، وإنما يقال ذلك في الأصنام: لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، فدل أن ذلك راجع إلى الملائكة والذين عبدوهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ .

قد ذكرنا فيما تقدم ما يبين إبطال ما كانوا يعبدون، وما لا يليق بأمثالها العبادة لها؛ ونصبهم آلهة[٤] ثم ذكر ما يبين جعل الألوهية والربوبية أنه لواحد، وأنه هو المستحق لذلك دون العدد الذي عبدوها؛ فقال: إلهكم إله واحد لا العدد الذي عبد أولئك.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ .

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٦٥).
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: آلهي.

يحتمل قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ : أي: منكرة للإيمان[١] بالآخرة والبعث بعد الموت.

أو قلوبهم منكرة لجعل الألوهية والربوبية لواحد وصرف العبادة إليه؛ كقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] .

ويحتمل قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لما جاء به الرسول، وهم مستكبرون على ما جاء به من الله تعالى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يحتمل مستكبرون على رسول الله، لم يروه أهلا لخضوع أمثالهم[٢] لمثله، أو مستكبرون إلى ما دعتهم الرسل؛ لأن الرسل جميعًا دعوا الخلق إلى وحدانية الله وجعل العبادة له.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ : من المكر برسول الله، والكيد له، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من المظاهرة عليه. أو يعلم ما يسرّون من أعمالهم الخبيثة التي أسروها و[ما][٣] أعلنوها، يخبر أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ أسرّوا أو أعلنوا.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال الأصم: ﴿لَا جَرَمَ﴾ : كلمة تستعملها العرب في إيجاب تحقيق أو نفي تحقيق؛ كقولهم: حقًّا، ولعمري، وايم الله، ونحوه.

وقال الحسن: هو كلمة وعيد.

وقال بعضهم: لا جرم، وحقًّا، وبلى، ولا بدّ، كلّه في الحاصل: يرجع إلى واحد، وهو وعيد؛ لأن قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيد. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ .

لأنه لا يحبّ الاستكبار، ولا يليق لأحد من الخلائق أن يتكبر على غيره من الخلق؛ لأن الخلق كلهم أشكال وأمثال، ولا يجوز لكل ذي [مثل وشكل][٤] أن يتكبر على شكله [ومثله][٥]؛ لأن تكبّر بعضهم[٦] على بعض كذب وزور؛ إذ جعل كلهم أمثالا وأشكالا، لذلك كان زورًا وكذبًا، وقد حرم الله الكذب والزور، وجعله قبيحًا في العقول.

---

(١) في أ: الإيمان.
(٢) في أ: الخضوع لأمثالهم.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: شكل ومثل.
(٥) سقط في أ.
(٦) في أ: بعض.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

أي: قال الأتباع للرؤساء: ماذا أنزل ربكم؟ قال الرؤساء: أنزل أساطير الأولين، [أو يخرج على الإضمار، كأنهم قالوا لهم: ماذا يقول إنه أنزل ربكم عليه؟ فقالوا عند ذلك: أساطير الأولين، وإلا لا يحتمل أن يكون ذكروا أساطير الأولين][1] جواب سؤالهم: ماذا أنزل ربكم؟ مفردًا؛ لأنهم كانوا يقرون بالله بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلا يحتمل أن يكونوا إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم؛ فيقولون: أساطير الأولين إلا أن يكون في السؤال زيادة قول، أو في الجواب إضمار؛ فيكون -والله أعلم- كأنه قال: وإذا قيل لهم: ماذا يزعم هذا أنه أنزل عليه ربكم؟ قالوا عند ذلك: إنه يقول: أساطير الأولين؛ كقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] أي: قالوا: يأيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر.

أو يكون قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فقالوا: لم ينزل الله شيئًا إنما يقول أساطير الأولين، ومثل هذا يحتمل أن يكون.

وقوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال أبو عوسجة: أحاديث الأولين والواحد أسطور، وهي الأحاديث المختلقة[2]؛ كقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]؛ أي: لا أصل له؛ وأصله الكذب. وهكذا عادة أولئك الكفرة يقولون للأنباء: أساطير الأولين، وكانوا ينسبون ما يقرأ عليهم إلى السحر، ولو كان في الحقيقة سحرًا أو أحاديث الأولين كان دليلا له. أو قالوا ذلك على الاستهزاء [له][3]، وذلك جائز أن يخرج قولهم ذلك على الاستهزاء. والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في أ.
(٢) في أ: المختلفة.
(٣) سقط في أ.

بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾.

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: [أنه يحتمل:][١] أنهم يحملون أوزارهم كاملة؛ يعني الذين قالوا للرسل: أساطير الأولين، ومن أوزار الذين يقلدون رسلهم، ووفدهم الذين بعثوا عن السؤال عن رسول الله ﷺ؛ فحملوا أوزار أنفسهم؛ وأوزار [الرسل وأوزار][٢] الذين يقلدون الرسل ويقتدون بهم بغير علم؛ لأنهم لم يعلموا أن أولئك يقتدون بالرسل فيضلون، وهم وإن لم يعلموا فذلك عليهم؛ لأنهم هم الذين سنوا ذلك؛ وهو كما روي: «من سَنَّ سنّة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٣] ويحتمل: ليحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين طمعوا الإسلام؛ إذا أسلموا سقط تلك الأوزار عنهم. وقوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾: هم لم يفعلوا ما فعلوا ليحملوا أوزارهم، ولكن معناه -والله أعلم- أي: ليصيروا حاملين[٤] لأوزارهم والذين أضلّوهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ يحتمل ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ أي: بسفه.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ساء ما يحملون.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ أي: لم يعلموا أن تصير أوزارهم عليهم، أو لم يعلموا ما يلحق بهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

لم يزل كانت عادة الكفرة بالمكر برسل الله؛ والكيد لهم، وكذلك مكر كفار مكة برسول الله، يذكر هذا -والله أعلم- لرسول الله ليصبره على أذاهم إياه؛ كما صبر أولئك على مكر قومهم وترك مكافأتهم إياهم؛ كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ثم مكرهم الذي ذكر كان يخرج على وجهين:

أحدهما: فيما جاءت به الرسل؛ كانوا يتكلفون تلبيس ما جاءت به الرسل على قومهم.

والثاني: يرجع مكرهم إلى أنفس الرسل؛ من الهم بقتلهم وإخراجهم من بين

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٥) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (٦٩/ ١٠١٧).

(٤) في أ: خاطين.

أظهرهم؛ ونحوه، فخوف بذلك أهل مكة بصنيعهم لرسول الله؛ أن ينزل بهم كما نزل بأولئك الذين مكروا برسلهم؛ لئلا يعاملوه بمثل معاملة أولئك رسلهم، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ .

قال الحسن: هذا على التمثيل بالبناء الذي بني على غير أساس؛ ينهدم ولا يعلم من أي: سبب انهدم، فعلى ذلك مكرهم يبطل ويتلاشى؛ كالبناء الذي بني على غير أساس ويشبه أن يكون على التمثيل من غير هذا الوجه؛ وهو أنهم قد مكروا وأحكموا مكرهم بهم؛ فيتحصنون بذلك؛ كالبناء الذي يتحصن به؛ فأبطل الله مكرهم؛ كقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا . . .﴾ الآية [النمل: ٥٠]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ . . .﴾ الآية [آل عمران: ٥٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ .

هو ما ذكرنا من إبطال مكرهم الذي به كانوا يتحصنون؛ كوقوع السقف الذي به يتحصن من أنواع الأذى والشرور. ويحتمل على التحقيق؛ وهو ما نزل بقوم لوط؛ من الخسف، وتقليب البنيان، وإمطار الحجر عليها.

وأما ما ذكر بعض أهل التأويل[(١)]: من الصرح [الذي][(٢)] بنى نمرود وبنيانه، ووقوعه عليهم؛ فإنا لا نعلم ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

كذلك كان يأتي العذاب الظلمة الكذبة؛ من حيث لا علم لهم بذلك؛ كقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً . . .﴾ الآية [الأعراف: ٩٥] وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم﴾ [النحل: ٢٦] هو من الإتيان، ومعلوم أنه لا يفهم من إتيانه الانتقال من مكان إلى مكان، ولكن إتيان عذابه، أضيف إليه الإتيان؛ لما بأمره يأتيهم، ومنه [. . .][(٣)] ، فعلى ذلك لا يفهم من قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] إتيانُ الانتقال ومجيئه من مكان إلى مكان، وقد ذكرنا هذا وأمثاله في غير موضع.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ .

أخبر أنه يخزيهم يوم القيامة بعد ما عذبهم في الدنيا؛ بقوله: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) قاله ابن عباس وزيد بن أسلم والسدي أخرجه ابن جرير عنهم (٢١٥٦٦)، (٢١٥٦٧)، (٢١٥٦٨)، وانظر: الدر المنثور (٤/٢١٨).

(٢) سقط في أ.

(٣) بياض في أ، ب، وقد أشير إليه فيهما.

وقوله: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ : قال أهل التأويل[١]: يعذبهم، وكأن الإخزاء هو الإذلال، والإهانة، والفضح، يذلهم، ويهينهم، ويفضحهم في الآخرة؛ مكان ما كان منهم من الاستكبار، والتجبر على النبي وأصحابه، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التحريم:٨] أي: لا يذلهم، ولا يهينهم؛ لتواضعه للمؤمنين، وخفض جناحه لهم، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادون أوليائى فيهم، أو تعادونني فيهم.

وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ ليس له بشركاء؛ ولكن أضاف إلى نفسه: شركائي؛ على زعمهم في الدنيا أنها شركاؤه، وكذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات:٩١] أي: إلى ما في زعمهم؛ وتسميتهم إياها آلهة.

وقوله -عز وجل-: ﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: كنتم تخالفون فيهم وتعادون؛ أي: تخالفون المؤمنين في عبادتهم إياها؛ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وهم شفعاؤنا عند الله، ونحوه، كانوا يخالفون المؤمنين، وكانوا يشاقّون في ذلك؛ إلا أنه أضاف ذلك إلى نفسه لأنهم أولياؤه، وأنصار دين الله، وأضاف إليه المخالفة والمشاقّة لأنهم خالفوا أمر الله.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ .

قال أهل التأويل: الذين أوتوا العلم الملائكة الكرام الكاتبون، [لكن][٢] هم وغيرهم من المؤمنين محتمل.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذل والهوان والافتضاح وكل سوء على الكافرين هكذا يقابل كل معاند ومكابر في حجج الله وبراهينه مكان استكبارهم وتجبرهم في الدنيا، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

قال الحسن: تتوفاهم الملائكة من بين يدي الله يوم الحساب إلى النار.

وقال بعضهم[٣]: تتوفاهم الملائكة - وقت قبض أرواحهم - ظالمي أنفسهم بالشرك والكفر بالله.

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٦٦).
(٢) سقط في أ.
(٣) قاله ابن جرير (٧/ ٥٧٨)، والبغوي (٣/ ٦٦).

وعلى تأويل الحسن: يكون قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في الدنيا، ويجوز أن يوصفوا بالظلم في الآخرة أيضًا؛ بكذبهم فيها في قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وأمثاله من الكذب؛ حيث ينكرون الإشراك في ألوهية الله وعبادته، كأن هذا الإنكار والكذب منهم في أول حالهم، ظنًّا منهم أن ذلك ينفعهم، فإذا لم ينفعهم إنكارهم طلبوا الرد إلى الدنيا، أو إلى حال الأمن؛ ليعملوا غير الذي عملوا؛ كقولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣] فإذا لم يردّوا وأيسوا عن ذلك؛ فعند ذلك أنطق الله جوارحهم؛ حتى تشهد عليهم بما كان منهم فعند ذلك يقرون، ويعترفون بذنوبهم؛ كقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك:١١].

وقوله - عز وجل-: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ قال بعضهم(١): يسلمون ويستسلمون لأمر الله، ولكن لو كان ما ذكروا لم يكونوا ينكرون عمل السوء، كقولهم: ما كنا نعمل من سوء.

وقال بعضهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ : هو الاستخزاء، والخضوع والتضرع.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ عند الموت يؤمنون عند معاينة ذلك، أو سلموا عليهم في الآخرة على ما رأوا في الدنيا المؤمنين يسلم بعضهم على بعض.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ في الآخرة، والله أعلم بذلك، فأكذبهم الله في قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ ؛ فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيد يخبر ألا يجوز كذبهم في الآخرة، ولا يحتمل كما جاز في الدنيا؛ ولم يظهر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس مقام المتكبرين الذين تكبروا على دين الله، أو تكبروا على ما جاء به الرسل من الله، وما أنزل الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ .

قال أهل التأويل(٢): هذا قول المؤمنين؛ مقابل قول المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ

(١) قاله ابن جرير (٧/٥٧٩)، والبغوي (٣/٦٧).

(٢) قاله قتادة أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (٢١٥٧٦)، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/٢١٨).

رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

ثم اختلف في قوله: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾: قال بعضهم: قوله: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ أي: قولهم الذي قالوا أنه أرسل بحق، وأنه كذا خير.

وقال بعضهم: قوله: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ حكاية عما أنزل على رسول الله ﷺ: و ﴿خَيْرًا﴾: أي: أنزل عليه ربنا خيرًا، أو أن يكون الناس الذين يأتون من الآفاق يسألون عن رسول الله ﷺ، فإذا سألوا المؤمنين: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيرًا، وإذا سألوا الكفرة قالوا: أساطير الأولين.

وجائز أن يكون أتباع المؤمنين سألوا كبراءهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيرًا، مقابل ما كان من كبراء الكفرة لأتباعهم أساطير الأولين.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ من النصر لهم، والظفر على عدوهم.

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ لهم مما[1] كان أعطاهم في الدنيا.

وقال بعضهم: للذين أحسنوا العمل في هذه الدنيا لهم حسنة في الآخرة، ولدار الآخرة خير [لهم مما كان أعطاهم في الدّنيا][2]؛ أي: الجنة خير وأفضل للمؤمنين مما أوتوا في الدنيا.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

قال هذا للمؤمنين مكان ما قال للكافرين: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] ثم نعت الدار التي وعد المتقين؛ فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من اللذات والشهوات.

فإن قيل: أرأيت لو شاءوا أن يكون لهم درجات الأنبياء ومنازل الأبرار والصديقين؛ أيكون لهم ما شاءوا؟

قيل: لا يشاءون هذا؛ لأن مثل هذا إنما يكون في الدنيا إمّا حسدًا؛ وإمّا تمنيًا، فلا يكون في الجنة حسد؛ لأن الحسد هو [أن يرى][3] لأحد شيئًا ليس له؛ فيحسد أو يتمنى مثله، فأهل الجنة يجدون جميع ما يتمنون ويخطر ببالهم، فلا معنى لسؤالهم ربهم ما لغيرهم، والله أعلم.

---

(١) في أ: ما.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: أن لا يري.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ظاهر.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.

على تأويل الحسن: تتوفاهم الملائكة وهم طيبون من بين يدي الله يوم الحساب، يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وقد ذكرنا: أن السلام هو تحية؛ جعل الله بين الخلق في الدنيا والآخرة؛ وقد ذكرناه في غير موضع.

وقال بعضهم: الذين تتوفاهم الملائكة بقبضهم الأرواح في الدنيا، يقبضون أرواحهم وهم طيبون.

وقال بعضهم[(١)]: طيبون أحياء وأمواتًا، وهم المؤمنون الذين طابت أعمالهم في الدنيا.

يحتمل السلام وجهين:

أحدهما: تحييهم الملائكة بالسلام في الجنة؛ كما يحيي أهل الإيمان في الدنيا بعضهم بعضًا.

والثاني: السلام يكون منهم أمن عن جميع الآفات والمكروهات، والله سبحانه أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

هذا الحرف يخرج على الإياس [له][(٢)] من إيمانهم؛ أي: ما ينظرون لإيمانهم إلا وقت قبض أرواحهم، أو وقت نزول العذاب عليهم؛ أي: لا يؤمنون إلا في هذين الوقتين، ولا ينفعهم إيمانهم في هذين الوقتين؛ لأن إيمانهم إيمان اضطرار؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [غافر: ٨٤] وكقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] [يؤمنون][(٣)] عند معاينتهم بأس الله؛ لكن لا ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، يخبر أنهم ينظرون ذلك الوقت يؤيس رسوله عن إيمانهم، لما علم أنهم لا يؤمنون؛ ليرفع عنه مؤنة الدعاء إلى الإيمان والقتال معهم.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يحتمل العذاب في الدنيا، ويحتمل عند معاينتهم العذاب

---

(١) قاله مجاهد أخرجه ابن جرير (٢١٥٧٧)، (٢١٥٧٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ٢١٩).

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ .

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: كذلك فعل المعاندون، والمكابرون، الذين كانوا من قبل برسلهم؛ من التكذيب لهم، والعناد، وتركهم الإيمان إلى الوقت الذي ذكر، كما فعل قومك من التكذيب لك يا محمد والعناد.

ويحتمل كذلك فعل الذين من قبلهم؛ أي: هكذا أنزل[١] العذاب بمن كان قبل قومك بتكذيبهم الرسل والعناد معهم، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما عذبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث وضعوا أنفسهم في غير موضعها الذي وضعها الله، وحيث صرفوها عن عبادة من نفعهم، وأنعم عليهم، واستحق ذلك عليهم إلى من لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا يستحق العبادة بحال، فهم ظلموا أنفسهم؛ حيث صرفوها عن الحكمة إلى غير الحكمة لا الله؛ إذ[٢] الله وضعها؛ حيث توجب الحكمة ذلك، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، والحكمة: هي وضع الشيء في موضعه، فهم وضعوا أنفسهم في غير موضعها، فأما الله تعالى فقد[٣] وضعها في المواضع التي توجب الحكمة وضعها.

وقوله - عز وجل-: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ .

كأنه قال: ما ينتظرون[٤] للإيمان بعد الحجج السمعيات، وبعد الحجج العقليات، والحجج الحسيات إلا نزول الملائكة بالعذاب من الله تعالى [عليهم][٥]؛ لأن رسول الله ﷺ قد أقام عليهم الحجج السمعيات والعقليات والحسيات، فلم يؤمنوا به ولم يصدقوه، فيقول: إنهم ما ينتظرون إلا الحجج التي تقهرهم وتضطرهم، فعند ذلك يؤمنون؛ وهو ما ذكر من نزول العذاب بهم.

أو يقول: ما ينظرون بإيمانهم إلا الوقت الذي لا ينفعهم إيمانهم، وهو الوقت الذي تخرج أنفسهم من أيديهم؛ فأخبر أن إيمانهم لا ينفعهم في ذلك، وهو ما قال: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ...﴾ الآية [غافر: ٨٥].

(١) في أ: إنزال.
(٢) في أ: إن.
(٣) في أ: قد.
(٤) في أ: ينظرون.
(٥) سقط في أ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٧)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقال في سورة الأنعام ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨] وقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام:١٤٨] وقال هاهنا: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

و (هل): هو حرف استفهام في الظاهر، لكن المراد منه: ما على الرسول إلا البلاغ المبين؛ [على ما قاله أهل التأويل، ما قد كان من الله من البيان أن ليس على الرسل إلا البلاغ المبين][١]. وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل:٣٣] أي: ما ينظرون إلا أن تأتيهم كذا. وكذلك قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم:٢٤] (أم): هو حرف شك، ومراده: [ما][٢] للإنسان ما تمنى، وأمثاله لما سبق من الله ما يبين لهم أن ليس للإنسان ما تمنى، وقد ذكر [تأويل][٣] قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ في سورة الأنعام.

ويحتمل قولهم هذا وجوهًا:

أحدها: قالوا ذلك على الاستهزاء [به][٤]؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦].

والثاني: قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لو أمر الله أن نعبده ولا نعبد غيره لفعلنا؛ كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ...﴾ الآية [الأعراف:٢٨].

والثالث: قالوا: لو لم يرض الله منا ذلك ما تركنا فعلنا ذلك؛ ولكن أهلكنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾.

يخبر رسوله أنك لست بأول [رسول][٥] مبعوث إلى أمتك؛ ولكن قد بعث إلى كل أمة

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ب.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.
(٥) سقط في ب.

رسولٌ، وهو كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] يصبِّره على ما يصيبه منهم من المكروه والأذى؛ أي: لست أنت بأول من يصيبه ذلك، بل كان لك[1] قبلك [إخوان][2] أصابهم من أممهم ما يصيبك من أمتك.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

هو على الإضمار؛ كأنه قال: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا وقلنا لهم: قولوا: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ...﴾ الآية، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ على ذلك كان بعث الرسل جميعًا إلى قومهم بالدعاء إلى توحيد الله؛ وجعل العبادة له، والنهي عن عبادة الأوثان دونه؛ كقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

ويكون قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: [كقوله:][3] ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] هما واحد.

والطاغوت: قال بعضهم: كل من عبد دون الله فهو طاغوت.

وقال الحسن: الطاغوت هو الشيطان، أضيف العبادة إليه بقوله: ﴿لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] لأن من يعبد دونه يعبد بأمره، فأضيف لذلك إليه، وقد ذكرنا هذا أيضًا فيما تقدم.

وقوله - عز وجل-: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

هذا يدل أنه لم يرد بالهدى البيان؛ على ما قاله بعض الناس؛ إذ قد سبق منه البيان لكل واحد[4]، وما ذكر أيضًا: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وهذا يرد على المعتزلة قولهم؛ حيث قالوا: الهدى: البيان من الله، لكن الهدى منه في هذا الموضع ليس هو البيان، هو ما يكرم الله به عبده؛ ويوفقه لدينه.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ لاختياره الهدى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: لزمت للزومه الضلالة واختياره إياه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ الآية.

قال الحسن: قوله: ﴿فَسِيرُوا﴾ ليس على الأمر؛ ولكن كأنه قال: لو سرتم في الأرض لرأيتم كيف كان عاقبة المكذبين؛ بالتكذيب.

وقال بعضهم: سيروا؛ كأنه على الحجاج عليهم أن سيروا في الأرض؛ فإنكم ترون

---

(١) في أ: ذلك.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: أحد.

آثار من [كان][١] قبلكم الذين أهلكوا بالتكذيب، كان النبي يخبرهم من أنباء الأمم الخالية؛ وما نزل بهم، فينكرون ذلك؛ فقال عند ذلك: فسيروا[٢] في الأرض فانظروا إلى آثار من كان قبلكم.

ويشبه أن يكون ليس على السير نفسه؛ ولكن على التأمل[٣] والنظر في آثار أولئك وأمورهم أنه بم نزل بهم ما نزل، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾.

قال أبو بكر الأصم: [قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ :][٤] كان يحب ويحرص على هدى قراباته؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال: ﴿فإن الله لا يهدي من يَضِلُّ﴾؛ أي: لا يهديهم بضلالهم وقت ضلالهم أو لا يهديهم وقت اختيارهم الضلال، أو لا يهدي من علم أنه يختار الضلال [ويهلك على الضلال][٥]، أو لا ينجي من يهلك على[٦] الضلال.

وفيه لغات ثلاث: ﴿فإن الله لا يُهْدَى من يُضِل﴾ أي: لا يُهْدَى من أضله الله؛ أي: إذا أضله الله فليس أحد يهديه، و﴿لا يهدي من يَضِلُّ﴾؛ ما ذكرنا، ولا ﴿يَهِدِّي من يُضِلُّ﴾؛ أي: لا يهتدي[٧] من أضله الله، والله أعلم بذلك. أو لا يهتدي في الآخرة طريق الجنة مَنْ أضله الله في الدنيا لاختياره الضلال، وهو كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] وقت اختيارهم الكفر والظلم، أو لا يهدي من علم منه أن يختار الضلال والظلم، أو لا يهدي من يلزم الضلال وقت لزومه.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

ظاهر تأويله.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: سيروا.
(٣) في أ: التأويل.
(٤) سقط في أ.
(٥) سقط في أ.
(٦) في أ: عن.
(٧) في أ: لا يهدي.

فإن قيل: لنا: ما الحكمة والفائدة في ذكر قسمهم الذي أقسموا في القرآن؛ وجعل ذلك آية تتلى؟ وذلك القسم الذي أقسموا كان بحضرة النبي ﷺ وأصحابه، وهم علموا ذلك ليس كالأنباء والقصص التي كانت من قبل، إذ كان ذلك شيئًا غاب عنه لم يشهدها؛ فأخبرهم[١] على ما كان، ففي ذلك إثبات رسالته ونبوّته؟

فالحكمة والفائدة من[٢] ذكرها في القرآن؛ وجعلها آيات تتلى؛ ليعلم أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

وأمّا القسم الذي أقسموا ليس فيه ما ذكرنا من إثبات الرسالة؛ وهم قد علموا ذلك؛ فما الفائدة في ذكره؟

قيل: يشبه أن يكون ذكره لنا - عز وجل - لنعلم نحن عظيم سفه أولئك؛ وقلة عقولهم[٣]، وحلم الرسول واحتمال ما احتمل منهم من الأذى والمكروه؛ لنعلم نحن أن كيف يعامل السفهاء؛ وأهل الفساد؛ والعصاة من الناس؛ على ما عامل رسل الله أقوامهم؛ مع عظيم سفههم وقلة عقلهم، فذلك فائدة ذكر قسمهم في القرآن قد تكلف أولئك الكفرة الكبراء منهم في تلبيس [الآيات والحجج][٤] التي أتت بها الرسل: مرة بالقسم الذي ذكر؛ حيث أقسموا بالله جهد أيمانهم أنه لا يبعثون، ومرة بالنسبة إلى السحر، ومرة بالافتراء، ومرة بالنسبة إلى الجنون، وفي الإنباء بأنه إنما يعلمه بشر منا، يريدون بذلك التلبيس على الأتباع.

ثم البعث واجب بالعقل، والحكمة، وأخبار الرسل؛ إذ ليس خبر أصدق من أخبار الرسل وآثارهم، وهم ممن يقبلون الأخبار، فأخبار الرسل أولى بالقبول والتصديق من غيرهم؛ لأن معهم آيات صدقهم ودلالات تحقيقهم.

وأما العقل فهو أن كون[٥] هذا العالم وإنشاءه للفناء خاصة خارج عن الحكمة، إذ كل عمل لا يكون له عاقبة [حميدة][٦] عبث، وهو كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا . . .﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] أخبر أنه إذا لم يكن رجوع إليه يكون خلقه إياهم عبثًا.

---

(١) في ب: فأشهدهم.
(٢) في أ: في.
(٣) في ب: عقلهم.
(٤) في ب: الحجج والآيات.
(٥) في أ: يكون.
(٦) سقط في أ.

وأما الحكمة فهى أن الانتقام لأوليائه من الظلمة واجب لظلمهم، والإحسان لأهل الإحسان، فلو لم يكن بعث والحياة بعد الموت؛ لينتقم من الظالم لظلمه، ويجزى المحسن لإحسانه يذهب فائدة الترغيب على الطاعة والإحسان، ووعيد الظالم بالانتقام، فالبعث واجب؛ للوجوه التي ذكرنا، والتفريق بين الأولياء والأعداء؛ وقد جمعهم في هذه الدنيا، وفي الحكمة التفريق بينهما.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ .

ذكر أن مشركي العرب كانوا [لا][١] يقسمون بالله إلا فيما يعظم من الأمر، ويشتد[٢] عليهم؛ تعظيمًا له وإجلالا؛ إنما كانوا يقسمون بالأصنام والأوثان التي عبدوها، فإذا حلفوا بالله فذلك جهد أيمانهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ .

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ ردّ على قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [فقال][٣]: بلى يبعث.

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ .

يحتمل ﴿وَعْدًا﴾ : أي: وعد أنه يبعثهم، فحق عليه أن ينجز ما وعد، أو حقًّا عليه أن يعد[٤] البعث والإنجاز له، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه نفى عنهم العلم لما لم ينتفعوا بعلمهم، فهو كما نفى عنهم السمع والبصر وغيرهما من الحواس؛ لما لم ينتفعوا بها انتفاع ما لذلك كان خلقها، فنفى ذلك عنهم.

والثاني: نفى عنهم ذلك على حقيقة النفي؛ لأنهم لم ينظروا؛ ولم يتأملوا في الآيات والأسباب التي [بها][٥] جعل لهم الوصول إلى العلم، فلم يعلموا، ثم لم يعذرهم بجهلهم ذلك؛ لما جعل لهم سبيل الوصول إلى علم ذلك بالنظر والتأمل في الآيات والحجج، لكنهم شغلوا أنفسهم في غيرها، ولم ينظروا في الأسباب التي جعلها لهم سبيل الوصول إليه، فهذا يدل أن من جهل أمر الله ونهيه يكون مؤاخذًا به؛ بعد أن جعل له سبيل الوصول إليه بالدلائل والإشارات، فلا يخرج مؤاخذته إياه؛ وعقوبته بترك أمره عن الحكمة، وأما

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: ويشبه.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: بعد.
(٥) سقط في أ.

في الشاهد من أمر عبده[١] شيئًا؛ ولم يعلمه ما أمره، ثم عاقبه بذلك؛ فهو خارج عن الحكمة؛ إذ لا سبيل [إلى][٢] الوصول بما أمر به إلا بالتصريح، ولم يكن منه تصريح إعلام، لذلك كان ما ذكر؛ ألا ترى أنه أوعد لهم [الوعيد][٣] الشديد في الآخرة بقوله:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: ليعلم أتباعهم أن الرؤساء كانوا كاذبين، وإلا كان الرؤساء منهم كانوا كاذبين عند أنفسهم. أو أن يكون قال ذلك لما ادعى أولئك الكفرة أن الآخرة لهم؛ كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ . . .﴾ الآية [فصلت: ٥٠] فقال جوابًا له: ليعلم الذين كفروا منهم أنهم كانوا كاذبين؛ لادعائهم الآخرة لأنفسهم[٤].

ثم قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ .

قال بعضهم: إنما اختلفوا في البعث: منهم من صدقه، ومنهم من كذبه يقول[٥]: يبين لهم ذلك.

ويحتمل قوله: ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: في الدين والمذهب؛ لأنهم اختلفوا في الدين والمذهب، وكل من ادعى دينًا ومذهبًا؛ حتى دعى غيره إلى دينه ومذهبه يتبين لهم المحق منهم من غيره؛ والصادق منهم من الكاذب.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾ .

يحتمل كفرهم بالبعث؛ وإنكارهم إياه، أو كفروا برسول الله ﷺ أو وحدانية الله ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾ .

في إنكار ما أنكروا، يتبين لهم ذلك في الآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

يخبر عن سرعة نفاذ أمره، وسهولة الأمر عليه، أنه يكون أسرع من لحظة بصر ولمحة عين وفيه دلالة أن خلق الشيء ليس هو ذلك الشيء؛ لأنه عبر بـ(كن) عن تكوينه، ويكون عن المكون، وكذا كنى عنه بالشيء؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ فكنى عنه بوقوع القول

---

(١) في أ: وعيده.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: لنفسهم.
(٥) في أ: بقوله.

عليه، والتكوين ثبت أن التكوين غير المكون، ثم لا يخلو من أن يكون التكوين بتكوين آخر إلى ما لا نهاية له، أو لا بتكوين، وقد بينا فسادهما جميعًا، وهما وجها الحديث، ثبت أن الله تعالى به موصوف في الأزل، وبالله التوفيق.

والثاني: من فعله كسب سمي كاسبًا، ومن فعله باسم سمي به، فلو كان فعل الله كلية الخلق يسمى به، فيسمى ميتًا، متحركًا ساكنًا، خبيثًا طيبًا، صغيرًا كبيرًا، ونحو ذلك، فإذا كان يتعالى عن ذلك[1] وقد سمي فاعلا، مميتًا محييًا، محركًا مسكنًا، جامعًا مفرقًا؛ ثبت أن فعله غير مفعوله، وأنه بذاته يفعل الأشياء؛ لا بغيره، وفي ذلك لزوم الوصف له به في الأزل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ .

كان ظلمهم إياهم على وجوه:

منهم من ظلم بالإخراج من الدّيار والطرد من البلد؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ...﴾ الآية [الممتحنة: ٩] ومنهم من ظلم بالمنع عن[2] الهجرة، ومنهم ظلم بالمنع عن إظهار الإسلام؛ والعمل له، وأنواع ما أوذوا وظلموا بإظهارهم الإسلام، وإجابتهم رسول الله، واتباعهم إياه.

ثم وعد لهم في الدنيا حسنة؛ فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ : قيل: لنعطينهم، وقيل[3]: لنرزقنهم، وهو واحد.

﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ .

تحتمل الحسنة في الدنيا العزّ بعد الذل، والسعة بعد الضيق، والشدة والنصر والغلبة لهم بعد ما كانوا مقهورين مغلوبين في أيدي الأعداء، والذكر والشرف بعد الهوان، هذه الحسنة التي بوّأهم في الدنيا.

---

(١) في أ: هذا.
(٢) في أ: من.
(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير (٢١٥٩٣)، (٢١٥٩٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٢١).

والمهاجرة: المقاطعة؛ كأنه قال: والذين قاطعوا أرحامهم، وأقاربهم، وأموالهم، ومكاسبهم، وديارهم، فأبدل الله لهم مكان الأرحام والأقارب أخلاء وإخوانًا، ومكان أموالهم أموالا أخرى، وكذلك الدور وكل شيء تركوا هنالك؛ فأبدلهم مكان ذلك كله.

وأما قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ .

يشبه أن يكون ذكر هذا عن حسد كان من الكفرة للمهاجرين؛ لما أنزلهم في المدينة، وبوأهم فيها، وأعزهم، ورفع ذكرهم، وأمرهم، ونصرهم حسدهم أهل الكفر بذلك، فعند ذلك قال: ولأجر الآخرة لهم أكبر وأعظم في الآخرة، لو كانوا يعلمون ما وعد لهم في الآخرة.

ويحتمل أيضًا قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هؤلاء المهاجرون فيخفَّ عليهم احتمال ما أوذوا وظلموا، ويهون، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

قال الحسن[١]: أي: على ربهم يثقون[٢] في إنجاز ما وعد لهم في الآخرة أنه ينجز ذلك. ويحتمل قوله: ﴿صَبَرُوا۟﴾ على أمره، أو صبروا على الهجرة، وانقطاع ما ذهب عنهم، وفراق ما كان لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ .

هذا -والله أعلم- يكون على إثر أمر كان من الكفرة، نحو ما قال أهل التأويل: أنهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١]، ونحوه؛ من كلامهم، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: [إلا بشرًا، أي: لم نرسل من غير البشر، فيكون قوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ كناية عن البشر، أو أن يكون قوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي:][٣] لم يبعث من النساء رسولا إنما بعث الرسل من الرجال إلى الرجال والنساء، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

قال بعضهم: ليس على الأمر بالسؤال، ولكن لو سألتم أهل الذكر لأخبروكم أنه لم يبعث الرسول من قبل إلا من البشر.

وقال بعضهم: هو على الأمر بالسؤال؛ أي: اسألوا أهل الذكر فتقلدوهم؛ أي: إن كان

---

(١) قاله ابن جرير بنحوه (٧/ ٥٨٦)، دون أن ينسبه لأحد.
(٢) في أ: يتقون.
(٣) سقط في أ.

لا بد لكم من التقليد فاسألوا أهل الذكر فقلدوهم؛ ولا تقلدوا آباءكم ومن لا يعرف الكتاب، ولكن قلدوا أهل الذكر، [وقوله تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾][١].

قال بعضهم: فاسألوا أهل الذكر فقلدوهم؛ إن كنتم لا تعلمون بالبينات والحجج؛ لأنهم كانوا أهل تقليد، لم يكونوا أهل نظر وتفكر في الحجج والبينات.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ والحجج[٢] التي أتت بها الرسل [فيكون تأويله: أي اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون البينات والزبر التي أتت بها الرسل ليخبروكم][٣] أن الرسل إنما بعثوا من البشر بالبينات والكتب، فيكون على التقديم الذي ذكره بعض أهل التأويل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم بالبينات والزبر.

ويحتمل قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهل الشرف من أهل الكتاب؛ ليبينوا لكم البينات والزبر؛ لأنهم يأنفون الكتمان والكذب، وإن كان أهل الذكر جميع أهل الكتاب، فالسؤال عن الرسل أنهم كانوا من البشر والرجال؛ لأنهم يعلمون ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾.

قيل: أنزل إليك القرآن؛ لتبين للناس ما نزل إليهم.

يحتمل قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ من أنباء الغيب؛ وما غاب عنهم، وما لله عليهم، وما لبعضهم على بعض، ولتبين[٤] لهم جميع ما يأتون وما يتقون، وما يحل وما يحرم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك.

ويحتمل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ﴾ لهم ما حرفوا من كتبهم وبدلوه وغيروه، فيكون فيه آية لرسالتك، أو يكون الذي أنزل إليه كالمنزل إليهم، حيث ذكر أنه يبين ما أنزل[٥] إليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: الزبر.
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: وتبين.
(٥) في أ: لهم نزل.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ .

قد ذكرنا أنه حرف استفهام؛ إلا أنه من الله غير محتمل ذلك، وهو على الإيجاب[١] .

ثم هو يخرج على وجهين:

أحدهما: على الخبر أنهم قد أمنوا مكره.

والثاني: على النهي؛ أي: لا تأمنوا؛ كقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

هذا يشبه أن يكون على هذا الذي ذكرنا أنه إخبار عن أمنهم مكر الله، وعلى النهي ألا يأمنوا، ثم أخبر أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون الكافرون؛ لأنهم كذبوا الرسل فيما أوعدوا لهم من العذاب، فأمنوا لذلك، أو لما لم يعرفوا الله، ولم يعرفوا حقوقه، ونعمته، ونقمته، فأمنوا لذلك وأمّا من عرف الله؛ وعرف حقه، ونعمته، وعرف نقمته؛ فإنه لا يأمن مكره، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

قال بعضهم: مكرهم السيئات: هو ما مكروا برسول الله ﷺ وأصحابه ما لو أصابهم ذلك لساءهم، وما ظاهروا عليهم عدوهم.

وقال بعضهم[٢]: مكرهم السيئات: هو أعمالهم التي عملوها، وكل ذلك قد كان منهم، كانوا مكروا برسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا ظاهروا عليهم عدوهم، وقد عملوا أعمالهم الخبيثة السيئة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ .

أي: أمنوا حين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض، أو يأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون في الحال التي لا يكون لهم أمن ولا خوف.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ .

قيل[٣]: في أسفارهم وفي تجاراتهم؛ لأن الناس إنما يسافرون ويتجرون في البلدان في حال أمنهم.

---

(١) في ب: الإيجاب ذلك.

(٢) قاله الضحاك بنحوه، أخرجه ابن أبي حاتم عنه،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٢٣).

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٦١٤)، وعن قتادة (٢١٦١٥)، و(٢١٦١٦) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢٣).

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ .

قال بعضهم: على تقريع، وقال: على تنقيص[1] من الأموال وغيره؛ كقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقال بعضهم: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي[2]: يأخذ قرية فقرية؛ وبلدة فبلدة، حتى يأتي قريبًا منهم، ثم يأخذهم، كلما أخذ قرية كان لهم من ذلك خوف، فذلك أخذ بتخوف، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ . . .﴾ الآية [الرعد: ٣١] وعد الله حلوله قريبًا من دارهم، كان يخوفهم حتى نزل بساحتهم، فذلك أخذ بالتخوف، يخبر أن عذابه لا يؤمن حلوله

وأخذه إياهم في كل حال؛ في الحال التي ليس لهم أمن ولا خوف؛ أي: لم يغلب هذا على هذا، وفي الحال التي يكونون آمنين في تقلبهم وحوائجهم، وفي الحال التي يكونون متخوفين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

حيث لم يستأصلكم، ولم يأخذكم بما كان منكم من الافتراء على الله، والتكذيب لرسله، والمكابرة، والمعاندة لآياته وحججه وقتئذ، ولكن أمهلكم وأخر ذلك عنكم.

أو رءوف رحيم إذا تبتم ورجعتم عما كان منكم يرحمكم ويغفر لكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وقوله - عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ .

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ .

يحتمل وجهين:

أحدهما: أن قال ذلك لقوم قد تقرر عندهم وثبت أن كل شيء يسجد لله ويخضع له، فقال ذلك لهم على العتاب: إنكم قد علمتم أن كل شيء لم يركب فيه العقل، ولم يجعل فيه الفهم والسمع يخضع لله ويسبح له، فأنتم لا تخضعون له مع ما ركب فيكم العقول

(١) في ب: تنقص.
(٢) في ب: أن.

وجعل فيكم الأفهام وغيرها.

والثاني: على الأمر؛ أي: اعلموا أن كل شيء من خلق الله يسجد له ويخضع، وقد أقام عليهم[(١)] من الحجة على ذلك ما لو تأملوا وتفكروا لعلموا أن كل ذلك يخضع ويسبح، وإلا ظاهر قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أن يقولوا: لم تر أن كان الخطاب لأهل مكة على ما ذكره أهل التأويل، لكن يخرج على هذين الوجهين اللذين ذكرتهما، ويشبه أن يكون ذكر قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ . . .﴾ الآية لما استوحش أهل الإسلام مما عبد أولئك الكفرة الأصنام، وعظيم ما قالوا في الله ما قالوا، فقال لذلك: أولم يروا إلى كذا.

وقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ .

قال بعضهم: يريد بالظلال شخص ذلك الشيء، والظلال كناية عن الشخص، كما يقال: رأيت ظل فلان؛ أي: شخصه.

وقال بعضهم: أراد بالظل الظلَّ نفسه، لكن خضوعه وسجوده يكون للشمس والقمر.

وعلى تأويل من يجعل الظل كناية من الشخص يجعل كل نفس تفيء خضوعًا وسجودًا.

ثم معنى سجود: هذه الأشياء الموات وخضوعهن، من نحو قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ .

ومن نحو قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] وقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٥] وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وأمثاله.

يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يجعل الله -عز وجل- بلطفه في سرية هذه الأشياء معنى تعلم السجود لله والخضوع له، وهو كما ذكر في الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، أخبر أنها تجرى بأمره، دل أنها تعلم أمر الله.

وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

أخبر أنها تشهد وتنطق، ولو [لا][(٢)] أنها تفهم وتعلم الخطاب؛ وإلا ما خوطبت، وإن

---

(١) في أ: لهم.
(٢) سقط في أ.

كانت مواتًا فعلى ذلك تسبيحها وخضوعها جائز أن يكون الله يجعل في سرية هذه الأشياء ما تعرف السجود والتسبيح وتفهمه.

والثاني: يكون سجود هذه الأشياء وتسبيحها بالتسخير، جعلها مسخرات لذلك، وإن لم تعلم هي ذلك ولم تعرف، لكن جعلها بالخلقة كذلك.

والثالث: أنه جعل [خلقة][١] هذه الأشياء دالة وشاهدة على وحدانية الله وألوهيته، فهن مسبحات لله وساجدات وخاضعات له؛ بالخلقة التي جعلها دالة وشاهدة على وحدانية الله وألوهيته، هذا -والله أعلم- معنى سجودهن وخضوعهن، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

قيل: صاغرون ذليلون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يذكر هذا -والله اعلم- أنه يسجد له أعلى الخلائق وأعلمهم وهم الملائكة، ويسجد له أشد الخلق وأصلبه وهو الجبال والسموات والأرض، ويسجد له أيضًا ويخضع أسفه[٢] الخلق وأجهله وهو الدواب[٣] وغيرها، وأنتم أبيتم [السجود له][٤] والخضوع، واستكبرتم عن عبادته، فهؤلاء الذين ذكرهم يسجدون، يخبر عن سفه أولئك في إبائهم السجود له والخضوع، واستكبارهم عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

قال بعضهم[٥]: خوف الملائكة والرسل خوف هيبة الله وجلاله لا خوف نزول شيء من نقمته عليهم، وخوف غيرهم من البشر خوف نزول شيء يضر بهم، وكذلك رجاؤهم وطمعهم رجاء نفع يصل إليهم، ورجاء الملائكة والرسل، وطمعهم رجاء رضاء الله عنهم لا رجاء نفع يصل إليهم.

وقال بعضهم: يخافون خوف العقوبة والانتقام؛ لأنهم ممتحنون، وكل ممتحن يخاف عذاب الله ونقمته، ألا ترى أنه كيف أوعدهم الوعيد الشديد وقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي

---

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: سفه.
(٣) ينظر: اللباب (١٢/ ٧٣).
(٤) في ب: له السجود.
(٥) قاله ابن عباس أخرجه الخطيب في تاريخه ،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٢٥).

﴿إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ . . .﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] خاف عبادة غير الله، ومن خاف ذلك يخاف وعيده وعذابه، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ .

الفوق، والتحت، والأسفل، ونحوه في الأمكنة والمجلس ليس فيه فضل عز وشرف ومرتبة؛ لما يجوز أن يكون الذي كان فوق هذا في المكان والمجلس تحته وأسفل منه؛ فلا يزداد لهذا بما صار فوقه عز وشرف ومرتبة، ولا لهذا بما كان تحته ذل، وهوان؛ لأنه لا يفهم من فوقه: فوق المكان ولا تحته؛ لأن من صعد الجبال والأمكنة المرتفعة لا يوصف بالعلو والعظمة، وإذا قيل: فلان أمير على العراق أو على خراسان كان في ذلك تعظيم؛ لأنه ذكر بالقدرة والسلطان ونفاذ أمره ومشيئته وقدرته وسلطانه فيهم، أو اطلاعه على جميع ما يسرّون [ويضمرون، ويعلنون][(١)] ويظهرون، وعلمه على جميع أفعالهم على هذا يجوز أن يتناول الفوق، والله أعلم.

قوله -عز وجل-: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

وصفهم الله -عز وجل- بفضل خضوعهم له وطاعتهم إياه، وهو ما قال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] وهو ما قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ومثله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾ .

قوله - عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ .

لا نعلم الخطاب بهذا أنه [لمن كان][(٢)] الخطاب بهذا لأهل مكة؛ فهم [قد][(٣)] اتخذوا آلهة بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ . . .﴾ الآية [ص: ٥] إلا أن يخاطب به الثنوية والزنادقة، فإنهم يقولون باثنين، ويشبه أن يكون[(٤)] أهل مكة وإن اتخذوا آلهة فإنهم في

---

(١) في ب: ويعلنون ويضمرون.
(٢) في ب: لمن أن كان.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: يكونوا.

الحقيقة عباد إلهين؛ لأنهم إنما كانوا يعبدون تلك الأصنام بأمر الشيطان وطاعتهم إياه، فنسب العبادة إليه؛ لما بأمره يعبدون هذه الأصنام والله أعلم؛ ألا ترى أن إبراهيم قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤] وإن كان في الظاهر لا يعبد الشيطان، لكن لما بأمره يعبد الأصنام أضاف العبادة إليه، أو أن يكون المراد من ذكر اثنين: إنما هو على الزيادة على الواحد، كأنه قال: لا تتخذوا ولا تعبدوا أكثر من إله واحد[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

لا تخافون الأصنام التي تعبدونها؛ فإنكم إن تركتم عبادتها لا تضركم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وله يخضع ما في السموات والأرض وأنتم لا تخضعون، أو ما في السموات والأرض كلهم عبيده وإماؤه؛ فكيف أشركتم عبيده في ألوهية الله تعالى وربوبيته؟

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾.

قال بعضهم[٢]: دائمًا؛ لأن غيره من الأديان كلها يبطل ويضمحل، ويبقى دينه في الدارين جميعًا.

وقال بعضهم[٣]: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ أي: مخلصًا، من الوصب [والنصب][٤] والتعب، وتأويله -والله أعلم-: أي: وله دين لا يوصل إليه إلا بتعب وجهد؛ فاجتهدوا واتعبوا؛ لتخلصوا له الدين؛ هذا معنى قوله: (مخلصا).

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

أي: أمخالفة غير الله تتقون؛ أي: لا تخافوا ولكن اتقوا مخالفة [الله لا تتقوا مخالفة][٥] غيره.

أو يقول: لا تخافوا غير الله ولا تتقوا سواه، ولكن اتقوا الله واتقوا نقمته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾.

أي: تتضرعون؛ يخبر عن سفههم وقلة عقلهم أنهم يعلمون أن[٦] له ما في السموات والأرض، وأن كل ذلك ملكه، وأن ما لهم من النعمة منه، وأن ما يحل بهم من البلاء

---

(١) ينظر: اللباب (١٢/ ٧٧، ٧٨).

(٢) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٢١٦٤٢)، وعن عكرمة (٢١٦٤٣)، و(٢١٦٤٤)، ومجاهد (٢١٦٤٥)، و (٢١٦٤٦)، وغيرهم وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢٥).

(٣) قاله مجاهد بنحو أخرجه ابن جرير عنه (٢١٦٥٣) و (٢١٦٥٤).

(٤) سقط في أ.

(٥) سقط في أ.

(٦) في أ: أنه.

والشدة هو الكاشف لهم والدافع عنهم، ثم يكفرونه ويصرفون[١] شكرها منه إلى غيره في حال الرخاء والسعة، ويؤمنون به في حال الشدة والبلاء؛ فيقول: أنا المنعم عليكم تلك النعم، وأنا المالك للكشف[٢] عنكم لا الأصنام التي عبدتموها، فكيف كفرتم بي في وقت الرخاء والسّعة وآمنتم بي في وقت الضيق والبلاء؟! كانوا يخلصون له الدين في وقت ويشركون غيره في وقت، فيقول: أديموا لي الدين بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ ولا تتركوا الإيمان بي في وقت وتؤمنوا بي في وقت، وكذلك كان عادتهم: كانوا يكفرون بربهم في حال الرخاء والسعة، ويؤمنون به في حال البلاء والشدة؛ كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ . . .﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

ويحتمل أن يكون فرض الجهاد على المسلمين والقتال معهم لهذا المعنى؛ لأن من عادتهم الإيمان في وقت البلاء والشدة والخوف، ففرض عليهم القتال معهم؛ ليضطروا إلى الإيمان فيؤمنوا ويديموا الإيمان، ومنذ فرض القتال معهم كثر أهل الإسلام فدخلوا فيه فوجًا فوجًا، وكان قبل ذلك يُدخَل فيه واحدًا واحدًا.

وفيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ [حيث][٣] قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ فإنما أخبر عما عرفوا وتقرر عندهم أن كل ذلك من عند الله؛ ليعلموا أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ .

هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يجعلوا ما آتاهم الله وأنعم عليهم سبب كفرهم بالله.

والثاني: يكفرون بنعم الله -تعالى- بعبادتهم الأصنام، وصرفهم الشكر عنه.

ويشبه أن يكون إخباره عن سفههم من وجه آخر؛ وهو أنهم لم يروا في البشر أحدًا يطاع ويخضع إلا أحد رجلين: دافع بلاء عنه، أو جارّ نفع إليه، فالأصنام التي عبدوها ليس منها دفع بلاء ولا جرّ منفعة، فلماذا يعبدونها؟

وقال أبو بكر: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾: [أي][٤] بالقرآن.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

هذا وعيد من الله لهم، يقول: فسوف تعلمون ما ينزل بكم من كفران نعمة وصرف

---

(١) في أ: ويعرفونه.
(٢) في أ: عن الكشف.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.

الشكر عنه أنه مهلكهم ومنزل بهم[١] عذابه.

وفي قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

أي: تتضرعون، موعظة للمؤمنين أيضًا؛ لأنهم يجعلون يتضرعون إلى الله إذا أصابهم الضر والبلاء، وإذا انكشف ذلك عنهم تركوا ذلك التضرع ونسوا ربهم؛ فيعظهم لئلا يصنعوا مثل صنيع أولئك، يقول والله أعلم؛ أي: تعلمون أن ما بكم من نعمة فمن الله؛ فكيف تصرفون شكرها إلى غيره في حال؟!.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي: يقولون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

[قال بعضهم[٢]: يجعلون للأصنام والأوثان التي يعبدونها نصيبًا مما رزقناهم][٣] من الأنعام والحرث وغيره الذي جعل الله لهم.

ولا يعلمون لهم نصيبًا في ذلك؛ وهو كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] حرموا على أنفسهم ما جعل الله لهم وجعلوه لآلهتهم.

ويحتمل قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ وهو الشيطان؛ أي: ما يجعلون للأوثان، فذلك للشيطان في الحقيقة، لأنه هو الذي أمرهم بذلك، وهو الذي دعاهم إلى ذلك، وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحد يقصد قصد عبادة الشيطان، لكنهم إذا عبدوا الأوثان فكأن[٤] قد عبدوا الشيطان؛ لأنه هو أمرهم بذلك، وهو دعاهم إلى ذلك، فعلى ذلك ما يجعلون للأوثان ذلك للشيطان لما ذكرنا، لكن لا يعلمون أن ذلك له نصيب.

ويحتمل قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ أي: يعلمون أن ليس لها نصيب في ذلك، ولكن يجعلون ذلك لها على علم منهم أن لا نصيب للأوثان في ذلك، وهو كقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي: أتنبئون الله بما يعلم أنه ليس ونحوه، أي: يعلم غير الذي تنبئون، وقد ذكرنا قوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ على القول، أي: يقولون: وإلا لا يملكون جعل ذلك.

وقوله - عز وجل-: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) في ب: به.
(٢) قاله مجاهد وقتادة ،أخرجه ابن جرير عنهما (٢١٦٥٨) و (٢١٦٥٩)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢٦).
(٣) سقط في أ.
(٤) في أ: كان.

يحتمل قوله: ﴿تَفۡتَرُونَ﴾: تسميتهم الأصنام آلهة، ويحتمل افتراؤهم على الله ما قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ٢٨] زعموا [أن ما][١] فعل آباؤهم [وفعلوا هم][٢] كان بأمر من الله ورضاه؛ حيث تركهم على ذلك، فذلك افتراؤهم.

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾.

يحتمل السؤال الجزاء؛ أي: تالله لتجزون عما كنتم تفترون، ويحتمل السؤال سؤال حجة، يسألون على ما ادعوا على الله من الأمر الحجة على ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾.

أي: يقولون: لله البنات، يخبر عن شدة سفههم؛ حيث يأنفون ويستحيون عن البنات، ثم ينسبون ذلك إلى الله ويضيفونها إليه، يصبر رسوله على أذى الكفرة؛ حيث قالوا فيه ما قالوا: إنه ساحر، وإنه مفتر، ونحوه، على علم منهم ويقين أنه ربهم وخالقهم، فمن أنكر رسالته أولى بالصبر على قوله والحلم منه.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

كلمة تنزيه عمّا قالوا فيه، وحرف تعجيب؛ حيث نسبوا إلى الله ما كرهوا[٣] لأنفسهم [﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾: يجعلون لأنفسهم البنين ويجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم][٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

---

(١) في أ: أنه.
(٢) في أ: وفعلهم.
(٣) في أ: يكرهون.
(٤) سقط في أ.

قال بعضهم: قول العرب: قبح الله وجهك، وسوّد الله وجهك ليس على إرادة [السواد والقبح][(١)]، ولكن على إرادة ما يكرهه.

وقال الحسن[(٢)]: قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيرًا من الغم وهو كظيم: أي: حزين، وهكذا العرف في الناس أنه إذا اشتد بهم الحزن والغم، يظهر ذلك في وجوههم قبحًا وسوادًا[(٣)].

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ .

يذكر فيه كيف يصنع به: أيمسكه على هون أي: على هوان يضر به ويسيء صحبته أم يدسّه في التراب وهو حي؛ فيقول: إن ربي اختار البنات فأبعث بها إلى ربي، فإنه أحق بها، وهي الموءودة التي قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] وإنما كانوا يصنعون ذلك خشية إملاق؛ كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في جعلهم لله ما كرهوا لأنفسهم، أو في قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، أو في قولهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] ونحوه، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ .

قال بعضهم: قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: لهم جزاء السوء؛ وهو النار.

وقال الحسن: مثل السوء: أي: صفة السوء التي وصفوا بها ربهم أنه اختار البنات.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

أي: الصفة الأعلى التي ليس لها شبه؛ فإن تلك الصفة من صفته، ويشبه أن يكون قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ بما سماهم مرة موتى، ومرة فسقة، ومرة ظلمة، ومرة هم في الظلمات، وأمثاله، لهم ذلك الوصف بما أنكروا الآخرة، وذلك مما توجبه[(٤)] الحكمة والعقل والشريعة، فلهم ذلك الوصف والمثل السوء؛ بما أنكروا ما توجبه الحكمة والعقل والشريعة.

ويحتمل ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: شبه السوء.

ويحتمل ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: النعت والصفة، فإن كان هو على الشبه فهو في الدنيا؛ لما

---

(١) في ب: القبح والسواد.
(٢) قاله البغوي (٣/ ٧٣)، دون أن ينسبه لأحد.
(٣) ينظر: اللباب (١٢/ ٨٩، ٩٠).
(٤) في أ: يوجب.

شبههم في غير [آي من القرآن][(١)] بالشجرة الخبيثة والكلمة الخبيثة، وبالرماد وبالزبد والتراب، ونحوه.

وإن كان على النعت والصفة فهو في الآخرة، وهو ما ذكر: الذي يحشرون على وجوههم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. أي: لأولياء الله المثل الأعلى، وهم المؤمنون، لا أن الله وصف المؤمنين بالحياة، والنور، والعدل، وغير ذلك من الأسماء الحسنة، وذلك لله في الحقيقة، لكنه بفضله ومنه وصفهم وسماهم بذلك، فأضيف إلى الله؛ لما بفضله[(٢)] استوجبوا لا باستحقاق أنفسهم. وكذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أضيف ذلك إليه؛ لما بفضله يستوجبون تلك الأسماء التي سماهم. ويحتمل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ : أي: لأولياء الله المثل الأعلى، كأنه قال: وللذين يؤمنون بالآخرة مثل الأعلى، مقابل ما ذكر؛ حيث قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الحسن: العزيز بالغلبة منه في الأشياء كلها على ما أمره، وكل شيء دونه ذليل، الحكيم بالعدل منه في كل قضاء قضى وقد ذكرناه في غير موضع.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في هذا الموضع كأنه قال: وهو العزيز بنفسه لا بخلقه وأوليائه؛ كما يكون لملوك الأرض؛ يكون [عزهم بخدمهم وحشمهم][(٣)]، فإذا ذهبوا أو عصوه [يصير][(٤)] مقهورًا مغلوبًا، فأمّا الله -سبحانه وتعالى- فهو عزيز بذاته.

والحكيم: أي: إنشاؤه العصاة منهم على علم منه بذلك، لم يخرج ذلك على غير الحكمة، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ .

دل قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أنَّ له أن يستأصلهم ويهلكهم بما كان منهم؛ لكنه - بفضله - تركهم إلى المدة التي ضرب لهم؛ لأنه لو لم يكن له ذلك لم يكن للوعيد الذي[(٥)] أوعد معنى.

وقال أبو زيد البلخي: إن الله بما أوعد من الوعيد ليس يوعد لمضرة نفسه ولا لنفع

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: يفضله.
(٣) في ب: خدمهم بعزهم وحشمهم.
(٤) سقط في ب.
(٥) في أ: التي.

يصل إليه[١]، ولكن يوعد بما توجبه الحكمة، فدل أن الوعيد لازم واجب.

ونحن نقول: يوعد بما توجبه الحكمة، وقد أمهلهم بعد الوعيد، فعلى ذلك يجوز أن يخرجهم من النار بعد ما أدخلهم النار؛ بما ارتكبوا من الكبائر.

ثم في قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم...﴾ الآية - دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: ليس لله أن يهلك قومًا قد علم منهم الإيمان في وقت، أو يكون في أصلابهم من يؤمن؛ إذ قد كان ممن أوعد ذلك الوعيد من بعضهم الإيمان أو في أصلابهم من قد كان آمن، فدل الوعيد لهم أنه قد يهلك من يعلم أنه يؤمن في آخر عمره؛ إذ لا يوعد إلا بما له أن يفعل لكنه بفضله أخره إلى وقت [وفيه][٢] دلالة أن له أن يفعل بما ليس ذلك بأصلح لهم في الدين.

ثم اختلف في قوله: ﴿بِظُلْمِهِم﴾: قال بعضهم: هذا للكفرة خاصة.

وقال بعضهم: لهم وللمؤمنين كل مرتكب زلة؛ إذ ما من أحد ارتكب زلّة إلا وقد استوجب العقوبة بذلك والمؤاخذة به، لكنه بفضله عفا.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ .

قال بعضهم: أراد بالدابة: الدابة التي خلقها لهم، إذا أهلك الناس فقد أهلك الدواب؛ إذ خلقه إياها لهم.

وقال بعضهم: [قوله][٣]: ما ترك [عليها من دابة][٤]: أي: على ظهر الأرض من دابة؛ لأن الدواب إنما تتعيش بالذي [يتعيش][٥] الناس؛ فإذا هلكوا هم هلكت الدواب أيضًا؛ لما ذهب سبب عيشها. وجائز أن يكون أراد بالدابة البشر؛ أي: ما تركهم بظلمهم ولكن يهلكهم، وسماهم دابة لأنه إذا ذكرهم في موضع الظلم وإن كان سماهم في غير موضع بالأسماء الحسنة، وهو كما سماهم في موضع آخر دابة؛ حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ولا شك أن البشر دخلوا في هذه التسمية، فعلى ذلك جائز دخولهم في الأخرى، وإن كان المراد مما[٦] ذكر من الدابة البشر فالأنبياء والرسل إنما يكون هلاكهم بقطع نسلهم؛ لأن الأنبياء أكثرهم ولدوا من الآباء الظلمة؛ فإذا أهلك

---

(١) في أ: عليه.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في ب: على ظهرها.
(٥) في أ: إنما تعيش بالذي يعيش.
(٦) في ب: ما.

آباؤهم لم يولد الرسل والأنبياء، فيكون هلاكهم لا بظلم هؤلاء ولكن بقطع النسل.

وإن كان المراد بتلك الدابة الدواب أنفسها فلأن الدواب إنما أنشئت للبشر ولمنافعهم، فإذا أهلكت الدواب أهلك[١] المنشأ لهم، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ دلالة [نقض][٢] قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: يجعل الله للخلق آجالا، ثم يجيء كافر فيقتله دون بلوغ الأجل الذي جعله الله؛ حيث أخبر أنهم لا يستأخرون [ساعة][٣] -بعد الأجل المضروب لهم- ولا يستقدمون قبل ذلك، وهم يقولون: بل يستقدمه كافر فيقتله، فذلك سرف في القول.

وهذا يخرج على وجهين:

أحدهما: لا يتأخر الأجل الذي جعل لهم ساعة ولا يتقدم عن ذلك.

والثاني: لا يجاب في التأخير ولا في التقديم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

كانوا يجعلون لله أشياء يكرهون ذلك لأنفسهم من نحو البنات، يقولون: لله البنات؛ ويكرهون لأنفسهم البنات، ويجعلون له الشركاء من عبيده؛ وهم كانوا يكرهون لأنفسهم الشركاء من عبيدهم، وأمثاله؛ كقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾ الآية [الروم: ٢٨] يخبر - عز وجل - عن سفههم وسرفهم في القول، ويخبر عن حلمه؛ حيث لم يستأصلهم ولم يهلكهم مما قالوا في الله من عظيم القول من الولد والشريك؛ لنعلم أنه لم يمهلهم لغفلة ولا سهو ولكن لحلم[٤]؛ لأن يحلم الخلق في ذات الله ولا يعجلوا بالعقوبة؛ إذ لو أراد إهلاكهم[٥] لأهلكهم ساعة قالوا ذلك؛ ولا يمهلهم[٦] يعيشون، لكن أخر ذلك ليوم، وهو ما قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا ...﴾ [إبراهيم: ٤٢] الآية.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي: يجعلون لأولياء الله مما يكرهون لأنفسهم؛ لأنهم يقولون: إن لهم الحسنى في الآخرة؛ وهي الجنة، وإن للمؤمنين النار؛ بقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ .

---

(١) في ب: أهلكت.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: بحلم.
(٥) في ب: هلاكهم.
(٦) في ب: يهملون.

قال أبو بكر الأصم: يقولون: إنا على دين الله وعلى الحق لعبادتنا، ويقولون: إن لهم الحسنى يعنون أنهم محسنون في أعمالهم، وبما هم عليه من دين.

وقال بعضهم[١]: قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ يعنون البنين، لأنهم كانوا يضيفون البنات إلى الله وينسبون البنين إلى أنفسهم، فذلك الحسنى الذي ذكروا.

وقال بعضهم[٢]: بأن لهم الحسنى: أي: الجنة؛ كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ . . .﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

ثم كذبهم في قولهم فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ ليس لهم الحسنى على ما زعموا؛ ولكن النار، وقد ذكرنا قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ فيما تقدم، كان أهل الكفر فرقًا، منهم من ادعى الاشتراك في نعيم الآخرة كما كان لهم اشتراك في نعيم الدنيا؛ كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] ومنهم من ادعى الآخرة لأنفسهم كما كانت لهم الدنيا، فجائز أن يكون قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ هم الذين ادعوا الحسنى - وهي الجنة - لأنفسهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ .

هو من الفرط؛ وهو: السبق والتقدم، كأن الآية في الرؤساء [منهم][٣]، أخبر أنهم سابقون أتباعهم إلى النار، وهو كقوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] الأولى هم المتبوعون، وأخراهم الأتباع.

وقال بعضهم: معجلون إليها بين يدي أتباعهم.

وقال بعضهم[٤]: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي: متروكون، منسيون في النار.

وقال بعضهم[٥]: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مبعدون عن رحمة الله لكن هذين ليسا بتأويل ألبتة[٦]، إذ كل من في النار [فهو][٧] منسي، متروك فيها، مبعد عن رحمة الله[٨].

وقال بعضهم: وأنهم مدخلون فيها.

والوجه فيه ما ذكرنا.

---

(١) قاله مجاهد أخرجه ابن جرير، عنه (٢١٦٧٣) و (٢١٦٧٤)، وعن قتادة (٢١٦٧٥) و(٢١٦٧٦).

(٢) ذكره البغوي (٣/ ٧٤) ونسبه ليمان.

(٣) سقط في أ.

(٤) قاله سعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٦٧٨)، و(٢١٦٨٣)، وعن مجاهد (٢١٦٨٤)، و(٢١٦٨٥)، والضحاك (٢١٦٨٦)، وغيرهم ،وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢٨).

(٥) قاله سعيد بن جبير أخرجه ابن جرير عنه (٢١٦٩٢).

(٦) في ب: الآية.

(٧) سقط في ب.

(٨) ثبت في حاشية ب: هذا التقليل لا يدفع كونهما ليسا بتأويل الآية، فتأمل .كاتبه.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

هذا لا يحتمل أن يكون هذا القسم منه ابتداء؛ [و][1] لكن كأنه عن إنكار كان منهم للرسالة، فعند ذلك أقسم بقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأكد بما أنكروا الرسالة بالقسم الذي ذكر، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد.

قوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك[2] إلى أمتك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كما زين لأمتك فهو كان وليهم يومئذ كما هو ولى لأمتك اليوم، يصبره.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول ليس هؤلاء بأول من زيّن لهم الشيطان أعمالهم، ولكن كان في الأمم الماضية من زين لهم الشيطان أعمالهم فيكذبون رسلهم، فلست أنت بأول مكذَّب، بل كان لك شركاء في التكذيب ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [قال بعضهم: هو وليهم اليوم][3] في الدنيا؛ لأن الدنيا هي دار الولاية بينهم، كقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩] وقوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأمّا في الآخرة فيصيرون أعداء، كقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ...﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]، [وقوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧] ونحوه، ولا يحتمل أن يكونوا أولياء في الآخرة ثم يلعن بعضهم بعضا][4] ويتبرأ بعضهم من بعض، فذلك علامة العداوة.

وقال بعضهم: قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الآخرة، أي: أولى بهم فيقرن بهم، كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] فهو وليهم: أي: صاحبهم، كقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟...﴾ الآية، وكقوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧] وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

قال بعضهم: قوله: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: الكتب التي كانت من قبلهم؛ لأنهم اختلفوا في كتبهم، فمنهم من بدّل، ومنهم من غير وحرّف، فيقول -والله أعلم-: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في كتبهم؛ لأن هذا الكتاب أنزله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، يبين هذا الكتاب ما اختلفوا في كتابهم، الحق من الباطل.

---

(١) سقط في ب.
(٢) في ب: أرسلنا.
(٣) سقط في أ.
(٤) ما بين المعقوفين سقط في ب.

وقال بعضهم: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في الرسل والأديان وفي الكتاب المنزل عليه، اختلفوا عنه في ذلك كله، يبين لهم الحق من الباطل في جميع ما اختلفوا فيه بالكتاب الذي أنزله عليك؛ إذ فيه أنباء الأمم الماضية، وهو لم يشهدها، ولم يختلف إلى من يخبره عنها ثم أنبأهم[١] على ما كانت، فدل أنه إنما عرف [ذلك][٢] بالله، ومنه نزل ذلك، وفيه دلالة أن الحوادث التي علم الله أنهم يبتلون بها إلى يوم القيامة أنه جعل لهم سبيل الوصول إلى بيانها في الكتاب، إمّا بيان كناية وإما بيان تصريح، حيث قال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ . . .﴾ الآية، حيث لم يدعهم في الاختلاف على غير بيان، فعلى ذلك علم أنهم يبتلون بالحوادث التي ليس لها نصوص[٣] في الكتاب لا يحتمل ألا يبين لهم ذلك ويدعهم حيارى، لكن البيان على وجهين:

بيان تصريح يعقل بديهة العقل.

وبيان كناية يدرك بالنظر والتأمّل والاستدلال.

وأصله في قوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: إلا لتبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه؛ لأنهم اختلفوا في المحق في ذلك؛ لأن كل فريق منهم ادّعى أنه هو المحق، وأن الذي هو عليه الحق، وأن غيره على باطل، فأخبر أنه أنزل الكتاب عليه ليبين لهم الحق فيما[٤] اختلفوا فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جعل الله تعالى رسوله وكتابه هدى ورحمة للمؤمنين؛ لأنهم آمنوا بهما، وصدقوهما، وقبلوهما، فصار ذلك [لهم][٥] هدى ورحمة ونورًا، وأمّا من كذبهما ولم يقبلهما فهو عذاب عليهم وعمى، وهو كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ . . .﴾ الآية [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وهو ما ذكر ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ .

وقوله - عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يذكر -عز وجل-

---

(١) في أ: منهما.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: منصوص.
(٤) في ب: الذي.
(٥) سقط في أ.

قدرته وسلطانه، حيث أخبر أنه ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض وهي ميتة، ويخرج منها نباتًا وزروعًا وأشجارًا، فمن قدر على هذا لقادر على إحياء الأنفس[١] بعد موتها لأنه[٢] لا فرق بين الإحياءين [إحياء الأرض وإحياء الأنفس][٣]، إذ من[٤] قدر على أحدهما قدر على الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر[٥] ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ قال بعضهم: لآية لقوم يسمعون المواعظ.

وقال بعضهم: لآية لقوم يسمعون الآيات والحجج، وأما من لم يسمع فلا يكون له آية، وأصله: إن في ذلك لآية لقوم ينتفعون بسماعهم، ولآية لقوم يعقلون، أي: ينتفعون بعقولهم، وأصله أن هذا كله يصير آية للمؤمنين على ما ذكر كله؛ لأنهم هم العاقلون عن الله ما أمرهم به ونهاهم عنه، وهم يسمعون آياته ومواعظه، وكله كناية عن المؤمنين، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ والعبرة الآية، أي: أنشأ لكم أنعامًا فيه الآية، هو صلة قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أنزل من السماء ماء، وأنشأ الأنعام لكم فيه الآية أنشأ -عز وجل- في الأنعام لبنًا غذاء الأولاد، في الوقت الذي لا يحتمل الغذاء بالعلف، وجعل لأربابها الانتفاع بذلك اللبن وفي الأشياء التي لا يؤكل لحمها لم يجعل لأربابها الانتفاع بما يفضل من اللبن، ولم يجعل لها فضل لبن.

وقوله - عز وجل-: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ذكر بالتذكير، فظاهره أن يذكر بالتأنيث؛ لأنه إما أن يريد به الأمهات التي يدر منها اللبن أو جماعة من الذكران[٦] منها، فكيفما كان فهو يذكر بالتأنيث، لكن بعضهم يقول: ذكر باسم التذكير على إرادة الأصل الذي به كان اللبن، وهو الفحل، وهذا يدل لأبي[٧] حنيفة وأصحابه -رحمهم الله- لقولهم في لبن الفحل أنه يحرم.

وقال بعضهم: ذكر باسم التذكير على إرادة الجنس والجوهر من بين الأجناس

(١) في أ: الأرض.
(٢) في ب: إذ.
(٣) سقط في ب.
(٤) في أ: فمن.
(٥) في ب: ذكرنا.
(٦) في أ: المذكر أن.
(٧) في أ: إلى أبي.

والجواهر دون العدد والجماعة.

وقوله - عز وجل-: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني[(١)] استخراج اللبن من بين فرث ودم[(٢)]، وذلك أن العلف إذا وقع في الكرش [طبخه الكرش][(٣)] فيجعل الفرث أسفله والدم أعلاه واللبن بين ذلك، ثم يسلط الكبد عليهم فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويُبقي الفرث في الكرش كما هو.

وقال بعض الفلاسفة: إن العلف إذا وقع فيه يصير منه فرثًا، ثم يصير منه دمًا، ثم يصير لبنًا خالصًا، فهو كالنطفة التي وقعت في الرحم، تصير علقة، ثم تصير مضغة مأكولة، فعلى ذلك اللبن [الذي][(٤)] ذكر والله اعلم.

ويحتمل ما قاله بعض الفلاسفة أن العلف يصير فرثًا، ثم دمًا، ثم لبنًا.

ويحتمل أن يكون مجرى اللبن بين ما ذكر من الفرث والدم، فأى الوجهين كان، كان فيه اللطف الذي ذكرنا[(٥)]. ووجه ذكر هذا -والله أعلم- على الامتنان وكذلك ما ذكر من الثمرات والأعناب أنه بلطفه أخرج اللبن الصافي أصفى الأشياء وألطفها من بين أخبث الأشياء وأكدرها في رأي العين، فمن قدر على حفظ هذا مما ذكر بلا حجاب يدرك أو حاجز يعرف لقادر على إنشاء الأشياء من لا شيء لأن الخلائق لو اجتمعوا على أن يدركوا السبب الذي به كان حفظ هذا من هذا وامتناعه عن الخلط بالخبيث ما أدركوا ذلك، وكذلك ما يخرج من النخيل والكروم الثمرات الطيبة والأعناب الحلوة من غير أن يرى أثر ذلك فيها، ومن غير أن يدركوا السبب الذي كان به الأعناب والثمرات، دل أنه قادر على إنشاء الأشياء من لا شيء إذ هي خشبة يابسة، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾.

قال بعضهم[(٦)]: السكر ما يحرم منه، والرزق الحسن: ما [يحل من ثمرها. وقال بعضهم[(٧)]: السكر: ما يتخذ من الشراب، والرزق الحسن: ما][(٨)] يؤكل تمرًا وزبيبًا،

---

(١) في ب: معنى.
(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم،كما في الدر المنثور (٤/٢٢٨).
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في أ.
(٥) ينظر: اللباب (١٢/١٠٣، ١٠٤).
(٦) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير (٢١٦٩٤) و (٢١٧٠٥)، وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وأبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والحاكم وصححه عنه كما، في الدر المنثور (٤/٢٢٨)، وهو قول سعيد بن جبير وإبراهيم والشعبي وغيرهم.
(٧) قاله الشعبي أخرجه ابن جرير عنه (٢١٧٣٥) و (٢١٧٣٦)، وعن مجاهد (٢١٧٣٧) و (٢١٧٣٨).
(٨) سقط في أ.

ونحوه.

وقال بعضهم[(١)]: السكر خمر الأعاجم، والرزق الحسن ما ينبذون ويخللون ويأكلون.

وروي في بعض الأخبار أنه حرم السكر[(٢)]، ولم يفسر الآية.

وفي بعض الأخبار أنه بعث معاذًا إلى اليمن، وأمره أن ينهاهم عن نبيذ السكر.

وعن عبد الله [قال][(٣)]: إن أولادكم ولدوا على الفطرة فلا تسقوهم السكر، فإن الله تعالى لم يجعل في حرام شفاء[(٤)].

وليس بين[(٥)] فقهاء الأمصار في تحريم السكر وفضيخ البسر ونقيع الزبيب إذا أسكر كثيرها ولم يطبخ - اختلاف أنها حرام، وقد ذكرنا هذا في سورة البقرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ لما ذكر ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: يعقلون.

وقال القتبي[(٦)]: الفرث ما في الكرش؛ لأن اللبن كان طعامًا، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من الدم لبنًا سائغًا أي: سهلا في الشرب، لا[(٧)] يشجى به شاربه ولا يغص.

وكذلك قال أبو عوسجة: أسغته: أي: أدخلته في حلقي سهلا[(٨)].

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: تتخذون منه ما يحرم أكله، ورزقًا حسنًا: ما يحل منه، [وهو][(٩)] كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ...﴾ الآية

---

(١) قاله قتادة أخرجه ابن جرير (٢١٧٢٣)، (٢١٧٢٥)، وعبد الرزاق وابن الأنباري في المصاحف والنحاس عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٢٩).

(٢) في الباب عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر ،وكل مسكر حرام».
أخرجه مسلم (٣/ ١٥٨٧)، كتاب الأشربة باب :بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٧٤/ ٢٠٠٣).

(٣) سقط في أ.

(٤) علق طرفه الأخير البخاري في صحيحه (١١/ ٢٠٨)، في كتاب الأشربة: باب شراب الحلواء والعسل ،وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢١٠) :
وروينا في «نسخة داود بن نصير الطائي» بسند صحيح عن مسروق قال: قال عبد الله هو ابن مسعود.... فذكره بتمامه.
والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٨)، والبيهقي (١٠/ ٥)، من طريق آخر عنه موصولاً.

(٥) في ب: من.

(٦) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٥).

(٧) في أ: لما.

(٨) في أ: حملا.

(٩) سقط في أ.

[يونس:٥٩]، أو يخرج على تذكير النعم في الوقت الذي كان السكر حلالا، أي: تتخذون منه سكرا ما تشربون، ورزقًا حسنًا سوى الشراب.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ إلى آخر ما ذكر.

قال بعضهم[١]: ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ أي: قذف في قلوبها أن افعلي ما ذكر، والوحي هو القذف؛ سمي بذلك لسرعة وقوعه، ونفاذه في القلوب من غير أن يشعر الملقى فيه والمقذوف في قلبه أن أحدًا فعل ذلك أو ألقاه فيه، وهو ما مكن الله للشيطان من الوسوسة في القلوب من غير أن يعلم الموسوس إليه والمقذوف في قلبه أن أحدًا دعاه إلى ذلك أو زين له ذلك، وكذلك ما يلهم الملائكة بني آدم من أشياء من غير أن يعلموا أن أحدًا دعا إلى ذلك أو زين ذلك له، أو ألقاه في قلوبهم فهذا كله يرد على من ينكر الشيطان والملائكة، وهم طائفة من الملحدة يقولون: إن الشهوات والأماني التي جعلت في أنفسهم هي التي تبعثهم وتهيجهم على ذلك لا الشيطان.

فيقال لهم: إن الإنسان قد يناله أشياء من غير أن كان منه تفكر في ذلك، أو أماني أو سابق تدبير، فذلك يدل أن غيرًا ألقى ذلك في قلبه وقذف، لا عمل الأماني والشهوات، وهذا أيضًا يدل على لطف الله في البشر أنه يوفقهم على الطاعات ويحثهم عليها من غير أن علموا أن لغير في ذلك صنعًا، وكذلك الخذلان في المعاصي وأنواع الأجرام[٢] التي يكتسبونها.

ثم يحتمل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: النحل وغيرها من البهائم - وجهين:

أحدهما: يحتمل أنه أنشأ هذه البهائم على طبائع تعرف بالطبع مصالحها، ومهالكها، ومعاشها، وما به قوام أبدانها وأنفسها، وما به فسادها وصلاحها من غير أن يعلم أن أحدًا يدعوهم إلى ذلك، أو يشير إليها، أو يأمر وينهى، ولكنه بالطبع يعرف ذلك ويعلم من نحو أشياء يعلمهن[٣] أشياء بالطباع من غير أن يعلم أن أحدًا علمهن ذلك من نحو الوزّ يسبح

---

(١) قاله معمر عن أصحابه أخرجه ابن جرير عنه (٢١٧٤١) و (٢١٧٤٢).

(٢) في أ: الإحرام.

(٣) في ب: يعلمن.

في الماء بالطبع من غير أن يعلم أنها تسبح[(١)]، وكذلك الطير الذي يطير في الهواء من غير أن يعلم بالطيران، فعلى ذلك يحتمل فهم هذه البهائم وعرفانها ما ذكرنا من المصالح والمهالك من غير أن يعلم أنها تعرف ذلك، والله أعلم.

والثاني: يحتمل أن يكون الله -عز وجل- جعل خلقة هذه الأشياء بالذى يقفون على المخاطبات والأمر والنهي، ويعرفون ذلك ما لا يعرف مثله البشر ألا ترى أن البشر لا يعرفون[(٢)] المهالك والمصالح إلا بالتعلم، والبهائم وإن صغر ذلك تعرف حتى تتوقى المهالك وترغب في المصالح، ومما يدل أن هذه الأشياء مما يفهم الأمر والنهي والمخاطبات قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] ألا ترى أنهم فهموا الخطاب حيث ردوا عليهم الجواب بقوله: ﴿أَنطَقَنَا﴾ فذلك ما ذكرنا، والله أعلم.

فذلك الوحي والقذف لكل البهائم لا للنحل خاصّة لما ذكرنا من معرفتها المهالك والمصالح، وما به معاشها وغذاؤها مما به فسادها وهلاكها حتى عرفت[(٣)] ذلك من غير أن تعلم، والبشر لا يعرفون إلا بالتعلم، فهو -والله أعلم- لوجهين:

أحدهما: للمحنة أن البشر امتحنوا بالتعليم، فذلك من الله امتحان لهم، والبهائم لا محنة عليهم، [فعرفوا ذلك][(٤)] على غير تعلم، أو كان ذلك للبشر بالتعلم؛ لفضل بعض على بعض في العلم بالتعليم؛ إذ البهائم يستوى صغيرها وكبيرها في معرفة ذلك، وفي بنى آدم [تتفاضل وتتفاوت][(٥)] بالتعلم، والله أعلم.

فإن قيل: فإذا كانت[(٦)] البهائم كلها مشتركة في ذلك الإلهام والوحي فما معنى تخصيص النحل بالذكر من غيرها من البهائم؟

قيل: يحتمل تخصيص النحل بالذكر - والله أعلم - لما أن هذه الأشياء غير النحل لا تعطي تلك المنافع التي جعلت فيها، ولا تبذل للبشر إلا بالرياضة [والتعلم][(٧)]، والنحل تعطي ذلك لهم وتبذل من غير تعلم ولا رياضة، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقوله: ﴿فَٱسْلُكِى

(١) في أ: سباحة.
(٢) في ب: يعرف.
(٣) في أ: يعرفن.
(٤) في ب: فذلك عرفوا.
(٥) في أ: يتفاضل ويتفاوت.
(٦) في أ: كان.
(٧) سقط في أ.

سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ ونحوه، ظاهره أمر، لكن حقيقته تمكين وتسهيل، نحو قوله: سيروا في كذا، هو في الظاهر أمر، وفي الحقيقة تمكين وتيسير.

ثم في هذه الآية، وفي قوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ وفيما سبق من الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ دلالة قدرته على إنشاء الأشياء من لا شيء، ودلالة علمه وتدبيره؛ لأنه أخرج من هذه الجواهر المختلفة أشياء من غير جوهرها [وجنسها][١] ما لم يكن شيء مما أكل منها هذه البهائم من الجواهر التي أخرج منها، من نحو العسل الذي أخرج من الفواكه التي أكلت، واللبن من العلف الذي أكل، والعصير والسكر والأعناب من الكروم؛ إذ ليس شيء خرج منها من جنس ما أكل، ولا من جوهر ما سقى، دل أنه كان فعل عليم قادر على إنشاء الأشياء من لا شيء ولا سبب، وفيه دلالة علمه وتدبيره وحكمته؛ لأن إنشاء ذلك اللبن في البطن على غير جوهر ما تناولت، ومن خلاف لونه في تلك الظلمات دل أن علمه وتدبيره غير مقدر بعلم الخلق، وأن حكمته غير مقدرة بحكمة الخلق، وكذلك قدرته غير مقدرة بقدرة الخلق، ثم قوله: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ قيل: طرق ربك ذللا، وقيل مطيعة، وقيل من الذل، أي: الرفق واللين، كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ...﴾ [الحجر: ٨٨] الآية من الذل، ومن الرفق واللين، وهذا يخرج على وجهين.

أحدهما: ذللت سبل ربها، وسهل السلوك فيها حتى تسلك كيف شاءت.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ قيل: مما يبنون، ويحتمل[٢] مما يتخذ من العريش، وهو الذي يتخذ من الخشب.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾.

قال الحسن: الشهد والعسل.

وقال بعضهم[٣]: مختلف في الطعم، وقيل: في الألوان: الأبيض، والأحمر، والأصفر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ [قال بعضهم[٤]: فيه شفاء للناس][٥] من كل

(١) سقط في أ.
(٢) في أ: ويتخذ.
(٣) قاله البغوي (٣/ ٧٦).
(٤) قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة، أخرجه ابن جرير عنهم (٢١٧٥١)، (٢١٧٥٤)، (٢١٧٥٥)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٣٠).
(٥) سقط في أ.

داء، حتى القروح، وكل شيء.

وقال بعضهم: قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ من داء دون داء.

وقال بعضهم[١]: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ يعني: في القرآن، فيه شفاء القلوب للدين.

ويحتمل قوله: فيه شفاء للأجساد، فإن أراد هذا فهو ظاهر، لا شك أن فيه ذلك الشفاء.

ويحتمل: فيه شفاء للدين، فإن كان هذا فيكون ذلك من جهة النظر فبه[٢] يدرك ويوصل إلى ذلك الشفاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ .

قال بعضهم: من نوع ما تأكل النحل.

وقال بعضهم: من جميع الثمرات التي تكون في الجبال.

عن عبد الله قال[٣]: القرآن والعسل هما الشفاءان، القرآن شفاء الدين، والعسل شفاء الأبدان.

وقال بعضهم من أهل اللغة: إن الوحى في كلام العرب على وجوه: منها: وحي النبوة، وهو إرسال الله الملائكة إلى أنبيائه ورسله، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] ومنها: وحي الإشارة كقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] ومنها: وحي الإلهام، وهو كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ ، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، وقوله ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] ونحوه.

ومنها: وحي الأسرار، كقوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ...﴾ [الأنعام: ١١٢] الآية.

وقال بعضهم: إن أصل الوحي عندنا هو أن يلقي الإنسان إلى صاحبه شيئًا للاستتار والإخفاء وقد يكون ذلك بالإيماء والخط[٤].

وأصل الوحي ما ذكرنا أنه سمي به لسرعة وقوعه وقذفه في القلب.

---

(١) قاله مجاهد ، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٧٥٠)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٣٠).

(٢) في أ: فيه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٧٥٤)، وابن أبي شيبة ،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)، وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق آخر بنحوه.
وأخرجه ابن ماجه وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عنه مرفوعاً كما في المصدر السابق.

(٤) في أ: بالإيمان والحظ.

وقال أبو بكر: تأويل الوحي أن يعلم الذي يوحي إليه ويرشده، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله أرشد كل دابة سوى الإنسان إلى مصلحتها، والهرب عن مهلكها ومتلفها بما فطرها الله عليه، كما أرشد الإنسان إلى ما يصلحه في دينه ودنياه بالتعليم، فمثل الله تعليمه كل دابة ما فيه مصلحتها ومفسدتها بما دبرها عليه، كما علم الإنسان بالقول والبيان، فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: أرشدها ودلها بفطرتها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ بيوتًا فيها ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: واتخذي مما يبني الإنسان لمسكنه.

وقال: العريش: الحيطان التي لا سماء لها، بفطرتها تتخذ خلاياها في كل ذلك لمنافع الخلق، ثم قال: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والثمرات مختلفة الطعم والمنظر والمشم: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ وهو ما سبل الله لها من الرزق والمأوى ﴿ذُلُلًا﴾ قال: يقول: ذلك ذلل لك كل شيء قدره لرزقك ومسلكك، وذللك في طلب ما سبل لبني آدم وجعلها سببًا لمنافعهم وصغر قدرك لديهم فذلك قدرته وسلطانه على ما شاء؛ ليعلموا أن خالقهم لا يعجزه شيء، وأنه القدير على ما يعدهم من البعث والثواب والعقاب.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يقول: الجنس واحد، ثم هو ضروب كألوان التمر والعنب وسائر الثمار في مذاقه ومشامه ومنظره، وكله عسل فيه شفاء للناس لمنافعهم وملاذهم وفيما أراهم الله من قدرته على ما يشاء من ذلك، فيه شفاء لهم في الدين والعلم، يعلمون بما يشاهدون من تدبير الله وقدرته، على ما بينا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ يقول: لعبرة ودليلا وبرهانًا ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما يشاهدون من تدبير الله وتقديره وقدرته على ما يشاء، والله أعلم.

وقال في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ يقول: ولكم عبرة ودليل أن النخل أجذاع خشب لا طعم فيها والكرم خشب أيضًا وما فيهما من سعف وورق لا عسل فيها ولا عنب، فأخرج الله منهما ثمرات مختلفات، فيه عسل، وفيه تمر وزبيب، وتتخذون منه ما تلذون من الشراب. وقال: هذا قبل تحريم الخمر، والسكر: كل ما أسكرهم، وتتخذون منه أيضًا رزقًا حسنًا، أي: طيبًا، وهو ما تأكلون منها، سوى ما تشربون، وتكسبون بها أموالا كثيرة، منّ الله به عليهم.

وقال بعضهم[1]: السكر: كل شيء حرمه الله من ثمارها من الشراب، الخمر من العنب، والسكر من التمر، والرزق الحسن: ما أحل من ثمرها، الزبيب، والتمر،

---

(١) تقدم.

والنبيذ، وقال السكر: ما أسكر، والرزق الحسن: [الخل][(١)] وأشباهه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ودليلا وبيانا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ما ينبهون[(٢)]، فيعلمون أن الذي لم يعجز عما خلق لهم من الثمار من خشب يابس يقدر أن يحيي الموتى، ويخلق ما يشاء، وما عرفه الخلق أنه يكون من النطفة الولد، ومن الماء والأشجار الفواكه، ومن العلف اللبن، وغير ذلك من الحوادث التي تحدث من الأشياء، وتلك أسبابها ما لم يدرك كون تلك الأشياء فيها ولا يرى لا يعرف ذلك إلا بتعليم من هو عالم بذاته لأن علم ذلك لو كان لا بتعليم لو اجتهدوا كل جهدهم لم يدركوا حدوث تلك الأشياء مما ذكرنا، ولا كونها منها، دل أن الذي علمهم هو عالم بذاته؛ فإذا ثبت كونه بعالم بذاته وإن كانوا لم يشاهدوا إلا عالما بغير، فعلى ذلك هو قادر على إنشاء الأشياء من لا شيء وإن كانوا لم يعاينوا في الشاهد شيئًا إلا من شيء، وفيه أن ما يحدث ويكون من اللبن بالعلف الذي يؤكل، أو الطعام الذي يتناول، أو الفواكه والثمار التي تخرج ليس يكون بنفس الماء، أو بنفس الطعام والعلف، ولكن باللطف من الله تعالى؛ لأنه قد يسقي ذلك الماء الشجر والنخل في حال ثم لا يكون فيه الثمر، وكذلك الدواب تعلف في حال لا يكون ذلك منه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقوله - عز وجل- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فإن قيل لنا أي منة له علينا في ذكر خلقنا ثم توفيه إيانا ورده لنا إلى الحال التي ذكر وهو حال الجهل حتى لا نعلم شيئًا.

قيل ذكر هذا -والله أعلم- يحتمل وجوهًا:

أحدها: يذكرهم أنه هو الذي خلقكم، ثم هو يتوفاكم، ثم هو يملك ردكم إلى الحال التي لا تعلمون شيئًا، وفي ملكه وسلطانه تتقلبون، فكيف عبدتم الأصنام والأوثان التي لا يملكون شيئًا من ذلك وأشركتموها في ألوهيته وعبادته، أو يذكر هذا أنه خلقكم ولم تكونوا شيئًا، ثم يتوفاكم بعد ما أحياكم، ثم يردكم إلى الحال التي لا تعقلون شيئًا بعدما

---

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: ينبعون.

جعلكم عقلاء علماء، فمن يملك هذا ويقدر على هذا، يقدر على الإحياء بعد الموت والبعث بعد الفناء.

أو يذكر هذا؛ ليعلموا أنه لم يكن المقصود بخلقهم الفناء خاصة، لكن لأمر آخر قصد بخلقهم، وهو ما ذكر فيما تقدم من أنواع النعم وتسخير ما ذكر من الأشياء لهم ليعلموا أن المقصود في خلقهم لم يكن الفناء خاصة؛ إذ لو كان الفناء خاصة لم يحتج إلى ما خلق لهم من الأغذية والنعم التي أنشأ لهم والاشياء التي سخرها لهم.

وقال أبو بكر الأصم: قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وكنتم نطفًا أمواتًا فأحياكم، ثم يتوفاكم أطفالا وشيوخًا، ومنكم من يعمر إلى أرذل العمر، يقول: يرده بعد قوة وعلم وتدبير الأمور إلى الخرف[١] والجهل بعد العلم ليبين لخلقه أن العمر والرزق ليس بهما ربي وقوي؛ لأنهما ثابتان ثم يبلى ويفنى بهما ويرجع إلى الجهل، ولكن بلطف من الله وتدبير منه، لا بالأغذية، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بما دبر في خلقه مما يدركون به قدرة خالقهم، وتصريفه الأمور، وبما يكونون به حكماء وعلماء أن الذي دبرها حكيم قدير على ما شاء، والحكمة فيما ذكر من تفريق الآجال ليكونوا أبدًا خائفين راجين؛ لأنه لو كانت آجالهم واحدة يأمنون ويتعاطون المعاصي على أمن، لما يعلمون وقت نزول الموت بهم.

والثاني: ليعلموا أن التدبير في أنفسهم وملكهم لغيرهم لا لهم؛ لأن التدبير والأمر لو كان إليهم لكان كل منهم يختار من الحال ما هو أقوى وآكد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ .

قال بعض أهل التأويل[٢]: [يذكر][٣] هذا مقابل ما أشركوا خلقه وعباده في ألوهيته [وعبادته][٤]، يقول: فضل الله بعضكم على بعض في الرزق والأموال حتى بلغوا السادة والموالى فلا ترضون أن يكون عبيدكم ومماليككم شركاء في ملككم وأموالكم، فكيف ترضون لله أن يكون عبيده ومماليكه شركاء، إلى هذا ذهب بعض أهل التأويل.

وقال أبو بكر الأصم: قوله: ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أغنى بعضكم، وأفقر بعضًا، وجعل منكم أحرارًا وعبيدًا ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ بالغنى والتمليك ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ

---

(١) في أ: الخوف.

(٢) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٢١٧٥٧) و(٢١٧٥٨)، وعن مجاهد (٢١٧٥٩) وقتادة (٢١٧٦٠) و (٢١٧٦١) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٣) سقط في أ.

(٤) سقط في ب.

مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ من عبيدهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ إذ يستوي المولى وعبده فيما ملكت يمينه، يقول: فليس أحد منكم يرضى أن يكون عبده بمنزلته فيما يملك سواء، فإذا رأيتم أنتم ذلك نقصا بكم لو فعلتم، فكيف زعمتم أن الله أشرك بينه وبين أحجار حتى أشركتم ما ملككم الله بينه وبين الأوثان في العبادة وفيما آتاكم من رزق، فقلتم: هذا لله، وهذا لشركائنا ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقول أنعم الله عليهم بأنفسهم وأرزاقهم وأموالهم وأولادهم، فأشركوا غير الله فيها، وجحدوا نعمة الله عليهم [بها عصوا](١)، وبها كفروا، ثم ألزمهم النظر في الفضل الذي ذكر أنه فضل بعضهم على بعض إلى عين الفضل الذي كان من الله، لا إلى الأسباب التي اكتسبوها، ليعلموا أنهم لم ينالوا تلك الفضائل باستحقاق منهم، ولكن إنما نالوا(٢) بفضل منه ورحمة، فيكون ذلك دليلا لهم فيما أنكروا من أفضال الله، واختصاصه بعضهم بالرسالة والنبوة، وإن كانوا جميعًا من بشر، ومن جنس واحد على ما فضل بعضهم على بعض في الرزق، والسعة، والملك، والحرية والسلطان، وإن كانوا جميعًا في الجنس واحد، فإذا لم تنكروا هذا النوع من الفضل والاختصاص لبعض على بعض، فكيف أنكرتم ذلك الفضل والاختصاص بالرسالة من فضله ورحمته، فلذلك قال -والله أعلم-: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] أخبر أنه برحمته وفضله ينال ما ينال من الرسالة وغيرها، لا بالاستحقاق والاستيجاب كان منهم، أو أن يذكر سفههم بأنهم يأنفون أن يشركوا عبيدهم ومماليكهم في ملكهم وأموالهم ولهم بهم(٣) منافع من الخدمة والإعانة في الأمور، فما بالهم يشركون أحجارًا وخشبا، لا منفعة لأحد منهما(٤) في ألوهية الله وربوبيته وفي عبادته: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ على تأويل النبوة أبفضل الله وبرحمته يجحدون أنه لا يفضل بعضا على بعض بالرسالة، أو يجحدون ما آتاهم الله من النعم، فيصرفون نعمه(٥) إلى غيره، وهي الأصنام التي عبدوها، فقالوا: هذا لشركائنا، أو يصرفون شكر نعمه إلى غيره، وهي الأوثان التي عبدوها، والله أعلم.

وقوله: -عز وجل- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ

(١) سقط في ب.
(٢) في أ: قالوا.
(٣) في ب: منهم.
(٤) في أ: منها.
(٥) في ب: نعمته.

﴿وَحَفَدَةً﴾ قال الحسن وغيره[١]: الحفدة: الخدم والمماليك، فهو على التقديم، على تأويل هؤلاء، يقول: جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وخدمًا من جنسكم؛ لأنه ذكر فيما تقدم: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ . . .﴾ الآية، يذكرهم نعمه وفضله الذي ذكر أنه جعل لكم من جنسكم أزواجًا وخدمًا تحت أيديهم، يستمتعون بالأزواج، ويستخدمون الخدم والمماليك، وهم من جنسهم وجوهرهم، يذكرهم فضله ومننه عليهم.

أو يشبه أن يكون هذا صلة قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا. . .﴾ [النحل:٥٨] الآية، كانوا يأنفون عن البنات، ويدفنونهن أحياء إذا ولدن أنفا منهن، يقول - والله أعلم-: كيف تأنفون منهن وقد جعل لكم من البنات أزواجًا تستمتعون بهن حتى لا تصبروا عنهن، وكذلك جعل لكم من البنات والبنين الذين ترغب أنفسكم فيهم ما لولا البنات لم تكن لكم الأزواج التي تستمتعون بهن، ولم يكن لكم البنون الذين ترغبون فيهم، والأنصار والأعوان والخدم الذين ترغبون فيهم، يبين ويذكر تناقضهم في الأنفة منهن يأنفون منهن، ومن البنات يكون ما يرغبون فيهم[٢]؛ فهذا يدل أن النساء يصرن كالملك للأزواج، ويصرن تحت أيديهم في حق ملك الاستمتاع، كالمماليك في حق ملك الرقاب، ثم جعل - عز وجل - التناسل في الخلق على التفاريق، وتقلبهم من حال إلى حال، وتنقلهم[٣] أبدًا كذلك ليكون أذكر لتدبيره، وأنظر في آياته ودلالاته، ولو شاء لأنشأ الخلق كله بمرة واحدة، وأفناهم بدفعة واحدة، وكذلك ما جعل لهم من الأرزاق وأنواع النبات، لو شاء لأخرج لهم ذلك كله بمرة واحدة في وقت واحد، لكنه أنشأ لهم بالتفاريق ليذكرهم النظر في آياته وتدبيره، ليكون ذلك لهم أدعى إلى المرغوب، وأحذر للمرهوب، وكذلك ماردد من الأنباء والقصص، والمواعيد، وذكر الجنة والنار في القرآن في غير موضع ليبعثهم ويحثهم على النظر في آياته وتدبيره، ويرغبهم في كل وقت في المرغوب، ويحذرهم عن المحذور والمرهوب، ثم قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [التحريم:٦] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] ونحوه، ذكر الأنفس في [هذا][٤] كله، ثم لم يفهم أهل الخطاب من هذا كله معنى واحدًا وشيئًا واحدًا، وإن كان في حق اللسان واللغة واحدا لكنهم فهموا في كل

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٧٨٣) و(٢١٧٨٤) و (٢١٧٩٤).

(٢) في أ: فيهن.

(٣) في أ: ويتقلبهم.

(٤) سقط في ب.

غير ما فهموا في آخر، فهذا يدل أنه لا يفهم الحكمة والمعنى في الخطاب بحق ظاهر اللسان واللغة، ولكن بدليل الحكمة المجعولة في الخطاب، ومن اعتقد في الخطاب الظاهر حسم باب طلب الحكمة [فيه][(١)] والمعنى؛ لأنه يجعل المراد منه الظاهر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ هو ما ذكرنا، وحفدة اختلف فيه، قال بعضهم[(٢)]: الحفدة: الخدم والمماليك.

وقال بعضهم[(٣)]: الحفدة: ولد الولد.

وقال ابن مسعود[(٤)] رضي الله عنه: الحفدة: الأختان وروي عنه أنه قال[(٥)]: الحفدة: الأصهار فالأصهار والأختان عنده واحد، وقيل[(٦)]: الحفدة: الأعوان والأنصار [يذكرهم التناقض فيما يأنفون من البنات أن كيف يأنفون عنهن ومنهن يكون لكم الأعوان والأنصار][(٧)] والأختان في أمر الدنيا.

وقال أبو عوسجة: الحفدة: بنو البنين، وقال أيضًا: الحفدة: الأعوان، والحافد: المجتهد في العبادة وفي العمل، يقول: حفد يحفد، أي: خدم واجتهد، وقوله: وإليك نسعى ونحفد، أي: نجتهد.

وقال القتبي: الحفدة: الخدم والأعوان، يقال: هم بنون وخدم. وقال: أصل الحفد: مداركة الخطو والإسراع في المشي، وإنما يفعل ذلك الخدم، فقيل لهم: حفدة، واحدها: حافد. وقال: ومنه يقال في دعاء الوتر: وإليك نسعى ونحفد. وقال أبو عبيد: وأصل الحفد: العمل. وقال: ومنه الحرف في القنوت: نحفد، أي: نعمل، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال بعضهم[(٨)]: الطيبات: الحلالات.

وقال بعضهم: الطيبات: أي: كل ما طاب ولان ولطف، ورزق غيركم من الدواب

---

(١) سقط في ب.

(٢) تقدم أنه قول الحسن.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢١٧٩٦) و (٢١٧٩٩)، وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢١٧٦٣) و (٢١٧٦٦)، والفريابي وسعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه ابن جرير (٢١٧٧٥).

(٦) قاله مجاهد وأبو مالك، أخرجه ابن جرير عنهما (٢١٧٨٧) و (٢١٧٩١)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٣٤).

(٧) سقط في ب.

(٨) قاله ابن جرير (٧/ ٦٢٠)، والبغوي (٣/ ٧٧).

والبهائم كل ما خشن، وخبث[١] يذكرهم منّه عليهم ونعمه [عليهم][٢] ليستأدي[٣] بذلك شكره.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال بعضهم: أبالشيطان يصدّقون، ويجيبونه إلى ما دعاهم من الأنفة من البنات، وبنعمة الله هم يكفرون، أي: هذه البنات لكم نعمة، فكيف تكفرونها، وقال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أبالشيطان إلى ما دعاكم وبنعمة الله أي: بمحمد يكفرون، أو بالإسلام، أو بالقرآن.

وقال أبو بكر الأصم: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: تقرون بأنكم عبيد لأحجار وتذلون لها وتعبدونها، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يقول: وبما أنعم الله عليكم في أنفسكم وما خولكم ورزقكم تكفرون به، وكان الشكر أولى بكم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾.

وقوله - عز وجل- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ فائدة ذكر هذا لنا -والله أعلم- لئلا نتبع بعض المخلوقين بأهوائنا، ولا نكل في أمورنا إلى من نعلم أنه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا يستطيع شيئًا من الرزق، كما تبع أولئك في عبادة من يعلمون أنه لا يملك شيئًا، ولا نفعًا ولا ضرًّا فيعبدونه؛ يذكر سفههم في عبادتهم من يعلمون أنه لا يملك شيئًا من النفع والضر والرزق لئلا نعمل نحن مثل صنيعهم بمن دون الله من المخلوقين.

ثم اختلف في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ قال الحسن: هو على التقديم، أي: يعبدون من دون الله شيئًا لا يملك لهم ما ذكر.

---

(١) في أ: وحيث.
(٢) سقط في ب.
(٣) في ب: يستأدي.

وقال بعضهم: يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض، ولا يستطيعون شيئًا.

وقال بعضهم: يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض ولا [يستطيعون][1] شيئًا[2].

وقال بعضهم: يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا شيئًا ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تتخذوا لله أمثالا من الخلق وأشباها في ألوهيته وعبادته، أو لا تقولوا لله إن له أشباهًا وأمثالا.

أو يقول: فلا تجعلوا لله أمثالا في العبادة له، وأشباها في تسميتها آلهة، على علم منكم أن ما يكون لكم إنما يكون بالله لا بالأصنام التي تجعلونها أمثالا لله في العبادة والألوهية. وجائز أن يكون قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: فلا تضربوا لأولياء الله الأمثال، فإنه قد بين محل أوليائه ومكانهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أن لا مثل له من الخلق ولا شبه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، أو أن الله يعلم بمصالحكم، وأنتم لا تعلمون ما به صلاحكم وهلاككم.

وقوله: - عز وجل-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ضرب المثل بهذا من وجهين:

أحدهما: أن من لا يقدر ولا يملك أن ينفق في الشاهد عندكم ليس كمن يملك ويقدر أن ينفق، فهو كقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ...﴾ [هود: ٢٤] أي: ليس يستوى البصير والأعمى، ولا الأصم والسميع، فعلى ذلك لا يستوي من يملك الإنفاق والإنعام على الخلق، وهو المعبود الحق، كمن لا يملك ذلك، وهو المعبود الباطل.

والثاني: ضرب مثل المؤمن والكافر، أن الكافر لا ينفق ما أنعم عليه من المال في طاعة الله [وفي خيراته][3]، والمؤمن ينفق جميع ما أنعم عليه [وأعطى][4] في طاعة الله وخيراته فليسا بسواء من أنفق في طاعة الله كمن لا ينفق شيئًا أحدهما يكون ضرب مثل الإله الحق والمعبود الحق بالمعبود الباطل، والثاني مثل المؤمن بالكافر ثم في الآية وجوه من الدلائل.

---

(١) سقط في أ.
(٢) ثبت في حاشية ب: فهو على التأويل ،كما قال على التقديم. كاتبه.
(٣) سقط في أ.
(٤) سقط في ب.

إحداها: أن القدرة لا تفارق الفعل، حيث قال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ جعل مقابل الفعل القدرة، فلو كانت تفارق الفعل لكان ذكر مقابل القدرة [قدرة][١] مثلها، أو مقابل الفعل فعلا مثله، فلما ذكر مقابل القدرة الفعل دل أنها لا تفارق الفعل، وفيه أن العبد لا يملك حقيقة الملك، حيث ذكر عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء، وإن قدر [على] ما يملك إنما يملك بإذن من له الملك، وكذلك الخلائق كلهم لا يملكون حقيقة الإملاك، إنما حقيقة الملك في الأشياء لله وإن قدر[وا على][٢] ما يملكون إنما يملكون بالإذن على قدر ما أذن لهم.

وفيه أن العبد لا يملك الإنفاق والتصدق، حيث قال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ثم قال فيمن يملك: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ دل أنه لا يملك العبد الإنفاق والهبة.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال بعضهم: ذكر الحمد لله على إثر ما ذكر؛ لأنه عرّف رسوله النعم وأنواع المنافع، ثم عرفه على إثر [ذلك][٣] الحمد لله.

وقال بعضهم: الحمد لله ثناء، أخبر أن أكثرهم لا يعلمون حمد الله وثناءه.

وقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا﴾ أي: من أوليائنا، أو من أولياء ديننا، وذلك جائز سائغ في اللغة، ثم قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل نفي العلم عنهم لما لم ينتفعوا بما علموا، أو على حقيقة النفي لما لم ينظروا في الآيات والحجج، ولم يتأملوا فيها فلم يعلموا، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ...﴾ إلى آخر الآية.

قالوا: هذا المثل كالأوّل، يحتمل الوجهين اللذين ذكرناهما في الأوّل.

أحدهما: المؤمن والكافر، شبه الكافر بالمملوك الأبكم الذي لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه، لا يأتي المولى بخير، ولا ينتفع به، وشبه المؤمن بالذى يأتي المولى بكل خير ونفع، يقول: هل استوى هذا مع هذا عندكم؟ لا يستوي، فعلى ذلك لا يستوي الكافر الذي لا يعمل شيئًا من طاعة الله، ولا يأتي بخير والمؤمن الذي يعمل كل طاعة الله، ويأتي بكل خير، ويأمر بكل عدل.

---

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.

والثاني: ضرب مثل الإله المعبود الحق بالمعبود الباطل، يقول: هل يستوى من آتاكم بكل نعمة وكل خير، ويأمر بكل عدل، بمن هو أبكم لا يقدر على شيء، ولا يضرّ، ولا ينفع، ولا يجيب، وهو عيال على من يعبده ويخدمه، هل يستوى هذا مع ذلك؟ لا يستويان مثلا ألبتة غير أن المثل هاهنا ضرب بالذى لا ينفق بالحق، ولا يأمر بالعدل، ذكر مقابل الأبكم الذي يأمر بالعدل، وفي الأول ضرب مثل الذي لا يملك الإنفاق بالذى يملك الإنفاق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو على الحق المستقيم، وهو المعبود بالحق.

قال أبو عوسجة الكل: العيال، وكذلك قال غيره من أهل الأدب.

وقال بعضهم: الكل الفقير، وهو واحد، والأبكم: الأخرس، وهو الذي لا ينطق ألبتة.

وقال: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوحيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يحتمل وجوهًا:

أحدها: ما ذكر أهل التأويل من السؤال عن الساعة وعن وقتها، كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٧] لخفائها على أهلها؛ لأن كل خفى ثقيل، أخبر أنه لا يجليها إلا لوقتها، فوقت قيامها لا يعلمه غيره.

والثاني: ولله علم ما غيب أهل السموات وأهل الأرض، أي: ما غيب بعضهم من بعض، فذلك ليس بمغيب عن الله بل ما غاب عن الخلق وما ظهر لهم، فذلك لله كله ظاهر بمحل واحد، وهو كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩].

والثالث: قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له علم ما في سرية هذه الأشياء الظاهرة ما لا سبيل للخلق إلى علم ذلك، وإن كانوا يعلمون هذه الأجسام والأشياء الظاهرة، وتقع حواسهم عليها لا يعلمون ما في سرّيتها: من نحو الماء الذي[١] به حياة كل شيء، ونحو النطفة التي يخلق منها الإنسان - لا يعلمون المعنى الذي به يصير إنسانًا، ومن نحو السمع والبصر والعقل يعلمون ويرون ظواهر [هذه][٢] الحواس، ولكن لا يدركون المعنى الذي به يسمع وبه يبصر وبه يعقل ويفهم.

(١) زاد في ب: أخبر أنه حياة كل شيء لا يسرفون المعنى الذي.
(٢) سقط في أ.

يقول - والله أعلم-: ولله علم ما غاب عن الخلق ما في هذه الأشياء الظاهرة والأجسام المرئية.

أو يقول: ولله ملك ما غاب عن أهل السموات والأرض[١]، وملك ما لم يغب عنهم وظهر؛ فيكون كقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩] كأنه قال - والله أعلم - ولله العلم الذي غيب عن أهل السموات وأهل الأرض، وهي الساعة: لم يطلع عليها غيره.

وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ .

قال بعضهم قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أهون على الله وأيسر من لمح البصر؛ [إذ ليس شيء أيسر وأهون على الإنسان من لمح البصر؛ لأنه يلمح البصر][٢] ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ .

[أي:][٣] بل هو أقرب، أي: أيسر من لمح البصر.

وقال الحسن: إعادة الخلق على الله أيسر وأهون من لمح البصر؛ لأنه يلمح بصره فيبصر به - بلحظة - ما بين الأرض إلى السماء، وهو مسيرة خمسمائة عام. يقول: من قدر أن ينشئ في خلق من خلائقه ما يبصره بلمحة البصر مسيرة خمسمائة عام - لقادر على إعادة الخلق وبعثهم بعد الفناء، بل هو أقرب أي: إعادته إياهم أسرع وأقرب من لمح البصر، إلى هذا يذهب الحسن.

وقال بعضهم: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: ما وقت قيام الساعة إلا لمح البصر، أي: ليس بين وقت قيامها وبين كونها إلا لمح البصر، بل هو أقرب من لمح البصر، لكنه مثل لمح البصر لما ليس شيء عند الناس أسرع وأهون من لمح البصر، ولما ذكرنا أنه يلمح [البصر][٤] ولا يشعر به لسرعته ولخفته عليه؛ فذكر هذا على التمثيل، ليس على إرادة حقيقة الوقت بقدر لمح البصر، ولكن على المبالغة في السرعة، وذكر أقصى ما يقع في الأوهام ويتصور؛ من نحو ما قال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ . وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وما قال: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٤]، وأمثاله كله يذكر على التمثيل ليس على التحقيق، أي: فمن[٥] يعمل من قليل وكثير يره،

---

(١) في ب: وأهل الأرض.
(٢) سقط في ب.
(٣) سقط في ب.
(٤) سقط في ب.
(٥) في ب: ما.

شرًّا كان أو خيرًا، وكذلك ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ و ﴿نَقِيرًا﴾، أي: لا يظلمون شيئًا، وكذا ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، أي: لا يملكون شيئًا؛ لأن القطمير لا يملك؛ فإنما يذكر هذا وأمثاله على التمثيل الذي ذكرنا.

أو أن يكون تأويل قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾، أي: ليس ما بين الساعة وبينكم مما مضى من الوقت إلا قدر لمح البصر، أي: لم يبق من وقت قيامها ممّا مضى إلا ما ذكر من لمح البصر أو أقرب مما ذكر على الاستقصار مما بقي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وعلى[1] البعث والإعادة، وعلى كل شيء، لا يعجزه شيء.

وظاهر الآية ينقض على المعتزلة قولهم؛ لإنكارهم خلق أفعال العباد؛ لأنه أخبر أنه على كل شيء قدير، وعلى قولهم: هو غير قادر على العالم بشيء[2].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

يذكر بهذا قدرته وسلطانه على ما سبق: من ذكر سرعة القيامة، والعلم بها، والحكمة التي جعل في البعث؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: خلق الولد في ظلمات ثلاث، وجعل غذاه بغذاء الأمهات وبقواهن، ثم تقلبه في تلك الظلمات من حال إلى حال: ما لو اجتهد الخلائق أن يعلموا اغتذاءه بغذاء الأمهات، وتقليبه من حال إلى حال، ومن جوهر إلى جوهر - ما قدروا على ذلك؛ فيدل هذا على أن من قدر على هذا، وعلم هذا في تلك الظلمات لقادر على البعث وإعادة الخلق بعد الفناء، وعلْم ما غاب عن الخلق.

ويذكرنا ابتداء أحوالنا أنه أخرجنا من بطون أمهاتنا ونحن لا نعلم شيئًا، ثم صيّرنا بحال صرنا عالمين أشياء، يذكرنا نعمه ومننه علينا في بلوغنا إلى الأحوال التي صرنا إليها بعدما كنا ما ذكر.

والثاني: يذكرنا أنكم كنتم بالحال التي ذكر؛ لنعلم أنه صيرنا في البطون بلا استعانة بأحد منا ولا عون منه إلى أحد، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

---

(١) في ب: ومن.
(٢) في ب: ألف ألف شيء.

فمن قدر على جعل السمع حتى يسمع الأصوات ويميز بينها، والبصر ليبصر ويميز بين ألوان الأجسام، والفؤاد[1] ليفهم ويعقل ما له وما عليه، ما لا يدركون ماهية ما به يسمعون ويبصرون ويعقلون، وما به يميزون بين ما ذكرنا فهو قادر على إنشاء الخلق بعد الفناء والإعادة بعد الموت. ثم ذكر على أثر قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾: السمع والبصر والأفئدة؛ فذلك يدل على أن هذه الأشياء من أسباب العلم بالأشياء، بها يوصل إلى العلم بالأشياء؛ فمن أعطي أسباب العلم بالشيء فكأنْ قد أعطي له العلم به، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هو حرف شك في الظاهر؛ ذكر - والله أعلم - لأنه لا كل الناس يشكرون نعمه، أو لكي يلزمهم الشكر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: من قدر على إمساك الطير، وهي أجسام كغيرها من الأجسام في الهواء بلا إعانة في الأسفل ولا تعلق بشيء من الأعلى، لقادر على إنشاء الخلق وإعادتهم بعد الفناء.

---

(١) «الأفئدة» جمع فؤاد؛ نحو: أغربة وغراب، قال الزجاج: ولم يجمع (فؤاد) على أكثر العدد، وما قيل: (فئدان)، كما قيل: (غراب وغربان).

ولعل الفؤاد إنما جمع على جمع القلة، تنبيها على أن السمع والبصر كثيران، وأن الفؤاد قليل، لأن الفؤاد إنما خلق للمعارف الحقيقية، والعلوم اليقينية، وأكثر الخلق ليسوا كذلك، بل يكونون مشغولين بالأفعال البهيمية والصفات السبعية، فكأن فؤادهم ليس بفؤاد؛ فلهذا جمع جمع القلة، قاله ابن الخطيب.

وقال الزمخشري - رحمه الله تعالى-: إنه من الجموع التي استعملت للقلة والكثرة، ولم يسمع فيها غير القلة، نحو: (شسوع)، فإنها للكثرة، وتستعمل في القلة، ولم يسمع غير شسوع. كذا قال، وفيه نظر، فقد سمع فيهم (أشساع) فكان ينبغي أن يقال: غلب (شسوع).

ينظر: اللباب (١٢/ ١٢٩).

أو يقول: أو لم يروا إلى اللطف الذي جعل في الطير، والحكمة التي أنشأ فيها حتى قدرت على الاستمساك في الهواء، والطيران في الجو: ما لو اجتمع الخلائق جميعًا أن يدركوا ذلك اللطف أو تلك الحكمة - ما قدروا على إدراكه.

وفي ذلك نقض قول المعتزلة؛ لأن الطيران فعل الطير، ثم أضاف ذلك إلى الله حيث قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾: دلّ ذلك أن لله في ذلك صنعًا وفعلًا.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

جميع ما ذكر يكون آية لمن آمن؛ لأنه هو المنتفع.

قال أبو عوسجة: لمح البصر: سرعة النظر، وجوّ السماء: هواؤها، ويقال: بطن السماء، ويقال: جوف السماء، ويقال: الجوّ: ما اطمأن من الأرض. والأوّل أشبه.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

ظاهر هذا أنه قد جعل لنا من البيوت - أيضًا - ما ليس بسكن(١)؛ لأنه قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، وهو ما ذكر في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩]: وهو كالمساجد والرباطات وغيرها. ويشبه أن يكون ذكر هذا؛ ليعرفوا عظيم منه ونعمه، حيث جعل الأرض بمحل يقرّون عليها ويمكن لهم المقام بها؛ بالرواسي التي ذكر أنه أثبت فيها بعدما كانت تميد بهم ولا تقر بها، أخبر أنه [جعل] فيها رواسي أو أن يكون حرف (من) صلة، أي: جعل لكم بيوتًا تسكنون فيها.

ثم قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أي: سخر لكم الأرض حتى قدرتم على اتخاذ المساكن فيها تسكنون(٢).

أو جعل لكم بيوتًا، أي: علمكم تسكنون فيها.

ثم قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾: أي [علمكم](٣) ما تبنون فيها من البيوت

---

(١) والسكن: ما سكنت إليه، وما سكنت فيه، قال الزمخشري: (السكن: ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف). واعلم أن البيوت التي يسكن فيها الإنسان على قسمين:
أحدهما: البيوت المتخذة من الحجر والمدر، وهي المرادة من قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ وهذا القسم لا يمكن نقله بل الإنسان ينتقل إليه.
والثاني: البيوت المتخذة من القباب والخيام والفساطيط، وهي المرادة بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وهذا القسم يمكن نقله مع الإنسان.
ينظر: اللباب (١٢/١٣١، ١٣٢).
(٢) زاد في ب: فيها.
(٣) سقط في أ.

ما لولا تعليمه إياكم ما تقدرون على بناء البيوت فيها؛ يذكر منّه عليهم، والله أعلم.

وفي هذه الآيات في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ . ونحوه: دلالة نقض قول المعتزلة[١]؛ لأنه ذكر أنه جعل بيوتًا سكنًا، والسكن فعل العباد؛ دلّ أنّ لله في فعلهم صنعًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ ، قال أهل التأويل: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ ، أي: من صوفها، لكنه أضافها إلى الجلود؛ لما من الجلود يخرج، ومنها يجزّ ويؤخذ، وهو ما ذكر.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ : وهو صوف الغنم.

﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ : وهو صوف الإبل.

﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ : ما يخرج من المعز.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ : قيل[٢]: ليوم سفركم وسيركم.

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ : قال بعضهم: في المصر. وقال بعضهم: في السفر حين النزول.

والجعل في هذا يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ : أحدهما: على التسخير لهم، والثاني: على التعليم.

ذكر - عز وجل - في البيوت المتخذة من المدر[٣] السكنى؛ حيث قال: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ، ولم يذكر في البيوت المتخذة من الجلود والأوبار والأشعار؛ فكأنه ترك ذكره في هذه، الذكر في الأول ذكر تصريح، وذكر في الثاني ذكر دلالة.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَثَٰثًا﴾ قيل[٤]: الأثاث والرياش: واحد، وهو المال.

وقيل[٥]: ما يتخذ من الثياب والأمتعة.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

[يحتمل إلى حين][٦] إلى وقت بِلَى ذلك الأثاث، أو إلى حين وقت فنائهم.

---

(١) زاد في ب: له.
(٢) قاله ابن جرير (٧/٦٢٦)، والبغوي (٣/٧٨).
(٣) في ب: الوبر
(٤) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير عنه (٢١٨٢٠)، وعن قتادة (٢١٨٢٣).
(٥) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٨٢١) و(٢١٨٢٢)، وعن حميد بن عبد الرحمن (٢١٨٢٤).
(٦) سقط في أ.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ .

يحتمل قوله: ﴿ظِلَالًا﴾ البيوت التي ذكر وهي تظلهم، ويحتمل الأشجار.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ .

وهى الغِيرَان والبيوت التي تتخذ في الجبال؛ تقيهم من الحرّ والبرد[١].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ .

قيل: القميص والدروع، ثم ذكر أن ما ذكر من البيوت والأكنان والسرابيل تقيكم الحرّ، وتقيكم[٢] أيضًا بأس العدو.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ .

[على][٣] ما ذكر من أنواع النعم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ .

ذكر أنها تقى من الحر، وهي تقى الحرّ والبرد جميعًا؛ فكان في ذكر أحدهما ذكر الآخر ذكر كفاية[٤].

---

(١) وأكنانا: جمع (كن)؛ وهو ما حفظ من الريح والمطر، وهو في الجبل: الغار، وقيل: كل شيء وقى شيئا، ويقال: استكن وأكن، إذا صار في كن.
واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة؛ فلهذا ذكر الله- تعالى- هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة، وذكر الجبال ولم يذكر السهول وما جعل لهم من السهول أكثر؛ لأنهم كانوا أصحاب جبال، كما قال-تعالى-: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ ؛ لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، كما قال- عز وجل- ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] وما أنزل من الثلج أكثر لكنهم كانوا لا يعرفون الثلج.
ينظر: اللباب (١٢/ ١٣٤).

(٢) زاد في ب: بأسكم.

(٣) سقط في أ.

(٤) قال الزجاج - رحمه الله-: (كل ما لبسته فهو سربال، من قميص أو درع أو جوشن أو غيره) وذلك لأن الله - تعالى - جعل السرابيل قسمين:
أحدهما: ما يقي الحر والبرد. والثاني: ما يتقى به من البأس والحروب.
فإن قيل: لم ذكر الحر ولم يذكر البرد؟
فالجواب من وجوه:
أحدها: قال عطاء الخراساني: المخاطبون بهذا الكلام هم العرب، وبلادهم حارة يابسة، فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر أشد من حاجتهم إلى ما يدفع البرد، كما قال - سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ وسائر أنواع الثياب أشرف، إلا أنه- تعالى- ذكر هذا النوع؛ لأن عادتهم بلبسها أكثر.
والثاني: قال المبرد: ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر، كقوله: [الطويل]

كأن الحصى من خلفها وأمامها ... إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

=

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ .

أي: كذلك يتم [ذكر][(١)] نعمته عليكم؛ ليلزمهم الإسلام أو حجته، ثم يحتمل النعمة على ما تقدم ذكره، ويحتمل: الرسول.

وقوله - عز وجل -: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ .

جميع ما ذكر من النعم والآيات في هذه السورة من أولها إلى آخرها؛ إنما ذكر لهذا الحرف، وهو قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ . وما ذكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: يحتمل أن يكون هذه الأحرف كلها واحدًا، ويحتمل أن يكون لكل حرف من ذلك معنى غير الآخر، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ .

عن الإجابة لك وعما تدعوهم إليه.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

أي: ليس عليك إجابتهم، إنما عليك التبليغ إليهم والبيان لهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

يحتمل النعمة - هاهنا - محمدًا ﷺ كانوا يعرفونه [لكنهم أنكروه؛ كقوله][(٢)]: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وما ذكر: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويحتمل: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: يعرفون نعمة الله ، وهو ما ذكر عرفوها أنها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ؛ بعبادتهم الأصنام، وصرفهم شكرها إلى غيره، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، مع ما يعرفون: أن الله هو خالقهم، وأن ما لهم كله من عند الله يعبدون الأصنام؛ فتكون عبادتهم دون الله كفران نعمة الله .

= لما ثبت في العلوم العقلية أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر، فإن الإنسان إذا خطر بباله الحر، خطر بباله البرد أيضاً، وكذا القول في النور والظلمة، والسواد والبياض.

الثالث: قال الزجاج: (وما وقى من الحر وقى من البرد، فكان ذكر أحدهما مغنيا عن الآخر).

فإن قيل: هذا بالضد أولى؛ لأن دفع الحر يكفي فيه السرابيل التي هي القمص دون تكلف زيادة، أما البرد فإنه لا يندفع إلا بزيادة تكلف.

فالجواب: أن القميص الواحد لما كان دافعا للحر، كانت السرابيل - التي هي الجمع - دافعة للبرد.

ينظر: اللباب (١٢/ ١٣٤، ١٣٥)

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

وقال أبو عوسجة: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: يوم سيركم[1]؛ ظعن يظعن: سار، والسراويل: القميص. يقول: ﴿تَقِيكُمُ﴾، أي: تستركم.

وقال القتبي[2]: ﴿ظِلَٰلًا﴾، أي: ظلال الشجر والجبال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

هذا - والله أعلم - في قوم علم الله أنهم يؤمنون بما ذكر لهم من أنواع النعم والأفضال؛ ليعلم أن الإسلام من أعظم نعم الله، لا يناله أحد إلا بنعمته.

وقال بعض أهل التأويل: سميت سورة (النحل) سورة النعم؛ لما فيها من ذكر النعم وأنواع منافع الخلق من أولها إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

قال بعضهم: شهيدها: أن يشهد عليهم من نحو ما ذكر من شهادة جوارحهم عليهم، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم . . .﴾ الآية [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم . . .﴾ الآية [فصلت: ٢٠]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها ذكر الشهادة عليهم؛ عند إنكارهم أعمالهم التي عملوها.

وقال بعضهم[3]: شهيدها: رسولها الذي بعث إليهم يشهد عليهم أنه قد بلغ إليهم رسالات ربهم، وهو كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، والنذير: هو الرسول المبعوث إليهم، وهو ما ذكر - أيضًا -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾

---

(١) في ب: يقول يوم سيركم.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٨).

(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١٨٤٣)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٣٩).

[النساء: ٤١]، وكقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

أخبر أنه يجيء بمحمد ﷺ شهيدًا على أولئك: أن الرسل قد بلغوا الرسالة إليهم، وهو ما ذكر: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ. . .﴾ الآية [المائدة: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [القصص: ٦٥]: يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عما أجابوا الرسل. إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل، والله أعلم.

جميع ما ذكر في القرآن من مجيئه وإنبائه ونحوه جائز أن يكون ذلك البعث تفسير ذلك كله.

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ : كذا من ذلك، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، و ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] فهو البعث، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

قال الحسن(١): لا يؤذن لهم بالاعتذار؛ لأنه لا عذر لهم، وهو ما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]؛ لأنه لا عذر لهم، واعتذارهم لا ينفع لهم شيئًا؛ إذ اعتذارهم من نحو قولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] ونحو هذا مما لا ينفعهم ذلك؛ فلا يؤذن لهم لذلك.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قال الحسن: ولا هم يقالون، وكذلك قال في قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، أي: من المقالين، أي: لا يقالون مما كان منهم.

وقال بعضهم: لا يؤذن لهم ولا يمكن لهم من التوبة والرجوع عما كانوا؛ لأن ذلك الوقت ليس هو وقت التوبة والرجوع، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [غافر: ٨٤] ، وهذه الآية، وقال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥]، ونحوه. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العتاب في الخلق: هو تذكير ما كان من الفرط؛ ليرجع عما كان منه، وذلك في الآخرة لا يحتمل.

---

(١) قاله ابن جرير (٧/ ٦٣٠)، ولم ينسبه لأحد.

ويحتمل قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لا يؤذن لهم بالكلام، كقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، أو: لا يؤذن للشفعاء أن يشفعوا للذين كفروا، ويؤذن للشفعاء أن يشفعوا للمؤمنين.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾.

أي: وقعوا فيه؛ دليله ما ذكر.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾.

دل هذا أنه لم يرد به رؤية العذاب؛ ولكن الوقوع فيه؛ فلا يخفف عنهم؛ لأنه يدوم، ولا تخفيف مما يدوم من العذاب.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: يمهلون من العذاب.

والثاني: لا يخفف عنهم عما استحقوا واستوجبوا، أو ما ذكرنا: أنه لا يكون لعذابهم انقطاع.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾.

قال الحسن: قوله: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾، أي: قرناءهم وأولياءهم من الشياطين، كقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ...﴾ الآية [الصافات:٢٢]، وكقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ...﴾ الآية [فصلت:٢٥]، وقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ الآية [الأنعام:٢٢].

وقوله: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾(١): أولياءهم، [الذين](٢) كانوا لهم في الدنيا فهم شركاؤهم الذي ذكر.

وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾؛ على هذا التأويل: كنا ندعوك وإياهم من دونك.

﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾.

أي: يقولون لهم:

﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

---

(١) زاد في ب: قرناؤهم.
(٢) سقط في أ.

وقال بعضهم[1] قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾: الأصنام التي عبدوها.

﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: يكذبونهم، وهو ما ذكر: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس:٢٩]؛ يكذبونهم فيما قالوا، ويخبرون أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم.

وقال بعضهم: شركاؤهم الملائكة الذين عبدوهم، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ . قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ:٤٠،٤١]: أخبر أنهم إنما عبدوا الجن بأمرهم ولم يعبدوهم، أو يكون شركاؤهم رؤساءهم الذين انقاد الأتباع لهم ويحتمل الأصنام وما ذكر، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

هو ما ذكرنا: يقولون لهم: إنكم لكاذبون، أو يكذبونهم فيما يزعمون ويدعون.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾.

أي: يخضعون كلهم لله يومئذ، ويخلصون له الدين، ويسلمون له الأمر والألوهية.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: بطل عنهم ما طمعوا بعبادتهم الأصنام والأوثان التي عبدوها من الشفاعة وغيرها؛ كقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]: بطل عنهم ما طمعوا ورجوا من عبادة أولئك من الشفاعة لهم، والقربة إلى الله.

وقوله - عز وجل -: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

قال بعضهم: هؤلاء كانوا رؤساء الكفرة وقادتهم ضلوا هم بأنفسهم وأضلوا أتباعهم؛ فلهم العذاب الدائم بكفرهم بأنفسهم، وزيادة العذاب بإضلال غيرهم، وهو كقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، وكقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ...﴾ الآية [العنكبوت:١٣]: [أخبر أنهم يحملون أوزارهم][2] وأوزار الذين أضلوهم ومنعوهم عن الإسلام؛ فعلى ذلك قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ بما أضلوا أتباعهم، وسعوا في الأرض بالإفساد، وهو قول

---

(١) قاله ابن جرير (٧/ ٦٣١)، والبغوي (٣/ ٨١).
(٢) سقط في ب.

أبي بكر الأصم.

وقال بعضهم: إن عذابهم كلما أراد أن يفتر بنضج الجلود، زيدت لهم - بتبديل الجلود - نارها كلما أرادت أن تخمد زيد لهم سعيرًا؛ كقوله: ﴿بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ فذلك هو الزيادة في العذاب.

ويحتمل غير ذلك[١]، وهو أن عذاب الكفر دائم أبدًا؛ فيزداد لهم عذابًا بما كان لهم في الكفر - سوى الكفر - أعمال ومساوٍ، كما يعفى ويتجاوز عن المؤمنين ما كان منهم من المساوي؛ كقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ مقابل ما كان يعفى عن المؤمنين المساوي، زيد لأهل الكفر، على عذاب الكفر؛ لمساويهم.

وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه -: ﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، وأصله أن جزاء الآخرة من الثواب والعذاب على المضاعفة؛ لأنه دائم لا انقطاع له. وما ذكر من الزيادة والفوق وغيره - فهو على المضاعفة.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

يحتمل قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: من البشر، ويحتمل ما ذكرنا من شهادة الجوارح عليهم.

وقوله - عز وجلّ -: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾.

هو ما ذكرنا: يشهد الرسول عليهم بالتبليغ، ويشهد لمن أجابه وأطاعه، وعلى من ردّ كذبه بالرد والتكذيب.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

يحتمل قوله: ﴿تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: ما ذكر في هذه السورة؛ لأنه ذكر فيها جميع أصناف النعم وجواهرها، ووجوه الأسباب التي بها يوصل إليها، وذكر فيها ما سخر لهم من أنواع الجواهر، وفيه ذكر ما وعد وأوعد، وأمر ونهى، وذكر ما حل بالأعداء وما ظفر أولياؤه بهم. وفيه ذكر سلطانه وقدرته، وذكر سفه الكفرة وعنادهم، وذكر ما يؤتى ويتقى[٢]؛ فذلك تبيان لكل شيء.

أو أن يكون في الكتاب تبيان كل شيء، وفي القرآن ما ذكرنا: من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبار الأمم الماضية وأمثالهم، وجميع ما يؤتى ويتقى[٣]؛ ففيه تبيان

---

(١) في ب: هذا.

(٢) في أ: ويبقى.

(٣) في أ: ويبقى.

كل شيء من الوجه الذي ذكرنا.

أو أن يكون أنزل عليه الكتاب [تبيانا][(١)] لكل ما دعا به الرسل وجاءت به الرسل والكتب جميعًا. في هذا الكتاب جميع ما أتى به الرسل والكتب من الأمر والنهي والوعد والوعيد، كقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثم اختلف في ذلك البيان:

قال بعضهم: تحتمل الآية وجهين:

أحدهما: الخصوص على الأصول دون الفروع؛ كذكر الكمال للدين، لكن ذلك وصف الدين، وقد يقع له الكمال بالكتاب والسنة، وهذا للكتاب؛ فلم يجز التقصير عن الاشتمال عما لزمت الحاجة في أمر الديانة.

وذكر أن الكتاب تبيان لكل ما وقعت إليه حاجة في أصول الدين: من الإيمان، وأنواع العبادات، والأحكام مع الحدود والحقوق، ومكارم الأخلاق[(٢)]: تنتظم صلة الرحم، وعشرة الإخوان، وصحبة الجيران، ونحو ذلك؛ فتشتمل هذه الجملة على أصول الدين، وما وراءها يكون موكولًا إلى بيان الرسول؛ ليفي الكتاب بما شرط له تلاوة ودلالة الوجه.

والوجه الثاني: أن يكون تبيانًا لكل شيء منتظمًا لما فيه، مجمله ومبهمه ومشكله، ولبيان الرسول مجمله وتفسيره مبهمه، وإيضاحه، ودلالته على مشكله.

وقال: والسنن كلها بيان للكتاب؛ لارتباط بعض ببعض. ثم قد يحتمل الآيات التي فيها ذكر البيان والتفصيل وجوهًا غير الوجهين اللّذين ذكرتهما:

أحدها: أنه تبيان كل شيء ظهر فيه التنازع بين أهل الأديان، وألزمتهم الضرورة فيه إلى البيان؛ فجعل الله الكتاب تبيانًا ألزمهم بالتدبر[(٣)] العلم بأنه من عند الله؛ بخروجه عما عليه وسع القوم عن نوع ما ذكر فيه من الحجج والأدلّة، وبما أعجزهم عن الطمع في تأليف مثله ونظمه؛ ليعرفوا أن الله قد أعانهم فيما مستهم الحاجة، وألجأتهم الضرورة إلى من يطلعهم على الحق فيما لو أهملوا عن ذلك لتولد منه العداوة والعناد؛ فأنعم الله عليهم به، وبين فيه جميع ما بين إليه من الحاجة لدوام الأخوة.

والثاني: أن يكون فيه تبيان كل شيء بالطلب من عنده، وبالبحث فيه الظفر بكل ما ينزل بهم من الحاجات إلى الأبد؛ فيكون هو أصل ذلك. لكن باختلاف الأسباب يوصل إلى حقيقة العلم به، وذلك نحو ما جعل الماء حياة لكل شيء ووصف أن في السماء رزق

---

(١) سقط في أ.

(٢) زاد في ب: التي.

(٣) في أ: بالتدبير.

جميع الخلق؛ [فأخبر أنه][(١)] أنزل من السماء اللّباس والرياش [لكل شيء][(٢)]، وأخبر أنه خلقنا من تراب، ثم أخبر أنه خلقنا جميعًا من نفس واحدة؛ على رجوع كل ما ذكر باختلاف الأسباب والتوالد إليه، والله أعلم.

وذلك كما قال أهل الكلام في جعل المحسوسات أدلة لكل غائب: جعلها الله أدلة توصل إليه بالتأمل والنظر فيكون المحسوس مبينًا من ذلك، وإلا على اختلاف الدرجات في حد[(٣)] البيان مع ما قد جعله الله كذلك، حتى إن في الفلاسفة من تكلف استخراج كلية أمور العالم العلوي والسفلي. وما على ذلك مدار ما عليه من هذا المحسوس؛ فمثله أمر القرآن، والله الموفق.

والثالث: أن يكون فيه بيان على الرمز والإشارة مرة، وعلى الكشف ثانيًا؛ فما كان منه على الرمز فهو مطلوب في المعاني وطريق الرسول إلى ما في تلك المعاني من الأمور المختلفة[(٤)]:

منها ما يقع بمعونة الوحي من غير الكتاب على اختلاف وجوه الوحي من إرسال على لسان ملك، أو رؤيا، أو إلهام.

والتأمل في ذلك، أو الاستدلال بما قد أوضحه بعد توفيق الله للحق في ذلك وعصمته عن الزيغ.

أو على ما شاء من ترتيب الحكماء في حق التفاهم لغوامض الأمور، أو غير ذلك مما يريد الله أن يطلع عليه نبيّه؛ فإن لطف ربّ العالمين بما عامل به الأخيار يجل عن احتمال العبارة عنه أو تصويره في الأوهام، نحو كتابة الحفظة، وقبض ملك الموت أرواح الخلق في وقت واحد في أطراف الأرض، ونحو ذلك، وذلك كله حدّ اللّطف الذي يعجز البشر عن الإحاطة؛ فعلى ذلك أمر تبيان كل شيء مع ما يحتمل الرجوع بتأويل الآية إلى أغلب الأمور وأعمها، كقوله - تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وغيره، ولا قوة إلا بالله .

والأصل عندنا: أن ليس للبيان عدد يجب حفظ العدد، على ما ذكره قوم: أنه على خمسة أوجه؛ إنما هو أمران:

أحدهما: ما يبين هو.

والثاني: ما يبين غيره، لكن الوجه الذي به يقع ما غاب عن الحواس بالبيان أصله

---

(١) في أ: فإنه.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: هذا.
(٤) في ب: مختلفة.

الواقع تحت الحواس؛ إذ البين الذي من جحده حرم أوّل درجات البيان [ومنع][1] عن فهم المجحود عنه؛ إذ[2] الجحود يكفى كلًّا مؤنة خصومته، ثم غيره مما يصير بالتأمّل على الوجوه التي جعلت للوصول إليه، وإن بعد أو قرب بدليله كالمحسوس؛ إذ التأمل في الأسباب هو سبب الوصول إلى ما غاب، كاستعمال الحواس فيما يشهد؛ فمن أراد القطع على حد أو شيء يحتاج إلى دليل فيه.

وأصل البيان - حقيقة - هو الظهور، وأسباب إظهار الأشياء متفاوتة، وعلى ذلك مقاديرها من الظهور، وجملته ارتفاع التواتر عن القلوب، وتجلى حقائق الأمور لها؛ على قدر العقول في الإدراك وما يتجلى للقلوب على مقدار ما يحتمل من الظهور.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ .

يجب أن يكون قوله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ - كله واحد الرحمة والهدى والبيان، وبرحمته وبهداه[3] يتبين لهم ويتضح، لكنهم قالوا: البيان للناس كافة يبين ويتضح إلا من عاند وكابر، والهدى والرحمة للمؤمنين خاصّة؛ على ما ذكر وهدى [ورحمة] وبشرى للمسلمين؛ ذلك للمسلمين خاصّة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾.

وقوله - عز و جل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ إلى آخر ما ذكر.

---

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: أنه.
(٣) في ب: وهداه.

قال الحسن: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ فيما بين الناس، أي: يأمر بالحكم فيها بينهم بالعدل، ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾: هو ما كلفهم بالطاعة له، أو أن يكون الأمر بالإحسان إلى أنفسهم أو إلى الناس، وجَائز أن يكون الأمر بالعدل فيما بينه وبين الله، والإحسان فيما بينه وبين الخلق، أي: يعامل ربه بالعدل؛ لأن العدل هو وضع الشيء موضعه، وهو لا يقدر على المجاوزة عن العدل حتى يكون في حد الإحسان فيما بينه وبين ربه، ويقدر أن يصنع[1] إلى خلقه أكثر مما يصنعون هم إليه؛ فيكون محسنًا إليهم، وأما إلى الله فلا يكون محسنًا.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: إعطاء ذي القربى الصدقة من غير الزكاة المفروضة.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

هي المعاصي، أي: نهى عن المعاصي كلها. وقال أبو بكر الأصم: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾، أي: بالحق الذي له عليهم، والإحسان: هو ما تعبدهم[2] من العبادات والطاعات التي جعل بسبب عطف بعضهم على بعض.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

صلة القرابة والأرحام.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

قال[3] ابن عباس[4] ومقاتل[5] وقتادة وهؤلاء: قوله: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾: بالتوحيد، ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾، أي: أداء الفرائض، وهو قول ابن عباس وقتادة.

وقال مقاتل: قوله: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾: هو فيما بينهم، يحسن بعضهم إلى بعض، ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: صلة الأرحام، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، أي: الزنى، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾، أي: السكر[6]، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾: مظالم الناس.

---

(١) في أ: صنع.
(٢) في ب: تعبدتم.
(٣) في ب: وقال.
(٤) أخرجه ابن جرير (٢١٨٦٢) و(٢١٨٦٣)، وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤١).
(٥) نسبه البغوي له كما في تفسيره (٣/ ٨١).
(٦) في ب: الشرك.

وقال بعضهم: المنكر[(١)]: ما لا يعرف في الشرائع والسنن. ويقال: المنكر: ما أوعد الله عليه النار، والبغي[(٢)]: الاستطالة، والظلم، ثم يجب [أن نقرر][(٣)] حقيقة العدل: ما هو؟ فهو - والله أعلم -: وضع كل شيء موضعه؛ فيدخل فيه كل شيء: التوحيد وغيره؛ بجعل الربوبيّة والألوهيةِ لله لا شريك فيها غيره، ولا يصرفها إلى غيره، ولا يضيف، بل ينسب الرّبوبيّة والألوهية إلى الله ، والعبودية إلى العباد، ولا يضاف العبودية إلى الله ، ولا الربوبية والألوهية إلى العباد؛ فذلك العدل ووضع كل شيء موضعه: الربوبية في موضعها، والعبودية في موضعها، هذا - والله أعلم - معنى العدل.

وأمّا الإحسان: فهو ما قال النبي ﷺ: إن جبريل سأله عن الإحسانِ حين سأله عن الإيمان والإسلام؛ فقال ما الإحسان؟ فقال: «أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(٤)]. ومن يعمل لآخر بحيث يراه وينظر إليه يكون أبدًا طالب رضاه في ذلك العمل، وإخلاصه له وطلب مرضاته فيه؛ فهو يحتمل وجوهًا ثلاثة - أعني الإحسان-:

أحدها: ما ذكر أنه يعمل له كأنه يراه، وذلك فيما بينه وبين ربه.

والثاني: فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يحب لهم كما يحب لنفسه فيما أذن له في ذلك، أو نقول على الإطلاق يحب لهم كما يحب لنفسه.

فإن عورض بالقتال والحروب التي بيننا وبين أهل الحرب، وذلك بالذي لا نحب لأنفسنا ونحب لهم - قيل: في ذلك طلب نجاتهم وتخليصهم من الهلاك والعذاب الدائم الأبدي، وذلك ما نحبه[(٥)] نحن لأنفسنا: أن يسعى أحد في نجاة أحدنا من المهلكة؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وليس [في القتال][(٦)] في الظاهر رحمة، لكن في الحقيقة رحمةٌ؛ حيث يحملهم القتال على الإسلام؛ إذ كان قبل نصب القتال والحروب معهم لم يسلم إلا قليل منهم؛ فلما نصب الحروب معهم والقتال دخلوا في الإسلام أفواجًا أفواجًا؛ فصار ذلك في الحقيقة رحمة، وإن كان في رأي العين في الظاهر ليس برحمة.

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٨٢).
(٢) زاد في ب: قيل.
(٣) سقط في أ.
(٤) طرف من حديث عمر بن الخطاب الطويل:
أخرجه مسلم (١/ ٣٦، ٣٨)، كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٨).
(٥) في ب: نحب.
(٦) سقط في أ.

وكذلك هذه المصائب والبلايا التي تحل بالخلق، هي في الحقيقة نعمة ورحمة؛ ولذلك عدها وسماها بعض الناس؛ لما تعقب من الثواب والنعمة إذا صبر عليها، ورأى ذلك منه حقًّا وعدلًا، ورأى حال الضراء والسراء منه؛ فهو بطيب نفسه في جميع الأحوال تنصرف به من الشدة والضيق، فإذا رأى نعمة، لما تعقب من الخير والنفع في العاقبة - فمن هذه الجهة يجوز أن يقال: ذلك نعمة ورحمة، وأمّا في ظاهر الحال فلا؛ وذلك أن كل بلاء ينزل[1] بأحدٍ، فصبر عليهِ كان في ذلك خصال أربعة:

أحدها: تكفير ما كان ارتكب من المعاصي.

والثاني: معرفة العبودة وملك غيره عليه.

والثالث: ما يعقب من الثواب والنعيم الدائم.

والرابع: معرفة النعم من الشدة؛ [لأنه بالشدة][2] يعرف النعم.

وأمّا الإحسان إلى نفسه: فهو أن يحفظها عما فيه هلاكها.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ .

هو ما يكبر ويفحش[3] من الشيء.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ .

هو الشيء الغريب الذي لا يعرف؛ ألا ترى إلى قول إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ سماهم منكرين لما لم يعرفهم؛ فالمنكر: ما يفعل من هو معروف بالخير والصلاح من الزلات لما يكون ذلك منهم غريبًا؛ إذ لم يعرفوا بذلك، فذلك منهم [منكر][4].

﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ .

ما يكون من أهل الفساد والشرور، وذلك مما يكبر ويفحش ذلك منهم.

﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ .

هو الظلم، ويحتمل أن يكون هذا كله المنكر والفحشاء والبغي وكله واحد: الفحشاء هو المنكر، والفحشاء هي البغي، والمنكر هو الفحشاء والبغي، والله أعلم.

وقوله - عز وجل-: ﴿يَعِظُكُمْ﴾.

---

(١) في ب: ينزله.
(٢) سقط في أ.
(٣) في أ: بفحش.
(٤) سقط في أ.

قال بعضهم: أي: ينهاكم عما ذكر كله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

وتنتهون عنه، وقال بعضهم: الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتصرفها إلى طاعة الله ، وقد ذكرنا.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ .

يحتمل أمره[١] بوفاء العهد، العهود التي يُعطي بعضهم لبعض، أمرهم بوفاء ذلك، ونهاهم عن نقضها، ويلزمهم وفاء عهد الله وإن لم يعاهدوا في ذلك، لكنه ذكر وفاء العهد إذا عاهدوا ونهى عن النقض؛ لأن ترك وفاء ما عاهدوا، ونقض ما أعطوا على ذلك شرطًا أقبح وأفحش مما لم يعاهدوا، وهو كقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧]؛ ترك الوفاء ونقضه بعد قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ : أفحش، وأفحش من نقضه إذا لم يكن لهم عهد سابق وشرط متقدم، وهذا - والله أعلم - معنى أمره بوفاء العهد إذا عاهدوا، وإن كان وفاء العهد لازمًا لهم، وإن لم يعاهدوا؛ إذ جعل الله البشر بحيث يقبلون الحكمة والمحنة، وجعل بنيتهم وخلقتهم بحيث يقدرون على القيام بذلك، كقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا. . .﴾ الآية [الأحزاب:٧٢]، أي: أبي خلقتهم وبنيتهم، أي: لم يجعل خلقة هذه الأشياء وبنيتها [بحيث][٢] تحتمل ذلك، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ ، أي خلقته وبنيته تحتمل ذلك والقيام بها، وتحتمل أن تكون العهود التي أمر بوفائها إذا عاهدوا على الأيمان التي يقيمون بها، حيث قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ : ذكر الأيمان ونهى عن نقضها، ثم لا يحتمل أن يكون النهي عن النقض في الأيمان التي يأثم بها المرء إذا حلف؛ لأنه نهى عن نقضها، ولو كان يأثم بعقدها لكان لا ينهى عن نقضها؛ لأن الأيمان التي يأثم بها المرء إذا حلف [يؤمر][٣] بنقضها أو لا يؤمر بوفائها وحفظها، ثم ذكر فيه بعد توكيدها، ولم يسغ نقض اليمين، وإن لم يؤكدها إذا لم يكن في الوفاء بها إثم، لكنه ذكر التوكيد؛ لأن النقض بعد ذلك أقبح وأفحش من النقض على غير التوكيد؛ على ما ذكر[٤] من القبح والفحش في بعض العهود بعد ما عاهدوا.

وقال بعضهم: قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هو حَلِفُهم بالله؛ لأن مشركي العرب كانوا لا

(١) في أ: أمرها.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في أ.
(٤) في ب: ذكرنا.

يقسمون بالله إلا ما يعظم من الأمر ويجل، وذلك آخر أقسامهم؛ ولذلك قال بعض أهل التأويل في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [فاطر:٤٢]: يقول: جهد أيمانهم هو قسمهم بالله.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

قيل: كانوا يحلفون فيما بينهم على جعل الله كفيلًا عليهم، وقيل: الكفيل: هو الشهيد الحافظ، وهكذا يؤخذ الكفيل فيما يؤخذ؛ ليحفظ المال أو النفس.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

من الوفاء بما عاهدوا أو النقض، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

اختلف في تأويل الآية:

قال بعضهم: الآية نزلت في مخالفة أهل الكفر بعضهم بعضًا، وهو أن يرث بعضهم بعضًا، وينصر ويعين بعضهم بعضًا، ويحلفون على ذلك ويقسمون؛ فإن هلكوا في ذلك - أي: في نصر بعضهم بعضًا [وإعانة بعضهم بعضا](١) - ثم إذا رأوا الكثرة والغلبة مع(٢) غير الذين خالفوهم(٣) - نقضوا ذلك، ورجعوا إلى الذين معهم الكثرة والغلبة؛ فنهوا عن ذلك.

وقال بعضهم: الآية في الذين يكونون بعد رسول الله وأصحابه لما علم أنه يكون خوارج وأهل اختلاف في الدّين، فربما كانت الكثرة والغلبة لهم على أهل العدل؛ فنهى من عاهد أهل العدل وبايعهم - أن يترك بكثرتهم وغلبتهم الكون مع أهل العدل، وإعانتهم، ونقض ما عاهدوا؛ ولذلك قال:

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

وقال: هذا يدل أنه في أهل الإسلام.

وقال بعضهم: الآية في أهل النفاق؛ أنهم كانوا يقسمون بالله إنهم ينصرون رسول الله وأصحابه، ويقولون: إنا معكم، كقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ...﴾ الآية [التوبة:٥٦] كانوا يُرُون من أنفسهم الموافقة لهم، والنصر، والعون

(١) سقط في أ.
(٢) في ب: من.
(٣) في أ: خالفوا.

لهم على أعدائهم ويحلفون على ذلك، ثم إذا رأوا الكثرة مع الكفرة والغلبة، وقلة المؤمنين - تحولوا إلى أولئك، ونقضوا أيمانهم، وكانوا معهم، كقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ . . .﴾ الآية [النساء: ١٤١].

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ . . .﴾ أي: لا تكونوا في نقض العهود والمواثيق كالمرأة التي تنقض غزلها من بعد قوة، وجائز أن يكون غير هذا.

يقول: ولا تظنوا في الله أن يكون في إنشاء الخلق كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة؛ فلو لم يكن بعث لكان يكون في إنشاء الخلق كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة، وقد عرفتم قبح ذلك؛ فعلى ذلك: إنشاء الخلق إذا لم يكن بعث يكون في القبح ما ذكر. ثم ضرب الله مثل من أعطى العهد والمواثيق ووكد الأيمان في ذلك، ثم نقض ذلك بامرأة تغزل ثم تنقض ذلك الغزل من بعد قوة أنكاثًا؛ يقول - والله أعلم -: كما لم تنتفع هذه المرأة بغزلها إذا نقضته من بعد إبرامها إياه؛ كذلك لا ينتفع ولا يوثق بمن أعطى العهد، ثم نقضه. يقول: فلا هي تركت الغزل تنتفع به، ولا هي تركت القطن والكتان كما هو؛ فكذلك الذي يعطي العهد ثم ينقضه فلا هو حين أعطاه وفي به، ولا هو ترك [العهد][1] فلم يعطه ونحوه. ثم اختلف في تلك المرأة:

قال بعضهم[2]: هي امرأة من قريش حمقاء بمكة، كانت إذا غزلت نقضته.

وقال بعضهم[3]: هذا على التمثيل؛ يقول - والله أعلم -: أي لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه - لقلتم: ما أحمق هذه!! فعلى ذلك من أعطى العهد والميثاق، ثم نقض - فهو كذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾.

قال أبو بكر الأصم: الدخل: الذي لا يصح ولا يستقيم؛ يقال: هذا مدخول، أي: غير صحيح. وقال غيره[4]: ﴿دَخَلًۢا﴾، أي: خديعة ومكرًا يخدع بعضكم بعضًا، وهو قول

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٣)، وهو قول عبد الله بن كثير والسدي.

(٣) قاله قتادة، أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (٢١٨٨٠) وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٣)، وهو قول مجاهد وابن زيد.

(٤) قاله سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٣)، وقاله الحسن، أخرجه ابن جرير (٢١٩٠٥) و(٢١٩٠٦).

أبي عوسجة أيضًا. وقال القتبي[١]: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، أي: خيانة ودغلًا بينكم.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ .

أي: فريق.

﴿أَرْبَىٰ﴾ .

من فريق.

وقال أبو عوسجة: ﴿أَنكَٰثًا﴾ : هي جمع «نِكْثٍ»، والنكث - من الحبل - خيوط تنكث ثم تطرق وتصير صوفًا، ثم من بعد ذلك تفتل. قال: والمِطْرَق: قضيب يضرب[٢] به الصوف حتى ينفش ويلين كما يُنْدَف القطن، يقال: طرقت الصوف - أطرقه طرقًا - أي: ضربته، ويقال: نفشته - أنفشه نفشًا - أي: فرقت بينه فتفرق، ومنه قوله: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. ويقال: حبل مَثْنِي: إذا كان طاقين، ومثلوث، ومربوع، ومخموس ومسدوس [ومسبوع][٣] ومثمون ومتسوع، ومعشور.

وقال القتبي[٤]: الأنكاث: ما نقض من غزل الشعر وغيره، واحدها: نكث.

يقول: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا؛ فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ثم نقضت ذلك فجعلته أنكاثًا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ .

قال الحسن: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ المشيئة - هاهنا - مشيئة القهر[٥] والقسر، أي: لو شاء لجبرهم وقهرهم على الإيمان فآمنوا جميعًا. فهذا فاسد؛ لأنه لا يكون بالقهر والجبر إيمان؛ لأنه لا صنع للعبد في حال القهر والجبر؛ فيبطل تأويله؛ إذ لا يجوز أن يثبت إيمان في تلك الحال.

وقال أبو بكر: تأويله قوله: لو شاء لأنزل لهم آية حتى يؤمنوا جميعًا بتلك الآية، كقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]: أخبر أنه لو أنزل آية [يكونون][٦] لها خاضعين، لكن عندنا أنهم ليسوا يؤمنون ويخضعون للآية، ولكن بما شاء لهم ذلك، ولا يحتمل أن تحملهم الآية على الإيمان، شاءوا أو أبوا؛ ألا

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٨)، وقاله أيضا قتادة ، أخرجه ابن جرير عنه (٢١٨٩٠).

(٢) في ب: يطرق.

(٣) سقط في أ.

(٤) ينظر تفسير غريب القرآن (٢٤٨)، ينظر اللباب (١٢/ ١٤٩).

(٥) في ب: الجبر.

(٦) سقط في ب.

ترى أنهم يكذبون يوم الحشر عند معاينتهم الآيات، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]: أخبر أنهم يكذبون وقد عاينوا الآيات، وليست الآية التي تنزل عليهم في الدنيا بأعظم من الآيات التي يعاينونها يوم القيامة، ثم لم يمنعهم ذلك عن الكذب؛ دلّ أن الآية ليست تحملهم على الإيمان، ولا تضطرهم عليه، ولكن لو شاء لآمنوا بالاختيار فيبطل تأويله.

ثم الآية تحتمل عندنا وجهين:

أحدهما: قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بظاهر السبب الذي إذا أعطاهم لآمنوا له، ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]: أخبر أنه لو ما يرغب الناس في الكفر فيكونون كفارًا كلهم، وإلا جعل سقف أهل الكفر ومعارجهم من فضة؛ فلو أنه جعل ذلك بعينه لأهل الإسلام وفي أيديهم لآمنوا - أيضًا - كلهم؛ لأنه لا يحتمل أن يكون ذلك في أيدى الكفرة؛ فيحمل أهل الإسلام على الكفر، وإذا كان ذلك بعينه لأهل الإسلام - لا يحمل أهل الكفر على ترك الكفر والدخول في الإسلام.

والوجه الثاني: لو شاء لجعلهم أمّة واحدة بلطف منه: يشرح صدره للإسلام من غير أن يعلم أن أحدًا ألقى ذلك في قلبه، من نحو ما مكّن للشيطان عدو الله؛ حتى يقذف في قلوب الخلق ويلقي وساوس، من غير أن يعلموا أن أحدًا دعا إلى ذلك وألقى إلى قلوبهم؛ ألا ترى أن إبليس لما وسوس إلى آدم - عليه السلام - ليتناول من الشجرة التي نهى عنها ربه لو علم أنه إبليس لما أجابه، وكذلك ما مكن للملائكة من تثبيت قلوب الذين آمنوا، وإلقاء أشياء في قلوبهم، ويلهمونهم، وهو قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] من غير أن يعلموا [أنّ][(١)] أحدًا دعاهم إلى ذلك، أو ألقى أحد ذلك في قلوبهم؛ فمن ملك تمكين عدوه وملائكته على ما ذكرنا يملك شرح الصدر للإسلام والدعاء إلى ذلك من غير أن يعلموا أن أحدًا فعل ذلك.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

على قول الحسن: على الحكم لذلك.

وقال أبو بكر الأصم: يضل بالنهي من نهى، ويهدي بالأمر. لكن هذا فاسد؛ لأنه لو كان بالنهي مضلًّا وبالأمر هاديًا - لكان مضلًّا للأنبياء والرسل؛ لأنه قد نهاهم بمناهٍ؛ فيكون مضلًّا لهم.

---

(١) سقط في أ.

فإن قيل: لم يصر ما ذكرت؛ لأنهم لم يرتكبوا المناهي - قيل: الارتكاب فعلهم؛ فلا يحتمل أن يكون بفعلهم ذلك؛ فدل أن ما ذكرنا فاسد، وعلى[١] قولهم يكون بالنهي عاصيًا مضلًّا، وعندنا قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يخلق فعل الضلال منهم، أو يضل من علم أنه يختار الضلال على الهدى ويخذلهم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هو ظاهر.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾.

قد ذكرنا[٢].

وقوله: - عز وجل -: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

قال أبو بكر: دلّ قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أن الآيات التي تقدم ذكرها في أهل الإسلام؛ لأنه أخبر أنه تزل قدم بعد ثبوتها، وهو الكفر بعد الإسلام.

وعندنا هو ما ذكرنا أن قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ بالخوف، ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: بعدما كانوا آمنين؛ لأنهم بأيمانهم كانوا يأمنون، وبنقضهم العهود والأيمان يخافون، فيكون قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ كناية عن الخوف، والثبوت كناية عن الأمن، أي صاروا خائفين بنقضهم العهود والأيمان بعدما كانوا آمنين [بها][٣]، والله أعلم.

---

(١) في ب: عليه.

(٢) قال الواحدي - رحمه الله تعالى-: «الدخل والدغل: الغش والخيانة».

وقيل: الدخل: ما أدخل في الشيء على فساد، وقيل: الدخل والدغل: أن يظهر الوفاء به ويبطن الغدر والنقض.

وقوله - تعالى-: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾ الآية لما حذّر في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان مطلقا، قال في هذه الآية ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾ وليس المراد منه التّحذير عن نقض مطلق الأيمان، وإلاّ لزم التكرار الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن بعض أيمان مخصوصة أو أقدموا عليها.

فلهذا قال المفسرون: المراد: نهي الذين بايعوا الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عن نقض عهده؛ لأنه قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض عهد قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وبشرائعه.

ينظر: اللباب (١٢/ ١٤٩، ١٥١)، وعن الحسن بنحوه (٢١٩٠٥)، و(٢١٩٠٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٥) عن الحسن وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) سقط في أ.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

على هذا التأويل: يذوقون ذلك في الدنيا؛ بالقتل والقهر، ويحتمل في الآخرة؛ بما صدّوا الناس عن دين الله ، واستبدلوا به الكفر بعد الإيمان.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وقوله - عزّ وجل -: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ .

قال بعضهم: عهد الله: دين الله.

وقال بعضهم: عهد الله الذي عهد إليهم.

ويحتمل عهد الله: ما أعطوا من العهد والأيمان، أي: ينقضوها بشيء يسير؛ إنما عند الله هو خير لكم دائم باقٍ، وهذا زائِل فانٍ، أو ما يجزي بوفاء ما عهدوا خير لكم من هذا، أي: يجزيكم بوفاء ما ذكر من العهد - خير لكم من غيره، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ .

أي: ما أخذتم من الأموال واكتسبتم بنقض العهود والأيمان ينفد ويفنى، وما عند الله من الجزاء والثواب بوفاء العهد[1] باقٍ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ .

يحتمل قوله: ﴿صَبَرُوٓا۟﴾ على ما أمروا به، ونهوا عنه، وصبروا على وفاء العهد.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿بِأَحْسَنِ﴾، أي: الجزاء الذي يجزيهم على الصّبر أحسن من وفاء العهد، أو يجزيهم بأحسن ما عملوا، أي: يجعل سيئاتهم حسنات؛ كقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجل -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ .

اختلف أهل التأويل [في قوله][2]: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ :

قال بعضهم: قوله[3]: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الآخرة، وهي الجنة.

---

(١) في أ: بعهد الوفاء.

(٢) سقط في أ.

(٣) قاله قتادة وابن زيد ،أخرجه ابن جرير عنهما (٢١٩٠٧) و (٢١٩٠٩).

وقال بعضهم: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا[١].

فمن قال: الحياة الطيبة هي الجنّة، في الآخرة، يكون تأويله: من يكن عمله في الدنيا صالحًا فليحيينه الله في الآخرة حياة طيبة؛ وإلا ظاهر قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إنما هو على عمل واحد، وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: ظاهره على حسنة واحدة، لكن الوجه فيه ما ذكرنا: من يكن عمله في الدنيا صالحًا فيفعل ما ذكر. وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: ما تؤتينا في الدنيا آتنا حسنة، أو أن يكون على الختم به، أي: من ختم بالعمل الصالح فيحييه الله حياة طيبة في الجنة، كقوله: من جاء بالحسنة فله كذا.

وقال الحسن[٢]: الحياة الطيبة هي الجنة؛ لأن في الدنيا ما ينغص حياته.

وقال بعضهم: الحياة الطيبة في الدنيا؛ فتأويله: من يكن همه وجهده في الدنيا العمل الصالح فلنحيينّه حياة [طيبة][٣]، أي: نوفقه ونيسّره الخيرات والعمل الصالح والطاعات، وهو ما روى أنه قال: «كُلٌّ مُيَسّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٤]، وكقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونحوه؛ فذلك هو الحياة الطيبة في الدنيا؛ حيث يسّر عليه العمل الصالح، ووفق للطاعات والخيرات.

وقال بعضهم[٥]: قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، أي: قنع في الدنيا بما قسم الله له ورزقه، ورضي به، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مما أزال عنه هم طلب الفضل، وغمهُ، وذلّه وحرصه عليه؛ لأن أكثر هموم الناس في الدنيا وذلهم؛ لما لم يرضوا بما قسم الله لهم، ولم يقنعوا به؛ فهو يحيا حياة طيبة لما عصم من ذلك، والله أعلم.

---

(١) قال القاضي: الأقرب أنها تحصل في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، والمراد: ما لا يكون في الآخرة.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١٩٠٥)، و(٢١٩٠٦)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٥).

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه البخاري (١٥/ ٥٠١)، كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ . . .﴾ [القمر: ١٧]، (٧٥٥١)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١)، كتاب القدر: باب كيفية خلق الآدمي (٩/ ٢٦٤٩)، عن عمران بن حصين، وأخرجه البخاري (٧٥٥٢)، ومسلم (٦/ ٢٦٤٧)، عن علي بن أبي طالب.

(٥) قاله علي والحسن البصري ،أخرجه ابن جرير عنهما (٢١٩٠١) و(٢١٩٠٢) ، وهو قول ابن عباس، أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾

أي: في الآخرة.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

على تأويل من قال: الحياة الطيّبة في الدّنيا.

وقال بعضهم - وهو قول أبي بكر-: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ : في الدنيا، ما ذكر هؤلاء.

وقال بعضهم[1]: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الرزق الحلال.

وقوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ : وقد ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ .

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال في آية أخرى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٧].

فيجب أن يتعوذ من همزاته على ما أمر رسولَه، أو عند نزغ الشيطان على ما ذكر، لكنه إذا تعوذ منه - تعوذ من همزاته ونزغاته.

فإن قيل: كيف خصّ قراءة القرآن بالتعوذ منه دون غيره من الأذكار، والعبادات، والأعمال الصالحة؟

قيل: قد يتعوذ منه دون غيره - أيضًا - في غيره من العبادات والأذكار؛ بقولهم: «بسم

---

(١) قاله ابن عباس، وأخرجه ابن جرير (٢١٨٩٣)و (٢١٨٩٨)، وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٤)، وهو قول الضحاك.

الله»؛ إذ لا يفتتح شيء إلا به؛ فذلك تعوذهم منه، لكن التعوذ في هذا تعوذٌ بكناية، والتعوذ في قراءة القرآن بالتصريح؛ وذلك أنه حجة وبرهان؛ فطعن الأعداء فيما هو حجة في نفسه أكثر من الأفعال التي فعلوها؛ ألا ترى أنه كان يلقنهم - أعني الشيطان [و] أولياءه - أنه سحر، وأنه: أساطير الأوّلين، وأنه إنما يعلمه بشر، ونحوه. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]: كانوا يطلبون الطعن في القرآن؛ لأنه حجّة وبرهان، ولم يشتغلوا في طعن فعل من الأفعال أو ذكر من الأذكار؛ فعلى ذلك يجوز أن يكون التعوذ منه - فيما هو حجة - بالتصريح، وفي غيره بكناية، والله أعلم.

ثم في هذه الآية، وفي غيرها من قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] - لم يفهم أهلها منها على ظاهر المخرج؛ ولكن فهموا على مخرج الحكمة؛ لأن ظاهر المخرج أن يفهم التعوذ بعد فراغه من القراءة، وكذلك يفهم من الأمر بالقيام إلى الصلاة الوضوء بعد القيام إليه، ثم [لم][1] يفهموا - في هذا ونحوه - هذا؛ ولكن فهموا: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، وكذلك فهموا من قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾، ولم يفهموا كل قيام؛ إنما فهموا قيامًا دون قيام، أي: إذا [أردتم] القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون، وفهموا من قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وفهموا من قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وكذلك فهموا من قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] - الفراغ منها؛ دلّ أن الخطاب لا يوجب المراد والفهم على ظاهر المخرج؛ ولكن على مخرج الحكمة والمعنى.

وأصل التعوذ هو الاعتصام بالله من وساوس عدوه وكيده.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

قال بعضهم: ليس له سبيل على الذين آمنوا.

وقال بعضهم[2]: السلطان: الحجّة، أي: ليس له حجة على الذين آمنوا.

وقال بعضهم: أي ليس له ملك على الذين آمنوا - ملك القهر والغلبة - إنما ملكه على الذين يتولونه، لكن ليس له ملك القهر على الذين يتولّونه أيضًا؛ إنما يتبعونه ويطيعونه

---

(١) سقط في أ.

(٢) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير (٢١٩١٨)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٦).

بإشارات منه طوعًا؛ فدلّ أن تأويل الملك لا يصح في السلطان، ويكون تأويله السبيل أو الحجّة.

ثم يحتمل قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ - بالقرآن؛ لأنه ذكر على أثر ذكر القرآن، ويحتمل: الذين آمنوا بربهم، وهما واحد في الحاصل؛ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ : حجته أو سبيله على الذين يتخذونه وليًا، فيطيعونه في كل أمره وجميع إشاراته وما يلقي[١] إليهم، وأصله: ليس له سلطان على الذين آمنوا بربهم.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

في جميع أحوالهم وساعاتهم؛ أي: لا سلطان له ولا سبيل على من آمن به وتوكل عليه.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ .

[يحتمل قوله: ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾][٢] .

إبليس يتبعونه ويعدلون بربهم، ويحتمل ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾: بربهم، والتوكل: هو الاعتماد به، وتفويض الأمر إليه في كل حال: السراء والضراء وفي وقت الضيق والسّعة؛ فذلك التوكل به.

وقوله - عز وجلّ -: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ . . .﴾ .

الآية تحتمل وجهين[٣]:

أحدهما: ما قاله أهل التأويل على التناسخ أن يبدّل آية مكان آية، وهو على تبديل حكم آية بحكم آية أخرى، لا على رفع عينها.

والثاني: قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ ، أي: بدّلنا حجّة بعد حجة، وآية بعد آية لرسالته.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾

كلما أتاهم حجة على أثر حجة، وآية بعد آية يقولون: إنما أنت مفتر. ينسبون إليه

---

(١) في أ: يلقون.

(٢) سقط في أ.

(٣) اعلم أنه - سبحانه جل ذكره - شرع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد ﷺ.

قال ابن عباس- رضي الله عنه-: كان المشركون إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها يقولون: إن محمداً يسخر بأصحابه؛ يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾، والتبديل: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وهو هنا النسخ.

ينظر: اللباب (١٢/١٥٦).

الافتراء: أنه افترى، وكذلك كان عادتهم المعاندة والمكابرة؛ كقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، وكقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، ونحوه من الآيات. كلما أتى بهم حجة وآية بعد آية كانوا يستقبلونه بالتكذيب لها، ونسبة رسول الله إلى الافتراء من نفسه؛ ويزداد لهم بذلك كفرًا، وهو ما قال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]: أخبر أنه كان يزداد لأهل الإيمان بما ينزل عليهم من سورة إيمانًا، ويزداد لأهل الشرك رجسًا وكفرًا إلى كفرهم مثل هذا[١].

ولو كان يحتمل أن يكون حرف (إذا) مكان (لو) - لكان أقرب، ويكون تأويله: ولو أنزلنا حجة بعد حجة وآية على أثر آية جديدة - فما آمنوا؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ . . .﴾ الآية [الرعد: ٣١]، أي: لو أن هذا القرآن - قرآن سيرت به الجبال أو كلم به الموتى - فما آمنوا به؛ لعنادهم؛ فعلى ذلك: الأول قد يحتمل قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالسؤال مكان آية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ .

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ .

يحتمل قوله: [﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ به صلاحهم وغير صلاحهم، أو أن يكون][٢]: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من تثبيت قلوب الذين آمنوا؛ كقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ١٠٢]، أو أن يكون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ : جبريل على رسوله؛ جوابًا لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ، وكقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: ليس بمفتر؛ ولكن نزله جبريل من ربّه.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

يحتمل قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالحق الذي عليهم، أو بالحق الذي لبعضهم على بعض. والحق في الأقوال: هو الصدق، وفي الأفعال: صواب ورشد، وفي الأحكام: عدل وإصابة، والحق: هو الشيء الذي يحمد عليه فاعله.

وقوله - عز وجل -: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى﴾ .

---

(١) زاد في ب: والله أعلم.
(٢) سقط في ب.

هذا تفسير قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ ؛ لأنه أخبر أنه: ليثبت الذين آمنوا؛ فذكر من زيادة الإيمان - هو التثبيت - الَّذى ذكر هاهنا - قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ ، وذكر قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ - مقابل قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]؛ ليعلم أن الزيادة التي ذكر في سورة التوبة - هي ما ذكر هاهنا من التثبيت والطمأنينة ونحوه.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

أي: هدى من الجهالات والشبهات التي كانت تعرض لهم، أو من الضّلالة، وبشرى للمسلمين. وقال: في آية أخرى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]؛ ليعلم أن الإيمان والإسلام واحد.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ .

هم لم يقولوا إنما يعلمه بشر؛ ولكن كانوا ينصُّون واحدًا فلانًا، لكن الخبر من الله على ذكر البشر؛ ألا ترى أنه أخبر أن ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ .

دلّ أن البشر - الذي أخبر عنهم أنهم يقولون: إنه يعلمه - كان منصوصًا عليه مشارًا إليه؛ حيث قال: لسان هذا أعجمى، ولسان النبي عربي؛ فكيف فهم هذا عن هذا، وهذا من هذا، ولسان هذا غير لسان هذا؟! وما قاله أهل التأويل[1]: أنه كان يجلس إلى غلام يقال له كذا، وهو يهودي يقرأ التوراة؛ فيستمع إلى قراءته، وكان يعلمه الإسلام حتى أسلم، فعند ذلك قالت له قريش: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ، ولو كان ما ذكروا أنه كان يعلمه الإسلام فأسلم؛ فلقائلٍ أن يقول: كيف فهم ذلك الرجل منه لسان[2] رسول الله ﷺ ولسانه غير لسانه؟! على ما أخبر؛ لكن يحتمل أن يكون ذلك في القرآن؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ، ثم يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ؛ فيقول - والله أعلم -: إنه كيف علمه هذا القرآن، وهو لا يفهم من لسانه إلا يسيرًا منه؛ فأنتم لسانكم عربي لا تقدرون أن تأتوا بمثله، ولا بسورة من مثلها، ولا بآية؛ فكيف قدر على مثله من لا يفهم لسانه، ولا كان ذلك بلسانه؟! يخرج ذلك على الاحتجاج عليهم.

وبعد، فإن في قولهم ظاهر التناقض؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ، ثم قالوا:

---

(١) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير (٢١٩٣٣) وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٧)، وهو قول عكرمة وقتادة والسدي وغيرهم.

(٢) في أ: سنن.

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ، فالذى علمه غيره ليس بمفتر؛ إنما يكون الافتراء من ذات نفسه فهو ظاهر التناقض.

وقوله: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ .

يحتمل: مبين ما لهم وما عليهم، أو مبين للحقوق التي لله عليهم وما لبعضهم على بعض، أو مبين: أي بين أنه من عند الله نزل؛ ليس بمفترى.

وهذه الآية ترد على الباطنيّة قولهم؛ لأنّهم يقولون: إن رسول الله هو الذي ألف هذا القرآن بلسانه، ولم ينزله الله عليه بهذا اللسان؛ فلو كان على ما ذكروا ما كان لأولئك ادعاء ما ادعوا على رسول الله من الافتراء.

قوله: ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ .

قال بعضهم[(١)]: يميلون إليه، وهو قول أبي عوسجة والقتبي[(٢)]؛ قالوا: الإلحاد: الميل[(٣)]، وكذلك سمّي اللّحد لحدًا؛ لميله إلى ناحية القبر.

وقال الكسائي: هو من الركون إليه، أي: يركنون.

قوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾.

قال الحسن: إنه - والله - من كذب بآيات الله فهو ليس بمهتد عند الله.

[و] قال أبو بكر: لا يهديهم الله بتكذيبهم الآيات.

فهو كله خيال على كل من يشكل ويخفي أن من كذب بآيات الله فهو غير مهتد من يظن هذا، وقول أبي بكر - أيضًا - من يتوهم أن من كذب بآيات الله أنه يهديه - هذا فاسد، خيال كله، وأصله عندنا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [؛ لعنادهم ومكابرتهم؛ لأنهم كانوا يعاندون بآيات الله ويكابرونها، ويكذبون مع علمهم أنها آيات، وأنها حق أو قال ذلك في قوم علم أنهم لا يؤمنون][(٤)] ويموتون عليه؛ فمن علم منه أنه لا يؤمن لا يهديه.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ .

لا الذين يؤمنون بها ويصدقونها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ .

---

(١) قاله البغوي (٣/ ٨٥).

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٩).

(٣) ينظر اللباب (١٢/ ١٥٩، ١٦٠).

(٤) ما بين المعقوفين سقط في أ.

الذين كذبوها.

﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ يحتمل وجهين - حيث ذكر من كفر بالله -:

أحدهما: كفر بالله في زعم المكره؛ لأنه أكرهه به ففي زعمه كافر بالله؛ لطلبه ذلك منه، وهو كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]: في زعمهم؛ لأنهم لم يكونوا آلهة، وكقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧]: سماه إلهًا؛ لأنه - في زعم السامري - إله.

والثاني: من كفر بالله شارحًا صدره بالكفر - هو الكافر به حقًّا، وأما من أظهر الكفر بلسانه بالإكراه، وقلبه معتقد بالإيمان على ما كان مطمئنًّا به - فهو ليس بكافر. وأصله: أن من اعتقد مذهبًا [أو دينًا][(١)] أن يعتقده بخصال ثلاث:

إحداها: يقلد آخر؛ لما رآه[(٢)] أبصرَ وآخذ وأعلم فيه، وهو لا يبلغ ذلك، فيقلده؛ لفضل بصره وعلمه فيه ورأيه.

والثانية: يعتقد للشبهة؛ لما يتراءى عنده أنه الحق؛ فيعتقده لذلك للشبهة التي ذكرنا.

والثالثة: [يعتقد لما][(٣)] يتضح له الحق فيعتقده.

فلهذه الوجوه الثلاثة يعتقد من يعتقد دينًا أو مذهبًا، فأما أن يعتقد الإنسان مذهبًا مجانا على الجزاف فلا؛ فكأن إظهار كفر هذا لإكراه من أكرهه لم يصر كافرًا.

وأصله أن الإيمان والكفر إنما يكونان بالاختيار؛ فإن الإكراه يزيل اختيار من كفر؛

---

(١) في ب: ودينا.
(٢) في أ: رأى.
(٣) سقط في أ.

لذلك يبقى على الإيمان على ما كان؛ لما لم يوجد منه اختيار الكفر.

فإن قيل: أليس أمرنا أن نقاتل أهل الكفر؛ ليسلموا، وذلك إسلام بإكراه؟! وعلى ذلك نطق الكتاب، وهو قوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح:١٦]، وقال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إلا الله»[(١)]، ثم إذا أسلم لخوف السيف - كان إسلامه إسلامًا في الظاهر ما يمنع كذلك أنه إذا أكره على الكفر، فأجرى كلمة الكفر على لسانه - كان كفره كفرًا في الظاهر؛ فيحكم بكفره كما حكم في الإسلام على الإكراه؛ فما الفرق فيه؟!

قيل: إن ذلك كان يجيء إلا أن الله - تعالى - أعفى عباده عن ذلك؛ فأبقاهم على الإيمان وحكمه، وإن أظهروا بلسانهم كلام الكفر بعد أن تكون قلوبهم مطمئنة بذلك؛ فضلًا منه ونعمة، وإلا: القياس أن يحكم بحكم الكفر إذا تكلم بكلام الكفر، وأمّا الطلاق والعتاق والنكاح ونحوه، وهو ظاهر على ما تكلم به، عامل واقع؛ لأن الطلاق والعتاق ونحوهما ممّا يتعلق بالكلام نفسه لا بغيره، فهو - وإن أكره على ذلك - فهو مختار للتكلم به، قاصد له؛ لأن المكره لو أحب أن يستعمل لسانه بالتكلم بما ذكر ما قدر عليه؛ دل أنه على الاختيار يتكلم، وأما البيع والشراء ونحوه لم يتعلق بالكلام نفسه؛ إذ قد يكون

---

(١) حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٢) كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم (١/ ١٨٠) [أبي] كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، (٣٤/ ٢٠)، وأبو داود (٣/ ١٠١) كتاب: الزكاة، باب: على ما يقاتل المشركون، حديث (٢٦٤٠)، والترمذي (٤/ ١١٧) كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، حديث (٢٧٣٣)، والنسائي (٥/ ١٤) كتاب: الزكاة، باب: مانع الزكاة، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥) كتاب: الفتن، باب: الكف عمن قال لا إله إلا الله، حديث (٣٩٢٧)، والشافعي (١/ ١٣) باب الإيمان والإسلام، عبد الرزاق (٦/ ٦٧) كتاب: أهل الكتاب، باب: أقاتلهم حتى يقولوا: (لا إله إلا الله)، حديث (١٠٠٢٢)، وأحمد (٢/ ٣٤٥)، وابن الجارود (ص - ٣٤٣)، باب: فيما أمر رسول الله ﷺ بالدعاء إلى توحيد الله عز وجل والقتال عليها، حديث (١٠٣٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٣) كتاب: السير، باب: ما يكون الرجل به مسلما، وابن سعد في الطبقات، والدارقطني (١/ ٢٣١، ٢٣٢) كتاب: الصلاة، باب: تحريم دمائهم وأموالهم إذا تشهدوا بالشهادتين، حديث (٢)، والحاكم (١/ ٣٨٧) كتاب: الزكاة، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٦)، وابن حبان (١٧٤)، من طريق عن أبي هريرة.

أما حديث ابن عمر:

أخرجه البخاري (١/ ٢٢) كتاب: الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم حديث (٢٥)، ومسلم (١/ ٥٣) كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله... (٣٦/ ٢٢)، والدارقطني (١/ ٢٣٢)، والبيهقي (٣/ ٩٢).

بالأخذ والتسليم دون التكلم به؛ لذلك عمل الإكراه في إبطاله كما أبقاهم على الإيمان وحكمه، وإن أظهر بلسانه كلام الكفر بعد أن يكون قلبه مطمئنًا بذلك، وعلى ذلك ما روي عن نبيّ الله ﷺ حيث قال: «رُفِعَ[1] عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه»[2]؛ وذلك في الكفر ليس في غيره؛ لأن الإكراه على الكفر كان ظاهرًا يومئذ، ولم

---

(١) في ب: عفوت.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، حديث (٢٠٤٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥)، والبيهقي (٧/ ٣٥٦ - ٣٥٧) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في طلاق المكره، كلهم من طريق محمد بن المصفى ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما استكرهوا عليه وعن الخطأ والنسيان».

ومن طريق محمد بن المصفى:

أخرجه أبو القاسم الفضل بن جعفر التميمي المعروف بأخي عاصم في فوائده، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة؛ كما في المقاصد الحسنة (ص - ٢٢٩).

قال الحافظ البوصيري في الزوائد (٢/ ١٣٠): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع، قال المزي في الأطراف رواه بشر بن بكر التنيسي عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس. انتهى. وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم. ا هـ.

وهذا كلام جيد من الحافظ البوصيري - رحمه الله - والطريق الذي أشار إليه الحافظ المزي.

أخرجه ابن حبان (١٤٩٨ - موارد)، والدارقطني (٤/ ١٧٠ - ١٧١) كتاب: النذور رقم (٢٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٩٥) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره، والحاكم (٢/ ١٩٨) كتاب: الطلاق والبيهقي (٧/ ٣٥٦) كتاب: الخلع والطلاق، باب: طلاق المكره، والطبراني في الأوسط؛ كما في «التلخيص» (١/ ٢٨٢) كلهم من طريق بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء بن رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس.

قال البيهقي: جوده بشر بن بكر.

وقال الطبراني: لم يروه عن الأوزاعي مجودًا إلا بشر. ا هـ.

ومن هذا الطريق صححه ابن حبان.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس.

الطريق الأول:

أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٣٣ - ١٣٤) رقم (١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي حدثني سعيد - هو العلاف - عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - عز وجل - تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (٣٢٦): أخرجه الجوزجاني، وسعيد العلاف: هو سعيد بن أبي صالح، قال أحمد: وهو مكي، قيل له: كيف حاله؟ قال: لا أدري وما علمت أحدًا روى عنه غير مسلم بن خالد، قال أحمد: وليس هذا مرفوعًا إنما هو عن ابن عباس قوله نقل ذلك عنه مهنا، ومسلم بن خالد ضعفوه. ا هـ.

الطريق الثاني:

أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٨٢) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمي حدثني أبي عن =

. . . .

= سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «عفي لي عن أمتي الخطأ والنسيان والاستكراه».

وعبد الرحيم بن زيد:

قال يحيى: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال السعدي: غير ثقة. أسند ذلك عنهم ابن عدي في الكامل.

وقال النسائي: متروك وضعفه أبو داود وأبو زرعة. التهذيب (٦/ ٢٧٣)، وزيد العمي، قال الحافظ في التقريب (١/ ٢٧٤): ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث أبي بكرة وأبي الدرداء وأم الدرداء وثوبان وعقبة بن عامر وابن عمر وأبي ذر.

١ - حديث أبي بكرة:

أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٩٠ - ٩١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ١٥٠) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثًا: الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه».

ومن هذا الوجه أخرجه الحافظ في تخريج أحاديث المختصر (١/ ٥٠٩)، وقال: هذا حديث غريب، أخرجه ابن عدي في الكامل عن حذيفة بن الحسن عن أبي أمية محمد بن إبراهيم عن جعفر، وعده في منكرات جعفر وقال: لم أر للمتقدمين فيه كلامًا، ولعل ذلك من قبل أبيه، فإني لم أر له رواية عن غيره.

قلت - أي: الحافظ - أبوه ضعفه يحيى بن معين والبخاري وغيرهما. اهـ.

٢ - حديث أبي الدرداء:

أخرجه الطبراني؛ كما في نصب الراية (٢/ ٦٥) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله: «إن الله تجاوز لأمتي عن النسيان وما أكرهوا عليه».

قال الحافظ في التلخيص (١/ ٢٨٢): وفي إسناده ضعف.

٣ - حديث أم الدرداء:

أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره؛ كما في تخريج المختصر (١/ ٥٠٩) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان والاستكراه» قال أبو بكر الهذلي: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل؛ أما تقرأ بذلك قرآنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

قال الحافظ: وأبو بكر الهذلي ضعيف، وفي الإسناد مع ذلك انقطاع أو إرسال بالنسبة لأم الدرداء؛ لأنها إن كانت الكبرى فمنقطع، وإن كانت الصغرى فمرسل، وفي شهر مقال أيضًا. اهـ.

والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٦٥)، وعزاه لابن أبي حاتم.

٤ - حديث ثوبان:

أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٧) رقم (١٤٣٠) من طريق يزيد بن ربيعة الرحبي ثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوز عن أمتي ثلاثة: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه».

قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني، وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف.

والحديث ضعف سنده الحافظ في التلخيص (١/ ٢٨٢).

٥ - حديث عقبة بن عامر: =

يكن في غيره من طلاق وغيره.

وأمّا قتالنا إياهم؛ ليسلموا - فهو يحتمل وجوهًا:

أحدها: على المجازاة؛ كقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، فنقاتلهم ليظهروا الإسلام، وإن لم يعرف حقيقة على المجازاة.

والثاني: قبلنا منهم الإسلام على الإكراه لنقرهم فيما بين المسلمين؛ فيرون الإسلام ويتعلمون منهم حقيقة؛ ألا ترى أنه قال: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ سمّاهنّ مؤمنات، ثم أمرنا بامتحانهن؛ بقوله: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾؛ فإنما يمتحنَّ؛ ليظهر حقيقة إيمانهن، وإلا لم يكن للامتحان معنى لولا ذلك.

وأصله: أن الله جعل حقيقة الإيمان والكفر بالقلب دون اللسان وغيره من الجوارح؛ لأن غيره من الجوارح يجوز استعمالها بالإكراه، وأمّا القلب فإنه لا يملك أحد سواه

= ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٣)، وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف.

٦ - حديث ابن عمر:

أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢)، والطبراني في الأوسط؛ كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٣) كلهم من طريق محمد بن المصفى عن الوليد ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به ابن مصفى عن الوليد وضعفه العقيلي وأعله بابن مصفى ونقل تضعيفه عن الوليد.

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن مصفى، وثقه أبو حاتم، وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح.

٧ - حديث أبي ذر:

أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، حديث (٢٠٤٣) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أبي ذر مرفوعًا.

قال البوصيري في الزوائد (٢/ ١٣٠) هذا إسناد ضعيف؛ لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي.

قلت: وللحديث علتان أخريان، ضعف شهر بن حوشب، والانقطاع بينه وبين أبي ذر.

قال العلائي في جامع التحصيل (ص - ١٩٧): شهر بن حوشب عن تميم الداري وأبي ذر وسلمان رضي الله عنهم، وذلك مرسل. ا هـ.

وحديث «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان».

صححه الحاكم وابن حبان والضياء والذهبي والنووي في الأربعين (ص - ٨٥) فقال: إنه حسن.

وحسنه الحافظ في تخريج المختصر (١/ ٥١٠)، وقال: وبمجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلاً.

وتبعه تلميذه السخاوي في المقاصد (ص - ٢٣٠). ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير (١٧٠٥).

استعماله، وذلك بفضله ومنّه.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ .

ومن شرح صدره بالكفر فهو كافر به إن كان ليس على الإكراه؛ لما ذكرنا أنه باختياره الكفر ينشرح له الصّدر لما لا يعمل الإكراه على القلب.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ظاهر.

وقوله - عز وجل -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ .

أي: ذلك الغضب والعذاب بأنهم.

﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ .

يحتمل وجهين:

أحدهما: استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة؛ جحودًا وإنكارًا، وإلا نفس الاستحباب قد يكون من المؤمن؛ فلا يزيل[1] عنه اسم الإيمان؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]؛ فلم يزل عنهم اسم الإيمان باختيارهم واستحبابهم الحياة الدنيا؛ فدلّ أن الأول عن الجحود له والإنكار، وهذا على الميل إليه دون الجحود؛ أو أن يكون كذلك لما لم يروا الآخرة كائنة لا محالة ولكن ظنًّا ظنّوا لعلها كائنة؛ كقولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] وأمّا أهل الإسلام فإنهم لم يكونوا فيها ظانين [متشككين][2]؛ ولكن متحققين مستيقنين؛ فاستحقوا بذلك.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

وقت اختيارهم الكفر؛ [لأن الله][3] لا يهدي القوم المختارين الكفر على الإيمان؛ وقال ذلك لقوم علم الله أنهم يختارون الكفر، وأنهم يموتون على الكفر؛ فلا يهديهم[4].

---

(١) في أ: يزول.

(٢) سقط في ب.

(٣) في ب: أو أنه.

(٤) أي: ذلك الارتداد إنما حصل لأجل أنه- تعالى- ما هداهم إلى الإيمان، وما عصمهم عن الكفر.
قال القاضي: المراد :أن الله- تعالى- لا يهديهم إلى الجنة، وهذا ضعيف؛ لأن قوله - تعالى-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]؛ فوجب أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، علة وسببا موجبا لإقدامهم على ذلك الارتداد، وعدم الهداية يوم القيامة إلى الجنة ليس سببا لذلك الارتداد ولا علة، بل كسبا عنه =

وقوله - عز وجل -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ .

الطبع: هو التغطية: تغطي ظلمة الكفر نور القلب والسمع ونور البصر، كأن لكل أحد نورين وبصرين، ظاهر وباطن يبصر بهما جميعًا؛ فإذا ذهب أحدهما أو عمي - صار لا يبصر؛ كمن يبصر ببصر الظاهر، إنما يبصر بنور بصره ونور الهواء؛ فإذا دخل في أحدهما آفة ذهب الانتفاع، وصار لا يبصر شيئًا؛ فعلى ذلك للقلب بصر خفي، وبصر ظاهر الذي هو معروف؛ فإنما يبصر بهما؛ فإذا غطى ظلمة الكفر بصر القلب صار لا يبصر شيئًا؛ ألا ترى أنه قال: ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أخبر أن الأبصار الظاهرة لم تعمَ؛ ولكن عميت القلوب التي في الصدور، هذا يدل على - ما ذكرنا والله أعلم - معنى طبع السمع والبصر(١).

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

= ولا معلولا له؛ فبطل هذا التأويل.
ينظر: اللباب (١٢/١٦٨).

(١) قال القاضي: الطبع ليس يمنع من الإيمان لوجوه:
الأول: أنه - تعالى- أشرك ذكر ذلك في معرض الذم، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقوا الذم بتركه.
الثاني: أنه - تعالى - أشرك بين السمع، والبصر، والقلب في هذا الطبع، ومعلوم أن مع فقد السمع والبصر قد يصح أن يكون مؤمنًا، فضلًا عن طبع يلحقهما في القلب.
الثالث: وصفهم بالغفلة، ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه، فثبت أن المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب، وتقدم الجواب في أول سورة البقرة.
ثم قال - تعالى - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما-: أي: عما يراد بهم في الآخرة.
ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]، أي: المغبونون، والموجب لهذا الخسران أنه- تعالى- وصفهم بصفات ستة:
أولها: أنهم استوجبوا غضب الله.
وثانيها: أنهم استحقوا العذاب الأليم.
وثالثها: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.
ورابعها: أنه - تعالى - حرمهم من الهداية.
وخامسها: أنه - تعالى - طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.
وسادسها: أنه - تعالى - جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة، فكل واحد من هذه الصفات من أعظم الموانع عن الفوز بالسعادات والخيرات، ومعلوم أنه - تعالى - إنما أدخل الإنسان في الدنيا؛ ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة، عظم خسرانه؛ فلهذا قال-تعالى-: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]، أي: هم الخاسرون لا غيرهم.
ينظر: اللباب (١٢/١٦٨، ١٦٩)

يحتمل: غافلون عن النظر في آياته وحججه، ويحتمل: غافلون عما يحل بهم؛ بكفرهم وتكذيبهم آيات الله وحججه.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿لَا جَرَمَ﴾ .

قد ذكرنا ما قيل فيه: لا بد، وحقًّا، وقيل: هو حرف وعيد.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

قال الحسن: إنهم - والله - خسروا الجنة ورحمة الله ، خسروا أهلهم ومنزلهم الذي كان لهم في الجنة، وخسروا منهم أنفسهم حين قذفوها في النار.

وقال أبو بكر الأصم: خسروا النعم الدائمة الباقية بالزائلة الفانية، وخسروا أنفسهم؛ حيث قتلوا، وأسروا في الدنيا، والله أعلم.

وقوْله - عز وجل -: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ .

قيل: عذبوا على الإيمان بمكة، ثم جاهدوا مع النبي ﷺ وأصحابه عدوَّهم، وصبروا على ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قيل: من بعد الفتنة لغفور لما كان منهم، (رحيم) ذكر مرتين:

أحدهما: قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، [قيل: من بعد الفتنة][1] فيجيء أن يكتفى بواحد يقول: لغفور رحيم موصولًا بقوله: للذين فعلوا ما ذكر، لكنه ذكر مرتين - والله أعلم: إنه لغفور لهم يعني: لهؤلاء الذين فتنوا وعذبوا، ولغيرهم.

ذكر أهل التأويل[2] أن أناسًا من المؤمنين خرجوا إلى المدينة فأدركهم المشركون؛ ليردوهم؛ فقاتلوهم؛ فمنهم من قتل، ومنهم من نجا؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا . . .﴾ الآية.

ومنهم من يقول - أيضًا -: فيهم نزل قوله: ﴿الم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا . . .﴾ الآية [العنكبوت: ١، ٢].

وأكثرهم قالوا[3]: إن قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

---

(١) سقط في ب.

(٢) قاله قتادة، أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (٢١٩٥٢)، وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٠).

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير (٢١٩٤٤)، (٢١٩٤٥)، وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم، وصححه والبيهقي في الدلائل عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٤٨).

﴿مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: إنما نزل في عمار بن ياسر، وليس لنا إلى ذلك حاجة؛ إنما الحاجة فيما ذكرنا من الحكم فيه[1] والحكمة، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

قال الحسن: ﴿تُجَٰدِلُ﴾، أي: تخبر، ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾: عما عملت من خير أو شرّ. وقال أبو بكر الأصم: إن كل نفس رهينة بما كسبت من شر حتى يكون طائرًا في عنقه. ولكن ليس لنا فيما ذكر هؤلاء مجادلة، المجادلة: المخاصمة؛ كأنها تخاصم عن نفسها من ارتكاب أشياء، ودعوى أشياء على ما ذكر في غير آية؛ من قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقال بعضهم: إن جهنم تزفر زفرة حتى لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلّا وقد جثا بركبتيه؛ خوفًا منها؛ فعند ذلك تجادل وتخاصم كل نفس عن نفسها، ويشبه أن يكون مجادلتهم على غير هذا، وهو ما ذكر: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]؛ فتلك مجادلتهم أنفسهم، وكقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وكذلك ما ذكر في المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ...﴾ الآية [المجادلة: ١٨].

وذلك كله مجادلتهم أنفسهم، أو أن يقال: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ لكن لا يفسّر: ما تلك المجادلة؛ لأن الله - تعالى - ذكر المجادلة، ولم يذكر ما تلك المجادلة؟

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: لا ينقصون من حسناتهم ولا يزدادون على سيئاتهم.

وهذه الآية تردّ على المعتزلة؛ لأنهم يقولون بالتخليد لصاحب الكبيرة، وقد أخبر أنه: توفى كل نفس ما عملت من سوء، ولا توفى ما عملت من الخيرات والطاعات.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ

(١) في أ: به.

عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾.

اختلف في ضرب المثل بهذه الآية[1]، وفي نزولها:

قال بعضهم: ضرب المثل لأهل مكة، وفيها نزلت - بقريات نزل بهم العذاب؛ بتكذيبهم رسلهم في بني إسرائيل، يحذر أهل مكة بتكذيبهم رسول الله نزول العذاب بهم كما نزل بأوائلهم.

وقال بعضهم: ضرب المثل لأهل المدينة، وفيهم نزل بأهل مكة؛ يحذر أهل المدينة؛ لئلا يكذبوا محمدًا كما كذب أهل مكة؛ فيحل بهم كما حل بأهل مكة من الناس الجوع والخوف؛ بالتكذيب.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

قيل[2]: هي مكة؛ أهلها كانوا آمنين فيها من خير أو شر، مطمئنين يأتيهم رزقهم من كل مكان. ويحتمل قرية أخرى غيرها؛ كانوا على ما ذكر.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) اعلم أنه - تعالى- هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة، وهددهم أيضاً بآفات الدنيا، وهي الوقوع في الجوع والخوف، كما ذكر- تعالى- في هذه الآية.

واعلم أن المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة، سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن، وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية يحتمل أن تكون موجودة ويحتمل أن تكون غير موجودة.

فعلى الأول، قيل: إنها مكة، كانت آمنة، لا يهاج أهلها ولا يغار عليها، مطمئنة قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتجاع كما يفعله سائر العرب، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، يحمل إليها من البر والبحر، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، جمع النعمة، وقيل: جمع نعمى، مثل بؤسى وأبؤس فأذاقهم لباس الجوع، ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين، وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ، حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة، والجيف والكلاب الميتة والعلهز: وهو الوبر يعالج بالدم.

قال ابن الخطيب: والأقرب أنها غير مكة؛ لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة. وهذا مثل أهل مكة؛ لأنهم كانوا في الطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة، وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فسلط الله عليهم البلاء وعذبهم بالجوع سبع سنين، وأما الخوف فكان يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم.

ينظر: اللباب (١٢/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) قاله ابن عباس ،أخرجه ابن جرير (٢١٩٥٦)، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد وعطية.

أي: كفرت بالشكر لأنعم الله، أي: لم يشكروها، ليس أنهم لم يروها من الله - تعالى - وقوله - عزّ وجل-: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ .

اللّباس: هو ما يستر وجوه الجواهر، ألا ترى أنه سمى الليل لباسًا؛ لما ستر وجوه الأشياء؛ فعلى ذلك الجوع يرفع الستر واللباس الّذي كان قبل الجوع؛ لأن الجوع إذا اشتد غيّر وجه صاحبه، ورفع ستره، والجوع: ما ذكر أنه أصابهم جوع حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة. والخوف: [ما] ذكر أنه بعث رسول الله ﷺ إليهم؛ ألا ترى أنه قال: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهْرَين»[١]، وقيل: الخوف: القتل.

وقوله: ﴿رَغَدًا﴾.

قال الكسائي: رغد الرجل إذا أصاب مالًا أو عيشًا من غير عناء وكدّ.

وقال القتبي[٢]: رغدًا، أي كثيرًا واسعًا.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ .

قوله: ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: من أنفسهم، من نسبهم وحسبهم، يعرفونه، كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ .

بالتكذيب؛ حيث وضعوا الشيء في غير موضعه، أو ظالمون على أنفسهم.

أخبر أنه بعث الرسول من جنسهم ومن حسبهم؛ لأنه إذا كان من غير جوهرهم لم يظهر لهم الآية من غير الآية، ولا الحجة من الشبهة؛ لأنه إذا خرج على غير المعتاد والطوق عرفوا أنه آية، وأنه حجة؛ إذ لا يعرفون من غير جوهرهم الخارج عن المعتاد والطوق، ويعرف ذلك من جوهرهم، وكذلك يعرف صدق من نشأ بين أظهرهم من كذبه، ولا يعرف إذا كان من غيرهم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ .

قال بعضهم: الحلال والطيب: واحد، وهو الحلال، كأنه قال: كلوا ما أحل لكم؛ كقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء:٣]، أي: ما حل لكم. وقال بعضهم: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: حلالاً يطيب لكم ما تتلذّذون به؛ لأن من الحلال ما لا تتلذذ به النفس ولا

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٢)، عن ابن عباس قال: نصر رسول الله بالرعب على عدوه مسيرة شهرين.

وقال الهيثمي: وفيه إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ،وهو ضعيف.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن (٢٤٩).

تستطيب؛ بل تكره، وقوله: تستطيب له أنفسكم وتتلذذ به، لا ما تستخبث [به][1]؛ لأنّ الله جعل غذاء البشر ما هو أطيب وألذ، وجعل للبهائم والأنعام ما هو أخبث وأخشن؛ لأن ما هو أطيب أدعى للشكر له.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ : لا تبعةَ عليكم.

وفي الآية دلالة أنه قد يرزق ما يخبث ولا يحل على ما يختارهُ؛ حيث شرط فيه الحلال.

وقوله - عزّ وجلّ-: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

الشكر له عليهم لازم، وإن لم تعبدوا؛ وهو كقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]: طاعته وطاعة رسوله واجبة، وإن لم يكونوا مؤمنين، أو يقول: وجّهوا شكر نعمه إليه إن كنتم عابدين له بجهة، أي: افعلوا العبادة له والشكر في الأحوال كلها.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

أي: حرم أكل الميتة وما ذكر؛ كأنه قال هذا، وذكر على أثر تحريمهم أشياء أحل لهم - لحومًا حرموا على أنفسهم - أشياء أحل لهم: من الزرع والأنعام، والبحيرة والسائبة، وما ذكر؛ فقال: لم يحرم ذاك؛ ولكن إنما حرّم ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه، على هذا يجوز أن يخرج تأويله، وأمّا على الابتداء فإنه يبعد، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ .

إلى ما ذكر من المحرمات.

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ .

على ما نهى عنه، وهو الشبع؛ كقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَا عَادٍ﴾ .

إليه. وقال بعضهم: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ : يستحله في دينه؛ فلا عاد ولا متعدٍّ في أكله.

وقال بعضهم: غير باغ: على المسلمين مفارق بجماعتهم مُشَاقٌّ لهم، ولا عاد: عليهم؛ يستفهم، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم وأقاويلهم.

وأمّا تأويله عندنا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ : على المسلمين سوى دفع الإهلاك عن نفسه، ﴿وَلَا

(١) سقط في أ.

عَادٍ﴾ : متعد ومتجاوز اضطراره، ولا يحتمل ما قاله بعض الناس: غير باغ على الناس ولا متعد عليهم؛ لوجهين:

أحدهما: أنه لا يحتمل البغي على الناس في حال الاضطرار؛ لأنه لا يقدر عليه والحال ما ذكر.

والثاني: أنه - وإن كان باغيًا على ما ذكروا - لم يبح له التناول من الميتة؛ يكون باغيًا على نفسه؛ لأنه إن لم يتناول هلكت نفسه؛ فيصير باغيًا على نفسه فدلّ أنّه على ما ذكرنا.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ يحتمل: أي: لا تعودوا إلى ما وصفت ألسنتكم من الكذب هذا حلال وهذا حرام، وألا تقولوا الكذب الذي تصفه ألسنتكم: هذا حلال وهذا حرام.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: لا تقولوا لما أحللتموه: هذا حلال، ولما حرمتموه: هذا حرام، وهو كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ...﴾ الآية [يونس: ٥٩].

وفي هذه الآية دلالة ألا يسع[1] لأحد أن يقول: هذا مما أحله الله وهذا مما حرمه الله؛ إلا بإذن من الله ، ومن يقول بأن الأشياء في الأصل على الإباحة أو على الحظر؛ فهو مفتر بذلك على الله الكذب؛ لأن الله لم يأذن له أن يقول ذلك؛ بل نهاه عن ذلك مما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ .

أي: تكونوا مفترين على الله الكذب إذا قلتم ذا.

فإن قيل: كيف سماهم مفترين على الله بتسميتهم الحرام حلالًا، والحلال - حرامًا؟

قيل: لأن التحليل والتحريم، والأمر والنهي - ربوبية، فإذا حرموا شيئًا أحله الله ، أو أحلوا شيئًا حرّمه الله - فكأنهم على الله افتروا أنه حرم أو أحل، أو حرموا هم وأحلوا فأضافوا ذلك إلى الله - تعالى - أنه هو الذي حرم أو أحل فقد افتروا على الله ؛ لأن من أحلّ شيئًا حرمه الله ، أو حرم شيئًا أحلّه الله - فقد كفر وليس من انتفع بالمحرم، أو ترك الانتفاع بالمحلل - كفر؛ إنما يصير آثمًا مجرمًا، وكذلك تارك الأمر ومرتكب النهي.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ .

---

(١) في أ: يسمح.

في تحليل ما حرم عليهم، وفي تحريم ما أحله، وقوْلهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ .

أي: لا يفلحون وهم مفترون على الله ، وأمّا إذا انتزعوا من الافتراء وتابوا أفلحوا، ولا يفلحون في الآخرة؛ إذا كانوا مفترين على الله في الدنيا.

ثم قوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ .

على الابتداء؛ وإنما سمّى قليلًا - والله أعلم - لوجوه:

أحدها: أن متاع الدنيا على الزوال والانقطاع؛ فكل ما كان على شرف الزوال والانقطاع فهو قليل، كما قيل لكلّ آتٍ: قريبٌ؛ لما يأتي لا محالة؛ فعلى ذلك كل زائِل منقطع - قليلٌ.

والثاني: سمي قليلًا؛ لما هو مشوب بالآفات والأحزان وأنواع البلايا والشدائِد؛ فهو قليل في الحقيقة، أو أنّه سمّاه قليلًا؛ لما أن متاع الدنيا قليل عما وعَدَ في الآخرة؛ فمتاعها من متاع الآخرة قليل؛ لما ليس فيها الوجوه التي ذكرنا، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ .

وهو ما قصّ في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ ، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ...﴾ الآية [النساء: ١٦٠].

طوقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

بتحريم ما حرمنا عليهم؛ لأنا إنما حرمنا عليهم تلك الطيبات عقوبة لهم، وهو ما قال في سورة النساء، وهو قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وهو ما قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أخبر أنه إنما حرم عليهم ذلك؛ بظلم كان منهم عقوبة وجزاء لبغيهم، لكن هم ظلموا أنفسهم في ذلك.

أو أن يكون قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ ؛ لأنهم عبيده وإماؤه؛ ولله أن يمتحن عباده وإماءه بتحريم مرة، وبتحليل ثانيًا، ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث وجهوها إلى غير مالكها، أو صرفوا شكر ما أنعم عليهم إلى غيره.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ .

أي: عمل السوء بجهالة، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن الفعل فعل جاهل وسفيه وإن لم يجهل؛ يقال لمن عمل السوء: يا جاهل يا سفيه.

والثاني: جهل ما يحل به بعمله السوء.

ثم [قوله][١] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ...﴾ إلى آخره، يمكن[٢] أن يكون في الآية إضمار لم يذكر؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ ثم كرر ذلك الحرف على الابتداء من غير أن ذُكر له جواب، وهو قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فظاهر الجواب أن يقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ على ما ذكرنا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟...﴾ الآية [النحل: ١١٠]؛ لكن يخرج على الإضمار، أو على التكرار: على إرادة التأكيد، أو على الابتداء والاكتفاء بجواب ذكره في موضع آخر.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هذا - والله أعلم - جوابه، أي: إن ربك من بعد التوبة لغفور رحيم، فهمُوا قبل أن يعمل السوء، والعرب قد تكرر أشياء على إرادة التأكيد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾.

قال عبد الله بن مسعود[٣]: الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: المطيع لله.

وقال بعضهم: أمة قانتًا، أي: مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار.

وقال بعضهم[٤]: كان أمة، أي: إمامًا يقتدى به [في كل خير؛ كقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) سقط في أ.

(٢) في ب: يجيء.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٩٧٠)و(٢١٩٧٥)، وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه ،كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٣).

(٤) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١٩٨٢)، وابن أبي حاتم عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٣).

وقال الحسن: كان أمة، أي سنة يقتدى به[(١)][(٢)].

ويحتمل أن يكون سماه: أمّة، لما كان كالأمّة والجماعة من القيام مع الأعداء؛ لأنه، وإن كان منفردًا وحده، فكان قيامه مع الأعداء والأكابر منهم كالجماعة والأمة، والممتنع عنهم كالمتفرد. وأصل الأمة؛ قيل: الجماعة والعدد.

ويحتمل قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، أي: مجمع كل خير وكل طاعة؛ لما عمل هو من الخير عمل الجماعة، واجتمع فيه كل خير؛ فسميّ أمّة لهذا الذي ذكرنا، أو أن يكون تفسير الأمة ما ذكر على أثره: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، والقانت، قيل[(٣)]: المطيع، والقنوت [هو القيام][(٤)] - كما ذكر - أنه سئل عن أفضل الصلاة؛ فقال: «طولُ القُنُوتِ»[(٥)]؛ أي:

(١) (أمة): تطلق الأمة على الرجل الجامع لخصال محمودة؛ قال ابن هانئ: [السريع]

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وقيل: (فعلة) تدل على المبالغة، (فعلة) بمعنى لمفعول، كالدخلة والنخبة، فالأمة: هو الذي يؤتم به؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال مجاهد: كان مؤمنا وحده، والناس كلهم كانوا كفارا، فلهذا المعنى كان وحده أمة، وكان رسول الله ﷺ يقول في زيد بن عمرو بن نفيل: (يبعثه الله أمة وحده).

وقيل: إنه - صلوات الله وسلامه عليه- هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماها الله تعالى بالأمة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب.

وعن شهر بن حوشب: لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر، يدفع الله بهم البلاء عن أهل الأرض، إلا زمن إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه- فإنه كان وحده، والأمة تطلق على الجماعة؛ لقوله -تعالى-: ﴿أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]وتطلق على أتباع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ؛ كقولك: نحن من أمة محمد ﷺ ، وتطلق على الدين والملة؛ كقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتطلق على الحين والزمان؛ كقوله- تعالى-: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، وقوله- جل ذكره-: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد حين، وتطلق على القامة، يقال: فلان حسن الأمة، أي: حسن القامة، وتطلق على الرجل المنفرد بدين لا يشرك فيه غيره؛ كقوله- عليه الصلاة والسلام- : «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل يوم القيامة أمة وحده»، وتطلق على الأم، يقال: هذه أمة فلان يعني: أمه، وتطلق أيضاً على كل جنس من أجناس الحيوان؛ لقوله- عليه الصلاة والسلام-: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها». ينظر: اللباب (١٢/ ١٨٢، ١٨٣)

(٢) مابين المعقوفين سقط في ب.

(٣) هو قول الشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير، أخرجه ابن جرير عنهم (٢١٩٧٦) و(٢١٩٨٠) و(٢١٩٨١)، وهو قول ابن مسعود كما تقدم.

(٤) سقط في أ.

(٥) أخرجه مسلم (١/ ٥٢٠)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب أفضل الصلاة طول القنوت (١٦٤/ ٧٥٦)، والترمذي (١/ ٤١٢)، أبواب الصلاة باب: ما جاء في طول القيام في الصلاة (٣٨٧)، وابن ماجه (١/ ٥٣٣)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢١)، وأحمد (٣/ ٣٩١)، والبيهقي (٣/ ٨)، من حديث جابر بن عبد الله.

طول القيام؛ فعلى هذا: المعنى: هو القائم لله في كل ما يعبده وأمر به.

وقيل: ﴿أُمَّةً﴾ ، أي: دينًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، أي: دينكم دينًا واحدًا.

وقوله - عز وجل -: ﴿حَنِيفًا﴾.

قيل: الحاج، وقيل: الحنيف: المسلم، وقيل: المخلص، وفيه كل ذلك: كان حاجًا مسلمًا مخلصًا لله ، وأصل الحنف: الميل، أي: كان مائلًا إلى أمر الله وما يعبده به، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

لا شك أنه لم يكن من المشركين، لكنه ذكر هذين الوجهين.

أحدهما: لما ادعى كل أهل الأديان أنهم على دينه وانتسب كل فرقة إليه فبرّأه الله من ذلك، وأخبر أنه ليس على ما هم عليه من الدين؛ وهو ما قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...﴾ الآية [آل عمران: ٦٧].

والثاني: ذكر هذا: أنه لم يكن من المشركين بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧]؛ لأنه هو كان ذلك عنه على ظاهر ما نطق: كان ذلك في الظاهر إشراكًا، ففيه مشبه في ظاهره؛ فبرأه الله عن ذلك وأخبر أن ذلك منه لم يكن إشراكًا، ولكن على المحاجة خرج ذلك منه محاجة قومه؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ .

أي: لم يصرف شكر نعمه إلى غير المنعم، بل صرف شكرها إلى منعمها، والشكر في الشاهد هو المكافأة[١]، ولا يبلغ أحد من الخلائق في المرتبة التي يكافئ الله في أصغر نعمة أنعمها عليه، ولا يتفرغ أحد عن أداء ما عليه من إحسان الله عليه فضلًا أن يتفرغ لمكافأته؛ لكن الله - عز وجل - بفضله ومنّه سمىّ ذلك شكرًا، وإن لم يكن في الحقيقة شكرًا؛ كما ذكر الصدقة التي تصدّق بها العبد إقراضًا كما سمى تسليمه لنفسه وبذله الأمر لله - شراء، وإن كانت أنفسهُم وأموالهم في الحقيقة - له، ولا يطلب المرء في العرف القرض من عبده، وكذلك شراء؛ لكنّه بلطفه [وفضله][٢] عامل عباده معاملة من لا ملك له في أنفسهم وأموالهم؛ فعلى ذلك في تسمية الشكر؛ والله أعلم.

---

(١) في أ: المكافآت.
(٢) سقط في أ.

وقوله - عز وجل -: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ .

قال بعضهم: لرسالته ونبوته، واجتباه من بين ذلك القوم وجعله إمامًا يقتدى به.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ .

وهو دين الإسلام، وهو ما ذكر: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا...﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ .

قال بعضهم[١]: الثناء الحسن، وقال بعضهم[٢]: الحسنة في الدنيا؛ لأن جميع أهل الأديان يتولّونه ويرضونه.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، أي: ما آتاه الله - لم يؤته إلا حسنة؛ على ما ذكر في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١] - أي: ما آتيتناه في الدنيا، آتنا كلها حسنة؛ لأن قوله: ﴿حَسَنَةٗ﴾ إنما هي اسم حسنة واحدة أو أن يكون ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ عند قبض روحه، أي: على الحسنة قبض روحه.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

أي: لم ينقص ما آتاه في الدنيا عما يؤتيه في الآخرة، وقال بعضهم في قوله[٣]: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ : النبوة والرسالة، أو أن يقال: إنّه لم يبين الحسنة التي أخبر أنه آتاها إياه؛ لكنه خصّ به كما هو خص في قوله: اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم[٤]. قد كان من إبراهيم معنى؛ حتى خص الله إبراهيم به من بين غيره؛ فذلك الأوّل، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ .

أي: دين إبراهيم وسبيله، وذكر في بعض الأخبار عن نبي الله ﷺ أنه قال جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم - صلوات الله على نبينا وعليه - يوم التروية، فراح به إلى منى فعلمه المناسك كلها، وأراه أباه، فأوحى الله إلى محمد ﷺ: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [٥]؛ فنحن أمرنا أن نتبع ملّته في الحج وفي غيره.

(١) قاله البغوي (٣/ ٨٩).

(٢) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير (٢١٩٨٧)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٣).

(٣) قاله البغوي (٣/ ٨٩).

(٤) قاله مقاتل بن حيان بنحوه، كما في تفسير البغوي (٣/ ٨٩).

(٥) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو بنحوه ، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٤).

وأصل الملّة: الدّين، والله أعلم؛ كقوله: «لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ»[١]، أي: أهل دينين.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ .

قال بعضهم[٢]: اختلافهم؛ وذلك أن موسى - عليه السلام - أمر بني إسرائيل أن يتفرغوا في كل سبعة أيام يومًا للعبادة، وهو يوم الجمعة، وينزعوا فيه عمل دنياهم؛ فقالوا: نتفرغ يوم السبت؛ فإن الله لم يخلق يوم السبت شيئًا؛ فقال فريق منهم: انظروا إلى ما يأمركم نبيّكم؛ فخذوا به، فذلك اختلافهم؛ فجعل لهم يوم السبت على ما سألوا، فاستحلوا فيه المعاصي؛ فحرم الله عليهم العمل فيه؛ عقوبة لهم.

وقال الحسن وقتادة: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ ، أي: إنما لعن في السبت؛ فمسخوا قردة ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ ، وكان اختلافهم أنه حرمه بعضهم، واستحله بعضٌ.

وقال أبو بكر: اختلافهم كان في تكذيب الرسل والأنبياء فمنهم من صدق، ومنهم من كذب؛ فحرم عليهم يوم السبت؛ عقوبة [لهم][٣]؛ أو أن يكون اختلافهم ما سألوا موسى من الآيات العجيبة والأسئلة الوحشة؛ كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، وأبو داود (٣/ ٣٢٨) كتاب: الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر، حديث (٢٩١١)، وابن ماجه (٢/ ٩١٢) كتاب: الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، حديث (٢٧٣١)، وسعيد بن منصور في سننه رقم (١٣٧)، وابن الجارود في المنتقى رقم (٩٦٧)، والدارقطني (٤/ ٧٥) كتاب: الفرائض، حديث (٢٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٨٢)، والبيهقي (٦/ ٢١٨) كتاب: الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٧٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٢٩٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ١٧٢) كلهم من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين شتى».

والحديث صححه ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٥)، فقال: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وإسناد أبي داود والدارقطني إسناد صحيح ا هـ.

قال الألباني في إرواء الغليل (٦/ ١٢١): وهذا سند حسن ا هـ، وللحديث شاهد من حديث جابر:

أخرجه الترمذي (٤ / ٤٢٤) كتاب: الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين، حديث (٢١٠٨) من طريق ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين»، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه من حديث جابر إلا من حديث ابن أبي ليلى.

وضعفه ابن الملقن في «الخلاصة» (٢/ ١٣٥)، فقال: رواه الترمذي من رواية جابر بإسناد ضعيف.

(٢) قاله الكلبي كما في تفسير البغوي (٣/ ٩٠)، وعن السدي أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٤).

(٣) سقط في أ.

[البقرة: ٥٥]، وكقوله: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ونحوه بعدما أقام عليهم من الآيات ما كانت لهم فيها كفاية فيشبه أن يكون اختلافهم الذي ذكر ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾: يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿إنما جعل محنة السبت على الذين اختلفوا فيه﴾، أي: على الذين فسقوا فيه؛ حيث قال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

والثاني: إنما جعل عقوبة السبت على الذين اعتدوا فيه دون الذين اختلفوا فيه؛ لأن فريقًا منهم قد نهوهم عن ذلك، وفريقًا قد اعتدوا؛ فأهلك الذين اعتدوا دون الذين نهوهم.

وقوله: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾: يحتمل فيه، أي: في موسى، أو في يوم السبت الذي اختلفوا فيه وعوقبوا فيه، والله أعلم.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

يحكم بينهم بالجزاء، ويحكم بما بين لهم المحق من المبطل:

[لكن لو قيل: قد بين في الدنيا: بين المحق من المبطل؛ حيث أهلك][1] فريقًا؛ وأنجى فريقًا؛ فكيف قال: يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؟ لكن يشبه أن يكون ذلك بالجزاء على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

قيل: دين ربك.

﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

قال الحسن: الحكمة: القرآن[2]، أي: ادعهم إلى دين الله بالقرآن.

وقال بعضهم: بالحكمة: بالحجة والبرهان، أي: ادعهم إلى دين الله بالحجج والبراهين؛ أي: ألزمهم دين الله بالحجج والبراهين؛ حتى يقروا به.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾.

قال الحسن: أي عظهم بالمواعظ التي وعظهم الله - تعالى - في الكتاب.

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره البغوي (٣/ ٩٠)، ولم ينسبه لأحد.

وقال أبو بكر: أي ذكرهم النعم التي أنعم عليهم، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، أي: جادلهم أحسن المجادلة بلين القول، وخفض الجانب والجناح؛ لعلهم يقبلون دينهم، ويخضعون لربهم.

وكذلك اختلفوا في قوله: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ [آل عمران: ٨١]: قال الحسن: الكتاب والحكمة: واحد؛ اسم شيء، وهو القرآن.

وقال بعضهم: الكتاب هو القرآن، وهو سماع الوحي، والحكمة: وحي الإلهام، وهو السنة.

وقال بعضهم: الكتاب: هو التنزيل، والحكمة: هي المعنى المودع فيه؛ فمن يقول: إن الكتاب والحكمة واحد، وهي القرآن يقول في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾: القرآن، ومن يقول عنه: إنهما غيرٌ - يقول - هاهنا -: إنّ الحكمة: الحجة والبرهان، إمّا من جهة الإلهام أو من جهة الانتزاع من الكتاب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾: التي ذكر في هذه السورة؛ من ذلك قوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [النحل: ٦٩]: يعني: من بطون النحل، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وما ذكر أنه يخرج من الخشب اليابسة - الأعناب وأنواع الثمرات ونحوه؛ فذلك كله بحكمته، أي: ادعهم إلى دينه وذكرهم بهذا، وهم يقرون به؛ ليقبلوا دينه ويخضعوا لأمره.

والموعظة الحسنة: ما ذكر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ...﴾ الآية [النحل: ٩٠]، وذلك كله مستحسن في العقل وتوجبه الحكمة؛ لأن العدل والإحسان، وما ذكر من إيتاء ذي القربى - الصدقة - مستحسن في عقل كل أحد. والانتهاء - أيضًا - عن الفحشاء والمنكر مستحسن، مستقبح ارتكابه وإتيانه؛ كأن الحكمة هي التي تشتمل على العلم والعمل جميعًا؛ كأنه قال: ادعهم إلى دين الله بالعلم والعمل جميعًا؛ حتى ينجع ذلك فيهم؛ أو: ادعهم باللّين وخفض الجناح مرة، [و] بالعنف والخشونة ثانيًا؛ فيكون وضع الشيء موضعه، ثم قال: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله - عز وجلّ -: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

يحتمل - والله أعلم - أي: جادلهم بالذى يقرون على ما ينكرون، وهو ما ذكر: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ...﴾ الآية [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾

[النحل:٧٣]، وقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا...﴾ الآية [النحل:٧٥]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ الآية [النحل:٧٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ...﴾ الآية [النحل: ٧١]، ونحو هذا.

يجادلهم بأحسن المجادلة بالذى يقرون أنه كذلك على الذي ينكرون؛ فيلزمهم القبول والخضوع له.

ثم في الآية دلالة تعليم المناظرة في الدين وكيفية المعاملة - بعضهم لبعض - فيها؛ حيث قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ : التي عنده بالقرآن أو غيره من الحجج والبينات، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ : هكذا يجب أن يناظر بعضهم بعضًا بالوجه الذي وصف الله، وعلى ذلك ما ذكر الله في كتابه: مناظرة الأنبياء والرسل مع الفراعنة والأكابر، وهو ما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ...﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى آخر ما ذكر، وقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ...﴾ الآية [الأنعام:٨٠]، [و] مناظرة فرعون مع موسى - صلوات الله عليه - حيث قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية [الشعراء:٢٣، ٢٤]، ولما قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء:٢٨]، وقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٣١، ٣٢]، وما قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩، ٥٠] وأمثاله ممّا يكثر، فهذه مناظرة الرسل والأنبياء مع الفراعنة والأعداء؛ فكيف المناظرة بين الأولياء؟! فهذا كله يردّ على من يأبى المناظرة في الدين ويمتنع عن التكلم فيه والاحتجاج.

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ .

في الآية نسبتهم إلى الضلال إشارة وكناية لا تصريحًا؛ لأنه لم يقل لهم مصرحًا: إنكم قد ضللتم عن سبيله؛ لحسن معاملته التي علم رسوله وأمره أن يعاملهم؛ لأن ذلك أقرب إلى القبول وأَمْيل إلى القلوب وآخذ[1]؛ ألا ترى أنه قال لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ .

اختلف في سبب نزول ذلك:

---

(١) في أ: وأحن.

قال بعضهم: [نزلت][(١)] في أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك أن نفرًا منهم قد مثلوا يوم أحد مثلة سيئة: من قطع الآذان، وتجديع الأنوف، وبقر البطون، ونحوه؛ فقال أصحابهم: لئن أدالنا الله منهم لنفعلن ولنفعلن كذا وكذا. فأرادوا أن يجازوا بذلك؛ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ...﴾ الآية [النحل: ١٢٦][(٢)].

وفيه البشارة لهم بالنصر والظفر على أعدائهم؛ لأنه لو لم يكنْ لهم الظفر فكيف يقدرون على معاقبة مثل ما عاقبوا؛ دل أنه على البشارة لهم بالنصر والظفر بهم. وفيه دلالة جواز أخذ من لم يتولّ القتل والأخذ والضرب؛ لما لعلهم لا يظفرون بأولئك الذين تولّوا ذلك، لكن لا يؤاخذ إخوانهم بهم؛ لما بمعونة بعضهم بعضًا فيها، ويكون فيه دليل أخذ قطاع الطريق بالقتل والقطع، وإن كان الذي تولّى ذلك بعضٌ منهم؛ لما أن من تولّى ذلك إنّما تولى بمعونة من لم يتول.

وقال بعضهم[(٣)]: إنما نزلت الآية في ابتداء الأمر الذي كان القتل مع الكفرة قتل مجازاة؛ مثل قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وكقوله: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، ومثله؛ فإذا كان على المجازاة أمر ألا يتجاوزوا عقوبتهم، ولكن بمثله، وأمّا إذا كان القتال معهم لا قتال مجازاة فإنهم يقتلون جميعًا إذا أبوا الإسلام؛ بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ الآية [التوبة: ٢٩]، وقوله - عليه السلام -: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله»[(٤)]، وقوله - تعالى - ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

وقال بعضهم[(٥)]: لا، ولكن قد نزلت في أهل الإسلام، وحكمه في القصاص والقطع فيما دون النفس والجراحات: أمر ألا يتجاوزوا حقوقهم؛ كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقوله:

---

(١) سقط في أ.

(٢) ورد في هذا المعنى أحاديث عن أبي بن كعب وأبي هريرة وابن عباس.
حديث أبي بن كعب: أخرجه الترمذي وحسنه، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، و النسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل.
حديث أبي هريرة: أخرجه ابن سعد والبزار وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل.
حديث ابن عباس: أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، وهي جميعها في الدر المنثور (٤/ ٢٥٥)، وهو قول الشعبي وعطاء بن يسار وقتادة وابن جريج.

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير (٢٢٠٠١)، وابن مردويه عنه، كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٦).

(٤) تقدم.

(٥) قاله محمد بن سيرين بنحوه، أخرجه ابن جرير (٢٢٠٠٣)، وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٥٦)، وهو قول إبراهيم والحسن وعبد الرزاق وسفيان ومجاهد.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى . . .﴾ الآية [البقرة: ١٧٨](١).

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾.

على ذلك.

﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ أي: الصبر خير ﴿لِّلصَّابِرِينَ﴾.

ودل قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ على أن الآية في القصاص لا في الحرب؛ لأنه في الحرب لا يقال اصبر ولا تصبر، بل يكون الصبر جهادًا؛ دل أنه في غير المحاربة، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

أي: ما توفيقك على الصّبر إلا بالله؛ كقول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ . . .﴾ الآية

---

(١) قال الواحدي- رحمه الله-: هذه الآية فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وأبي بن كعب والشعبي- رضي الله عنهم-: أن النبي (لما رأى حمزة وقد مثلوا به، قال: « والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك»؛ فنزل جبريل - صلوات الله وسلامه عليه- بخواتيم سورة النحل، فكف رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد؛ وعلى هذا قالوا: سورة النحل مكية إلا هذه الثلاث آيات.

والقول الثاني: أن هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد، حين كان المسلمون لا يبدءون بالقتال، ولا يقاتلون إلا من قاتلهم، ويدل عليه قوله- تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي هذه الآية أمروا بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا، فلما أعز الله الإسلام وأهله، نزلت «براءة» وأمروا بالجهاد، ونسخت هذه الآية، قاله ابن عباس والضحاك.

والقول الثالث: أن المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم، وهذا قول مجاهد، والنخعي، وابن سيرين.

وقال ابن الخطيب: وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها، يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله - تعالى - وهو في غاية البعد، بل الأصوب عندي أن يقال: إنه - تعالى - أمر محمدا بدعوة الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة، وهي الحكمة، والموعظة، والجدال بالطريق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، والحكم عليهم بالكفر والضلالة، وذلك مما يشوش قلوبهم، ويوحش صدورهم، ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانياً، وبالشتم ثالثاً، ثم إن ذلك الداعي المحق إذا تسمع تلك السفاهات، لابد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء، تارة بالقتل، وتارة بالضرب، فعند هذا أمر المحققين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف، وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه.

فإن قيل: فكيف تقدحون فيما روي أنه - صلوات الله وسلامه عليه- ترك العزم على المثلة، وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية؟

قلنا: لا حاجة إلى القدم في تلك الرواية؛ لأنا نقول: تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية، فيمكن التمسك بتلك الواقعة بعموم هذه الآية، وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى.

ينظر: اللباب (١٢/١٨٨، ١٨٩).

[هود: ٨٨].

والثاني: واصبر وما صبرك إلا بالله، أي: تركك القصاص لأمر الله؛ حيث أمرك به، لا لضعف أو عجز فيك.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

قال: إنه كان يحزن ويضيق صدره؛ لمكان كفرهم بالله، وتركهم الإيمان بالله؛ كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]؛ فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: لذلك على التسلي والتخفيف لا على النهي عن ذلك.

ويحتمل: أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: على المؤمنين الذين قتلوا واستشهدوا؛ لأنهم مستبشرون فرحون عند ربهم بما آتاهم الله من فضله [؛ كقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾][1] أي: لا تحزن عليهم، وهم فيما ذكر.

أو لا تحزن على المؤمنين، ولا يضيقن صدرك مما يمكر بك أولئك الكفرة؛ إذ كانوا يكفرون برسول الله وبأصحابه ويؤذونهم، أخبر أن لا يضيقن صدرك لذلك.

وقال بعضهم: نزلت في أمر حمزة سيّد الشهداء: أنه مثل به وجرح جراحات عظيمة؛ فاشتد على النبي ﷺ فقال: «لَئِنْ ظَفِرْنَا بِأُولَئِكَ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَلَنَفْعَلَنَّ كَذَا»؛ فنزلت الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ...﴾[2]، لكن إن ثبت هذا فإنه يكون في الوقت الذي كان يؤخذ غيره - القاتل والجارح - بالقتل، وذلك قد كان في الابتداء؛ ألا ترى أنه قال: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ...﴾ [البقرة: ١٧٨]: كانوا همّوا أن يأخذوا الحرّ بالعبد والذكر بالأنثى، حتى نزل هذا فصار منسوخًا به، وبقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ولو كان يؤخذ غير القاتل بالقصاص -لم يكن فيه حياة، أو إن قالوا في الحرب مع الكفرة فذلك لا يحتمل؛ لأنه في الحرب لهم أن يقتلوا الكل، وألا يتركوا واحدًا منهم؛ دلّ أنه يخرج على أحد وجهين:

على النسخ الذي ذكرنا.

أو على النهي عن أخذ أكثر من حقه، وكقوله: ﴿فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٤].

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾.

---

(١) سقط في أ.
(٢) تقدم.

[يحتمل: اتقوا][1] مخالفة الله ورسوله بالنصر لهم والعون؛ فإن الله ناصركم ومعينكم عليهم.

وقوله - عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

في العمل والتوحيد، أو يقول: إن الله مع الذين اتقوا محارم الله وارتكاب مناهيه بالنصر لهم والمعونة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

إلى نعم الله - عزّ وجلّ - بالقيام بالشكر لها.

وبالله التوفيق، وصلى الله - تعالى - على سيدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) سقط في أ.

فهرس المحتويات

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة النحل



TAʾWĪLĀT AHL AS-SUNNAH

(The exegesis of the Holy Qurʾān)

by

Al-Imām Abu Manṣūr Al-Māturīdi

Edited by

Dr. Majdi Bāsallūm

Volume VI

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon






الماتريدي
تأويلات أهل السنة
أول يونس
آخر النحل
٦
دار
الكتب
العلمية
بيروت